البداية والنهاية

في التاريخ

للامام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل

ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء الثالث عشر



مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة ﴾

فيها كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى .

استهلت هذه السنة وهو فى غاية الصحة والسلامة ، وخرج هو وأخوه العادل إلى الصيد شرقى دمشق ، وقد اتفق الحال بينه و بين أخيه أنه بعد ما يفرغ من أمر الفرنج يسير هو إلى بلاد الروم ، و يبعث أخاه إلى بغداد ، فاذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد آذربيجان ، بلاد العجم ، فانه ليس دونها أحد يمانع عنها ، فلما قدم الحجيج فى يوم الاثنين حادى عشر صفر خرج السلطان لتلقيهم ، وكان معه ابن أخيه سيف الاسلام ، صاحب اليمن ، فأكرمه والتزمه ، وعاد إلى القلعة فدخلها من باب الجديد ، فكان ذلك آخر ما ركب فى هذه الدنيا ، ثم إنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر ، فلما أصبح دخل عليه القاضى الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل ، فأخذ يشكو إليهم كثرة قلقه البارحة ، وطاب له الحديث ، وطال مجلسهم عنده ، ثم تزايد به المرض واستمر ، وقصده الأطباء فى اليوم الرابع ، ثم اعتراه يبس وحصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض ، ثم قوى اليبس فأحضر الأمراء الأكابر فبويع لولده الأفضل نور الدين على ، وكان نائباً على دمشق ، وذلك عندما ظهرت مخايل الضعف الشديد ، وغيبوبة الذهن فى بعض الأوقات ، وكان الذين يدخلون عليه فى هذه الحال الفاضل وابن شداد وقاضى البلد ابن الزكى ، ثم اشتد به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، واستدعى الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده يقرأ

القرآن و يلقنه الشهادة إذا جد به الأمر ، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو فى الغمرات فقرأ (هو الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) فقال : وهو كذلك صحيح . فلما أذن الصبح جاء القاضى الفاضل فدخل عليه وهو فى آخر رمق ، فلما قرأ القارئ (لا إله إلا هو عليه توكلت) تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه ، ومات رحمه الله ، وأكرم مثواه ، وجعل جنات الفردوس مأواه ، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة ، لأنه ولد بتكريت فى شهور سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة ، رحمه الله ، فقد كان ردءاً للاسلام وحرزا وكهفا من كيد الكفرة اللئام ، وذلك بتوفيق الله له ، وكان أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لوفداه باولاده وأحبابه وأصحابه ، وقد غلقت الأسواق واحتفظ على الحواصل ، ثم أخذوا فى تجهيزه ، وحضر جميع أولاده وأهله ، وكان الذى تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعى ، وكان الذى أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضى الفاضل من صلب ماله الحلال ، هذا وأولاده الكبار والصغار يتباكون و ينادون ، وأخذ الناس فى العويل والانتحاب والدعاء له والابتهال ، ثم أبرز جسمه فى نعشه فى تابوت بعد صلاة الظهر ، وأم الناس عليه القاضى ابن الزكى ثم دفن فى داره بالقلعة المنصورة ، ثم شرع ابنه فى بناء تربة له ومدرسة للشافعية بالقرب من مسجد القدم ، لوصيته بذلك قديماً ، فلم يكمل بناؤها ، وذلك حين قدم ولده العزيز وكان محاصراً لأخيه الافضل كما سيأتى بيانه ، فى سنة تسعين وخمسمائة ، ثم اشترى له الأفضل داراً شمالى الكلاسة فى وزان مازاده القاضى الفاضل فى الكلاسة ، فجعلها تربة ، هطلت سحائب الرحمة عليها ، ووصلت ألطاف الرأفة إليها . وكان نقله إليها فى يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين ، وصلى عليه تحت النسر قاضى القضاة محمد بن على القرابى ابن الزكى ، عن إذن الأفضل ، ودخل فى لحده ولده الأفضل فدفنه بنفسه ، وهو يومئذ سلطان الشام ، و يقال إنه دفن معه سيفه الذى كان يحضر به الجهاد ، وذلك عن أمر القاضى الفاضل ، وتفاءلوا بأنه يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه ، حتى يدخل الجنة إن شاء الله . ثم عمل عزاؤه بالجامع الأموى ثلاثة أيام ، يحضره الخاص والعام ، والرعية والحكام ، وقد عمل الشعراء فيه مراثى كثيرة من أحسنها ما عمله العماد الكاتب فى آخر كتابه البرق السامى ، وهى مائتا بيت واثنان ، وقد سردها الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى الروضتين ، منها قوله :

شمل الهدى والملك عم شتاته * والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية * مرجوة رهباته وهباته ؟
أين الذى كانت له طاعاتنا * مبذولة ولربه طاعاته ؟
بالله أين الناصر الملك الذى * لله خالصة صفت نياته ؟
أين الذى ما زال سلطانا لنا * يرجى نداه وتتقى سطواته ؟

أين الذى شرف الزمان بفضله * وسمت على الفضلاء تشريفاته ؟
أين الذى عنت الفرنج لبأسه * ذلا ، ومنها أدركت ثاراته ؟
أغلال أعناق العدا أسيافه * أطواق أجياد الورى مناته

وله :

من للعلى من للذرى من للهدى * يحميه ؟ من للبأس من للنائل ؟
طلب البقاء لملكه فى آجل * إذ لم يثق ببقاء ملك عاجل
بحر أعاد البر بحراً بره * و بسيفه فتحت بلاد الساحل
من كان أهل الحق فى أيامه * و بعزه يردون أهل الباطل
وفتوحه والقدس من أبكارها * أبقت له فضلا بغير مساجل
ما كنت أستسقى لقبرك وابلا * ورأيت جودك مخجلا للوابل
فسقاك رضوان الإله لأننى * لا أرتضى سقيا الغمام الهاطل

﴿ ذكر تركته وشىء من ترجمته ﴾

قال العماد وغيره : لم يترك فى خزانته من الذهب سوى جرم واحد ـ أى دينار واحد ـ صوريا وستة وثلاثين درهماً . وقال غيره : سبعة وأربعين درهماً ، ولم يترك داراً ولا عقارا ولا مزرعة ولا بستانا ، ولا شيئا من أنواع الأملاك . هذا وله من الأولاد سبعة عشر ذكرا وابنة واحدة ، وتوفى له فى حياته غيرهم ، والذين تأخروا بعده ستة عشر ذكرا أكبرهم الملك الأفضل نور الدين على ، ولد بمصر سنة خمس وستين ليلة عيد الفطر ، ثم العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ولد بمصر أيضاً فى جمادى الأولى سنة سبع وستين ، ثم الظافر مظفر الدين أبو العباس الخضر ، ولد بمصر فى شعبان سنة ثمان وستين ، وهو شقيق الأفضل ، ثم الظاهر غياث الدين أبو منصور غازى ، ولد بمصر فى نصف رمضان سنة ثمان وستين ، ثم العزيز فتح الدين أبو يعقوب إسحاق ، ولد بدمشق فى ربيع الأول سنة سبعين . ثم نجم الدين أبو الفتح مسعود ، ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين وهو شقيق العزيز ، ثم الأغر شرف الدين أبو يوسف يعقوب ، ولد بمصر سنة ثنتين وسبعين ، وهو شقيق العزيز أيضاً ، ثم الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو شقيق الظاهر ، ثم أبو الفضل قطب الدين موسى ، وهو شقيق الأفضل ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين أيضا ، ثم لقب بالمظفر أيضاً ، ثم الأشرف معز الدين أبو عبد الله محمد ، ولد بالشام سنة خمس وسبعين ، ثم المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد ولد بمصر سنة سبع وسبعين ، وهو شقيق الذى قبله ، ثم المعظم فخر الدين أبو منصور توران شاه ولد بمصر فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين ، وتأخرت وفاته إلى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، ثم الجوال ركن الدين أبو سعيد أيوب ولد سنة ثمان وسبعين ، وهو شقيق للمعز ، ثم الغالب نصير

الدين أبو الفتح ملك شاه ، ولد فى رجب سنة ثمان وسبعين وهو شقيق المعظم ، ثم المنصور أبو بكر أخو المعظم لأبويه ، ولد بحران بعد وفاة السلطان ، ثم عماد الدين شادى لأم ولد ، ونصير الدين مروان لأم ولد أيضاً . وأما البنت فهى مؤنسة خاتون تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ابن أيوب رحمهم الله تعالى .

وإنما لم يخلف أموالا ولا أملاكا لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم ، حتى إلى أعدائه ، وقد تقدم من ذلك ما يكفى ، وقد كان متقللا فى ملبسه ، ومأكله ومركبه ، وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف ، ولا يعرف أنه تخطى إلى مكروه ، ولا سيما بعد أن أنعم الله عليه بالملك ، بل كان همه الأكبر ومقصده الأعظم نصرة الاسلام ، وكسر أعدائه اللئام ، وكان يعمل رأيه فى ذلك وحده ، ومع من يثق به ليلا ونهاراً ، وهذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل ، والفوائد الفرائد ، فى اللغة والأدب وأيام الناس ، حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها ، وكان مواظباً على الصلوات فى أوقاتها فى الجماعة ، يقال إنه لم تفته الجماعة فى صلاة قبل وفاته بدهر طويل ، حتى ولا فى مرض موته ، كان يدخل الامام فيصلى به ، فكان يتجشم القيام مع ضعفه ، وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة ، ويشارك فى ذلك مشاركة قريبة حسنة ، وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها ، وكان قد جمع له القطب النيسابورى عقيدة فكان يحفظها ويحفظها من عقل من أولاده ، وكان يحب سماع القرآن والحديث والعلم ، ويواظب على سماع الحديث ، حتى أنه يسمع فى بعض مصافه جزء وهو بين الصفين فكان يتبجبح بذلك ويقول : هذا موقف لم يسمع أحد فى مثله حديثا ، وكان ذلك باشارة العماد الكاتب . وكان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع الحديث ، وكان كثير التعظيم لشرائع الدين . كان قد صحب ولده الظاهر وهو بحلب شاب يقال له الشهاب السهروردى ، وكان يعرف الكيميا وشيئاً من الشعبذة والأبواب النيرنجيات ، فافتتن به ولد السلطان الظاهر ، وقربه وأحبه ، وخالف فيه حملة الشرع ، فكتب إليه أن يقتله لا محالة ، فصلبه عن أمر والده وشهره ، ويقال بل حبسه بين حيطين حتى مات كمدا ، وذلك فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وكان من أشجع الناس وأقواهم بدنا وقلباً ، مع ما كان يعترى جسمه من الأمراض والأسقام ، ولاسيما فى حصار عكا ، فانه كان مع كثرة جموعهم وأمدادهم لا يزيده ذلك إلا قوة وشجاعة ، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألف مقاتل ، ويقال ستمائة ألف ، فقتل منهم مائة ألف مقاتل .

ولما انفصل الحرب وتسلموا عكا وقتلوا من كان بها من المسلمين وساروا برمتهم إلى القدس جعل يسايرهم منزلة منزلة ، وجيوشهم أضعاف أضعاف من معه ، ومع هذا نصره الله وخذلهم ، وسبقهم إلى القدس فصانه وحماه منهم ، ولم يزل بجيشه مقيما به يرهبهم ويرعبهم ويغلبهم ويسلبهم حتى تضرعوا إليه

وخضعوا لديه ، ودخلوا عليه فى الصلح ، وأن تضع الحرب أو زارها بينهم و بينه ، فأجابهم إلى ماسألوا على الوجه الذى أراده ، لا على ما يريدونه ، وكان ذلك من جملة الرحمة التى رحم الله بها المؤمنين ، فانه ما انقضت تلك السنون حتى ملك البلاد أخوه العادل فعز به المسلمون وذل به الكافرون ، وكان سخيا جبيا ضحوك الوجه كثير البشر ، لا يتضجر من خير يفعله ، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات ، فرحمه الله [وقد ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة طرفا صالحاً من سيرته وأيامه ، وعدله فى سريرته وعلانيته ، وأحكامه .

فصل (١)]

وكان قد قسم البلاد بين أولاده ، فالديار المصرية لولده العزيز عماد الدين أبى الفتح ، ودمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين على ، وهو أكبر أولاده ، والمملكة الحلبية لولده الظاهر غازى غياث الدين ، ولأخيه العادل الكرك والشوبك و بلاد جعبر و بلدان كثيرة قاطع الفرات ، وحماه ومعاملة أخرى معها للملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن أخى السلطان، وحمص والرحبة وغيرها لأسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير، نجم الدين أخى أبيه نجم الدين أيوب. واليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه فى قبضة السلطان ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب ، أخى السلطان صلاح الدين ، و بعلبك وأعمالها للامجد بهرام شاه بن فروخ شاه ، و بصرى وأعمالها للظافر بن الناصر . ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف فى جميع هذه الممالك ، حتى آل الأمر واستقرت الممالك واجتمعت الكلمة على الملك العادل أبى بكر صلاح الدين ، وصارت المملكة فى أولاده كما سيأتى قريباً إن شاء الله تعالى .

وفيها جدد الخليفة الناصر لدين الله خزانة كتب المدرسة النظامية ببغداد ، ونقل إليها ألوفا من الكتب الحسنة المثمنة وفى المحرم منها جرت ببغداد كائنة غريبة وهى أن ابنة لرجل من التجار فى الطحين عشقت غلام أبيها فلما علم أبوها بأمرها طرد الغلام من داره فواعدته البنت ذات ليلة أن يأتيها فجاء إليها مختفيا فتركته فى بعض الدار ، فلما جاء أبوها فى أثناء الليل أمرته فنزل فقتله ، وأمرته بقتل أمها وهى حبلى، وأعطته الجارية حليا بقيمة ألفى دينار، فأصبح أمره عند الشرطة فمسك وقتل قبحه الله ، وقد كان سيده من خيار الناس وأكثرهم صدقة و براً ، وكان شابا وضىء الوجه رحمه الله .

وفيها درس بالمدرسة الجديدة عند قبر معروف الكرخى الشيخ أبو على التوبابى وحضر عنده القضاة والأعيان ، وعمل بها دعوة حافلة .

---

(١) بدل ما بين القوسين بياض بالنسخة المصرية .

ومن توفى فيها من الأعيان .

﴿ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ﴾

ابن شاذى ، وقد تقدمت وفاته مبسوطة ،

﴿ والأمير بكتمر صاحب خلاط ﴾

قتل فى هذه السنة ، وكان من خيار الملوك وأشجعهم وأحسنهم سيرة رحمه الله .

﴿ والأتابك عز الدين مسعود ﴾

ابن مودود بن زنكى ، صاحب الموصل نحواً من ثلاث عشرة سنة، من خيار الملوك ، كان بنسبه نور الدين الشهيد عمه ، ودفن بتربته عند مدرسة أنشأها بالموصل أثابه الله .

﴿ وجعفر بن محمد بن فطيرا ﴾

أبو الحسن أحد الكتاب بالعراق ، كان ينسب إلى التشيع ، وهذا كثير فى أهل تلك البلاد لا كثر الله منهم ، جاءه رجل ذات يوم فقال له رأيت البارحة أمير المؤمنين عليا فى المنام ، فقال لى : اذهب إلى ابن فطيرا فقل له يعطيك عشرة دنانير ، فقال له ابن فطيرا . متى رأيته ؟ قال : أول الليل ، فقال ابن فطيرا وأنا رأيته آخر الليل فقال لى : إذا جاءك رجل من صفته كذا وكذا فطلب منك شيئا فلا تعطه ، فأدبر الرجل موليا فاستدعاه و وهبه شيئا، ومن شعره فيما أورده ابن الساعى وقد تقدم ذلك لغيره :

ولما سبرت الناس أطلب منهم * أخاثقة عند اعتراض الشدائد
وفكرت فى يومى سرورى وشدتى * وناديت فى الأحياء هل من مساعد؟
فلم أر فيما ساءنى غير شامت * ولم أر فيما سرنى غير حاسد

﴿ يحيى بن سعيد بن غازى ﴾

أبو العباس البصرى النجرانى صاحب المقامات ، كان شاعراً أديباً فاضلا بليغا ، له اليد الطولى فى اللغة والنظم ، ومن شعره قوله :

غناء خود ينساب لطفا * بلا عناء فى كل أذن
ما رده قط باب سمع * ولا أتى زائراً باذن

﴿ السيدة زبيدة ﴾

بنت الامام المقتفى لأمر الله ، أخت المستنجد وعمة المستضىء ، كانت قد عمرت طويلا ولها صدقات كثيرة دارَّة ، وقد تزوجها فى وقت السلطان مسعود على صداق مائة ألف دينار ، فتوفى قبل أن يدخل بها ، وقد كانت كارهة لذلك ، فحصل مقصودها وطلبتها .

﴿ الشيخة الصالحة فاطمة خاتون ﴾

بنت محمد بن الحسن العميد ، كانت عابدة زاهدة ، عمرت مائة سنة وست سنين ، كان قد تزوجها في وقت أمير الجيوش مطر وهي بكر ، فبقيت عنده إلى أن توفي ولم تتزوج بعده ، بل اشتغلت بذكر الله عز وجل والعبادة ، رحمها الله .

وفيها أنفذ الخليفة الناصر العباسي إلى الشيخ أبي الفرج بن الجوزي يطلب منه أن يزيد على أبيات عدي بن زيد المشهورة مايناسبها من الشعر ، ولو بلغ ذلك عشر مجلدات ، وهي هذه الأبيات:

أيها الشامت المعير بالده * ر أأنت المبرأ الموفور؟
أم لديك العهد الوثيق من الا * أيام ، بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدت أم من * ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسر الملوك أبو * ساسان أم أين قبله سابور؟
وبنوا الأصفر الملوك ملوك الر * وم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ * دجلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلساً * فللطير في ذراه وكور
لم تهبه ريب المنون فزا * ل الملك عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ * أشرف يوماً وللهندى تكفير
سره حاله وكثرة ما * يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال وما * غبطة حي إلى الممات يصير
ثم بعد النعيم والملك والنهى والا * أمر وارتهم هناك قبور
ثم أضحوا كأنهم أورق جف * ت فألوت بها الصبا والدبور
غير أن الأيام تختص بالمرء * وفيها لعمرى العظات والتفكير

﴿ ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة ﴾

لما استقر الملك الأفضل بن صلاح الدين مكان أبيه بدمشق ، بعث بهدايا سنية إلى باب الخليفة الناصر ، من ذلك سلاح أبيه وحصانه الذي كان يحضر عليه الغزوات ، ومنها صليب الصلبوت الذي استلبه أبوه من الفرنج يوم حطين ، وفيه من الذهب مايُنيف على عشرين رطلا مرصعاً بالجواهر النفيسة ، وأربع جوارى من بنات ملوك الفرنج ، وأنشأ له العماد الكاتب كتابا حافلا يذكر فيه التعزية بأبيه ، والسؤال من الخليفة أن يكون في الملك من بعده ، فأجيب إلى ذلك .

ولما كان شهر جمادى الأولى قدم العزيز صاحب مصر إلى دمشق ليأخذها من أخيه الأفضل

نخيم على الكسوة يوم السبت سادس جمادى ، وحاصر البلد ، فمانعه أخوه ودافعه عنها ، فقطع الأنهار ونهبت الثمار ، واشتد الحال ، ولم يزل الأمر كذلك حتى قدم العادل عمهما فأصلح بينهما ، ورد الأمر للألفة بعد اليمين على أن يكون للعزيز القدس وما جاور فلسطين من ناحيته أيضا ، وعلى أن يكون جبلة واللاذقية للظاهر صاحب حلب ، وأن يكون لعمهما العادل أقطاعه الأول ببلاد مصر مضافا إلى مابيده من الشام والجزيرة كحران والرها وجعبر وماجاور ذلك ، فاتفقوا على ذلك ، وتزوج العزيز بابنة عمه العادل ، ومرض ثم عوفى وهو مخيم بمرج الصفر ، وخرجت الملوك لتهنئته بالعافية والتزويج والصلح ، ثم كر راجعاً إلى مصر لطول شوقه إلى أهله وأولاده ، وكان الأفضل بعد موت أبيه قد أساء التدبير فأبعد أمراء أبيه وخواصه ، وقرب الأجانب وأقبل على شرب المسكر واللهو واللعب ، واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزرى ، وهو الذى كان يحدوه الى ذلك ، فتلف وأتلفه ، وأضل وأضله ، وزالت النعمة عنهما كما سيأتى .

وفيها كانت وقعة عظيمة بين شهاب الدين ملك غزنة وبين كفار الهند ، أقبلوا إليه فى ألف ألف مقاتل ، ومعهم سبعمائة فيل منها فيل أبيض لم ير مثله ، فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديداً لم ير مثله ، فهزمهم شهاب الدين عند نهر عظيم يقال له الملاحون ، وقتل ملكهم واستحوذ على حواصله وحواصل بلاده وغنم فيلتهم ودخل بلد الملك الكبرى ، فحمل من خزائنه ذهبا وغيره على ألف وأربعمائة جمل ، ثم عاد إلى بلاده سالما منصورا .

وفيها ملك السلطان خوارزم شاه تكش ـ ويقال له ابن الأصباعى ـ بلاد الرى وغيرها ، واصطلح مع السلطان طغرلبك السلجوقى وكان قد تسلم بلاد الرى وسائر مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه ، وعظم شأنه ، ثم التقى هو والسلطان طغرلبك فى ربيع الأول من هذه السنة . فقتل السلطان طغرلبك ، وأرسل رأسه إلى الخليفة ، فعلق على باب النوبة عدة أيام ، وأرسل الخليفة الخلع والتقاليد إلى السلطان خوارزم شاه ، وملك همدان وغيرها من البلاد المتسعة .

وفيها نقم الخليفة على الشيخ أبى الفرج بن الجوزى وغضب عليه ، ونفاه إلى واسط ، فمكث بها خمسة أيام لم يأكل طعاما ، وأقام بها خمسة أعوام يخدم نفسه ويستقى لنفسه الماء ، وكان شيخا كبيرا قد بلغ ثمانين سنة ، وكان يتلو فى كل يوم وليلة ختمة . قال : ولم أقرأ يوسف لوجدى على ولدى يوسف ، إلى أن فرج الله كما سيأتى إن شاء الله .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ أحمد بن إسماعيل بن يوسف ﴾

أبو الخير القزوينى الشافعى المفسر ، قدم بغداد ووعظ بالنظامية ، وكان يذهب إلى قول الأشعرى فى الأصول ، وجلس فى يوم عاشوراء فقيل له : العن يزيد بن معاوية ، فقال : ذاك إمام

مجتهد ، فرماه الناس بالآجر فاختفى ثم هرب إلى قزوين .

﴿ ابن الشاطبى ناظم الشاطبية ﴾

أبو القاسم بن فسيرة بن أبى القاسم خلف بن أحمد الرعينى الشاطبى الضرير ، مصنف الشاطبية فى القراءات السبع ، فلم يسبق إليها ولا يلحق فيها ، وفيها من الرموز كنوز لا يهتدى إليها إلا كل ناقد بصير ، هذا مع أنه ضرير ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، و بلده شاطبة - قرية شرقى الأندلس - كان فقيرا ، وقد أريد أن يلى خطابة بلده فامتنع من ذلك لأجل مبالغة الخطباء على المنابر فى وصف الملوك ، خرج الشاطبى إلى الحج فقدم الأسكندرية سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة ، وسمع على السلفى وولاه القاضى الفاضل مشيخة الاقراء بمدرسته ، وزار القدس وصام به شهر رمضان ، ثم رجع إلى القاهرة ، فكانت وفاته بها فى جمادى الآخرة من هذه السنة ، ودفن بالقرافة بالقرب من التربة الفاضلية ، وكان ديناً خاشعا ناسكا كثير الوقار ، لا يتكلم فيما لا يعنيه ، وكان يتمثل كثيراً بهذه الأبيات ، وهى لغز فى النعش ، وهى لغيره :

أتعرف شيئا فى السماء يطير * إذا سار هاج الناس حيث يسير
فتلقاه مركوبا وتلقاه راكباً * وكل أمير يعتليه أسير
يحث على التقوى ويكره قربه * وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يستزر عن رغبة فى زيارة * ولكن على رغم المزور يزور

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ﴾

فيها كانت وقعة الزلاقة ببلاد الأندلس شمالى قرطبة ، بمرج الحديد ، كانت وقعة عظيمة نصر الله فيها الاسلام وخذل فيها عبدة الصلبان ، وذلك أن القيش ملك الفرنج ببلاد الأندلس ، ومقر ملكه بمدينة طليطلة ، كتب إلى الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب يستنخيه و يستدعيه و يستحثه إليه، ليكون من بعض من يخضع له فى مثالبه و فى قتاله ، فى كلام طويل فيه تأنيب وتهديد ووعيد شديد ،فكتب السلطان يعقوب بن يوسف فى رأس كتابه فوق خطه (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) ثم نهض من فوره فى جنوده وعساكره ، حتى قطع الزقاق إلى الأندلس ، فالتقوا فى المحل المذكور ، فكانت الدائرة أولا على المسلمين ، فقتل منهم عشرون ألفا ، ثم كانت أخيراً على الكافرين فهزمهم الله وكسرهم وخذلهم أقبح كسرة ، وشر هزيمة وأشنعها ، فقتل منهم مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا ، وأسر منهم ثلاثة عشر ألفا ، وغنم المسلمون منهم شيئا كثيرا ، من ذلك مائة ألف خيمة وثلاثة وأربعون خيمة ، ومن الخيل ستة وأربعون ألف فرس ، ومن البغال مائة ألف بغل ، ومن الحمر مثلها ،ومن السلاح التام سبعون ألفا ،

ومن العدد شيء كثير ، وملك عليهم من حصونهم شيئا كثيرا ، وحاصر مدينتهم طليطلة مدة ، ثم لم يفتحها فانفصل عنها راجعا إلى بلاده . ولما حصل للقيش ما حصل حلق لحيته ورأسه ونكس صليبه وركب حماراً وحلف لايركب فرساً ولا يتلذذ بطعام ولاينام مع امرأة حتى تنصره النصرانية ، ثم طاف على ملوك الفرنج فجمع من الجنود ما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، فاستعد له السلطان يعقوب فالتقيا فاقتتلا قتالا عظيما لم يسمع بمثله ، فانهزم الفرنج أقبح من هزيمتهم الأولى، وغنموا منهم نظير ما تقدم أو أكثر ، واستحوذ السلطان على كثير من معاملهم وقلاعهم ، ولله الحمد والمنة ، حتى قيل إنه بيع الأسير بدرهم، والحصان بخمسة دراهم، والخيمة بدرهم ، والسيف بدون ذلك. ثم قسم السلطان هذه الغنائم على الوجه الشرعى، فاستغنى المجاهدون إلى الأبد ، ثم طلبت الفرنج من السلطان الأمان فهادنهم على وضع الحرب خمس سنين ، وإنما حمله على ذلك أن رجلا يقال له على بن إسحاق التوزى الذى يقال له المكائم ، ظهر ببلاد إفريقية فأحدث أمورا فظيعة فى غيبة السلطان واشتغاله بقتال الفرنج مدة ثلاث سنين ، فأحدث هذا المارق التوزى بالبادية حوادث ، وعاث فى الأرض فسادا ، وقتل خلقا كثيراً ، وتملك بلادا .

وفى هذه السنة والتى قبلها استحوذ جيش الخليفة على بلاد الرى وأصبهان وهمدان وخوزستان وغيرها من البلاد ، وقوى جانب الخلافة على الملوك والممالك . وفيها خرج العزيز من مصر قاصدا دمشق ليأخذها من يد أخيه الأفضل ، وكان الأفضل قد تاب وأناب وأقلع عما كان فيه من الشراب واللهو واللعب ، وأقبل على الصيام والصلاة، وشرع بكتابة مصحف بيده ، وحسنت طريقته ، غيرأن وزيره الضيا الجزرى يفسد عليه دولته ، ويكدر عليه صفوته ، فلما بلغ الأفضل إقبال أخيه نحوه سار سريعاً إلى عمه العادل وهو بجعبر فاستنجده فسار معه وسبقه إلى دمشق ، وراح الأفضل أيضاً إلى أخيه الظاهر بحلب، فسارا جميعاً نحو دمشق ، فلما سمع العزيز بذلك وقد اقترب من دمشق ، كر راجعاسريعاً إلى مصر ، وركب وراءه العادل والأفضل ليأخذا منه مصر ، وقد اتفقا على أن يكون ثلث مصر للعادل وثلثاها للأفضل ، ثم بدا للعادل فى ذلك فأرسل للعزيز يثبته ، وأقبل على الأفضل يثبطه ، وأقاما على بلبيس أياما حتى خرج إليهما القاضى الفاضل من جهة العزيز ، فوقع الصلح على أن يرجع القدس ومعاملتها للأفضل ، ويستقر العادل مقيما بمصر على إقطاعه القديم ، فأقام العادل بها طمعاً فيها و رجع العادل إلى دمشق بعدما خرج العزيز لتوديعه، وهى هدنة على قذاء، وصلح على دخن . وفيها توفى من الأعيان .

﴿ على بن حسان بن سافر ﴾

أبو الحسن الكاتب البغدادى ، كان أديبا شاعرا . من شعره قوله :

نفى رقادى ومضى * برق بسلع ومضا * لاح كما سلت يدا * أسود عضبا أبيضا

كأنه الأشهب فى * النقع إذا ما ركضا * يبدو كما تختال الر * يح على جمر الغضا
فتحسب الريح أبـ * ـدا نظرا وغمضا(١) * أو شعلة النار علا * لهيبها وانخفضا
آه له من بارق * ضاء على ذات الأضا * أذكرنى عهدا مضى * على الغوير وانقضى
فقال لى قلبى أتو * صى حاجة وأعرضا * يطلب من أمرضه * فديت ذاك الممرضا
يا غرض القلب لقد * غادرت قلبى غرضا * لأسهم كأنما * يرسلها صرف القضا
فبت لا أرتاب فى * أن رقادى قد قضى * حتى قفا الليل وكاد * الليل أن ينقرضا
وأقبل الصبح لاط * راف الدجا مبيضا * وسل فى الشرق على الغـ * ـرب ضياء وانقضى

﴿ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة﴾

فى رجب منها أقبل العزيز من مصر ومعه عمه العادل فى عساكر ، ودخلا دمشق قهرا ، وأخرجا منها الأفضل ووزيره الذى أساء تدبيره ، وصلى العزيز عند تربة والده صلاح ، وخطب له بدمشق ، ودخل القلعة المنصورة فى يوم وجلس فى دار العدل للحكم والفصل ، وكل هذا وأخوه الأفضل حاضر عنده فى الخدمة ، وأمر القاضى محيى الدين بن الزكى بتأسيس المدرسة العزيزية إلى جانب تربة أبيه وكانت داراً للأمير عز الدين شامة ، ثم استناب على دمشق عمه الملك العادل ورجع إلى مصر يوم الاثنين تاسع شوال ، والسكة والخطبة بدمشق له ، وصولح الأفضل على صرخد ، وهرب وزيره ابن الأثير الجزرى إلى جزيرته ، وقد أتلف نفسه وملكه ، وملكه بجزيرته ، وانتقل الأفضل إلى صرخد بأهله وأولاده ، وأخيه قطب الدين .

وفى هذه السنة هبت ريح شديدة سوداء مدلهمة بأرض العراق ومعها رمل أحمر ، حتى احتاج الناس إلى السرج بالنهار . وفيها ولى قوام الدين أبو طالب يحيى بن سعد بن زيادة كتاب الانشاء ببغداد ، وكان بليغا ، وليس هو كالفاضل . وفيها درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك بالنظامية ، وكان فاضلا مناظرا .

وفيها قتل رئيس الشافعية بأصبهان محمود بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندى قتله ملك الدين سنقر الطويل ، وكان ذلك سبب زوال ملك أصبهان عن الديوان .

وفيها مات الوزير وزير الخلافة .

﴿مؤيد الدين أبو الفضل﴾

محمد بن على بن القصاب ، وكان أبوه يبيع اللحم فى بعض أسواق بغداد . فتقدم ابنه وساد أهل زمانه . توفى بهمدان وقد أعاد رساتيق كثيرة من بلاد العراق وخراسان وغيرها ، إلى ديوان الخلافة ، وكان ناهضاً ذا همة وله صرامة وشعر جيد . وفيها توفى .

---

(١) كذا بالأصل ، والبيت مضطرب .

﴿ الفخر محمود بن على ﴾

التوقانى الشافعى ، عائدا من الحج . والشاعر :

﴿ أبو الغنائم محمد بن على ﴾

ابن المعلم الهرثى من قرى واسط ، عن إحدى وتسعين سنة ، وكان شاعراً فصيحاً ، وكان ابن الجوزى فى مجالسه يستشهد بشىء من لطائف أشعاره ، وقد أورد ابن الساعى قطعة جيدة من شعره الحسن المليح . وفيها توفى .

﴿ الفقيه أبو الحسن على بن سعيد ﴾

ابن الحسن البغدادى المعروف بابن العريف ، ويلقب بالبيع الفاسد ، كان حنبليا ثم اشتغل شافعيا على أبى القاسم بن فضلان ، وهو الذى لقبه بذلك لكثرة تكراره على هذه المسألة بين الشافعية والحنفية ، ويقال إنه صار بعد هذا كله إلى مذهب الامامية فالله أعلم . وفيها توفى

﴿ الشيخ أبو شجاع ﴾

محمد بن على بن مغيث بن الدهان الفرضى الحاسب المؤرخ البغدادى ، قدم دمشق وامتدح الكندى أبو اليمن زيد بن الحسن فقال :

يا زيد زادك ربى من مواهبه * نعماً يقصر عن إدراكها الأمل
لا بدل الله حالا قد حباك بها * ما دار بين النحاة الحال والبدل
النحو أنت أحق العالمين به * أليس باسمك فيه يضرب المثل

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ﴾

فيها ورد كتاب من القاضى الفاضل إلى ابن الزكى يخبره فيه « أن فى ليلة الجمعة التاسع من جمادى الآخرة أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة ، وبروق خاطفة ، ورياح عاصفة ، فقوى الجو بها واشتد هبوبها قد أثبت لها أعنة مطلقات ، وارتفعت لها صفقات ، فرجفت لها الجدران واصطفقت ، وتلاقت على بعدها واعتنقت ، وثار السماء والأرض عجاجاً ، حتى قيل إن هذه على هذه قد انطبقت ، ولا يحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد ، وعدا منها عاد ، وزاد عصف الريح إلى أن أطفأ سرج النجوم ، ومزقت أديم السماء ، ومحت ما فوقه من الرقوم ، فكنا كما قال تعالى (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق) ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق ، لا عاصم لخطف الأبصار ، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار . وفر الناس نساء ورجالا وأطفالا ، ونفروا من دورهم خفافا وثقالا ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فاعتصموا بالمساجد الجامعة ، وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة ، بوجوه عانية ، ونفوس عن الأهل والمال سالية ، ينظرون من طرف خفى ، ويتوقعون أى خطب جلى ،

قد انقطعت من الحياة علقهم ، وعميت عن النجاة طرقهم ، ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون ، وقاموا على صلاتهم وودوا لو كانوا من الذين عليها دائمون ، إلى أن أذن بالركود ، وأسعف الهاجدون بالهجود ، فأصبح كل مسلم على رفيقه، ويهنيه بسلامة طريقه ، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة ، وأفاق بعد الصيحة والصرخة ، وأن الله قد رد له الكرة ، وأحياه بعد أن كاد يأخذه على غرة ، ووردت الأخبار بأنها قد كسرت المراكب فى البحار ، والأشجار فى القفار ، وأتلفت خلقا كثيرا من السفار ، ومنهم من فر فلا ينفعه الفرار . إلى أن قال« ولا يحسب المجلس أنى أرسلت القلم محرفا والعلم مجوفا ،فالأمر أعظم ، ولكن الله سلم ، ونرجو أن الله قد أيقظنا بمابه وعظنا ، ونبهنا بما فيه ولهنا ،فما من عباده إلا من رأى القيامة عيانا ، ولم يلتمس عليها من بعد ذلك برهانا ، إلا أهل بلدنا فما قص الأولون مثلها فى المثلات ، ولا سبقت لها سابقة فى المعضلات ، والحمد لله الذى من فضله قد جعلنا نخبر عنها ، ولا يخبر عنا ، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور ، ولا يجعلنا من أهل الهلاك والثبور » .

وفيها كتب القاضى الفاضل من مصر إلى الملك العادل بدمشق يحثه على قتال الفرنج ، ويشكره على ما هو بصدده من محاربتهم ، وحفظ حوزة الاسلام ، فمن ذلك قوله فى بعض تلك الكتب « هذه الأوقات التى أنتم فيها عرائس الأعمار ، وهذه النفقات التى تجرى على أيديكم مهور الحور فى دار القرار ، وما أسعد من أودع يد الله ما فى يديه ، فتلك نعم الله عليه ، وتوفيقه الذى ما كل من طلبه وصل إليه ، وسواد العجاج فى هذه المواقف بباطن ما سودته الذنوب من الصحائف ، فما أسعد تلك الوقفات وما أعود بالطمأنينة تلك الرجعات » . وكتب أيضاً «أدام الله ذلك الاسم تاجاً على مفارق المنابر والطروس ، وحياة للدنيا وما فيها من الأجساد والنفوس ، وعرف المملوك من الأمر الذى اقتضته المشاهدة ، وجرت به العافية فى سرور ، ولا يزيد على سببه الحال بقوله :

ألم تر أن المرء تدوى يمينه * فيقطعها عمداً ليسلم سائره

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا سبق إليه ، ومن قلم من الاصبع ظفراً فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعاً ، ودفع عنه ضرراً ، وتجشم المكروه ليس بضائر إذا كان ما جلبه سببا إلى المحمود ، وآخر سنوه أول كل غزوه ، فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها ، وتجشم الكلف وحملها ، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد وهو وجه الله ، صرف الوجوه إليه كلها (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين الله) .

وفى هذه السنة انقضت مدة الهدنة التى كان عقدها الملك صلاح الدين للفرنج فأقبلوا بحدهم وحديدهم ، فتلقاهم الملك العادل بمرج عكا فكسرهم وغنمهم ، وفتح يافا عنوة ولله الحمد والمنة . وقد كانوا كتبوا إلى ملك الألمان يستنهضونه لفتح بيت المقدس فقدر الله هلاكه سريعا ، وأخذت الفرنج

فى هذه السنة بيروت من نائبها عز الدين شامة من غير قتال ولا نزال ، ولهذا قال بعض الشعراء فى الأمير شامة سلم الحصن ما عليك ملامه * ما يلام الذى يروم السلامة

فتعطى الحصون من غير حرب * سنة سنها ببيروت شامة

ومات فيها ملك الفرنج كندهرى ، سقط من شاهق فمات ، فبقيت الفرنج كالغنم بلا راعى ، حتى ملكوا عليهم صاحب قبرس و زوجوه بالملكة امرأة كندهرى ، وجرت خطوب كثيرة بينهم و بين العادل ، ففى كلها يستظهر عليهم و يكسرهم ، و يقتل خلقا من مقاتلتهم ، ولم يزالوا كذلك معه حتى طلبوا الصلح والمهادنة ، فعاقدهم على ذلك فى السنة الآتية .

وفيها توفى ملك اليمن . ﴿ سيف الاسلام طغتكين ﴾

أخو السلطان صلاح الدين ، وكان قد جمع أموالا جزيلة جداً ، وكان يسبك الذهب مثل الطواحين و يدخره كذلك ، وقام فى الملك بعده ولده إسماعيل ، وكان أهوج قليل التدبير ، فحمله جهله على أن ادعى أنه قرشى أموى ، وتلقب بالهادى ، فكتب إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك و يتهدده بسبب ذلك ، فلم يقبل منه ولا التفت إليه ، بل تمادى وأساء التدبير إلى الأمراء والرعية ، فقتل وتولى بعده مملوك من مماليك أبيه . وفيها توفى :

﴿ الأمير الكبير أبو الهيجاء السمين الكردى ﴾

كان من أكابر أمراء صلاح الدين ، وهو الذى كان نائبا على عكا ، وخرج منها قبل أخذ الافرنج ، ثم دخلها بعد المشطوب ، فأخذت منه ، واستنابه صلاح الدين على القدس ، ثم لما أخذها العزيز عزل عنها فطلب إلى بغداد فأكرم إكراما زائدا ، وأرسله الخليفة مقدماً على العساكر إلى همدان ، فمات هناك . وفيها توفى .

﴿ قاضى بغداد أبو طالب على بن على بن هبة الله بن محمد ﴾

البخارى ، سمع الحديث على أبى الوقت وغيره ، وتفقه على أبى القاسم بن فضلان ، وتولى نيابة الحكم ببغداد ، ثم استقل بالمنصب وأضيف إليه فى وقت نيابة الوزارة ، ثم عزل عن القضاء ثم أعيد ومات وهو حاكم ، نسأل الله العافية ، وكان فاضلا بارعا من بيت فقه وعدالة وله شعر :

تنح عن القبيح ولا ترده * ومن أوليته حسنا فزده

كفا بك من عدوك كل كيد * إذا كاد العدو ولم تكده

وفيها توفى ﴿ السيد الشريف نقيب الطالبيين ببغداد ﴾

أبو محمد الحسن بن على بن حمزة بن محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن على بن يحيى بن الحسين بن يزيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب العلوى الحسينى المعروف بابن الافسامى ،

الكوفى مولدا ومنشأ ، كان شاعرا مطبقا ، امتدح الخلفاء والوزراء ، وهو من بيت مشهور بالأدب والرياسة والمروءة ، قدم بغداد فامتدح المقتفى والمستنجد وابنه المستضئ وابنه الناصر ، فولاه النقابة كان شيخاً مهيبا ، جاوز الثمانين ، وقد أورد له ابن الساعى قصائد كثيرة منها :

اصبر على كيد الزما * ن فما يدوم على طريقة
سبق القضاء فكن به * راض ولا تطلب حقيقة
كم قد تغلب مرة * وأراك من سعة وضيقه
ما زال فى أولاده * يجرى على هذى الطريقة

وفيها توفيت ﴿ الست عذراء بنت شاهنشاه ﴾ ابن أيوب ، ودفنت بمدرستها داخل باب النصر ، والست خاتون والدة الملك العادل ، ودفنت بدارها بدمشق المجاورة لدار أسد الدين شيركوه .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة ﴾

فيها جمعت الفرنج جموعها وأقبلوا فحاصروا تبنين ، فاستدعى العادل بنى أخيه لقتالهم ، فجاءه العزيز من مصر ، والأفضل من صرخند ، فأقلعت الفرنج عن الحصن وبلغهم موت ملك الألمان فطلبوا من العادل الهدنة والأمان ، فهادنهم ورجعت الملوك إلى أماكنها ، وقد عظم المعظم عيسى بن العادل فى هذه المرة ، واستنابه أبوه على دمشق ، وسار إلى ملكه بالجزيرة ، فأحسن فيهم السيرة ، وكان قد توفى فى هذه السنة السلطان صاحب سنجار وغيرها من المدائن الكبار ، وهو عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى الأتابكى ، كان من خيار الملوك وأحسنهم شكلا وسيرة ، وأجودهم طوية وسريرة ، غير أنه كان يبخل ، وكان شديد المحبة للعلماء ، ولا سيما الحنفية ، وقد ابتنى لهم مدرسة بسنجار ، وشرط لهم طعاما يطبخ لكل واحد منهم فى كل يوم ، وهذا نظر حسن ، والفقيه أولى بهذه الحسنة من الفقير ، لاشتغال الفقيه بتكراره ومطالعته عن الفكر فيما يقيته ، فعدى على أولاده ابن عمه صاحب الموصل ، فأخذ الملك منهم ، فاستغاث بنوه بالملك العادل ، فرد فيهم الملك ودرأ عنهم الضيم ، واستقرت المملكة لولده قطب الدين محمد ، ثم سار الملك إلى ماردين فحاصرها فى شهر رمضان ، فاستولى على ربضها ومعاملاتها ، وأعجزته قلعتها ، فطاف عليها ومشى ، وما ظن أحد أنه تملكها ، لأن ذلك لم يكن مثبوتا ولا مقداراً .

وفيها ملكت الخزر مدينة بلخ وكسروا الخطا وقهروهم ، وأرسل الخليفة إليهم أن يمنعوا خوارزم شاه من دخول العراق ، فانه كان يروم أن يخطب له ببغداد . وفيها حاصر خوارزم شاه مدينة بخارى ففتحها بعد مدة ، وقد كانت امتنعت عليه دهرا ونصرهم الخطا ، فقهرهم جميعاً وأخذها عنوة ، وعفا

عن أهلها وصفح ، وقد كانوا ألبسوا كلباً أعور قباء وسموه خوارزم شاه ، ورموه فى المنجيق إلى الخوارزمية ، وقالوا هذا ملككم ، وكان خوارزم شاه أعور ، فلما قدر عليهم عفا عنهم ، جزاه الله خيرا. وفيها توفى من الأعيان.

﴿ العوام بن زيادة ﴾

كاتب الانشاء بباب الخلافة ، وهو أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن على بن زيادة ، انتهت إليه رياسة الرسائل والانشاء والبلاغة والفصاحة فى زمانه بالعراق ، وله علوم كثيرة غير ذلك من الفقه على مذهب الشافعى ، أخذه عن ابن فضلان ، وله معرفة جيدة بالأصلين الحساب واللغة ، وله شعر جيد وقد ولى عدة مناصب كان مشكوراً فى جميعها ، ومن مستجاد شعره قوله :

لا تحقرن عدوا تزدريه فكم * قد أتعس الدهر جد الجد باللعب
فهذه الشمس يعروها الكسوف لها * على جلالتها بالرأس والذنب

وله :

باضطراب الزمان ترتفع الأنـ * ـذال فيه حتى يعم البلاء
وكذا الماء راكد فاذا حر * ك ثارت من قعره الاقذاء

وله أيضاً :

قد سلوت الدنيا ولم يسلها * من علقت فى آماله والأراجى
فاذا ما صرفت وجهى عنها * قذفتنى فى بحرها العجاج
يستضيئون بى وأهلك وحدى * فكأنى ذبالة فى سراج

توفى فى ذى الحجة وله ثنتان وسبعون سنة ، وحضر جنازته خلق كثير ، ودفن عند موسى بن جعفر .

﴿ القاضى أبو الحسن على بن رجاء بن زهير ﴾

ابن على البطائحى ، قدم بغداد فتفقه بها وسمع الحديث وأقام برحبة مالك بن طوق مدة يشتغل على أبى عبد الله بن النبيه الفرضى ، ثم ولى قضاء العراق مدة ، وكان أديباً ، وقد سمع من شيخه أبى عبد الله بن النبيه ينشد لنفسه معارضاً للحريرى فى بيتيه اللذين زعم أنهما لايعزوان ثالث لهما ، وهما قوله

سم سمة يحمد آثارها * واشكر لمن أعطا ولو سمسمة
والمكر مهما استطعت لاتأته * لتقتنى السؤدد والمكرمة

فقال ابن النبيه :

ما الأمة الوكساء بين الورى * أحسن من حر أتى ملامه
فمه إذا استجديت عن قول لا * فالحر لا يملأ منها فمه

﴿ الأمير عز الدين حرديل ﴾

كان من أكابر الأمراء فى أيام نور الدين ، وكان ممن شرك فى قتل شاور ، وحظى عند صلاح الدين ، وقد استنابه على القدس حين افتتحها ، وكان يستندبه للمهمات الكبار فيسدها بنفسه

وشجاعته ، ولما ولى الأفضل عزله عن القدس فترك بلاد الشام وانتقل إلى الموصل ، فمات بها فى هذه السنة .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة ﴾

« فيها كانت وفاة العزيز صاحب مصر »

وذلك أنه خرج إلى الصيد فكانت ليلة الأحد العشرين من المحرم ، ساق خلف ذئب فكبا به فرسه فسقط عنه فمات بعد أيام ، ودفن بداره ، ثم حول إلى عند تربة الشافعى ، وله سبع أو ثمان وعشرون سنة ، ويقال : إنه كان قد عزم فى هذه السنة على إخراج الحنابلة من بلده ، ويكتب إلى بقية إخوته باخراجهم من البلاد ، وشاع ذلك عنه وذاع ، وسمع ذلك منه وصرح به ، وكل ذلك من معلميه وخلطائه وعشرائه من الجهمية ، وقلة علمه بالحديث ، فلما وقع منه هذا ونوى هذه النية القبيحة الفاسدة أهلكه الله ودمره سريعاً ، وعظم قدر الحنابلة بين الخلق بمصر والشام، عند الخاص والعام. وقيل : إن بعض صالحيهم دعا عليه ، فما هو إلا أن خرج إلى الصيد فكان هلاكه سريعاً ، وكتب الفاضل كتاب التعزية بالعزيز لعمه العادل، وهو محاصر ماردين ومعه العساكر ، وولده محمد الكامل ، وهونائبه على بلاد الجزيرة المقاربة لبلاد الحيرة ، وصورة الكتاب « أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك فى عمره وأعلا أمره بأمره ، وأعز نصر الاسلام بنصره، وفدت الأنفس نفسه الكريمة وأصغر الله العظائم بنعمه فيه العظيمة ، وأحياه الله حياة طيبة هو والاسلام فى مواقيت الفتوح الجسيمة وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمة ، ولا نقص له رجالا ولا أعدمه نفسا ولا ولدا ، ولا قصر له ذيلا ولا يدا ، ولا أسخن له عينا ولا كبدا ، ولا كدر له خاطراً ولا موردا ، ولما قدر الله ما قدر من موت الملك العزيز كانت حياته مكدرة عليه منغصة مهملة ، فلما حضر أجله كانت بديهة المصاب عظيمة ، وطالعة المكروه أليمة ، وإذا محاسن الوجه بليت تعفى الثرى عن وجهه الحسن ، وكانت مدة مرضه بعد عوده من الفيوم أسبوعين ، وكانت فى الساعة السابعة من ليلة الأحد والعشرين من المحرم ، والمملوك فى حال تسطيرها مجموع بين مرض القلب والجسد، ووجع أطراف وعلة كبد ، وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده غير بعيد ، والأسى عليه فى كل يوم جديد » . ولما توفى العزيز خلف من الولد عشرة ذكور ، فعمد أمراؤه فملكوا عليهم ولده محمدا ، ولقبوه بالمنصور ، وجمهور الأمراء فى الباطن مائلون إلى تمليك العادل ، ولكنهم يستبعدون مكانه ، فأرسلوا إلى الأفضل وهو بصرخد فأحضروه على البريد سريعاً ، فلما حضر عندهم منع رفدهم ووجدوا الكلمة مختلفة عليه ، ولم يتم له ما صار إليه ، وخاص عليه أكابر الأمراء الناصرية ، وخرجوا من مصر فأقاموا ببيت المقدس وأرسلوا يستحثون الجيوش العادلية ، فأقر ابن أخيه على السلطنة ونوه باسمه على السكة والخطبة فى سائر بلاد مصر ، لكن استفاد الأفضل فى سفرته هذه أن أخذ جيشاً كثيفا من المصريين ، وأقبل بهم ليسترد

دمشق فى غيبة عمه . وذلك باشارة أخيه صاحب حلب ، وملك حمص أسد الدين ، فلما انتهى إليها ونزل حواليها قطع أنهارها وعقر أشجارها ،وأكل ثمارها ، ونزل بمخيمه على مسجد القدم ، وجاء إليه أخوه الظاهر وابن عمه الأسد الكاسر وجيش حماه ، فكثر جيشه وقوى بأسه ، وقد دخل جيشه إلى البلد ،ونادوا بشماره فلم يتابعهم من العامة أحد ، وأقبل العادل من ماردين بعساكره وقد التف عليه أمراء أخيه وطائفة بنى أخيه ، وأمده كل مصر بأكابره ، وسبق الأفضل إلى دمشق بيومين فحصنها وحفظها ، وقد استناب على ماردين ولده محمداً الكامل . ولما دخل دمشق خامر إليه أكثر الأمراء من المصريين وغيرهم ، وضعف أمر الأفضل ويئس من برهم وخيرهم ، فأقام محاصر البلد بمن معه حتى انسلخ الحول ثم انفصل الحال فى أول السنة الآتية على ما سيأتى .

وفيها شرع فى بناء سور بغداد بالآجر والكلس ، وفرق على الأمراء وكملت عمارته بعد هذه السنة ، فأمنت بغداد من الغرق والحصار ، ولم يكن لها سور قبل ذلك .

وفيها توفى ﴿ السلطان أبو محمد يعقوب بن يوسف ﴾

ابن عبد المؤمن ، صاحب المغرب والأندلس بمدينته ، وكان قد بنى عندها مدينة مليحة سماها المهدية ، وقد كان دينا حسن السيرة صحيح السريرة ، وكان مالكى المذهب ، ثم صار ظاهريا حزمياً ثم مال إلى مذهب الشافعى، واستقضى فى بعض بلاده منهم قضاة ، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة ، وكان كثير الجهاد رحمه الله ، وكان يؤم الناس فى الصلوات الخمس ، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف رحمه الله . وهو الذى كتب إليه صلاح الدين يستنجده على الفرنج فلما لم يخاطبه بأمير المؤمنين غضب من ذلك ولم يجبه إلى ما طلب منه ، وقام بالملك بعده ولده محمد فسار كسيرة والده ، ورجع إليه كثير من البلدان اللاتى كانت قد عصت على أبيه ، ثم من بعد ذلك تفرقت بهم الأهواء وباد هذا البيت بعد الملك يعقوب .

وفيها ادعى رجل أعجمى بدمشق أنه عيسى بن مريم ، فأمر الأمير صارم الدين برغش نائب القلعة ، بصلبه عند حمام العماد الكاتب ، خارج باب الفرج مقابل الطاحون التى بين البابين ، وقد باد هذا الحمام قديماً ، وبعد صلبه بيومين ثارت العامة على الروافض وعمدوا إلى قبر رجل منهم بباب الصغير يقال له وثاب فنبشوه وصلبوه مع كلبين ، وذلك فى ربيع الآخر منها .

وفيها وقعت فتنة كبيرة ببلاد خراسان ، وكان سببها أن فخر الدين محمد بن عمر الرازى وفد إلى الملك غياث الدين الغورى صاحب غزنة ،فأكرمه وبنى له مدرسة بهراه ، وكان أكثر الغورية كرامية فأبغضوا الرازى وأحبوا إبعاده عن الملك ، فجمعوا له جماعة من الفقهاء الحنفية والكرامية ، وخلقا من الشافعية ، وحضر ابن القدوة وكان شيخا معظما فى الناس ، وهو على مذهب ابن كرام وابن الهيصم

فتناظر هو والرازى ، وخرجا من المناظرة إلى السب والشتم ، فلما كان من الغد اجتمع الناس فى المسجد الجامع ، وقام واعظ فتكلم فقال فى خطبته : أيها الناس ، إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله ﷺ ، وأما علم ارسطاطاليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابى وما تلبس به الرازى فانا لا نعلمها ولا نقول بها ، و إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ، ولأى شيء يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الاسلام يذب عن دين الله وسنة رسوله ، على لسان متكلم ليس معه على ما يقول دليل . قال فبكى الناس وضجوا و بكت الكرامية واستغاثوا ، وأعانهم على ذلك قوم من خواص الناس ، وأنهوا إلى الملك صورة ما وقع ، فأمر باخراج الرازى من بلاده ، وعاد إلى هراه ، فلهذا أشرب قلب الرازى بغض الكرامية ، وصار يلهج بهم فى كلامه فى كل موطن ومكان .

وفيها رضى الخليفة عن أبى الفرج ابن الجوزى شيخ الوعاظ ، وقد كان أخرج من بغداد إلى واسط فأقام بها خمس سنين ، فانتفع به أهلها واشتغلوا عليه واستفادوا منه ، فلما عاد إلى بغداد خلع عليه الخليفة وأذن له فى الوعظ على عادته عند التربة الشريفة المجاورة لقبر معروف ، فكثر الجمع جدا وحضر الخليفة وأنشد يومئذ فيما يخاطب به الخليفة :

لا تعطش الروض الذى بنيته * بصوب إنعامك قد روضا
لا تبر عودا أنت قد رشته * حاشى لبانى المجد أن ينقضا
إن كان لى ذنب قد جنيته * فأستأنف العفو وهب لى الرضا
قد كنت أرجوك لنيل المنى * فاليوم لا أطلب إلا الرضا

ومما أنشده يومئذ :

شقينا بالنوى زمنا فلما * تلاقينا كأنا ما شقينا
سخطنا عند ماجنت الليالى * وما زالت بنا حتى رضينا
ومن لم يحى بعد الموت يوماً * فانا بعد ما متنا حيينا

و فى هذه السنة استدعى الخليفة الناصر قاضى الموصل ضياء الدين ابن الشهرزورى فولاه قضاء قضاة بغداد . وفيها وقعت فتنة بدمشق بسبب الحافظ عبد الغنى المقدسى ، وذلك أنه كان يتكلم فى مقصورة الحنابلة بالجامع الأموى ، فذكر يوما شيئا من العقائد ، فاجتمع القاضى ابن الزكى وضياء الدين الخطيب الدولعى بالسلطان المعظم ، والأمير صارم الدين برغش ، فعقد له مجلسا فيما يتعلق بمسألة الاستواء على العرش والنزول والحرف والصوت ، فوافق النجم الحنبلى بقية الفقهاء واستمر الحافظ على ما يقوله لم يرجع عنه ، واجتمع بقية الفقهاء عليه ، وألزموه بالزامات شنيعة لم يلتزمها ، حتى قال له الأمير برغش كل هؤلاء على الضلالة وأنت وحدك على الحق ؟ قال : نعم ،

فغضب الأمير وأمر بنفيه من البلد ، فاستنظره ثلاثة أيام فأنظره ، وأرسل برغش الأسارى من القلعة فكسروا منبر الحنابلة وتعطلت يومئذ صلاة الظهر فى محراب الحنابلة ، وأخرجت الخزائن والصناديق التى كانت هناك ، وجرت خبطة شديدة ، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وكان عقد المجلس يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذى الحجة ، فارتحل الحافظ عبد الغنى إلى بعلبك ثم سار إلى مصر فآواه المحدثون ، فحنوا عليه وأكرموه .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الأمير مجاهد الدين قايماز الرومى ﴾

نائب الموصل المستولى على مملكتها أيام ابن استاذه نور الدين أرسلان ، وكان عاقلا ذكيا فقيها حنفيا ، وقيل شافعيا ، يحفظ شيئا كثيراً من التواريخ والحكايات ، وقد ابتنى عدة جوامع ومدارس وربط وخانات ، وله صدقات كثيرة دارة ، قال ابن الأثير : وقد كان من محاسن الدنيا .

﴿ أبو الحسن محمد بن جعفر ﴾

ابن أحمد بن محمد بن عبد العزيز العباس الهاشمى ، قاضى القضاة ببغداد ، بعد ابن النجارى ، كان شافعياً تفقه على أبى الحسن بن الخل وغيره ، وقد ولى القضاء والخطابة بمكة ، وأصله منها ، ولكن ارتحل إلى بغداد فنال منها ما نال من الدنيا ، وآل به الأمر إلى ما آل ، ثم إنه عزل عن القضاء بسبب محضر رقم خطه عليه ، وكان فيما قيل مزورا عليه . فالله أعلم ، فجلس فى منزله حتى مات .

﴿ الشيخ جمال الدين أبو القاسم ﴾

يحيى بن على بن الفضل بن بركة بن فضلان ، شيخ الشافعية ببغداد ، تفقه أولا على سعيد بن محمد الزاز مدرس النظامية ، ثم ارتحل إلى خراسان فأخذ عن الشيخ محمد الزبيدى تلميذ الغزالى وعاد إلى بغداد وقد اقتبس علم المناظرة والأصلين ، وساد أهل بغداد وانتفع به الطلبة والفقهاء ، وبنيت له مدرسة فدرس بها وبعد صيته ، وكثرت تلاميذه ، وكان كثير التلاوة وسماع الحديث ، وكان شيخا حسنا لطيفا ظريفا ، ومن شعره :

وإذا أردت منازل الأشراف * فعليك بالاسعاف والانصاف

وإذا بغا باغ عليك نخله * والدهر فهو له مكاف كاف

﴿ ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة ﴾

استهلت هذه السنة والملك الأفضل بالجيش المصرى محاصر دمشق لعمه العادل ، وقد قطع عنها الأنهار والميرة ، فلا خبز ولا ماء إلا قليلا ، وقد تطاول الحال ، وقد خندقوا من أرض اللوان إلى اللد خندقا لئلا يصل إليهم جيش دمشق ، وجاء فصل الشتاء وكثرت الأمطار والأوحال . فلما دخل شهر صفر قدم الملك الكامل محمد بن العادل على أبيه بخلق من التركمان ، وعساكر من بلاد

الجزيرة والرها وحران ، فعند ذلك انصرف العساكر المصرية ، وتفرقوا أيادى سبا ، فرجع الظاهر إلى حلب والأسد إلى حمص ، والأفضل إلى مصر ، وسلم العادل من كيد الأعادى ، بعد ما كان قد عزم على تسليم البلد . وسارت الأمراء الناصرية خلف الأفضل ليمنعوه من الدخول إلى القاهرة ، وكاتبوا العادل أن يسرع السير إليهم ، فنهض إليهم سريعاً فدخل الأفضل مصر وتحصن بقلعة الجبل ، وقد اعتراه الضعف والفشل ، ونزل العادل على البركة وأخذ ملك مصر ونزل إليه ابن أخيه الأفضل خاضعاً ذليلا ، فأقطعه بلادا من الجزيرة ، ونفاه من الشام لسوء السيرة ، ودخل العادل القلعة وأعاد القضاء إلى صدر الدين عبد الملك بن درباس الماردانى الكردى ، وأبقى الخطبة والسكة باسم ابن أخيه المنصور ، والعادل مستقل بالأمور ، واستوزر الصاحب صفى الدين بن شكر لصرامته وشهامته ، وسيادته وديانته ، وكتب العادل إلى ولده الكامل يستدعيه من بلاد الجزيرة ليملكه على مصر ، فقدم عليه فأكرمه واحترمه وعانقه والتزمه ، وأحضر الملك الفقهاء واستفتاهم فى صحة مملكة ابن أخيه المنصور بن العزيز ، وكان ابن عشر سنين ، فأفتوا بأن ولايته لا تصح لأنه متولى عليه ، فعند ذلك طلب الأمراء ودعاهم إلى مبايعته فامتنعوا فأرغبهم وأرهبهم ، وقال فيما قال : قد سمعتم ما أفتى به العلماء ، وقد علمتم أن ثغور المسلمين لا يحفظها الأطفال الصغار ، وإنما يحفظها الملوك الكبار ، فأذعنوا عند ذلك وبايعوه ، ثم من بعده لولده الكامل ، فخطب الخطباء بذلك بعد الخليفة لهما ، وضربت السكة باسمهما ، واستقرت دمشق باسم المعظم عيسى بن العادل ، ومصر باسم الكامل .

وفى شوال رجع إلى دمشق الأمير ملك الدين أبو منصور سليمان بن مسرور بن جلدك ، وهو أخو الملك العادل لأمه ، وهو واقف الفلكية داخل باب الفراديس ، وبها قبره ، فأقام بها محترماً معظما إلى أن توفى فى هذه السنة . وفيها وفى التى بعدها كان بديار مصر غلاء شديد ، فهلك بسببه الغنى والفقير ، وهرب الناس منها نحو الشام فلم يصل إليها إلا القليل ، وتخطفهم الفرنج من الطرقات وغروهم من أنفسهم واغتالوهم بالقليل من الأقوات ، وأما بلاد العراق فانه كان مرخصا . قال ابن الساعى : وفى هذه السنة باض ديك ببغداد فسألت جماعة عن ذلك فأخبرونى به .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ السلطان علاء الدين خوارزم شاه ﴾

ابن تكش بن ألب رسلان من ولد طاهر بن الحسين ، وهو صاحب خوارزم وبعض بلاد خراسان والرى وغيرها من الأقاليم المتسعة ، وهو الذى قطع دولة السلاجقة ، كان عادلا حسن السيرة له معرفة جيدة بالموسيقى ، حسن المعاشرة ، فقيها على مذهب أبى حنيفة ، ويعرف الأصول ، وبنى

للحنفية مدرسة عظيمة ، ودفن بتربة بناها بخوارزم ، وقام فى الملك من بعده ولده علاء الدين محمد ، وكان قبل ذلك يلقب بقطب الدين . وفيها قتل وزير السلطان خوارزم شاه المذكور .

﴿ نظام الدين مسعود بن على ﴾

وكان حسن السيرة ، شافعى المذهب ، له مدرسة عظيمة بخوارزم ، وجامع هائل ، وبنى بمرو جامعاً عظيما للشافعية ، فحسدتهم الحنابلة(١) وشيخهم بها يقال له شيخ الاسلام ، فيقال إنهم أحرقوه وهذا إنما يحمل عليه قلة الدين والعقل ، فأغرمهم السلطان خوارزم شاه ما غرم الوزير على بنائه . وفيها توفى الشيخ المسند المعمر رحلة الوقت .

﴿ أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب ﴾

ابن صدقة بن الخضر بن كليب الحرانى الأصل البغدادى المولد والدار والوفاة ، عن ست وتسعين سنة ، سمع الكثير وأسمع ، وتفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ ، وكان من أعيان التجار وذوى الثروة

﴿ الفقيه مجد الدين ﴾

أبو محمد بن طاهر بن نصر بن جميل ، مدرس القدس أول من درس بالصلاحية ، وهو والد الفقهاء بنى جميل الدين ، كانوا بالمدرسة الجاروخية ، ثم صاروا إلى العمادية والدماغية فى أيامنا هذه ، ثم ماتوا ولم يبق إلا شرحهم .

﴿ الأمير صارم الدين قايماز ﴾

ابن عبد الله النجمى ، كان من أكابر الدولة الصلاحية ، كان عند صلاح الدين بمنزلة الاستاذ ، وهو الذى تسلم القصر حين مات العاضد ، فحصل له أموال جزيلة جداً ، وكان كثير الصدقات والأوقاف ، تصدق فى يوم بسبعة آلاف دينار عينا ، وهو واقف المدرسة القيمازية ، شرقى القلعة ، وقد كانت دار الحديث الأشرفية داراً لهذا الأمير ، وله بها حمام ، فاشترى ذلك الملك الأشرف فيما بعد وبناها دار حديث ، وأخرب الحمام وبناه مسكنا للشيخ المدرس بها . ولما توفى قيماز ودفن فى قبره نبشت دوره وحواصله ، وكان متهما بمال جزيل ، فتحصل ماجمع من ذلك مائة ألف دينار وكان يظن أن عنده أكثر من ذلك ، وكان يدفن أمواله فى الخراب من أراضى ضياعه وقراياه ، سامحه الله .

﴿ الأمير لؤلؤ ﴾

أحد الحجاب بالديار المصرية ، كان من أكابر الأمراء فى أيام صلاح الدين ، وهو الذى كان متسلم الأسطول فى البحر ، فكم من شجاع قد أسر ، وكم من مركب قد كسر ، وقد كان مع كثرة جهاده دار

(١) لعله الحنفية فانه ليس بمرو حنابلة والله سبحانه أعلم . ولكن ابن الأثير قد وافق المؤلف .

الصدقات ، كثير النفقات فى كل يوم ، وقع غلاء بمصر فتصدق باثنى عشر ألف رغيف ، لاثنى عشر ألف نفس .

﴿ الشيخ شهاب الدين الطوسى ﴾

أحد مشايخ الشافعية بديار مصر ، شيخ المدرسة المنسوبة إلى تقى الدين شاهنشاه بن أيوب ، التى يقال لهـا منازل العز ، وهو من أصحاب محمـد بن يحيى تلميذ الغزالى ، كان له قدر ومنزلة عند ملوك مصر ، يأمرهم بالمعروف وينهـاهم عن المنكر ، توفى فى هـذه السنة ، فازدحم الناس عـلى جنازته ، وتأسفوا عليه .

﴿ الشيخ ظهير الدين عبد السلام الفارسى ﴾

شيخ الشافعية بحلب ، أخذ الفقه عن محمد بن يحيى تلميذ الغزالى ، وتتلمذ للرازى ، ورحل إلى مصر وعرض عليه أن يدرس بتربة الشافعى فلم يقبل ، فرجع إلى حلب فأقام بها إلى أن مات .

﴿ الشيخ العلامة بدر الدين ابن عسكر ﴾

رئيس الحنفية بدمشق ، قال أبو شامة : ويعرف بابن العقادة .

﴿ الشاعر أبو الحسن ﴾ على بن نصر بن عقيل بن أحمد بغدادى ، قدم دمشق فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ومعه ديوان شعر له فيه درر حسان ، وقد تصدى لمدح الملك الأمجد صاحب بعلبك وله :

وما الناس إلا كامل الحظ ناقص * وآخر منهم ناقص الحظ كامل
وإنى لمثر من خيار أعفـة * وإن لم يكن عندى من المال كامل

وفيها توفى القاضى الفاضل ، الامام العلامة شيخ الفصحاء والبلغاء .

﴿ أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف ﴾

أبى المجد على بن الحسن بن البيسانى المولى الأجل القاضى الفاضل ، كان أبوه قاضيا بعسقلان فأرسل ولده فى الدولة الفاطمية إلى الديار المصرية ، فاشتغل بها بكتابة الانشاء على أبى الفتح قادوس وغيره ، فساد أهل البلاد حتى بغداد ، ولم يكن له فى زمانه نظير ، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مثيل ، ولما استقر الملك صلاح الدين بمصر جعله كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسـه ، وكان أعز عليه من أهله وأولاده ، وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلاد ، هذا بحسامه وسنانه ، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه وقد كان الفاضل من كثرة أمواله كثير الصدقات والصلات والصيام والصلاة ، وكان يواظب كل يوم وليلة على ختمة كاملة ، مع ما يزيد عليها من نافلة ، رحيم القلب حسن السيرة ، طاهر القلب والسريرة له مدرسة بديار مصر على الشافعية والمالكية ، وأوقاف على تخليص الأسارى من يدى النصارى ، وقد اقتنى من الكتب نحواً من مائة ألف كتاب ، وهذا شئ لم يفرح به أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك ، ولد فى سـنة ثنتين وخمسمائة ، توفى يوم دخل العادل إلى قصر مصر بمدرسـته فجأة يوم

الثلاثاء سادس ربيع الآخر ، واحتفل الناس بجنازته ، وزار قبره فى اليوم الثانى الملك العادل ، وتأسف عليه ، ثم استوزر العادل صفى الدين بن شكر ، فلما سمع الفاضل بذلك دعا الله أن لا يحييه إلى هذه الدولة لما بينهما من المنافسة ، فمات ولم ينله أحد بضيم ولا أذى ، ولا رأى فى الدولة من هو أكبر منه ، وقد رثاه الشعراء بأشعار حسنة ، منها قول القاضى هبة الله بن سناء الملك :

عبد الرحيم على البرية رحمة * أمنت بصحبتها حلول عقابها
يا سائلى عنه وعن أسبابه * نال السماء فسله عن أسبابها
وأتته خاطبة إليه وزارة * ولطال ما أعيت على خطابها
وأتت سعادته إلى أبوابه * لا كالذى يسعى إلى أبوابها
تعنو الملوك لوجهه بوجوهها * لا بل تساق لبابه برقابها
شغل الملوك بما يزول ونفسه * مشغولة بالذكر فى محرابها
فى الصوم والصلوات أتعب نفسه * وضمان راحته على إتعابها
وتعجل الاقلاع عن لذاته * ثقة بحسن مآلها ومآبها
فلتفخر الدنيا بسائس ملكها * منه ودارس علمها وكتابها
صوامها قوامها علامها * عمالها بذالها وهابها

والعجب أن الفاضل مع براعته ليس له قصيدة طويلة ، وإنما له ما بين البيت والبيتين فى أثناء رسائله وغيرها شئ كثير جدا ، فمن ذلك قوله :

سبقتم باسداء الجميل تكرماً * وما مثلكم فيمن يحدث أو يحكى
وكان ظنى أن أسابقكم به * ولكن بلت قبلى فهيج لى البكا

وله :
ولى صاحب ماخفت من جور حادث * من الدهر إلا كان لى من ورائه
إذا عضنى صرف الزمان فاننى * براياته أسطو عليه ورائه

وله فى بدو أمره :

أرى الكتاب كلهم جميعا * بأرزاق تعمهم سنينا
ومالى بينهم رزق كأنى * خلقت من الكرام الكاتبينا

وله فى النحلة والزلقطة :

ومفردين تجاوبا فى مجلس * منعاهما لأذاهما الأقوام
هذا يجود بعكس ما يأتى به * هذا فيحمد ذا وذاك يلام

وله :
بتنا على حال تسر الهوى * لكنه لا يمكن الشرح

بوابنا الليل وقلنا له * إن غبت عنا هجم الصبح

وأرسلت جارية من جوارى الملك العزيز إلى الملك العزيز زراً من ذهب مغلف بعنبر أسود ، فسأل الملك الفاضل عن معنى ما أرادت بارساله فأنشأ يقول :

أهدت لك العنبر فى وسطه * زر من التبر رقيق اللحام

فالزر فى العنبر معناهما * زرهكذا مختفيا فى الظلام

قال ابن خلكان : وقد اختلف فى لقبه فقيل محى الدين وقيل مجير الدين ، وحكى عن عمارة اليمنى أنه كان يذكر جميل وأن العادل بل الصالح هو الذى استقدمه من الاسكندرية ، وقد كان معدودا فى حسناته . وقد بسط ابن خلكان ترجمته بنحو ما ذكرنا ، وفى هذه زيادة كثيرة والله أعلم

﴿ ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة ﴾

فيها اشتد الغلاء بأرض مصر جدا ، فهلك خلق كثير جدا من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناء عظيم ، حتى حكى الشيخ أبو شامة فى الذيل أن العادل كفن من ماله فى مدة شهر من هذه السنة نحواً من مائتى ألف ، وعشرين ألف ميت ، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر ، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير ، يشوى الصغير والداه ويأكلانه ، وكثر هذا فى الناس جداً حتى صار لا ينكر بينهم ، فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوى الضعيف فذبحه وأكله ، وكان الرجل يحتال على الفقير فيأتى به ليطعمه أوليعطيه شيئا ، ثم يذبحه ويأكله ، وكان أحدهم يذبح امرأته ويأكلها وشاع هذا بينهم بلا إنكار ولا شكوى ، بل يعذر بعضهم بعضاً ، ووجد عند بعضهم أربعمائة رأس وهلك كثير من الأطباء الذين يستدعون إلى المرضى ، فكانوا يذبحون ويؤكلون ، كان الرجل يستدعى الطبيب ثم يذبحه ويأكله ، وقد استدعى رجل طبيبا حاذقا وكان الرجل موسراً من أهل المال ، فذهب الطبيب معه على وجل وخوف ، فجعل الرجل يتصدق على من لقيه فى الطريق ويذكر الله ويسبحه ، ويكثر من ذلك ، فارتاب به الطبيب وتخيل منه ، ومع هذا حمله الطمع على الاستمرار معه حتى دخل داره ، فاذا هى خربة فارتاب الطبيب أيضا فخرج صاحبه فقال له : ومع هذا البطء جئت لنا بصيد ، فلما سمعها الطبيب هرب فخرجا خلفه سراعا فما خلص إلا بعد جهد وشر .

وفيها وقع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن ، وكانوا عشرين قرية ، فبادت منها ثمانى عشرة لم يبق فيها ديار ولا نافخ نار ، وبقيت أنعامهم وأموالهم لاقانى لها ، ولا يستطيع أحد أن يسكن تلك القرى ولا يدخلها ، بل كان من اقترب إلى شىء من هذه القرى هلك من ساعته ، نعوذ بالله من بأس الله وعذابه ، وغضبه وعقابه ، أما القريتان الباقيتان فانهما لم يمت منهما أحد ولا عندهم شعور بما جرى على من حولهم ، بل هم على حالهم لم يفقد منهم أحد فسبحان الحكيم العليم .

واتفق باليمن فى هذه السنة كائنة غريبة جدا ، وهى أن رجلا يقال له عبـد الله بن حمزة العلوى كان قد تغلب عـلى كثير من بلاد اليمن ، وجمع نحواً من اثنى عشر ألف فارس ، ومن الرجالة جمعا كثيراً ، وخافه ملك اليمن إسماعيل بن طغتكين بن أيوب ، وغلب على ظنه زوال ملكه على يدى هذا الرجـل ، وأيقن بالهلكة لضعفه عن مقاومته ، واختلاف أمرائه معه فى المشورة ، فأرسل الله صاعقة فنزلت عليهم فلم يبق منهم أحـد سوى طائفة من الخيالة والرجالة ، فاختلف جيشه فيما بينهم فغشيهم المعز فقتل منهم ستة آلاف ، واستقر فى ملكه آمنا .

وفيها تكاتب الاخوان الأفضل من صرخد والظاهر من حلب على أن يجتمعا على حصار دمشق و ينتزعاها من المعظم بن العادل، وتكون للأفضل ، ثم يسيرا إلى مصرفيأخذاها من العادل وابنه الكامل اللذين نقضا العهد وأبطلا خطبة المنصور ، ونكثا المواثيق ، فاذا أخذا مصر كانت للأفضل وتصير دمشق مضافـة إلى الظاهر مع حلب ، فلما بلغ العادل ما تمالآ عليه أرسل جيشا مددا لابنه المعظم عيسى إلى دمشق ، فوصلوا إليها قبل وصول الظاهر وأخيه إليها ، وكان وصولهما إليها فى ذى القعدة من ناحية بعلبك ، فنزلا على مسجد القدم واشتد الحصار للبلد ، وتسلق كثير من الجيش من ناحية خان القدم ، ولم يبق إلا فتح البلد ، لولا هجوم الليل ، ثم إن الظاهر بداله فى كون دمشق للأفضل فرأى أن تكون له أولا ، ثم إذا فتحت مصر تسلمها الأفضل ، فأرسل إليه فى ذلك فلم يقبل الأفضل ،فاختلفا وتفرقت كلمتهما ، وتنازعا الملك بدمشق ، فتفرقت الأمراء عنهما ، وكوتب العادل فى الصلح فأرسل يجيب إلى ما سألا و زاد فى إقطاعهما شيئاً من بلاد الجزيرة ، و بعض معاملة المعرة . وتفرقت العساكر عن دمشق فى محرم سنة ثمان وتسعين ، وسار كل منهما إلى ما تسلم من البلاد التى أقطعها ، وجرت خطوب يطول شرحها ، وقـد كان الظاهر وأخوه كتبا إلى صاحب الموصـل نور الدين أرسـلان الأتابكى أن يحاصر مـدن الجزيرة التى مع عمهما العادل ، فركب فى جيشه وأرسل إلى ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار ، واجتمع معهما صاحب ماردين الذى كان العادل قـد حاصره وضيق عليه مدة طويلة ، فقصدت العساكر حران ، وبها الفائز بن العـادل ، فحاصروه مدة ، ثم لما بلغهم وقوع الصلح عدلوا إلى المصالحة ، وذلك بعـد طلب الفائز ذلك منهم ، وتمهدت الأمور واستقرت على ما كانت عليه .

وفيها ملك غياث الدين وأخوه شهاب الدين الغوريان جميع ما كان يملك خوارزم شاه من البلدان والحواصل والأموال ، وجرت لهم خطوب طويلة جدا . وفيها كانت زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة و بلاد الروم والعراق ، وكان جمهورها وعظمها بالشام تهدمت منها دور كثيرة ، وتخربت محال كثيرة ، وخسف بقرية من أرض بصرى ، وأما سواحل الشام وغيرها فهلك فيها شئ

كثير، وأخربت محال كثيرة من طرابلس وصور وعكاونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامرة ومات بها و بقراها ثلاثون ألفا تحت الردم ، وسقط طائفة كثيرة من المنارة الشرقية بدمشق بجامعها، وأربع عشرة شرافة منه، وغالب الكلاسة والمارستان النورى ، وخرج الناس إلى الميادين يستغيثون وسقط غالب قلعة بعلبك مع وثاقة بنيانها ، وانفرق البحر إلى قبرص وقد حذف بالمراكب منه إلى ساحله، وتعدى إلى ناحية الشرق فسقط بسبب ذلك دور كثيرة ، ومات أمم لا يحصون ولا يعدون حتى قال صاحب مرآة الزمان : إنه مات فى هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف إنسان قتلا تحتها ، وقيل إن أحداً لم يحص من مات فيها والله سبحانه أعلم .

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ عبد الرحمن بن على ﴾

ابن محمد بن على بن عبد الله بن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزى — نسبة إلى فرضة نهر البصرة ـ ابن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، الشيخ الحافظ الواعظ جمال الدين أبو الفرج المشهور بابن الجوزى ، القرشى التيمى البغدادى الحنبلى ، أحد أفراد العلماء ، برز فى علوم كثيرة ، وانفرد بها عن غيره ، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف ، وكتب بيده نحواً من مائتى مجلدة ، وتفرد بفن الوعظ الذى لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه وفى طريقته وشكله ، وفى فصاحته و بلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه وغوصه على المعانى البديعة ، وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية ، بعبارة وجيزة سريعة الفهم والادراك ، بحيث يجمع المعانى الكثيرة فى الكلمة اليسيرة ، هذا وله فى العلوم كلها اليد الطولى ، والمشاركات فى سائر أنواعها من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنظر فى النجوم والطب والفقه وغير ذلك من اللغة والنحو ، وله من المصنفات فى ذلك ما يضيق هذا المكان عن تعدادها ، وحصر أفرادها ، منها كتابه فى التفسير المشهور بزاد المسير ، وله تفسير أبسط منه ولكنه ليس بمشهور ، وله جامع المسانيد استوعب به غالب مسند أحمد وصحيحى البخارى ومسلم وجامع الترمذى ، وله كتاب المنتظم فى تواريخ الأمم من العرب والعجم فى عشرين مجلداً ، قد أوردنا فى كتابنا هذا كثيرا منه من حوادثه وتراجمه ، ولم يزل يؤرخ أخبار العالم حتى صار تاريخاً ، وما أحقه بقول الشاعر :

مازلت تدأب فى التاريخ مجتهداً * حتى رأيتك فى التاريخ مكتوبا

وله مقامات وخطب ، وله الأحاديث الموضوعة ، وله العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية ، وغير ذلك . ولد سنة عشر وخمسمائة ، ومات أبوه وعمره ثلاث سنين ، وكان أهله تجاراً فى النحاس، فلما ترعرع جاءت به عمته إلى مسجد محمد بن ناصر الحافظ ، فلزم الشيخ وقرأ عليه وسمع عليه

الحديث وتفقه بابن الزاغونى ، وحفظ الوعظ و وعظ وهو ابن عشرين سنة أو دونها ، وأخـذ اللغة عن أبى منصور الجواليقى ، وكان وهو صبى دينا مجموعا عـلى نفسه لا يخالط أحـداً ولا يأ كل ما فيه شبهة ، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة ، وكان لا يلعب مع الصبيان ، وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك والأمراء والعلماء والفقراء ، ومن سائر صنوف بنى آدم ،وأقل ما كان يجتمع فى مجلس وعظه عشرة آلاف ، وربما اجتمع فيه مائة ألف أو يزيدون ، وربما تكلم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً ، وبالجملة كان أستاذاً فرداً فى الوعظ وغيره ، وقد كان فيه بهاء وترفع فى نفسه وإعجاب وسمو بنفسه أكثر من مقامه ، وذلك ظاهر فى كلامه فى نثره ونظمه ، فمن ذلك قوله :

ما زلت أدرك ما غلا بل ما علا * وأكابد النهج العسير الأطولا
تجرى بى الآمال فى حلباته * جرى السعيد مدى ما أملا
أفضى بى التوفيق فيه إلى الذى * أعيا سواىَ توصلا وتغلغلا
لو كان هذا العلم شخصاً ناطقاً * وسألته هل زار مثلى ؟ قال : لا

ومن شعره وقيل هو لغيره :

إذا قنعت بميسور من القوت * بقيت فى الناس حرا غير ممقوت
ياقوت يومى إذاما در حلقك لى * فلست آسى على در وياقوت

وله من النظم والنثر شىء كثيراً جداً ، وله كتاب سماه لقط الجمان فى كان وكان ، ومن لطائف كلامه قوله فى الحديث « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين » إنما طالت أعمار من قبلنا لطول البادية ، فلما شارف الركب بلد الاقامة قيل لهم حثوا المطى ، وقال له رجل أيما أفضل ؟ أجلس أسبح أوأستغفر ؟ فقال الثوب الوسخ أحوج إلى البخور . وسئل عمن أوصى وهو فى السياق فقال : هذا طين سطحه فى كانون . والتفت إلى ناحيـة الخليفة المستضىء وهو فى الوعظ فقال : يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك ، وإن سـكت خفت عليك ، وإن قول القائل لك اتق الله خير لك من قوله لـكم إنكم أهل بيت مغفور لكم ، كان عمر بن الخطاب يقول : إذا بلغنى عن عامل لى أنه ظلم فلم أغـيره فأنا الظالم ، يا أمير المؤمنين . وكان يوسف لا يشبع فى زمن القحط حتى لا ينسى الجائع ، وكان عمر يضرب بطنـه عام الرمادة ويقول قرقرا ولا تقرقرا ، والله لا ذاق عمر سمناً ولا سميناً حتى يخصب الناس . قال فبكى المستضىء وتصدق بمال كثير ، وأطلق المحابيس وكسى خلقا من الفقراء . ولد ابن الجوزى فى حدود سنة عشر وخمسمائة كما تقدم ، وكانت وفاته ليـلة الجمعـة بين العشاءين الثانى عشر من رمضان من هذه السنة ، وله من العمر سبع وثمانون سنة ، وحملت جنازته على رؤس الناس ، وكان الجمع كثيراً جداً ، ودفن بباب حرب عند أبيه بالقرب من الامام أحمـد ، وكان يوماً

مشهوداً ، حتى قيل : إنه أفطر جماعة من الناس من كثرة الزحام وشدة الحر، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات :

يا كثير العفو لمن * كثرت الذنوب لديه * جاءك المذنب يرجو الصـ * ـفح عن جرم يديه
أنا ضيف وجزاء الـ * ـضيف إحسان إليه

وقد كان له من الأولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز ـ وهو أكبرهم ـ مات شابا فى حياة والده فى سنة أربع وخمسين ، ثم أبو القاسم على ، وقد كان عاقا لوالده إلبا عليه فى زمن المحنة وغيرها ، وقد تسلط على كتبه فى غيبته بواسط فباعها بأبخس الثمن ، ثم محيي الدين يوسف ، وكان أنجب أولاده وأصغرهم ولد سنة ثمانين ووعظ بعد أبيه ، واشتغل وحرر وأتقن وساد أقرانه ، ثم باشر حسبة بغداد ، ثم صار رسول الخلفاء إلى الملوك بأطراف البلاد ، ولا سيما بنى أيوب بالشام ، وقد حصل منهم من الأموال والكرامات ما ابتنى به المدرسة الجوزية بالنشابين بدمشق ، وما أوقف عليها ، ثم حصل له من سائر الملوك أموالا جزيلة ، ثم صار أستاذ دار الخليفة المستعصم فى سنة أربعين وستمائة ، واستمر مباشرها إلى أن قتل مع الخليفة عام هارون تركى بن جنكيزخان ، وكان لأبى الفرج عدة بنات منهن رابعة أم سبطه أبى المظفر بن مزعلى صاحب مرآة الزمان ، وهى من أجمع التواريخ وأكثرها فائدة ، وقد ذكره ابن خلكان فى الوفيات فأثنى عليه وشكر تصانيفه وعلومه .

﴿ العماد الكاتب الأصبهانى ﴾

محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله بن أله ـ بتشديد اللام وضمها ـ ، المعروف بالعماد الكاتب الأصبهانى ، صاحب المصنفات والرسائل ، وهو قرين القاضى الفاضل ، واشتهر فى زمنه ، ومن اشتهر فى زمن الفاضل فهو فاضل ، ولد بأصبهان فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وقدم بغداد فاشتغل بها على الشيخ أبى منصور سعيد بن الرزاز مدرس النظامية ، وسمع الحديث ثم رحل إلى الشام فحظى عند الملك نور الدين محمود بن زنكى ، وكتب بين يديه وولاه المدرسة التى أنشأها داخل باب الفرج التى يقال لها العمادية ، نسبة إلى سكناه بها وإقامته فيها ، وتدريسه بها ، لا أنه أنشأها وإنما أنشأها نور الدين محمود ، ولم يكن هو أول من درس بها ، بل قد سبقه إلى تدريسها غير واحد ، كما تقدم فى ترجمة نور الدين ، ثم صار العماد كاتباً فى الدولة الصلاحية وكان الفاضل يثنى عليه ويشكره ، قالوا : وكان منطوقه يعتريه جمود وفترة ، وقريحته فى غاية الجودة والحدة ، وقد قال القاضى الفاضل لأصحابه يوماً : قولوا فتكلموا وشبهوه فى هذه الصفة بصفات فلم يقبلها القاضى ، وقال : هو كالزناد ظاهره بارد وداخله نار ، وله من المصنفات الجريدة جريدة النصر فى شعراء العصر ، والفتح القدسى ، والبرق السامى وغير ذلك من المصنفات المسجعة ، والعبارات المتنوعة

والقصائد المطولة . توفى فى مستهل رمضان من هـذه السنة عن ثمان وسبعين سـنة ، ودفن بمقابر الصوفية .

﴿ الأمير بهاء الدين قراقوش ﴾

الفحل الخصى ، أحد كبار كتاب أمراء الدولة الصلاحية ، كان شهما شجاعا فاتكا ، تسلم القصر لما مات العاضد وعمر سور القاهرة محيطا على مصر أيضاً ، وانتهى إلى المقسم وهو المكان الذى اقتسمت فيه الصحابة ما غنموا من الديار المصرية ، و بنى قلعة الجبـل ، وكان صلاح الدين سلمه عكا ليعمر فيها أماكن كثيرة فوقع الحصار وهو بها ، فلما خرج البدل منها كان هو من جملة من خرج ، ثم دخلها ابن المشطوب. وقد ذكر أنه أسر فافتدى نفسه بعشرة آلاف دينار ، وعاد إلى صلاح الدين ففرح به فرحا شـديدا ، ولما توفى فى هذه السنة احتاط العادل عـلى تركته وصارت أقطاعـه وأملاكه للملك الكامل محمد بن العادل . قال ابن خلكان : وقد نسب إليه أحكام عجيبة ، حتى صنف بعضهم جزءاً لطيفا سماه كتاب الفاشوش فى أحكام قراقوش ، فذكر أشياء كثيرة جدا ، وأظنها موضوعة عليه ، فان الملك صلاح الدين كان يعتمد عليه ، فكيف يعتمد على من بهذه المثابة والله أعلم .

﴿ مكلبة بن عبد الله المستنجدى ﴾

كان تركياً عابدا زاهدا ، سمع المؤذن وقت السحر وهو ينشد على المنارة :

يا رجال الليل جدوا * رب صوت لا يرد
ما يقوم الليل إلا * من له عزم وجد

فبكى مكلبة وقال للمؤذن يا مؤذن زدنى ، فقال :

قد مضى الليل وولى * وحبيبى قد تخلا

فصرخ مكلبة صرخـة كان فيها حتفه ، فأصبح أهل البلد قد اجتمعوا عـلى بابه فالسعيد منهم من وصل إلى نعشه رحمه الله تعالى .

﴿ أبو منصور بن أبى بكر بن شجاع ﴾

المركاسى ببغداد ، و يعرف بابن نقطة ، كان يدور فى أسواق بغداد بالنهار ينشد كان وكان والمواليا ، و يسحر الناس فى ليالى رمضان ، وكان مطبوعا ظريفا خليعا ، وكان أخوه الشيخ عبد الغنى الزاهد من أكابر الصالحين ، له زاوية ببغداد يزار فيها ، وكان له أتباع ومريدون ، ولا يدخر شيئا يحصل له من الفتوح ، تصدق فى ليلة بألف دينار وأصحابه صيام لم يدخر منها شيئا لعشائهم ، و زوجته أم الخليفة بجارية من خواصها وجهزتها بعشرة آلاف دينار إليه فما حال الحول وعندهم من ذلك شئ سوى هاون ، فوقف سائل ببابه فالح فى الطلب فأخرج إليه الهاون فقال : خذ هـذا وكل به ثلاثين يوماً ، ولا تسأل الناس ولا تشنع على الله عز وجل . هذا الرجـل من خيار الصالحين ، والمقصود أنه قال لأخيه أبى

منصور : ويحك أنت تدور فى الأسواق وتنشد الأشعار وأخوك من قد عرفت ؟ فأنشأ يقول فى جواب ذلك بيتين مواليا من شعره على البديهة :

قد خاب من شبه الجزعة إلى درة * وقاس قحبة إلى مستحيية حره
أنا مغنى وأخى زاهد إلى مرة * فى الدر ببرى ذى حلوة وذى مره

وقد جرى عنده مرة ذكر قتل عثمان وعلى حاضر ، فأنشأ يقول كان وكان ، ومن قتل فى جواره مثل ابن عفان فاعتذر ، يجب عليه أن يقبل فى الشام عذر يزيد ، فأرادت الروافض قتله فاتفق أنه بعض الليالى يسحر الناس فى رمضان إذ مر بدار الخليفة فعطس الخليفة فى الطارقة فشمته أبو منصور هذا من الطريق ، فأرسل إليه مائة دينار ، ورسم بحمايته من الروافض ، إلى أن مات فى هذه السنة رحمه الله . وفيها توفى مسند الشام .

﴿ أبو طاهر بركات بن إبراهيم بن طاهر ﴾

الخشوعى ، شارك ابن عساكر فى كثير من مشيخته ، وطالت حياته بعد وفاته بسبع وعشرين سنة فألحق فيها الاحفاد بالأجداد .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ﴾

فيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن قدامة بانى المدرسة بسفح قايسون ، فى بناء المسجد الجامع بالسفح ، فاتفق عليه رجل يقال له الشيخ أبو داود محاسن الغامى ، حتى بلغ البناء مقدار قامة فنفد ما عنده ، وما كان معه من المال ، فأرسل الملك المظفر كوكرى بن زين الدين صاحب إربل مالا جزيلا ليتمه به ، فكمل وأرسل ألف دينار ليساق بها إليه الماء من بردى ، فلم يمكن من ذلك الملك المعظم صاحب دمشق ، واعتذر بأن هذا فرش قبور كثيرة للمسلمين ، فصنع له بئر وبغل يدور ، ووقف عليه وقفا لذلك . وفيها كانت حروب كثيرة وخطوب طويلة بين الخوارزمية والغورية ببلاد المشرق بسطها ابن الأثير واختصرها ابن كثير . وفيها درس بالنظامية مجد الدين يحيى بن الربيع وخلع عليه خلعة سنية سوداء وطرحة كحلى ، وحضر عنده العلماء والأعيان . وفيها تولى القضاء ببغداد أبو الحسن على بن سليمان الجيلى وخلع عليه أيضاً .

وفيها توفى من الأعيان

﴿ القاضى ابن الزكى ﴾

محمد بن على بن محمد بن يحيى بن عبد العزيز أبو المعالى القرشى ، محيى الدين قاضى قضاة دمشق وكل منهما كان قاضيا أبوه وجده وأبو جده يحيى بن على ، وهو أول من ولى الحكم بدمشق منهم ، وكان هو جد الحافظ أبى القاسم بن عساكر لأمه ، وقد ترجمه ابن عساكر فى التاريخ ولم يزد على القرشى . قال الشيخ أبو شامة : ولو كان أمويا عثمانيا كما يزعمون لذكر ذلك ابن عساكر ، إذ كان فيه شرف لجده

وخاليه محمد وسلطان ، فلو كان ذلك صحيحا لما خفى على ابن عساكر ، اشتغل ابن الزكى على القاضى شرف الدين أبى سعد عبد الله بن محمد بن أبى عصرون ، وناب عنه فى الحكم ، وهو أول من ترك النيابة ، وهو أول من خطب بالقدس لما فتح كما تقدم ، ثم تولى قضاء دمشق وأضيف إليه قضاء حلب أيضاً ، وكان ناظر أوقاف الجامع ، وعزل عنها قبل وفاته بشهور ، ووليها شمس الدين بن اللبثى ضمانا ، وقد كان ابن الزكى ينهى الطلبة عن الاشتغال بالمنطق وعلم الكلام ، ويمزق كتب من كان عنده شىء من ذلك بالمدرسة النورية ، وكان يحفظ العقيدة المسماة بالمصباح للغزالى ، ويحفظها أولاده أيضاً ، وكان له درس فى التفسير يذكره بالكلاسة ، تجاه تربة صلاح الدين ، ووقع بينه وبين الاسماعيلية فأرادوا قتله فاتخذ له بابا من داره إلى الجامع ليخرج منه إلى الصلاة ، ثم إنه خولط فى عقله ، فكان يعتريه شبه الصرع إلى أن توفى فى شعبان من هذه السنة ، ودفن بتربته بسفح قايسون ويقال إن الحافظ عبد الغنى دعا عليه فحصل له هذا الداء العضال ، ومات ، وكذلك الخطيب الدولعى توفى فيها وهما اللذان قاما على الحافظ عبد الغنى فماتا فى هذه السنة ، فكانا عبرة لغيرهما .

﴿ الخطيب الدولعى ﴾

ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الثعلبى الدولعى ، نسبة إلى قرية بالموصل ، يقال لها الدولعية ، ولد بها فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وتفقه ببغداد على مذهب الشافعى وسمع الحديث فسمع الترمذى على أبى الفتح الكروجى ، والنسائى على أبى الحسن على بن أحمد البردى ثم قدم دمشق فولى بها الخطابة وتدريس الغزالية ، وكان زاهدا متورعا حسن الطريقة مهيباً فى الحق ، توفى يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول ، ودفن بمقبرة باب الصغير عند قبور الشهداء ، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً ، وتولى بعده الخطابة ولد أخيه محمد بن أبى الفضل بن زيد سبعا وثلاثين سنة ، وقيل ولده جمال الدين محمد . وقد كان ابن الزكى ولى ولده الزكى فصلى صلاة واحدة فتشفع جمال الدين بالأمير علم الدين أخى العادل ، فولاه إياها فبقى فيها إلى أن توفى سنة خمس وثلاثين وستمائة .

﴿ الشيخ على بن على بن عليش ﴾

اليمنى العابد الزاهد ، كان مقيما شرقى الكلاسة ، وكانت له أحوال وكرامات ، نقلها الشيخ علم الدين السخاوى عنه ، ساقها أبو شامة عنه .

﴿ الصدر أبو الثناء حماد بن هبة الله ﴾

ابن حماد الحرانى ، التاجر ، ولد سنة إحدى عشرة عام نور الدين الشهيد ، وسمع الحديث ببغداد ومصر وغيرها من البلاد ، وتوفى فى ذى الحجة ، ومن شعره قوله :

تنقل المرء فى الآفاق يكسبه * محاسنا لم يكن منها ببلدته

أما ترى البيدق الشطرنج أكسبه * حسن التنقل حسنا فوق زينته

الست الجليلة ﴿ ينفشا بنت عبد الله ﴾

عتيقة المستضيء ، كانت من أكبر حظاياه ، ثم صارت بعده من أكثر الناس صدقة وبراً وإحسانا إلى العلماء والفقراء ، لها عند تربتها ببغداد عند تربة معروف الكرخي صدقات وبر .

﴿ ابن المحتسب الشاعر أبو السكر ﴾

محمود بن سليمان بن سعيد الموصلي يعرف بابن المحتسب ، تفقه ببغداد ثم سافر إلى البلاد وصحب ابن الشهرزورى وقدم معه ، فلما ولى قضاء بغداد ولاه نظر أوقاف النظامية ، وكان يقول الشعر ، وله أشعار فى الخمر لا خير فيها تركتها تنزها عن ذلك ، وتقذرا لها .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة ﴾

قال سبط ابن الجوزى فى مرآته : فى ليلة السبت سلخ المحرم هاجت النجوم فى السماء وماجت شرقا وغربا ، وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا ، قال : ولم ير مثل هذا الا فى عام المبعث ، وفى سنة إحدى وأربعين ومائتين . وفيها شرع بعمارة سورقلعة دمشق وابتدئ ببرج الزاوية الغربية القبلية المجاور لباب النصر . وفيها أرسل الخليفة الناصر الخلع وسراويلات الفتوة إلى الملك العادل وبنيه . وفيها بعث العادل ولده موسى الأشرف لمحاصرة ماردين ، وساعده جيش سنجار والموصل ثم وقع الصلح على يدى الظاهر ، على أن يحمل صاحب ماردين فى كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار ، وأن تكون السكة والخطبة للعادل ، وأنه متى طلبه بجيشه يحضر إليه . وفيها كمل بناء رباط المورريانية ، ووليه الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد الشهرزورى ، ومعه جماعة من الصوفية ، ورتب لهم من المعلوم والجراية ما ينبغى لمثلهم . وفيها احتجر الملك العادل على محمد بن الملك العزيز وإخوته وسيرهم إلى الرها خوفا من آفاتهم بمصر . وفيها استحوذت الكرج على مدينة دوين فقتلوا أهلها ونهبوها ، وهى من بلاد آذربيجان ، لاشتغال ملكها بالفسق وشرب الخمر قبحه الله ، فتحكمت الكفرة فى رقاب المسلمين بسببه ، وذلك كله غل فى عنقه يوم القيامة .

وفيها توفى ﴿ الملك غياث الدين الغورى أخو شهاب الدين ﴾

فقام بالملك بعده ولده محمود ، وتلقب بلقب أبيه ، وكان غياث الدين عاقلا حازماً شجاعاً ، لم تكسر له راية مع كثرة حروبه ، وكان شافعى المذهب ، ابتنى مدرسة هائلة للشافعية ، وكانت سيرته حسنة فى غاية الجودة . وفيها توفى من الأعيان .

﴿ الأمير علم الدين أبو منصور (١) ﴾

سليمان بن شيروة بن جندر أخو الملك العادل لأبيه ، فى تاسع عشر من المحرم ، ودفن بداره التى

(١) فى النجوم الزاهرة : سليمان بن جندر .

خطها مدرسة فى داخل باب الفراديس فى محلة الافتراس ، ووقف عليها الحمام بكمالها تقبل الله منه

﴿ القاضى الضياء الشهرزورى ﴾

أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى الموصلى ، قاضى قضاة بغداد ، وهو ابن أخى قاضى قضاة دمشق كمال الدين الشهرزورى ، أيام نور الدين . ولما توفى سنة ست وسبعين فى أيام صلاح الدين أوصى لولد أخيه هذا بالقضاء فوليه ، ثم عزل عنه بابن أبى عصرون ، وعوض بالسفارة إلى الملوك ، ثم تولى قضاء بلدة الموصل ، ثم استدعى إلى بغداد فوليها سنتين وأربعة أشهر ، ثم استقال الخليفة فلم يقله لحظوته عنده ، فاستشفع فى زوجته ست الملوك على أم الخليفة ، وكان لها مكانة عندها ، فأجيب إلى ذلك فصار إلى قضاء حماه لمحبته إياها ، وكان يعاب عليه ذلك ، وكانت لديه فضائل وله أشعار رائقة ، توفى فى حماه فى نصف رجب منها .

﴿ عبد الله بن على بن نصر بن حمزة ﴾

أبو بكر البغدادى المعروف بابن المرستانية ، أحد الفضلاء المشهورين . سمع الحديث وجمعه ، وكان طبيباً منجماً يعرف علوم الأوائل وأيام الناس ، وصنف ديوان الاسلام فى تاريخ دار السلام ، ورتبه على ثلاثمائة وستين كتابا إلا أنه لم يشتهر ، وجمع سيرة ابن هبيرة ، وقد كان يزعم أنه من سلالة الصديق فتكلموا فيه بسبب ذلك . وأنشد بعضهم :

دع الأنساب لا تعرض لتيم * فان الهجن من ولد الصميم
لقد أصبحت من تيم دعيا * كدعوى حيص بيص إلى تميم

﴿ ابن النجا الواعظ ﴾

على بن إبراهيم بن نجا زين الدين أبو الحسن الدمشقى ، الواعظ الحنبلى ، قدم بغداد فتفقه بها وسمع الحديث ثم رجع إلى بلده دمشق ، ثم عاد إليها رسولا من جهة نور الدين فى سنة أربع وستين ، وحدث بها ، ثم كانت له حظوة عند صلاح الدين ، وهو الذى نم على عمارة اليمنى وذويه فصلبوا ، وكانت له مكانة بمصر ، وقد تكلم يوم الجمعة التى خطب فيها بالقدس بعد الفراغ من الجمعة ، وكان وقتاً مشهوداً ، وكان يعيش عيشا أطيب من عيش الملوك فى الأطعمة والملابس ، وكان عنده أكثر من عشرين سرية من أحسن النساء ، كل واحدة بألف دينار ، فكان يطوف عليهن ويغشاهن وبعد هذا كله مات فقيراً لم يخلف كفنا ، وقد أنشد وهو على منبره للوزير طلائع بن زريك :

مشيبك قد قضى شرخ الشباب * وحل الباز فى وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان يقظى * وما ناب النوائب عنك ناب
فكيف بقاء عمرك وهو كنز * وقد أنفقت منه بلا حساب ؟

الشيخ أبو البركات (محمد بن أحمد بن سعيد التكريتى) يعرف بالمؤيد ، كان أديباً شاعراً . ومما نظمه فى الوجيه النحوى حين كان حنبليا فانتقل حنفيا ، ثم صار شافعيا ، نظم ذلك فى حلقة النحو بالنظامية فقال :

ألا مبلغا عنى الوجيه رسالة * وإن كان لا تجدى لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل * وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت قول الشافعى ديانة * ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر * إلى مالك فانظر إلى ما أنت قائل ؟

﴿ الست الجليلة زمرد خاتون ﴾

أم الخليفة الناصر لدين الله زوجة المستضىء ، كانت صالحة عابدة كثيرة البر والاحسان والصلات والأوقاف ، وقد بنت لها تربة إلى جانب قبر معروف ، وكانت جنازتها مشهورة جداً ، واستمر العزاء بسببها شهراً ، عاشت فى خلافة ولدها أربعا وعشرين سنة نافذة الكلمة مطاعة الأوامر .

وفيها كان مولد الشيخ شهاب الدين أبى شامة ، وقد ترجم نفسه عند ذكر مولده فى هذه السنة فى الذيل ترجمة مطولة ، فينقل إلى سنة وفاته ، وذكر بدو أمره ، واشتغاله ومصنفاته وشيئا كثيراً من شعاره ، وما رؤى له من المنامات المبشرة . وفيها كان ابتداء ملك جنكيز خان ملك التتار ، عليه من الله ما يستحقه ، وهو صاحب الباسق وضعها ليتحاكموا إليها - يعنى التتار ومن معهم من أمراء الترك — ممن يبتغى حكم الجاهلية — وهو والد تولى ، وجد هولاكو بن تولى - الذى قتل الخليفة المستعصم وأهل بغداد فى سنة ست وخمسين وستمائة كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى فى موضعه . والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ سنة ستمائة من الهجرة النبوية ﴾

فى هذه السنة كانت الفرنج قد جمعوا خلقا منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدى المسلمين ، فأشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم ، وذلك أنهم اجتازوا فى طريقهم بالقسطنطينية فوجدوا ملوكها قد اختلفوا فيما بينهم ، فحاصروها حتى فتحوها قسرا ، وأباحوها ثلاثة أيام قتلا وأسرا ، وأحرقوا أكثر من ربعها ، وما أصبح أحد من الروم فى هذه الأيام الثلاثة إلا قتيلا أو فقيراً أو مكبولا أو أسيراً ، ولجأ عامة من بقى منها إلى كنيستها العظمى المسماة باياصوفيا ، فقصدهم الفرنج فخرج إليهم القسيسون بالأناجيل ليتوسلوا إليهم ويتلوا ما فيها عليهم ، فما التفتوا إلى شئ من ذلك ، بل قتلوهم أجمعين أكتعين أبصعين . وأخذوا ما كان فى الكنيسة من الحلى والأذهاب والأموال التى لا تحصى ولا

تعد ، وأخـذوا ما كان على الصلبان والحيطان ، والحمد لله الرحيم الرحمن، الذى ما شـاء كان ، ثم اقترع ملوك الفرنج وكانوا ثلاثة وهم دوق البنادقة ، وكان شيخا أعمى يقاد فرسه ، ومركيس الافرنسيس وكندا بلند ، وكان أكثرهم عدداً وعدداً . فخرجت القرعة له ثلاث مرات ، فولوه ملك القسطنطينية وأخذ الملكان الآخران بعض البلاد ، وتحول الملك من الروم إلى الفرنج بالقسطنطينية فى هذه السنة ولم يبق بأيدى الروم هنالك إلا ما وراء الخليج ، استحوذ عليه رجل من الروم يقال له تسكرى ، ولم يزل مالـكا لتلك الناحية حتى توفى . ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام وقد تقووا بملكهم القسطنطينية فنزلوا عكا وأغاروا على كثير من بلاد الاسلام من ناحية الغور وتلك الأراضى، فقتلوا وسبوا ، فنهض إليهم العادل وكان بدمشق ، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية ونازلهم بالقرب من عكا ، فكان بينهم قتال شديد وحصـار عظيم ، ثم وقع الصلح بينهـم والهدنة وأطلق لهم شيئا من البلاد فانا لله و إنا إليه راجعون .

وفيها جرت حروب كثيرة بين الخوارزميـة والغورية بالمشرق يطول ذكرها . وفيها تحارب صاحب الموصل نور الدين وصاحب سنجار قطب الدين وساعد الأشرف بن العـادل القطب ، ثم اصطلحوا وتزوج الأشرف أخت نور الدين ، وهى الأتابكية بنت عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، واقفة الأتابكية التى بالسفح ، وبها تربتها . وفيها كانت زلزلة عظيمة بمصر والشام والجزيرة وقبرص وغيرها من البلاد . قاله ابن الأثير فى كامله . وفيها تغلب رجل من التجار يقال له محمود بن محمـد الحميرى عـلى بعض بلاد حضرموت ظفار وغيرها ، واسـتمرت أيامه إلى سـنة تسع عشرة وستمائة وما بعدها .

وفى جمادى الأولى منها عقد مجلس لقاضى القضاة ببغداد وهو أبو الحسن على بن عبد الله بن سليمان الجيلى بدار الوزير ، وثبت عليه محضر بأنه يتناول الرشا فعزل فى ذلك المجلس وفسق ونزعت الطرحة عن رأسه ، وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر .

وفيها كانت وفاة الملك ركن الدين بن قلج أرسـلان ، كان ينسب إلى اعتقاد الفلاسفة ، وكان كهفاً لمن ينسب إلى ذلك ، وملجأ لهم ، وظهر منه قبـل موته تجهرم عظيم ، وذلك أنه حاصر أخاه شقيقه ــ وكان صاحب أنكورية ، وتسمى أيضاً أنقرة ــ مدة سنين حتى ضيق عليه الأقوات بها فسلمها إليه قسراً ، على أن يعطيه بعض البلاد. فلما تمكن منه ومن أولاده أرسل إليهم من قتلهم غدراً وخديعة ومكرا فلم ينظر بعد ذلك إلا خمسة أيام فضربه الله تعالى بالقولنج سبعة أيام ومات (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) وقام بالملك من بعده ولده أفلح أرسلان ، وكان صغيراً فبقى سنة واحدة ، ثم نزع منـه الملك وصار إلى عمه كنخسرو . وفيها قتل خلق كثير من الباطنية بواسـط . قال ابن

الأثير : فى رجب منها اجتمع جماعة من الصوفية برباط ببغداد فى سماع فأنشدهم ، وهو الجمال الحلى :

أعاذلتى أقصرى * كفى بمشيبى عذل
شباب كأن لم يكن * ومشيب كأن لم يزل
وبثى ليال الوصا * ل أواخرها والأول
وصفرة لون المحب * ب عند استماع الغزل
لئن عاد عتبى لكم * حلا لى العيش واتصل
فلست أبالى بما نالنى * ولست أبالى بأهل ومل

قال فتحرك الصوفية على العادة فتواجد من بينهم رجل يقال له أحمد الرازى فخر مغشياً عليه ، فحركوه فاذا هو ميت . قال : وكان رجلا صالحا ، وقال ابن الساعى كان شيخا صالحا صحب الصدر عبد الرحيم شيخ الشيوخ فشهد الناس جنازته ، ودفن بباب إبرز .

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ أبو القاسم بهاء الدين ﴾

الحافظ ابن الحافظ أبو القاسم على بن هبة الله بن عساكر ، كان مولده فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، أسمعه أبوه الكثير ، وشارك أباه فى أكثر مشايخه ، وكتب تاريخ أبيه مرتين بخطه ، وكتب الكثير وأسمع وصنف كتبا عدة ، وخلف أباه فى إسماع الحديث بالجامع الأموى ، ودار الحديث النورية . مات يوم الخميس ثامن صفر ودفن بعد العصر على أبيه بمقابر باب الصغير شرقى قبور الصحابة خارج الحظيرة .

﴿ الحافظ عبد الغنى المقدسى ﴾

ابن عبد الواحد بن على بن سرور الحافظ أبو محمد المقدسى ، صاحب التصانيف المشهورة ، من ذلك الكمال فى أسماء الرجال ، والأحكام الكبرى والصغرى وغير ذلك ، ولد بجماعيل فى ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وهو أسن من عميه الامام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسى ، والشيخ أبى عمر ، بأربعة أشهر ، وكان قدومهما مع أهلهما من بيت المقدس إلى مسجد أبى صالح ، خارج باب شرقى أولا ، ثم انتقلوا إلى السفح فعرفت محلة الصالحية بهم ، فقيل لها الصالحية ، فسكنوا الدير ، وقرأ الحافظ عبد الغنى القرآن وسمع الحديث وارتحل هو والموفق إلى بغداد سنة ستين وخمسمائة ، فأنزلهما الشيخ عبد القادر عنده فى المدرسة ، وكان لايترك أحداً ينزل عنده ، ولكن توسم فيهما الخير والنجابة والصلاح فأكرمهما وأسمعهما ، ثم توفى بعد مقدمهما بخمسين ليلة رحمه الله ، وكان ميل عبد الغنى إلى الحديث وأسماء الرجال ، وميل الموفق إلى الفقه واشتغلا على الشيخ أبى الفرج ابن الجوزى ، وعلى الشيخ أبى الفتح ابن المنى ، ثم قدما دمشق بعد أربع سنين

فدخل عبد الغنى إلى مصر واسكندرية ، ثم عاد إلى دمشق ، ثم ارتحل إلى الجزيرة و بغداد ، ثم رحل إلى أصبهان فسمع بها الكثير ، و وقف على مصنف للحافظ أبى نعيم فى أسماء الصحابة ، قلت : وهو عندى بخط أبى نعيم . فأخذ فى مناقشته فى أماكن من الكتاب فى مائة وتسعين موضعاً ، فغضب بنو الخجندى من ذلك ، فبغضوه وأخرجوه منها مختفياً فى إزار . ولما دخل فى طريقه إلى الموصل سمع كتاب العقيلى فى الجرح والتعديل ، فثار عليه الحنفية بسبب أبى حنيفة ، فخرج منها أيضاً خائفاً يترقب ، فلما ورد دمشق كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة برواق الحنابلة من جامع دمشق ، فاجتمع الناس عليه و إليه ، وكان رقيق القلب سريع الدمعة ، فحصل له قبول من الناس جدا ، فحسده بنو الزكى والدولعى وكبار الدماشقة من الشافعية و بعض الحنابلة ، وجهزوا الناصح الحنبلى ، فتكلم تحت قبة النسر ، وأمروه أن يجهر بصوته مهما أمكنه ، حتى يشوش عليه ، فحول عبد الغنى ميعاده إلى بعد العصر فذكر يوماً عقيدته على الكرسى فثار عليه القاضى ابن الزكى ، وضياء الدين الدولعى ، وعقدوا له مجلساً فى القلعة يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة خمس وتسعين . وتكلموا معه فى مسألة العلو ومسألة النزول ، ومسألة الحرف والصوت ، وطال الكلام وظهر عليهم بالحجة ، فقال له برغش نائب القلعة : كل هؤلاء على الضلالة وأنت على الحق ؟ [قال نعم] فغضب برغش من ذلك وأمره بالخروج من البلد ، فارتحل بعد ثلاث إلى بعلبك ، ثم إلى القاهرة ، فآواه الطحانيون فكان يقرأ الحديث بها فثار عليه الفقهاء بمصر أيضاً وكتبوا إلى الوزير صفى الدين بن شكر فأقر بنفيه إلى المغرب فمات قبل وصول الكتاب يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة ، وله سبع وخمسون سنة ، ودفن بالقرافة عند الشيخ أبى عمرو بن مرزوق رحمهما الله . قال السبط : كان عبد الغنى ورعا زاهدا عابداً ، يصلى كل يوم ثلاثمائة ركعة كورد الامام أحمد ، ويقوم الليل و يصوم عامة السنة ، وكان كريما جواداً لا يدخر شيئا ، و يتصدق على الأرامل والأيتام حيث لا يراه أحد ، وكان يرقع ثوبه و يؤثر بثمن الجديد ، وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء وكان أوحد زمانه فى علم الحديث والحفظ . قلت : وقد هذب شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى كتابه الكمال فى أسماء الرجال - رجال الكتب الستة - بتهذيبه الذى استدرك عليه فيه أماكن كثيرة ، نحواً من ألف موضع ، وذلك الامام المزى الذى لا يمارى ولا يجارى ، وكتابه التهذيب لم يسبق إلى مثله ، ولا يلحق فى شكاله فرحمهما الله ، فلقد كانا نادرين فى زمانهما فى أسماء الرجال حفظا و إتقانا وسماعا و إسماعا وسردا للمتون وأسماء الرجال ، والحاسد لا يفلح ولا ينال منالا طائلا .

قال ابن الأثير : وفيها توفى . ﴿ أبو الفتوح أسعد بن محمود العجلى ﴾

صاحب تتمة التتمة أسعد بن أبى الفضل بن محمود بن خلف العجلى الفقيه الشافعى الأصبهانى

الواعظ منتخب الدين ، سمع الحديث وتفقه و برع وصنف تتمة التتمة لأبى سعد الهروى ، كان زاهدا عابدا ، وله شرح مشكلات الوسيط والوجيز ، توفى فى صفر سنة ستمائة .

﴿ البنانى الشاعر ﴾

أبو عبد الله محمد بن المهنا الشاعر المعروف بالبنانى ، مدح الخلفاء والوزراء وغيرهم ، ومدح وكبر وعلت سنه ، وكان رقيق الشعر ظريفه قال :

ظلما ترى مغرما فى الحب تزجره * وغيره بالهوى أمسيت تنكره
يا عاذل الصب لو عانيت قاتله * لو جنة وعذار كنت تعذره
أفدى الذى بسحر عينيه يعلمنى * إذا تصدى لقتلى كيف أسحره
يستمتع الليل فى نوم وأسهره * إلى الصباح وينسانى وأذكره

﴿ أبو سعيد الحسن بن خلد ﴾

ابن المبارك النصرانى الماردانى الملقب بالوحيد ، اشتغل فى حداثته بعلم الأوائل وأتقنه وكانت له يد طولى فى الشعر الرائق ، فمن ذلك قوله قاتله الله .

أتانى كتاب أنشأته أنامل * حوت أبحرا من فيضها يغرق البحر
فوا عجبا أنى التوت فوق طرسه * وما عودت بالقبض أنمله العشر

وله أيضاً

لقد أثرت صدغاه فى لون خده * ولاحا كفىء من وراء زجاج
ترى عسكراً للروم فى الزنج مذ بدت * كطائفة تسعى ليوم هياج
أم الصبح بالليل البهيم موشح * حكى آبنوساً فى صحيفة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خده * فسيجه من شعره بسياج

الطاووسى صاحب الطريقة .

﴿ العراقى محمد بن العراقى ﴾

ركن الدين أبو الفضل القزوينى ، ثم الهمدانى ، المعروف بالطاووسى ، كان بارعا فى علم الخلاف والجدل والمناظرة ، أخذ علم ذلك عن رضى الدين النيسابورى الحنفى ، وصنف فى ذلك ثلاث تعاليق قال ابن خلكان : أحسنهن الوسطى ، وكانت إليه الرحلة بهمدان ، وقد بنى له بعض الحجبة بها مدرسة تعرف بالحاجبية ، ويقال إنه منسوب إلى طاووس بن كيسان التابعى فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وستمائة ﴾

فيها عزل الخليفة ولده محمد الملقب بالظاهر عن ولاية العهد بعدما خطب له سبعة عشرة سنة ، وولى العهد ولده الآخر عليا ، فمات على عن قريب فعاد الأمر إلى الظاهر ، فبويع له بالخلافة

بعد أبيه الناصر كما سيأتى فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

وفيها وقع حريق عظيم بدار الخلافة فى خزائن السلاح ، فاحترق من ذلك شىء كثير من السلاح والأمتعة والمساكن ما يقارب قيمته أربعة آلاف ألف دينار ، وشاع خبر هذا الحريق فى الناس ، فأرسلت الملوك من سائر الأقطار هدايا أسلحة إلى الخليفة عوضاً عن ذلك وفوقه من ذلك شيئا كثيراً .

وفيها عاثت الكرج ببلاد المسلمين فقتلوا خلقا ، وأسروا آخرين . وفيها وقعت الحرب بين أمير مكة قتادة الحسينى ، وبين أمير المدينة سالم بن قاسم الحسينى ، وكان قتادة قد قصد المدينة لحصر سالما فيها ، فركب إليه سالم بعد ما صلى عند الحجرة فاستنصر الله عليه ، ثم برز إليه فكسره وساق وراءه إلى مكة لحصره بها ، ثم إن قتادة أرسل إلى أمراء سالم فأفسدهم عليه فكر سالم راجعاً إلى المدينة سالماً .

وفيها ملك غياث الدين كنجشرى بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج بلاد الروم واستلبها من ابن أخيه ، واستقر هو بها وعظم شأنه وقويت شوكته ، وكثرت عساكره وأطاعه الأمراء وأصحاب الأطراف ، وخطب له الأفضل بن صلاح الدين بسميساط ، وسار إلى خدمته . واتفق فى هذه السنة أن رجلا ببغداد نزل إلى دجلة يسبح فيها وأعطى ثيابه لغلامه فغرق فى الماء فوجد فى ورقة بعمامته هذه الأبيات :

يا أيها الناس كان لى أمل * قصر بى عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل * أمكنه فى حياته العمل
ما أنا وحدى بفناء بيت * يرى كل إلى مثله سينتقل

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ أبو الحسن على بن عنتر بن ثابت الحلى ﴾

المعروف بشميم ، كان شيخا أديباً لغويا شاعراً جمع من شعره حماسة كان يفضلها على حماسة أبى تمام ، وله خمريات يزعم أنها أفحل من التى لأبى نواس . قال أبو شامة فى الذيل : كان قليل الدين ذا حماقة ورقاعة وخلاعة ، وله حماسة ورسائل . قال ابن الساعى : قدم بغداد فأخذ النحو عن ابن الخشاب ، حصل منه طرفا صالحا ، ومن اللغة وأشعار العرب ، ثم أقام بالموصل حتى توفى بها . ومن شعره :

لا تسرحن الطرف فى مقل المها * فمصارع الآجال فى الآمال
كم نظرة أردت وما أخرت * يد كم قبلت أوان قتال
سنحت وما سمحت بتسليمة * وأغلال التحية فعلة المحتال

وله فى التجنيس :

ليت من طول بالشـ * أم ثواه وثوا به * جعل العود إلى الزو * راء من بعض ثوابه

أترى يوطئني الدهـ * ـر ثرى مسك ترابه * وأراني نور عيني * موطئا لي وثرى به

وله أيضاً في الخمر وغيره :

﴿ أبو نصر محمد بن سعد الله (١) ﴾

ابن نصر بن سعيد الأرتاحي ، كان سخياً بهيا واعظا حنبلياً فاضلا شاعرا مجيداً وله :

نفس الفتى إن أصلحت أحوالها * كان إلى نيل المنى أحوى لها
وإن تراها سددت أقوالها * كان على حمل العلى أقوى لها
فان تبدت حال من لها لها * في قبره عند البلى لها لها

﴿ أبو العباس أحمد بن مسعود ﴾

ابن محمد القرطبي الخزرجي ، كان إماما في التفسير والفقه والحساب والفرائض والنحو واللغة والعروض والطب ، وله تصانيف حسان ، وشعر رائق منه قوله :

وفي الوجنات ما في الروض لكن * لرونق زهرها معنى عجيب
وأعجب ما التعجب منه * أني لتيار تحمله عصيب (٢)

﴿ أبو الفداء إسماعيل بن برتعس السنجاري ﴾

مولى صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود ، وكان جنديا حسن الصورة مليح النظم كثير الأدب ومن شعره ما كتب به إلى الأشرف موسى بن العادل يعزيه في أخ له اسمه يوسف :

دموع المعالي والمكارم أذرفت * وربع العلى قاع لفقدك صفصف
غدا الجود والمعروف في اللحد ثاويا * غداة ثوى في ذلك اللحد يوسف
فتى خطفت يد المنية روحه * وقد كان للأرواح بالبيض يخطف
سقته ليالي الدهر كأس حمامها * وكان بسقي الموت في الحرب يعرف
فوا حسرتا لو ينفع الموت حسرة * ووا أسفا لو كان يجدي التأسف
وكان على الارزاء نفسي قوية * ولكنها عن حمل ذا الرزء تضعف

﴿ أبو الفضل بن الياس بن جامع الأربلي ﴾

تفقه بالنظامية وسمع الحديث ، وصنف التاريخ وغيره ، وتفرد بحسن كتابة الشروط ، وله فضل ونظم ، فمن شعره :

أممرض قلبي ، ما لهجرك آخر ؟ * ومسهر طرفي ، هل خيالك زائر ؟
ومستعذب التعذيب جورا بصده * أما لك في شرع المحبة زاجر ؟
هنيئا لك القلب الذي قد وقفته * على ذكر أيامي وأنت مسافر

---

(١) في النجوم الزاهرة : محمد بن أحمد بن حامد أبو عبد الله (٢) كذا في الأصل والبيت مضطرب فليحرر

فلا فارق الحزن المبرح خاطرى * لبعدك حتى يجمع الشمل قادر
فان مت فالتسليم منى عليكم * يعاودكم ما كبر الله ذاكر

﴿ أبو السعادات الحلى ﴾

التاجر البغدادى الرافضى ، كان فى كل جمعة يلبس لأمة الحرب ويقف خلف باب داره ، والباب مجاف عليه ، والناس فى صلاة الجمعة ، وهو ينتظر أن يخرج صاحب الزمان من سرداب سامرا — يعنى محمد بن الحسن العسكرى — ليميل بسيفه فى الناس نصرة للمهدى .

﴿ أبو غالب بن كمنونة اليهودى ﴾

الكاتب ، كان يزور على خط ابن مقلة من قوة خطه ، توفى لعنه الله بمطمورة واسط ، ذكره ابن الساعى : فى تاريخه .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وستمائة ﴾

فيها وقعت حرب عظيمة بين شهاب الدين محمد بن سام الغورى ، صاحب غزنة ، وبين بنى بوكر أصحاب الجبل الجودى ، وكانوا قد ارتدوا عن الاسلام فقاتلهم وكسرهم وغنم منهم شيئا كثيرا لا يعد ولا يوصف ، فاتبعه بعضهم حتى قتله غيلة فى ليلة مستهل شعبان منها بعد العشاء ، وكان رحمه الله من أجود الملوك سيرة وأعقلهم وأثبتهم فى الحرب ، ولما قتل كان فى صحبته فخر الدين الرازى ، وكان يجلس للوعظ بحضرة الملك ويعظه ، وكان السلطان يبكى حين يقول فى آخر مجلسه ياسلطان سلطانك لا يبقى ، ولا يبقى الرازى أيضاً وإن مردنا جميعا إلى الله ، وحين قتل السلطان اتهم الرازى بعض الخاصكية بقتله ، فخاف من ذلك والتجأ إلى الوزير مؤيد الملك بن خواجا ، فسيره إلى حيث يأمن وتملك غزنة بعده أحد مماليكه تاج الدر ، وجرت بعد ذلك خطوب يطول ذكرها ، قد استقصاها ابن الأثير وابن الساعى .

وفيها أغارت الكرج على بلاد المسلمين فوصلوا إلى أخلاط فقتلوا وسبوا وقاتلهم المقاتلة والعامة. وفيها سار صاحب إربل مظفر الدين كوكرى وصحبته صاحب مراغة لقتال ملك أذربيجان ، وهو أبو بكر بن البهلول ، وذلك لنكوله عن قتال الكرج وإقباله على السكر ليلا ونهاراً ، فلم يقدروا عليه ، ثم إنه تزوج فى هذه السنة بنت ملك الكرج ، فانكف شرهم عنه . قال ابن الأثير : وكان كما يقال أغمد سيفه وسل أيره . وفيها استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدى ناصر العلوى الحسنى وخلع عليه بالوزارة وضربت الطبول بين يديه وعلى بابه فى أوقات الصلوات . وفيها أغار صاحب بلاد الأرمن وهو ابن لاون على بلاد حلب فقتل وسبى ونهب ، فخرج إليه الملك الظاهر غازى بن الناصر فهرب ابن لاون بين يديه ، فهدم الظاهر قلعة كان قد بناها ودكها إلى الأرض . وفى شعبان منها

هدمت القنطرة الرومانية عند الباب الشرقى ، ونشرت حجارتها ليبلط بها الجامع الأموى بسفارة الوزير صفى الدين بن شكر ، وزير العادل ، وكمل تبليطه فى سنه أربع وستمائة .

وفيها توفى من الأعيان.

﴿ شرف الدين أبو الحسن ﴾

على بن محمد بن على جمال الاسلام الشهرزورى ، بمدينة حمص ، وقد كان أخرج إليها من دمشق ، وكان قبل ذلك مدرساً بالأمينية والحلقة بالجامع تجاه البرادة ، وكان لديه علم جيد بالمذهب والخلاف .

﴿ التقى عيسى بن يوسف ﴾

ابن أحمد العراقى الضرير ، مدرس الأمينية أيضاً ، كان يسكن المنارة الغربية ، وكان عنده شاب يخدمه ويقود به فعدم للشيخ دراهم فاتهم هذا الشاب بها فلم يثبت له عنده شيئا ، واتهم الشيخ عيسى هذا بأنه يلوط به ، ولم يكن يظن الناس أن عنده من المال شيء ، فضاع المال واتهم عرضه ، فأصبح يوم الجمعة السابع من ذى القعدة مشنوقا ببيته بالمأذنة الغربية ، فامتنع الناس من الصلاة عليه لكونه قتل نفسه ، فتقدم الشيخ فخر الدين عبد الرحمن بن عساكر فصلى عليه ، فائتم به بعض الناس قال أبو شامة : وإنما حمله على ما فعله ذهاب ماله والوقوع فى عرضه ، قال وقد جرى لى أخت هذه القضية فعصمنى الله سبحانه بفضله ، قال وقد درس بعده فى الأمينية الجمال المصرى وكيل بيت المال

﴿ أبو الغنائم المركيسهلار البغدادى ﴾

كان يخدم مع عز الدين نجاح السراى ، وحصل أموالا جزيلة ، كان كلما تهيأ له مال اشترى به ملكا وكتبه باسم صاحب له يعتمد عليه ، فلما حضرته الوفاة أوصى ذلك الرجل أن يتولى أولاده وينفق عليهم من ميراثه مما تركه لهم ، فرض الموصى إليه بعد قليل فاستدعى الشهود ليشهدهم على نفسه أن ما فى يده لورثة أبى الغنائم ، فتمادى ورثته باحضار الشهود وطولوا عليه وأخذته سكتة فمات فاستولى ورثته على تلك الأموال والأملاك ، ولم يقضوا أولاد أبى الغنائم منها شيئا مما ترك لهم .

﴿ أبو الحسن على بن سعاد الفارسى ﴾

تفقه ببغداد وأعاد بالنظامية وناب فى تدريسها واستقل بتدريس المدرسة التى أنشأتها أم الخليفة وأزيد على نيابة القضاء عن أبى طالب البخارى فامتنع فألزم به فباشره قليلا ، ثم دخل يوماً إلى مسجد فلبس على رأسه مئزر صوف ، وأمر الوكلاء والجلاوذة أن ينصرفوا عنه ، وأشهد على نفسه بعزلها عن نيابة القضاء ، واستمر على الاعادة والتدريس رحمه الله . وفى يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول توفيت

﴿ الخاتون ﴾

أم السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل ، فدفنت بالقبة بالمدرسة المعظمية بسفح قايسون .

﴿ الأمير مجير الدين طاشتكين المستنجدى ﴾

أمير الحاج وزعيم بلاد خوزستان ، كان شيخاً خيراً حسن السيرة كثير العبادة ، غاليا فى التشيع ، توفى بتستر ثانى جمادى الآخرة وحمل تابوته إلى الكوفة فدفن بمشهد على لوصيته بذلك ، هكذا ترجمه ابن الساعى فى تاريخه ، وذكر أبوشامة فى الذيل أنه طاشتكين بن عبدالله المقتفوى أمير الحاج ، حج بالناس ستا وعشرين سنة ، كان يكون فى الحجاز كأنه ملك ، وقد رماه الوزير ابن يونس بأنه يكاتب صلاح الدين فحبسه الخليفة ، ثم تبين له بطلان ما ذكر عنه فأطلقه وأعطاه خوزستان ثم أعاده إلى إمرة الحج ، وكانت الحلة الشيعية إقطاعه ، وكان شجاعا جوادا سمحا قليل الكلام ، يمضى عليه الأسبوع لا يتكلم فيه بكلمة ، وكان فيه حلم واحتمال ، استغاث به رجل على بعض نوابه فلم يرد عليه ، فقال له الرجل المستغيث : أحمار أنت ؟ فقال : لا . وفيه يقول ابن التعاويذى .

وأمير على البلاد مولى * لا يجيب الشاكى بغير السكوت

كلما زاد رفعة حطنا الا * ه بتفيله إلى البهموت

وقد سرق فراشه حياجبة له فأرادوا أن يستقروه عليها ، وكان قد رآه الأمير طاشتكين حين أخذها فقال : لا تعاقبوا أحدا ، قد أخذها من لا يردها ، ورآه حين أخذها من لا ينم عليه ، وقد كان بلغ من العمر تسعين سنة ، واتفق أنه استأجر أرضا مدة ثلاثمائة سنة للوقف ، فقال فيه بعض المضحكين : هذا لا يوقن بالموت ، عمره تسعون سنة واستأجر أرضا ثلاثمائة سنة ، فاستضحك القوم والله سبحانه وتعالى أعلم . ﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة ﴾

فيها جرت أمور طويلة بالمشرق بين الغورية والخوارزمية ، وملكهم خوارزم شاه بن تكش ببلاد الطالقان . وفيها ولى الخليفة القضاء ببغداد لعبد الله بن الدامغانى . وفيها قبض الخليفة على عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الجيلانى ، بسبب فسقه وفجوره ، وأحرقت كتبه وأمواله قبل ذلك لما فيها من كتب الفلاسفة ، وعلوم الأوائل ، وأصبح يستعطى بين الناس ، وهذا بخطيئة قيامه على أبى الفرج ابن الجوزى ، فانه هو الذى كان وشى به إلى الوزير ابن القصاب حتى أحرقت بعض كتب ابن الجوزى ، وختم على بقيتها ، ونفى إلى واسط خمس سنين ، والناس يقولون : فى الله كفاية وفى القرآن ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، والصوفية يقولون : الطريق يأخذ . والأطباء يقولون الطبيعة مكافئة . وفيها نازلت الفرنج حمص فقاتلهم ملكها أسد الدين شيركوه ، وأعانه بالمدد الملك الظاهر صاحب حلب فكف الله شرهم . وفيها اجتمع شابان [1] ببغداد على الخمر

(١) أحدهما أبو القاسم أحمد بن المقرىء صاحب ديوان الخليفة ، داعب ابن الأمير أصبه . وكان شابا جميلا فرماه بسكين فقتله . فسلمه الخليفة إلى أولاد ابن أصبه فقتلوه . (النجوم ج ٦ ص ١٩٢)

فضرب أحدهما الآخر بسكين فقتله وهرب ، فأخذ فقتل فوجد معه رقعة فيها بيتان من نظمه أمر أن تجعل بين أكفانه :

قدمت على الكريم بغير زاد * من الأعمال بالقلب السليم
وسوء الظن أن تعتقد زاداً * إذا كان القدوم على كريم

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ الفقيه أبو منصور ﴾

عبد الرحمن بن الحسين بن النعمان النبلى ، الملقب بالقاضى شريح لذكائه وفضله وبراعته وعقله وكمال أخلاقه ، ولى قضاء بلده ثم قدم بغداد فندب إلى المناصب الكبار فأباها ، فحلف عليه الأمير طاشتكين أن يعمل عنده فى الكتابة فخدمه عشرين سنة ، ثم وشى به الوزير ابن مهدى إلى المهدى فحبسه فى دار طاشتكين إلى أن مات فى هذه السنة، ثم إن الوزير الواشى عما قريب حبس بها أيضاً، وهذا مما نحن فيه من قوله : كما تدين تدان .

﴿ عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر ﴾

كان ثقة عابداً زاهداً ورعا ، لم يكن فى أولاد الشيخ عبد القادر الجيلانى خير منه ، لم يدخل فيما دخلوا فيه من المناصب والولايات ، بل كان متقللا من الدنيا مقبلا على أمر الآخرة ، وقد سمع الكثير وسمع عليه أيضاً .

﴿ أبو الحزم مكى بن زيان ﴾

ابن شبة بن صالح الماكسينى ، من أعمال سنجار ، ثم الموصلى النحوى ، قدم بغداد وأخذ على ابن الخشاب وابن القصار ، والكمال الأنبارى ، وقدم الشام فانتفع به خلق كثير منهم الشيخ علم الدين السخاوى وغيره وكان ضريراً ، وكان يتعصب لأبى العلاء المعرى لما بينهما من القدر المشترك فى الأدب والعمى ، ومن شعره :

إذا احتاج النوال إلى شفيع * فلا تقبله تصبح قرير عين
إذا عيف النوال لفرد من * فأولى أن يعاف لمنتين

ومن شعره أيضاً :

نفسى فداء لا غيد غنج * قال لنا الحق حين ودّعنا
من ود شيئا من حبه طمعاً * فى قتله للوداع ودّعنا

﴿ إقبال الخادم ﴾

جمال الدين أحد خدام صلاح الدين ، واقف الاقباليتين الشافعية والحنفية ، وكانتا دارين فجعلهما مدرستين ، ووقف عليهما وقفاً الكبيرة للشافعية والصغيرة للحنفية، وعليها ثلث الوقف. توفى بالقدس

رحمه الله .

{ ثم دخلت سنة أربع وستمائة }

فيها رجع الحجاج إلى العراق وهم يدعون الله و يشكون إليه ما لقوا من صدر جهان البخارى الحنفى ، الذى كان قدم بغداد فى رسالة فاحتفل به الخليفة ، وخرج إلى الحج فى هذه السنة ، فضيق على الناس فى المياه والميرة ، فمات بسبب ذلك ستة آلاف من حجيج العراق ، وكان فيما ذكروا يأمر غلمانه فتسبق إلى المناهل فيحجزون على المياه و يأخذون الماء فيرشونه حول خيمته فى قيظ الحجاز و يسقونه للبقولات التى كانت تحمل معه فى ترابها ، و يمنعون منه الناس وابن السبيل ، الآمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم و رضوانا ، فلما رجع مع الناس لعنته العامة ولم تحتفل به الخاصة ولا أكرمه الخليفة ولا أرسل إليه أحداً ، وخرج من بغداد والعامة من ورائه يرجمونه و يلعنونه ، وسماه الناس صدر جهنم ، نعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله أن يزيدنا شفقة و رحمة لعباده ، فانه إنما يرحم من عباده الرحماء . وفيها قبض الخليفة على وزيره ابن مهدى العلوى ، وذلك أنه نسب إليه أنه يروم الخلافة ، وقيل غير ذلك من الأسباب ، والمقصود أنه حبس بدار طاشتكين حتى مات بها ، وكان جباراً عنيداً ، حتى قال بعضهم فيه :

خليلى قولا للخليفة وانصحا * توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما * صنيعك ياخير البرية ضائع
فان كان حقاً من سلالة حيدر * فهذا وزير فى الخلافة طامع
و إن كان فيما يدعى غير صادق * فاضيع ما كانت لديه الصنائع

وقيل : إنه كان عفيفاً عن الأموال حسن السيرة جيد المباشرة فالله أعلم بحاله . و فى رمضان منها رتب الخليفة عشرين داراً للضيافة يفطر فيها الصائمون من الفقراء ، يطبخ لهم فى كل يوم فيها طعام كثير و يحمل إليها أيضاً من الخبز النقى والحلواء شىء كثير ، وهذا الصنيع يشبه ما كانت قريش تفعله من الرفادة فى زمن الحج ، وكان يتولى ذلك عمه أبو طالب ، كما كان العباس يتولى السقاية ، وقد كانت فيهم السفارة واللواء والندوة له ، كما تقدم بيان ذلك فى مواضعه ، وقد صارت هذه المناصب كلها على أتم الأحوال فى الخلفاء العباسيين . وفيها أرسل الخليفة الشيخ شهاب الدين الشهرزورى وفى صحبته سنقر السلحدار إلى الملك العادل بالخلعة السنية ، وفيها الطوق والسواران ، و إلى جميع أولاده بالخلع أيضاً . وفيها ملك الأوحد بن العادل صاحب ميافارقين مدينة خلاط بعد قتل صاحبها شرف الدين بكتمر ، وكان شابا جميل الصورة جداً ، قتله بعض مماليكهم (١) ثم قتل القاتل أيضاً ، فخلا البلد عن ملك فأخذها الأوحد بن العادل .

وفيها ملك خوارزم شاه محمد بن تكش بلاد ما وراء النهر بعد حروب طويلة . اتفق له فى بعض

---

(١) اسمه : الهزار دينارى (انظر النجوم ج ٦ ص ١٨٨) .

المواقف أمر عجيب ، وهو أن المسلمين انهزموا عن خوارزم شاه و بقى معه عصابة قليلة من أصحابه ، فقتل منهم كفار الخطا من قتلوا ، وأسروا خلقامنهم ، وكان السلطان خوارزم شاه فى جملة من أسروا ، أسره رجل وهو لا يشعر به ولا يدرى أنه الملك ، وأسر معـه أميراً يقال له مسعود ، فلما وقع ذلك وتراجعت العساكر الاسـلامية إلى مقرها فقدوا السلطان فاختبطوا فيما بينهم واختلفوا اختلافا كثيرا وانزعجت خراسان بكمالها ، ومن الناس من حلف أن السلطان قد قتل ، وأما ما كان من أمر السلطان وذاك الأمير فقال الأمير للسلطان : من المصلحة أن تترك اسم الملك عنك فى هذه الحالة ، وتظهر أنك غلام لى ، فقبل منـه ما قال وأشار به ، ثم جعل الملك يخدم ذلك الأمير يلبسـه ثيابه و يسقيه الماء و يصنع له الطعام و يضعه بين يديه ، ولا يألو جهداً فى خدمته ، فقال الذى أسرهما : إنى أرى هذا يخدمك فمن أنت ؟ فقال : أنا مسعود الأمير ، وهـذا غلامى ، فقال : والله لو علم الأمراء أنى قد أسرت أميراً وأطلقته لأطلقتك ، فقال له : إنى إنما أخشى على أهلى ، فانهـم يظنون أنى قد قتلت و يقيمون المأتم ، فان رأيت أن تفادينى عـلى مال وترسل من يقبضه منهـم فعلت خيراً ، فقال : نعم ، فعين رجلا من أصحابه فقال له الأمير مسعود : إن أهلى لا يعرفون هـذا ولكن إن رأيت أن أرسل معه غلامى هذا فعلت ليبشرهم بحياتى فانهـم يعرفونه ، ثم يسعى فى تحصيل المال ، فقال : نعم ، فجهز معهما من يحفظهما إلى مدينة خوارزم شاه . فلما دنوا من مدينة خوارزم سـبق الملك إليها . فلما رآه الناس فرحوا به فرحاً شـديداً ، ودقت البشائر فى سائر بلاده ، وعاد الملك إلى نصابه ، واستقر السرور بابابه ، وأصلح ما كان وهى من مملكته بسبب ما اشتهر من قتله ، وحاصر هراه وأخذها عنوة . وأما الذى كان قد أسره فانه قال يوماً للأمير مسعود الذى يتوجه لى و ينوهون به أن خوارزم شاه قد قتل ، فقال : لا ، هو الذى كان فى أسرك ، فقال له : فهلا أعلمتنى به حتى كنت أرده موقراً معظما ؟ فقال : خفتك عليه ، فقال : سر بنا إليه ، فسارا إليه فأكرمهما إكراما زائداً ، وأحسن إليهما . وأما غدر صاحب سمرقند فانه قتل كل من كان فى أسره من الخوارزمية ، حتى كان الرجل يقطع قطعتين و يعلق فى السوق كما تعلق الأغنام ، وعزم على قتل زوجته بنت خوارزم شاه ثم رجع عن قتلها وحبسها فى قلعة وضيق عليها ، فلما بلغ الخبر إلى خوارزم شاه سار إليه فى الجنود فنازله وحاصر سمرقند فأخـذها قهراً وقتل من أهلها نحواً من مائتى ألف ، وأنزل الملك من القلعة وقتله صبراً بين يديه ، ولم يترك له نسـلا ولا عقبا ، واستحوذ خوارزم شاه على تلك الممالك التى هنالك ، وتحارب الخطا وملك التتار كشلى خان المتاخم لمملكة الصين ، فكتب ملك الخطا لخوارزم شاه يستنجده على التتار ويقول : متى غلبونا خلصوا إلى بلادك ، وكذا وكذا . وكتب التتار إليه أيضا يستنصرونه على الخطا ويقولون : هؤلاء أعداؤنا وأعداؤك ، فكن معنا عليهم ، فكتب إلى

كل من الفريقين يطيب قلبه ، وحضر الوقعة بينهم وهو متحيز عن الفريقين ، وكانت الدائرة على الخطا ، فهلكوا إلا القليل منهم ، وغدر التتار ما كانوا عاهدوا عليه خوارزم شاه ، فوقعت بينهم الوحشة الأكيدة ، وتواعدوا للقتال ، وخاف منهم خوارزم شاه وخرب بلاداً كثيرة متاخمة لبلاد كشلى خان خوفا عليها أن يملكها ، ثم إن جنكيزخان خرج على كشلى خان ، فاشتغل بمحاربته عن محاربة خوارزم شاه ، ثم إنه وقع من الأمور الغريبة ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها كثرت غارات الفرنج من طرابلس على نواحي حمص ، فضعف صاحبها أسد الدين شيركوه عن مقاومتهم ، فبعث إليه الظاهر صاحب حلب عسكرا قواه بهم على الفرنج ، وخرج العادل من مصر فى العساكر الاسلامية ، وأرسل إلى جيوش الجزيرة فوافوه على عكا فحاصرها ، لأن القبارصة أخذوا من أسطول المسلمين قطعا فيها جماعة من المسلمين ، فطلب صاحب عكا الأمان والصلح على أن يرد الأسارى ، فأجابه إلى ذلك ، وسار العادل فنزل على بحيرة قدس قريباً من حمص ، ثم سار إلى بلاد طرابلس ، فأقام اثنى عشر يوما يقتل ويأسر ويغنم ، حتى جنح الفرنج إلى المهادنة ، ثم عاد إلى دمشق .

وفيها ملك صاحب آذربيجان الأمير نصير الدين أبو بكر بن البهلول مدينة مراغة لخلوها عن ملك قاهر ، لأن ملكها مات وقام بالملك بعده ولد له صغير ، فدبر أمره خادم له . وفى غرة ذى القعدة شهد محيي الدين أبو محمد يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزى عند قاضى القضاة أبى القاسم بن الدامغانى ، فقبله وولاه حسبة جانبى بغداد ، وخلع عليه خلعة سنية سوداء بطرحة كحلية ، وبعد عشرة أيام جلس للوعظ مكان أبيه أبى الفرج بباب درب الشريف ، وحضر عنده خلق كثير . وبعد أربعة أيام من يومئذ درس بمشهد أبى حنيفة ضياء الدين أحمد بن مسعود الركسانى الحنفى ، وحضر عنده الأعيان والأكابر وفى رمضان منها وصلت الرسل من الخليفة إلى العادل بالخلع ، فلبس هو وولداه المعظم والأشرف ووزيره صفى الدين بن شكر ، وغير واحد من الأمراء ، ودخلوا القلعة وقت صلاة الظهر من باب الحديد ، وقرأ التقليد الوزير وهو قائم ، وكان يوما مشهوداً . وفيها درس شرف الدين عبد الله ابن زين القضاة عبد الرحمن بالمدرسة الرواحية بدمشق . وفيها انتقل الشيخ الخير بن البغدادى من الحنبلية إلى مذهب الشافعية ، ودرس بمدرسة أم الخليفة ، وحضر عنده الأكابر من سائر المذاهب .

وفيها توفى من الأعيان

﴿ الأمير بنيامين بن عبد الله ﴾

أحد أمراء الخليفة الناصر ، كان من سادات الأمراء عقلا وعفة ونزاهة ، سقاه بعض الكتاب من النصارى سما فمات . وكان اسم الذى سقاه ابن ساوا ، فسلمه الخليفة إلى غلمان بنيامين فشفع فيه ابن مهدى الوزير وقال : إن النصارى قد بذلوا فيه خمسين ألف دينار ، فكتب الخليفة على رأس الورقة

إن الأسود أسود الغاب همتها * يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

فتسلمه غلمان بنيامين فقتلوه وحرقوه ، وقبض الخليفة بعد ذلك على الوزير ابن مهدى كما تقدم

﴿ حنبل بن عبد الله ﴾

ابن الفرج بن سعادة الرصافى الحنبلى ، المكبر بجامع المهدى ، راوى مسند أحمد عن ابن الحصين عن ابن المذهب عن ابى مالك عن عبد الله عن أبيه ، عمر تسعين سنة وخرج من بغداد فأسمعه بار بل ، واستقدمه ملوك دمشق إليها فسمع الناس بها عليه المسند ، وكان المعظم يكرمه و يأكل عنده على السماط من الطيبات ، فتصيبه التخمة كثيراً ، لأنه كان فقيرا ضيق الامعاء من قلة الأكل ، خشن العيش ببغداد ، وكان الكندى إذا دخل على المعظم يسأل عن حنبل فيقول المعظم هو متخوم ، فيقول أطعمه العدس فيضحك المعظم ، ثم أعطاه المعظم مالاجزيلا و رده إلى بغدادفتوفى بها ، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة ، وكان معه ابن طبرزد ، فتأخرت وفاته عنه إلى سنة سبع وستمائة .

﴿ عبد الرحمن بن عيسى ﴾

ابن أبى الحسن المروزى الواعظ البغدادى ، سمع من ابن أبى الوقت وغيره ، واشتغل على ابن الجوزى بالوعظ ، ثم حدثته نفسه بمضاهاته وشمخت نفسه ، واجتمع عليه طائفة من أهل باب النصيرة ثم تزوج فى آخر عمره وقد قارب السبعين ، فاغتسل فى يوم بارد فانتفخ ذكره فمات فى هذه السنة .

﴿ الأمير زين الدين قراجا الصلاحى ﴾

صاحب صرخد ، كانت له دار عند باب الصغير عند قناة الزلاقة ، وتربته بالسفح فى قبة على جادة الطريق عند تربة ابن تميرك ، وأقر العادل ولده يعقوب على صرخد .

﴿ عبد العزيز الطبيب ﴾

توفى فجأة ، وهو والد سعد الدين الطبيب الأشرفى ، وفيه يقول ابن عنين :

فرارى ولا خلف الخطيب جماعة * وموت ولا عبد العزيز طبيب

وفيها توفى

﴿ العفيف بن الدرجى ﴾

إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع بنى أمية .

﴿ أبو محمد جعفر بن محمد ﴾

ابن محمود بن هبة الله بن أحمد بن يوسف الاربلى ، كان فاضلا فى علوم كثيرة فى الفقه على مذهب الشافعى ، والحساب والفرائض والهندسة والأدب والنحو ، وما يتعلق بعلوم القرآن العزيز وغير ذلك . ومن شعره :

لا يدفع المرء ما يأتى به القدر * وفى الخطوب إذا فكرت معتبر

فليس ينجى من الأقدار إن نزلت * رأى وحزم ولا خوف ولا حذر
فاستعمل الصبر فى كل الأمور ولا * تجزع لشىء فعقبى صبرك الظفر
كم مسنا عسر فصرّفه الا * لآه عنا وولى بعده يسر
لا ييئس المرء من روح الآله فما * ييأس منه إلا عصبة كفروا
إنى لأعلم أن الدهر ذو دول * وأن يوميه ذا أمن وذا خطر

﴿ ثم دخلت سنة خمس وستمائة ﴾

فى محرمها كمل بناء دار الضيافة ببغداد التى أنشأها الناصر لدين الله بالجانب الغربى منها للحجاج والمارة لهم الضيافة ما داموا نازلين بها ، فاذا أراد أحدهم السفر منها زود وكسى وأعطى بعد ذلك ديناراً ، جزاه الله خيراً . وفيها عاد أبو الخطاب ابن دحية الكلبي من رحلته العراقية فاجتاز بالشام فاجتمع فى مجلس الوزير الصفى هو والشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندى شيخ اللغة والحديث ، فأورد ابن دحية فى كلامه حديث الشفاعة حتى انتهى إلى [قول] إبراهيم عليه السلام « إنما كنت خليلا من وراءَ وراءَ » بفتح اللفظتين ، فقال الكندى من وراء وراء بضمهما ، فقال ابن دحية للوزير ابن شكر : من هذا ؟ فقال: هذا أبو اليمن الكندى ، فنال منه ابن دحية ، وكان جريئا ، فقال الكندى : هو من كلب ينبح كما ينبح الكلب . قال أبو شامة : وكلتا اللفظتين محكية ، وحكى فيهما الجر أيضاً . وفيها عاد فخر الدين ابن تيمية خطيب من حران من الحج إلى بغداد وجلس بباب بدر للوعظ ، مكان محيي الدين يوسف بن الجوزى ، فقال فى كلامه ذلك :

وابن اللبون إذا ما لزّ فى قرن * لم يستطع صولة البزل القناعيس

كأنه يعرض بابن الجوزى يوسف ، لكونه شابا ابن خمس وعشرين سنة والله أعلم .

وفى يوم الجمعة تاسع محرم دخل مملوك افرنجى من باب مقصورة جامع دمشق وهو سكران وفى يده سيف مسلول ، والناس جلوس ينتظرون صلاة الفجر ، فمال على الناس يضربهم بسيفه فقتل اثنين أو ثلاثة ، وضرب المنبر بسيفه فانكسر سيفه فأخذوأودع المارستان ، وشنق فى يومه ذلك على جسر اللبادين .

وفيها عاد الشيخ شهاب الدين السهروردى من دمشق بهدايا الملك العادل فتلقاه الجيش ومعه أموال كثيرة أيضاً لنفسه ، وكان قبل ذلك فقيراً زاهدا ، فلما عاد منع من الوعظ وأخذت منه الربط التى يباشرها ، ووكل إلى ما بيده من الأموال ، فشرع فى تفريقها على الفقراء والمساكين ، فاستغنى منه خلق كثير، فقال المحيي ابن الجوزى فى مجلس وعظه : لا حاجة بالرجل يأخذ أموالا من غير حقها ويصرفها إلى من يستحقها ، ولو ترك على ما كان كان تركها أولى به من تناولها ، وإنما أراد أن ترتفع

منزلته ببذلها . و يعود على حاله كما كان مباشره لما بذلها ، فليحذر العبد الدنيا فانها خداعة غرارة تسترق فحول العلماء والعباد ، وقد وقع ابن الجوزى فيما بعد فيما وقع فيه السهروردى وأعظم . وفيها قصدت الفرنج حمص وعبروا على العاصى بجسر عدوة ، فلما عرف بهم العساكر ركبوا فى آثارهم فهربوا منهم فقتلوا خلقا كثيرا منهم وغنم المسلمون منهم غنيمة جيدة ولله الحمد .

وفيها قتل صاحب الجزيرة ، وكان من أسوأ الناس سيرة وأخبثهم سريرة ، وهو الملك سنجر شاه بن غازى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر الاتابكى ، ابن عم نور الدين صاحب الموصل ، وكان الذى تولى قتله ولده غازى ، توصل إليه حتى دخل عليه وهو فى الخلاء سكران ، فضربه بسكين أربع عشرة ضربة ، ثم ذبحه ، وذلك كله ليأخذ الملك من بعده فحرمه الله إياه ، فبويع بالملك لأخيه محمود وأخذ غازى القاتل فقتله من يومه ، فسلبه الله الملك والحياة ، ولكن أراح الله المسلمين من ظلم أبيه وغشمه وفسقه .

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ أبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار ﴾

ابن على الواسطى المعروف بابن السنداى ، آخر من روى المسند عن أحمد بن الحصين ، وكان من بيت فقه وقضاء وديانة ، وكان ثقة عدلا متورعا فى النقل ، ومما أنشده من حفظه :

ولو أن ليلى مطلع الشمس دونها * وكانت من وراء الشمس حين تغيب
لحدثت نفسى بانتظار نوالها * وقال المنى لى : إنها لقريب

﴿ قاضى القضاة بمصر ﴾

صدر الدين عبد الملك بن درباس المارداني الكردى والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ست وستمائة ﴾

فى المحرم وصل نجم الدين خليل شيخ الحنفية من دمشق إلى بغداد فى الرسلية عن العادل ، ومعه هدايا كثيرة ، وتناظر هو وشيخ النظامية مجد الدين يحيى بن الربيع فى مسألة وجوب الزكاة فى مال اليتيم والمجنون ، وأخذ الحنفى يستدل على عدم وجوبها ، فاعترض عليه الشافعى فأجاد كل منهما فى الذى أورده ، ثم خلع على الحنفى وأصحابه بسبب الرسالة ، وكانت المناظرة بحضرة نائب الوزير ابن شكر . وفى يوم السبت خامس جمادى الآخرة وصل الجمال يونس بن بدران المصرى رئيس الشافعية بدمشق إلى بغداد فى الرسلية عن العادل ، فتلقاه الجيش مع حاجب الحجاب ، ودخل معه ابن أخى صاحب إربل مظفر الدين كوكرى ، والرسالة تتضمن الاعتذار عن صاحب إربل والسؤال فى الرضا عنه ، فأجيب إلى ذلك . وفيها ملك العادل الخابور ونصيبين وحاصر مدينة سنجار مدة فلم يظفر بها ثم صالح صاحبها ورجع عنها .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ القاضى الأسعد ابن مماتى ﴾

أبو المكارم أسعد بن الخطير أبى سعيد مهذب بن مينا بن زكريا الأسعد بن مماتى بن أبى قدامة ابن أبى مليح المصرى الكاتب الشاعر ، أسلم فى الدولة الصلاحية وتولى نظر الدواوين بمصر مدة قال ابن خلكان : وله فضائل عديدة ، ومصنفات كثيرة ، ونظم سيرة صلاح الدين وكليلة ودمنة ، وله ديوان شعر . ولما تولى الوزير ابن شكر هرب منه إلى حلب فمات بها وله ثنتان وستون سنة . فمن شعره فى ثقيل زاره بدمشق :

حكى نهرين وما فى الأر * ض من يحكيهما أبدا
حكى فى خلقه ثوراً * أراد وفى أخلاقه بردا

﴿ أبو يعقوب يوسف بن إسماعيل ﴾

ابن عبد الرحمن بن عبد السلام اللمعانى ، أحد الأعيان من الحنفية ببغداد ، سمع الحديث ودرس بجامع السلطان ، وكان معتزليا فى الاصول ، بارعا فى الفروع ، اشتغل على أبيه وعمه ، وأتقن الخلاف وعلم المناظرة ، وقارب التسعين .

﴿ أبو عبد الله محمد بن الحسن ﴾

المعروف بابن الخراسانى ، المحدث الناسخ ، كتب كثيرا من الحديث وجمع خطباً له ولغيره وخطه جيد مشهور ﴿ أبو المواهب معتوق بن منيع ﴾

ابن مواهب الخطيب البغدادى ، قرأ النحو واللغة على ابن الخشاب ، وجمع خطبا كان يخطب منها ، وكان شيخا فاضلا له ديوان شعر ، فمنه قوله :

ولا ترجو الصداقة من عدو * يعادى نفسه سراً وجهرا
فلو أجدت مودته انتفاعا * لكان النفع منه إليه أجرا

﴿ ابن خروف ﴾

شارح سيبويه ، على بن محمد بن يوسف أبو الحسن ابن خروف الأندلسى النحوى شرح سيبويه ، وقدمه إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار ، وشرح جمل الزجاجى ، وكان يتنقل فى البلاد ولا يسكن إلا فى الخانات ، ولم يتزوج ولا تسرى ، ولذلك علة تغلب على طباع الأراذل ، وقد تغير عقله فى آخر عمره ، فكان يمشى فى الأسواق مكشوف الرأس ، توفى عن خمس وثمانين سنة .

﴿ أبو على يحيى بن الربيع ﴾

ابن سليمان بن حرار الواسطى البغدادى ، اشتغل بالنظامية على فضلان وأعاد عنه ، وسافر إلى محمد بن يحيى فأخذ عنه طريقته فى الخلاف ، ثم عاد إلى بغداد ثم صار مدرساً بالنظامية وناظراً

على أوقافها ، وقد سمع الحديث وكان لديه علوم كثيرة ، ومعرفة حسنة بالمذهب ، وله تفسير في أربع مجلدات كان يدرس منه ، واختصر تاريخ الخطيب والذيل عليه لابن السمعاني وقارب الثمانين .

﴿ ابن الأثير صاحب جامع الأصول والنهاية ﴾

المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد مجد الدين أبو السعادات الشيباني الجزري الشافعي ، المعروف بابن الأثير ، وهو أخو الوزير وزير الأفضل ضياء الدين نصر الله ، وأخو الحافظ عزالدين أبي الحسن علي صاحب الكامل في التاريخ ، ولد أبو السعادات هذا في إحدى الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وسمع الحديث الكثير وقرأ القرآن وأتقن علومه وحررها ، وكان مقامه بالموصل ، وقد جمع في سائر العلوم كتبا مفيدة ، منها جامع الأصول الستة الموطأ والصحيحين وسنن أبي داود والنسائي والترمذي ، ولم يذكر ابن ماجه فيه ، وله كتاب النهاية في غريب الحديث وله شرح مسند الشافعي والتفسير في أربع مجلدات ، وغير ذلك في فنون شتى ، وكان معظماً عند ملوك الموصل ، فلما آل الملك إلى نور الدين أرسلان شاه ، أرسل إليه مملوكه لؤلؤ أن يستوزره فأبى فركب السلطان إليه فامتنع أيضاً وقال له : قد كبرت سني واشتهرت بنشر العلم ، ولا يصلح هذا الأمر إلا بشيء من العسف والظلم ، ولا يليق بي ذلك ، فأعفاه . قال أبو السعادات : كنت أقرأ علم العربية على سعيد بن الدهان ، وكان يأمرني بصنعة الشعر فكنت لا أقدر عليه ، فلما توفي الشيخ رأيته في بعض الليالي ، فأمرني بذلك ، فقلت له : ضع لي مثالا أعمل عليه فقال :

حب العلا مدمنا إن فاتك الظفر * فقلت أنا : وخدّ خد الثرى والليل معتكر

فالعز في صهوات الليل مركزه * والمجد ينتجه الاسراء والسهر

فقال : أحسنت ، ثم استيقظت فأتممت عليها نحواً من عشرين بيتا . كانت وفاته في سلخ ذي الحجة عن ثنتين وستين سنة ، وقد ترجمه أخوه في الذيل فقال : كان عالماً في عدة علوم منها الفقه وعلم الأصول والنحو والحديث واللغة ، وتصانيفه مشهورة في التفسير والحديث والفقه والحساب وغريب الحديث ، وله رسائل مدونة ، وكان مغلقا يضرب به المثل ذا دين متين ، ولزم طريقة مستقيمة رحمه الله ، فلقد كان من محاسن الزمان . قال ابن الأثير وفيها توفي .

﴿ المجد المطرزي النحوي الخوارزمي ﴾

كان إماماً في النحو له فيه تصانيف حسنة ،

قال أبو شامة . وفيها توفي : ﴿ الملك المغيث ﴾

فتح الدين عمر بن الملك العادل ، ودفن في تربة أخيه المعظم بسفح قايسون . والملك المؤيد .

بمدرسة رأس العين فحمل إلى حلب فدفن بها . وفيها توفى .

﴿ الفخر الرازى ﴾

المتكلم صاحب التيسير والتصانيف ، يعرف بابن خطيب الرى ، واسمه محمد بن عمر بن الحسين ابن على القرشى التيمى البكرى ، أبو المعالى وأبو عبد الله المعروف بالفخر الرازى ، و يقال له ابن خطيب الرى ، أحد الفقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار نحو من مائتى مصنف ، منها التفسير الحافل والمطالب العالية ، والمباحث الشرقية ، والأربعين ، وله أصول الفقه والمحصول وغيره ، وصنف ترجمة الشافعى فى مجلد مفيد ، وفيه غرائب لا يوافق عليها ، و ينسب إليه أشياء عجيبة ، وقد ترجمته فى طبقات الشافعية ، وقد كان معظماً عند ملوك خوارزم وغيرهم ، و بنيت له مدارس كثيرة فى بلدان شتى ، وملك من الذهب العين ثمانين ألف دينار ، وغير ذلك من الأمتعة والمراكب والأثاث والملابس ، وكان له خمسون مملوكا من الترك ، وكان يحضر فى مجلس وعظه الملوك والوزراء والعلماء والأمراء والفقراء والعامة ، وكانت له عبادات وأوراد ، وقد وقع بينه و بين الكرامية فى أوقات وكان يبغضهم و يبغضونه و يبالغون فى الحط عليه ، و يبالغ هو أيضا فى ذمهم . وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما تقدم ، وكان مع غزارة علمه فى فن الكلام يقول : من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز ، وقد ذكرت وصيته عند موته وأنه رجع عن مذهب الكلام فيها إلى طريقة السلف وتسليم ما ورد على وجه المراد اللائق بجلال الله سبحانه . وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى الذيل فى ترجمته : كان يعظ و ينال من الكرامية و ينالون منه سباً وتكفيرا بالكبائر ، وقيل إنهم وضعوا عليه من سقاه سما فمات ففرحوا بموته ، وكانوا يرمونه بالمعاصى مع المماليك وغيرهم ، قال : وكانت وفاته فى ذى الحجة ، ولا كلام فى فضله ولا فيما كان يتعاطاه ، وقد كان يصحب السلطان و يحب الدنيا و يتسع فيها اتساعا زائدا ، وليس ذلك من صفة العلماء ، ولهذا وأمثاله كثرت الشناعات عليه ، وقامت عليه شناعات عظيمة بسبب كلمات كان يقولها مثل قوله : قال محمد البادى ، يعنى العربى يريد به النبى ﷺ ، نسبة إلى البادية . وقال محمد الرازى يعنى نفسه ، ومنها أنه كان يقرر الشبهة من جهة الخصوم بعبارات كثيرة و يجيب عن ذلك بأدنى إشارة وغير ذلك ، قال و بلغنى أنه خلف من الذهب العين مائتى ألف دينار غير ما كان يملكه من الدواب والثياب والعقار والآلات ، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار ، وكان ابنه الأكبر قد تجند وخدم السلطان محمد بن تكش . وقال ابن الأثير فى الكامل : وفيها توفى فخر الدين الرازى محمد بن عمر بن خطيب الرى الفقيه الشافعى صاحب التصانيف المشهورة والفقه والأصول ، كان إمام الدنيا فى عصره ،

بلغنى أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ومن شعره قوله :

إليك إله الخلق وجهى ووجهتى * وأنت الذى أدعوه فى السر والجهر
وأنت غياثى عند كل ملمة * وأنت ملاذى فى حياتى وفى قبرى

ذكره ابن الساعى عن ياقوت الحموى عن ابن لفخر الدين عنه وبه قال :

تتمة أبواب السعادة للخلق * بذكر جلال الواحد الأحد الحق
مدبر كل الممكنات بأسرها * ومبدعها بالعدل والقصد والصدق
أجل جلال الله عن شبه خلقه * وأنصر هذا الدين فى الغرب والشرق
إله عظيم الفضل والعدل والعلى * هو المرشد المغوى هو المسعد المشقى

ومما كان ينشده :

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا * وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا * سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقول : لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفسلفية فلم أجدها تروى غليلا ولا تشفى عليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ فى الاثبات (الرحمن على العرش استوى) (إليه يصعد الكلم الطيب) وفى النفى (ليس كمثله شىء) (هل تعلم له سميا) .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وستمائة ﴾

ذكر الشيخ أبو شامة أن فى هذه السنة تمالأت ملوك الجزيرة : صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب إربل والظاهر صاحب حلب وملك الروم ، على مخالفة العادل ومنابذته ومقاتلته واصطلام الملك من يده ، وأن تكون الخطبة للملك كنجر بن قلج أرسلان صاحب الروم ، وأرسلوا إلى الكرج ليقدموا لحصار خلاط ، وفيها الملك الأوحد بن العادل ، ووعدهم النصر والمعاونة عليه . قلت : وهذا بغى وعدوان ينهى الله عنه ، فأقبلت الكرج بملكهم إيوانى فحاصروا خلاط فضاق بهم الأوحد ذرعا وقال : هذا يوم عصيب ، فقدر الله تعالى أن فى يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر اشتد حصارهم للبلد وأقبل ملكهم إيوانى وهو راكب على جواده وهو سكران فسقط به جواده فى بعض الحفر التى قد أعدت مكيدة حول البلد ، فبادر إليه رجال البلد فأخذوه أسيرا حقيرا ، فأسقط فى أيدى الكرج ، فلما أوقف بين يدى الأوحد أطلقه ومنّ عليه وأحسن إليه ، وفاداه على مائتى ألف دينار وألفى أسير من المسلمين ، وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لبلاد الأوحد ، وأن يزوج ابنته من أخيه الأشرف موسى ، وأن يكون عوناً له على من يحاربه ، فأجابه إلى ذلك كله فأخذت منه الايمان بذلك وبعث الأوحد إلى أبيه يستأذنه فى ذلك كله وأبوه نازل بظاهر حراب فى أشد حدة

مما قد داهمه من هذا الأمر الفظيع ، فبينما هو كذلك إذ أتاه هذا الخبر والأمر الهائل من الله العزيز الحكيم ، لا من حولهم ولا من قوتهم ، ولا كان فى بالهم ، فكاد يذهل من شدة الفرح والسرور ، ثم أجاز جميع ما شرطه ولده ، وطارت الأخبار بما وقع بين الملوك فخضعوا وذلوا عند ذلك ، وأرسل كل منهم يعتذر مما نسب إليه ويحيل على غيره ، فقبل منهم اعتذاراتهم وصالحهم صلحا أكيدا واستقبل الملك عصراً جديدا ، ووفى ملك الكرج الأوحد بجميع ما شرطه عليه ، وتزوج الأشرف ابنته . ومن غريب ما ذكره أبو شامة فى هذه الكائنة أن قسيس الملك كان ينظر فى النجوم فقال للملك قبل ذلك بيوم : اعلم أنك تدخل غدا إلى قلعة خلاط ولكن بزى غير ذلك أذان العصر ، فوافق دخوله إليها أسيراً أذان العصر .

﴿ ذكر وفاة صاحب الموصل نور الدين ﴾

أرسل الملك نور الدين شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل يخطب ابنة السلطان الملك العادل ، وأرسل وكيله لقبول العقد على ثلاثين ألف دينار ، فاتفق موت نور الدين ووكيله سائر فى أثناء الطريق ، فعقد العقد بعد وفاته ، وقد أثنى عليه ابن الأثير فى كامله كثيرا وشكر منه ومن عدله وشهامته وهو أعلم به من غيره ، وذكر أن مدة ملكه سبع عشرة سنة وإحدى عشر شهرا ، وأما أبو المظفر السبط فانه قال كان جبارا ظالما بخيلا سفاكا للدماء فالله أعلم به . وقام بالملك ولده القاهر عز الدين مسعود ، وجعل تدبير مملكته إلى غلامه بدر الدين لؤلؤ الذى صار الملك إليه فيما بعد .

قال أبو شامة : وفى سابع شوال شرع فى عمارة المصلى ، وبنى له أربع جدر مشرفة ، وجعل له أبوابا صونا لمكانه من الميار ونزول القوافل ، وجعل فى قبلته محرابا من حجارة ومنبرا من حجارة وعقدت فوق ذلك قبة . ثم فى سنة ثلاث عشرة عمل فى قبلته رواقان وعمل له منبر من خشب ورتب له خطيب وإمام راتبان ، ومات العادل ولم يتم الرواق الثانى منه ، وذلك كله على يد الوزير الصفى ابن شكر . قال وفى ثانى شوال منها جددت أبواب الجامع الأموى من ناحية باب البريد بالنحاس الأصفر ، وركبت فى أماكنها . وفى شوال أيضاً شرع فى إصلاح الفوارة والشاذروان والبركة وعمل عندها مسجد ، وجعل له إمام راتب ، وأول من تولاه رجل يقال له النفيس المصرى ، وكان يقال له بوق الجامع لطيب صوته إذا قرأ على الشيخ أبى منصور الضرير المصدر فيجتمع عليه الناس الكثيرون . وفى ذى الحجة منها توجهت مراكب من عكا إلى البحر إلى ثغر دمياط وفيها ملك قبرص المسمى إليان فدخل الثغر ليلا فأغار على بعض البلاد فقتل وسبى وكر راجعاً فركب مراكبه ولم يدركه الطلب ، وقد تقدمت له مثلها قبل هذه ، وهذا شئ لم يتفق لغيره لعنه الله .

وفيها عاثت الفرنج بنواحى القدس فبرز إليهم الملك المعظم ، وجلس الشيخ شمس الدين أبو

المظفر ابن قزعلى الحنفى وهو سبط ابن الجوزى ابن ابنته رابعة ، وهو صاحب مرآة الزمان ، وكان فاضلا فى علوم كثيرة ، حسن الشكل طيب الصوت ، وكان يتكلم فى الوعظ جيدا وتحبه العامة على صيت جده ، وقد رحل من بغداد فنزل دمشق وأكرمه ملوكها ، وولى التدريس بها ، وكان يجلس كل يوم سبت عند باب مشهد على بن الحسين زين العابدين إلى السارية التى يجلس عندها الوعاظ فى زماننا هذا ، فكان يكثر الجمع عنده حتى يكونوا من باب الناطفانيين إلى باب المشهد إلى باب الساعات ، الجلوس غير الوقوف ، فحزر جمعه فى بعض الأيام ثلاثين ألفا من الرجال والنساء ، وكان الناس يبيتون ليلة السبت فى الجامع ويدعون البساتين ، يبيتون فى قراءة ختمات وأذكار ليحصل لهم أماكن من شدة الزحام ، فاذا فرغ من وعظه خرجوا إلى أماكنهم وليس لهم كلام إلا فيما قال يومهم ذلك أجمع ، يقولون قال الشيخ وسمعنا من الشيخ فيحثهم ذلك على العمل الصالح والكف عن المساوى ، وكان يحضر عنده الأكابر ، حتى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندى ، كان يجلس فى القبة التى عند باب المشهد هو ووالى البلد المعتمد ووالى البر ابن تميرك وغيرهم . والمقصود أنه لما جلس يوم السبت خامس ربيع الأول كما ذكرنا حث الناس على الجهاد وأمر باحضار ما كان تحصل عنده من شعور التائبين ، وقد عمل منه شكالات تحمل الرجال ، فلما رآها الناس ضجوا ضجة واحدة وبكوا بكاء كثيرا وقطعوا من شعورهم نحوها ، فلما انقضى المجلس ونزل عن المنبر فتلقاه الوالى مبادر الدين المعتمد بن إبراهيم ، وكان من خيار الناس ، فمشى بين يديه إلى باب الناطفيين يعضده حتى ركب فرسه والناس من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فخرج من باب الفرج وبات بالمصلى ثم ركب من الغد فى الناس إلى الكسوة ومعه خلائق كثيرون خرجوا بنية الجهاد إلى بلاد القدس ، وكان من جملة من معه ثلاثمائة من جهة زملكا بالعدد الكثيرة التامة ، قال : فجئنا عقبة أفيق والطير لا يتجاسر أن يطير من خوف الفرنج ، فلما وصلنا نابلس تلقانا المعظم ، قال ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك ، فلما رأى الشكالات من شعور التائبين جعل يقبلها ويمرغها على عينيه ووجهه ويبكى ، وعمل أبو المظفر ميعادا بنابلس وحث على الجهاد وكان يوما مشهودا ، ثم سار هو ومن معه وصحبته المعظم نحو الفرنج فقتلوا خلقا وخربوا أماكن كثيرة ، وغنموا وعادوا سالمين ، وشرع المعظم فى تحصين جبل الطور وبنى قلعة فيه ليكون إلبا على الفرنج ، فغرم أموالا كثيرة فى ذلك ، فبعث الفرنج إلى العادل يطلبون منه الأمان والمصالحة ، فهادنهم وبطلت تلك العمارة وضاع ما كان المعظم غرم عليها والله أعلم .

وفيها توفى من الأعيان

﴿ الشيخ أبو عمر ﴾

بانى المدرسة بسفح قايسون للفقراء المشتغلين فى القرآن رحمه الله ، محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة

الشيخ الصالح أبو عمر المقدسي ، بانى المدرسة التى بالسفح يقرأ بها القرآن العزيز ، وهو أخو الشيخ موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ، وكان أبو عمر أسن منه ، لأنه ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بقرية الساويا ، وقيل بجماعيل ، والشيخ أبو عمر ربى الشيخ موفق الدين وأحسن إليه و زوجه ، وكان يقوم بمصالحه ، فلما قدموا من الأرض المقدسة نزلوا بمسجد أبى صالح خارج باب شرقى ثم انتقلوا منه إلى السفح ، وليس به من العمارة شىء سوى دير الحورانى ، قال فقيل لنا الصالحيين نسبة إلى مسجد أبى صالح لا أنا صالحون ، وسميت هذه البقعة من ذلك الحين بالصالحية نسبة إلينا ، فقرأ الشيخ أبو عمر القرآن على رواية أبى عمرو ، وحفظ مختصر الخرقى فى الفقه ، ثم إن أخاه الموفق شرحه فيما بعد فكتب شرحه بيده ، وكتب تفسير البغوى والحلية لأبى نعيم والابانة لابن بطة ، وكتب مصاحف كثيرة بيده للناس ولأهله بلا أجرة ، وكان كثير العبادة والزهادة والتهجد ، و يصوم الدهر وكان لا يزال متبسما ، وكان يقرأ كل يوم سبعا بين الظهر والعصر و يصلى الضحى ثمانى ركعات يقرأ فيهن ألف مرة قل هو الله أحد ، وكان يزور مغارة الدم فى كل يوم اثنين وخميس ، و يجمع فى طريقه الشيح فيعطيه الأرامل والمساكين ، ومهما تهيأ له من فتوح وغيره يؤثر به أهله والمساكين ، وكان متقللا فى الملبس و ربما مضت عليه مدة لا يلبس فيها سراويل ولا قميصاً ، وكان يقطع من عمامته قطعا يتصدق بها أو فى تكميل كفن ميت ، وكان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغنى وأخوه الشيخ العماد لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج ، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها ، وجاء الملك العادل يوماً إلى ختنهم أى خصهم لزيارة أبى عمر وهو قائم يصلى ، فما قطع صلاته ولا أوجز فيها ، فجلس السلطان واستمر أبو عمر فى صلاته ولم يلتفت إليه حتى قضى صلاته رحمه الله . والشيخ أبو عمر هو الذى شرع فى بناء المسجد الجامع أولا بمال رجل فامى ، فنفد ما عنده وقد ارتفع البناء قامة فبعث صاحب إربل الملك المظفر كوكرى مالا فكمل به ، وولى خطابته الشيخ أبو عمر ، فكان يخطب به وعليه لباسه الضعيف وعليه أنوار الخشية والتقوى والخوف من الله عز وجل ، والمسك كيف خبأته ظهر عليك وبان ، وكان المنبر الذى فيه يومئذ ثلاث مراقى والرابعة للجلوس ، كما كان المنبر النبوى ، وقد حكى أبو المظفر أنه حضر يوماً عنده الجمعة وكان الشيخ عبد الله البوتانى حاضراً الجمعة أيضاً عنده ، فلما انتهى فى خطبته إلى الدعاء للسلطان قال : اللهم أصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب ، فلما قال ذلك نهض الشيخ عبد الله البوتانى وأخذ نعليه وخرج من الجامع وترك صلاة الجمعة ، فلما فرغنا ذهبت إلى البوتانى فقلت له : ماذا نقمت عليه فى قوله ؟ فقال يقول لهذا الظالم العادل ؟ لاصليت معه ، قال فبينما نحن فى الحديث إذ أقبل الشيخ أبو عمر ومعه رغيف وخيارتان فكسر ذلك الرغيف وقال الصلاة ، ثم قال قال النبى ﷺ

« بعثت فى زمن الملك العادل كسرى » فتبسم الشيخ عبدالله البوتانى ومد يده فأكل فلما فرغوا قام الشيخ أبو عمر فذهب فلما ذهب قال لى البوتانى يا سيدنا ماذا إلا رجل صالح .

قال أبو شامة كان البوتانى من الصالحين الكبار ، وقد رأيته وكانت وفاته بعد أبى عمر بعشر سنين فلم يسامح الشيخ أبا عمر فى تساهله مع ورعه ، ولعله كان مسافرا والمسافر لا جمعة عليه ، وعذر الشيخ أبى عمر أن هذا قد جرى مجرى الأعلام العادل الكامل الأشرف ونحوه ، كما يقال سالم وغانم ومسعود ومحمود ، وقد يكون ذلك على الضد والعكس فى هذه الأسماء ، فلا يكون سالما ولا غانما ولا مسعودا ولا محمودا ، وكذلك اسم العادل ونحوه من أسماء الملوك وألقابهم ، والتجار وغيرهم ، كما يقال شمس الدين و بدر الدين وعز الدين وتاج الدين ونحو ذلك قد يكون معكوساً على الضد والانقلاب ومثله الشافعى والحنبلى وغيرهم ، وقد تكون أعماله ضد ما كان عليه إمامه الأول من الزهد والعبادة ونحو ذلك ، وكذلك العادل يدخل إطلاقه على المشترك والله أعلم . قلت : هذا الحديث الذى احتج به الشيخ أبو عمر لا أصل له ، وليس هو فى شىء من الكتب المشهورة ، وعجباً له ولأبى المظفر ثم لأبى شامة فى قبول مثل هذا وأخذه منه مسلما إليه فيه والله أعلم .

ثم شرع أبو المظفر فى ذكر فضائل أبى عمر ومناقبه وكراماته وما رآه هو وغيره من أحواله الصالحة . قال : وكان على مذهب السلف الصالح سمتا وهديا ، وكان حسن العقيدة متمسكا بالكتاب والسنة والآثار المروية يمرها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين ، وكان ينهى عن صحبة المتبدعين و يأمر بصحبة الصالحين الذين هم على سنة سيد المرسلين وخاتم النبيين ، و ربما أنشدنى لنفسه فى ذلك :

أوصيكم بالقول فى القرآن * بقول أهل الحق والاتقان
ليس بمخلوق ولا بفان * لكن كلام الملك الديان
آياته مشرقة المعانى * متلوة لله باللسان
محفوظة فى الصدر والجنان * مكتوبة فى الصحف بالبنان
والقول فى الصفات يا إخوانى * كالذات والعلم مع البيان
إمرارها من غير ما كفران * من غير تشبيه ولا عطلان

قال وأنشدنى لنفسه :

ألم يك ملهاة عن اللهو أننى * بدالى شيب الرأس والضعف والألم
ألم بى الخطب الذى لو بكيته * حياتى حتى يذهب الدمع لم ألم

قال ومرض أياماً فلم يترك شيئا مما كان يعمله من الأوراد ، حتى كانت وفاته وقت السحر فى ليلة

الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الأول فغسل فى الدير وحمل إلى مقبرته فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ولم يبق أحد من الدولة والأمراء والعلماء والقضاة وغيرهم إلا حضر جنازته، وكان يوماً مشهودا، وكان الحر شديدا فأظلت الناس سحابة من الحر، كان يسمع منها كدوى النحل، وكان الناس ينتهبون أكفانه و بيعت ثيابه بالغالى الغالى، ورثاه الشعراء بمراثى حسنة، ورؤيت له منامات صالحة رحمه الله. وترك من الأولاد ثلاثة ذكور: عمر، وبه كان يكنى، والشرف عبد الله وهو الذى ولى الخطابة بعد أبيه، وهو والد العز أحمد. وعبد الرحمن. ولما توفى الشرف عبد الله صارت الخطابة لأخيه شمس الدين عبد الرحمن بن أبى عمر، وكان من أولاد أبيه الذكور، فهؤلاء أولاده الذكور، وترك من الأناث بنات كما قال الله تعالى (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) قال وقبره فى طريق مغارة الجوع فى الزقاق المقابل لدير الحورانى رحمه الله و إيانا.

﴿ ابن طبرزد شيخ الحديث ﴾

عمر بن محمد بن معمر بن يحيى المعروف بأبى حفص بن طبرزد البغدادى الدارَقزّى، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة، سمع الكثير وأسمع، وكان خليعا ظريفا ماجنا، وكان يؤدب الصبيان بدار القز قدم مع حنبل بن عبد الله المكبر إلى دمشق فسمع أهلها عليهما، وحصل لهما أموال وعادا إلى بغداد فمات حنبل سنة ثلاث وتأخر هو إلى هذه السنة [فى تاسع شهر رجب] فمات وله سبع وتسعون سنة، وترك مالا جيدا ولم يكن له وارث إلا بيت المال، ودفن بباب حرب.

﴿ السلطان الملك العادل أرسلان شاه ﴾

نور الدين صاحب الموصل، وهو ابن أخى نور الدين الشهيد، وقد ذكرنا بعض سيرته فى الحوادث، كان شافعى المذهب، ولم يكن بينهم شافعى سواه، و بنى للشافعية مدرسة كبيرة بالموصل وبها تربته، توفى فى صفر ليلة الأحد من هذه السنة.

﴿ ابن سكينة عبد الوهاب بن على ﴾

ضياء الدين المعروف بابن سكينة الصوفى، كان يعد من الأبدال، سمع الحديث الكثير وأسمعه ببلاد شتى، ولد فى سنة تسع عشرة وخمسمائة، وكان صاحبا لأبى الفرج ابن الجوزى ملازماً لمجلسه وكان يوم جنازته يوماً مشهودا لكثرة الخلق ولكثرة ما كان فيه من الخاصة والعامة رحمه الله.

﴿ مظفر بن ساسير ﴾

الواعظ الصوفى البغدادى، ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث، وكان يعظ فى الأعزية والمساجد والقرى، وكان ظريفا مطبوعا قام إليه إنسان فقال له فيما بينه و بينه: أنا مريض جائع، فقال: احمد ربك فقد عوفيت. واجتاز مرة على قصاب يبيع لحما ضعيفا وهو يقول أين من

حلف لا يغبن ، فقال له حتى تحنثه . قال : وعملت مرة مجلساً بيعقوبا فجعل هذا يقول عندى للشيخ نصفية وهذا يقول عندى للشيخ نصفية وهذا يقول مثله حتى عدوا نحواً من خمسين نصفية ، فقلت فى نفسى : استغنيت الليـلة فأرجع إلى البلد تاجرا ، فلما أصبحت إذا صبرة من شـعير فى المسجد فقيل لى هـذه النصافى التى ذكر الجماعة ، و إذا هى بكيلة يسمونها نصفية مثل الزبدية ، وعملت مرة مجلسا بباصرا فجمعوا لى شيئا لا أدرى ما هو ، فلما أصبحنا إذا شىء من صوف الجواميس وقرونها ، فقام رجل ينادى عليكم عندكم فى قرون الشيخ وصوفه ،فقلت لا حاجة لى بهذا وأنتم فى حل منه . ذكره أبو شامة

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وستمائة ﴾

استهلت والعادل مقيم عـلى الطور لعمارة حصنه ، وجاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن عبد المؤمن قد كسر الفرنج بطليطلة كسرة عظيمة ، وربما فتح البلد عنوة وقتل منهم خلقا كثيراً . وفيها كانت زلزلة عظيمة شـديدة بمصر والقاهرة ، هـدمت منها دوراً كثـيرة ، وكذلك بالكرك والشوبك هدمت من قلعتها أبراجا ، ومات خلق كثير من الصبيان والنسوان تحت الهدم ، ورؤى دخان نازل من السماء فيما بين المغرب والعشاء عند قبر عاتكة غربى دمشق . وفيها أظهرت الباطنية الاسـلام وأقامت الحدود على من تعاطى الحرام ، و بنوا الجوامع والمساجد ، وكتبوا إلى إخوانهـم بالشام بمصيات وأمثالها بذلك ، وكتب زعيمهـم جلال الدين إلى الخليفة يعلمه بذلك ، وقدمت أمة منهم إلى بغداد لأجل الحج فأكرموا وعظموا بسبب ذلك ، ولكن لما كانوا بعرفات ظفر واحد منهم على قريب لأمير مكة قتادة الحسينى فقتله ظانا أنه قتادة فثارت فتنة بين سودان مكة وركب العراق ، ونهب الركب وقتل منهم خلق كثير . وفيها اشترى الملك الأشرف جوسق الريس من النيرب من ابن عم الظاهر حضر بن صلاح الدين و بناه بناء حسنا ، وهو المسمى بزماننا بالدهشة .

وفيها توفى من الأعيان .

﴿ الشيخ عماد الدين ﴾

محمد بن يونس الفقيه الشافعى الموصلى صاحب التصانيف والفنون الكثيرة ، كان رئيس الشافعية بالموصل ، و بعث رسولا إلى بغداد بعـد موت نور الدين أرسـلان ، وكان عنـده وسوسة كثيرة فى الطهارة ، وكان يعامل فى الأموال بمسألة العينة كما قيـل تصفون البعوض من شرابكم وتستر بطون الجمال بأحمالها ، ولو عكس الأمر لـكان خيراً له ، فلقيـه يوماً قضيب البان الموكه فقال له : يا شيخ بلغنى عنك أنك تغسل العضو من أعضائك بابريق من الماء فلم لاتغسل اللقمة التى تأكلها لتستنظف قلبك وباطنك ؟ ففهم الشيخ ما أراد فترك ذلك . توفى بالموصل فى رجب عن ثلاث وسبعين سنة .

﴿ ابن حمدون تاج الدين ﴾

أبو سعد الحسن بن محمد بن حمدون ، صاحب التذكرة الحمدونية ، كان فاضلا بارعا ، اعتنى بجمع

الكتب المنسوبة وغيرها ، وولاه الخليفة المارستان العضدى ، توفى بالمدائن وحمل إلى مقابر قريش فدفن بها

﴿ صاحب الروم خسروشاه ﴾

ابن قلج أرسلان ، مات فيها وقام بالملك بعده ولده كيكاوس ، فلما توفى فى سنة خمس عشرة ملك أخوه كيقباذ صارم الدين برغش العادلى نائب القلعة بدمشق ، مات فى صفر ودفن بتربته غربى الجامع المظفرى ، وهذا الرجل هو الذى نفى الحافظ عبد الغنى المقدسى إلى مصر وبين يديه كان عقد المجلس ، وكان فى جملة من قام عليه ابن الزكى والخطيب الدولعى ، وقد توفوا أربعتهم وغيرهم ممن قام عليه واجتمعوا عند ربهم الحكم العدل سبحانه .

﴿ الأمير فخر الدين سركس ﴾

ويقال له جهاركس أحد أمراء الدولة الصلاحية وإليه تنسب قباب سركس بالسفح تجاه تربة خاتون وبها قبره . قال ابن خلكان : هذا هو الذى بنى القيسارية الكبرى بالقاهرة المنسوبة إليه وبنى فى أعلاها مسجدا معلقا وربعاً ، وقد ذكر جماعة من التجار أنهم لم يروا لها نظيراً فى البلدان فى حسنها وعظمها وإحكام بنائها . قال : وجها ركس بمعنى أربعة أنفس . قلت : وقد كان نائبا للعادل على بانياس وتينين وهو بين ، فلما توفى ترك ولدا صغيراً فأقره العادل على ما كان يليه أبوه وجعل له مدبرا وهو الأمير صارم الدين قطلبا التنيسى ، ثم استقل بها بعد موت الصبى إلى سنة خمس عشرة

﴿ الشيخ الكبير المعمر الرحلة أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح ﴾

منصور بن عبد المنعم بن عبد الله بن محمد بن الفضل الفراوى النيسابورى ، سمع أباه وجد أبيه وغيرهما ، وعنه ابن الصلاح وغيره ، توفى بنيسابور فى شعبان فى هذه السنة عن خمس وثمانين سنة

﴿ قاسم الدين التركانى ﴾

العقيبى والد والى البلد ، كانت وفاته فى شوال منها والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وستمائة ﴾

فيها اجتمع العادل وأولاده الكامل والمعظم والفائز بدمياط من بلاد مصر فى مقاتلة الفرنج فاغتنم غيبتهم سامة الجبلى أحد أكابر الأمراء ، وكانت بيده قلعة عجلون وكوكب فسار مسرعا إلى دمشق ليستلم البلدين ، فأرسل العادل فى إثره ولده المعظم فسبقه إلى القدس وحمل عليه فرسم عليه فى كنيسة صهيون ، وكان شيخاً كبيرا قد أصابه النقرس ، فشرع يرده إلى الطاعة بالملاطفة فلم ينجع فيه فاستولى على حواصله وأملاكه وأمواله وأرسله إلى قلعة الكرك فاعتقله بها ، وكان قيمة ما أخذه منه قريباً من ألف ألف دينار ، من ذلك داره وحمامه داخل باب السلامة ، وداره هى التى جعلها البادرائى مدرسة للشافعية ، وخرب حصن كوكب ونقلت حواصله إلى حصن الطور الذى استجده

العادل وولده المعظم . وفيها عزل الوزير ابن شكر واحتيط على أمواله ونفى إلى الشرق ، وهو الذى كان قد كتب إلى الديار المصرية بنفى الحافظ عبد الغنى منها بعد نفيه من الشام ، فكتب أن ينفى إلى المغرب ، فتوفى الحافظ عبد الغنى رحمه الله قبل أن يصل الكتاب ، وكتب الله عز وجل بنفى الوزير إلى الشرق محل الزلازل والفتن والشر ، ونفاه عن الأرض المقدسة جزاء وفاقا . ولما استولى صاحب قبرص على مدينة أنطاكية حصل بسببه شر عظيم وتمكن من الغارات على بلاد المسلمين ، لا سيما على التراكمين الذين حول أنطاكية ، قتل منهم خلقا كثيرا وغنم من أغنامهم شيئا كثيرا ، فقدر الله عز وجل أن أمكنهم منه فى بعض الأودية فقتلوه وطافوا برأسه فى تلك البلاد ، ثم أرسلوا رأسه إلى الملك العادل إلى مصر فطيف به هنالك ، وهو الذى أغار على بلاد مصر من ثغر دمياط مرتين فقتل وسبى وعجز عنه الملوك .

وفى ربيع الأول منها توفى الملك الأوحد .

﴿ نجم الدين أيوب ﴾

ابن العادل صاحب خلاط ، يقال إنه كان قد سفك الدماء وأساء السيرة فقصف الله عمره ، ووليها بعده أخوه الملك الأشرف موسى ، وكان محمود السيرة جيد السريرة فأحسن إلى أهلها فأحبوه كثيرا . وفيها توفى من الأعيان .

﴿ فقيه الحرم الشريف بمكة ﴾

محمد بن إسماعيل بن أبى الصيف اليمنى ، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبى بكر القفصى المقرى المحدث ، كتب كثيرا وسمع الكثير ودفن بمقابر الصوفية .

﴿ أبو الفتح محمد بن سعد بن محمد الديباجى ﴾

من أهل مرو ، له كتاب المحصل فى شرح المفصل للزمخشرى فى النحو . كان ثقة عالما سمع الحديث توفى فيها عن ثنتين وتسعين سنة .

﴿ الشيخ الصالح الزاهد العابد ﴾

أبو البقاء محمود بن عثمان بن مكارم النعالى الحنبلى ، كان له عبادات ومجاهدات وسياحات ، وبنى رباطاً بباب الأزج يأوى إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم ، وكان يؤثرهم ويحسن إليهم ، وقد سمع الحديث وقرأ القرآن ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . توفى وقد جاوز الثمانين .

﴿ ثم دخلت سنة عشر وستمائة ﴾

فيها أمر العادل أيام الجمع بوضع سلاسل على أفواه الطرق إلى الجامع لئلا تصل الخيول إلى قريب الجامع صيانة للمسلمين عن الأذى بهم ، ولئلا يضيقوا على المارين إلى الصلاة . وفيها ولد الملك

العزيز للظاهر غازى صاحب حلب ، وهو والد الملك الناصر صاحب دمشق واقف الناصريتين داخل دمشق ، إحداهما داخل باب الفراديس ، والأخرى بالسفح ذات الحائط الهائل والعمارة المتينة ، التى قيل إنه لا يوجد مثلها إلا قليلا ، وهو الذى أسره التتار الذين مع هـلاكو ملك التتار . وفيها قدم بالفيل من مصر فحمل هدية إلى صاحب الكرج فتعجب الناس منـه جدا ، ومن بديع خلقه . وفيها قدم الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين من حلب قاصدا الحج ، فتلقاه الناس وأكرمه ابن عمه المعظم ، فلما لم يبق بينـه و بين مكة إلا مراحـل يسيرة تلقته حاشية الـكامـل صاحب مصر وصدوه عن دخول مكة ، وقالوا إنما جئت لأخذ اليمن ، فقال لهم قيدونى وذرونى أقضى المناسك ، فقالوا : ليس معنا مرسوم و إنما أمرنا بردك وصـدك ، فهمّ طائفة من الناس بقتالهم فخاف من وقوع فتنة فتحال من حجه و رجع إلى الشام ، وتأسف الناس على مافعل به وتباكوا لما ودعهم ، تقبل الله منه . وفيها وصل كتاب من بعض فقهاء الحنفيـة بخراسان إلى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندى يخبر به أن السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش تنكر فى ثلاثة نفر من أصحابه ، ودخـل بلاد التتر ليكشف أخبارهم بنفسه ، فأنكروهم فقبضوا عليهم فضربوا منهم اثنين حتى ماتا ولم يقرا بما جاؤا فيه واستوثقوا من الملك وصاحبه الآخر أسرا ، فلما كان فى بعض الليالى هربا و رجع السلطان إلى ملكه وهذه المرة غير نوبة أسره فى المعركة مع ابن مسعود الأمير .

وفيها ظهرت بلاطة وهم يحفرون فى خندق حلب فوجد تحتها من الذهب خمسة وسبعون رطلا ، ومن الفضة خمسة وعشرون بالرطل الحلبى .

وفيها توفى من الأعيان .

﴿ شيخ الحنفية ﴾

مدرس مشهد أبى حنيفة ببغداد ، الشيخ أبو الفضـل أحمد بن مسعود بن على الرسانى ، وكان إليه المظالم ، ودفن بالمشهد المذكور .

﴿ والشيخ أبو محمد بن إسماعيل ﴾

ابن على بن الحسين فخر الدين الحنبلى ، يعرف بابن الماشطة ، و يقال له الفخر غلام ابن المنى ، له تعليقة فى الخلاف وله حلقة بجامع الخليفة ، وكان يلى النظر فى قرايا الخليفة ، ثم عزله فلزم بيته فقيرا لا شىء له إلى أن مات رحمه الله ، وكان ولده محمد مـدبرا شيطانا مريدا كثير الهجاء والسعاية بالناس إلى أولياء الأمر بالباطل ، فقطع لسانه وحبس إلى أن مات .

﴿ والوزير معز الدين أبو المعالى ﴾

سعيد بن على بن أحمد بن حديدة ، من سلالة الصحابى قطبة بن عامر بن حديدة الأنصارى ، ولى الوزارة للناصر فى سنة أربع وثمانين ، ثم عزله عن سفارة ابن مهدى فهرب إلى مراغة ، ثم عاد

بعد موت ابن مهدى فأقام ببغداد معظماً محترماً ، وكان كثير الصدقات والاحسان إلى الناس إلى أن مات رحمه الله

﴿ وسنجر بن عبد الله الناصرى ﴾

الخليفتى ، كانت له أموال كثيرة وأملاك و إقطاعات متسعة ، وكان مع ذلك بخيلا ذليلا ساقط النفس ، اتفق أنه خرج أمير الحاج فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فاعترضه بعض الأعراب فى نفر يسير ، ومع سنجر خمسمائة فارس ، فدخله الذل من الأعرابى ، فطلب منـه الأعرابى خمسين ألف دينار فجباها سنجر من الحجيج ودفعها إليـه ، فلما عاد إلى بغداد أخذ الخليفة منه خمسين ألف دينار ودفعها إلى أصحابها وعزله وولى طاشتكين مكانه .

﴿ قاضى السلامية ﴾

ظهير الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نصر بن عسكر ، الفقيـه الشافعى الأديب ، ذكره العماد فى الجريدة وابن خلكان فى الوفيات ، وأثنى عليه وأنشد من شعره ، فى شيخ له زاوية ، وفى أصحابه يقال له مكى :

ألا قل لمكى قول النصوح * وحق النصيحة أن تستمع
متى سمع الناس فى دينهم * بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل البعير * ويرقص فى الجمع حتى يقع
ولوكان طاوى الحشا جائعاً * لما دار من طرب واستمع
وقالوا : سكرنا بحب الاله * وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك الحمير إذا أخصبت * يهيجها ريها والشبع
تراهم يهزوا لحاهم إذا * ترنم حاديهم بالبدع
فيصرخ هذا وهذا يئن * ويبس لو تليّن ما انصدع

﴿ وتاج الأمناء ﴾

أبو الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر من بيت الحديث والرواية ، وهو أكبر من إخوته زين الفخر والأمناء ، سمع عميه الحافظ أبى القاسم والصائن ، وكان صديقا للكندى توفى يوم الأحد ثانى رجب ودفن قبلى محراب مسجد القدم .

﴿ والنسابة الكلبى ﴾

كان يقال له تاج العلى الحسينى ، اجتمع بآمد بابن دحية ، وكان ينسب إلى دحية الكلبى ، ودحية الكلبى لم يعقب ، فرماه ابن دحية بالكذب فى مسائله الموصلية . قال ابن الأثير : وفى المحرم منها توفى

﴿ المهذب الطبيب المشهور ﴾

وهو على بن أحمد بن مقبل الموصلى ، سمع الحديث وكان أعلم أهل زمانه بالطب ، وله فيه تصنيف حسن ، وكان كثير الصدقة حسن الأخلاق .

﴿ الجزولى صاحب المقدمة المسماة بالقانون ﴾

وهو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولى - بطن من البربر - ثم البردكينى النحوى المصرى ، مصنف المقدمة المشهورة البديعة ، شرحها هو وتلامذته ، وكلهم يعترفون بتقصيرهم عن فهم مراده فى أماكن كثيرة منها ، قدم مصر وأخذ عن ابن برى ، ثم عاد إلى بلاده وولى خطابة مراكش ، توفى فى هذه السنة وقيل قبلها فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة ﴾

فيها أرسل الملك خوارزم شاه أميراً من أخصاء أمرائه عنده ، وكان قبل ذلك سيروانياً فصار أميرا خاصاً ، فبعثه فى جيش ففتح له كرمان وتكران وإلى حدود بلاد السند ، وخطب له بتلك البلاد ، وكان خوارزم شاه لا يصيف إلا بنواحى سمرقند خوفا من التتار وكشلى خان أن يثبوا على أطراف تلك البلاد التى تتاخمهم . قال أبو شامة : وفيها شرع فى تبليط داخل الجامع الأموى وبدأوا من ناحية السبع الكبير ، وكانت أرض الجامع قبل ذلك حفرا وجورا ، فاستراح الناس فى تبليطه . وفيها وسع الخندق مما يلى القيمازية فأخربت دور كثيرة وحمام قايماز وفرن كان هناك وقفا على دار الحديث النورية . وفيها بنى المعظم الفندق المنسوب إليه بناحية قبر عاتكة ظاهر باب الجابية . وفيها أخذ المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا وعوضه عنها وسلمها إلى مملوكه عز الدين أيبك المعظمى ، فثبتت فى يده إلى أن انتزعها منه نجم الدين أيوب سنة أربع وأربعين . وفيها حج الملك المعظم ابن العادل ركب من الكرك على الهجن فى حادى عشر ذى القعدة ومعه ابن موسك ومملوك أبيه وعز الدين أستاذ داره وخلق ، فسار على طريق تبوك والعلا . وبنى البركة المنسوبة إليه ، ومصانع أخر . فلما قدم المدينة النبوية تلقاه صاحبها سالم وسلم إليه مفاتيحها وخدمه خدمة تامة ، وأما صاحب مكة قتادة فلم يرفع به رأساً ، ولهذا لما قضى نسكه ، وكان قارنا ، وأنفق فى المجاورين ما حمله إليهم من الصدقات وكرّ راجعاً استصحب معه سالما صاحب المدينة وتشكى إلى أبيه عند رأس الماء ما لقيه من صاحب مكة ، فأرسل العادل ، مع سالم جيشاً يطردون صاحب مكة ، فلما انتهوا إليها هرب منهم فى الأودية والجبال والبرارى ، وقد أثر المعظم فى حجته هذه آثاراً حسنة بطريق الحجاز أثابه الله ،

وفيها تعامل أهل دمشق فى القراطيس السود العادلية ثم بطلت بعد ذلك ودفنت . وفيها مات

صاحب اليمن وتولاها سليمان بن شاهنشاه بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب باتفاق الأمراء عليه ، فأرسل العادل إلى ولده الكامل أن يرسل إليها ولده أضسيس ، فأرسله فتملكها فظلم بها وفتك وغشم ، وقتل من الأشراف نحواً من ثمانمائة ، وأما من عداهم فكثير ، وكان من أفجر الملوك وأكثرهم فسقا وأقلهم حياء ودينا ، وقد ذكروا عنه ما تقشعر منه الأبدان وتنكره القلوب ، نسأل الله العافية

وفيها توفى من الأعيان ﴿ إبراهيم بن على ﴾

ابن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلى ، أفتى وناظر وعدل عند الحكام ، ثم انسلخ من هذا كله وصار شرطيا بباب النوى يضرب الناس و يؤذيهم غاية الأذى ، ثم بعد ذلك ضرب إلى أن مات وألقى فى دجلة وفرح الناس بموته ، وقد كان أبوه رجلا صالحا .

﴿ الركن عبد السلام بن عبدالوهاب ﴾

ابن الشيخ عبد القادر ، كان أبوه صالحا وكان هو متهما بالفسلفة ومخاطبة النجوم ، ووجد عنده كتب فى ذلك ، وقد ولى عدة ولايات ، وفيه وفى أمثاله يقال : نعم الجدود ولكن بئس ما نسلوا . رأى عليه أبوه يوماً ثوبا بخاريا فقال : سمعنا بالبخارى ومسلم ، وأما بخارى وكافر فهذا شئ عجيب ، وقد كان مصاحباً لأبى القاسم ابن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، وكان الآخر مدبراً فاسقا ، وكانا يجتمعان على الشراب والمردان قبحهما الله .

﴿ أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن المبارك ﴾

البزار المعروف بابن الأخضر البغدادى المحدث المكثر الحافظ المصنف المحرر ، له كتب مفيدة متقنة ، وكان من الصالحين ، وكان يوم جنازته يوماً مشهودا رحمه الله .

﴿ الحافظ أبو الحسن على بن الأنجب ﴾

أبى المكارم المفضل [بن أبى الحسن على بن أبى الغيث مفرج بن حاتم بن الحسن بن جعفر بن إبراهيم بن الحسن] اللخمى المقدسى ، ثم الاسكندرانى المالكى ، سمع السلفى وعبد الرحيم المنذرى وكان مدرسا للمالكية بالأسكندرية ، ونائب الحكم بها . ومن شعره قوله :

أيا نفس بالمأثور عن خير مرسل * وأصحابه والتابعين تمسكى
عساكى إذا بالغت فى نشر دينه * بما طاب من عرف له أن تمسكى
وخافى غدا يوم الحساب جهنما * إذا لفحت نيرانها أن تمسكى

توفى بالقاهرة فى هذه السنة قاله ابن خلكان .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وستمائة ﴾

فيها شرع فى بناء المدرسة العادلية الكبيرة بدمشق ، وفيها عزل القاضى ابن الزكى وفوض الحكم

إلى القاضى جمال الدين بن الخرستانى ، وهو ابن ثمانين أو تسعين سنة ، فحكم بالعدل وقضى بالحق ، ويقال إنه كان يحكم بالمدرسة المجاهدية قريبا من النورية عند باب القواسين . وفيها أبطل العادل ضمان الخمر والقيان جزاه الله خيراً ، فزال بزوال ذلك عن الناس ومنهم شر كثير . وفيها حاصر الأمير قتادة أمير مكة المدينة ومن بها وقطع نخلا كثيراً ، فقاتله أهلها فكر خائبا خاسراً حسيراً ، وكان صاحب المدينة بالشام فطلب من العادل نجدة على أمير مكة ،فأرسل معه جيشا فأسرع فى الأوبة فمات فى أثناء الطريق ، فاجتمع الجيش على ابن أخيه جماز فقصد مكة فالتقاه أميرها بالصفراء فاقتتلوا قتالا شديدا ، فهرب المكيون وغنم منهم جماز شيئا كثيرا ، وهرب قتادة إلى الينبع فساروا إليه فحاصروه بها وضيقوا عليه . وفيها أغارت الفرنج على بلاد الاسماعيلية فقتلوا ونهبوا . وفيها أخذ ملك الروم كيكارس مدينة أنطاكية من أيدى الفرنج ثم أخذها منه ابن لاون ملك الأرمن ، ثم منه إبريس طرابلس . وفيها ملك خوارزم شاه محمد بن تكش مدينة غزنة بغير قتال .

وفيها كانت وفاة ولى العهد أبى الحسن على بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، ولما توفى حزن الخليفة عليه حزنا عظيما ، وكذلك الخاصة والعامة لكثرة صدقاته وإحسانه إلى الناس ، حتى قيل إنه لم يبق بيت ببغداد إلا حزنوا عليه ، وكان يوم جنازته يوما مشهودا وناح أهل البلد عليه ليلا ونهارا ، ودفن عند جدته بالقرب من قبر معروف ، توفى يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة وصلى عليه بعد صلاة العصر ، وفى هذا اليوم قدم بغداد برأس منكلى الذى كان قد عصى على الخليفة وعلى أستاذه ، فطيف به ولم يتم فرحه ذلك اليوم لموت ولده وولى عهده ، والدنيا لاتسر بقدر ماتضر ، وترك ولدين أحدهما المؤيد أبو عبد الله الحسين ، والموفق أبو الفضل يحيى .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ الحافظ عبدالقاهر الرهاوى ﴾

ابن عبد القادر بن عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الحافظ المحدث المخرج المفيد المحرر المتقن البارع المصنف ، كان مولى لبعض المواصلة ، وقيل لبعض الجوابين ، اشتغل بدار الحديث بالموصل ، ثم انتقل إلى حران ، وقد رحل إلى بلدان شتى ، وسمع الكثير من المشايخ ، وأقام بحران إلى أن توفى بها ، وكان مولده فى سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، كان دينا صالحا رحمه الله .

﴿ الوجيه الأعمى ﴾

أبو بكر المبارك بن سعيد بن الدهان النحوى الواسطى الملقب بالوجيه ، ولد بواسط وقدم بغداد فاشتغل بعلم العربية ، فأتقن ذلك وحفظ شيئا كثيرا من أشعار العرب ، وسمع الحديث وكان حنبليا ثم انتقل إلى مذهب أبى حنيفة ، ثم صار شافعيا ، وولى تدريس النحو بالنظامية ، وفيه يقول الشاعر :

فمن مبلغ عنى الوجيه رسالة * وإن كان لا تجدى إليه الرسائل

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل * وذلك لما أعوزتك المآكل
وما أخذت برأى الشافعى ديانة * ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر * إلى مالك فانظر إلى ما أنت قائل

وكان يحفظ شيئا كثيرا من الحكايات والأمثال والملح ، و يعرف العربية والتركية والعجمية والرومية والحبشية والزنجية ، وكانت له يد طولى فى نظم الشعر . فمن ذلك قوله :

ولو وقفت فى لجة البحر قطرة * من المزن يوماً ثم شاء لمازها
ولو ملك الدنيا فأضحى ملوكها * عبيداً له فى الشرق والغرب مازها

وله فى التجنيس :

أطلت ملامى فى اجتنابى لمعشر * طغام لئام جودهم غير مرتجى
حموا مالهم والدين والعرض منهم * مباح ، فما يخشون من عاب أو هجا
إذا شرع الأجواد فى الجود منهجاً * لهم شرعوا فى البخل سبعين منهجا

وله مدائح حسنة وأشعار رائقة ومعانى فائقة ، وربما عارض شعر البحترى بما يقاربه و يدانيه ، قالوا وكان الوجيه لايغضب قط ، فتراهن جماعة مع واحد أنه إن أغضبه كان له كذا وكذا ، فجاء إليه فسأله عن مسألة فى العربية فأجابه فيها بالجواب ، فقال له السائل : أخطأت أيها الشيخ ، فأعاد عليه الجواب بعبارة أخرى ، فقال : كذبت وما أراك إلا قد نسيت النحو ، فقال الوجيه : أيها الرجل فلعلك لم تفهم ماأقول لك ، فقال بلى ولكنك تخطىء فى الجواب ، فقال له فقل أنت ما عندك لنستفيد منك ، فأغلظ له السائل فى القول فتبسم ضاحكا وقال له : إن كنت راهنت فقد غلبت ، و إنما مثلك مثل البعوضة ـ يعنى الناموسة ـ سقطت على ظهر الفيل ، فلما أرادت أن تطير قالت له استمسك فانى أحب أن أطير ، فقال لها الفيل : ما أحسست بك حين سقطت ، فما أحتاج أن أستمسك إذا طرت ، كانت وفاته رحمه الله فى شعبان منها ودفن بالوردية .

﴿ أبو محمد عبد العزيز بن أبى المعالى ﴾

ابن غنيمة المعروف بابن منينا ، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة وسمع الكثير وأسمعه ، توفى فى ذى الحجة منها عن سبع وتسعين سنة .

﴿ الشيخ الفقيه كمال الدين مودود ﴾

ابن الشاغورى الشافعى كان يقرىء بالجامع الأموى الفقه وشرح التنبيه للطلبة ، و يتأنى عليهم حتى يفهموا احتسابا تجاه المقصورة . ودفن بمقابر باب الصغير شمالى قبور الشهداء وعلى قبره شعر ذكره أبو شامة والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة ﴾

قال أبو شامة : فيها أحضرت الأوتاد الخشب الأربعة لأجل قبة النسر ، طول كل واحد اثنان وثلاثون ذراعا بالنجار . وفيها شرع فى تجديد خندق باب السر المقابل لدار الطعم العتيقة إلى جانب بانياس . قلت : هى التى يقال لها اليوم اصطبل السلطان ، وقد نقل السلطان بنفسه التراب ومماليكه تحمل بين يديه على قربوس السروج القفاف من التراب فيفرغونها فى الميدان الأخضر ، وكذلك أخوه الصالح ومماليكه يعمل هذا يوما وهذا يوماً . وفيها وقعت فتنة بين أهل الشاغور وأهل العقيبة فاقتتلوا بالرحبة والصيارف ، فركب الجيش إليهم ملبسين وجاء المعظم بنفسه فمسك رؤسهم وحبسهم . وفيها رتب بالمصلى خطيب مستقل ، وأول من باشره الصدر معيد الفلكية ، ثم خطب به بعد بهاء الدين بن أبى اليسر ، ثم بنو حسان و إلى الآن .

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ الملك الظاهر أبو منصور ﴾

غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان من خيار الملوك وأسدهم سيرة ، ولكن كان فيه عسف و يعاقب على الذنب اليسير كثيرا ، وكان يكرم العلماء والشعراء والفقراء ، أقام فى الملك ثلاثين سنة وحضر كثيرا من الغزوات مع أبيه ، وكان ذكياً له رأى جيد وعبارة سديدة وفطنة حسنة ، بلغ أربعاً وأربعين سنة ، وجعل الملك من بعده لولده العزيز غياث الدين محمد ، وكان حينئذ ابن ثلاث سنين ، وكان له أولاد كبار ولكن ابنه هذا الصغير الذى عهد إليه كان من بنت عمه العادل وأخواله الأشرف والمعظم والكامل ، وجده وأخواله لاينازعونه ، ولو عهد لغيره من أولاده لأخذوا الملك منه ، وهكذا وقع سواء ، بايع له جده العادل وأخواله ، وهم المعظم بنقض ذلك و بأخذ الملك منه فلم يتفق له ذلك ، وقام بتدبير ملكه الطواشى شهاب الدين طغر بك الرومى الأبيض ، وكان دينا عاقلا .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ زيد بن الحسن ﴾

ابن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة الشيخ الامام وحيد عصره تاج الدين أبو اليمن الكندى ، ولد ببغداد ونشأ بها واشتغل وحصل ، ثم قدم دمشق فأقام بها وفاق أهل زمانه شرقا وغربا فى اللغة والنحو وغير ذلك من فنون العلم ، وعلو الاسناد وحسن الطريقة والسيرة وحسن العقيدة ، وانتفع به علماء زمانه وأثنوا عليه وخضعوا له . وكان حنبلياً ثم صار حنفيا . ولد فى الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة ، فقرأ القرآن بالروايات وعمره عشر سنين ، وسمع الكثير من الحديث العالى على الشيوخ الثقات ، وعنى به وتعلم العربية واللغة واشتهر بذلك ، ثم دخل الشام فى سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، ثم سكن مصر واجتمع بالقاضى الفاضل ، ثم انتقل إلى دمشق فسكن بدار

العجم منها وحظى عند الملوك والوزراء والأمراء ، وتردد إليه العلماء والملوك وأبناؤهم ، كان الأفضل ابن صلاح الدين وهو صاحب دمشق يتردد إليه إلى منزله ، وكذلك أخوه المحسن والمعظم ملك دمشق ، كان ينزل إليه إلى درب العجم يقرأ عليه فى المفصل للزمخشرى ، وكان المعظم يعطى لمن حفظ المفصل ثلاثين دينارا جائزة ، وكان يحضر مجلسه بدرب العجم جميع المصدرين بالجامع ، كالشيخ علم الدين السخاوى و يحيى بن معطى الوجيه اللغوى ، والفخر التركى وغيرهم ، وكان القاضى الفاضل يثنى عليه . قال السخاوى : كان عنده من العلوم مالا يوجد عند غيره . ومن العجب أن سيبويه قد شرح عليه كتابه وكان اسمه عمرو ، واسمه زيد . فقلت فى ذلك :

لم يكن فى عهد عمرو مثله * وكذا الكندى فى آخر عصر

فهما زيد وعمرو إنما * بنى النحو على زيد وعمرو

قال أبو شامة : وهذا كما قال فيه ابن الدهان المذكور فى سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة :

يا زيد زادك ربى من مواهبه * نعما يقصر عن إدراكها الأمل

النحو أنت أحق العالمين به * أليس باسمك فيه يضرب المثل

وقد مدحه السخاوى بقصيدة حسنة ، وأثنى عليه أبو المظفر سبط ابن الجوزى ، فقال قرأت عليه وكان حسن العقيدة ظريف الخلق لا يسأم الانسان من مجالسته ، وله النوادر العجيبة والخط المليح والشعر الرائق ، وله ديوان شعر كبير ، وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شوال منها وله ثلاث وتسعون سنة وشهر وسبعة عشر يوماً ، وصلى عليه بجامع دمشق ثم حمل إلى الصالحية فدفن بها ، وكان قد وقف كتبه ـ وكانت نفيسة ـ وهى سبعمائة و إحدى وستون مجلدا ، على معتقه نجيب الدين ياقوت ، ثم على العلماء فى الحديث والفقه واللغة وغير ذلك ، وجعلت فى خزانة كبيرة فى مقصورة ابن سنان الحلبية المجاورة لمشهد على بن زين العابدين ، ثم إن هذه الكتب تفرقت و بيع كثير منها ولم يبق بالخزانة المشار إليها إلا القليل الرث ، وهى بمقصورة الحلبية ، وكانت قديما يقال لها مقصورة ابن سنان ، وقد ترك نعمة وافرة وأموالا جزيلة ، ومماليك متعددة من الترك الحسان ، وقد كان رقيق الحاشية حسن الأخلاق يعامل الطلبة معاملة حسنة من القيام والتعظيم ، فلما كبر ترك القيام لهم وأنشأ يقول :

تركت قيامى للصديق يزورنى * ولا ذنب لى إلا الاطالة فى عمرى

فان بلغوا من عشر تسعين نصفها * تبين فى ترك القيام لهم عذرى

ومما مدح فيه الملك المظفر شاهنشاه ما ذكره ابن الساعى فى تاريخه :

وصال الغوانى كان أورى وأرجا * وعصر التدانى كان أبهى وأبهجا

ليالى كان العمر أحسن شافع * تولى وكان اللهو أوضح منهجا
بدا الشيب فانجابت طماعية الصبا * وقبح لى ما كان يستحسن الحجا
بلهنية ولت كأن لم أكن بها * أجلى بها وجه النعيم مسرجا
ولا اختلت فى برد الشباب مجرراً * ذيولى إعجابا به وتبرجا
أعارك غيداء المعاطف طفلة * وأغيد معسول المراشف أدعجا
نقضت لياليها بطيب كأنه * لتقصيره منها مختطف الدجا
فان أمس مكروب الفؤاد حزينه * أعاقر من در الصبابة منهجا
وحيدا على أنى بفضلى متيم * مروعا بأعداء الفضائل مزعجا
فيارب دينى قد سررت وسرنى * وأبهجته بالصالحات وأبهجا
ويارب ناد قد شهدت وماجد * شهدت دعوته فتلجلجا (١)
صدعت بفضلى نقصه فتركته * وفى قلبه شجو وفى حلقه شجا
كأن ثنائى فى مسامع حسدى * وقد ضم أبكار المعانى وأدرجا
حسام تقى الدين فى كل مارق * يقد إلى الأرض الكمى المدججا

وقال يمدح أخاه معز الدين فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب :

هل أنت راحم عبرة ومدله * ومجير صب عند ما منه وهى
هيهات يرحم قاتل مقتوله * وسنانه فى القلب غير منهنه
مذ بلّ من ذاك الغرام فاننى * مذ حل بى مرض الهوى لم أنقه
إنى بليت بحب أغيد ساحر * بلحاظه رخص البنان بزهوه
أبغى شفاء تدلهى من واله * ومتى يرق مدلل لمدله
كم آهة لى فى هواه وأنة * لو كان ينفعنى عليه تأوهى
ومآرب فى وصله لو أنها * تقضى لكانت عند مبسمه الشهى
يا مفردا بالحسن إنك منته * فيه كما أنا فى الصبابة منتهى
قد لام فيك معاشر كى أنتهى * باللوم عن حب الحياة وأنت هى
أبكى لديه فان أحس بلوعة * وتشهق أرمى بطرف مقهقه
يا من محاسنه وحالى عنده * حيران بين تفكر وتكفه
ضدان قد جمعا بلفظ واحد * لى فى هواه بمعنيين موجه

---

(١) كذا بالأصل والبيت غير مستقيم .

أو لست رب فضائل لوحاز أد * ناها وما أزهى بها غيرى زهى

والذى أنشده تاج الدين الكندى فى قتل عمارة اليمنى حين كان مالأ الكفرة والملحدين على قتل الملك صلاح الدين ، وأرادوا عودة دولة الفاطميين فظهر عـلى أمره فصلب مع من صلب فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة .

عمارة فى الاسلام أبدى خيانة * وحالف فيها بيعة وصليبا
فأمسى شريك الشرك فى بعض أحمد * وأصبح فى حب الصليب صليبا
وكان طبيب الملتقى إن عجمته * تجد منه عوداً فى النفاق صليبا (١)

وله

صحبنا الدهر أياماً حسانا * نعوم بهن فى اللذات عوماً
وكانت بعد ما ولت كأنى * لدى نقصانها حلما ونوماً
أناخ بى المشيب فلا براح * وإن أوسعته عتباً ولوما
نزيل لا يزال على التآنى * يسوق إلى الردى يوما فيوما
وكنت أعد لى عاما فعاما * فصرت أعد لى يوما فيوما

﴿ العز محمد بن الحافظ عبد الغنى المقدسى ﴾

ولد سنة ست وستين وخمسمائة وأسمعه والده الكثير و رحل بنفسه إلى بغداد وقرأ بها مسند أحمد وكانت له حلقـة بجامع دمشق ، وكان من أصحاب المعظم ، وكان صالحا دينا و رعا حافظا رحمـه الله ورحم أباه

﴿ أبو الفتوح محمد بن على بن المبارك ﴾

الخلاخلى البغدادى ، سمع الكثير ، وكان يتردد فى الرسلية بين الخليفة والملك الأشرف ابن العادل وكان عاقلا دينا ثقة صدوقا .

﴿ الشريف أبو جعفر ﴾

يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن عـلى العلوى الحسينى ، نقيب الطالبيين بالبصرة بعد أبيه ، كان شيخا أديبا فاضلا عالما بفنون كثيرة لا سيما علم الأنساب وأيام العرب وأشعارها ، يحفظ كثيرا منها ، وكان من جلساء الخليفة الناصر ، ومن لطيف شعره قوله :

ليهنك سمع لا يلائمه العذل * وقلب قريح لا يمل ولا يسلو
كأن على الحب أضحى فريضة * فليس لقلبى غيره أبداً شغل
و إنى لأهوى الهجر ما كان أصله * دلالا ولولا الهجر ما عذب الوصل
وأما إذا كان الصدود ملالة * فأيسر ما هم الحبيب به القتل

﴿ أبو على مزيد بن على ﴾

ابن مزيد المعروف بابن الخشكرى الشاعر المشهور ، من أهل النعمانية جمع لنفسه ديوانا أورد له ابن الساعى قطعة من شعره فمن ذلك قوله :

---

(١) تقدمت هذه الأبيات فى (ج ١٢ ص ٢٧٦)

سألتك يوم النوى نظرة * فلم تسمحى فعز الا سلم
فأعجب كيف تقولين لا * ووجهك قد خط فيه نعم
أما النون يا هذه حاجب * أما العين عين أما الميم فم

﴿ أبو الفضل رشوان بن منصور ﴾

ابن رشوان الكردى المعروف بالنقف ولد باربل وخدم جنديا وكان أديباً شاعرا خدم مع الملك العادل ، ومن شعره قوله :

سلى عنى الصوارم والرماحا * وخيلا تسبق الهوج الرياحا
وأسداً حبيسها سمر العوالى * إذا ما الأسد حاولت الكفاحا
فانى ثابت عقلا ولباً * إذا ما صائح فى الحرب صاحا
وأورد مهجتى لجج المنايا * إذا ماجت ولم أخف الجراحا
وكم ليل سهرت وبت فيه * أراعى النجم أرتقب الصباحا
وكم فى فدفد فرسى ونضوى * بقائلة الهجير غدا وراحا
لعينك فى العجاجة ما ألاقى * وأثبت فى الكريهة لا براحا

﴿ محمد بن يحيى ﴾

ابن هبة الله أبو نصر النحاس الواسطى كتب إلى السبط من شعره :

وقائلة لما عمرت وصار لى * ثمانون عاما عش كذا وابق واسلم
ودم وانتشق روح الحياة فانه * لا طيب من بيت بصعدة مظلم
فقلت لها عذرى لديك ممهد * ببيت زهير فاعلمى وتعلمى
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش * ثمانين حولا لا محالة يسأم

﴿ ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة ﴾

فى ثالث المحرم منها كمل تبليط داخل الجامع الأموى وجاء المعتمد مبارز الدين إبراهيم المتولى بدمشق ، فوضع آخر بلاطة منه بيده عند باب الزيارة فرحاً بذلك . وفيها زادت دجلة ببغداد زيادة عظيمة وارتفع الماء حتى ساوى القبور إلا مقدار أصبعين ، ثم طفح الماء من فوقه وأيقن الناس بالهلكة واستمر ذلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، ثم من الله فتناقص الماء وذهبت الزيادة ، وقد بقيت بغداد تلولا وتهدمت أكثر البنايات . وفيها درس بالنظامية محمد بن يحيى بن فضلان وحضر عنده القضاة والأعيان . وفيها صدر الصدر بن حمويه رسولا من العادل إلى الخليفة . وفيها قدم ولده الفخر ابن الكامل إلى المعظم يخطب منه ابنته على ابنه أقسيس صاحب اليمن ، فعقد العقد بدمشق على

صداق هائل . وفيها قدم السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش من همدان قاصدا إلى بغداد فى أربعمائة ألف مقاتل ، وقيل فى ستمائة ألف ، فاستعد له الخليفة واستخدم الجيوش وأرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يكون بين يديه على قاعدة من تقدمه من الملوك السلاجقة ، وأن يخطب له ببغداد، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك ،وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهر وردى ، فلما وصل شاهد عنده من العظمة وكثرة الملوك بين يديه وهو جالس فى حركاة من ذهب على سرير ساج ، وعليه قباء بخارى ما يساوى خمسة دراهم ، وعلى رأسه جلدة ما تساوى درهما ، فسلم عليه فلم يرد عليه من الكبر ولم يأذن له فى الجلوس ، فقام إلى جانب السرير وأخذ فى خطبة هائلة فذكر فيها فضل بنى العباس وشرفهم ، وأورد حديثا فى النهى عن أذاهم والترجمان يعيد على الملك ، فقال الملك أما ما ذكرت من فضل الخليفة فانه ليس كذلك ، ولكنى إذا قدمت بغداد أقمت من يكون بهذه الصفة ، وأما ما ذكرت من النهى عن أذاهم فانى لم أوذ منهم أحدا ولكن الخليفة فى سجونه منهم طائفة كثيرة يتناسلون فى السجون ، فهو الذى آذى بنى العباس ، ثم تركه ولم يرد عليه جوابا بعد ذلك ، وانصرف السهر وردى راجعا ، وأرسل الله تعالى على الملك وجنده ثلجا عظيما ثلاثة أيام حتى طم الخركى والخيام ، ووصل إلى قريب رؤس الأعلام ، وتقطعت أيدى رجال وأرجلهم ، وعمهم من البلاء مالا يحد ولا يوصف ، فردهم الله خائبين والحمد لله رب العالمين .

وفيها انقضت الهدنة التى كانت بين العادل والفرنج واتفق قدوم العادل من مصر فاجتمع هو وابنه المعظم ببيسان ، فركبت الفرنج من عكا وصحبتهم ملوك السواحل كلهم وساقوا كلهم قاصدين مناقصة العادل ، فلما أحس بهم فرمنهم لكثرة جيوشهم وقلة من معه ، فقال ابنه المعظم إلى أين يا أبة ؟ فشتمه بالعجمية وقال له أقطعت الشام مماليكك وتركت أبناء الناس ، ثم توجه العادل إلى دمشق وكتب إلى واليها المعتمد ليحصنها من الفرنج وينقل إليها من الغلات من داريا إلى القلعة ، ويرسل الماء على أراضى داريا وقصر حجاج والشاغور ، ففزع الناس من ذلك وابتهلوا إلى الله بالدعاء وكثر الضجيج بالجامع ، وأقبل السلطان فنزل مرج الصفر وأرسل إلى ملوك الشرق ليقدموا لقتال الفرنج ، فكان أول من قدم صاحب حمص أسد الدين ، فتلقاه الناس فدخل من باب الفرج وجاء فسلم على ست الشام بدارها عند المارستان ، ثم عاد إلى داره ، ولما قدم أسد الدين سرى عن الناس فلما أصبح توجه نحو العادل إلى مرج الصفر . وأما الفرنج فانهم قدموا بيسان فنهبوا ما كان بها من الغلات والدواب ، وقتلوا وسبوا شيئا كثيرا ، ثم عاثوا فى الأرض فسادا يقتلون وينهبون ويأسرون ما بين بيسان إلى بانياس ، وخرجوا إلى أراضى الجولان إلى نوى وغيرها ، وسار الملك المعظم فنزل على عقبة اللبن بين القدس ونابلس خوفا على القدس منهم ،فانه هو الأهم الأكبر ، ثم حاصر الفرنج

حصن الطور حصاراً هائلا ومانع عنه الذين به من الأبطال مانعة هائلة ، ثم كر الفرنج راجعين إلى عكا ومعهم الأسارى من المسلمين، وجاء الملك المعظم إلى الطور فخلع على الأمراء الذين به وطيب نفوسهم ، ثم اتفق هو وأبوه على هدمه كما سيأتي .

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ الشيخ الامام العلامة الشيخ العماد ﴾

أخو الحافظ عبدالغنى ، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى ، الشيخ العمادى أصغر من أخيه الحافظ عبد الغنى بسنتين ، وقدم مع الجماعة إلى دمشق سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، ودخل بغداد مرتين وسمع الحديث وكان عابدا زاهداً ورعا كثير الصيام ، يصوم يوما ويفطر يوما ، وكان فقيها مفتيا ، وله كتاب الفروع وصنف أحكاماً ولم يتمه ، وكان يؤم بمحراب الحنابلة مع الشيخ الموفق ، وإنما كانوا يصلون بغير محراب ، ثم وضع المحراب فى سنة سبع عشرة وستمائة ، وكان أيضاً يؤم بالناس لقضاء الفوائت ، وهو أول من فعل ذلك . صلى المغرب ذات ليلة وكان صائما ثم رجع إلى منزله بدمشق فأفطر ثم مات فجأة ، فصلى عليه بالجامع الأموى ، صلى عليه الشيخ الموفق عند مصلاهم ، ثم صعدوا به إلى السفح ، وكان يوم موته يوماً مشهودا من كثرة الناس . قال سبط ابن الجوزى كان الخلق من الكهف إلى مغارة الدم إلى المنطور لو بدر السمسم ما وقع إلا على رؤس الناس ، قال فلما رجعت تلك الليلة فكرت فيه وفى جنازته وكثرة من شهدها وقلت : هذا كان رجلا صالحا ولعله أن يكون نظر إلى ربه حين وضع فى قبره ، ومر بذهنى أبيات الثورى التى أنشدها بعد موته فى المنام :

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى * هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواما إذا أظلم الدجى * بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته * وزرنى فانى عنك غير بعيد

ثم قلت أرجو أن يكون العماد رأى ربه كما رآه الثورى ، فنمت فرأيت الشيخ العماد فى المنام وعليه حلة خضراء وعمامة خضراء ، وهو فى مكان متسع كأنه روضة ، وهو يرقى فى درج متسعة ، فقلت يا عماد الدين كيف بت فانى والله مفكر فيك ؟ فنظر إلى وتبسم على عادته التى كنت أعرفه فيها فى الدنيا ثم قال :

رأيت إلهى حين أنزلت حفرتى * وفارقت أصحابى وأهلى وجيرتى
وقال جزيت الخير عنى فاننى * رضيت فها عفوى لديك ورحمتى
دأبت زمانا تأمل العفو والرضا * فوقيت نيرانى ولقيت جنتى

قال فانتبهت وأنا مذعور وكتبت الأبيات والله أعلم .

﴿ القاضى جمال الدين ابن الحرستانى ﴾

عبدالصمد بن محمد بن أبى الفضل أبوالقاسم الأنصارى ابن الحرستانى قاضى القضاة بدمشق

ولد سنة عشرين وخمسمائة ، وكان أبوه من أهل حرستان ، فنزل داخل باب توما وأم بمسجد الزينبى ونشأ ولده هذا نشأة حسنة سمع الحديث الكثير وشارك الحافظ ابن عساكر فى كثير من شيوخه ، وكان يجلس للاسماع بمقصورة الخضر ، وعندها كان يصلى دائما لا تفوته الجماعة بالجامع ، وكان منزله بالحورية ودرس بالمجاهدية وعمر دهراً طويلا على هذا القدم الصالح والله أعلم . وناب فى الحكم عن ابن أبى عصرون ، ثم ترك ذلك ولزم بيته وصلاته بالجامع ، ثم عزل العادل القاضى ابن الزكى وألزم هذا بالقضاء وله ثنتان وتسعون سنة وأعطاه تدريس العزيزية . وأخذ التقوية أيضاً من ابن الزكى وولاها فخر الدين ابن عساكر . قال ابن عبد السلام ما رأيت أحداً أفقه من ابن الحرستانى ، كان يحفظ الوسيط للغزالى . وذكر غير واحد أنه كان من أعدل القضاة وأقومهم بالحق ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكان ابنه عماد الدين يخطب بجامع دمشق ، وولى مشيخة الاشرفية ينوب عنه ، وكان القاضى جمال الدين يجلس للحكم بمدرسته المجاهدية ، وأرسل إليه السلطان طراحة ومسندة لأجل أنه شيخ كبير ، وكان ابنه يجلس بين يديه ، فاذا قام أبوه جلس فى مكانه ، ثم إنه عزل ابنه عن نيابته لشىء بلغه عنه ، واستناب شمس الدين بن الشيرازى ، وكان يجلس تجاهه فى شرقى الايوان ، واستناب معه شمس الدين ابن سنا الدولة ، واستناب شرف الدين ابن الموصلى الحنفى ، فكان يجلس فى محراب المدرسة ، واستمر حاكما سنتين وأربعة أشهر ، ثم مات يوم السبت رابع الحجة وله من العمر خمس وتسعون سنة ، وصلى عليه بجامع دمشق ثم دفن بسفح قايسون

﴿ الامير بدر الدين محمد بن أبى القاسم ﴾

الهكارى بانى المدرسة التى بالقدس ، كان من خيار الامراء ، وكان يتمنى الشهادة دائما فقتله الفرنج بحصن الطور ، ودفن بالقدس بتربة عاملها وهو يزار إلى الآن رحمه الله

﴿ الشجاع محمود المعروف بابن الدماغ ﴾

كان من أصدقاء العادل يضحكه ، فحصل أموالا جزيلة منهم ، كانت داره داخل باب الفرنج فجعلتها زوجته عائشة مدرسة للشافعية والحنفية ، ووقفت عليها أوقافا دارة

﴿ الشيخة الصالحة العابدة الزاهدة ﴾

شيخة العالمات بدمشق ، تلقب بدهن اللوز ، بنت نورنجان ، وهى آخر بناته وفاة وجعلت أموالها وقفا على تربة أختها بنت العصبة المشهورة

﴿ ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ﴾

استهلت والعادل بمرج الصفر لمناجزة الفرنج وأمر ولده المعظم بتخريب حصن الطور فأخربه ونقل مافيه من آلات الحرب وغيرها إلى البلدان خوفا من الفرنج . وفى ربيع الاول نزلت الفرنج على

دمياط وأخـذوا برج السلسلة فى جمادى الاولى ، وكان حصناً منيعاً ، وهو قفل بلاد مصر . وفيها التقى المعظم والفرنج على القيمون فـكسرهم وقتل منهم خلقا وأسر من الداوية مائة فأدخلهم إلى القدس منـكسة أعلامهم . وفيها جرت خطوب كثيرة ببلد الموصل بسبب موت ملوكها أولاد قرا أرسلان واحداً بعد واحد ، وتغلب مملوك أبيهم بدر الدين لؤلؤ على الأمور والله أعلم . وفيها أقبل ملك الروم كيكاريس سنجر يريد أخذ مملـكة حلب ، وساعده عـلى ذلك الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط ، فصده عن ذلك الملك الأشرف موسى بن العـادل وقهر ملك الروم وكسر جيشه ورده خائباً . وفيها تملك الأشرف مدينة سنجار مضافا إلى ما بيده من الممالك .

وفيها توفى السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، فأخذت الفرنج دميـاط ثم ركبوا وقصدوا بلاد مصر من ثغر دمياط فحاصروه مدة أربعة شهور ، والملك الـكامل يقاتلهم ويمانعهم ، فتملـكوا برج السلسلة وهو كالقفل على ديار مصر ، وصفته فى وسط جزيرة فى النيل عنـد انتهائه إلى البحر ، ومنه إلى دمياط ، وهو على شاطىء البحر وحافة سلسلة منه إلى الجانب الآخر ، وعليه الجسر وسلسلة أخرى لتمنع دخول المراكب من البحر إلى النيل ، فلا يمكن الدخول ، فلما ملكت الفرنج هذا البرج شق ذلك على المسلمين ، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر تأوه لذلك تأوهاً شديداً ودق بيده على صدره أسفا وحزنا على المسلمين وبلادها ، ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله عز وجل ، فلما كان يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة توفى بقرية غالقين ، فجاءه ولده المعظم مسرعا فجمع حواصله وأرسله فى محفة ومعه خادم بصفة أن السلطان مريض ، وكلـما جاء أحـد من الأمراء ليسلم عليه بلغهم الطواشى عنه ، أى أنه ضعيف ، عن الرد عليهم ، فلما انتهى به إلى القلعة دفن بها مدة ثم حول إلى تربته بالعادلية الـكبيرة ، وقد كان الملك سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شادى من خيار الملوك وأجودهم سيرة ، دينا عاقلا صبورا وقورا ، أبطـل المحرمات والخمور والمعارف من مملكته كلها وقد كانت ممتـدة من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همدان كلها ، أخذها بعد أخيه صلاح الدين سوى حلب فانه أقرها بيد ابن أخيه الظاهر غازى لأنه زوج ابنتـه صفية الست خاتون . وكان العادل حليما صفوحاً صبوراً على الأذى كثير الجهاد بنفسه ومع أخيه حضر معه مواقفه كلها أو أكثرها فى مقاتلة الفرنج ، وكانت له فى ذلك اليد البيضاء ، وكان ماسك اليد وقد أنفق فى عام الغلاء بمصر أموالا كثيرة على الفقراء وتصدق على أهل الحاجة من أبناء الناس وغيرهم شيئاً كثيراً جدا ، ثم إنه كفن فى العام الثانى من بعد عام الغـلاء فى الفناء مائة ألف إنسـان من الغرباء والفقراء ، وكان كثير الصدقة فى أيام مرضه حتى كان يخلع جميع ما عليه ويتصدق به وبمركوبه ، وكان كثير الاكل ممتعا بصحة وعافية مع كثرة صيامه ، كان يأكل فى اليوم الواحد أكلات جيدة ، ثم بعد

هذا يأكل عند النوم رطلا بالدمشقى من الحلوى السكرية اليابسة ، وكان يعتريه مرض فى أنفه فى زمن الورد وكان لا يقدر على الاقامة بدمشق حتى يفرغ زمن الورد ، فكان يضرب له الوطاق بمرج الصفر ثم يدخل البلد بعد ذلك . توفى عن خمس وسبعين سنة ، وكان له من الأولاد جماعة : محمد الكامل صاحب مصر ، وعيسى المعظم صاحب دمشق ، وموسى الأشرف صاحب الجزيرة ، وخلاط وحران وغير ذلك ، والأوحد أيوب مات قبله ، والفائز إبراهيم ، والمظفر غازى صاحب الرها ، والعزيز عثمان والأمجد حسن وهما شقيقا المعظم ، والمقيت محمود ، والحافظ أرسلان صاحب جعبر ، والصالح إسماعيل ، والقاهر إسحاق ، ومجير الدين يعقوب ، وقطب الدين أحمد ، وخليل وكان أصغرهم ، وتقى الدين عباس وكان آخرهم وفاة ، بقى إلى سنة ستين وستمائة ، وكان له بنات أشهرهن الست صفية خاتون زوجة الظاهر غازى صاحب حلب وأم الملك العزيز والد الناصر يوسف الذى ملك دمشق ، وإليه تنسب الناصريتان إحداهما بدمشق والأخرى بالسفح وهو الذى قتله هلاكو كما سيأتى .

﴿ صفة أخذ الفرنج دمياط ﴾

لما اشتهر الخبر بموت العادل ووصل إلى ابنه الكامل وهو بثغر دمياط مرابط الفرنج ، أضعف ذلك أعضاء المسلمين وفشلوا ، ثم بلغ الكامل خبر آخر أن الأمير ابن المشطوب وكان أكبر أمير بمصر ، قد أراد أن يبايع للفائز عوضا عن الكامل ، فساق وحده جريدة فدخل مصر ليستدرك هذا الخطب الجسيم ، فلما فقده الجيش من بينهم انحل نظامهم واعتقدوا أنه قد حدث أمر أكبر من موت العادل ، فركبوا وراءه فدخلت الفرنج بأمان إلى الديار المصرية ، واستحوذوا على معسكر الكامل وأثقاله ، فوقع خبط عظيم جدا ، وذلك تقدير العزيز العليم ، فلما دخل الكامل مصر لم يقع مما ظنه شىء ، وإنما هى خديعة من الفرنج ، وهرب منه ابن المشطوب إلى الشام ، ثم ركب من فوره فى الجيش إلى الفرنج فاذا الأمر قد تزايد ، وتمكنوا من البلدان وقتلوا خلقا وغنموا كثيرا ، وعاثت الأعراب التى هنالك على أموال الناس ، فكانوا أضر عليهم من الفرنج ، فنزل الكامل تجاه الفرنج يمانعهم عن دخولهم إلى القاهرة بعد أن كان يمانعهم عن دخول الثغر ، وكتب إلى إخوانه يستحثهم ويستنجدهم ويقول الوحا الوحا العجل العجل ، أدركوا المسلمين قبل تملك الفرنج جميع أرض مصر . فأقبلت العساكر الاسلامية إليه من كل مكان ، وكان أول من قدم عليه أخوه الأشرف بيض الله وجهه ، ثم المعظم وكان من أمرهم مع الفرنج ما سنذكره بعد هذه السنة .

وفيها ولى حسبة بغداد الصاحب محيى الدين يوسف بن أبى الفرج ابن الجوزى ، وهو مع ذلك يعمل ميعاد الوعظ على قاعدة أبيه ، وشكر فى مباشرته للحسبة . وفيها فوض إلى المعظم النظر فى التربة البدرية تجاه الشبلية عند الجسر الذى على ثور ، ويقال له جسر كحيل ، وهى منسوبة إلى

حسن بن الداية ، كان هو و إخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكى ، وقد جعلت فى حدود الأربعين وستمائة جامعا يخطب فيه يوم الجمعة . وفيها أرسل السلطان علاءالدين محمد بن تكش إلى الملك العادل وهو مخيم بمرج الصفر رسولا ، فرد إليه مع الرسول خطيب دمشق جمال الدين محمد بن عبد الملك الدولعى ، واستنيب عنه فى الخطابة الشيخ الموفق عمر بن يوسف خطيب بيت الأبار ، فأقام بالعزيزية يباشر عنه ، حتى قدم وقد مات العادل .

وفيها توفى الملك القاهر صاحب الموصل . فأقيم ابنه الصغير مكانه . ثم قتل وتشتت شمل البيت الأتابكى ، وتغلب على الأمور بدر الدين لؤلؤ غلام أبيه . وفيها كان عود الوزير صفى الدين عبدالله ابن على بن شكر من بلاد الشرق بعد موت العادل ، فعمل فيه علم الدين مقامة بالغ فى مدحه فيها ، وقد ذكروا أنه كان متواضعاً يحب الفقراء والفقهاء ، و يسلم على الناس إذا اجتاز بهم وهو راكب فى أبهة وزارته ، ثم إنه نكب فى هذه السنة ، وذلك أن الكامل هو الذى كان سبب طرده و إبعاده كتب إلى أخيه المعظم فيه ، فاحتاط على أمواله وحواصله ، وعزل ابنه عن النظر من الدواوين ، وقد كان ينوب عن أبيه فى مدة غيبته . وفى رجب منها أعاد المعظم ضمان القيان والخمور والمغنيات وغير ذلك من الفواحش والمنكرات التى كان أبوه قد أبطلها ، بحيث إنه لم يكن أحد يتجاسر أن ينقل ملء كف خمر إلى دمشق إلا بالحيلة الخفية ، فجزى الله العادل خيرا ، ولا جزى المعظم خيرا على ما فعل ، واعتذر المعظم فى ذلك بأنه إنما صنع هذا المنكر لقلة الأموال على الجند ، واحتياجهم إلى النفقات فى قتال الفرنج . وهذا من جهله وقلة دينه وعدم معرفته بالأمور ، فان هذا الصنيع يديل عليهم الأعداء و ينصرهم عليهم ، و يتمكن منهم الداء و يثبط الجند عن القتال ، فيولون بسببه الأدبار ، وهذا مما يدمر و يخرب الديار و يديل الدول ، كما فى الأثر « إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى » . وهذا ظاهر لا يخفى على فطن .

ومن توفى فيها من الأعيان .

﴿ القاضى شرف الدين ﴾

أبو طالب عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى اللخمى الضرير البغدادى ، كان ينسب إلى علم الأوائل ، ولكنه كان يتستر بمذهب الظاهرية ، قال فيه ابن الساعى : الداودى المذهب ، المعرى أدبا واعتقادا ، ومن شعره :

إلى الله أشكو ما ألاقى * غداة عدوا على هوج النياق
سألتكم بمن زم المطايا * أمر بكم أمر من الفراق ؟
وهل ذل أشد من التنائى * وهل عيش ألذ من التلاق ؟

قاضى قضاة بغداد .

﴿ عماد الدين أبو القاسم ﴾

عبد الله بن الحسين بن الدامغانى الحنفى ، سمع الحديث وتفقه على مذهب أبى حنيفة ، وولى القضاء ببغداد مرتين نحوا من أربع (١) عشرة سنة ، وكان مشكور السيرة عارفا بالحساب والفرائض وقسمة التركات

﴿ أبو اليمن نجاح بن عبد الله الحبشى ﴾

السودانى نجم الدين مولى الخليفة الناصر ، كان يسمى سلمان دار الخلافة ، وكان لا يفارق الخليفة ، فلما مات وجد عليه الخليفة وجدا كثيرا ، وكان يوم جنازته يوماً مشهودا ، كان بين يدى نعشه مائة بقرة وألف شاة وأحمال من التمر والخبز والماورد ، وقد صلى عليه الخليفة بنفسه تحت التاج ، وتصدق عنه بعشرة آلاف دينار على المشاهد ، ومثلها على المجاورين بالحرمين ، وأعتق مماليكه ووقف عنه خمسمائة مجلد . ﴿ أبو المظفر محمد بن علوان ﴾

ابن مهاجر بن على بن مهاجر الموصلى ، تفقه بالنظامية وسمع الحديث ، ثم عاد إلى الموصل فساد أهل زمانه بها ، وتقدم فى الفتوى والتدريس بمدرسة بدر الدين لؤلؤ وغيرها ، وكان صالحا دينا .

﴿ أبو الطيب رزق الله بن يحيى ﴾

ابن رزق الله بن يحيى بن خليفة بن سليمان بن رزق الله بن غانم بن غنام التأخدرى المحدث الجوال الرحال الثقة الحافظ الأديب الشاعر ، أبو العباس أحمد بن برتكُش بن عبدالله العمادى ، كان من أمراء سنجار ، وكان أبوه من موالى الملك عماد الدين زنكى صاحبها ، وكان أحمد هذا دينا شاعرا ذا مال جزيل ، وأملاك كثيرة ، وقد احتاط على أمواله قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى وأودعه سجنا فنسى فيه ومات كمدا ، ومن شعره :

تقول وقد ودعتها ودموعها * على خدها من خشية البين تلتقى
مضى أكثر العمر الذى كان نافعاً * رويدك فاعمل صالحا فى الذى بقى

﴿ ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة ﴾

فيها أمر الشيخ محيى الدين بن الجوزى محتسب بغداد بإزالة المنكر وكسر الملاهى عكس ما أمر به المعظم ، وكان أمره فى ذلك فى أول هذه السنة ولله الحمد والمنة .

﴿ ظهور جنكزخان وعبور التتار نهر جيحون ﴾

وفيها عبرت التتار نهر جيحون صحبة ملكهم جنكزخان من بلادهم ، وكانوا يسكنون جبال طمغاج من أرض الصين ولغتهم مخالفة للغة سائر التتار ، وهم من أشجعهم وأصبرهم على القتال ، وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنكزخان بعث تجارا له ومعهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يبتضعون له

---

(١) فى المصرية : نحوا من سبع عشرة سنة .

ثيابا للكسوة ، فكتب نائبها إلى خوارزم شاه يذكر له ما معهـم من كثرة الأموال ، فأرسل إليه بأن يقتلهم و يأخذ ما معهم ، ففعل ذلك ، فلما بلغ جنكزخان خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه ، ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلا جيدا ، فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم ، فسار إليهم وهم فى شغل شاغل بقتال كشلى خان ، فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى ذراريهم وأطفالهم ، فأقبلوا إليه محرو بين فاقتتلوا معه أربعة أيام قتالا لم يسمع بمثله ، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم ، يعلمون أنهم متى ولوا استأصلوهم ، فقتل من الفريقين خلق كثـير ، حتى أن الخيول كانت تزلق فى الدماء ، وكان جملة من قتل من المسلمين نحوا من عشرين ألفا ، ومن التتار أضعاف ذلك ، ثم تحاجز الفريقان وولى كل منهم إلى بلاده ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند فحصنها وبالغ فى كثرة من ترك فيها من المقاتلة ، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة ، فقصدت التتار بخارى وبها عشرون ألف مقاتل فحاصرها جنكزخان ثلاثة أيام ، فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم ودخلها فأحسن السيرة فيهم مكرا وخديعة ، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها واستعمل أهل البلد فى طم خندقها وكانت التتار يأتون بالمنابر والربعات فيطرحونها فى الخندق يطمونه بها ففتحوها قسرا فى عشرة أيام ، فقتل من كان بها. ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلها لجنده فقتلوا من أهلها خلقا لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، وأسروا الذرية والنساء ، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن ، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل ، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب ، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال ، ثم ألقت التتار النار فى دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها ، ثم كروا راجعـين عنها قاصدين سمرقند ، وكان من أمرهم ما سـنذكره فى السنة الآتية .

وفى مستهل هذه السنة خرب سور بيت المقدس عمره الله بذكره ، أمر بذلك المعظم خوفا من استيلاء الفرنج عليه بعد مشورة من أشار بذلك ، فان الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة إلى أخذ الشام جميعه ، فشرع فى تخريب السور فى أول يوم المحرم فهرب منـه أهله خوفا من الفرنج أن يهجموا عليهم ليلا أو نهاراً ، وتركوا أموالهم وأثاثهم وتمزقوا فى البلاد كل ممزق ، حتى قيـل إنه بيع القنطار الزيت بعشرة دراهم والرطـل النحاس بنصف درهم . وضـج الناس وابتهلوا إلى الله عنـد الصخرة وفى الأقصى ، وهى أيضاً فعلة شنعاء من المعظم ، مع ما أظهر من الفواحش فى العام الماضى ، فقال بعضهم يهجو المعظم بذلك .

فى رجب حلل الحميّا * وأخرب القدس فى المحرم

وفيها استحوذت الفرنج على مدينة دمياط ودخلوها بالأمان فغدروا بأهلها وقتلوا رجالها وسبوا

نساءها وأطفالهـا ، وفجروا بالنساء و بعثوا بمنبر الجامع والربعات و رؤس القتلى إلى الجزائر ، وجعلوا الجامع كنيسة . وفيها غضب المعظم على القاضى زكى الدين بن الزكى ، وسببه أن عمته ست الشام بنت أيوب مرضت فى دارهـا التى جعلتها بعـدها مدرسة فأرسلت إلى القاضى لتوصى إليه ، فذهب إليها بشهود معه فكتب الوصية كما قالت ، فقـال المعظم يذهب إلى عمتى بدون إذنى ، و يسمع هو والشهود كلامها ؟ واتفق أن القاضى طلب من جابى العزيزية حسابها وضربه بين يديه بالمقارع ، وكان المعظم يبغض هذا القاضى من أيام أبيه ، فعند ذلك أرسل المعظم إلى القاضى ببقجة فيها قباء وكلوتة ، القباء أبيض والكلوتة صفراء . وقيل بل كانا حمراوين مدرنين ، وحلف الرسول عن السلطان ليلبسنهما و يحكم بين الخصوم فيهما ، وكان من لطف الله أن جاءته الرسالة بهذا وهو فى دهليز داره التى بباب البريد ، وهو منتصب للحكم ، فلم يستطع إلا أن يلبسهما وحكم فيهما ، ثم دخل داره واستقبل مرض موته ، وكانت وفاته فى صفر من السنة الآتية بعـدها ، وكان الشرف بن عنين الزرعى الشاعر قد أظهر النسك والتعبد ، و يقال : إنه اعتكف بالجـامع أيضاً فأرسل إليـه المعظم بخمر ونرد ليشتغل بهما . فكتب إليه ابن عنين :

يا أيها الملك المعظم سنة * أحدثتها تبقى على الآباد
تجرى الملوك على طريقك بعدها * خلع القضاة وتحفة الزهاد

وهذا من أقبح ما يكون أيضاً ، وقد كان نواب ابن الزكى أربعة : شمس الدين بن الشيرازى إمام مشهد على ، كان يحكم بالمشهد بالشباك ، و ربما برز إلى طرف الرواق تجاه البلاطة السوداء . وشمس الدين ابن سنى الدولة ، كان يحكم فى الشباك الذى فى الكلاسة تجاه تربة صلاح الدين عند الغزالية ، وكمال الدين المصرى وكيل بيت المـال كان يحـكم فى الشباك الكمالى بمشهد عثمان ، وشرف الدين الموصلى الحنفى كان يحكم بالمدرسة الطرخانية بجيرون والله تعالى أعلم .

وفيها توفى من الأعيان

﴿ ست الشام ﴾

واقفة المدرستين البرانية والجوانيـة الست الجليلة المصونة خاتون ست الشام بنت أيوب بن شادى ، أخـت الملوك وعمة أولادهم ، وأم الملوك ، كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكا ، منهم شقيقها المعظم توران شاه بن أيوب صاحب اليمن ، وهو مدفون عندها فى القبر القبلى من الثلاثة ، و فى الأوسـط منها زوجها وابن عمها ناصر الدين محمـد بن أسد الدين شيركوه بن شـادى صاحب حمص ، وكانت قد تزوجته بعد أبى ابنها حسام الدين عمر بن لاجين ، وهى وابنها حسام الدين عمر فى القبر الثالث ، وهو الذى يلى مكان الدرس ، و يقال للتربة والمدرسة الحسامية نسبة إلى ابنها هـذا حسام الدين عمر بن لاجـين ، وكان من أكابر العلماء عنـد خاله صلاح الدين ، وكانت ست الشام

من أكثر النساء صدقة و إحسانا إلى الفقراء والمحاويج ، وكانت تعمل فى كل سنة فى دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك وتفرقه على الناس ، وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار السادس عشر من ذى القعدة من هذه السنة فى دارها التى جعلتها مدرسة ، وهى عند المارستان وهى الشامية الجوانية ، ونقلت منها إلى تربتها بالشامية البرانية ، وكانت جنازتها حافلة رحمها الله .

﴿ أبو البقاء صاحب الاعراب واللباب ﴾

عبد الله بن الحسين بن عبد الله ، الشيخ أبو البقاء العكبرى الضرير النحوى الحنبلى صاحب إعراب القرآن العزيز وكتاب اللباب فى النحو ، وله حواش على المقامات ومفصل الزمخشرى وديوان المتنبى وغير ذلك ، وله فى الحساب وغيره ، وكان صالحا دينا ، مات وقد قارب الثمانين رحمه الله ، وكان إماما فى اللغة فقيها مناظرا عارفا بالأصلين والفقه ، وحكى القاضى ابن خلكان عنه أنه ذكر فى شرح المقامات أن عنقاء مغرب كانت تأتى إلى جبل شاهق عند أصحاب الرس ، فربما اختطفت بعض أولادهم فشكوها إلى نبيهم حنظلة بن صفوان فدعا عليها فهلكت . قال : وكان وجهها كوجه الانسان وفيها شبه من كل طائر ، وذكر الزمخشرى فى كتابه ربيع الأبرار أنها كانت فى زمن موسى لها أربعة أجنحة من كل جانب ، ووجه كوجه الانسان ، وفيها شبه كثير من سائر الحيوان ، وأنها تأخرت إلى زمن خالد بن سنان العبسى الذى كان فى الفترة فدعا عليها فهلكت والله أعلم . وذكر ابن خلكان أن المعز الفاطمى جىء إليه بطائر غريب الشكل من الصعيد يقال له عنقاء مغرب . قلت : وكل واحد من خالد بن سنان وحنظلة بن صفوان كان فى زمن الفترة ، وكان صالحا ولم يكن نبيا لقول رسول الله ﷺ « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه ليس بينى و بينه نبى » وقد تقدم ذلك .

﴿ الحافظ عماد الدين أبو القاسم ﴾

على ابن الحافظ بهاء الدين أبى محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبى القاسم على بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقى ، سمع الكثير ورحل فمات ببغداد فى هذه السنة ، ومن لطيف شعره قوله فى المروحة

ومروحة تروح كل هم * ثلاثة أشهر لابد منها
حزيران وتموز وآب * وفى أيلول يغنى الله عنها

﴿ ابن الدواى ﴾ الشاعر وقد أورد له ابن الساعى جملة صالحة من شعره ﴿ وأبو سعيد بن الوزان الداوى ﴾ وكان أحد المعدلين ببغداد وسمع البخارى من أبى الوقت ﴿ وأبو سعيد محمد بن محمود ﴾ بن عبد الرحمن المروزى الأصل الهمدانى المولد البغدادى المنشأ والوفاة ، كان حسن الشكل كامل الأوصاف له خط حسن و يعرف فنونا كثيرة من العلوم ، شافعى المذهب ، يتكلم فى مسائل الخلاف حسن الأخلاق ومن شعره قوله :

ارى قسم الأرزاق أعجب قسمة * لذى دعة ومكدية لذى كد
وأحمق ذو مال وأحمق معدم * وعقل بلا حظ وعقل له حد
يعم الغنى والفقر ذا الجهل والحجا * ولله من قبل الأمور ومن بعد

﴿ أبو زكريا يحيى بن القاسم ﴾

ابن الفرج بن درع بن الخضر الشافعى شيخ تاج الدين التكريتى قاضيها ، ثم درس بنظامية بغداد ، وكان متقنا لعلوم كثيرة منها التفسير والفقه والأدب والنحو واللغة ، وله المصنفات فى ذلك كله وجمع لنفسه تاريخاً حسناً . ومن شعره قوله :

لابد للمرء من ضيق ومن سعة * ومن سرور يوافيه ومن حزن
والله يطلب منه شكر نعمته * مادام فيها ويبغى الصبر فى المحن
فكن مع الله فى الحالين معتنقا * فرضيك هذين فى سر وفى علن
فما على شدة يبقى الزمان يكن * ولا على نعمة تبقى على الزمن

وله أيضا : إن كان قاضى الهوى علىّ ولى * ماجار فى الحكم من على ولى
يا يوسفى الجمال عندك لم * تبق لى حيلة من الحيل
إن كان قدّ القميص من دبر * ففيك قدّ الفؤاد من قبل

﴿ صاحب الجواهر ﴾

الشيخ الامام جمال الدين أبو محمد عبد الله بن نجم بن ساس بن نزار بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن سلس الجذامى المالكى الفقيه ، مصنف كتاب الجواهر الثمينة فى مذهب عالم المدينة ، وهو من أكثر الكتب فوائد فى الفروع ، رتبه على طريقة الوجيز للغزالى . قال ابن خلكان : وفيه دلالة على غزارة علمه وفضله والطائفة المالكية بمصر عاكفة عليه لحسنه وكثرة فوائده ، وكان مدرساً بمصر ومات بدمياط رحمه الله ، والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة ﴾

فى هذه السنة عم البلاء وعظم العزاء بجنكز خان المسمى بتموجين لعنه الله تعالى ، ومن معه من التتار قبحهم الله أجمعين ، واستفحل أمرهم واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها ، فملكوا فى سنة واحدة وهى هذه السنة سائر الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر ، وقهروا جميع الطوائف التى بتلك النواحى الخوارزمية والقفجاق والكرج واللان والخزر وغيرهم ، وقتلوا فى هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم فى بلدان متعددة كبار مالا يحد ولا يوصف ، وبالجملة فلم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة

والرجال ، وكثيراً من النساء والأطفال ، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه ، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه ، حتى أنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذى يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار وهم ينظرون إليه ، ويخربون المنازل وما عجزوا عن تخريبه يحرقوه ، وأكثر مايحرقون المساجد والجوامع، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم ، وإن لم ينصحوا فى القتال قتلوهم . وقد بسط ابن الأثير فى كامله خبرهم فى هذه السنة بسطا حسنا مفصلا ، وقدم على ذلك كلاماً هائلا فى تعظيم هذا الخطب العجيب ، قال فنقول : هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الليالى والأيام عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يدانيها ، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعل بخت نصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس ، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ، وما بنو إسرائيل بالنسبة لما قتلوا ، فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل ، ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة . فانا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها ، وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح ، فان قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما ، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره ، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ، ثم يجاوزونها إلى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونه ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج منهم إلا الشريد النادر فى أقل من سنة ، هذا ما لم يسمع بمثله ، ثم ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير قلعته التى بها ملكهم ، وعبروا عندها إلى بلد اللان اللكز ومن فى ذلك الصقع من الأمم المختلفة ، فأوسعوهم قتلا ونهبا وتخريباً ، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم وهرب الباقون إلى الغياض وملكوا عليهم بلادهم ، وسارت طائفة أخرى إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل أفعال هؤلاء وأشد ، هذا مالم يطرق الأسماع مثله ، فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها فى سنة واحدة ، إنما ملكها فى نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحدا بل رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد

ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأطيبه وأحسنه عمارة وأكثره أهلا وأعدلهم أخلاقا وسيرة فى نحو سنة ، ولم يتفق لأحد من أهل البلاد التى لم يطرقوها بقاء إلا وهو خائف مترقب وصولهم ، وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت ، ولا يحرمون شيئا ، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات لعنهم الله تعالى . قال : وإنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع لأن السلطان خوارزم شاه محمداً كان قد قتل الملوك من سائر الممالك واستقر فى الأمور ، فلما انهزم منهم فى العام الماضى وضعف عنهم وساقوا وراءه فهرب فلا يدرى أين ذهب ، وهلك فى بعض جزائر البحر ، خلت البلاد ولم يبق لها من يحميها ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور . ثم شرع فى تفصيل ما ذكره مجملا ، فذكر أولا ما قدمنا ذكره فى العام الماضى من بعث جنكزخان أولئك التجار بمال له ليأتونه بثمنه كسوة ولباساً ، وأخذ خوارزم شاه تلك الأموال فحنق عليه جنكزخان وأرسل يهدده فسار إليه خوارزم شاه بنفسه وجنوده فوجد التتار مشغولين بقتال كشلى خان ، فنهب أثقالهم ونساءهم وأطفالهم فرجعوا وقد انتصروا على عدوهم ، وازدادوا حنقا وغيظا ، فتواقعوا هم وإياه وابن جنكزخان ثلاثة أيام فقتل من الفريقين خلق كثير ، ثم تحاجزوا ورجع خوارزم شاه إلى أطراف بلاده فحصنها ثم كر راجعا إلى مقره ومملكته بمدينة خوارزم شاه ، فأقبل جنكزخان فحصر بخارا كما ذكرنا فافتتحها صلحا وغدر بأهلها حتى افتتح قلعتها قهرا وقتل الجميع ، وأخذ الأموال وسبى النساء والأطفال وخرب الدور والمحال ، وقد كان بها عشرون ألف مقاتل ، فلم يغن عنهم شيئا ، ثم سار إلى سمرقند فحاصرها فى أول المحرم من هذه السنة وبها خمسون ألف مقاتل من الجند فنكلوا وبرز إليهم سبعون ألفاً من العامة فقتل الجميع فى ساعة واحدة وألقى إليه الخمسون ألف السلم فسلبهم سلاحهم وما يمتنعون به ، وقتلهم فى ذلك اليوم واستباح البلد فقتل الجميع وأخذ الأموال وسبى الذرية وحرقه وتركه بلاقع ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، وأقام لعنه الله هنالك وأرسل السرايا إلى البلدان فأرسل سرية إلى بلاد خراسان وتسميها التتار المغربة ، وأرسل أخرى وراء خوارزم شاه ، وكانوا عشرين ألفا قال اطلبوه فأدركوه ولو تعلق بالسماء فساروا وراءه فأدركوه وبينهم وبينه نهر جيحون وهو آمن بسببه ، فلم يجدوا سفنا فعملوا لهم أحواضا يحملون عليها الأسلحة ويرسل أحدهم فرسه ويأخذ بذنبها فتجره الفرس بالماء وهو يجر الحوض الذى فيه سلاحه ، حتى صاروا كلهم فى الجانب الآخر ، فلم يشعر بهم خوارزم شاه إلا وقد خالطوه ، فهرب منهم إلى نيسابور ثم منها إلى غيرها وهم فى أثره لا يمهلونه يجمع لهم فصار كلما أتى بلداً ليجتمع فيه عساكره له يدركونه فيهرب منهم ، حتى ركب فى بحر طبرستان وسار إلى قلعة فى جزيرة فيه فكانت فيها وفاته ، وقيل إنه لا يعرف بعد ركوبه فى البحر ما كان من أمره بل ذهب فلا يدرى أين ذهب ، ولا إلى أى مفر هرب ، وملكت التتار حواصله فوجدوا فى خزانته عشرة آلاف

ألف دينار ، وألف حمل من الأطلس وغيره وعشرون ألف فرس و بغل ، ومن الغلمان والجوارى والخيام شيئا كثيرا ، وكان له عشرة آلاف مملوك كل واحد مثل ملك ، فتمزق ذلك كله ، وقد كان خوارزم شاه فقيها حنفيا فاضلا له مشاركات فى فنون من العلم ، يفهم جيدا ، وملك بلادا متسعة وممالك متعددة إحدى وعشرين سنة وشهورا ، ولم يكن بعد ملوك بنى سلجوق أكثر حرمة منه ولا أعظم ملكا منه ، لأنه إنما كانت همته فى الملك لا فى اللذات والشهوات ، ولذلك قهر الملوك بتلك الأراضى وأحل بالخطا بأساً شديدا ، حتى لم يبق ببلاد خراسان وما وراء النهر وعراق العجم وغيرها من الممالك سلطان سواه ، وجميع البلاد تحت أيدى نوابه . ثم ساروا إلى مازندران وقلاعها من أمنع القلاع ، بحيث إن المسلمين لم يفتحوها إلا فى سنة تسعين من أيام سليمان بن عبد الملك ، ففتحها هولاء فى أيسر مدة ونهبوا ما فيها وقتلوا أهاليها كلهم وسبوا وأحرقوا ، ثم ترحلوا عنها نحو الرى فوجدوا فى الطريق أم خوارزم شاه ومعها أموال عظيمة جدا ، فأخذوها وفيها كل غريب ونفيس مما لم يشاهد مثله من الجواهر وغيرها ، ثم قصدوا الرى فدخلوها على حين غفلة من أهلها فقتلوهم وسبوا وأسروا ، ثم ساروا إلى همذان فملكوها ثم إلى زنجان فقتلوا وسبوا ، ثم قصدوا قزوين فنهبوها وقتلوا من أهلها نحواً من أربعين ألفا ، ثم تيمموا بلاد أذربيجان فصالحهم ملكها أزبك بن البهلوان على مال حمله إليهم لشغله بما هو فيه من السكر وارتكاب السيئات والانهماك على الشهوات ، فتركوه وساروا إلى موقان فقاتلهم الكرج فى عشرة آلاف مقاتل فلم يقفوا بين أيديهم طرفة عين حتى انهزمت الكرج فأقبلوا إليهم بجدهم وحديدهم ، فكسرتهم التتار وقعة ثانية أقبح هزيمة وأشنعها . وههنا قال ابن الأثير: ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه : طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى حدود بلاد أرمينية من هذه الناحية و يجاوزون العراق من ناحية همذان وتالله لا أشك أن من يجىء بعدنا إذا بعد العهد و يرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها و يستبعدها ، والحق بيده ، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى أزماننا هذه فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة ، قد استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها ، يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم و يحوطهم ، فلقد دفعوا من العدو إلى أمر عظيم ، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه ، وقد عدم سلطان المسلمين خوارزم شاه . قال : وانقضت هذه السنة وهم فى بلاد الكرج ، فلما رأوا منهم ممانعة ومقاتلة يطول عليهم بها المطال عدلوا إلى غيرهم ، وكذلك كانت عادتهم فساروا إلى تبريز فصالحهم أهلها بمال . ثم ساروا إلى مراغة فحصروها ونصبوا عليها المجانيق وتترسوا بالأسارى من المسلمين ، وعلى البلد امرأة ـ ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ـ ففتحوا البلد بعد أيام وقتلوا من أهله خلقا لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل ، وغنموا منه شيئا كثيرا ، وسبوا وأسروا على

عادتهم لعنهم الله لعنة تدخلهم نار جهنم ، وقد كان الناس يخافون منهم خوفا عظيما جداً حتى إنه دخل رجل منهم إلى درب من هذه البلد وبه مائة رجل لم يستطع واحد منهم أن يتقدم إليه ، و مازال يقتلهم واحداً بعد واحد حتى قتل الجميع ولم يرفع منهم أحد يده إليه ، ونهب ذلك الدرب وحده . ودخلت امرأة منهم فى زى رجل [بيتا] فقتلت كل من فى ذلك البيت وحدها ثم استشعر أسير معها أنها امرأة فقتلها لعنها الله ، ثم قصدوا مدينة إربل فضاق المسلمون لذلك ذرعا وقال أهل تلك النواحى هذا أمر عصيب ، وكتب الخليفة إلى أهل الموصل والملك الأشرف صاحب الجزيرة يقول إنى قد جهزت عسكرا فكونوا معه لقتال هؤلاء التتار ، فأرسل الأشرف يعتذر إلى الخليفة بأنه متوجه نحو أخيه الكامل إلى الديار المصرية بسبب ما قدمهم المسلمين هناك من الفرنج ، وأخذهم دمياط الذى قد أشرفوا بأخذهم لها على أخذ الديار المصرية قاطبة ، وكان أخوه المعظم قد قدم على والى حران يستنجده لأخيهما الكامل ليتحاجزوا الفرنج بدمياط وهو على أهبة المسير إلى الديار المصرية ، فكتب الخليفة إلى مظفر الدين صاحب إربل ليكون هو المقدم على العساكر التى يبعثها الخليفة وهى عشرة آلاف مقاتل ، فلم يقدم عليه منهم ثمانمائة فارس ثم تفرقوا قبل أن يجتمعوا ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، ولكن الله سلم بأن صرف همة التتار إلى ناحية همذان فصالحهم أهلها وترك عندهم التتار شحنة ، ثم اتفقوا على قتل شحنتهم فرجعوا إليهم فحاصروهم حتى فتحوها قسراً وقتلوا أهلها عن آخرهم ، ثم ساروا إلى أذربيجان ففتحوا أردبيل ثم تبريز ثم إلى بيلقان فقتلوا من أهلها خلقا كثيرا وجما غفيرا ، وحرقوها وكانوا يفجرون بالنساء ثم يقتلونهن و يشقون بطونهن عن الأجنة ثم عادوا إلى بلاد الكرج وقد استعدت لهم الكرج فاقتتلوا معهم فكسروهم أيضاً كسرة فظيعة ، ثم فتحوا بلدانا كثيرة يقتلون أهلها و يسبون نساءها و يأسرون من الرجال ما يقاتلون بهم الحصون ، يجعلونهم بين أيديهم ترساً يتقون بهم الرمى وغيره ، ومن سلم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب ، ثم ساروا إلى بلاد اللان والقبجاق فاقتتلوا معهم قتالا عظيما فكسروهم وقصدوا أكبر مدائن القبجاق وهى مدينة سوداق وفيها من الأمتعة والثياب والتجائر من البرطاسى والقندر والسنجاب شىء كثير جدا ، ولجأت القبجاق إلى بلاد الروس وكانوا نصارى فاتفقوا معهم على قتال التتار فالتقوا معهم فكسرتهم التتار كسرة فظيعة جدا ، ثم ساروا نحو بلقار فى حدود العشرين وستمائة ففرغوا من ذلك كله و رجعوا نحو ملكهم جنكزخان لعنه الله و إياهم . هذا ما فعلته هذه السرية المغرّبة ، وكان جنكزخان قد أرسل سرية فى هذه السنة إلى كلانة وأخرى إلى فرغانة فملكوها ، وجهز جيشاً آخر نحو خراسان فحاصروا بلخ فصالحهم أهلها ، وكذلك صالحوا مدنا كثيرة أخرى ، حتى انتهوا إلى الطالقان فأعجزتهم قلعتها وكانت حصينة فحاصروها ستة أشهر حتى عجزوا فكتبوا إلى جنكزخان فقدم بنفسه فحاصرها أربعة أشهر

أخرى حتى فتحها قهرا ، ثم قتل كل من فيها وكل من فى البلد بكماله خاصة وعامة ، ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكزخان فقد عسكر بظاهرها نحو من مائتى ألف مقاتل من العرب وغيرهم فاقتتلوا معه قتالا عظيما حتى انكسر المسلمون فانا لله و إنا إليه راجعون ، ثم حصروا البلد خمسة أيام واستنزلوا نائبها خديعة ثم غدروا به و بأهل البلد فقتلوهم وغنموهم وسلبوهم وعاقبوهم بأنواع العذاب ، حتى إنهم قتلوا فى يوم واحد سبعمائة ألف إنسان ، ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا فيها ما فعلوا بأهل مرو ، ثم إلى طوس فقتلوا وخربوا مشهد على بن موسى الرضى سلام الله عليه وعلى آبائه ، وخربوا تربة الرشيد الخليفة فتركوه خرابا ، ثم ساروا إلى غزنة فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم ثم عادوا إلى ملكهم جنكزخان لعنه الله و إياهم ، وأرسل جنكزخان طائفة أخرى إلى مدينة خوارزم فحاصروها حتى فتحوا البلد قهرا فقتلوا من فيها قتلا ذريعاً ، ونهبوها وسبوا أهلها وأرسلوا الجسر الذى يمنع ماء جيحون منها فغرقت دورها وهلك جميع أهلها ثم عادوا إلى جنكزخان وهو مخيم على الطالقان فجهز منهم طائفة إلى غزنة فاقتتل معهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم جلال الدين كسرة عظيمة ، واستنقذ منهم خلقا من أسارى المسلمين ، ثم كتب إلى جنكزخان يطلب منه أن يبرز بنفسه لقتاله ، فقصده جنكزخان فتواجها وقد تفرق على جلال الدين بعض جيشه ولم يبق بد من القتال ، فاقتتلوا ثلاثة أيام لم يعهد قبلها مثلها من قتالهم ، ثم ضعفت أصحاب جلال الدين فذهبوا فركبوا بحر الهند فسارت التتار إلى غزنة فأخذوها بلا كلفة ولا ممانعة ، كل هذا أو أكثره وقع فى هذه السنة .

وفيها أيضا ترك الأشرف موسى بن العادل لأخيه شهاب الدين غازى ملك خلاط وميا فارقين و بلاد أرمينية واعتاض عن ذلك بالرها وسروج ، وذلك لاشتغاله عن حفظ تلك النواحى بمساعدة أخيه الكامل ونصرته على الفرنج لعنهم الله تعالى . وفى المحرم منها هبت رياح ببغداد وجاءت بروق وسمعت رعود شديدة وسقطت صاعقة بالجانب الغربى على المنارة المجاورة لعون ومعين فثلمتها ، ثم أصلحت ، وغارت الصاعقة فى الأرض . وفى هذه السنة نصب محراب الحنابلة فى الرواق الثالث الغربى من جامع دمشق بعد ممانعة من بعض الناس لهم ، ولكن ساعدهم بعض الأمراء فى نصبه لهم ، وهو الأمير ركن الدين المعظمى ، وصلى فيه الشيخ موفق الدين بن قدامة . قلت : ثم رفع فى حدود سنة ثلاثين وسبعمائة وعوضوا عنه بالمحراب الغربى عند باب الزيارة ، كما عوض الحنفية عن محرابهم الذى كان فى الجانب الغربى من الجامع بالمحراب المجدد لهم شرقى باب الزيارة ، حين جدد الحائط الذى هو فيه فى الأيام التنكزية ، على يدى ناظر الجامع تقى الدين ابن مراجل أثابه الله تعالى كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى . وفيها قتل صاحب سنجار أخاه فملكها مستقلا بها

الملك الأشرف بن العادل . وفيها نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف وكان قد آواه وحفظه من أذى أخيه الكامل حين أراد أن يبايع للفائز ، ثم إنه سعى فى الأرض فساداً فى بلاد الجزيرة فسجنه الأشرف حتى مات كمدا وذلا وعـذابا . وفيها أوقع الكامل بالفرنج الذين على دمياط بأساً شديدا فقتل منهم عشرة آلاف ، وأخذ منهم خيولهم وأموالهم ولله الحمد .

وفيها عزل المعظم المعتمد مفاخر الدين إبراهيم عن ولاية دمشق وولاها للعزيز خليل ، ولما خرج الحاج إلى مكة شرفها الله تعالى كان أميرهم المعتمد فحصل به خير كثير ، وذلك أنه كف عبيد مكة عن نهب الحجاج بعد قتلهم أمير حاج العراقيين أقباش الناصرى ، وكان من أكبر الأمراء عند الخليفة الناصر وأخصهم عنده ، وذلك لأنه قدم معه بخلع للأمير حسين بن أبى عزيز قتادة بن إدريس ابن مطاعن بن عبد الكريم العلوى الحسنى الزيدى بولايته لامرة مكة بعـد أبيه ، وكانت وفاته فى جمادى الأولى من هذه السنة ، فنازع فى ذلك راجح وهو أكبر أولاد قتادة ، وقال لا يتأمر عليها غيرى ، فوقعت فتنة أفضى الحال إلى قتل أقباش غلطاً ، وقد كان قتادة من أكابر الاشراف الحسنيين الزيديين وكان عادلا منصفا منعما ، نقمة عـلى عبيد مكة والمفسدين بها ، ثم عكس هذا السير فظلم وجدد المكوس ونهب الحاج غير مرة فسلط الله عليه ولده حسنا فقتله وقتل عمه وأخاه أيضاً ، فلهذا لم يمهل الله حسناً أيضاً ، بل سلبه الملك وشرده فى البلاد ، وقيل بل قتل كما ذكرنا ، وكان قتادة شيخاً طويلا مهيبا لا يخاف من أحد من الخلفاء والملوك ، ويرى أنه أحق بالأمر من كل أحد ، وكان الخليفة يود لو حضر عنده فيكرمه ، وكان يأبى من ذلك ويمتنع عنه أشد الامتناع ، ولم يفد إلى أحد قط ولا ذل لخليفة ولا ملك ، وكتب إليه الخليفة مرة يستدعيه فـكتب إليه .

ولى كف ضرغام أذل ببطشها * وأشرى بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها * وفى بطنها للمجد بين ربيع
أأجعلها تحت الرحى ثم أبتغى * خلاصاً لها إنى إذاً لرقيع
وما أنا إلا المسك فى كل بقعة * يضوع وأما عنـدكم فيضيع

وقد بلغ من السنين سبعين سنة ، وقد ذكر ابن الأثير وفاته فى سنة ثمانى عشرة فالله أعلم .

وفيها توفى من الأعيان :

﴿ الملك الفائز ﴾

غياث الدين إبراهيم بن العادل ، كان قد انتظم له الأمر فى الملك بعد أبيه على الديار المصرية على يدى الأمير عماد الدين بن المشطوب ، لولا أن الـكامل تدارك ذلك سريعا ، ثم أرسله أخوه فى هذه السنة إلى أخيهما الأشرف موسى يستحثه فى سرعة المسير إليهم بسبب الفرنج ، فمات بين سنجاب والموصل ، وقد ذكر أنه سم فرد إلى سنجاب فدفن بها رحمه الله تعالى .

﴿ شيخ الشيوخ صدر الدين ﴾

أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين محمود بن حمويه الجويني ، من بيت رياسة وإمرة عند بني أيوب ، وقد كان صدر الدين هذا فقيها فاضلا ، درس بتربة الشافعي بمصر ، وبمشهد الحسين وولي مشيخة سعيد السعداء والنظر فيها ، وكانت له حرمة وافرة عند الملوك ، أرسله الكامل إلى الخليفة يستنصره على الفرنج فمات بالموصل بالاسهال ، ودفن بها عندقضيب البان عن ثلاث وسبعين سنة .

﴿ صاحب حماه ﴾

الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وكان فاضلا له تاريخ في عشر مجلدات سماه المضمار ، وكان شجاعاً فارسا ، فقام بالملك بعده ولده الناصر قلج أرسلان ، ثم عزله عنها الكامل وحبسه حتى مات رحمه الله تعالى وولى أخاه المظفر بن المنصور

﴿ صاحب آمد ﴾

الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق ، وكان شجاعا محبا للعلماء ، وكان مصاحبا للاشرف موسى بن العادل يجيء إلى خدمته مراراً ، وملك بعده ولده المسعود ، وكان بخيلا فاسقا ، فأخذه معه الكامل وحبسه بمصر ثم أطلقه فأخذ أمواله وسار إلى التتار ، فأخذته منه .

﴿ الشيخ عبد الله اليونيني ﴾

الملقب أسد الشام رحمه الله ورضي عنه من قرية ببعلبك يقال لها يونين ، وكانت له زاوية يقصد فيها للزيارة ، وكان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والرياضة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، له همة عالية في الزهد والورع ، بحيث إنه كان لا يقتني شيئا ولا يملك مالا ولا ثيابا ، بل يلبس عارية ولا يتجاوز قميصا في الصيف وفروة فوقه في الشتاء ، وعلى رأسه قبعا من جلود المعز ، شعره إلى ظاهر ، وكان لا ينقطع عن غزاة من الغزوات ، ويرمي عن قوس زنته ثمانون رطلا ، وكان يجاور في بعض الأحيان بجبل لبنان ، ويأتي في الشتاء إلى عيون العاسريا في سفح الجبل المطل على قرية دومة شرقي دمشق ، لاجل سخونة الماء ، فيقصده الناس للزيارة هناك ، ويجيء تارة إلى دمشق فينزل بسفح قاسيون عند القادسية وكانت له أحوال ومكاشفات صالحة ، وكان يقال له أسد الشام ، حكى الشيخ أبو المظفر سبط ابن الجوزي عن القاضي جمال الدين يعقوب الحاكم بكرك البقاع أنه شاهد مرة الشيخ عبد الله وهو يتوضأ من ثور عند الجسر الابيض إذ مر نصراني ومعه حمل بغل خمراً فعثرت الدابة عند الجسر فسقط الحمل فرأى الشيخ وقد فرغ من وضوئه ولا يعرفه ، واستعان به على رفع الحمل فاستدعاني الشيخ فقال : تعال يا فقيه ، فتساعدنا على تحميل ذلك الحمل على الدابة وذهب النصراني فتعجبت من ذلك وتبعت الحمل وأنا ذاهب إلى المدينة ، فانتهى به إلى العقبة فأورده إلى

الخمار بها فاذا خل فقال له الخمار : ويحك هذا خل ، فقال النصرانى أنا أعرف من أين أتيت ، ثم ربط الدابة فى خان ورجع إلى الصالحيـة فسأل عن الشيخ فعرفه فجاء إليه فأسلم عـلى يديه ، وله أحوال وكرامات كثيرة جدا ، وكان لايقوم لاحد دخل عليه ويقول : إنما يقوم الناس لرب العالمين ، وكان الأمجد إذا دخل عليه جلس بين يديه فيقول له : ياأمجد فعلت كذا وكذا ويأمره بما يأمره ، وينهاه عما ينهاه عنه ، وهو يمتثل جميع مايقوله له ، وما ذاك إلا لصدقه فى زهده وورعه وطريقه ، وكان يقبل الفتوح ، وكان لا يدخر منه شيئا لغد ، وإذا اشتد جوعه أخذ من ورق اللوز ففركه واستفه ويشرب فوقه الماء البارد رحمه الله تعالى وأكرم مثواه ، وذكروا أنه كان يحج فى بعض السنين فى الهواء ، وقد وقع هذا لطائفة كبيرة من الزهاد وصالحى العباد ، ولم يبلغنا هذا عن أحد من أكابر العلماء ، وأول من يذكر عنه هذا حبيب العجمى ، وكان من أصحاب الحسن البصرى ، ثم من بعده من الصالحين رحمهم الله أجمعين . فلما كان يوم جمعة من عشر ذى الحجة من هذه السنة صلى الصبح عبد الله اليونينى وصلاة الجمعة بجامع بعلبك ، وكان قد دخل الحمام يومئذ قبل الصلاة وهو صحيح ، فلما انصرف من الصلاة قال للشيخ داود المؤذن ، وكان يغسل الموتى ، انظر كيف تكون غدا ، ثم صعد الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ويتذكر أصحابه ، ومن أحسن إليه ولو بأدنى شىء ويدعو لهم ، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ثم استند يذكر الله وفى يده سبحة ، فمات وهو كذلك جالس لم يسقط ، ولم تسقط السبحة من يده ، فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك فجاء إليه فعاينه كذلك فقال لو بنينا عليه بنيانا هكذا يشاهـد الناس منه آية ، فقيل له : ليس هذا من السنة ، فنحى وكفن وصلى عليه ودفن تحت اللوزة التى كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى ، رحمه الله ونور ضريحه . وكانت وفاته يوم السبت وقد جاوز ثمانين عاماً أكرمه الله تعالى ، وكان الشيخ محمـد الفقيه اليونينى من جملة تلاميذه ، وممن يلوذ به وهو جد هؤلاء المشايخ بمدينة بعلبك .

﴿ أبو عبد الله الحسين بن محمد بن أبى بكر ﴾

المجلى الموصـلى ، ويعرف بابن الجهنى ، شاب فاضل ولى كتابة الانشاء لبـدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل ، ومن شعره :

نفسى فداء الذى فكرت فيه وقد * غدوت أغرق فى بحر من العجب
يبدو بليل على صبح على قمر * على قضيب على وهم على كثب

﴿ ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة ﴾

فيها استولت التتر عـلى كثير من البلدان بكلادة وهمذان وأردبيل وتبريز وكنجة ، وقتلوا أهاليها ونهبوا ما فيها ، واستـأسروا ذراريها ، واقتربوا من بغداد فانزعج الخليفة لذلك وحصن

بغداد واستخدم الأجناد ، وقنت الناس فى الصلوات والأوراد . وفيها قهروا الكرج واللان ، ثم قاتلوا القبجاق فكسروهم ، وكذلك الروس ، وينهبون ما قدروا عليه ، ثم قاتلوهم وسبوا نساءهم وذراريهم ، وفيها سار المعظم إلى أخيه الأشرف فاستعطفه على أخيه الكامل ، وكان فى نفسه موجدة عليه فأزالها وسارا جميعاً نحو الديار المصرية لمعاونة الكامل عل الفرنج الذين قد أخذوا ثغر دمياط واستحكم أمرهم هنالك من سنة أربع عشرة ، وعرض عليهم فى بعض الأوقات أن يرد إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد الساحل ويتركوا دمياط ، فامتنعوا من ذلك ولم يفعلوا ، فقدر الله تعالى أنهم ضاقت عليهم الأقوات فقدم عليهم مراكب فيها ميرة لهم فأخذها الأسطول البحرى وأرسلت المياه على أراضى دمياط من كل ناحية فلم يمكنهم بعد ذلك أن يتصرفوا فى نفسهم ، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن ، فعند ذلك أنابوا إلى المصالحة بلا معاوضة ، فجاء مقدموهم إليه وعنده أخواه المعظم عيسى وموسى الأشرف ، وكانا قائمين بين يديه ، وكان يوما مشهودا ، فوقع الصلح على ما أراد الكامل محمد بيض الله وجهه ، وملوك الفرنج والعساكر كلها واقفة بين يديه ، ومد سماطا عظيما ، فاجتمع عليه المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وقام راجح الحلى الشاعر فأنشد :

هنيئا فان السعد راح مخلدا * وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنا * مبينا وإنعاما وعزاً مؤبدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه * وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الط * غاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه * صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم ينج إلا كل شلو مجدل * ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعاً * عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه * وموسى جميعاً يخدمون محمداً

قال أبو شامة : وبلغنى أنه أشار عند ذلك إلى المعظم عيسى والأشرف موسى والكامل محمد ، قال : وهذا من أحسن شىء اتفق ، وكان ذلك يوم الأربعاء التاسع عشر رجب من هذه السنة ، وتراجعت الفرنج إلى عكا وغيرها ، ورجع المعظم إلى الشام واصطلح الأشرف والكامل على أخيهما المعظم . وفيها ولى الملك المعظم قضاء دمشق كمال الدين المصرى الذى كان وكيل بيت المال بها ، وكان فاضلا بارعا يجلس فى كل يوم جمعة قبل الصلاة بالعادلية بعد فراغها لاثبات المحاضر ، ويحضر عنده فى المدرسة جميع الشهود من كل المراكز حتى يتيسر على الناس إثبات كتبهم فى الساعة الواحدة ، جزاه الله خيراً .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ ياقوت الكاتب الموصلى رحمه الله ﴾

أمين الدين المشهور بطريقة ابن البواب . قال ابن الأثير : لم يكن فى زمانه من يقاربه ، وكانت لديه فضائل جمة والناس متفقون على الثناء عليه ،وكان نعم الرجل . وقد قال فيه نجيب الدين الواسطى قصيدة يمدحه بها :

جامع شارد العلوم ولولا * ه لكانت أم الفضائل ثكلى
ذو براع تخاف ريقته الأسـ * ـد ، وتعنو له الكتائب ذلا
و إذا افتر ثغره عن بياض * فى سواد فالسمر والبيض خجلا
أنت بدر والكاتب ابن هلال * كأبيه لا فخر فيمن تولى
إن يكن أولى فانك بالتفضـ * ـيل أولى فقد سبقت وصلىّ

﴿ جلال الدين الحسن ﴾

من أولاد الحسن بن الصباح مقدم الاسماعيلية ، وكان قد أظهر فى قومه شعائر الاسلام ، وحفظ الحدود والمحرمات والقيام فيها بالزواجر الشرعية .

﴿ الشيخ الصالح ﴾

شهاب الدين محمد بن خلف بن راجح المقدسى الحنبلى الزاهد العابد الناسك،كان يقرأ على الناس يوم الجمعة الحديث النبوى وهو جالس على أسفل منبر الخطابة بالجامع المظفرى ، وقد سمع الحديث الكثير ، و رحل وحفظ مقامات الحريرى فى خمسين ليلة ، وكانت له فنون كثيرة ، وكان ظريفا مطبوعا رحمه الله

﴿ والخطيب موفق الدين ﴾

أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن عمر بن كامل المقدسى ، خطيب بيت الأبار ، وقد ناب فى دمشق عن الخطيب جمال الدين الدولعى حين سار فى الرسلية إلى خوارزم شاه ، حتى عاد .

﴿ المحدث البارع تقى الدين أبوطاهر ﴾

إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن بن الأنماطى ، قرأ الحديث و رحل وكتبه ، وكان حسن الخط متقنا فى علوم الحديث ، حافظا له ، وكان الشيخ تقى الدين ابن الصلاح يثنى عليه ويمدحه ، وكانت له كتب بالبيت الغربى من الكلاسة الذى كان الملك المحسن بن صلاح الدين ، ثم أخذ من ابن الأنماطى وسلم إلى الشيخ عبد الصمد الدكالى ، واستمر بيد أصحابه بعد ذلك ، وكانت وفاته بدمشق ودفن بمقابر الصوفية وصلى عليه بالجامع الشيخ موفق الدين ، و بباب النصر الشيخ فخر الدين بن عساكر ، و بالمقبرة قاضى القضاة جمال الدين المصرى رحمه الله تعالى .

﴿ أبو الغيث شعيب بن أبي طاهر بن كليب ﴾

ابن مقبل الضرير الفقيه الشافعي ، أقام ببغداد إلى أن توفي ، وكانت لديه فضائل وله رسائل ، ومن شعره قوله :

إذا كنتم للناس أهل سياسة * فسوسوا كرام الناس بالجود والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا * عليه ، فان الذل أصلح للنذل

﴿ أبو العز شرف بن علي ﴾

ابن أبي جعفر بن كامل الخالصي المقرى الضرير الفقيه الشافعي ، تفقه بالنظامية وسمع الحديث ورواه ، وأنشد عن الحسن بن عمرو الحلبي :

تمثلتم لي والديار بعيدة * نخيل لي أن الفؤاد لكم معنى
وناجاكم قلبي على البعد بيننا * فأوحشتم لفظا وآنستم معنى

﴿ أبو سليمان داود بن إبراهيم ﴾

ابن مندار الجيلي ، أحد المعيدين بالمدرسة النظامية ، ومما أنشده .

أيا جامعا أمسك عنانك مقصراً * فان مطايا الدهر تكبو وتقصر
ستقرع سنا أو تعض ندامة * إذا خان الزمان واقصر[1]
ويلقاك رشد بعد غيك واعظ * ولكنه يلقاك والأمر مدبر

﴿ أبو المظفر عبد الودود بن محمود بن المبارك ﴾

ابن علي بن المبارك بن الحسن الواسطي الأصل ، البغدادي الدار والمولد ، كمال الدين المعروف والده بالمجيد ، تفقه على أبيه وقرأ عليه علم الكلام ، ودرس بمدرسته عند باب الأزج ، ووكله الخليفة الناصر واشتهر بالديانة والأمانة ، وباشر مناصب كباراً ، وحج مراراً عديدة ، وكان متواضعاً حسن الأخلاق وكان يقول :

وما تركت ست وستون حجة * لنا حجة أن نركب اللهو مركبا

وكان ينشد العلم يأتي كل ذي خف * ض ويأبى على كل آبي
كالماء ينزل في الوها * د وليس يصعد في الروابي

﴿ ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة ﴾

فيها نقل تابوت العادل من القلعة إلى تربته العادلية الكبيرة ، فصلى عليه أولا تحت النسر بالجامع الأموي ، ثم جاؤا به إلى التربة المذكورة فدفن فيها ، ولم تكن المدرسة كملت بعد ، وقد تكامل بناؤها في هذه السنة أيضاً ، وذكر الدرس بها القاضي جمال الدين المصري ، وحضر عنده السلطان

(١) كذا في الاصل والبيت مكسور .

المعظم فجلس فى الصدر وعن شماله القاضى وعن يمينه صدر الدين الحصيرى شيخ الحنفية ، وكان فى المجلس الشيخ تقى الدين بن الصلاح إمام السلطان ، والشيخ سيف الدين الآمدى إلى جانب المدرس ، وإلى جانبه شمس الدين بن سناء الدولة ، ويليه النجم خليل قاضى العسكر ، وتحت الحصيرى شمس الدين بن الشيرازى ، وتحته محى الدين التركى ، وفيه خلق من الأعيان والأكابر ، وفيهم فخر الدين بن عساكر . وفيها أرسل الملك المعظم الصدر الكشهنى (١) محتسب دمشق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه يستعينه على أخويه الكامل والأشرف اللذين قد تمالآ عليه ، فأجابه إلى ذلك بالسمع والطاعة ، ولما عاد الصدر المذكور أضاف إليه مشيخة الشيوخ . وحج فى هذه السنة الملك مسعود بن أقسيس بن الكامل صاحب اليمن فبدت منه أفعال ناقصة بالحرم من سكر ورشق حمام المسجد بالبندق من أعلا قبة زمزم ، وكان إذا نام فى دار الامارة يضرب الطائفون بالمسعى بأطراف السيوف لئلا يشوشوا عليه وهو نوم سكر قبحه الله ، ولكن كان مع هذا كله مهيباً محترماً والبلاد به آمنة مطمئنة ، وقد كاد يرفع سنجق أبيه يوم عرفة على سنجق الخليفة فيجرى بسبب ذلك فتنة عظيمة ، وما مكن من طلوعه وصعوده إلى الجبل إلا فى آخر النهار بعد جهد جهيد . وفيها كان بالشام جراد كثير أكل الزرع والثمار والأشجار . وفيها وقعت حروب كثيرة بين القبجاق والكرج ، وقتال كثير بسبب ضيق بلاد القبجاق عليهم . وفيها ولى قضاء القضاة ببغداد أبو عبد الله محمد بن فلان . ولبس الخلعة فى باب دار الوزارة مؤيد الدين محمد بن محمد القيمق بحضرة الأعيان والكبراء ، وقرىء تقليده بحضرتهم وساقه ابن الساعى بحروفه

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ عبد القادر بن داود ﴾

أبو محمد الواسطى الفقيه الشافعى الملقب بالمحب ، استقل بالنظامية دهراً ، واشتغل بها ، وكان فاضلا دينا صالحاً ، ومما أنشده من الشعر :

الفرقدان كلاهما شهدا له * والبدر ليلة تمه بسهاده
دنف إذا اعتبق الظلام تضرمت * نار الجوى فى صدره وفؤاده
فجرت مدامع جفنه فى خده * مثل المسيل بسيل من أطواره
شوقا إلى مضنيه لم أر هكذا * مشتاق مضنى جسمه ببعاده
ليت الذى أضناه سحر جفونه * قبل الممات يكون من عواده

﴿ أبو طالب يحيى بن على ﴾

اليعقوبى الفقيه الشافعى أحد المعيدين ببغداد ، كان شيخا مليح الشيبة جميل الوجه ، كان يلى بعض الاوقاف ، ومما أنشده لبعض الفضلاء :

---

(١) هو صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبى الفتح .

لحمل تهامة وجبال أحد * وماء البحر ينقل بالزبيل
ونقل الصخر فوق الظهر عريا * لأهون من مجالسة الثقيل

ولبعضهم أيضاً ، وهو مما أنشده المذكور :

وإذا مضى للمرء من أعوامه * خمسون وهو إلى التقى لا يجنح
عكفت عليه المخزيات فقولها * حالفتنا ، فأقم كذا لا تبرح
وإذا رأى الشيطان غرة وجهه * حيا ، وقال فديت من لا يفلح

اتفق أنه طولب بشيء من المال فلم يقدر عليه فاستعمل شيئاً من الأفيون المصرى فمات من يومه ودفن بالوردية . وفيها توفى .

﴿ قطب الدين العادل ﴾

بالفيوم ونقل إلى القاهرة . وفيها توفى إمام الحنابلة بمكة .

﴿ الشيخ نصر بن أبى الفرج ﴾

المعروف بابن الحصرى ، جاور بمكة مدة لم يسافر ، ثم ساقته المنية إلى اليمن ، فمات بها فى هذه السنة . وقد سمع الحديث من جماعة من المشايخ .

وفيها فى ربيع الأول توفى بدمشق الشهاب ﴿ عبد الكريم بن نجم النيلى ﴾ أخو البهاء والناصح ، وكان فقيها مناظراً بصيراً بالمحاكمات . وهو الذى أخرج مسجد الوزير من يد الشيخ علم الدين السخاوى رحمه الله تعالى بمنه وكرمه . ﴿ ثم دخلت سنة عشرين وستمائة ﴾

فيها عاد الأشرف موسى بن العادل من عند أخيه الكامل صاحب مصر . فتلقاه أخوه المعظم وقد فهم أنهما تمالآ عليه ، فبات ليلة بدمشق وسار من آخر الليل ولم يشعر أخوه بذلك ، فسار إلى بلاده فوجد أخاه الشهاب غازى الذى استنابه على خلاط وميافارقين وقد قووا رأسه وكاتبه المعظم صاحب إربل وحسنوا له مخالفة الأشرف ، فكتب إليه الأشرف ينهاه عن ذلك فلم يقبل ، فجمع له العساكر ليقاتله . وفيها سار أقسيس الملك مسعود صاحب اليمن ابن الكامل من اليمن إلى مكة شرفها الله تعالى فقاتله ابن قتادة ببطن مكة بين الصفا والمروة ، فهزمه أقسيس وشرده ، واستقل بملك مكة مع اليمن ، وجرت أمور فظيعة وتشرد حسن بن قتادة قاتل أبيه وعمه وأخيه فى تلك الشعاب والأودية .

وممن توفى فيها من الأعيان الشيخ الامام .

﴿ موفق الدين عبد الله بن أحمد ﴾

ابن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر . شيخ الاسلام ، مصنف المغنى فى المذهب ، أبو محمد المقدسى

إمام عالم بارع . لم يكن فى عصره ، بل ولاقبل دهره بمدة أفقه منه ، ولد بجماعيل فى شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقدم مع أهله إلى دمشق فى سنة إحدى وخمسين ، وقرأ القرآن وسمع الحديث الكثير ، ورحل مرتين إلى العراق إحداهما فى سنة إحدى وستين مع ابن عمه الحافظ عبد الغنى ، والأخرى سنة سبع وستين ، وحج فى سنة ثلاث وسبعين، وتفقه ببغداد على مذهب الامام أحمد ، وبرع وأفتى وناظر وتبحر فى فنون كثيرة ، مع زهد وعبادة وورع وتواضع وحسن أخلاق وجود وحياء وحسن سمت ونور وبهاء وكثرة تلاوة وصلاة وصيام وقيام وطريقة حسنة واتباع للسلف الصالح ، وكانت له أحوال ومكاشفات ، وقد قال الشافعى رحمه الله تعالى : إن لم تكن العلماء العاقلون أولياء الله فلا أعلم لله وليا ، وكان يؤم الناس للصلاة فى محراب الحنابلة هو والشيخ العماد ، فلما توفى العماد استقل هو بالوظيفة ، فان غاب صلى عنه أبوسليمان ابن الحافظ عبد الرحمن بن الحافظ عبدالغنى ، وكان يتنفل بين العشاءين بالقرب من محرابه ، فاذا صلى العشاء انصرف إلى منزله بدرب الدولعى بالرصيف وأخذ معه من الفقراء من تيسر يأكون معه من طعامه ، وكان منزله الأصلى بقاسيون فينصرف بعض الليالى بعد العشاء إلى الجبل ، فاتفق فى بعض الليالى أن خطف رجل عمامته وكان فيها كاغد فيه رمل ، فقال له الشيخ : خذ الكاغد وألق العمامة ، فظن الرجل أن ذلك نفقة فأخذه وألقى العمامة . وهذا يدل على ذكاء مفرط واستحضار حسن فى الساعة الراهنة ، حتى خلص عمامته من يده بتلطف . وله مصنفات عديدة مشهورة ، منها المغنى فى شرح مختصر الخرقى فى عشرة مجلدات ، والشافى فى مجلدين والمقنع للحفظ ، والروضة فى أصول الفقه ، وغير ذلك من التصانيف المفيدة ، وكانت وفاته فى يوم عيد الفطر فى هذه السنة ، وقد بلغ الثمانين ، وكان يوم سبت وحضر جنازته خلق كثير ، ودفن بتربته المشهورة ، ورؤيت له منامات صالحة رحمه الله تعالى ، وكان له أولاد ذكور وإناث ، فلما كان حياً ماتوا فى حياته . ولم يعقب منهم سوى ابنه عيسى ولدين ثم ماتا وانقطع نسله ، قال أبوالمظفر سبط ابن الجوزى : نقلت من خط الشيخ موفق رحمه الله تعالى :

لاتجلسن بباب من * يأبى عليك وصول داره
وتقول حاجاتى إليـ * ـه يعوقها إن لم أداره
واتركه واقصد ربها * تقضى ورب الدار كاره

ومما أنشده الشيخ موفق الدين لنفسه رحمه الله تعالى ورضى عنه قوله :

أبعد بياض الشعر أعمر مسكنا * سوى القبر ، إنى إن فعلت لأحمق
يخبرنى شيبى بأنى ميت * وشيكا ، فينعانى إلى ويصدق
يخرق عمرى كل يوم وليلة * فهل مستطاع رقع ما يتخرق

كأنى بجسمى فوق نعشى ممدداً * فمن ساكت أو معول يتحرق
إذا سئلوا عنى أجابوا وعولوا * وأدمعهم تنهل هذا الموفق
وغيبت فى صدع من الارض ضيق * وأودعت لحداً فوقه الصخر مطبق
ويحثو على الترب أوثق صاحب * ويسلمنى للقبر من هو مشفق
فيارب كن لى مؤنساً يوم وحشتى * فانى بما أنزلته لمصدق
وما ضرنى أنى إلى الله صائر * ومن هو من أهلى أبر وأرفق

فخر الدين ابن عساكر ﴿ عبد الرحمن بن الحسن بن هبة الله بن عساكر ﴾

أبو منصور الدمشقى شيخ الشافعية بها ، وأمه اسمها أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القدسية المعروف والدها بأبى البركات ابن المران ، وهو الذى جدد مسجد القدم فى سنة سبع عشرة وخمسمائة و به قبره وقبرها ، ودفن هناك طائفة كبيرة من العلماء ، وهى أخت آمنة والدة القاضى محيي الدين محمد بن على بن الزكى ، اشتغل الشيخ فخر الدين من صغره بالعلم الشريف على شيخه قطب الدين مسعود النيسابورى ، فتزوج بابنته ودرس مكانه بالجاروجية ، و بها كان يسكن فى إحدى القاعتين اللتين أنشأهما و بها توفى غربى الايوان ، ثم تولى تدريس الصلاحية الناصرية بالقدس الشريف ، ثم ولاه العادل تدريس التقوية ، وكان عنده أعيان الفضلاء ، ثم تفرغ فلزم المجاورة فى الجامع فى البيت الصغير إلى جانب محراب الصحابة يخلو فيه للعبادة والمطالعة والفتاوى ، وكانت تفد إليه من الأقطار ، وكان كثير الذكر حسن السمت ، وكان يجلس تحت النسر فى كل اثنين وخميس مكان عمه لا سماع الحديث بعد العصر ، فيقرأ عليه دلائل النبوة وغيره ، وكان يحضر مشيخة دار الحديث النورية ، ومشهد ابن عروة أول ما فتح ، وقد استدعاه الملك العادل بعد ما عزل قاضيه ابن الزكى فأجلسه إلى جانبه وقت السماط ، وسأل منه أن يلى القضاء بدمشق ، فقال حتى أستخير الله تعالى ، ثم امتنع من ذلك فشق على السلطان امتناعه ، وهم أن يؤذيه فقيل له احمد الله الذى فيه مثل هذا . ولما توفى العادل وأعاد ابنه المعظم الخمور أنكر عليه الشيخ فخر الدين ، فبقى فى نفسه منه ، فانتزع منه تدريس التقوية ، ولم يبق معه سوى الجاروجية ودار الحديث النورية ومشهد ابن عروة ، وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد العصر عاشر رجب من هذه السنة وله خمس وستون سنة ، وصلى عليه بالجامع وكان يوماً مشهودا ، وحملت جنازته إلى مقابر الصوفية فدفن فى أولها قريباً من قبر شيخه قطب الدين مسعود بن عروة .

﴿ سيف الدين محمد بن عروة الموصلى ﴾

المنسوب إليه مشهد ابن عروة بالجامع الأموى ، لأنه أول من فتحه ، وقد كان مشحونا بالحواصل الجامعية و بنى فيه البركة ووقف فيه على الحديث درساً ، ووقف خزائن كتب فيه ، وكان

مقيما بالقدس الشريف ولكنه كان من خواص أصحاب الملك المعظم ، فانتقل إلى دمشق حين خرب سور بيت المقدس إلى أن توفى بها ، وقبره عند قباب أتابك طغتكين قبلى المصلى رحمه الله .

﴿ الشيخ أبو الحسن الروزبهارى ﴾

دفن بالمكان المنسوب إليه عند باب الفراديس .

﴿ الشيخ عبد الرحمن اليمنى ﴾

كان مقيما بالمنارة الشرقية، كان صالحا زاهدا ورعا وفيه مكارم أخلاق ، ودفن بمقابر الصوفية .

﴿ الرئيس عزالدين المظفر بن أسعد ﴾

ابن حمزة التميمى ابن القلانسى ، أحد رؤساء دمشق وكبرائها ، وجده أبو يعلى حمزة له تاريخ ذيل به على ابن عساكر ، وقد سمع عز الدين هذا الحديث من الحافظ أبى القاسم ابن عساكر وغيره ، ولزم مجالسة الكندى وانتفع به .

﴿ الأمير الكبير أحد حجاب الخليفة ﴾

محمد بن سليمان بن قتلمش بن تركانشاه بن منصور السمرقندى ،وكان من أولاد الأمراء ، وولى حاجب الحجاب بالديوان العزيز الخليفتى ، وكان يكتب جيدا وله معرفة حسنة بعلوم كثيرة ، منها الأدب وعلوم الرياضة ، وعمر دهرا ، وله حظ من نظم الشعر الحسن ومن شعره قوله :

سئمت تكاليف هذى الحياة * وكذا الصباح بها والمساء
وقد كنت كالطفل فى عقله * قليل الصواب كثير الهراء
أنام إذا كنت فى مجلس * وأسهر عند دخول الغناء
وقصر خطوى قيد المشيب * وطال على ما عنانى عناء
وغودرت كالفرخ فى عشه * وخلفت حلمى وراء وراء
وما جر ذلك غير البقاء * فكيف بدا سوء فعل البقاء

وله أيضاً، وهو من شعره الحسن رحمه الله:

إلهى يا كثير العفو عفوا * لما أسلفت فى زمن الشباب
فقد سودت فى الآثام وجهاً * ذليلا خاضعاً لك فى التراب
فبيضه بحسن العفو عنى * وسامحنى وخفف من عذابى

ولما توفى صلى عليه بالنظامية ودفن بالشونيزية ورآه بعضهم فى المنام فقال ما فعل بك ربك ؟ فقال

تحاشيت اللقاء لسوء فعلى * وخوفا فى المعاد من الندامة
فلما أن قدمت على إلهى * وحاقق فى الحساب على قلامه

وكان العدل أن أصلى جحيما * تعطف بالمكارم والكرامه
ونادانى لسان العفو منه * ألا يا عبد يهنيك السلامه

﴿ أبو على الحسن بن أبى المحاسن ﴾

زهرة بن على بن زهرة العلوى الحسينى الحلبى ، نقيب الأشراف بها ، كان لديه فضل وأدب وعلم بأخبار الناس والتواريخ والسير والحديث ، ضابطا حافظا للقرآن المجيد ، وله شعر جيد فمنه قوله :

لقد رأيت المعشوق وهو من الـ * ـهجر تنبو النواظر عنه
أثر الدهر فيه آثار سوء * وأدالت يد الحوادث منه
عاد مستذلا ومستبدلا * عزا بذل كأن لم يصنه

﴿ أبو على يحيى بن المبارك ﴾

ابن الجلاجلى من أبناء التجار ، سمع الحديث وكان جميل الهيئة يسكن بدار الخلافة وكان عنده علم وله شعر حسن ، فمنه قوله :

خير إخوانك المشارك فى المر * وأين الشريك فى المر أينا
الذى إن شهدت سرك فى القو * م و إن غبت كان أذنا وعينا
مثل العقيق إن مسه النا * ر جلاه الجلاء فازداد زينا
وأخو السوء إن يغب عنك يشـ * ـنك و إن يحتضر يكن ذاك شينا
جيبه غير ناصح ومناه أن * يصب الخليل إفكا ومينا
فاخش منه ولا تلهف عليه * إن غرماً له كنقدك دينا

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة ﴾

فيها وصلت سرية من جهة جنكزخان غير الأولتين إلى الرى ، وكانت قد عمرت قليلا فقتلوا أهلها أيضاً ، ثم ساروا إلى ساوة ، ثم إلى قم وقاسان ، ولم تكونا طرقتا إلا هذه المرة ، ففعلوا بها مثل ما تقدم من القتل والسبى ، ثم ساروا إلى همذان فقتلوا أيضاً وسبوا ، ثم ساروا إلى خلف الخوارزمية إلى أذربيجان فكسروهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، فهربوا منهم إلى تبريز فلحقوهم وكتبوا إلى ابن البهلوان : إن كنت مصالحا لنا فابعث لنا بالخوارزمية و إلا فأنت مثلهم ، فقتل منهم خلقا وأرسل برؤسهم إليهم ، مع تحف وهدايا كثيرة ، هذا كله و إنما كانت هذه السرية ثلاثة آلاف والخوارزمية وأصحاب البهلوان أضعاف أضعافهم ، ولكن الله تعالى ألقى عليهم الخذلان والفشل ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

وفيها ملك غياث الدين بن خوارزم شاه بلاد فارس مع ما فى يده من مملكة أصفهان وهمذان

وفيها استعاد الملك الأشرف مدينة خلاط من أخيه شهاب الدين غازى ، وكان قد جعلها إليه مع جميع بلاد أرمينية وميا فارقين وجاى وجبل حور ، وجعله ولى عهده من بعده ، فلما عصى عليه وتشغب دماغه بما كتب إليه المعظم من تحسينه له مخالفته ، فركب إليه وحاصره بخلاط فسلمت إليه وامتنع أخوه فى القلعة ، فلما كان الليل نزل إلى أخيه معتذراً فقبل عذره ولم يعاقبه بل أقره على ميافارقين وحدها ، وكان صاحب إربل والمعظم متفقين مع الشهاب غازى على الأشرف ، فكتب الكامل إلى المعظم يتهدده لئن ساعد على الأشرف ليأخذنه و بلاده ، وكان بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل مع الأشرف ، فركب إليه صاحب إربل فحاصره بسبب قلة جنده لأنه أرسلهم إلى الأشرف حين نازل خلاط ، فلما انفصلت الأمور على ما ذكرنا ندم صاحب إربل ، والمعظم بدمشق أيضا .

وفيها أرسل المعظم ولده الناصر داود إلى صاحب إربل يقويه على مخالفة الأشرف ، وأرسل صوفيا من الشميساطية يقال له الملق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه ـ وكان قد أخذ أذربيجان فى هذه السنة وقوى جأشه ـ يتفق معه على أخيه الأشرف ، فوعده النصر والرفادة . وفيها قدم الملك مسعود أقسيس ملك اليمن على أبيه الكامل بالديار المصرية ومعه شىء كثير من الهدايا والتحف ، من ذلك مائتا خادم وثلاثة أفيلة هائلة ، وأحمال عود وند ومسك وعنبر ، وخرج أبوه الكامل لتلقيه ومن نية أقسيس أن ينزع الشام من يد عمه المعظم . وفيها كمل عمارة دار الحديث الكاملية بمصر ، وولى مشيختها الحافظ أبو الخطاب ابن دحية الكلبى ، وكان مكثاراً كثير الفنون ، وعنده فوائد وعجائب رحمه الله .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ أحمد بن محمد ﴾

ابن على القادسى الضرير الحنبلى ، والد صاحب الذيل على تاريخ ابن الجوزى ، وكان القادسى هذا يلازم حضور مجلس الشيخ أبى الفرج ابن الجوزى ، ويزهره لما يسمعه من الغرائب ، ويقول والله إن ذا مليح ، فاستقرض منه الشيخ مرة عشرة دنانير فلم يعطه ، وصار يحضر ولا يتكلم ، فقال الشيخ مرة : هذا القادسى لا يقرضنا شيئا ولا يقول والله إن ذا مليح ؟ رحمهم الله تعالى ، وقد طلب القادسى مرة إلى دار المستضىء ليصلى بالخليفة التراويح فقيل له والخليفة يسمع : ما مذهبك ؟ فقال حنبلى ، فقال له لا تصل بدار الخلافة وأنت حنبلى ، فقال أنا حنبلى ولا أصلى بكم ، فقال الخليفة اتركوه لا يصلى بنا إلا هو ﴿ أبو الكرم المظفر بن المبارك ﴾

ابن أحمد بن محمد البغدادى الحنفى شيخ مشهد أبى حنيفة وغيره ، ولى الحسبة بالجانب الغربى من بغداد ، وكان فاضلاً ديناً شاعرا ومن شعره :

فصن بجميل الصبر نفسك واغتنم * شريف المزايا لا يفتك ثوابها
وعش سالما والقول فيك مهذب * كريماً وقد هانت عليك صعابها
وتندرج الأيام والكل ذاهب * قليل ويفنى عذبها وعذابها
وما الدهر إلا مرُّ يوم وليلة * وما العمر إلا طيها وذهابها
وما الحزم إلا فى إخاء عزيمة * وفيك المعالى صفوها ولباؤها
ودع عنك أحلام الأمانى فانه * سيسفر يوما غيها وصوابها

﴿ محمد بن أبى الفرج بن بركة ﴾

الشيخ فخر الدين أبو المعالى الموصلى ، قدم بغداد واشتغل بالنظامية وأعاد بها ، وكانت له معرفة بالقراءات ، وصنف كتابا فى مخارج الحروف ، وأسند الحديث وله شعر لطيف .

﴿ أبو بكر بن حلبة الموازينى البغدادى ﴾

كان فردا فى علم الهندسة وصناعة الموازين يخترع أشياء عجيبة ، من ذلك أنه ثقب حبة خشخاش سبعة ثقوب وجعل فى كل ثقب شعرة ، وكان له حظوة عند الدولة .

﴿ أحمد بن جعفر بن أحمد ﴾

ابن محمد أبو العباس الدبيثى البيع الواسطى ، شيخ أديب فاضل له نظم ونثر ، عارف بالأخبار والسير ، وعنده كتب جيدة كثيرة ، وله شرح قصيدة لأبى العلاء المعرى فى ثلاث مجلدات ، وقد أورد له ابن الساعى شعرا حسنا فصيحا حلوا لذيذا فى السمع لطيفا فى القلب .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ﴾

فيها عاثت الخوارزمية حين قدموا مع جلال الدين بن خوارزم شاه من بلاد غزنة مقهورين من التتار إلى بلاد خوزستان ونواحى العراق ، فأفسدوا فيه وحاصروا مدنه ونهبوا قراه . وفيها استحوذ جلال الدين بن خوارزم شاه على بلاد أذربيجان وكثيرا من بلاد الكرج ، وكسر الكرج وهم فى سبعين ألف مقاتل ، فقتل منهم عشرين ألفا من المقاتلة ، واستفحل أمره جدا وعظم شأنه ، وفتح تفليس فقتل منها ثلاثين ألفا . وزعم أبو شامة أنه قتل من الكرج سبعين ألفا فى المعركة ، وقتل من تفليس تمام المائة ألف ، وقد اشتغل بهذه الغزوة عن قصد بغداد ، وذلك أنه لما حاصر دقوقا سبه أهلها ففتحها قسراً وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وخرب سورها وعزم على قصد الخليفة ببغداد لأنه فيما زعم عمل على أبيه حتى هلك ، واستولت التتر على البلاد ، وكتب إلى المعظم بن العادل يستدعيه لقتال الخليفة ويحرضه على ذلك ، فامتنع المعظم من ذلك ، ولما علم الخليفة بقصد جلال الدين بن خوارزم شاه بغداد انزعج لذلك وحصن بغداد واستخدم الجيوش والأجناد ، وأنفق

فى الناس ألف ألف دينار ، وكان جلال الدين قـد بعث جيشاً إلى الكرج فكتبوا إليه أن أدركنا قبل أن نهلك عن آخرنا ، و بغداد ما تفوت ، فسار إليهم وكان من أمره ما ذكرنا .

وفيها كان غلاء شديد بالعراق والشام بسبب قلة الأمطار وانتشار الجراد ، ثم أعقب ذلك فناء كثير بالعراق والشام أيضاً ، فمات بسببه خلق كثير فى البلدان ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

﴿ وفاة الخليفة الناصر لدين الله وخلافة ابنه الظاهر ﴾

لما كان يوم الأحد آخر يوم من شهر رمضان المعظم من هذه السنة توفى الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله ، أبى المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله ، أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، أبى عبد الله أحمد بن المقتدى بأمر الله ، أبى القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله ، أبى جعفر عبد الله بن القادر بالله ، أبى العباس أحمد بن الموفق أبى أحمد بن محمد المتوكل أبى جعفر عبـد الله بن القادر بالله أبى العباس أحمـد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبى الفضـل جعفر بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفق ، أبى أحمد بن محمد المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله أبى إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدى محمد بن عبد الله أبى جعفر المنصور بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى العباسى ، أمير المؤمنين ، ولد ببغـداد سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، و بويع له بالخلافة بعد موت أبيه سنة خمس وسبعين [وخمسمائة] ، وتوفى فى هذه السنة وله من العمر تسع وستون سنة وشهران وعشرون يوماً ، وكانت مدة خلافته سبعا وأربعين سنة إلا شهرا ، ولم يقم أحد من الخلفاء العباسيين قبله فى الخلافة هذه المدة الطويلة ، ولم تطل مدة أحـد من الخلفاء مطلقا أكثر من المستنصر العبيدى ، أقام بمصر حاكما ستين سـنة ، وقد انتظم فى نسبه أربعة عشر خليفة ، وولى عهد على ما رأيت ، و بقية الخلفاء العباسـيين كلهم من أعمامه و بنى عمه . وكان مرضه قـد طال به وجمهوره من عسار البول ، مع أنه كان يجلب له الماء من مراحل عن بغداد ليكون أصفى ، وشق ذكره مرات بسبب ذلك ، ولم يغن عنه هذا الحذر شيئا ، وكان الذى ولى غسله محيى الدين ابن الشيخ أبى الفرج ابن الجوزى ، وصلى عليه ودفن فى دار الخلافة ، ثم نقل إلى الترب من الرصافة فى ثانى ذى الحجة من هذه السنة ، وكان يوماً مشهودا ، قال ابن الساعى : أما سيرته فقد تقـدمت فى الحوادث ، وأما ابن الأثير فى كامله فانه قال : وبقى الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا من الحركة بالكلية ، وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا ، وآخر الأمر أصابه دوسنطارية عشرين يوماً ومات ، ووزر له عـدة وزراء ، وقد تقدم ذكرهم ، ولم يطلق فى أيام مرضه ما كان أحدثه من الرسوم الجائرة ، وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما لهم ، فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، وأخذ أموالهم وأملاكهم ، وكان يفعل الشىء وضده ، فمن ذلك أنه عمل دوراً

للافطار فى رمضان ودورا لضيافة الحجاج ، ثم أبطل ذلك ، وكان قد أسقط مكوساً ثم أعادها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة . قال ابن الأثير : وإن كان ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتار فى البلاد وراسلهم فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم . قلت ، وقد ذكر عنه أشياء غريبة ، من ذلك أنه كان يقول للرسل الوافدين عليه فعلتم فى مكان كذا كذا، وفعلتم فى الموضع الفلانى كذا ، حتى ظن بعض الناس أو أكثرهم أنه كان يكاشف أو أن جنياً يأتيه بذلك ، والله أعلم .

﴿ خلافة الظاهر بن الناصر ﴾

لما توفى الخليفة الناصر لدين الله كان قد عهد إلى ابنه أبى نصر محمد هذا ولقبه بالظاهر ، وخطب له على المنابر ، ثم عزله عن ذلك بأخيه على ، فتوفى فى حياة أبيه سنة ثنتى عشرة ، فاحتاج إلى إعادة هذا لولاية العهد فخطب له ثانيا ، فحين توفى بويع بالخلافة ، وعمره يومئذ ثنتان وخمسون سنة ، فلم يل الخلافة من بنى العباس أسن منه ، وكان عاقلا وقورا دينا عادلا محسنا ، رد مظالم كثيرة وأسقط مكوساً كان قد أحدثها أبوه ، وسار فى الناس سيرة حسنة ، حتى قيل : إنه لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز أعدل منه لو طالت مدته ، لكنه لم يحل إلى الحول ، بل كانت مدته تسعة أشهر أسقط الخراج الماضى عن الاراضى التى قد تعطلت ، ووضع عن أهل بلدة واحدة وهى يعقوبا سبعين ألف دينار كان أبوه قد زادها عليهم فى الخراج ، وكانت صنجة المخزن تزيد على صنجة البلد نصف دينار فى كل مائة إذا قبضوا وإذا أقبضوا دفعوا بصنجة البلد ، فكتب إلى الديوان (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) فكتب إليه بعض الكتاب يقول :يا أمير المؤمنين إن تفاوت هذا عن العام الماضى خمسة وثلاثون ألفا ، فأرسل ينكر عليه ويقول : هذا يترك وإن كان تفاوته ثلثمائة ألف وخمسين ألفا، رحمه الله . وأمر القاضى أن كل من ثبت له حق بطريق شرعى يوصل إليه بلا مراجعة ، وأقام فى النظر على الأموال الجردة رجلا صالحا واستخلص على القضاء الشيخ العلامة عماد الدين أبا صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلى فى يوم الأربعاء ثامن ذى الحجة ،فكان من خيار المسلمين ومن القضاة العادلين ، رحمهم الله أجمعين . ولما عرض عليه القضاء لم يقبله إلا بشرط أن يورث ذوى الأرحام ، فقال : اعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق سواه ، وكان من عادة أبيه أن يرفع إليه حراس الدروب فى كل صباح بما كان عندهم فى المحال من الاجتماعات الصالحة والطالحة ، فلما ولى الظاهر أمر بتبطيل ذلك كله وقال : أى فائدة فى كشف أحوال الناس وهتك أستارهم ؟ فقيل له : إن ترك ذلك يفسد الرعية ، فقال نحن ندعو الله لهم أن يصلحهم ، وأطلق من كان

فى السجون معتقلا على الأموال الديوانية ، و رد عليهم ما كان استخرج منهم قبل ذلك من المظالم وأرسل إلى القاضى بعشرة آلاف دينار يوفى بها ديون من فى سجونه من المدينين الذين لايجدون وفاء ، وفرق فى العلماء بقية المائة ألف ، وقد لامه بعض الناس فى هذه التصرفات فقال : إنما فتحت الدكان بعدالعصر ، فذرونى أعمل صالحاوأفعل الخير ، فكم مقدار مابقيت أعيش ؟ ! ولم تزل هذه سيرته حتى توفى فى العام الآتى كما سيأتى . و رخصت الأسعار فى أيامه وقد كانت قبل ذلك فى غاية الغلاء حتى أنه فيما حكى ابن الأثير أكلت الكلاب والسنانير ببلادالجزيرة والموصل، فزال ذلك والحمدلله. وكان هذا الخليفة الظاهر حسن الشكل مليح الوجه أبيض مشربا حلو الشمائل شديد القوى .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ أبو الحسن على الملقب بالملك الأفضل ﴾

نور الدين ابن السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ، كان ولى عهد أبيه، وقد ملك دمشق بعده مدة سنتين ثم أخذها منه عمه العادل ، ثم كاد أن يملك الديار المصرية بعد أخيه العزيز فأخذها منه عمه العادل أبو بكر ، ثم اقتصر على ملك صرخد فأخذها منه أيضا عمه العادل ، ثم آل به الحال أن ملك سميساط وبها توفى فى هذه السنة ، وكان فاضلا شاعراً جيد الكتابة ، ونقل إلى مدينة حلب فدفن بها بظاهرها . وقد ذكر ابن خلكان أنه كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله يشكو إليه عمه أبا بكر وأخاه عثمان وكان الناصر شيعيا مثله :

مولاى إن أبا بكر وصاحبه * عثمان قد غصبا بالسيف حق على
وهو الذى كان قدولاه والده * عليهما فاستقام الأمر حين ولى
فخالفاه وحلا عقد بيعته * والأمر بينهما والنص فيه جلى
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقى * من الأواخر مالاقى من الأول

﴿ الأمير سيف الدين على ﴾

ابن الأمير علم الدين بن سليمان بن جندر ،كان من أكابر الأمراء بحلب ، وله الصدقات الكثيرة و وقف بها مدرستين إحداهما على الشافعية والأخرى على الحنفية ، و بنى الخانات والقناطر وغيرذلك من سبل الخيرات والغزوات رحمه الله .

﴿ الشيخ على الكردى ﴾

الموله المقيم بظاهر باب الجابية ، قال أبو شامة : وقد اختلفوا فيه فبعض الدماشقة يزعم أنه كان صاحب كرامات ، وأنكر ذلك آخرون ، وقالوا ما رآه أحد يصلى ولا يصوم ولالبس مداسا ، بل كان يدوس النجاسات و يدخل المسجد على حاله ، وقال آخرون كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه حكى السبط عن امرأة قالت جاء خبر بموت أمى باللاذقية أنها ماتت وقال لى بعضهم إنها لم تمت ،

قالت فمررت به وهو قاعد عند المقابر فوقفت عنده فرفع رأسه وقال لى ماتت ماتت إيش تعملين ؟ فكان كما قال . وحكى لى عبد الله صاحبى قال صبحت يوماً وما كان معى شىء فاجتزت به فدفع إلى نصف درهم وقال : يكفى هذا للخبز والفت بدبس ، وقال مر يوماً على الخطيب جمال الدين الدولعى فقال له يا شيخ على أكلت اليوم كسيرات يابسة وشربت عليها الماء فكفتنى ، فقال له الشيخ على الكردى وماتطلب نفسك شيئاً آخر غير هذا ؟ قال لا ، فقال يا مسلمين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه فى هذه المقصورة ولا يقضى ما فرضه الله عليه من الحج

﴿ الفخر ابن تيمية ﴾

محمد بن أبى القاسم بن محمد الشيخ فخر الدين أبو عبد الله بن تيمية الحرانى ، عالمها وخطيبها وواعظها ، اشتغل على مذهب الامام أحمد وبرع فيه وبرز وحصل وجمع تفسيراً حافلا فى مجلدات كثيرة وله الخطب المشهورة المنسوبة إليه ، وهو عم الشيخ مجد الدين صاحب المنتقى فى الأحكام ، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى : سمعته يوم جمعة بعد الصلاة وهو يعظ الناس ينشد :

أحبابنا قد ندرت مقلتى * ما تلتقى بالنوم أو نلتقى
رفقاً بقلب مغرم واعطفوا * على سقام الجسد المحرق
كم تمطلونى بليالى اللقا * قد ذهب العمر ولم نلتقى

وقد ذكرنا أنه قدم بغداد حاجاً بعد وفاة شيخه أبى الفرج ابن الجوزى ووعظ بها فى مكان وعظه .

﴿ الوزير بن شكر ﴾

صفى الدين أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الخالق بن شكر ، ولد بالديار المصرية بدميرة بين مصر واسكندرية سنة أربعين وخمسمائة ، ودفن بتربته عند مدرسته بمصر ، وقد وزر للملك العادل وعمل أشياء فى أيامه منها تبليط جامع دمشق وأحاط سور المصلى عليه ، وعمل الفوارة ومسجدها وعمارة جامع المزة ، وقد نكب وعزل سنة خمس عشرة وستمائة وبقى معزولا إلى هذه السنة فكانت فيها وفاته ، وقد كان مشكور السيرة ومنهم من يقول كان ظالماً فالله أعلم

﴿ أبو إسحاق إبراهيم بن المظفر ﴾

ابن إبراهيم بن على المعروف بابن البذى الواعظ البغدادى ، أخذ الفن عن شيخه أبى الفرج ابن الجوزى وسمع الحديث الكثير ، ومن شعره قوله فى الزهد :

ما هذه الدنيا بدار مسرة * فتخوفى مكراً لها وخداعا
بينا الفتى فيها يسر بنفسه * وبماله يستمتع استمتاعا
حتى سقته من المنية شربة * وحمته فيه بعد ذاك رضاعا

فغدا بما كسبت يداه رهينة * لا يستطيع لما عرته دفاعا
لو كان ينطق قال من تحت الثرى * فليحسن العمل الفتى ما اسطاعا

﴿ أبو الحسن علي بن الحسن ﴾

الرازى ثم البغدادى الواعظ ، عنده فضائل وله شعر حسن ، فمنه قوله فى الزهد :

استعدى يانفس للموت واسعى * لنجاة فالحـازم المستعد
قد تبينت أنه ليس للحى * خلود ولا من الموت بد
إنما أنت مستعيرة ماسو * ف تردين والعوارى ترد
أنت تسهين والحوادث لا * تسهو وتلهين والمنايا تجد
لاترجى البقاء فى معدن المو * ت ولا أرضا بها لكِ وِرْدُ
أى ملك فى الارض أم أى حظ * لامرىء حظه من الارض لحد ؟
كيف يهوى امرؤ لذاذة أيا * م عليه الانفاس فيها تعد

﴿ البها السنجارى ﴾

أبو السعادات أسعد بن محمد بن موسى الفقيه الشافعى الشاعر ، قال ابن خلـكان : كان فقيها وتـكلم فى الخلاف إلا أنه غلب عليه الشعر ، فأجاد فيه واشتهر بنظمه وخدم به الملوك ، وأخذ منهم الجوائز وطاف البلاد ، وله ديوان بالتربة الأشرفية بدمشق ، ومن رقيق شعره و رائقه قوله :

وهواك ما خطر السلو ببـاله * ولأنت أعـلم فى الغرام بحاله
ومتى وشى واش إليك بأنه * سال هواك فذاك من عذاله
أوليس للـكلف المعنى شاهد * من حاله يغنيك عن تسآله
جددت ثوب سقامه وهتـكت ستـ * ـر غرامه وصرمت حبل وصاله

وهى قصيدة طويلة امتدح فيها القاضى كمال الدين الشهر زورى وله :

لله أيامى على رامة * وطيب أوقاتى على حاجر
تـكاد للسرعة فى مرها * أولها يعثر بالآخر

وكانت وفاته فى هذه السنة عن تسعين سنة رحمه الله بمنه وفضله .

﴿ عثمان بن عيسى ﴾

ابن درباس بن قسر بن جهم بن عبدوس الهدبانى المارانى ضياء الدين أخو القاضى صدر الدين عبد الملك حاكم الديار المصرية فى الدولة الصلاحية ، وضياء الدين هذا هو شارح المهذب إلى كتاب الشهادات فى نحو من عشرين مجلدا ، وشرح اللمع فى أصول الفقه والتنبيه للشيرازى ، وكان بارعا عالماً بالمذهب رحمه الله .

﴿ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الرسوى ﴾

البواريجى ثم البغدادى ، شيخ فاضل له رواية ، ومما أنشده :

ضيق العذر فى الضراعة أنا * لو قنعنا بقسمنا لكفانا
مالنا نعبد العباد إذا كان * إلى الله فقرنا وغنانا

﴿ أبو الفضل عبد الرحيم بن نصر الله ﴾

ابن على بن منصور بن الكيال الواسطى من بيت الفقه والقضاء ، وكان أحد المعدلين ببغداد ومن شعره :

فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها * تسر يسيراً ثم تبدى المساويا
تريك رواء فى النقاب و زخرفا * وتسفرعن شوهاء طحياء عاميا

ومن ذلك قوله :

إن كنت بعدالطاعتين تسامحت * بالفحص أجفانى فما أجفانى
أو كنت من بعد الأحبة ناظرا * حسنا بانسانى فما أنسانى
الدهر مغفور له زلاته * إن عاد أوطانى على أوطانى

﴿ أبو على الحسن بن على ﴾

ابن الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمار بن فهر بن وقاح الياسرى نسبة إلى عمار بن ياسر ، شيخ بغدادى فاضل ، له مصنفات فى التفسير والفرائض ، وله خطب و رسائل وأشعار حسنة وكان مقبول الشهادة عند الحكام .

﴿ أبو بكر محمد بن يوسف بن الطباخ ﴾

الواسطى البغدادى الصوفى ، باشر بعض الولايات ببغداد ، ومما أنشده :

ما وهب الله لامرىء هبة * أحسن من عقله ومن أدبه
نعما جمال الفتى فان فقدا * ففقده للحياة أجمل به

﴿ ابن يونس شارح التنبيه ﴾

أبو الفضل أحمد بن الشيخ كمال الدين أبى الفتح موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد بن سعد بن سعيد بن عاصم بن عابد بن كعب بن قيس بن إبراهيم الأربلى الأصل ثم الموصلى من بيت العلم والرياسة ، اشتغل على أبيه فى فنونه وعلومه فبرع وتقدم . وقد درس وشرح التنبيه واختصر إحياء علوم الدين للغزالى مرتين صغيرا وكبيرا ، وكان يدرس منه . قال ابن خلكان : وقد ولى بأربل مدرسة الملك المظفر بعد موت والدى فى سنة عشر وستمائة ، وكنت أحضر عنده

وأنا صغير ولم أر أحدا يدرس مثله ، ثم صار إلى بلده سنة سبع عشرة ، ومات فى يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة عن سبع وأربعين سنة رحمه الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة ﴾

فيها التقى الملك جلال الدين بن خوارزم شاه الخوارزمى مع الكرج فكسرهم كسرة عظيمة ، وصمد إلى أكبر معاقلتهم تفليس ففتحها عنوة وقتل من فيها من الكفرة وسبى ذراريهم ولم يتعرض لأحد من المسلمين الذين كانوا بها ، واستقر ملكه عليها ، وقد كان الكرج أخذوها من المسلمين فى سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وهى بأيديهم إلى الآن حتى استنقذها منهم جلال الدين هذا ، فكان فتحاً عظيما ولله المنة . وفيها سار إلى خلاط ليأخذها من نائب الملك الأشرف فلم يتمكن من أخذها وقاتله أهلها قتالا عظيما فرجع عنهم بسبب اشتغاله بعصيان نائبه بمدينة كرمان وخلافه له ، فسار إليهم وتركهم . وفيها اصطلح الملك الأشرف مع أخيه المعظم وسار إليه إلى دمشق ، وكان المعظم ممالئا عليه مع جلال الدين وصاحب إربل وصاحب ماردين وصاحب الروم ، وكان مع الأشرف أخوه الكامل وصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، ثم استمال أخاه المعظم إلى ناحيته يقوى جانبه . وفيها كان قتال كبير بين إبرنش إنطاكية وبين الأرمن ، وجرت خطوب كثيرة بينهم . وفيها أوقع الملك جلال الدين بالتركمان الايوانية بأساً شديداً ، وكانوا يقطعون الطرق على المسلمين .

وفيها قدم محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين بن الجوزى من بغداد فى الرسلية إلى الملك المعظم بدمشق ، ومعه الخلع والتشاريف لأولاد العادل من الخليفة الظاهر بأمر الله ، ومضمون الرسالة نهيه عن موالاة جلال الدين بن خوارزم شاه ، فانه خارجى من عزمه قتال الخليفة وأخذ بغداد منهم ، فأجابه إلى ذلك وركب القاضى محيي الدين بن الجوزى إلى الملك الكامل بالديار المصرية ، وكان ذلك أول قدومه إلى الشام ومصر ، وحصل له جوائز كثيرة من الملوك ، منها كان بناء مدرسته الجوزية بالنشابين بدمشق . وفيها ولى تدريس الشبلية بالسفح شمس الدين محمد بن قزغلى سبط ابن الجوزى بمرسوم الملك المعظم ، وحضر عنده أول يوم القضاة والأعيان .

﴿ وفاة الخليفة الظاهر وخلافة ابنه المستنصر ﴾

كانت وفاة الخليفة رحمه الله يوم الجمعة ضحى الثالث عشر من رجب من هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، ولم يعلم الناس بموته إلا بعد الصلاة ، فدعا له الخطباء يومئذ على المنابر على عادتهم فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما ، وعمره اثنتان وخمسون سنة ، وكان من أجود بنى العباس وأحسنهم سيرة وسريرة ، وأكثرهم عطاء وأحسنهم منظرا ورواء ، ولو طالت مدته لصلحت الأمة صلاحاً كثيرا على يديه ، ولكن أحب الله تقريبه وإزلافه لديه ، فاختار له ما عنده وأجزل له إحسانا

ورفده ، وقد ذكرنا ما اعتمـده فى أول ولايته من إطلاق الأموال الديوانيـة ورد المظالم و إسقاط المكوس ، وتخفيف الخراج عن الناس ، وأداء الديون عمن عجز عن أدائها ، والاحسان إلى العلماء والفقراء وتولية ذوى الديانة والأمانة ، وقد كان كتب كتابا لولاة الرعية فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا ، ولا إغضاؤنا احتمالا ، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا ، وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة ، و إظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى ، حيلة ومكيدة ، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرا كالاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل ، وأنياب أسد مهيب ، تنفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد ، وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم ، وتمزجون باطلكم بحقه ، فيطيعكم وأنتم له عاصون ، ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قـد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا ، و بفقركم غنى ، و بباطلكم حقا ، ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ، ولا يؤاخذ إلا من أصر ، ولا ينتقم إلا ممن استمر ، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم ، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم ، يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ، ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فان سلكتم مسالك خلفاء الله فى أرضـه وأمنائه على خلقه ، وإلا هلكتم والسلام » . ووجد فى داره رقاع مختومة لم يفتحها سـتراً للناس ودرءاً عن أعراضهم رحمه الله ، وقد خلف من الأولاد عشرة ذكوراً و إناثا ، منهم ابنه الأكبر الذى بويع له بالخلافة من بعده أبو جعفر المنصور ، ولقب بالمستنصر بالله ، وغسله الشيـخ محمد الخياط الواعظ ، ودفن فى دار الخلافة ، ثم نقل إلى الترب من الرصافة .

﴿ خلافة المستنصر بالله العباسى ﴾

أمير المؤمنين أبى جعفر منصور بن الظاهر محمـد بن الناصر أحمد ، بويع بالخلافة يوم مات أبوه يوم جمعة ثالث عشر رجب من هـذه السنة ، سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، اسـتدعوا به من التاج فبايعه الخاصة والعامة من أهل العقد والحل ، وكان يوما مشهودا ، وكان عمره يومئذ خمسا وثلاثين سنة وخمسة أشهر وأحد عشر يوما ، وكان من أحسن الناس شكلا وأبهاهم منظرا ، وهو كما قال القائل:

كأن الثريا علقت فى جبينه * وفى خده الشعرى وفى وجهه القمر

وفى نسبه الشريف خمسة عشر خليفة ، منهم خمسة من آبائه ولوا نسقا ، وتلقى هو الخلافة عنهم وراثة كابرا عن كابر ، وهذا شىء لم يتفق لأحد من الخلفاء قبله ، وسار فى الناس كسيرة أبيه الظاهر فى الجود وحسن السيرة والاحسان إلى الرعيـة ، و بنى المدرسـة الكبيرة المستنصرية التى لم تبن مدرسة فى الدنيا مثلها ، وسيأتى بيان ذلك فى موضـعه إن شاء الله ، واستمر أرباب الولايات الذين كانوا فى عهد أبيه على ما كانوا عليه ، ولما كان يوم الجمعة المقبلة خطب للامام المستنصر بالله على المنابر ونثر الذهب والفضة عند ذكر اسمه ، وكان يوما مشهودا ، وأنشد الشعراء المدائح والمراثى ، وأطلقت لهم

الخلع والجوائز ، وقدم رسول من صاحب الموصل يوم غرة شعبان من الوزير ضياء الدين أبي الفتح نصر الله بن الأثير ، فيها التهنئة والتعزية بعبارة فصيحة بليغة .

ثم إن المستنصر بالله كان يواظب على حضور الجمعة راكبا ظاهراً للناس ، وإنما معه خادمان وراكب دار ، وخرج مرة وهو راكب فسمع ضجة عظيمة فقال : ما هذا ؟ فقيل له التأذين ، فترجل عن مركوبه وسعى ماشياً ، ثم صار يدمن المشى إلى الجمعة رغبة في التواضع والخشوع ، ويجلس قريباً من الامام ويستمع الخطبة ، ثم أصلح له المطبق فكان يمشى فيه إلى الجمعة ، وركب في الثاني والعشرين من شعبان ركوبا ظاهراً للناس عامة ، ولما كانت أول ليلة من رمضان تصدق بصدقات كثيرة من الدقيق والغنم والنفقات على العلماء والفقراء والمحاويج ، إعانة لهم على الصيام ، وتقوية لهم على القيام . وفي يوم السابع والعشرين من رمضان نقل تابوت الظاهر من دار الخلافة إلى التربة من الرصافة ، وكان يوماً مشهودا ، وبعث الخليفة المستنصر يوم العيد صدقات كثيرة وإنعاما جزيلا إلى الفقهاء والصوفية وأئمة المساجد ، على يدى محى الدين ابن الجوزى . وذكر ابن الاثير أنه كانت زلزلة عظيمة في هذه السنة ، هدمت شيئا كثيراً من القرى والقلاع ببلادهم ، وذكر أنه ذبح شاة ببلدهم فوجد لحمها مرا حتى رأسها وأكارعها [ومعاليقها وجميع أجزائها] .

وممن توفى فيها من الأعيان بعد الخليفة الظاهر كما تقدم :

﴿ الجمال المصرى ﴾

يونس بن بدران بن فيروز جمال الدين المصرى ، قاضى القضاة في هذا الحين ، اشتغل وحصل وبرع واختصر كتاب الأم للامام الشافعى ، وله كتاب مطول في الفرائض ، وولى تدريس الأمينية بعد التقى صالح الضرير ، الذى قتل نفسه ، ولاه إياه الوزير صفى الدين بن شكر ، وكان معتنياً بأمره ثم ولى وكالة بيت المال بدمشق ، وترسل إلى الملوك والخلفاء عن صاحب دمشق ، ثم ولاه المعظم قضاء القضاة بدمشق بعد عزله الزكى ابن الزكى ، وولاه تدريس العادلية الكبيرة ، حين كمل بناؤها فكان أول من درس بها وحضره الأعيان كما ذكرنا . وكان يقول أولا درسا في التفسير حتى أكمل التفسير إلى آخره ، ويقول درس الفقه بعد التفسير ، وكان يعتمد في أمر إثبات السجلات اعتماداً حسنا ، وهو أنه كان يجلس في كل يوم جمعة بكرة ويوم الثلاثاء ويستحضر عنده في إيوان العادلية جميع شهود البلد ، ومن كان له كتاب يثبته حضر واستدعى شهوده فأدوا على الحاكم وثبت ذلك سريعا ، وكان يجلس كل يوم جمعة بعد العصر إلى الشباك الكمالى بمشهد عثمان فيحكم حتى يصلى المغرب ، وربما مكث حتى يصلى العشاء أيضا ، وكان كثير المذاكرة للعلم كثير الاشتغال حسن الطريقة ، لم ينقم عليه أنه أخذ شيئا لأحد . قال أبوشامة : وإنما كان ينقم عليه أنه كان يشير على

بعض الورثة بمصالحة بيت المال ، وأنه استناب ولده التاج محمـدا ولم يكن مرضى الطريقة ، وأما هو فكان عفيفا فى نفسه نزهاً مهيباً . قال أبو شامـة : وكان يدعى أنه قرشى شـيبى فتكلم الناس فيه بسبب ذلك ، وتولى القضاء بعـده شمس الدين أحمد بن الخليـلى الجوينى . قلت : وكانت وفاته فى ربيع الأول من هـذه السنة ، ودفن بداره التى فى رأس درب الريحان من ناحية الجامع ، ولتربته شباك شرق المدرسة الصدرية اليوم ، وقد قال فيه ابن عنين وكان هجاء .

ما أقصر المصرى فى فعله * إذ جعل التربة فى داره
أراح للاحياء من رجمه * وأبعد الأموات من ناره

﴿ المعتمد والى دمشق ﴾

المبارز إبراهيم المعروف بالمعتمد والى دمشق ، من خيار الولاة وأعفهم وأحسنهم سيرة وأجودهم سريرة ، أصله من الموصـل ، وقدم الشام نخدم فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، ثم استنابه البدر مودود أخو فروخشاه ، وكان شحنة دمشق ، فحمدت سيرته فى ذلك ، ثم صارهو شحنة دمشق أربعين سنة ، فجرت فى أيامه عجائب وغرائب ، وكان كثير الستر على ذوى الهيئات ، ولا سيما من كان من أبناء الناس وأهل البيوتات ، واتفق فى أيامه أن رجلا حائكا كان له ولد صغير فى آذانه حلق فعدا عليه رجل من جيرانهـم فقتله غيلة وأخذ ما عليـه من الحلى ودفنه فى بعض المقابر ، فاشتكوا عليه فلم يقر ، فبكت والدته من ذلك وسألت زوجها أن يطلقها ، فطلقها فذهبت إلى ذلك الرجل وسألته أن يتزوجها وأظهرت له أنها أحبته فتزوجها ، ومكثت عنده حينا ، ثم سألته فى بعض الأوقات عن ولدها الذى اشتكوا عليـه بسببه فقال : نعم أنا قتلته . فقالت أشتهى أن ترينى قبره حتى أنظر إليـه ، فذهب بها إلى قبر خشنكاشة ففتحه فنظرت إلى ولدها فاستعبرت وقد أخـذت معها سكينا أعدتها لهذا اليوم ، فضربته حتى قتلته ودفنته مع ولدها فى ذلك القبر ، فجاء أهل المقبرة فحملوها إلى الوالى المعتمد هذا فسألها فذكرت له خبرها ، فاستحسن ذلك منها وأطلقها وأحسن إليها ، وحكى عنه السبط قال بينما أنا يوما خارج من باب الفرج وإذا برجـل يحمل طبلاوهو سكران فأمرت به فضرب الحد ، وأمرتهم فكسروا الطبل ، وإذا ذكرة كبيرة جـدا فشقوها [فاذا فيها خمر] وكان العادل قد منع أن يعصر خمر ويحمل إلى دمشق شئ منه بالكلية ، فكان الناس يتحيلون بأنواع الحيل ولطائف المكر ، قال السبط فسألته من أين علمت أن فى الطبل شيئا . قال رأيته يمشى ترجف سيقانه فعرفت أنه يحمل شيئا ثقيلا فى الطبل . وله من هذا الجنس غرائب ، وقد عزله المعظم وكان فى نفسه منـه وسجنه فى القلعة نحوا من خمس سنين ، ونادى عليه فى البلد فلم يجئ أحد ذكر أنه أخـذ منه حبة خردل ، ولما مات رحمه الله دفن بتربته المجاورة لمدرسة أبى عمر من شامها قبلى السوق ، وله عند تربته مسجد

يعرف به رحمه الله . ﴿ واقف الشبلية التي بطريق الصالحية ﴾

شبل الدولة كافور الحسامى نسبة إلى حسام الدين محمد بن لاجين ، ولد ست الشام ، وهو الذى كان مستحثا على عمارة الشامية البرانية لمولاته ست الشام ، وهو الذى بنى الشبلية للحنفية والخانقاه على الصوفية إلى جانبها ، وكانت منزله ، ووقف القناة والمصنع والساباط ، وفتح للناس طريقا من عند المقبرة غربى الشامية البرانية إلى طريق عين الكرش ، ولم يكن الناس لهم طريق إلى الجبل من هناك ، إنما كانوا يسلكون من عند مسجد الصفى بالعقيبة ، وكانت وفاته فى رجب ودفن إلى جانب مدرسته ، وقد سمع الحديث على الكندى وغيره رحمه الله تعالى

﴿ واقف الرواحية بدمشق وحلب ﴾

أبو القاسم هبة الله المعروف بابن رواحة ، كان أحد التجار ، وفى الثروة والمقدار ومن المعدلين بدمشق ، وكان فى غاية الطول والعرض ولا لحية له ، وقد ابتنى المدرسة الرواحية داخل باب الفراديس ووقفها على الشافعية ، وفوض نظرها وتدريسها إلى الشيخ تقى الدين بن الصلاح الشهرزورى ، وله بحلب مدرسة أخرى مثلها ، وقد انقطع فى آخر عمره فى المدرسة التى بدمشق وكان يسكن البيت الذى فى إيوانها من الشرق ، ورغب فيما بعد أن يدفن فيه إذا مات فلم يمكن من ذلك ، بل دفن بمقابر الصوفية ، وبعد وفاته شهد محى الدين ابن عربى الطائى الصوفى ، وتقى الدين خزعل النحوى المصرى ثم المقدسى إمام مشهد ، على شهدا على ابن رواحة بأنه عزل الشيخ تقى الدين عن هذه المدرسة ، فجرت خطوب طويلة ولم ينتظم ما راماه من الأمر ، ومات خزعل فى هذه السنة أيضاً فبطل ما سلكوه ﴿ أبو محمد محمود بن مودود بن محمود ﴾

البلدجى الحنفى الموصلى ، وله بها مدرسة تعرف به ، وكان من أبناء الترك ، وصار من مشايخ العلماء وله دين متين وشعر حسن جيد ، فمنه قوله :

من ادعى أن له حاله * تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحباً * فانه خرء بلا نفع

كانت وفاته بالموصل فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وله نحو من ثمانين سنة . ﴿ ياقوت ويقال له يعقوب بن عبد الله ﴾

نجيب الدين متولى الشيخ تاج الدين الكندى ، وقد وقف إليه الكتب التى بالخزانة بالزاوية الشرقية الشمالية من جامع دمشق ، وكانت سبعمائة وإحدى وستين مجلداً ، ثم على ولده من بعده ثم على العلماء فتمحقت هذه الكتب وبيع أكثرها ، وقد كان ياقوت هذا لديه فضيلة وأدب وشعر جيد ، وكانت وفاته ببغداد فى مستهل رجب ، ودفن بمقبرة الخيزران بالقرب من مشهد أبى حنيفة :

﴿ ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة ﴾

فيها كانت عامة أهل تفليس الكرج فجاؤا إليهم فدخلوها فقتلوا العامة والخاصة ، ونهبوا وسبوا وخربوا وأحرقوا ، وخرجوا على حمية ، وبلغ ذلك جلال الدين فسار سريعاً ليدركهم فلم يدركهم . وفيها قتلت الاسماعيلية أميرا كبيرا من نواب جلال الدين بن خوارزم شاه ، فسار إلى بلادهم فقتل منهم خلقا كثيرا ، وخرب مدينتهم وسبي ذراريهم ونهب أموالهم ، وقد كانوا قبحهم الله من أكبر العون على المسلمين ، لما قدم التتار إلى الناس ، وكانوا أضر على الناس منهم .

وفيها تواقع جلال الدين وطائفة كبيرة من التتار فهزمهم وأوسعهم قتلا وأسراً ، وساق وراءهم أياماً فقتلهم حتى وصل إلى الرى فبلغه أن طائفة قد جاؤا لقصده فأقام يقبطهم ، وكان من أمره وأمرهم ما سيأتى فى سنة خمس وعشرين. وفيها دخلت عساكر الملك الأشرف بن العادل إلى أذربيجان فملكوا منها مدنا كثيرة وغنموا أموالا جزيلة ، وخرجوا معهم بزوجة جلال الدين بنت طغرل ، وكانت تبغضه وتعاديه ، فأنزلوها مدينة خلاط وسيأتى ما كان من خبرهم فى السنة الآتية . وفيها قدم رسول الانبور ملك الفرنج فى البحر إلى المعظم يطلب منه ما كان فتحه عمه السلطان الملك الناصر صلاح الدين من بلاد السواحل ، فأغلظ لهم المعظم فى الجواب وقال له : قل لصاحبك ماعندى إلا السيف والله أعلم. وفيها جهز الأشرف أخاه شهاب الدين غازى إلى الحج فى محمل عظيم يحمل ثقله ستمائة جمل ، ومعه خمسون هجينا ، على كل هجين مملوك ، فسار من ناحية العراق وجاءته هدايا من الخليفة إلى أثناء الطريق ، وعاد على طريقه التى حج منها . وفيها ولى قضاء القضاة ببغداد نجم الدين أبو المعالى عبد الرحمن بن مقبل الواسطى ، وخلع عليه كما هى عادة الحكام ، وكان يوماً مشهودا . وفيها كان غلاء شديد ببلاد الجزيرة وقل اللحم حتى حكى ابن الأثير أنه لم يذبح بمدينة الموصل فى بعض الأيام سوى خروف واحد فى زمن الربيع ، قال : وسقط فيها عاشر أذار ثلج كثير بالجزيرة والعراق مرتين فأهلك الأزهار وغيرها ، قال : وهذا شىء لم يعهد مثله ، والعجب كل العجب من العراق مع كثرة حره كيف وقع فيه مثل هذا .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ جنكيزخان ﴾

السلطان الأعظم عند التتار والد ملوكهم اليوم ، ينتسبون إليه ومن عظم القان إنما يريد هذا الملك وهو الذى وضع لهم السياسا (١) التى يتحاكمون إليها ، ويحكمون بها ، وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه ، وهو شىء اقترحه من عند نفسه ، وتبعوه فى ذلك ، وكانت تزعم أمه أنها حملته من شعاع الشمس ، فلهذا لايعرف له أب ، والظاهر أنه مجهول النسب ،وقد رأيت مجلداً جمعه الوزير

(١) السياسا : مركبة من « سى » بمعنى ثلاثة . و « يسا » بمعنى الترتيب ، ثم حرفها العرب فقالوا : سياسة .

ببغداد علاء الدين الجويني في ترجمته فذكر فيه سيرته ، وما كان يشتمل عليه من العقل السياسي والكرم والشجاعة والتدبير الجيد للملك والرعايا ، والحروب ، فذكر أنه كان في ابتداء أمره خصيصاً عند الملك أز بك خان ، وكان إذ ذاك شابا حسنا وكان اسمه أولا تمرجي ، ثم لما عظم سمى نفسه جنكيزخان ، وكان هذا الملك قد قربه وأدناه ، فحسده عظماء الملك ووشوا به إليه حتى أخرجوه عليه ، ولم يقتله ولم يجد له طريقا في ذنب يتسلط عليه به ، فهو في ذلك إذ تغضب الملك على مملوكين صغيرين فهربا منه ولجآ إلى جنكيزخان فأكرمهما وأحسن إليهما فأخبراه بما يضمره الملك أز بك خان من قتله ، فأخذ حذره وتحيز بدولة واتبعه طوائف من التتار وصار كثير من أصحاب أز بك خان ينفرون إليه ويفدون عليه فيكرمهم ويعطيهم حتى قويت شوكته وكثرت جنوده ، ثم حارب بعد ذلك أز بك خان فظفر به وقتله واستحوذ على مملكته وملكه ، وانضاف إليه عدده وعدده ، وعظم أمره وبعد صيته وخضعت له قبائل الترك ببلاد طمعاج كلها حتى صار يركب في نحو ثمانمائة ألف مقاتل ، وأكثر القبائل قبيلته التي هو منها يقال لهم قيان ، ثم أقرب القبائل إليه بعدهم قبيلتان كبيرتا العدد وهما أزان وقنقوران وكان يصطاد من السنة ثلاثة أشهر والباقي للحرب والحكم . قال الجويني : وكان يضرب الحلقة يكون ما بين طرفيها ثلاثة أشهر ثم تتضايق فيجتمع فيها من أنواع الحيوانات شيء كثير لا يحد كثرة ، ثم نشبت الحرب بينه وبين الملك علاء الدين خوارزم شاه صاحب بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وغيرذلك والأقاليم والملك ، فقهره جنكيزخان وكسره وغلبه وسلبه ، واستحوذ على سائر بلاده بنفسه وبأولاده في أيسر مدة كما ذكرنا ذلك في الحوادث ، وكان ابتداء ملك جنكزخان سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان قتاله لخوارزم شاه في حدود سنة ست عشرة وستمائة ، ومات خوارزم شاه في سنة سبع عشرة كما ذكرنا ، فاستحوذ حينئذ على الممالك بلا منازع ولا ممانع ، وكانت وفاته في سنة أربع وعشرين وستمائة فجعلوه في تابوت من حديد وربطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هنالك وأما كتابه الياسا فانه يكتب في مجلدين بخط غليظ ، ويحمل على بعير عندهم ، وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلا ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل مرارا حتى يعيي ويقع مغشياً عليه ، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقى على لسانه حينئذ ، فان كان هذا هكذا فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها . وذكر الجويني أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة فسمع قائلا يقول له إنا قد ملكنا جنكيزخان وذريته وجه الأرض قال الجويني فمشايخ المغول يصدقون بهذا ويأخذونه مسلماً .

ثم ذكر الجويني نتفا من الياسا من ذلك : أنه من زنا قتل ، محصنا كان أو غير محصن ، وكذلك من لاط قتل ، ومن تعمد الكذب قتل ، ومن سحر قتل ، ومن تجسس قتل ، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل ، ومن بال في الماء الواقف قتل ، ومن انغمس فيه قتل ، ومن أطعم أسيراً

أو سقاه أو كساه بغير إذن أهله قتل ، ومن وجد هارباً ولم يرده قتل ، ومن أطعم أسيراً أو رمى إلى أحد شيئا من المأكول قتل ، بل يناوله من يده إلى يده ، ومن أطعم أحداً شيئاً فليأ كل منه أولا ولو كان المطعوم أميراً لا أسيرا ، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل ، ومن ذبح حيوانا ذبح مثله بل يشق جوفه و يتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولا . وفى ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه ؟ من فعل ذلك كفر باجماع المسلمين . قال الله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) وقال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليما) صدق الله العظيم

ومن آدابهم : الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة ، وأن يعرضوا عليه أبكارهم الحسان ليختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن ، ومن شأنهم أن يخاطبوا الملك باسمه ، ومن مر بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير استئذان ولا يتخطى موقد النار ولا طبق الطعام ، ولا يقف على أسكفة الخركاه ولا يغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها ، ولا يكلفون العلماء من كل ما ذكر شيئا من الجنايات ، ولا يتعرضون لمال ميت ، وقد ذكر علاء الدين الجوينى طرفا كبيرا من أخبار جنكيزخان ومكارم كان يفعلها لسجيته وما أداه إليه عقله و إن كان مشركا بالله كان يعبد معه غيره ، وقد قتل من الخلائق مالا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم ، ولكن كان البداءة من خوارزم شاه ، فانه لما أرسل جنكيزخان تجارا من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده فانتهوا إلى إيران فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه ، وهو والد زوجة كشلى خان ، وأخذ جميع ما كان معهم ، فأرسل جنكيزخان إلى خوارزم شاه يستعلمه هل وقع هذا الأمر عن رضى منه أو أنه لايعلم به ، فأنكره وقال له فيما أرسل إليه : من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون لأنهم عمارة الأقاليم ، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة ، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك ، فان كان أمرا أمرت به طلبنا بدمائهم ، و إلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك . فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيزخان لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه فأساء التدبير ، وقد كان خرق وكبرت سنه ، وقد ورد الحديث « اتركوا الترك ما تركوكم » فلما بلغ ذلك جنكيزخان تجهز لقتاله وأخذ بلاده ، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التى لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع ، فمما ذكره الجوينى أنه قدم له بعض الفلاحين بالصيد ثلاث بطيخات فلم يتفق أن عند جنكيزخان أحد من الخزندارية ، فقال لزوجته خاتون أعطيه هذين القرطين اللذين فى أذنيك ، وكان فيهما جوهرتان نفيستان جداً ، فشحت المرأة بهما

وقالت : أنظره إلى غد ، فقال إنه يبيت هذه الليلة مقلقل الخاطر ، وربما لا يجعل له شئ بعد هذا ، وإن هذين لا يمكن أحد إذا اشتراهما إلا جاء بهما إليك . فانتزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح فطار عقله بهما وذهب بهما فباعهما لأحد التجار بألف دينار ، ولم يعرف قيمتهما ، فحملهما التاجر إلى الملك فردهما على زوجته ، ثم أنشد الجوينى عند ذلك :

ومن قال إن البحر والقطر أشبها * نداه فقد أثنى على البحر والقطر

قالوا : واجتاز يوماً فى سوق فرأى عند بقال عنّابا فأعجبه لونه ومالت نفسه إليه فأمر الحاجب أن يشترى منه ببالس ، فاشترى الحاجب بربع بالس ، فلما وضعه بين يديه أعجبه وقال: هذا كله ببالس؟ قال وبقى منه هذا ــ وأشار إلى ما بقى معه من المال ــ فغضب وقال: من يجد من يشترى منه مثلى تمموا له عشرة بوالس. قالوا : وأهدى له رجل جام زجاج من معمول حلب فاستحسنه جنكيزخان فوهن أمره عنده بعض خواصه وقال : خوند هذا زجاج لاقيمة له ، فقال : أليس قدحمله من بلاد بعيدة حتى وصل إلينا سالما ؟ أعطوه مائتى بالس . قال : وقيل له إن فى هذا المكان كنزاعظيما إن فتحته أخذت منه مالا جزيلا،فقال الذى فى أيدينا يكفينا ، ودع هذا يفتحه الناس ويأكلونه فهم أحق به منا ، ولم يتعرض له [1] قال واشتهر عن رجل فى بلاده يقول أنا أعرف موضع كنز ولا أقول إلا للقان ، وألح عليه الأمراء أن يعلمهم فلم يفعل ، فذكروا ذلك للقان فأحضره على خيل الأولاق ــ يعنى البريد ــ سريعاً فلما حضر إلى بين يديه سأله عن الكنز فقال : إنما كنت أقول ذلك حيلة لأرى وجهك . فلما رأى تغير كلامه غضب وقال له : قد حصل لك ما قلت ، ورده إلى موضعه سالما ولم يعطه شيئا . قال : وأهدى له إنسان رمانة فكسرها وفرق حبها على الحاضرين وأمر له بعددحبها بوالس ثم أنشد :

فلذاك تزدحم الوفود ببابه * مثل ازدحام الحب فى الرمان

قال : وقدم عليه رجل كافر يقول رأيت فى النوم جنكيزخان يقول قل لابنى يقتل المسلمين ، فقال له هذا كذب ، وأمر بقتله [2] . قال وأمر بقتل ثلاثة قد قضت الياسا بقتلهم ، فاذا امرأة تبكى

(١) وجد بهامش التركية مانصه : « هذا منقول عن ابنه قان الذى قام مقامه ، ولعله هو الصحيح لأن قان هذا المنسوب إلى الكرم الجبلى العظيم والسخاء المفرط ، ويحكى عنه حكايات عظيمة فى هذا الشأن . وأما أبوه جنكيزخان فأنه متوسط فى الجود بل وفى سائر سجاياه وأخلاقه وأفعاله إلا فى أمر سفك الدماء قبحه الله تعالى . (٢) فيه تخليط والصحيح أن أعرابيا جاء إلى قان وقال له : رأيت فى النوم أباك جنكيزخان فقال لى : قل لابنى قان يقتل المسلمين ، وكان قان يميل إلى المسلمين ، مخالفا لأهل بيته ، فسأل الرجل : هل تعرف اللغة المغولية ؟ فقال : لا . فقال الملك له : أنت كاذب لأن أبى ما كان يعرف من اللغات ودرس غير المغولية ، فأمر بضرب عنقه وأراح المسلمين من كيده .

وتلطم .فقال : ماهذه ؟أحضروها ، فقالت:هذا ابنى ،وهذا أخى،وهذا زوجى ، فقال اختارى واحداً منهم حتى أطلقه لك ، فقالت : الزوج يجىء مثله ، والابن كذلك ، والأخ لاعوض له ، فاستحسن ذلك منها وأطلق الثلاثة لها . قال : وكان يحب المصارعين وأهل الشطارة ، وقد اجتمع عنده منهم جماعة ، فذكرله إنسان بخراسان فأحضره فصرع جميع من عنده ، فأكرمه وأعطاه وأطلق له بنتا من بنات الملوك حسناء . فمكثت عنده مدة لا يتعرض لها ، فاتفق مجيئها إلى الاردوا فجعل السلطان يمازجها ويقول : كيف رأيت المستعرب ؟ فذكرت له أنه لم يقربها ، فتعجب من ذلك وأحضره فسأله عن ذلك فقال : ياخوند أنا إنما حظيت عندك بالشطارة ومتى قربتها نقصت منزلتى عندك ، فقال لابأس عليك وأحضر ابن عم له وكان مثله ، فأراد أن يصارع الأول فقال السلطان : أنتما قرابة ولا يليق هذا بينكما وأمر له بمال جزيل .

قال : ولما احتضر أوصى أولاده بالاتفاق وعدم الافتراق ، وضرب لهم فى ذلك الأمثال،وأحضر بين يديه نشاباً وأخذسهما أعطاه لواحد منهم فكسره ، ثم أحضر حزمة ودفعها إليهم مجموعة فلم يطيقوا كسرها ، فقال : هذا مثلكم إذا اجتمعتم واتفقتم ، وذلك مثلكم إذا انفرد تم واختلفتم ، قال : وكان له عدة أولاد ذكور وإناث منهم أربعة هم عظماء أولاده أكبرهم يوسى وهربول وباتو وبركة وتركجار، وكان كل منهم له وظيفة عنده . ثم تكلم الجوينى على ملك ذريته إلى زمان هولا كوخان ، وهو يقول فى اسمه پاذشاه زاره هولا كو ، وذكر ما وقع فى زمانه من الأوابد والأمور المعروفة المزعجة كما بسطناه فى الحوادث والله أعلم .

﴿ السلطان الملك المعظم ﴾

عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب ، ملك دمشق والشام ، كانت وفاته يوم الجمعة سلخ ذى القعدة من هذه السنة ، وكان استقلاله بملك دمشق لما توفى أبوه سنة خمس عشرة ، وكان شجاعاً باسلا عالما فاضلا ، اشتغل فى الفقه على مذهب أبى حنيفة على الحصيرى مدرس النورية [1] ، وفى اللغة والنحو على التاج الكندى ، وكان محفوظه مفصل الزمخشرى ، وكان يجيز من حفظه بثلاثين دينارا وكان قد أمر أن يجمع له كتاب فى اللغة يشمل صحاح الجوهرى والجمهرة لابن دريدوالتهذيب للازهرى وغير ذلك ، وأمر أن يرتب له مسند الامام أحمد ، وكان يحب العلماء ويكرمهم ، ويجتهد فى متابعة الخير ويقول أنا على عقيدة الطحاوى ، وأوصى عند وفاته أن لايكفن إلا فى البياض ، وأن يلحد له ويدفن فى الصحراء ولايبنى عليه ، وكان يقول : واقعة دمياط أدخرها عند الله تعالى وأرجو أن يرحمنى بها ـ يعنى أنه أبلى بها بلاء حسنا ـ رحمه الله تعالى ، وقد جمع له بين الشجاعة والبراعة والعلم ومحبة أهله،وكان يجىء فى كل جمعة إلى تربة والده فيجلس قليلا ثم إذا ذكر المؤذنون ينطلق إلى تربة عمه صلاح الدين

(١) وهو مؤلف كتاب « السهم المصيب فى الرد على الخطيب » فيما ذكره فى تاريخ بغداد فى ترجمة الامام أبى حنيفة رحمه الله .

فيصلى فيها الجمعة ، وكان قليل التعاظم ، يركب فى بعض الأحيان وحده ثم يلحقه بعض غلمانه سوقا .
وقال فيه بعض أصحابه وهو محب الدين بن أبى السعود البغدادى .

لئن غودرت تلك المحاسن فى الثرى * بوال فما وجدى عليك ببال
ومذ غبت عنى ما ظفرت بصاحب * أخى ثقة إلا خطرت ببالى

وملك بعده دمشق ولده الناصر داود بن المعظم ، و بايعه الأمراء .

[﴿ أبو المعالى أسعد بن يحيى ﴾

ابن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب الفقيه الشافعى البخارى ، شيخ أديب فاضل خير ، له نظم ونثر ظريف ، وله نوادر حسنة وجاوز التسعين . قد استوزره صاحب حماة فى وقت وله شعر رائق أورد منه ابن الساعى قطعة جيدة . فمن ذلك قوله :

وهواك ما خطر السلو بباله * ولأنت أعلم فى الغرام بحاله
فمتى وشى واش إليك بشأنه * سائل هواك فذاك من أعداله
أو ليس للدنف المعنى شاهد * من حاله يغنيك عن تسآله
جددت ثوب سقامه ، وهتكت ستـ * ـر غرامه ، وصرمت حبل وصاله
ياللعجائب من أسير دأبه * يفدى الطليق بنفسه و بماله

وله أيضاً : لام العواذل فى هواك فأكثروا * هيهات ميعاد السلو المحشر
جهلوا مكانك فى القلوب وحاولوا * لو أنهم وجدوا كوجدى أقصروا
صبراً على عذب الهوى وعذابه * وأخو الهوى أبدا يلام و يعذر][1]

﴿ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ﴾

ابن أحمد بن حمدان الطيبى المعروف بالصائن ، أحد المعيدين بالنظامية ، ودرس بالثقفية ، وكان عارفا بالمذهب والفرائض والحساب ، صنف شرحا للتنبيه . ذكره ابن الساعى .

﴿ أبو النجم محمد بن القاسم بن هبة الله التكريتى ﴾

الفقيه الشافعى ، تفقه على أبى القاسم بن فضلان ثم أعاد بالنظامية ودرس بغيرها ، وكان يشتغل كل يوم عشرين درساً ، ليس له دأب إلا الاشتغال وتلاوة القرآن ليلا ونهاراً ، وكان بارعا كثير العلوم ، قد أتقن المذهب والخلاف ، وكان يفتى فى مسألة الطلاق الثلاث بواحدة فتغيظ عليه قاضى القضاة أبو القاسم عبد الله بن الحسين الدامغانى ، فلم يسمع منه ، ثم أخرج إلى تكريت فأقام بها ، ثم استدعى إلى بغداد ، فعاد إلى الاشتغال وأعاده قاضى القضاة نصر بن عبد الرزاق إلى إعادته بالنظامية ، وعاد إلى ما كان عليه من الاشتغال والفتوى والوجاهة إلى أن توفى فى هذه السنة رحمه الله تعالى . وهذا

---

(١) زيادة من المصرية .

ذكره ابن الساعي .

{ ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة }

فيها كانت حروب كثيرة بين جلال الدين والتتر ، كسروه غير مرة ، ثم بعد ذلك كله كسرهم كسرة عظيمة ، وقتل منهم خلقا وأمما لايحصون ، وكان هؤلاء التتر قد انفردوا وعصوا على جنكيزخان فكتب جنكيزخان إلى جلال الدين يقول له : إن هؤلاء ليسوا منا ونحن أبعدناهم ، ولكن سترى منا ما لا قبل لك به . وفيها قدمت طائفة كبيرة من الفرنج من ناحية صقلية فنزلوا عكا وصور وحملوا على مدينة صيدا فانتزعوها من أيدى المؤمنين ، وعبروها وقويت شوكتهم ، وجاء الانبرور ملك الجزيرة القبرصية ثم سار فنزل عكا فخاف المسلمون من شره وبالله المستعان . وركب الملك الكامل محمد بن العادل صاحب مصر إلى بيت المقدس الشريف فدخله ، ثم سار إلى نابلس فخاف الناصر داود بن المعظم من عمه الكامل ، فكتب إلى عمه الأشرف فقدم عليه جريدة ، وكتب إلى أخيه الكامل يستعطفه ويكفه عن ابن أخيه ، فأجابه الكامل بأنى إنما جئت لحفظ بيت المقدس وصونه عن الفرنج الذين يريدون أخذه ، وحاشى لله أن أحاصر أخى أو ابن أخى ، وبعد أن جئت أنت إلى الشام فأنت تحفظها وأنا راجع إلى الديار المصرية ، فخشى الأشرف وأهل دمشق إن رجع الكامل أن تمتد أطماع الفرنج إلى بيت المقدس ، فركب الأشرف إلى أخيه الكامل فثبطه عن الرجوع ، وأقاما جميعا هنالك جزاهما الله خيرا ، يحوطان جناب القدس عن الفرنج لعنهم الله. واجتمع إلى الملك جماعة من ملوكهم ، كأخيه الأشرف وأخيهما الشهاب غازى بن العادل وأخيهم الصالح إسماعيل بن العادل ، وصاحب حمص أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين ، وغيرهم ، واتفقوا كلهم على نزع الناصر داود عن ملك دمشق وتسليمها إلى الأشرف موسى . وفيها عزل الصدر التكريتى عن حسبة دمشق ومشيخة الشيوخ وولى فيها اثنان غيره .

قال أبو شامة : وفى أوائل رجب توفى الشيخ الصالح الفقيه أبو الحسن على بن المراكشى المقيم بالمدرسة المالكية ، ودفن بالمقبرة التى وقفها الزين خليل بن زويزان قبلى مقابر الصوفية ، وكان أول من دفن بها رحمه الله تعالى .

{ ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة }

استهلت هذه السنة وملوك بنى أيوب مفترقون مختلفون ، قد صاروا أحزابا وفرقا ، وقد اجتمع ملوكهم إلى الكامل محمد صاحب مصر ، وهو مقيم بنواحى القدس الشريف ، فقويت نفوس الفرنج لعنهم الله بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر ، وبموت المعظم واختلاف من بعده من الملوك ، فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ منهم ، فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك أن يردوا لهم بيت المقدس وحده ، وتبقى بأيديهم بقية البلاد ، فتسلموا القدس الشريف ، وكان

المعظم قد هدم أسواره ، فعظم ذلك على المسلمين جدا وحصل وهن شديد و إرجاف عظيم ، فانا لله و إنا إليه راجعون . ثم قدم الملك الكامل لحاصر دمشق وضيق على أهلها فقطع الانهار ونهبت الحواصل وغلت الأسعار ، ولم يزل الجنود حولها حتى أخرج منها ابن أخيه صلاح الدين الملك الناصر داود بن المعظم ، على أن يقيم ملكا بمدينة الكرك والشوبك ونابلس و برا ما بين الغور والبلقاء و يكون الأمير عز الدين أيبك أستاذ دار المعظم صاحب صرخد ، ثم تقايض الأشرف وأخاه الكامل فأخذ الأشرف دمشق وأعطى أخاه حران والرها والرقة و رأس العين وسروج ، ثم سار الكامل لحاصر حماة وكان صاحبها الملك المنصور بن تقى الدين عمر قد توفى وعهد بالأمر من بعده الى أكبر ولده المظفر محمد ، وهو زوج بنت الكامل ، فاستحوذ على حماة أخوه صلاح الدين قلج أرسلان لحاصره الكامل حتى أنزله من قلعتها وسلمها إلى أخيه المظفر محمد ، ثم سار فتسلم البلاد التى قايض بها عن دمشق من أخيه الملك الأشرف كما ذكرنا ، وكان الناس بدمشق قد اشتغلوا بعلم الأوائل فى أيام الملك الناصر داود ، وكان يعانى ذلك وقديما نسبه بعضهم إلى نوع من الانحلال فالله أعلم ، فنادى الملك الأشرف بالبلدان أن لا يشتغل الناس بذلك وأن يشتغلوا بعلم التفسير والحديث والفقه ، وكان سيف الدين الآمدى مدرساً بالعزيزية فعزله عنها و بقى ملازماً منزله حتى مات فى سنة إحدى وثلاثين كما سيأتى .

وفيها كان الناصر داود قد أضاف إلى قاضى القضاة شمس الدين بن الخولى القاضى محيى الدين يحيى بن محمد بن على بن الزكى ، فحكم أياما بالشباك ، شرقى باب الكلاسة ، ثم صار الحكم بداره ، مشاركا لابن الخولى .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الملك المسعود أقسيس بن الكامل ﴾

صاحب اليمن ، وقد ملك مكة سنة تسع عشرة فأحسن بها المعدلة، ونفى الزيدية منها ، وأمنت الطرقات والحجاج ، ولكنه كان مسرفا على نفسه ، فيه عسف وظلم أيضا . وكانت وفاته بمكة ودفن بباب المعلى

﴿ محمد السبتى النجار ﴾

كان يعده بعضهم من الأبدال ، قال أبو شامة: وهو الذى بنى المسجد غربى دار الزكاة عن يسار المار فى الشارع من ماله ، ودفن بالجبل . وكانت جنازته مشهودة رحمه الله تعالى

﴿ أبو الحسن على بن سالم ﴾

ابن يزبك بن محمد بن مقلد العبادى الشاعر من الحديثة ، قدم بغداد مراراً وامتدح المستظهر وغيره ، وكان فاضلا شاعراً يكثر التغزل

﴿ أبو يوسف يعقوب بن صابر الحرانى ﴾

ثم البغدادى المنجنيقى ، كان فاضلا فى فنه ، وشاعرا مطبقاً لطيف الشعر حسن المعانى ، قد أورد له ابن الساعى قطعة صالحة ، ومن أحسن ما أورد له قصيدة فيها تعزية عظيمة لجميع الناس وهى :

هل لمن يرتجى البقاء خلود * وسوى الله كل شىء يبيد
والذى كان من تراب وإن * عاش طويلا للتراب يعود
فمصير الأنام طرا إلى ما * صار فيه آباؤهم والجدود
أين حواء أين آدم إذ فا * تهم الخلد والثوى والخلود ؟
أين هابيل أين قابيل إذ ه * ذا لهذا معاند وحسود ؟
أين نوح ومن نجا معه بالفل * ك والعالمون طراً فقيد
أسلمته الأيام كالطفل للمو * ت ولم يغن عمره الممدود
أين عاد ؟ بل أين جنة عاد * أم ترى أين صالح وثمود ؟
أين إبراهيم الذى شاد بيـ * ت الله فهو المعظم المقصود
حسدوا يوسفا أخاهم فكادو * ه ومات الحاسد والمحسود
وسليمان فى النبوة والملك * قضى مثل ما قضى داود
فغدوا بعد ما أطيع لذا الخل * ق وهذا له ألين الحديد
وابن عمران بعد آياته التس * ع وشق الخضم فهو صعيد
والمسيح ابن مريم وهو روح الل * ه كادت تقضى عليه اليهود
وقضى سيد النبيين والها * دى إلى الحق أحمد المحمود
وبنوه وآله الطاهرو * ن الزهر صلى عليهم المعبود
ونجوم السماء منتثرات * بعد حين وللهواء ركود
ولنار الدنيا التى توقد الصخ * ر خمود وللماء جمود
وكذا للثرى غداة يؤم النـ * اس منها تزلزل وهمود
هذه الامهات نار وترب * وهواء رطب وماء برود
سوف يفنى كما فنينا فلا * يبقى من الخلق والد ووليد
لا الشقى الغوى من نوب الايا * م ينجو ولا السعيد الرشيد
ومتى سلت المنايا سيوفا * فالموالى حصيدها والعبيد

ومن توفى فيها ﴿ أبو الفتوح نصر بن على البغدادى ﴾

الفقيه الشافعى و يلقب بثعلب ، اشتغل فى المذهب والخلاف ومن شعره قوله :

جسمى معى غير أن الروح عندكم * فالجسم فى غربة والروح فى وطن
فليعجب الناس منى أن لى بدنا * لا روح فيه ولى روح بلا بدن

﴿ أبو الفضل جبرائيل بن منصور ﴾

ابن هبة الله بن جبريل بن الحسن بن غالب بن يحيى بن موسى بن يحيى بن الحسن بن غالب بن الحسن بن عمرو بن الحسن بن النعمان بن المنذر المعروف بابن زطينا البغدادى كاتب الديوان بها ، أسلم ـ وكان نصرانيا ـ فحسن إسلامه ، وكان من أفصح الناس وأبلغهم موعظة ، ومن ذلك قوله « خير أوقاتك ساعة صفت لله ، وخلصت من الفكرة لغيره والرجاء لسواه ، وما دمت فى خدمة السلطان فلا تغتر بالزمان ، اكفف كفك واصرف طرفك وأكثر صومك وأقلل نومك يؤمنك ، واشكر ربك يحمد أمرك. وقال: زاد المسافر يقدم على رحيله ، فأعد الزاد تبلغ بالمعاد المراد . وقال : إلى متى تتمادى فى الغفلة كأنك قد أمنت عواقب المهلة ، عمر اللاهو مضى وعمر الشبيبة انقضى ، وما حصلت من ربك على ثقة بالرضا ، وقد انتهى بك الأمر إلى سن التخاذل وزمن التكاسل ، وما حظيت بطائل . وقال : روحك تخضع وعينك لاتدمع ، وقلبك يخشع ونفسك تجشع ، وتظلم نفسك وأنت لهاتتوجع ، وتظهر الزهد فى الدنيا وفى الحال تطمع ، وتطلب ماليس لك بحق وما وجب عليك من الحق لاتدفع ، وتروم فضل ربك وللماعون تمنع ، وتعيب نفسك الامارة وهى عن اللهو لاترجع ، وتوقظ الغافلين بانذارك وتتناوم عن سهمك وتهجع ، وتخص غيرك بخيرك ونفسك الفقيرة لا تنفع ، وتحوم على الحق وأنت بالباطل مولع ، وتتعثر فى المضايق وطرق النجاة مهيع ، وتتهجم على الذنوب وفى المجرمين تشفع وتظهر القناعة بالقليل وبالكثير لا تشبع ، وتعمر الدار الفانية ودارك الباقية خراب بلقع ، وتستوطن فى منزل رحيل كأنك إلى ربك لا ترجع ، وتظن أنك بلا رقيب وأعمالك إلى المراقب ترفع ، تقدم على الكبائر وعن الصغائر تتورع ، وتؤمل الغفران وأنت عن الذنوب لا تقلع ، وترى الأهوال محيطة بك وأنت فى ميدان اللهو ترتع ، وتستقبح أفعال الجهال وباب الجهل تقرع ، وقد آن لك أن تأنف من التعنيف وعن الدنايا تترفع ، وقد سار المخفون وتخلفت فماذا تتوقع » .

وقد أورد ابن الساعى له شعراً حسناً فمنه :

إن سهرت عيناك فى طاعة * فذاك خير لك من نوم
أمسك قد فات بعلاته * فاستدرك الفائت فى اليوم

وله

إن ربا هداك بعد ضلال * سبل الرشد مستحق للعباده

فتعبد له تجد منه عتقا * واستدم فضله بطول الزهاده

وله : إذا تعففت عن حرام * عوضت بالطيب الحلال

فاقنع تجد فى الحرام حلا * فضلا من الله ذى الجلال

﴿ ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة ﴾

فيها كانت وقعة عظيمة بين الأشرف موسى بن العادل و بين جلال الدين بن خوارزم شاه ، وكان سببها أن جلال الدين كان قد أخذ مدينة خلاط فى الماضى وخربها وشرد أهلها ، وحار به علاء الدين كيقباد ملك الروم وأرسل إلى الاشرف يستحثه على القدوم عليه ولو جريدة وحده ، فقدم الأشرف فى طائفة كبيرة من عسكر دمشق ، وانضاف إليهم عسكر بلاد الجزيرة ومن تبقى من عسكر خلاط ، فكانوا خمسة آلاف مقاتل ، معهم العدة الكاملة ، والخيول الهائلة، فالتقوا مع جلال الدين بأذر بيجان وهو فى عشرين ألف مقاتل ، فلم يقم لهم ساعة واحدة ، ولا صبر فتقهقر وانهزم واتبعوه على الأثر ، ولم يزالوا فى طلبهم إلى مدينة خوى وعاد الأشرف إلى مدينة خلاط فوجدها خاوية على عروشها ، فمهدها [وأطدها ، ثم تصالح وجلال الدين وعاد إلى مستقر ملكه حرسها الله] (١) وفيها تسلم الأشرف قلعة بعلبك من الملك الامجد بهرام شاه بعد حصار طويل ، ثم استخلف على دمشق أخاه الصالح إسماعيل ، ثم سار إلى الأشرف بسبب أن جلال الدين الخوارزمى استحوذ على بلاد خلاط وقتل من أهلها خلقا كثيراً ونهب أموالا كثيرة ، فالتقى معه الأشرف واقتتلوا قتالا عظيما فهزمه الاشرف هزيمة منكرة ، وهلك من الخوارزمية خلق كثير ، ودقت البشائر فى البلاد فرحاً بنصرة الاشرف على الخوارزمية ، فانهم كانوا لا يفتحون بلدا إلا قتلوا من فيه ونهبوا أموالهم ، فكسرهم الله تعالى . وقد كان الاشرف رأى النبى ﷺ فى المنام قبل الوقعة وهو يقول له : يا موسى أنت منصور عليهم ولما فرغ من كسرتهم عاد إلى بلاد خلاط فرمم شعثها وأصلح ما كان فسد منها . ولم يحج أحد من أهل الشام فى هذه السنة ولا فى التى قبلها ، وكذا فيما قبلها أيضاً ، فهذه ثلاث سنين لم يسر من الشام أحد إلى الحج . وفيها أخذت الفرنج جزيرة سورقة وقتلوا بها خلقا وأسروا آخرين ، فقدموا بهم إلى الساحل فاستقبلهم المسلمون فأخبروا بما جرى عليهم من الفرنج .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ زين الأمناء الشيخ الصالح ﴾

أبو البركات ابن الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن زين الأمناء بن عساكر الدمشقى الشافعى ، سمع على عميه الحافظ أبى القاسم والصائن وغير واحد ، وعمر وتفرد بالرواية وجاوز الثمانين

(١) زيادة من المصرية ، وفى التركية بياض .

بنحو من ثلاث سنين ، وأقعد فى آخر عمره فكان يحمل فى محفة إلى الجامع و إلى دار الحديث النورية لاسماع الحديث ، وانتفع به الناس مدة طويلة ، ولما توفى حضر الناس جنازته ودفن عند أخيه الشيخ فخر الدين بن عساكر بمقابر الصوفية رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ بيرم المارديني ﴾

كان صالحا منقطعاً محبـاً للعزلة عن الناس ، وكان مقيما بالزاوية الغربيـة من الجامع ، وهى التى يقال لها الغزالية ، وتعرف بزاوية الدولعى و بزاوية القطب النيسابورى ، و بزاوية الشيخ أبى نصر المقدسى ، قاله الشيخ شهاب الدين أبو شامـة ، وكان يوم جنازته مشـهودا ، ودفن بسفح قاسيون رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة والملك الأشرف موسى بن العادل مقيم بالجزيرة مشغول فيها باصلاح ما كان جلال الدين الخوارزمى قد أفسده من بلاده ، وقـد قدمت التتار فى هـذه السنة إلى الجزيرة وديار بكر فعاثوا بالفساد يمينا وشمالا ، فقتلوا ونهبوا وسبوا على عادتهم خـذلهم الله تعالى . وفيها رتب إمام بمشهد أبى بكر من جامع دمشق وصليت فيه الصـلوات الخمس . وفيها درس الشيخ تقى الدين بن الصلاح الشهرزورى الشافعى فى المدرسـة الجوانية فى جانب المارسـتان فى جمادى الأولى منها . وفيها درس الناصر ابن الحنبـلى بالصالحية بسفح قاسيون التى أنشأتها الخاتون ربيعـة خاتون بنت أيوب أخت ست الشام .

وفيها حبس الملك الأشرف الشيخ على الحريرى بقلعة عزتا . وفيها كان غـلاء شديد بديار مصر و بلاد الشام وحلب والجزيرة بسبب قلة المياه السماوية والأرضية ، فكانت هذه السنة كما قال الله تعالى (ولنبـلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأمـوال والأنفس والثمرات و بشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليـه راجعون) وذكر ابن الأثير كلاما طويلا مضمونه خروج طائفة من التتـار مرة أخرى من بلاد ما وراء النهر ، وكان سبب قدومهم هذه السنة أن الاسماعيلية كتبوا إليهـم يخبرونهم بضعف أمر جلال الدين بن خوارزم شاه . وأنه قـد عادى جميع الملوك حوله حتى الخليفة ، وأنه قـد كسره الأشرف بن العادل مرتين ، وكان جـلال الدين قد ظهرت منه أفعال ناقصة تدل على قلة عقله ، وذلك أنه توفى له غـلام خصى يقال له قلج ، وكان يحبه ، فوجـد عليه وجدا عظيما بحيث إنه أمر الأمراء أن يمشوا بجنازته فمشوا فراسخ ، وأمر أهـل البلد أن يخرجوا بحزن وتعداد عليه فتوانى بعضهم فى ذلك فهم بقتلهم حتى تشفع فيهم بعض الأمراء ثم لم يسمح بدفن قلج فكان يحمل معه بمحفة ، وكلما أحضر بين يديه طعام يقول احملوا هذا إلى قلج

فقال له بعضهم : أيها الملك إن قلج قدمات ، فأمر بقتله فقتل، فكانوا بعدذلك يقولون : قبلهوهو يقبل الأرض ، ويقول هوالآن أصلح مما كان - يعني أنه مريض وليس بميت - فيجد الملك بذلك راحة من قلة عقله ودينه قبحه الله . فلما جاءت التتار اشتغل بهم وأمر بدفن قلج وهرب من بين أيديهم وامتلأ قلبه خوفا منهم ، وكان كلما سار من قطر لحقوه إليه وخربوا ما اجتازوا به من الأقاليم والبلدان حتى انتهوا إلى الجزيرة وجاوزوها إلى سنجار وماردين وآمد، يفسدون ما قدروا عليه قتلا ونهبا وأسرا ، وتمزق شمل جلال الدين وتفرق عنه جيشه ، فصاروا شذر مذر ، وبدلوا بالأمن خوفا ، وبالعز ذلا ، وبالاجتماع تفريقا ، فسبحان من بيده الملك لا إله إلا هو . وانقطع خبر جلال الدين فلا يدرى أين سلك ، ولا أين ذهب ، وتمكنت التتار من الناس فى سائر البلاد لا يجدون من يمنعهم ولا من يردعهم ، وألقى الله تعالى الوهن والضعف فى قلوب الناس منهم ، كانوا كثيرا يقتلون الناس فيقول المسلم : لا بالله ، لا بالله ، فكانوا يلعبون على الخيل ويغنون ويحاكون الناس لا بالله لا بالله ، وهذه طامة عظمى وداهية كبرى ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

وحج الناس فى هذه السنة من الشام وكان ممن حج فيها الشيخ تقى الدين أبو عمر بن الصلاح ، ثم لم يحج الناس بعد هذه السنة أيضاً لكثرة الحروب والخوف من التتار والفرنج ، فانا لله وإنا إليه راجعوان . وفيها تكامل بناء المدرسة التى بسوق العجم ببغداد المنسوبة إلى إقبال الشرابى ، وحضر الدرس بها ، وكان يوما مشهودا ، اجتمع فيه جميع المدرسين والمفتيين ببغداد ، وعمل بصحنها قباب الحلوى فحمل منها إلى جميع المدارس والربط ، ورتب فيها خمسة وعشرين فقيها لهم الجوامك الدارة فى كل يوم ، والحلوى فى أوقات المواسم ، والفواكه فى زمانها ، وخلع على المدرس والمعيدين والفقهاء فى ذلك اليوم ، وكان وقتا حسنا تقبل الله تعالى منه . وفيها سار الأشرف أبو العباس أحمد بن القاضى الفاضل فى الرسلية عن الكامل محمد صاحب مصر إلى الخليفة المستنصر بالله ، فأكرم وأعيد معظما . وفيها دخل الملك المظفر أبو سعيد كوكبرى بن زين الدين صاحب إربل إلى بغداد ولم يكن دخلها قط ، فتلقاه الموكب وشافهه الخليفة بالسلام مرتين فى وقتين ، وكان ذلك شرفا له غبطه به سائر ملوك الآفاق وسألوا أن يهاجروا ليحصل لهم مثل ذلك ، فلم يمكنوا لحفظ الثغور ، ورجع إلى مملكته معظما مكرما .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ يحيى بن معطى بن عبدالنور ﴾

النحوى صاحب الألفية وغيرها من المصنفات النحوية المفيدة ، ويلقب زين الدين ، أخذ عن الكندى وغيره ، ثم سافر إلى مصر فكانت وفاته بالقاهرة فى مستهل ذى الحجة من هذه السنة ، وشهد جنازته الشيخ شهاب الدين أبو شامة ، وكان قد رحل إلى مصر فى هذه السنة، وحكى أن الملك الكامل شهد جنازته أيضاً ، وأنه دفن قريباً من قبر المزنى بالقرافة فى طريق الشافعى عن يسرة المار رحمه الله.

﴿ الدخوار الطبيب ﴾

مذهب الدين عبد الرحيم بن على بن حامد ، المعروف بالدخوار شيخ الأطباء بدمشق ، وقد وقف داره بدرب العميد بالقرب من الصاغة العتيقة على الأطباء بدمشق مدرسة لهم ، وكانت وفاته بصفر من هذه السنة ، ودفن بسفح قاسيون ، وعلى قبره قبة على أعمدة فى أصل الجبل شرقى الركنية ، وقد ابتلى بستة أمراض متعاكسة ، منها ريح اللقوة ، وكان مولده سنة خمس وستين وخمسمائة وكان عمره ثلاثا وستين سنة . قال ابن الأثير : وفيها توفى .

﴿ القاضى أبو غانم بن العديم ﴾

الشيخ الصالح ، وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة ، من العاملين بعلمهم ، ولو قال قائل إنه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان صادقا ، فرضى الله تعالى عنه وأرضاه ، فانه من جماعة شيوخنا ، سمعنا عليه الحديث وانتفعنا برؤيته وكلامه ، قال : وفيها أيضاً فى الثانى عشر من ربيع الأول توفى صديقنا .

﴿ أبو القاسم عبد المجيد بن العجمى الحلبي ﴾

وهو وأهل بيته مقدموا السنة بحلب ، وكان رجلا ذا مروءة غزيرة ، وخلق حسن ، وحلم وافر ورياسة كثيرة ، يحب إطعام الطعام ، وأحب الناس إليه من أكل من طعامه ويقبل يده ، وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط ، ولا يقعد عن إيصال راحة وقضاء حاجة ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة . قلت وهذا آخر ماوجد من الكامل فى التاريخ للحافظ عز الدين أبى الحسن على بن محمد بن الأثير رحمه الله تعالى .

﴿ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الكريم ﴾

ابن أبى السعادات بن كريم الموصلى ، أحد الفقهاء الحنفيين ، شرح قطعة كبيرة من القدورى ، وكتب الانشاء لصاحبها بدر الدين لؤلؤ ، ثم استقال من ذلك ، وكان فاضلا شاعرا ، من شعره :

دعوه كما شاء الغرام يكون * فلست وإن خان العهود أخون
ولينوا له فى قولكم ما استطعتم * عسى قلبه القاسى على يلين
وبثوا صباباتى إليه وكرروا * حديثى عليه فالحديث شجون
بنفسى الأولى بانواعن العين حصة * وحبهم فى القلب ليس يبين
وسلوا على العشاق يوم تحملوا * سيوفا لها وطف الجفون جفون

﴿ المجد البهنسى ﴾

وزير الملك الأشرف ثم عزله وصادره ، ولما توفى دفن بتربته التى أنشأها بسفح قاسيون وجعل كتبه بها وقفا ، وأجرى عليها أوقافا جيدة دارة رحمه الله تعالى .

﴿ جمال الدولة ﴾

خليل بن زويزان رئيس قصر حجاج ، كان كيسا ذا مروءة ، له صدقات كثيرة ، وله زيارة فى مقابر الصوفية من ناحية القبلة ، ودفن بتربته عند مسجد قلوس رحمه الله تعالى .

﴿ الملك الأمجد ﴾

واقف المدرسة الأمجدية . وفيها كانت وفاة .

﴿ بهرامشاه بن فروخشاه بن شاهنشاه ﴾

ابن أيوب صاحب بعلبك ، لم يزل بها حتى قدم الأشرف موسى بن العادل إلى دمشق فملكها فى سنة ست وعشرين ، فانتزع من يده بعلبك فى سنة سبع وعشرين ، وأسكنه عنده بدمشق بدار أبيه ، فلما كان شهر شوال من هذه السنة عدا عليه مملوك من مماليكه تركى فقتله ليلا ، وكان قد اتهمه فى صاحبة له وحبسه ، فتغلب عليه فى بعض الليالى فقتله وقتل المملوك بعده ، ودفن الأمجد فى تربته التى إلى جانب تربة أبيه فى الشرق الشمالى رحمه الله تعالى ، وقد كان شاعرا فاضلا له ديوان شعر ، وقد أورد له ابن الساعى قطعة جيدة من شعره الرائق الفائق ، وترجمته فى طبقات الشافعية ، ولم يذكره أبو شامة فى الذيل ، وهذا عجيب منه ، ومما أورد له ابن الساعى فى شاب رآه يقطع قضبان بان فأنشأ على البديهة :

من لى بأهيف قال حين عتبته * فى قطع كل قضيب بان رائق
تحكى شمائله الرشاء إذا انثنى * ريان بين جداول وحدائق
سرقت غصون البان لين شمائلى * فقطعتها والقطع حد السارق

ومن شعره أيضا رحمه الله تعالى .

يؤرقنى حنين وادكار * وقد خلت المرابع والديار
تناءى الظاعنون ولى فؤاد * يسير مع الهوادج حيث ساروا
حنين مثلما شاء التنائى * وشوق كلما بعد المزار
وليل بعد بينهم طويل * فأين مضت ليالىّ القصار ؟
وقد حكم السهاد على جفونى * تساوى الليل عندى والنهار
سهادى بعد نأيهم كثير * ونومى بعد ما رحلوا غرار
فمن ذا يستعير لنا عيونا * تنام وهل ترى عينا تعار
فلا ليلى له صبح منير * ولا وجدى يقال له عثار
وكم من قائل والحى غاد * يحجب ظعنه النقع المثار

وقوفك فى الديار وأنت حى * وقد رحل الخليط عليك عار

وله دوبيت :

كم يذهب هذا العمر فى الخسران * ما أغفلنى فيه وما أنسانى

ضيعت زمانى كله فى لعب * يا عمر هل بعدك عمر ثانى

وقد رآه بعضهم فى المنام فقال له : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقال :

كنت من دينى على وجل * زال عنى ذلك الوجل

أمنت نفسى بوائقها * عشت لمامت لما رجل

رحمه الله وعفا عنه . ﴿ جلال الدين تكش ﴾

وقيل محمود بن علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش الخوارزمى ، وهم من سلالة طاهر بن الحسين ، وتكش جدهم هوالذى أزال دولة السلجوقية . كانت التتار قهروا أباه حتى شردوه فى البلاد فمات فى بعض جزائر البحر ، ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذر مذر وتفرقوا عنه أيدى سبا ، وانفرد هو وحده فلقيه فلاح من قرية بأرض ميا فارقين فأنكره لما عليه من الجواهر الذهب ، وعلى فرسه ، فقال له : من أنت ؟ فقال: أنا ملك الخوارزمية ـ وكانوا قد قتلوا للفلاح أخا ـ فأنزله وأظهر إكرامه ، فلما نام قتله بفأس كانت عنده ، وأخذ ما عليه ، فبلغ الخبر إلى شهاب الدين غازى ابن العادل صاحب ميافارقين فاستدعى بالفلاح فأخذ ما كان عليه من الجواهر ، وأخذ الفرس أيضاً ، وكان الأشرف يقول هو سد ما بيننا و بين التتار، كما أن السد بيننا و بين يأجوج ومأجوج .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة ﴾

فيها عزل القاضيان بدمشق : شمس الخوى وشمس الدين بن سنى الدولة ، وولى قضاء القضاة عماد الدين ابن الحرستانى ، ثم عزل فى سنة إحدى وثلاثين وأعيد شمس الدين بن سنى الدولة كما سيأتى .وفيها سابع عشر شوالها عزل الخليفة المستنصر وزيره مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم القمى ، وقبض عليه وعلى أخيه حسن وابنه فخر الدين أحمد بن محمد القمى وأصحابهم وحبسوا ، واستوزر الخليفة مكانه أستاذ الدار شمس الدين أبا الأزهر ، أحمد بن محمد بن الناقد ، وخلع عليه خلعة سنية وفرح الناس بذلك . وفيه أقبلت طائفة من التتار فوصلوا إلى شهزور فندب الخليفة صاحب إربل مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين ، وأضاف إليه عساكر من عنده ، فساروا نحوهم فهربت منهم التتار وأقاموا فى مقابلتهم مدة شهور ، ثم تمرض مظفر الدين وعاد إلى بلده إربل ، وتراجعت التتار إلى بلادها .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الحافظ محمد بن عبد الغنى ﴾

ابن أبى بكر البغدادى ، أبو بكر بن نقطة الحافظ المحدث الفاضل ، صاحب الكتاب النافع المسمى بالتقييد فى تراجم رواة الكتب والمشاهير من المحدثين ، وكان أبوه فقيها فقيراً منقطعاً فى بعض مساجد بغداد ، يؤثر أصحابه بما يحصل له ، ونشأ ولده هذا معنى بعلم الحديث وسماعه والرحلة فيه إلى الآفاق شرقا وغربا ، حتى برز فيه على الأقران ، وفاق أهل ذلك الزمان ، ولد سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وتوفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من صفر من هذه السنة ، رحمهم الله تعالى .

﴿ الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغنى المقدسى ﴾

كان فاضلا كريما حييا ، سمع الكثير ، ثم خالط الملوك وأبناء الدنيا ، فتغيرت أحواله ومات ببستان ابن شكر عند الصالح إسماعيل بن العادل ، وهو الذى كفنه ودفن بسفح قاسيون

﴿ أبو على الحسين بن أبى بكر المبارك ﴾

ابن أبى عبد الله محمد بن يحيى بن مسلم الزبيدى ثم البغدادى ، كان شيخا صالحا حنفياً فاضلا ذافنون كثيرة ، ومن ذلك علم الفرائض والعروض ، وله فيه أرجوزة حسنة ، انتخب منها ابن الساعى من كل بحر بيتين ، وسرد ذلك فى تاريخه .

﴿ أبو الفتح مسعود بن إسماعيل ﴾

ابن على بن موسى السلماسى ، فقيه أديب شاعر ، له تصانيف ، وقد شرح المقامات والجمل فى النحو ، وله خطب وأشعار حسنة رحمه الله تعالى .

﴿ أبو بكر محمد بن عبد الوهاب ﴾

ابن عبد الله الأنصارى فخر الدين ابن الشيرجى الدمشقى ، أحد المعدلين بها ، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وسمع الحديث وكان يلى ديوان الخاتون ست الشام بنت أيوب ، وفوضت إليه أمر أوقافها . قال السبط : وكان ثقة أمينا كيساً متواضعاً . قال وقد وزر ولده شرف الدين للناصر داود مدة يسيرة ، وكانت وفاة فخر الدين فى يوم عيد الأضحى ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله تعالى وعفا عنه .

﴿ حسام بن غزى ﴾

ابن يونس عماد الدين أبو المناقب المحلى المصرى ، ثم الدمشقى ، كان شيخا صالحا فاضلا فقيها شافعيا حسن المحاضرة وله أشعار حسنة . قال أبو شامة : وله فى معجم القوصى ترجمة حسنة ، وذكر أنه توفى عاشر ربيع الآخر ودفن بمقابر الصوفية . قال السبط : وكان مقيما بالمدرسة الأمينية ، وكان لا يأكل لأحد شيئا ولا للسلطان ، بل إذا حضر طعاماً كان معه فى كمه شىء يأكله ، وكان لا يزال معه ألف دينار على وسطه ، وحكى عنه قال : خلع علىَّ الملك العادل ليلة طيلسانا فلما خرجت مشى بين يدى تعاط

يحسبني القاضي ، فلما وصلت باب البريد عند دار سيف خلعت الطيلسان وجعلته في كمي وتباطأت في المشي ، فالتفت فلم ير وراءه أحـدا ، فقال لي : أين القاضي ؟ فأشرت إلى ناحية النورية وقلت : ذهب إلى داره ، فلما أسرع إلى ناحية النورية هرولت إلى المدرسة الأمينية واسترحت منه . قال ابن الساعي كان مولده سنة ستين وخمسمائة ، وخلف أموالا كثيرة ورثتها عصبته ، قال : وكانت له معرفة حسنة بالأخبار والتواريخ وأيام الناس ، مع دين وصلاح وورع ، وأورد له ابن الساعي قطعاً من شعره فمن ذلك قوله :

قيل لي من هويت قد عبث الشـ * ـعر في خديه . قلت ما ذاك عاره

حمرة الخد أحرقت عنبر الخا * ل فمن ذاك الدخان عذاره

وله

شوقي إليكم دون أشواقكم * لكن لا بد أن يشرح

لأنني عن قلبكم غائب * وأنتم في القلب لن تبرحوا

﴿ أبو عبد الله محمد بن علي ﴾

ابن محمد بن الجارود الماراني ، الفقيه الشافعي ، أحد الفضلاء ، ولي القضاء باربل وكان ظريفا خليعا ، وكان من محاسن الأيام ، وله أشعار رائقة ومعان فائقة منها قوله :

مشيب أتى وشباب رحل * أحل العناية حيث حل

وذنبك جم ، ألا فارجعي * وعودي فقد حان وقت الأجل

وديني الالآه ولا تقصري * ولا يخد عنك طول الأمل

﴿ أبو الثناء محمود بن رالي ﴾

ابن علي بن يحيى الطائي الرقي نزيل إربل ، وولي النظر بها للملك مظفر الدين ، وكان شيخا أديباً فاضلا ، ومن شعره قوله :

وأهيف ما الخطي إلا قوامه * وما الغصن إلا ما يثنيه لينه

وما الدعص إلا ما تحمل خصره * وما النبل الا ما تريش جفونه

وما الخمر إلا ما يروق ثغره * وما السحر إلا ما تكن عيونه

وما الحسن إلا كله فمن الذي * إذا ما رآه لا يزيد جنونه

﴿ ابن معطي النحوي يحيى ﴾

ترجمه أبو شامة في السنة الماضية ، وهو أضبط لأنه شهد جنازته بمصر ، وأما ابن الساعي فانه ذكره في هذه السنة ، وقال إنه كان حظياً عند الكامل محمد صاحب مصر ، وإنه كان قد نظم أرجوزة في القراءات السبع ، ونظم ألفاظ الجمهرة ، وكان قد عزم على نظم صحاح الجوهري .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة ﴾

فيها باشر خطابة بغداد ونقابة العباسيين العدل مجد الدين أبو القاسم هبة الله بن المنصورى ، وخلع عليه خلعة سنية ، وكان فاضلا قد صحب الفقراء والصوفية وتزهد برهة من الزمان ، فلما دعى إلى هذا الأمر أجاب سريعاً وأقبلت عليه الدنيا بزهرتها ، وخدمه الغلمان الأتراك ، ولبس لباس المترفين وقد عاتبه بعض تلامـذته بقصيدة طويلة ، وعنفه على ما صار إليه ، وسردها ابن الساعى بطولها فى تاريخه . وفيها سار القاضى محى الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين أبى الفرج فى الرسلية من الخليفة إلى الكامل صاحب مصر ، ومعه كتاب هائل فيه تقليده الملك ، وفيه أوامر كثيرة مليحة من إنشاء الوزير نصر الدين أحمد بن الناقد ، سرده ابن السـاعى أيضا بكماله . وقد كان الكامل مخيما بظاهر آمد من أعمال الجزيرة ، قد افتتحها بعد حصار طويل وهو مسرور بما نال من ملكها . وفيها فتحت دار الضيافة ببغداد للحجيج حين قدموا من حجهم ، وأجريت عليهم النفقات والكساوى والصلات وفيها سارت العساكر المستنصرية صحبة الأمير سيف الدين أبى الفضائل إقبال الخاص المستنصرى إلى مدينة إربل وأعمالها ، وذلك لمرض مالكها مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين ، وأنه ليس له من بعده من يملك البلاد ، فحين وصلها الجيش منعه أهل البلد فحاصروه حتى افتتحوه عنوة فى السابع عشر من شوال فى هذه السنة ، وجاءت البشائر بذلك فضربت الطبول ببغداد بسبب ذلك ، وفرح أهلها ، وكتب التقليد عليها لاقبال المذكور ، فرتب فيها المناصب وسار فيها سيرة جيدة ، وامتدح الشعراء هذا الفتح من حيث هو ، وكذلك مدحوا فاتحها إقبال ، ومن أحسن ما قال بعضهم فى ذلك

يا يوم سابع عشر شوال الذى * رزق السعادة أولا وأخيرا
هنيت فيه بفتح إربل مثلما * هنيت فيه وقد جلست وزيرا

يعنى أن الوزير نصير الدين بن العلقمى ، قد كان وزر فى مثل هذا اليوم من العام الماضى ، وفى مستهل رمضان من هذه السنة شرع فى عمارة دار الحديث الأشرفية بدمشق ، وكانت قبل ذلك دارا للأمير قايماز وبها حمام فهدمت وبنيت عوضها . وقد ذكر السبط فى هذه السنة أن فى ليلة النصف من شعبان فتحت دار الحـديث الأشرفية المجاورة لقلعـة دمشق ، وأملى بها الشيخ تقى الدين بن الصلاح الحديث ، ووقف عليها الأشرف الأوقاف ، وجعل بها نعل النبى ﷺ . قال وسمع الأشرف صحيح البخارى فى هذه السنة على الزبيدى ، قلت : وكذا سمعوا عليه بالدار وبالصالحية . قال : وفيها فتح الكامل آمد وحصن كيفا ووجد عند صاحبها خمسمائة حرة للفراش فعذبه الأشرف عذابا أليما . وفيها قصد صاحب ماردين وجيش بلاد الروم الجزيرة فقتلوا وسبوا وفعلوا مالم يفعله التتار بالمسلمين.

وممن توفى فيها من الأعيان فى هذه السنة من المشاهير .

﴿ أبو القاسم على بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ﴾

كان شيخا لطيفا ظريفا ، سمع الكثير وعمل صناعة الوعظ مدة ، ثم ترك ذلك ، وكان يحفظ شيئا كثيرا من الأخبار والنوادر والأشعار ، ولد سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وكانت وفاته فى هذه السنة وله تسع وسبعون سنة . وقد ذكر السبط وفاة .

﴿ الوزير صفى الدين بن شكر ﴾

فى هذه السنة ، وأثنى عليه وعلى محبته للعلم وأهله ، وأن له مصنفا سماه البصائر ، وأنه تغضب عليه العادل ثم ترضاه الكامل وأعاده إلى وزارته وحرمته ، ودفن بمدرسته المشهورة بمصر ، وذكر أن أصله من قرية يقال لها دميرة بمصر. ﴿ الملك ناصر الدين محمود ﴾

ابن عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن قطب الدين مودود بن عماد الدين بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل ، كان مولده فى سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وقد أقامه بدر الدين لؤلؤ صورة حتى تمكن أمره وقويت شوكته ، ثم حجر عليه فكان لا يصل إلى أحد من الجوارى ولا شئ من السرارى ، حتى لا يعقب ، وضيق عليه فى الطعام والشراب ، فلما توفى جده لأمه مظفر الدين كوكبرى صاحب إربل منعه حينئذ من الطعام والشراب ثلاث عشرة يوما حتى مات كمدا وجوعا وعطشاً رحمه الله ، وكان من أحسن الناس صورة ، وهو آخر ملوك الموصل من بيت الأتابكى .

﴿ القاضى شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم ﴾

أحد مشايخ الحنفية ، وله مصنفات فى الفرائض وغيرها ، وهو ابن خالة القاضى شمس الدين ابن الشيرازى الشافعى ، وكلاهما كان ينوب عن ابن الزكى وابن الحرستانى ، وكان يدرس بالطرخانية . وفيها سكنه ، فلما أرسل إليه المعظم أن يفتى بإباحة نبيذ التمر وماء الرمان امتنع من ذلك وقال أنا على مذهب محمد بن الحسن فى ذلك ، والرواية عن أبى حنيفة شاذة ، ولا يصح حديث ابن مسعود فى ذلك ، ولا الأثر عن عمر أيضا . فغضب عليه المعظم وعزله عن التدريس وولاه لتلميذه الزين ابن العتال ، وأقام الشيخ بمنزله حتى مات .

قال أبو شامة : ومات فى هذه السنة جماعة من السلاطين منهم المغيث بن المغيث بن العادل ، والعز بز عثمان بن العادل ، ومظفر الدين صاحب إربل . قلت أما صاحب إربل فهو :

﴿ الملك المظفر أبو سعيد كوكبرى ﴾

ابن زين الدين على بن تبكتكين أحد الاجواد والسادات الكبراء والملوك الامجاد ، له آثار حسنة وقد عمر الجامع المظفرى بسفح قاسيون ، وكان قدهم بسياقة الماء إليه من ماء بذيرة فمنعه المعظم من ذلك ، واعتل بأنه قد يمر على مقابر المسلمين بالسفوح ، وكان يعمل المولد الشريف فى ربيع الأول

و يحتفل به احتفالا هائلا ، وكان مع ذلك شهما شجاعا فاتكا بطلا عاقلا عالما عادلا رحمه الله وأكرم مثواه . وقد صنف الشيخ أبو الخطاب ابن دحية له مجلدا فى المولد النبوى سماه التنوير فى مولد البشير النذير ، فأجازه على ذلك بألف دينار ، وقد طالت مدته فى الملك فى زمان الدولة الصلاحية ، وقد كان محاصر عكا و إلى هذه السنة محمود السيرة والسريرة ، قال السبط : حكى بعض من حضر سماط المظفر فى بعض الموالد كان يمد فى ذلك السماط خمسة آلاف رأس مشوى ، وعشرة آلاف دجاجة ، ومائة ألف زبدية ، وثلاثين ألف صحن حلوى ، قال : وكان يحضر عنده فى المولد أعيان العلماء والصوفية فيخلع عليهم و يطلق لهم و يعمل للصوفية سماعا من الظهر إلى الفجر ، و يرقص بنفسه معهم ، وكانت له دار ضيافة للوافدين من أى جهة على أى صفة ، وكانت صدقاته فى جميع القرب والطاعات على الحرمين وغيرهما ، و يتفك من الفرنج فى كل سنة خلقا من الأسارى ، حتى قيل إن جملة من استفكه من أيديهم ستون ألف أسير ، قالت زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب ـ وكان قد زوجه إياها أخوها صلاح الدين ، لما كان معه على عكا ـ قالت : كان قميصه لا يساوى خمسة دراهم فعاتبته بذلك فقال : لبسى ثوبا بخمسة وأتصدق بالباقى خير من أن ألبس ثوبا مثمنا وأدع الفقير المسكين ، وكان يصرف على المولد فى كل سنة ثلاثمائة ألف دينار ، وعلى دار الضيافة فى كل سنة مائة ألف دينار . وعلى الحرمين والمياه بدرب الحجاز ثلاثين ألف دينار سوى صدقات السر ، رحمه الله تعالى ، وكانت وفاته بقلعة إربل ، وأوصى أن يحمل إلى مكة فلم يتفق فدفن بمشهد على .

﴿ والملك العزيز بن عثمان بن العادل ﴾

وهو شقيق المعظم ، كان صاحب بانياس وتملك الحصون التى هنالك ، وهو الذى بنى المعظمية ، وكان عاقلا قليل الكلام مطيعاً لأخيه المعظم ، ودفن عنده . وكانت وفاته يوم الاثنين عاشر رمضان ببستانه الناعمة من لهيا رحمه الله وعفا عنه .

﴿ أبو المحاسن محمد بن نصر الدين بن نصر ﴾

ابن الحسين بن على بن محمد بن غالب الأنصارى ، المعروف بابن عنين الشاعر . قال ابن الساعى أصله من الكوفة و ولد بدمشق ونشأ بها ، وسافر عنها سنين ، فجاب الأقطار والبلاد شرقا وغربا ودخل الجزيرة و بلاد الروم والعراق وخراسان وما وراء النهر والهند واليمن والحجاز و بغداد ، ومدح أكثر أهل هذه البلاد ، وحصل أموالا جزيلة ، وكان ظريفا شاعرا مطيقا مشهورا ، حسن الاخلاق جميل المعاشرة ، وقد رجع إلى بلده دمشق فكان بها حتى مات هذه السنة فى قول ابن الساعى ، وأما السبط وغيره فأرخوا وفاته فى سنة ثلاث وثلاثين ، وقد قيل إنه مات فى سنة إحدى وثلاثين والله أعلم . والمشهور أن أصله من حوران مدينة زرع ، وكانت إقامته بدمشق فى الجزيرة قبلى الجامع ،

وكان هجاء له قدرة على ذلك ، وصنف كتابا سماه مقراض الأعراض ، مشتمل على نحو من خمسمائة بيت ، قل من سلم من الدماشقة من شره ، ولا الملك صلاح الدين ولا أخوه العادل ، وقد كان يُزَنّ بترك الصلاة المكتوبة فالله أعلم . وقد نفاه الملك الناصر صلاح الدين إلى الهند فامتدح ملوكها وحصل أموالا جزيلة ، وصار إلى اليمن فيقال إنه وزر لبعض ملوكها ، ثم عاد فى أيام العادل إلى دمشق ولما ملك المعظم استوزره فأساء السيرة واستقال هو من تلقاء نفسه فعزله ، وكان قد كتب إلى الدماشقة من بلاد الهند :

فعلام أبعدتم أخا ثقة * لم يقترف ذنبا ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم * إن كان ينفى كل من صدقا

ومما هجا به الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى :

سلطاننا أعرج وكاتبه * ذو عمش ووزيره أحدب
والدولعى الخطيب معتكف * وهو على قشر بيضة يثب
ولابن باقا وعظ يغش به النـ * ـاس وعبد اللطيف محتسب
وصاحب الامر خلقه شرس * وعارض الجيش داؤه عجب

وقال فى السلطان الملك العادل سيف الدين رحمه الله تعالى وعفا عنه .

إن سلطاننا الذى نرتجيه * واسع المال ضيق الانفاق
هو سيف كما يقال ولكن * قاطع للرسوم والأرزاق

وقد حضر مرة مجلس الفخر الرازى بخراسان وهو على المنبر يعظ الناس ، فجاءت حمامة خلفها جارح فألقت نفسها على الفخر الرازى كالمستجيرة به ، فأنشأ ابن عنين يقول :

جاءت سليمان الزمان حمامة * والموت يلمع من جناحى خاطف
قرم لواه الجوع حتى ظله * بازائه بقلب واجف
من أعلم الورقاء أن محلكم * حرم وأنك ملجأ للخائف

﴿ الشيخ شهاب الدين السهروردى ﴾

صاحب عوارف المعارف ، عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن حمويه ، واسمه عبد الله البكرى البغدادى ، شهاب الدين أبو حفص السهروردى ، شيخ الصوفية ببغداد ، كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين ، وتردد فى الرسلية بين الخلفاء والملوك مرارا ، وحصلت له أموال جزيلة ففرقها بين الفقراء والمحتاجين ، وقد حج مرة وفى صحبته خلق من الفقراء لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، وكانت فيه مروءة وإغاثة للملهوفين ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وكان يعظ الناس

وعليه ثياب البذلة ، قال مرة فى ميعاده هذا البيت وكرره :

ما فى الصحاب أخو وجد تطارحه * إلا محب له فى الركب محبوب

فقام شاب وكان فى المجلس فأنشده :

كأنما يوسف فى كل راحلة * وفى كل بيت منه يعقوب

فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب ليعتذر إليه فلم يجده ووجد مكانه حفرة فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت . وذكر له ابن خلكان أشياء كثيرة من أناشيده وأثنى عليه خيرا ، وأنه توفى فى هذه السنة وله ثلاث وتسعون سنة رحمه الله تعالى .

﴿ ابن الأثير مصنف أسد الغابة والكامل ﴾

هو الامام العلامة عز الدين أبو الحسن على بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى الموصلى المعروف بابن الأثير مصنف كتاب أسد الغابة فى أسماء الصحابة ، وكتاب الكامل فى التاريخ وهو من أحسنها حوادث ، ابتدأه من المبتدأ إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وقد كان يتردد إلى بغداد خصيصاً عند ملوك الموصل ، ووزر لبعضهم كما تقدم بيانه ، وأقام بها فى آخر عمره موقرا معظما إلى أن توفى بها فى شعبان فى هذه السنة ، عن خمس وسبعين سنة رحمه الله . وأما أخوه أبو السعادات المبارك فهو مصنف كتاب جامع الأصول وغيره ، وأخوهما الوزير ضياء الدين أبو الفتح نصر الله كان وزيراً للملك الأفضل على بن الناصر فاتح بيت المقدس ، صاحب دمشق كما تقدم ، وجزيرة ابن عمر ، قيل إنها منسوبة إلى رجل يقال له عبد العزيز بن عمر ، من أهل برقعيد ، وقيل بل هى منسوبة إلى ابنى عمر ، وهما أوس وكامل ابنا عمر بن أوس .

﴿ ابن المستوفى الأربلى ﴾

مبارك بن أحمد بن مبارك ابن موهوب بن غنيمة بن غالب العلامة شرف الدين أبو البركات اللخمى الأربلى ، كان إماما فى علوم كثيرة كالحديث وأسماء الرجال والأدب والحساب ، وله مصنفات كثيرة وفضائل غزيرة ، وقد بسط ترجمته القاضى شمس الدين بن خلكان فى الوفيات ، فأجاد وأفاد رحمهم الله .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة ﴾

فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ولم يبن مدرسة قبلها مثلها ، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيها ، وأربعة معيدين ، ومدرس لكل مذهب ، وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين ، وشيخ طب ، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب ، ومكتب للأيتام وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد . ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها وحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته من

الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء ، ولم يتخلف أحد من هؤلاء ، وعمل سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون ، وحمل منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعوام ، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها ، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين ، وكان يوماً مشهودا ، وأنشدت الشعراء الخليفة المدائح الرائقة والقصائد الفائقة ، وقد ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخه مطولا مبسوطا شافيا كافياً ، وقدر لتدريس الشافعية بها الامام محي الدين أبو عبد الله بن فضلان ، وللحنفية الامام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني ، وللحنابلة الامام العالم محي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي ، ودرس عنه يومئذ ابنه عبد الرحمن نيابة لغيبته في بعض الرسالات إلى الملوك ، ودرس للمالكية يومئذ الشيخ الصالح العالم أبو الحسن المغربي المالكي نيابة أيضاً ، حتى يعين شيخ غيره ، ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها . وكان المتولي لعمارة هذه المدرسة مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي الذي وزر بعد ذلك ، وقد كان إذ ذاك أستاذ دار الخلافة ، وخلع عليه يومئذ وعلى الوزير نصير الدين . ثم عزل مدرس الشافعية في رابع عشر ذي القعدة بقاضي القضاة أبي المعالي عبد الرحمن بن مقبل ، مضافاً إلى ما بيده من القضاء ، وذلك بعد وفاة محيي الدين بن فضلان ، وقد ولي القضاء مدة ودرس بالنظامية وغيرها ، ثم عزل ثم رضي عنه ثم درس آخر وقت بالمستنصرية كما ذكرنا ، فلما توفي وليها بعده ابن مقبل رحمهم الله تعالى .

وفيها عمر الأشرف مسجد جراح ظاهر باب الصغير . وفيها قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج إلى الأشرف ومعه هدايا منها دب أبيض شعره مثل شعر الأسد ، وذكروا أنه ينزل إلى البحر فيخرج السمك فيأكله . وفيها طاووس أبيض أيضاً . وفيها كملت عمارة القيسارية التي هي قبل النحاسين ، وحول إليها سوق الصاغة وشغر سوق اللؤلؤ الذي كان فيه الصاغة العتيقة عند الحدادين . وفيها جددت الدكاكين التي بالزيادة . قلت وقد جددت شرقي هذه الصاغة الجديدة قيساريتان في زماننا ، وسكنها الصياغ وتجار الذهب ، وهما حسنتان وجميعهما وقف الجامع المعمور .

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان .

﴿ أبو الحسن علي بن أبي علي ﴾

ابن محمد بن سالم الثعلبي ، الشيخ سيف الدين الآمدي ، ثم الحموي ثم الدمشقي ، صاحب المصنفات في الأصلين وغير ذلك ، من ذلك أبكار الأفكار في الكلام ، ودقائق الحقائق في الحكمة ، وأحكام الأحكام في أصول الفقه ، وكان حنبلي المذهب فصار شافعيا أصوليا منطقيا جدليا خلافيا ، وكان حسن الأخلاق سليم الصدر كثير البكاء رقيق القلب ، وقد تكلموا فيه بأشياء الله أعلم

بصحتها ، والذى يغلب على الظن أنه ليس لغالبها صحة ، وقد كانت ملوك بنى أيوب كالمعظم والكامل يكرمونه وإن كانوا لا يحبونه كثيرا ، وقد فوض إليه المعظم تدريس العزيزية ، فلما ولى الأشرف دمشق عزله عنها ونادى بالمدارس أن لا يشتغل أحد بغير التفسير والحديث والفقه ، ومن اشتغل بعلوم الأوائل نفيته ، فأقام الشيخ سيف الدين بمنزله إلى أن توفى بدمشق فى هذه السنة فى صفر ، ودفن بتربته بسفح قاسيون . وذكر القاضى ابن خلكان أنه اشتغل ببغداد على أبى الفتح نصر بن فتيان بن المنى الحنبلى ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعى فأخذ عن ابن فضلان وغيره ، وحفظ طريقة الخلاف للشريف وزوائد طريقة أسعد الميهنى ، ثم انتقل إلى الشام واشتغل بعلوم المعقول ، ثم إلى الديار المصرية فأعاد بمدرسة الشافعية بالقرافة الصغرى ، وتصدر بالجامع الظافرى ، واشتهر فضله وانتشرت فضائله ، فحسده أقوام فسعوا فيه وكتبوا خطوطهم باتهامه بمذهب الأوائل والتعطيل والانحلال ، فطلبوا من بعضهم أن يوافقهم فكتب :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه * فالقوم أعداء له وخصوم

فانتقل سيف الدين إلى حماه ثم تحول إلى دمشق فدرس بالعزيزية ، ثم عزل عنها ولزم بيته إلى أن مات فى هذه السنة ، وله ثمانون عاماً رحمه الله تعالى وعفا عنه .

﴿ واقف الركنية الأمير الكبير ركن الدين منكورس الفلكى ﴾

غلام فلك الدين أخى الملك العادل ، لأنه وقف الفلكية كما تقدم ، وكان هذا الرجل من خيار الأمراء ، ينزل فى كل ليلة وقت السحر إلى الجامع وحده بطوافه ويواظب على حضور الصلوات فيه مع الجماعة ، وكان قليل الكلام كثير الصدقات ، وقد بنى المدرسة الركنية بسفح قاسيون ، ووقف عليها أوقافا كثيرة وعمل عندها تربة ، وحين توفى بقرية حدود حمل إليها رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ الامام العالم رضى الدين ﴾

أبو سليمان بن المظفر بن غنائم الجيلى الشافعى ، أحد فقهاء بغداد والمفتيين بها والمشغلين للطلبة مدة طويلة ، له كتاب فى المذهب نحو من خمسة عشر مجلدا ، يحكى فيه الوجوه الغريبة والاقوال المستغربة وكان لطيفا ظريفا ، توفى رحمه الله يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول من هذه السنة ببغداد .

﴿ الشيخ طى المصرى ﴾

أقام مدة بالشام فى زاوية له بدمشق ، وكان لطيفا كيسا زاهداً ، يتردد إليه الأكابر ودفن بزاويته المذكورة رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ عبد الله الأرمنى ﴾

أحد العباد الزهاد الذين جابوا البلاد وسكنوا البرارى والجبال والوهاد ، واجتمعوا بالأقطاب

والأبدال والأوتاد ، وممن كانت له الأحوال والمكاشفات والمجاهدات والسياحات فى سائر النواحى والجهات ، وقد قرأ القرآن فى بدايته وحفظ كتاب القدورى على مذهب أبى حنيفة ، ثم اشتغل بالمعاملات والرياضات ، ثم أقام آخر عمره بدمشق حتى مات بها ودفن بسفح قاسيون ، وقد حكى عنه أشياء حسنة منها أنه قال اجتزت مرة فى السياحة ببلدة فطالبتنى نفسى بدخولها فآليت أن لا أستطعم منها بطعام ، ودخلتها فمررت برجل غسال فنظر إلى شزرا فخفت منه وخرجت من البلد هاربا ، فلحقنى ومعه طعام فقال : كل فقد خرجت من البلد ، فقلت له وأنت فى هذا المقام وتغسل الثياب فى الأسواق ؟ فقال : لا ترفع رأسك ولا تنظر إلى شىء من عملك ، وكن عبداً لله فان استعملك فى الحش فارض به ، ثم قال رحمه الله .

ولو قيل لى مت قلت سمعا وطاعة * وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا

وقال اجتزت مرة فى سيا حتى براهب فى صومعة فقال لى : يا مسلم ما أقرب الطرق عندكم إلى الله عز وجل ؟ قلت : مخالفة النفس ، قال فرد رأسه إلى صومعته ، فلما كنت بمكة زمن الحج إذا رجل يسلم على عند الكعبة فقلت من أنت ؟ فقال أنا الراهب ، قلت : بم وصلت إلى هاهنا ؟ قال بالذى قلت . وفى رواية عرضت الاسلام على نفسى فأبت ، فعلمت أنه حق فأسلمت وخالفتها ، فأفلح وأنجح . وقال بينا أنا ذات يوم بجبل لبنان إذا حرامية الفرنج فأخذونى فقيدونى وشدوا وثاقى فكنت عندهم فى أضيق حال ، فلما كان النهار شربوا وناموا ، فبينا أنا موثوق إذا حرامية المسلمين قد أقبلوا نحوهم فأنبهتهم فلجأوا إلى مغارة هنالك فسلموا من أولئك المسلمين ، فقالوا : كيف فعلت هذا وقد كان خلاصك على أيديهم ؟ فقلت إنكم أطعمتمونى فكان من حق الصحبة أن لا أغشكم ، فعرضوا على شيئا من متاع الدنيا فأبيت وأطلقونى . وحكى السبط قال : زرته مرة ببيت المقدس وكنت قد أكلت سمكا مالحاً ، فلما جلست عنده أخذنى عطش جدا وإلى جانبه إبريق فيه ماء بارد فجعلت أستحيى منه ، فمد يده إلى الابريق وقد احمر وجهه وناولنى وقال خذ ، كم تتكاسر ، فشربت . وذكر أنه لما ارتحل من بيت المقدس كان سورها بعد قائما جديدا على عمارة الملك صلاح الدين قبل أن يخربه المعظم ، فوقف لأصحابه يودعهم ونظر إلى السور ، وقال : كأنى بالمعاول وهى تعمل فى هذا السور عما قريب ، فقيل له معاول المسلمين أو الفرنج ؟ فقال بل معاول المسلمين ، فكان كما قال . وقد ذكرت له أحوال كثيرة حسنة ، ويقال إن أصله أرمنى وإنه أسلم على يدى الشيخ عبد الله اليونينى ، وقيل بل أصله رومى من قونية ، وأنه قدم على الشيخ عبد الله اليونينى وعليه برنس كبرانس الرهبان ، فقال له أسلم فقال أسلمت لرب العالمين . وقد كانت أمه داية امرأة الخليفة ، وقد جرت له كائنة غريبة فسلمه الله بسبب ذلك ، وعرفه الخليفة فأطلقه .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ﴾

فيها خرب الملك الأشرف بن العادل خان الزنجاري الذى كان بالعقيبة فيه خواطئ وخمور ومنكرات متعددة ، فهدمه وأمر بعمارة جامع مكانه سمى جامع التوبة ، تقبل الله تعالى منه .

وفيها توفى القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد الحلبى ، أحد رؤسائها من بيت العلم والسيادة ، له علم بالتواريخ وأيام الناس وغير ذلك ، وقد سمع الكثير وحدث ، والشيخ شهاب الدين عبد السلام بن المطهر بن عبد الله بن محمد بن عصرون الحلبى أيضاً ، كان فقيها زاهدا عابداً كانت له نحو من عشرين سرية ، وكان شيخا يكثر من الجماع ، فاعترته أمراض مختلفة فأتلفته ومات بدمشق ودفن بقاسيون ، وهو والد قطب الدين وتاج الدين ، والشيخ الامام العالم صائن الدين أبو محمد عبد العزيز الجيلى الشافعى أحد الفقهاء المفتيين المشتغلين بالمدرسة النظامية ببغداد ، وله شرح على التنبيه للشيخ أبى إسحاق ، توفى فى ربيع الأول رحمه الله تعالى . والشيخ الامام العالم الخطيب الأديب أبو محمد حمد بن حميد بن محمود بن حميد بن أبى الحسن بن أبى الفرج بن مفتاح التميمى الدينورى ، الخطيب بها والمفتى لأهلها ، الفقيه الشافعى ، تفقه ببغداد بالنظامية ، ثم عاد إلى بلده المشار إليها ، وقد صنف كتبا . وأنشد عنه ابن الساعى سماعا منه :

روت لى أحاديث الغرام صبابتى * باسنادها عن بانة العلم الفرد
وحدثنى مر النسيم عن الحمى * عن الدوح عن وادى الغضا عن ربا نجد
بان غرامى والأسى قد تلازما * فلن يبرحا حتى أوسد فى لحدى

وقد أرخ أبو شامة فى الذيل وفاة الشهاب السهروردى صاحب عوارف المعارف فى هذه السنة ، وذكر أن مولده فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وأنه جاوز التسعين . وأما السبط فانما أرخ وفاته فى سنة ثلاثين كما تقدم .

﴿ قاضى القضاة بحلب ﴾

أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد الأسدى الموصلى الشافعى ، كان رجلا فاضلا أديباً مقرئا ذا وجاهة عند الملوك ، أقام بحلب وولى القضاء بها ، وله تصانيف وشعر ، توفى فى هذه السنة رحمه الله تعالى .

﴿ ابن الفارض ﴾

ناظم التائية فى السلوك على طريقة المتصوفة المنسوبين إلى الاتحاد ، هو أبو حفص عمر بن أبى الحسن على بن المرشد بن على ، الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار والوفاة ، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال ، وقد تكلم فيه غير واحد من مشايخنا بسبب قصيدته المشار إليها ، وقد ذكره شيخنا أبو عبد الله الذهبى فى ميزانه وحط عليه . مات فى هذه السنة وقد قارب السبعين .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ﴾

فيها قطع الكامل وأخوه الأشرف الفرات وأصلحا ما كان أفسده جيش الروم من بلادهما ، وخرب الكامل قلعة الرها وأحل بدنيسر بأساً شديدا ، وجاء كتاب بدر الدين صاحب الموصل بأن الروم أقبلوا بمائة طلب كل طلب بخمسمائة فارس، فرجع الملكان إلى دمشق سريعاً وعاد جيش الروم إلى بلادهما بالجزيرة وأعادوا الحصار كما كان ، ورجعت التتار عامهم ذلك إلى بلادهم والله تعالى أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان والمشاهير ابن عنين الشاعر وقد تقدمت ترجمته فى سنة ثلاثين .

﴿ الحاجرى الشاعر ﴾

صاحب الديوان المشهور ، وهو عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمارتكين بن طاشتكين الأربلى شاعر مطبق ، ترجمه ابن خلكان وذكر أشياء من شعره كثيرة ، وذكر أنه كان صاحبهم وأنه كتب إلى أخيه ضياء الدين عيسى يستوحش منه :

الله يعلم ما أبقى سوى رمق * منى فراقك يا من قربه الأمل
فابعث كتابك واستودعه تعزية * فربما مت شوقا قبل ما يصل

وذكر له فى الخال رحمه الله تعالى .

ومهفهف من شعره وجبينه * أمسى الورى فى ظلمة وضياء
لا تنكروا الخال الذى فى خده * كل الشقيق بنقطة سوداء

﴿ ابن دحية ﴾

أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن محمد بن فرج بن خلف بن قومس بن مزلال بن بلال بن بدر بن أحمد بن دحية بن خليفة الكلبى الحافظ ، شيخ الديار المصرية فى الحديث ، وهو أول من باشر مشيخة دار الحديث الكاملية بها ، قال السبط : وقد كان كابن عنين فى ثلب المسلمين والوقيعة فيهم ، ويتزيد فى كلامه فترك الناس الرواية عنه وكذبوه ، وقد كان الكامل مقبلا عليه ، فلما انكشف له حاله أخذ منه دار الحديث وأهانه ، توفى فى ربيع الأول بالقاهرة ودفن بقرافة مصر ، وقد قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة : وللشيخ السخاوى فيه أبيات حسنة . وقال القاضى ابن خلكان بعد سياق نسبه كما تقدم ، وذكر أنه كتبه من خطه ، قال وذكر أن أمه أمة الرحمن بنت أبى عبد الله بن البسام موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، فلهذا كان يكتب بخطه ذو النسبين ابن دحية ابن الحسن والحسين قال ابن خلكان : وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث وما يتعلق به ، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها ، اشتغل ببلاد المغرب ثم رحل إلى الشام ثم

إلى العراق واجتاز باربل سنة أربع وستمائة ، فوجد ملكها المعظم مظفر الدين بن زين الدين يعتنى بالمولد النبوى ، فعمل له كتاب التنوير فى مولد السراج المنير وقرأه عليه بنفسه ، فأجازه بألف دينار ، قال وقد سمعناه على الملك المعظم فى ستة مجالس فى سنة ست وعشرين وستمائة . قلت وقد وقفت على هذا الكتاب وكتبت منه أشياء حسنة مفيدة . قال ابن خلكان : وكان مولده فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وقيل ست أو تسع وأربعين وخمسمائة ، وتوفى فى هذه السنة ، وكان أخوه أبو عمرو عثمان قد باشر بعده دار الحديث الكاملية بمصر ، وتوفى بعده بسنة . قلت : وقد تكلم الناس فيه بأنواع من الكلام ، ونسبه بعضهم إلى وضع حديث فى قصر صلاة المغرب ، وكنت أود أن أقف على إسناده لنعلم كيف رجاله ، وقد أجمع العلماء كما ذكره ابن المنذر وغيره على أن المغرب لا يقصر ، والله سبحانه وتعالى يتجاوز عنا وعنه بمنه وكرمه .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة ﴾

فيها حاصرت التتار إربل بالمجانيق ونقبوا الأسوار حتى فتحوها عنوة فقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم ، وامتنعت عليهم القلعة مدة ، وفيها النائب من جهة الخليفة ، فدخل فصل الشتاء فأقلعوا عنها وانشمروا إلى بلادهم ، وقيل إن الخليفة جهز لهم جيشاً فانهزم التتار . وفيها استخدم الصالح أيوب بن الكامل صاحب حصن كيفا الخوارزمية الذين تبقوا من جيش جلال الدين وانفصلوا عن الرومى ، فقوى جأش الصالح أيوب . وفيها طلب الأشرف موسى بن العادل من أخيه الكامل الرقة لتكون قوة له وعلفا لدوابه إذا جاز الفرات مع أخيه فى البواكير ، فقال الكامل : أما يكفيه أن معه دمشق مملكة بنى أمية ؟ فأرسل الأشرف الأمير فلك الدين بن المسيرى إلى الكامل فى ذلك ، فأغلظ له الجواب ، وقال : إيش يعمل بالملك ؟ يكفيه عشرته للمغانى وتعلمه لصناعتهم . فغضب الأشرف لذلك وبدت الوحشة بينهما ، وأرسل الأشرف إلى حماه وحلب وبلاد الشرق فحالف أولئك الملوك على أخيه الكامل ، فلو طال عمر الأشرف لأفسد الملك على أخيه ، وذلك لكثرة ميل الملوك إليه لكرمه وشجاعته وشح أخيه الكامل ، ولكنه أدركته منيته فى أول السنة الداخلة رحمه الله تعالى .

ومما توفى فيها من الأعيان ﴿ الملك العزيز الظاهر ﴾

صاحب حلب محمد بن السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازى بن الملك الناصر صلاح الدين فاتح القدس الشريف ، وهو وأبوه وابنه الناصر أصحاب ملك حلب من أيام الناصر ، وكانت أم العزيز الخاتون بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وكان حسن الصورة كريماً عفيفا ، توفى وله من العمر أربع وعشرون سنة ، وكان مدبر دولته الطواشى شهاب الدين ، وكان من الأمراء رحمه الله

تعالى . وقام فى الملك بعده ولده الناصر صلاح الدين يوسف ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ صاحب الروم ﴾

كيقباد الملك علاء الدين صاحب بلاد الروم ، كان من أكابر الملوك وأحسنهم سيرة ، وقد زوجه العادل ابنته وأولدها ، وقد استولى على بلاد الجزيرة فى وقت وأخذ أكثرها من يد الكامل محمد ، وكسر الخوارزمية مع الأشرف موسى رحمهما الله .

﴿ الناصح الحنبلى ﴾

فى ثالث المحرم توفى الشيخ ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن الشيخ أبى الفرج الشيرازى ، وهم ينتسبون إلى سعد بن عبادة رضى الله عنه ، ولد الناصح سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وقرأ القرآن وسمع الحديث ، وكان يعظ فى بعض الأحيان . وقد ذكرنا قبل أنه وعظ فى حياة الشيخ الحافظ عبد الغنى ، وهو أول من درس بالصالحية التى بالجبل ، وله بنيت ، وله مصنفات . وقد اشتغل على ابن المنى البغدادى ، وكان فاضلا صالحا ، وكانت وفاته بالصالحية ودفن هناك رحمه الله .

﴿ الكمال بن المهاجر ﴾

التاجر كان كثير الصدقات والاحسان إلى الناس ، مات فجأة فى جمادى الأولى بدمشق فدفن بقاسيون ، واستحوذ الأشرف على أمواله ، فبلغت التركة قريبا من ثلثمائة ألف دينار ، من ذلك سبحة فيها مائة حبة لؤلؤ ، كل واحدة مثل بيضة الحمامة .

﴿ الشيخ الحافظ أبو عمرو عثمان بن دحية ﴾

أخو الحافظ أبى الخطاب بن دحية ، كان قد ولى دار الحديث الكاملية حين عزل أخوه عنها ، حتى توفى فى عامه هذا ، وكان ندر فى صناعة الحديث أيضاً رحمه الله تعالى .

﴿ القاضى عبد الرحمن التكريتى ﴾

الحاكم بالكرك ، ومدرس مدرسة الزبدانى ، فلما أخذت أوقافها سار إلى القدس ثم إلى دمشق ، فكان ينوب بها عن القضاة ، وكان فاضلا نزهاً عفيفا دينا رحمه الله تعالى ورضى عنه .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ﴾

فيها كانت وفاة الأشرف ثم أخوه الكامل ، أما الأشرف موسى بن العادل بانى دار الحديث الأشرفية وجامع التوبة وجامع جراح ، فانه توفى فى يوم الخميس رابع المحرم من هذه السنة ، بالقلعة المنصورة ، ودفن بها حتى نجزت تربته التى بنيت له شمالى الكلاسة ، ثم حول إليها رحمه الله تعالى ، فى جمادى الأولى ، وقد كان ابتداء مرضه فى رجب من السنة الماضية ، واختلفت عليه الأدواء حتى كان الجرائحى يخرج العظام من رأسه وهو يسبح الله عز وجل ، فلما كان آخر السنة تزايد به المرض

واعتراه إسهال مفرط فخارت قوته فشرع فى التهيء للقاء الله عز وجل ، فأعتق مائتى غلام وجارية ، ووقف دار فروخشاه التى يقال لها دار السعادة ، و بستانه بالنيرب على ابنيه، وتصدق بأموال جزيلة ، وأحضر له كفنا كان قد أعده من ملابس الفقراء والمشايخ الذين لقيهم من الصالحين . وقد كان رحمه الله تعالى شهما شجاعا كريما جوادا لأهل العلم ، لا سيما أهل الحديث ، ومقار بيته الصالحة ، وقد بنى لهم دار حديث بالسفح و بالمدينة للشافعية أخرى ، وجعل فيها نعل النبى ﷺ الذى ما زال حريصاً على طلبه من النظام ابن أبى الحديد التاجر ، وقد كان النظام ضنينا به فعزم الأشرف أن يأخذ منه قطعة ، ثم ترك ذلك خوفا من أن يذهب بالكلية ، فقدر الله موت ابن أبى الحديد بدمشق فأوصى للملك الأشرف به ، فجعله الأشرف بدار الحديث ، ونقل إليها كتبا سنية نفيسة ، و بنى جامع التوبة بالعقيبة ، وقد كان خانا للزنجارى فيه من المنكرات شىء كثير ، و بنى مسجد القصب وجامع جراح ومسجد دار السعادة ، وقد كان مولده فى سنة ست وسبعين وخمسمائة ، ونشأ بالقدس الشريف بكفالة الأمير فخر الدين عثمان الزنجارى ، وكان أبوه يحبه ، وكذلك أخوه المعظم ثم استنابه أبوه على مدن كثيرة بالجزيرة منها الرها وحران ، ثم اتسعت مملكته حين ملك خلاط ، وكان من أعف الناس وأحسنهم سيرة وسريرة ، لايعرف غير نسائه وسراريه، مع أنه قد كان يعانى الشراب ، وهذا من أعجب الأمور . حكى السبط عنه قال : كنت يوما بهذه المنظرة من خلاط إذ دخل الخادم فقال : بالباب امرأة تستأذن ، فدخلت فاذا صورة لم أر أحسن منها ، و إذا هى ابنة الملك الذى كان بخلاط قبلى ، فذكرت أن الحاجب علىّ قد استحوذ على قرية لها ، وأنها قد احتاجت إلى بيوت الكرى ، وأنها إنما تتقوت من عمل النقوش للنساء ، فأمرت بردضيعتها إليها وأمرت لها بدار تسكنها ، وقدكنت قمت لها حين دخلت وأجلستها بين يدى وأمرتها بستر وجهها حين أسفرت عنه ، ومعها عجوز ، فحين قضت شغلها قلت لها انهضى على اسم الله تعالى ، فقالت العجوز : ياخوند إنما جاءت لتحظى بخدمتك هذه الليلة ، فقلت : معاذ الله لا يكون هذا، واستحضرت فى ذهنى ابنتى ربما يصيبها نظير ما أصاب هذه ، فقامت وهى تقول بالأرمنى : سترك الله مثل ماسترتنى ، وقلت لها : مهما كان من حاجة فانهيها إلى أقضها لك ، فدعت لى وانصرفت ، فقالت لى نفسى : فى الحلال مندوحة عن الحرام ، فتزوجها ، فقلت : لا والله لاكان هذا أبدا، أين الحياء والكرم والمروءة ؟ قال : ومات مملوك من مماليكى وترك ولداً ليس يكون فى الناس بتلك البلاد أحسن شبابا ، ولا أحلى شكلا منه ، فأحببته وقربته ، وكان من لا يفهم أمرى يتهمنى به ، فاتفق أنه عدا على إنسان فضربه حتى قتله ، فاشتكى عليه إلى أولياء المقتول ، فقلت اثبتوا أنه قتله ، فأثبتوا ذلك فحاجفت عنه مماليكى وأرادوا إرضاءهم بعشر ديات فلم يقبلوا ، ووقفوا لى فى الطريق وقالوا قد أثبتنا أنه قتله ، فقلت

خذوه فتسلموه فقتلوه ، ولو طلبوا منى ملكى فداء له لدفعته إليهم ، ولكن استحيت من الله أن أعارض شرعه بحظ نفسى رحمه الله تعالى وعفا عنه .

ولما ملك دمشق فى سنة ست وعشرين وستمائة نادى مناديه فيها أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه ، ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الأوائل نفى من البلد. وكان البلد به فى غاية الامن والعدل ، وكثرة الصدقات والخيرات ، كانت القلعة لا تغلق فى ليالى رمضان كلها ، وصحون الحلاوات خارجة منها إلى الجامع والخوانق والربط ، والصالحية و إلى الصالحين والفقراء والرؤساء وغيرهم ، وكان أكثر جلوسه بمسجد أبى الدرداء الذى جدده و زخرفه بالقلعة، وكان ميمون النقيبة ما كسرت له راية قط ، وقد استدعى الزبيدى من بغداد حتى سمع هو والناس عليه صحيح البخارى وغيره ، وكان له ميل إلى الحديث وأهله ، ولما توفى رحمه الله رآه بعض الناس وعليه ثياب خضر وهو يطير مع جماعة من الصالحين ، فقال : ما هذا وقد كنت تمانى الشراب فى الدنيا ؟ فقال ذاك البدن الذى كنا نفعل به ذاك عندكم ، وهذه الروح التى كنا نحب بها هؤلاء فهى معهم ، ولقد صدق رحمه الله ،قال رسول الله ﷺ « المرء مع من أحب » وقد كان أوصى بالملك من بعده لأخيه الصالح إسماعيل ، فلما توفى أخوه ركب فى أبهة الملك ومشى الناس بين يديه ، و ركب إلى جانبه صاحب حمص وعز الدين أيبك المعظمى حامل الغاشية على رأسه ، ثم إنه صادر جماعة من الدماشقة الذين قيل عنهم إنهم مع الكامل ،منهم العالم تعاسيف وأولاد ابن مزهر وحبسهم ببصرى ، وأطلق الحريرى من قلعة عزاز ، وشرط عليه أن لا يدخل دمشق ، ثم قدم الكامل من مصر وانضاف اليه الناصر داود صاحب الكرك ونابلس والقدس ، فحاصروا دمشق حصاراً شديداً ، وقد حصنها الصالح إسماعيل ، وقطع المياه ورد الكامل ماء بردى إلى ثورا ، وأحرقت العقيبة وقصر حجاج ، فافتقر خلق كثير واحترق آخرون ، وجرت خطوب طويلة ، ثم آل الحال فى آخر جمادى الأولى إلى أن سلم الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل ، على أن له بعلبك و بصرى ، وسكن الامر، وكان الصلح بينهما على يدى القاضى محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، اتفق أنه كان بدمشق قد قدم فى رسلية من جهة الخليفة إلى دمشق فجزاه الله تعالى خيراً . ودخل الكامل دمشق وأطلق الفلك بن المسيرى من سجن الحيات بالقلعة الذى كان أودعه فيه الأشرف ، ونقل الأشرف إلى تربته ، وأمر الكامل فى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة أئمة الجامع أن لا يصلى أحد منهم المغرب سوى الامام الكبير ، لما كان يقع من التشويش والاختلاف بسبب اجتماعهم فى وقت واحد ، ولنعم ما فعل رحمه الله . وقد فعل هذا فى زماننا فى صلاة التراويح ، اجتمع الناس على قارىء واحد وهو الامام الكبير فى المحراب المقدم عند المنبر ، ولم يبق به إمام يومئذ سوى الذى بالحلبية عند مشهد على

ولو ترك لكان حسناً والله أعلم . ﴿ ذكر وفاة الملك الكامل ﴾

محمد بن العادل رحمه الله تعالى . تملك الكامل مدة شهرين ثم أخذه أمراض مختلفة ، من ذلك سعال و إسهال ونزلة فى حلقه ، ونقرس فى رجليه ، فاتفق موته فى بيت صغير من دار القصبة ، وهو البيت الذى توفى فيه عمه الملك الناصر صلاح الدين ، ولم يكن عند الكامل أحد عند موته من شدة هيبته ، بل دخلوا فوجدوه ميتاً رحمه الله تعالى .وقد كان مولده فى سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وكان أكبر أولاد العادل بعد مودود ، و إليه أوصى العادل لعلمه بشأنه وكمال عقله ، وتوفر معرفته ، وقدكان جيد الفهم يحب العلماء ، و يسألهم أسئلة مشكلة ، وله كلام جيد على صحيح مسلم ، وكان ذكياً مهيباً ذا بأس شديد ، عادل منصف له حرمة وافرة ، وسطوة قوية ، ملك مصر ثلاثين سنة ، وكانت الطرقات فى زمانه آمنة ، والرعايا متناصفة ، لا يتجاسر أحد أن يظلم أحدا ، شنق جماعة من الأجناد أخذوا شعيراً لبعض الفلاحين بأرض آمد ، واشتكى إليه بعض الركبدارية أن أستاذه استعمله ستة أشهر بلا أجرة ، فأحضر الجندى وألبسه قباب الركبدارية ،وألبس الركبدارى ثياب الجندى،وأمر الجندى أن يخدم الركبدار ستة أشهر على هذه الهيئة ، و يحضر الركبدار الموكب والخدمة حتى ينقضى الأجل فتأدب الناس بذلك غاية الأدب . وكانت له اليد البيضاء فى رد ثغر دمياط إلى المسلمين بعد أن استحوذ عليه الفرنج لعنهم الله ، فرابطهم أربع سنين حتى استنقذه منهم ، وكان يوم أخذه له واسترجاعه إياه يوماً مشهوداً ، كما ذكرنا مفصلا رحمه الله تعالى . وكانت وفاته فى ليلة الخميس الثانى والعشرين من رجب من هذه السنة ، ودفن بالقلعة حتى كملت تربته التى بالحائط الشمالى من الجامع ذات الشباك الذى هناك قريباً من مقصورة ابن سنان ، وهى الكندية التى عند الحلبية ، نقل إليها ليلة الجمعة الحادى والعشرين من رمضان من هذه السنة ، ومن شعره يستحث أخاه الأشرف من بلاد الجزيرة حين كان محاصراً بدمياط :

يا مسعفى إن كنت حقا مسعفى * فارحل بغير تقيد وتوقف
واطو المنازل والديار ولاتنخ * إلا على باب المليك الأشرف
قبل يديه لاعدمت وقل له * عنى بحسن تعطف وتلطف
إن مات صنوك عن قريب تلقه * ما بين حد مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه * يوم القيامة فى عراص الموقف

﴿ ذكر ما جرى بعده ﴾

كان قد عهد لولده العادل وكان صغيراً بالديار المصرية ، و بالبلاد الدمشقية ، ولولده الصالح أيوب ببلاد الجزيرة ، فأمضى الأمراء ذلك ، فأما دمشق فاختلف الأمراء بها فى الملك الناصر داود بن

المعظم، والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن الملك العادل، فكان ميل عماد الدين ابن الشيخ إلى الجواد، وآخرون إلى الناصر، وكان نازلا بدار أسامة، فانتظم أمر الجواد وجاءت الرسالة إلى الناصر أن اخرج من البلد، فركب من دار أسامة والعامة وراءه إلى القلعة لايشكون فى ولايته الملك، فسلك نحو القلعة فلما جاوز العمادية عطف برأس فرسه نحو باب الفرج، فصرخت العامة: لالالا، فسار حتى نزل القابون عند وطأة برزة. فعزم بعض الأمراء الأشرفية على مسكه، فساق فبات بقصر أم حكيم، وساقوا وراءه فتقدم إلى عجلون فتحصن بها وأمن.

﴿ وأما الجواد ﴾

فانه ركب فى أبهة الملك وأنفق الأموال والخلع على الأمراء قال السبط: فرق ستة آلاف ألف دينار وخمسة آلاف خلعة، وأبطل المكوس والخمور، ونفى الخواطئ واستقر ملكه بدمشق، واجتمع عليه الأمراء الشاميون والمصريون، ورحل الناصر داود من عجلون نحو غزة و بلاد الساحل فاستحوذ عليها، فركب الجواد فى طلبه ومعه العساكر الشامية والمصرية، وقال للأشرفية كاتبوه وأطمعوه، فلما وصلت إليه كتبهم طمع فى موافقتهم، فرجع فى سبعمائة راكب إلى نابلس، فقصده الجواد وهو نازل على جيتين، والناصر على سبسطية، فهرب منه الناصر فاستحوذوا على حواصله وأثقاله، فاستغنوا بها وافتقر بسببها فقراً مدقعاً، ورجع الناصر إلى الكرك جريدة قد سلب أمواله وأثقاله، وعاد الجواد إلى دمشق مؤيدا منصوراً.

وفيها اختلفت الخوارزمية على الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل صاحب كيفا، وتلك النواحى، وعزموا على القبض عليه، فهرب منهم ونهبوا أمواله وأثقاله، ولجأ إلى سنجار فقصده بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليحاصره ويأخذه فى قفص إلى الخليفة، وكان أهل تلك الناحية يكرهون مجاورته لتكبره وقوة سطوته، فلم يبق إلى أخذه إلا القليل، فكاتب الخوارزمية واستنجد بهم ووعدهم بأشياء كثيرة، فقدموا إليه جرائد ليمنعوه من البدر لؤلؤ، فلما أحس بهم لؤلؤ هرب منهم فاستحوذوا على أمواله وأثقاله، فوجدوا فيها شيئا كثيرا لا يحد ولا يوصف، ورجع إلى بلده الموصل جريدة خائبا، وسلم الصالح أيوب مما كان فيه من الشدة.

ومن توفى فيها من الأعيان: ﴿ محمد بن زيد ﴾

ابن ياسين الخطيب جمال الدين الدولعى، نسبة إلى قرية بأصل الموصل، وقد ذكرنا ذلك عند ترجمة عمه عبد الملك بن ياسين الخطيب بدمشق أيضاً، وكان مدرساً بالغزالية مع الخطابة، وقد منعه المعظم فى وقت عن الافتاء، فعاتبه السبط فى ذلك، فاعتذر بأن شيوخ بلده هم الذين أشاروا عليه بذلك، لكثرة خطئه فى فتاويه، وقد كان شديد المواظبة على الوظيفة حتى كاد أن لا يفارق بيت

الخطابة، ولم يحج قط مع أنه كانت له أموال جزيلة، وقف مدرسة بجيرون وسبعا فى الجامع . ولما توفى ودفن بمدرسته التى بجيرون ولى الخطابة بعده أخ له وكان جاهلا ، ولم يستقر فيها وتولاها الكمال بن عمر بن أحمد بن هبة الله بن طلحة النصيبى ، وولى تدريس الغزالية الشيخ عبدالعزيز بن عبد السلام

﴿ محمد بن هبة الله بن جميل ﴾

الشيخ أبو نصر بن الشيرازى ، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وسمع الكثير على الحافظ ابن عساكر وغيره ، واشتغل فى الفقه وأفتى ودرس بالشامية البرانية ، وناب فى الحكم عدة سنين ، وكان فقيها عالما فاضلا ذكيا حسن الأخلاق عارفا بالأخبار وأيام العرب والأشعار ، كريم الطباع حميد الآثار ، وكانت وفاته يوم الخميس الثالث من جمادى الآخرة ، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى .

﴿ القاضى شمس الدين يحيى بن بركات ﴾

ابن هبة الله بن الحسن الدمشقى قاضيها بن سنا الدولة ، كان عالما عفيفا فاضلا عادلا منصفا نزها كان الملك الأشرف يقول : ما ولى دمشق مثله ، وقد ولى الحكم ببلده المقدس وناب بدمشق عن القضاة ، ثم استقل بالحكم ، وكانت وفاته يوم الأحد السادس ذى القعدة ، وصلى عليه بالجامع ودفن بقاسيون ، وتأسف الناس عليه رحمه الله تعالى . وتوفى بعده .

﴿ الشيخ شمس الدين بن الحوبى ﴾

القاضى زين الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدى ، عرف بابن الاستاذ الحلبى قاضيها بعد بهاء الدين بن شداد ،وكان رئيسا عالما عارفا فاضلا ، حسن الخلق والسمت ، وكان أبوه من الصالحين الكبار رحمهم الله تعالى .

﴿ الشيخ الصالح المعمر ﴾

أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز البغدادى ، ظهر سماعه من أبى الوقت فى سنة خمس عشرة وستمائة فانثال الناس عليه يسمعون منه ،وتفرد بالرواية عنه فى الدنيا بعد الزبيدى وغيره ، توفى ليلة السبت التاسع والعشرين من شعبان رحمه الله تعالى .

الأمير الكبير المجاهد المرابط ﴿ صارم الدين ﴾

خطلبا بن عبد الله مملوك شركس ونائبه بعده مع ولده على تبنين وتلك الحصون ، وكان كثير الصدقات ، ودفن مع استاذه بقباب شركس ، وهو الذى بناها بعد أستاذه، وكان خيراً قليل الكلام كثير الغزو مرابطا مدة سنين رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه

﴿ ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة ﴾

فيها قضى الملك الجواد على الصفى بن مرزوق وصادره بأربعمائة ألف دينار ، وحبسه بقلعة

حمص ، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء . وكان ابن مرزوق محسنا إلى الجواد قبل ذلك إحساناً كثيراً . وسلط الجواد خادماً لزوجته يقال له الناصح فصادر الدماشقة وأخذ منهم نحواً من ستمائة ألف دينار ، ومسك الأمير عماد الدين بن الشيخ الذى كان سبب تمليكه دمشق ، ثم خاف من أخيه فخر الدين بن الشيخ الذى بديار مصر ، وقلق من ملك دمشق ، وقال إيش أعمل بالملك ؟ باز وكلاب أحب إلى من هذا . ثم خرج إلى الصيد وكاتب الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، فتقايضا من حصن كيفا وسنجار وما تبع ذلك إلى دمشق ، فملك الصالح دمشق ودخلها فى مستهل جمادى الأولى من هذه السنة ، والجواد بين يديه بالغاشية ، وندم على ما كان منه ، فأراد أن يستدرك الفائت فلم يتفق له ، وخرج من دمشق والناس يلعنونه بوجهه ، بسبب ما أسداه إليهم من المصادرات ، وأرسل إليه الصالح أيوب ليرد إلى الناس أموالهم فلم يلتفت إليه ، وسار و بقيت فى ذمته . ولما استقر الصالح أيوب فى ملك مصر كما سيأتى حبس الناصح الخادم ، فمات فى أسوإ حالة ، من القلة والقمل ، جزاء وفاقا (وما ربك بظلام للعبيد)

وفيها ركب الصالح أيوب من دمشق فى رمضان قاصدا الديار المصرية ليأخذها من أخيه العادل لصغره ، فنزل بنابلس واستولى عليها وأخرجها من يد الناصر داود ، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ليقدم عليه ليكون فى صحبته إلى الديار المصرية ، وكان قد جاء إليه إلى دمشق ليبايعه فجعل يسوف به و يعمل عليه و يحالف الأمراء بدمشق ليكون ملكهم ، ولا يتجاسر أحد من الصالح أيوب لجبروته أن يخبره بذلك ، وانقضت السنة وهو مقيم بنابلس يستدعى إليه وهو يماطله .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ جمال الدين الحصيرى الحنفى ﴾

محمود بن أحمد العلامة شيخ الحنفية بدمشق ، ومدرس النورية ، أصله من قرية يقال لها حصير من معاملة بخارى ، تفقه بها وسمع الحديث الكثير ، وصار إلى دمشق فانتهت إليه رياسة الحنفية بها ، لا سيما فى أيام المعظم ، كان يقرأ عليه الجامع الكبير ، وله عليه شرح ، وكان يحترمه و يعظمه و يكرمه ، وكان رحمه الله غزير الدمعة كثير الصدقات ، عاقلا نزهاً عفيفا ، توفى يوم الأحد ثامن صفر ودفن بمقابر الصوفية تغمده الله برحمته . توفى وله تسعون سنة ، وأول درسه بالنورية فى سنة إحدى عشر وستمائة ، بعد الشرف داود الذى تولاها بعد البرهان مسعود ، وأول مدرسيها رحمهم الله تعالى الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ صدر الدين على بن حمويه ، كان سببا فى ولاية الجواد دمشق ثم سار إلى مصر فلامه صاحبها العادل بن الكامل بن العادل ، فقال الآن أرجع إلى دمشق وآمر الجواد بالمسير إليك ، على أن تكون له اسكندرية عوض دمشق ، فان امتنع عزلته عنها وكنت أنا نائبك فيها ، فنهاه أخوه فخر الدين بن الشيخ عن تعاطى ذلك فلم يقبل ، و رجع إلى دمشق فتلقاه

الجواد إلى المصلى وأنزله عنده بالقلعة بدار المسرة ، وخادعه عن نفسه ثم دس إليه من قتله جهرة فى صورة مستغيث به ، واستحوذ على أمواله وحواصله ، وكانت له جنازة حافلة ، ودفن بقاسيون

﴿ الوزير جمال الدين على بن حديد ﴾

وزر للأشرف واستوزره الصالح أيوب أياماً ، ثم مات عقب ذلك ، كان أصله من الرقة ، وكان له أملاك يسيرة يعيش منها، ثم آل أمره أن وزر للأشرف بدمشق ، وقد هجاه بعضهم ، وكانت وفاته بالجواليق فى جمادى الآخرة ، ودفن بمقابر الصوفية .

﴿ جعفر بن على ﴾

ابن أبى البركات بن جعفر بن يحيى الهمدانى ، راوية السلفى ، قدم إلى دمشق صحبة الناصر داود ، وسمع عليه أهلها ، وكانت وفاته بها ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله تعالى ، وله تسعون سنة .

﴿ الحافظ الكبير زكى الدين ﴾

أبو عبد الله بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالى الاشبيلى ، أحد من اعتنى بصناعة الحديث وبرّز فيه ، وأفاد الطلبة ، وكان شيخ الحديث بمشهد ابن عروة ، ثم سافر إلى حلب ، فتوفى بحماه فى رابع عشر رمضان من هذه السنة ، وهو جد شيخنا الحافظ علم الدين بن القاسم بن محمد البرزالى ، مؤرخ دمشق الذى ذيّل على الشيخ شهاب الدين أبى شامة ، وقد ذيلت أنا على تاريخه بعون الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان دمشق نجم الدين الصالح أيوب بن الكامل مخيم عند نابلس ، يستدعى عمه الصالح إسماعيل ليسير إلى الديار المصرية ، بسبب أخذها من صاحبها العادل بن الكامل ، وقد أرسل الصالح إسماعيل ولده وابن يغمور إلى صحبة الصالح أيوب ، فهما ينفقان الأموال فى الأمراء ويحلفانهم على الصالح أيوب للصالح إسماعيل ، فلما تم الأمر وتمكن الصالح إسماعيل من مراده أرسل إلى الصالح أيوب يطلب منه ولده ليكون عوضه ببعلبك ، ويسير هو إلى خدمته ، فأرسله إليه وهو لا يشعر بشئ مما وقع ، وكل ذلك عن ترتيب أبى الحسن غزال المتطبب وزير الصالح ـ وهو الأمين واقف أمينية بعلبك ـ فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر هجم الملك الصالح إسماعيل وفى صحبته أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى دمشق ، فدخلاها بغتة من باب الفراديس ، فنزل الصالح إسماعيل بداره من درب الشعارين ، ونزل صاحب حمص بداره ، وجاء نجم الدين بن سلامة فهنأ الصالح إسماعيل ورقص بين يديه وهو يقول : إلى بيتك جئت . وأصبحوا فحاصروا القلعة وبها المغيث عمر بن الصالح نجم الدين ، ونقبوا القلعة من ناحية باب الفرج ، وهتكوا حرمتها ودخلوها وتسلموها واعتقلوا المغيث فى برج هنالك . قال أبو شامة : واحترقت دار الحديث وما هنالك من الحوانيت

والدور حول القلعة . ولما وصل الخبر بما وقع إلى الصالح أيوب تفرق عنه أصحابه والأمراء خوفا على أهاليهم من الصالح إسماعيل ، و بقى الصالح أيوب وحده بمماليكه وجاريته أم ولده خليل ، وطمع فيه الفلاحون والفوارنة ، وأرسل الناصر داود صاحب الكرك إليه من أخذه من نابلس مهانا على بغلة بلا مهماز ولا مقدمة ، فاعتقله عنده سبعة أشهر ، وأرسل العادل من مصر إلى الناصر يطلب منه أخاه الصالح أيوب و يعطيه مائة ألف دينار ، فما أجابه إلى ذلك ، بل عكس ماطلب منه باخراج الصالح من سجنه والافراج عنه و إطلاقه من الحبس يركب و ينزل ، فعند ذلك حاربت الملوك من دمشق ومصر وغيرهما الناصر داود ، و برز العادل من الديار المصرية إلى بلبيس قاصداً قتال الناصر داود ، فاضطرب الجيش عليه واختلفت الأمراء ، وقيدوا العادل واعتقلوه فى خركاه ، وأرسلوا إلى الصالح أيوب يستدعونه إليهم ، فامتنع الناصر داود من إرساله حتى اشترط عليه أن يأخذ له دمشق وحمص وحلب بلاد الجزيرة و بلاد ديار بكر ونصف مملكة مصر ، ونصف مافى الخزائن من الحواصل والأموال والجواهر. قال الصالح أيوب : فأجبت إلى ذلك مكرهاً ، ولا تقدر على مااشترط جميع ملوك الأرض ، وسرنا فأخذته معى خائفا أن تكون هذه الكائنة من المصريين مكيدة ، ولم يكن لى به حاجة ، وذكر أنه كان يسكر ويخبط فى الأمور ويخالف فى الآراء السديدة . فلما وصل الصالح إلى المصريين ملكوه عليهم ودخل الديار المصرية سالما مؤيدا منصورا مظفرا محبورا مسرورا ، فأرسل إلى الناصر داود عشرين ألف دينار فردها عليه ولم يقبلها منه . واستقر ملكه بمصر. وأما الملك الجواد فانه أساء السيرة فى سنجار وصادر أهلها وعسفهم ، فكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فقصدهم ـ وقد خرج الجواد للصيد ـ فأخذ البلد بغير شئ وصار الجواد إلى غانة ، ثم باعها من الخليفة بعد ذلك .

و فى ربيع الأول درس القاضى الرفيع عبد العزيز بن عبد الواحد الجيلى بالشامية البرانية .
و فى يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر ولى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم السلمى خطابة جامع دمشق ، وخطب الصالح إسماعيل لصاحب الروم ببلد دمشق وغيرها ، لأنه حالفه على الصالح أيوب . قال أبو شامة : وفى حزيران أيام المشمش جاء مطر عظيم هدم كثيرا من الحيطان وغيرها ، وكنت يومئذ بالمزة .

ومن توفى فيها من الأعيان .

﴿ صاحب حمص ﴾

الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادى ، ولاه إياها الملك الناصر صلاح الدين بعد موت أبيه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، فمكث فيها سبعاً وخمسين سنة ، وكان من أحسن الملوك سيرة ، طهر بلاده من الخمور والمكوس والمنكرات ، وهى فى غاية الأمن والعدل ، لا يتجاسر أحد من الفرنج ولا العرب يدخل بلاده إلا أهانه غاية الاهانة ،

وكانت ملوك بنى أيوب يتقونه لأنه يرى أنه أحق بالأمر منهم ، لأن جده هو الذى فتح مصر ، وأول من ملك منهم ، وكانت وفاته رحمه الله بحمص ، وعمل عزاءه بجامع دمشق عفا الله عنه بمنه .

﴿ القاضى الخوبى شمس الدين أحمد بن خليل ﴾

ابن سعادة بن جعفر الخوبى قاضى القضاة بدمشق يومئذ ، وكان عالما بفنون كثيرة من الأصول والفروع وغير ذلك ، وكانت وفاته يوم السبت بعد الظهر السابع من شعبان ، وله خمس وخمسون سنة بالمدرسة العادلية ، وكان حسن الأخلاق جميل المعاشرة ، وكان يقول لا أقدر على إيصال المناصب إلى مستحقيها ، له مصنفات منها عروض قال فيه أبو شامة :

أحمد بن الخليل أرشده الـ * له لما أرشد الخليل بن أحمد

ذاك مستخرج العروض وهـ * ذا مظهر السر منه والعود أحمد

وقد ولى القضاء بعد رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادى الحنبلى مع تدريس العادلية ، وكان قاضياً ببعلبك . فأحضره إلى دمشق الوزير أمين الدين الذى كان سامريا فأسلم ، وزر للصالح إسماعيل ، واتفق هو وهذا القاضى على أكل أموال الناس بالباطل . قال أبو شامة : ظهر منه سوء سيرة وعسف وفسق وجور ومصادرة فى الأموال . قلت : وقد ذكر غيره عنه أنه ربما حضر يوم الجمعة فى المشهد الكمالى بالشباك وهو سكران ، وأن قنانى الخمر كانت تكون على بركة العادلية يوم السبت ، وكان يعتمد فى التركات اعتماداً سيئاً جداً ، وقد عامله الله تعالى بنقيض مقصوده ، وأهلكه الله على يدى من كان سبب سعادته ، كما سيأتى بيانه قريباً إن شاء الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة ﴾

فيها سلم الصالح إسماعيل صاحب دمشق حصن شقيف أرنون لصاحب صيدا الفرنجى ، فاشتد الانكار عليه بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد ، والشيخ أبى عمرو بن الحاجب شيخ المالكية ، فاعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما ، وولى الخطابة وتدريس الغزالية لعماد الدين داود بن عمر بن يوسف المقدسى خطيب بيت الأبار ، ثم خرج الشيخان من دمشق فقصد أبو عمرو الناصر داود بالكرك ، ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية ، فتلقاه صاحبها أيوب بالاحترام والاكرام ، وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر ، واشتغل عليه أهلها فكان ممن أخذ عنه الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد رحمهما الله تعالى .

وفيها قدم رسول من ملك التتار تولى بن جنكيزخان إلى ملوك الاسلام يدعوهم إلى طاعته

و يأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم . وعنوان الكتاب : من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ملك الشرق والغرب قانقان . وكان الكتاب مع رجل مسلم من أهل أصبهان لطيف الأخلاق ، فأول ما ورد على شهاب الدين غازى بن العادل بميا فارقين ، وقد أخبر بعجائب فى أرضهم غريبة ، منها أن فى البلاد المتاخمة للسد أناساً أعينهم فى مناكبهم ، وأفواههم فى صدورهم ، يأكلون السمك و إذا رأوا أحدا من الناس هربوا . وذكر أن عندهم بزرا ينبت الغنم يعيش الخروف منها شهرين وثلاثة ، ولا يتناسل . ومن ذلك أن بما زندران عينا يطلع فيها كل ثلاثين سنة خشبة عظيمة مثل المنارة ، فتقيم طول النهار فاذا غابت الشمس غابت فى العين فلا ترى إلى مثل ذلك الوقت ، وأن بعض الملوك احتال ليمسكوها بسلاسل ربطت فيها فغارت وقطعت تلك السلاسل ، ثم كانت إذا طلعت ترى فيها تلك السلاسل وهى إلى الآن كذلك . قال أبو شامة : وفيها قلت المياه من السماء والأرض ، وفسد كثير من الزرع والثمار والله أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان والمشاهير .

﴿ محى الدين بن عربى ﴾

صاحب الفصوص وغيره ، محمد بن على بن محمد ابن عربى أبوعبد الله الطائى الأندلسى ، طاف البلاد وأقام بمكة مدة ، وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية فى نحو عشرين مجلدا ، فيها ما يعقل وما لا يعقل ، وما ينكر وما لا ينكر ، وما يعرف وما لا يعرف ، وله كتابه المسمى بفصوص الحكم فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح ، وله كتاب العبادلة وديوان شعر رائق ، وله مصنفات أخر كثيرة جدا ، وأقام بدمشق مدة طويلة قبل وفاته ، وكان بنو الزكى لهم عليه اشتمال و به احتفال ولجميع ما يقوله احتمال . قال أبو شامة : وله تصانيف كثيرة وعليه التصنيف سهل ، وله شعر حسن وكلام طويل على طريق التصوف ، وكانت له جنازة حسنة ، ودفن بمقبرة القاضى محى الدين بن الزكى بقاسيون ، وكانت جنازته فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة . وقال ابن السبط كان يقول إنه يحفظ الأسم الأعظم ويقول إنه يعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب ، وكان فاضلا فى علم التصوف ، وله تصانيف كثيرة .

﴿ القاضى نجم الدين أبو العباس ﴾

أحمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسى الحنبلى الشافعى ، المعروف بابن الحنبلى ، كان شيخا فاضلا دينا بارعا فى علم الخلاف ، ويحفظ الجمع بين الصحيحين للحميدى ، وكان متواضعاً حسن الأخلاق ، قد طاف البلدان يطلب العلم ثم استقر بدمشق ودرس بالفداوية والصارمية والشامية الجوانية وأم الصالح ، وناب فى الحكم عن جماعة من القضاة إلى أن توفى بها ، وهونائب الرفيع الجيلى ، وكانت

وفاته يوم الجمعة سادس شوال ودفن بقاسيون .

﴿ ياقوت بن عبد الله أمين الدين الرومى ﴾

منسوب إلى بيت أتابك ، قدم بغداد مع رسول صاحب الموصل لؤلؤ . قال ابن الساعى ، اجتمعت به وهو شاب أديب فاضل ، يكتب خطا حسنا فى غاية الجودة ، و ينظم شعرا جيدا ، ثم روى عنه شيئا من شعره . قال وتوفى فى جمادى الآخرة محبوساً .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة ﴾

فيها قصد الملك الجواد أن يدخل مصر ليكون فى خدمة الصالح أيوب ، فلما وصل إلى الرمل توهم منه الصالح أيوب وأرسل إليه كمال الدين ابن الشيخ ليقبض عليه ، فرجع الجواد فاستجار بالناصر داود ، وكان إذ ذاك بالقدس الشريف ، و بعث منه جيشاً فالتقوا مع ابن الشيخ فكسروه وأسروه فوبخه الناصر داود ثم أطلقه ، وأقام الجواد فى خدمة الناصر حتى توهم منه فقيده وأرسله تحت الحوطة إلى بغداد ، فأطلقه بطن من العرب عن قوة فلجأ إلى صاحب دمشق مدة ، ثم انتقل إلى الفرنج ، ثم عاد إلى دمشق فحبسه الصالح إسماعيل بعزتا إلى أن مات فى سنة إحدى وأربعين كما سيأتى .

وفيها شرع الصالح أيوب فى بناء المدارس بمصر ، و بنى قلعة بالجزيرة غرم عليها شيئا كثيرا من بيت المال ، وأخذ أملاك الناس وخرب نيفا وثلاثين مسجدا ، وقطع ألف نخلة . ثم أخربها الترك فى سنة إحدى وخمسين كما سيأتى بيانه . وفيها ركب الملك المنصور بن إبراهيم بن الملك المجاهد صاحب حمص ومعه الحلبيون ، فاقتتلوا مع الخوارزمية بأرض حران ، فكسروهم ومزقوهم كل ممزق ، وعادوا منصورين إلى بلادهم ، فاصطلح شهاب الدين غازى صاحب ميا فارقين مع الخوارزمية وآواهم إلى بلده ليكونوا من حزبه . قال أبو شامة : وفيها كان دخول الشيخ عزالدين إلى الديار المصرية فأكرمه صاحبها وولاه الخطابة بالقاهرة وقضاء القضاة بمصر ، بعد وفاة القاضى شرف الدين المرقع ثم عزل نفسه مرتين وانقطع فى بيته رحمه الله تعالى .

قال : وفيها توفى الشمس بن الخباز النحوى الضرير فى سابع رجب . والكمال بن يونس الفقيه فى النصف من شعبان ، وكانا فاضلى بلدهما فى فنهما. قلت . أما :

﴿ الشمس ابن الخباز ﴾

فهو أبو عبد الله أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالى بن منصور بن على ، الضرير النحوى الموصلى المعروف بابن الخباز ، اشتغل بعلم العربية وحفظ المفصل والايضاح والتكملة والعروض والحساب ، وكان يحفظ المجمل فى اللغة وغير ذلك ، وكان شافعى المذهب كثير النوادر والملح ، وله أشعار جيدة ، وكانت وفاته عاشر رجب وله من العمر خمسون سنة رحمه الله تعالى . وأما :

﴿ الكمال بن يونس ﴾

فهو موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك العقيلي ، أبو الفتح الموصلي شيخ الشافعية بها ، ومدرس بعدة مدارس فيها ، وكانت له معرفة تامة بالاصول والفروع والمعقولات والمنطق والحكمة ، و رحل إليه الطلبة من البلدان ، و بلغ ثمانياً وثمانين عاما ، وله شعر حسن . فمن ذلك ماامتدح به البدر لؤلؤ صاحب الموصل وهو قوله :

لئن زينت الدنيا بمالك أمرها * فمملكة الدنيا بكم تتشرف
بقيت بقاء الدهر أمرك نافذ * وسعيك مشكور وحكمك ينصف

كان مولده سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وتوفى للنصف من شعبان هذه السنة ، رحمه الله تعالى قال أبو شامة : وفيها توفى بدمشق :

﴿ عبد الواحد الصوفى ﴾

الذى كان قسا راهباً فى كنيسة مريم سبعين سنة ، أسلم قبل موته بأيام ، ثم توفى شيخاً كبيراً بعد أن أقام بخانقاه السميساطية أياماً ، ودفن بمقابر الصوفية ، وكانت له جنازة حافلة ، حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله تعالى .

﴿ أبو الفضل أحمد بن اسفنديار ﴾

ابن الموفق بن أبى على البوسنجى الواعظ ، شيخ رباط الأرجوانية . قال ابن الساعى : كان جميل الصورة حسن الأخلاق كثير التودد والتواضع ، متكلما متفوها منطقيا حسن العبارة جيد الوعظ طيب الانشاد عذب الايراد ، له نظم حسن ، ثم ساق عنه قصيدة يمدح بها الخليفة المستنصر.

﴿ أبو بكر محمد بن يحيى ﴾

ابن المظفر بن علم بن نعيم المعروف بابن الحسر السلامى ، شيخ عالم فاضل ، كان حنبلياً ثم صار شافعياً ، ودرس بعدة مدارس ببغداد للشافعية ، وكان أحد المعدلين بها ، تولى مباشرات كثيرة ، وكان فقيها أصوليا عالما بالخلاف ، وتقدم ببلده وعظم كثيرا ، ثم استنابه ابن فضلان بدار الحريم ، ثم صار من أمره أن درس بالنظامية وخلع عليه ببغلة ، وحضر عنده الأعيان ، وما زال بها حتى توفى عن ثمانين سنة ، ودفن بباب حرب .

﴿ قاضى القضاة ببغداد ﴾

أبو المعالى عبد الرحمن بن مقبل بن على الواسطى الشافعى ، اشتغل ببغداد وحصل وأعاد فى بعض المدارس ، ثم استنابه قاضى القضاة عماد الدين أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر فى أيام الخليفة الظاهر بن الناصر ، ثم ولى قضاء القضاة مستقلا ، ثم ولى تدريس المستنصرية بعد

موت أول من درس بها محيي الدين محمد بن فضلان ، ثم عزل عن ذلك كله وعن مشيخة بعض الربط. ثم كانت وفاته فى هذا العام ، وكان فاضلا دينا متواضعاً رحمه الله تعالى وعفا عنه .

﴿ ثم دخلت سنة أربعين وستمائة ﴾

فيها توفى الخليفة المستنصر بالله وخلافة ولده المستعصم بالله ، فكانت وفاة الخليفة أمير المؤمنين بكرة يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة ، وله من العمر إحدى وخمسون سنة ، وأربعة أشهر وسبعة أيام، وكتم موته حتى كان الدعاء له على المنابر ذلك اليوم ، وكانت مدة ولايته ست عشرة سنة وعشرة أشهر وسبعة وعشرين يوما ، ودفن بدار الخلافة ، ثم نقل إلى الترب من الرصافة . وكان جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة ، كثير الصدقات والبر والصلات ، محسنا إلى الرعية بكل ما يقدر عليه ، كان جده الناصر قد جمع ما يتحصل من الذهب فى بركة فى دار الخلافة ، فكان يقف على حافتها ويقول : أترى أعيش حتى أملأها ، وكان المستنصر يقف على حافتها ويقول أترى أعيش حتى أنفقها كلها . فكان يبنى الربط والخانات والقناطر فى الطرقات من سائر الجهات ، وقد عمل بكل محلة من محال بغداد دار ضيافة للفقراء ، لا سيما فى شهر رمضان ، وكان يتقصد الجوارى اللائى قد بلغن الأربعين فيشترين له فيعتقهن ويجهزهن ويزوجهن ، وفى كل وقت يبرز صلاته ألوف متعددة من الذهب ، تفرق فى المحال ببغداد على ذوى الحاجات والأرامل والأيتام وغيرهم ، تقبل الله تعالى منه وجزاه خيرا ، وقد وضع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة ، وجعل فيها دار حديث وحماما ودار طب ، وجعل لمستحقيها من الجوامك والأطعمة والحلاوات والفاكهة ما يحتاجون إليه فى أوقاته ، ووقف عليها أوقافاً عظيمة حتى قيل إن ثمن التبن من غلات ريعها يكفى المدرسة وأهلها . ووقف فيها كتبا نفيسة ليس فى الدنيا لها نظير ، فكانت هذه المدرسة جمالا لبغداد وسائر البلاد ، وقد احترق فى أول هذه السنة المشهد الذى بسامرا المنسوب إلى على الهادى والحسن العسكرى ، وقد كان بناه أرسلان البساسيرى فى أيام تغلبه على تلك النواحى ، فى حدود سنة خمسين وأربعمائة ، فأمر الخليفة المستنصر باعادته إلى ما كان عليه ، وقد تكلمت الروافض فى الاعتذار عن حريق هذا المشهد بكلام طويل باردلا حاصل له ، وصنفوا فيه أخبارا وأنشدوا أشعارا كثيرة لا معنى لها ، وهو المشهد الذى يزعمون أنه يخرج منه المنتظر الذى لاحقيقة له ، فلاعين ولاأثر، ولولم يبن لكان أجدر ، وهو الحسن بن على بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن على ابن محمد بن الباقر بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد بكربلاء بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ، وقبح من يغلو فيهم ويبغض بسببهم من هو أفضل منهم .

وكان المستنصر رحمه الله كريما حليما رئيسا متودداً إلى الناس ، وكان جميل الصورة حسن الأخلاق

بهى المنظر ، عليه نور بيت النبوة رضى الله عنه وأرضاه . وحكى أنه اجتاز راكبا فى بعض أزقة بغداد قبل غروب الشمس من رمضان ، فرأى شيخا كبيرا ومعه إناء فيه طعام قد حمله من محلة إلى محلة أخرى ، فقال : أيها الشيخ لم لاأخذت الطعام من محلتك ؟ أوأنت محتاج تأخذ من المحلتين ؟ فقال لا والله يا سيدى - ولم يعرف أنه الخليفة - ولكنى شيخ كبير ، وقد نزل بى الوقت وأنا أستحى من أهل محلتى أن أزاحمهم وقت الطعام ، فيشمت بى من كان يبغضنى ، فأنا أذهب إلى غير محلتى فآخذ الطعام وأتحين وقت كون الناس فى صلاة المغرب فأدخل بالطعام إلى منزلى بحيث لا يرانى أحد . فبكى الخليفة رحمه الله وأمر له بألف دينار ، فلما دفعت إليه فرح الشيخ فرحا شديدا حتى قيل إنه انشق قلبه من شدة الفرح ، ولم يعش بعد ذلك إلا عشرين يوما ، ثم مات فخلف الألف دينار إلى الخليفة ، لأنه لم يترك وارثا . وقد أنفق منها دينارا واحدا ، فتعجب الخليفة من ذلك وقال : شىء قد خرجنا عنه لا يعود إلينا ، تصدقوا بها على فقراء محلته ، فرحمه الله تعالى .

وقد خلف من الاولاد ثلاثة ، اثنان شقيقان وهما أمير المؤمنين المستعصم بالله الذى ولى الخلافة بعده وأبو أحمد عبدالله ، والأمير أبوالقاسم عبد العزيز وأختهما من أم أخرى كريمة صان الله حجابها. وقد رثاه الناس بأشعار كثيرة أورد منها ابن الساعى قطعة صالحة ، ولم يستوزر أحدا بل أقرأبا الحسن محمد بن محمد القمى على نيابةالوزارة ، ثم كان بعده نصر الدين أبو الأزهر أحمد بن محمد الناقد الذى كان أستاذ دار الخلافة ، والله تعالى أعلم بالصواب .

﴿ خلافة المستعصم بالله ﴾

أمير المؤمنين وهو آخر خلفاء بنى العباس ببغداد ، وهو الخليفة الشهيد الذى قتله التتار بأمر هلاكو ابن تولى ملك التتار بن جنكيزخان لعنهم الله ، فى سنة ست وخمسين وستمائة كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، وهو أمير المؤمنين المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن أميرالمؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر المنصور بن أمير المؤمنين الظاهر بالله أبى نصرمحمد بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن أمير المؤمنين المستضىء بالله أبى محمد الحسن بن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد بن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن الخليفة المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبد الله و بقية نسبه إلى العباس فى ترجمة جده الناصر ، وهؤلاء الذين ذكرناهم كلهم ولى الخلافة يتلو بعضهم بعضاً ، ولم يتفق هذا لأحد قبل المستعصم ، أن فى نسبه ثمانية نسقا ولوا الخلافة لم يتخللهم أحد ، وهو التاسع رحمه الله تعالى بمنه .

لما توفى أبوه بكرة الجمعة عاشرجمادى الآخرة من سنة أربعين وستمائة استدعى هو من التاج يومئذ بعد الصلاة فبويع بالخلافة ، ولقب بالمستعصم ، وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة وشهور ، وقد

أتقن فى شبيبته تلاوة القرآن حفظا وتجويدا ، وأتقن العربية والخط الحسن وغير ذلك من الفضائل على الشيخ شمس الدين أبى المظفر على بن محمد بن النيار أحد أئمة الشافعية فى زمانه ، وقد أكرمه وأحسن إليه فى خلافته ، وكان المستعصم على ما ذكر كثير التلاوة حسن الأداء طيب الصوت ، يظهر عليه خشوع و إنابة ، وقد نظر فى شىء من التفسير وحل المشكلات ، وكان مشهورا بالخير مشكوراً مقتديا بأبيه المستنصر جهده وطاقته ، وقد مشت الأمور فى أيامه على السداد والاستقامة بحمد الله ، وكان القائم بهذه البيعة المستعصمية شرف الدين أبو الفضائل إقبال المستنصرى ، فبايعه أولا بنو عمه وأهله من بنى العباس ، ثم أعيان الدولة من الأمراء والوزراء والقضاة والعلماء والفقهاء ومن بعدهم من أولى الحل والعقد والعامة وغيرهم ، وكان يوما مشهوداً ومجمعاً محمودا ورأيا سعيداً ، وأمراً حميداً ، وجاءت البيعة من سائر الجهات والأقطار والبلدان والأمصار ، وخطب له فى سائر البلدان ، والأقاليم والرساتيق ، وعلى سائر المنابر شرقا وغربا ، بعداً وقربا ، كما كان أبوه وأجداده ، رحمهم الله أجمعين .

وفيها وقع من الحوادث أنه كان بالعراق وباء شديد فى آخر أيام المستنصر وغلا السكر والأدوية فتصدق الخليفة المستنصر بالله رحمه الله بسكر كثير على المرضى ، تقبل الله منه . وفى يوم الجمعة رابع عشر شعبان أذن الخليفة المستعصم بالله لأبى الفرج عبد الرحمن بن محيى الدين يوسف ابن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى - وكان شابا ظريفا فاضلا - فى الوعظ بباب البدرية ، فتكلم وأجاد وأفاد وامتدح الخليفة المستعصم بقصيدة طويلة فصيحة ، سردها ابن الساعى بكمالها ، ومن يشابه أباه فما ظلم ، والشبل فى المخبر مثل الأسد . وفيها كانت وقعة عظيمة بين الحلبيين وبين الخوارزمية ، ومع الخوارزمية شهاب الدين غازى صاحب ميا فارقين ، فكسرهم الحلبيون كسرة عظيمة منكرة، وغنموا من أموالهم شيئا كثيراً جدا ، ونهبت نصيبين مرة أخرى ، وهذه سابع عشر مرة نهبت فى هذه السنين ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وعاد الغازى إلى ميا فارقين وتفرقت الخوارزمية يفسدون فى الأرض صحبة مقدمهم بركات خان ، لا بارك الله فيه ، وقدم على الشهاب غازى منشور بمدينة خلاط فتسلمها وما فيها من الحواصل . وفيها عزم الصالح أيوب صاحب مصر على دخول الشام فقيل له إن العساكر مختلفة فجهز عسكرا إليها وأقام هو بمصر يدبر مملكتها .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ المستنصر بالله ﴾

أمير المؤمنين كما تقدم . والحرمة المصونة الجليلة .

﴿ خاتون بنت عز الدين مسعود ﴾

ابن مودود بن زنكى بن آقسنقر الاتابكية واقفة المدرسة الأتابكية بالصالحية ، وكانت زوجة

السلطان الملك الأشرف رحمه الله وفى ليلة وفاتها كانت وقفت مدرستها وتربتها بالجبل قاله أبوشامة : ودفنت بها رحمها الله تعالى وتقبل منها .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة ﴾

فيها ترددت الرسل بين الصالح أيوب صاحب مصر و بين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، على أن يرد إليه ولده المغيث عمر بن الصالح أيوب المعتقل فى قلعة دمشق ، وتستقر دمشق فى يد الصالح إسماعيل ، فوقع الصلح على ذلك ، وخطب للصالح أيوب بدمشق ، فخاف الوزير أمين الدولة أبو الحسن غزال المسلمانى ، وزير الصالح إسماعيل من غائلة هذا الأمر ، فقال لمخدومه : لا ترد هذا الغلام لأبيه تخرج البلاد من يدك ، هذا خاتم سليمان بيدك للبلاد ، فعند ذلك أبطل ما كان وقع من الصلح و رد الغلام إلى القلعة ، وقطعت الخطبة للصالح أيوب ، و وقعت الوحشة بين الملكين ، وأرسل الصالح أيوب إلى الخوارزمية يستحضرهم لحصار دمشق فانا لله و إنا إليه راجعون. وكانت الخوارزمية قد فتحوا فى هذه السنة بلاد الروم وأخذوها من أيدى ملكها ابن علاء الدين ، وكان قليل العقل يلعب بالكلاب والسباع ، و يسلطها على الناس ، فاتفق أنه عضه سبع فمات فتغلبوا على البلاد حينئذ .

وفيها احتيط على أعوان القاضى الرفيع الجيلى ، وضرب بعضهم بالمقارع ، وصودروا ورسم على القاضى الرفيع بالمدرسة المقدمية داخل باب الفراديس ، ثم أخرج ليلا وذهب به فسجن بمغارة أفقه من نواحى البقاع ، ثم انقطع خبره . وذكر أبو شامة أنه توفى ، ومنهم من قال إنه ألقى من شاهق ، ومنهم من قال خنق ، وذلك كله بذى الحجة من هذه السنة . وفى يوم الجمعة الخامس والعشرين منه قرئ منشور ولاية القضاء بدمشق لمحى الدين بن محمد بن على بن محمد بن يحيى القرشى ، بالشباك الكمالى من الجامع ، كذا قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة . وزعم السبط أن عزله إنما كان فى السنة الآتية ، وذكر أن سبب هلاكه أنه كتب إلى الملك الصالح يقول له : إنه قد أورد إلى خزانته من الأموال ألف ألف دينار من أموال الناس . فأنكر الصالح ذلك ، ورد عليه الجواب أنه لم يرد سوى ألف ألف درهم ، فأرسل القاضى يقول فأنا أحاقق الوزير ، وكان الصالح لا يخالف الوزير ، فأشار حينئذ على الصالح فعزله لتبرأ ساحة السلطان من شناعات الناس ، فعزله وكان من أمره ما كان . وفوض أمر مدارسه إلى الشيخ تقى الدين ابن الصلاح فعين العادلية للكمال التفليسى ، والعذراوية لمحى الدين بن الزكى الذى ولى القضاء بعده ، والأمينية لابن عبد الكافى ، والشامية البرانية للتقى الحموى ، وغيب القاضى الرفيع وأسقط عدالة شهوده ، قال السبط :أرسله الأمين مع جماعة على بغل باكاف لبعض النصارى إلى مغارة أفقه فى جبل لبنان من ناحية الساحل ، فأقام بها أياما ثم أرسل إليه عدلين من بعلبك ليشهدا عليه ببيع أملاكه من أمين الدولة ، فذكرا أنهما شاهداه وعليه

بخفيفة وقندورة ، وأنه استطعمهما شيئا من الزاد وذكر أن له ثلاثة أيام لم يأكل شيئا ، فأطعماه من زوادتهما وشهدا عليه وانصرفا ، ثم جاءه داود النصرانى فقال له قم فقد أمرنا بحملك إلى بعلبك ، فأيقن بالهلاك حينئذ ، فقال دعونى أصلى ركعتين، فقال له قم ، فقام يصلى فأطال الصلاة فرفسه النصرانى فألقاه من رأس الجبل إلى أسفل الوادى الذى هناك ، فما وصل حتى تقطع ، وحكى أنه تعلق ذيله بسن الجبل فما زال داود يرميه بالحجارة حتى ألقاه إلى أسفل الوادى ، وذلك عند السقيف المطل على نهر إبراهيم . قال السبط : وقد كان فاسد العقيدة دهريا مستهزئا بأمور الشرع ، يخرج إلى المجالس سكرانا و يحضر إلى الجمعة كذلك، وكانت داره كالحانات . فلاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم قال : وأخذ الموفق الواسطى أحد أمنائه ـ وكان من أكبر البلايا ـ أخذ لنفسه من أموال الناس ستمائة ألف درهم ، فعوقب عقوبة عظيمة حتى أخذت منه ، وقد كسرت ساقاه ومات تحت الضرب ، فألقى فى مقابر اليهود والنصارى ، وأكلته الكلاب .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ شمس الدين أبو الفتوح ﴾

أسعد بن المنجى التنوخى المعرى الحنبلى ، قاضى حران قديما ، ثم قدم دمشق ودرس بالمسمارية وتولى خدما فى الدولة المعظمية ، وكانت له رواية عن ابن صابر والقاضيين الشهزورى وابن أبى عصرون ، وكانت وفاته فى سابع ربيع الأول من هذه السنة رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ الحافظ الصالح ﴾

تقى الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفينى ، كان يدرى الحديث وله به معرفة جيدة ، أثنى عليه أبو شامة وصلى عليه بجامع دمشق ودفن بقاسيون رحمه الله .

﴿ واقف الكروسية ﴾

محمد بن عقيل بن كروس ، جمال الدين محتسب دمشق ، كان كيساً متواضعا ، توفى بدمشق فى شوال ودفن بداره التى جعلها مدرسة ، وله دار حديث رحمه الله تعالى وعفا عنه .

﴿ الملك الجواد يونس بن ممدود ﴾

ابن العادل أبى بكر بن أيوب الملك الجواد ، وكان أبوه أكبر أولاد العادل ، تقلبت به الأحوال وملك دمشق بعد عمه الكامل محمد بن العادل ، وكان فى نفسه جيداً محباً للصالحين ، ولكن كان فى بابه من يظلم الناس و ينسب ذلك إليه ، فأبغضته العامة وسبُّوه وألجؤوه إلى أن قايض بدمشق الملك الصالح أيوب بن الكامل إلى سنجار وحصن كيفا ، ثم لم يحفظهما بل خرجتا عن يده ، ثم آل به الحال إلى أن سجنه الصالح إسماعيل بحصن عزتا ، حتى كانت وفاته فى هذه السنة ، ونقل فى شوال إلى تربة المعظم بسفح قاسيون ، وكان عنده ابن يغمور معتقلا لخوله الصالح إسماعيل إلى قلعة دمشق ، فلما

ملكها الصالح أيوب نقله إلى الديار المصرية وشنقه مع الأمين غزال وزير الصالح إسماعيل ، على قلعة القاهرة ، جزاء على صنعهما فى حق الصالح أيوب رحمه الله تعالى . أما ابن يغمور فانه عمل عليه حتى حول ملك دمشق إلى الصالح إسماعيل ، وأما أمين الدولة فانه منع الصالح من تسليم ولده عمر إلى أبيه فانتقم منهما بهذا ، وهو معذور بذلك

﴿ مسعود بن أحمد بن مسعود ﴾

ابن مازه المحاربى أحد الفقهاء الحنفية الفضلاء ، وله علم بالتفسير وعلم الحديث ، ولديه فضل غزير قدم بغداد صحبة رسول التتار للحج ، فحبس مدة سنين ثم أفرج عنه ، فحج ثم عاد ، فمات ببغداد فى هذه السنة ، رحمه الله تعالى ﴿ أبو الحسن على بن يحيى بن الحسن ﴾

ابن الحسين بن على بن محمد البطريق بن نصر بن حمدون بن ثابت الأسدى الحلى ، ثم الواسطى ، ثم البغدادى ، الكاتب الشاعر الشيعى ، فقيه الشيعة ، أقام بدمشق مدة وامتدح كثيراً من الأمراء والملوك ، منهم الكامل صاحب مصر وغيره ، ثم عاد إلى بغداد فكان يشغل الشيعة فى مذهبهم ، وكان فاضلا ذكيا جيد النظم والنثر ، لكنه مخذول محجوب عن الحق. وقد أورد ابن الساعى قطعة جيدة من أشعاره الدالة على غزارة مادته فى العلم والذكاء رحمه الله وعفا عنه

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة ﴾

فيها استوزر الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين أبا طالب محمد بن أحمد بن على بن محمد العلقمى المشؤم على نفسه ، وعلى أهل بغداد ، الذى لم يعصم المستعصم فى وزارته ، فانه لم يكن وزير صدق ولا مرضى الطريقة ، فانه هو الذى أعان على المسلمين فى قضية هولاكو وجنوده قبحه الله وإياهم ، وقد كان ابن العلقمى قبل هذه الوزارة أستاذ دار الخلافة ، فلما مات نصر الدين محمد بن الناقد استوزر ابن العلقمى وجعل مكانه فى الاستادارية الشيخ محى الدين يوسف بن أبى الفرج ابن الجوزى ، وكان من خيار الناس ، وهو واقف الجوزية التى بالنشابين بدمشق تقبل الله منه . وفيها جعل الشيخ شمس الدين على بن محمد بن الحسين بن النيار مؤدب الخليفة شيخ الشيوخ ببغداد ، وخلع عليه ، ووكل الخليفة عبد الوهاب ابن المطهر وكالة مطلقة ، وخلع عليه . وفيها كانت وقعة عظيمة بين الخوارزمية الذين كان الصالح أيوب صاحب مصر استقدمهم ليستنجد بهم على الصالح إسماعيل أبى الحسن صاحب دمشق، فنزلوا على غزة وأرسل إليهم الصالح أيوب الخلع والأموال والأقمشة والعساكر، فاتفق الصالح إسماعيل والناصر داود صاحب الكرك ، والمنصور صاحب حمص ، مع الفرنج واقتتلوا مع الخوارزمية قتالا شديدا ، فهزمتهم الخوارزمية كسرة منكرة فظيعة ، هزمت الفرنج بصلبانها ورإياتها العالية ، على رؤس أطلاب المسلمين ، وكانت كؤس الخمر دائرة بين الجيوش فنابت كؤس

المنون عن كؤوس الزرجون ، فقتل من الفرنج فى يوم واحد زيادة عن ثلاثين ألف ، وأسروا جماعة من ملوكهم وقسوسهم وأساقفتهم ، وخلقا من أمراء المسلمين ، و بعثوا بالأسارى إلى الصالح أيوب بمصر ، وكان يومئذ يوما مشهودا وأمراً محموداً ، ولله الحمد . وقد قال بعض أمراء المسلمين قد علمت أنا لما وقفنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلح . وغنمت الخوارزمية من الفرنج ومن كان معهـم شيئا كثيرا ، وأرسـل الصالح أيوب إلى دمشق ليحاصرها ، فحصنها الصالح إسماعيل وخرب من حولها رباعا كثـيرة ، وكسر جسر باب توما فسار النهر فتراجع الماء حتى صـار بحيرة من باب توما و باب السلامة ، فغرق جميع ما كان بينهما من العمران ، وافتقر كثير من الناس ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الملك المغيث عمر بن الصالح أيوب ﴾

كان الصالح إسماعيل قد أسره وسجنه فى برج قلعة دمشق ، حين أخذها فى غيبة الصالح أيوب . فاجتهد أبوه بكل ممكن فى خلاصه فلم يقدر ، وعارضه فيه أمين الدولة غزال المسلمانى ، واقف المدرسة الأمينية التى ببعلبك ، فلم يزل الشاب محبوساً فى القلعة من سنة ثمان وثلاثين إلى ليلة الجمعة ثانى عشر ربيع الآخر من هذه السنة ، فأصبح ميتا فى محبسه غما وحزنا ، و يقال إنه قتل فالله أعلم . وكان من خيار أبناء الملوك ، وأحسنهم شـكلا ، وأكملهم عقـلا . ودفن عند جده الكامل فى تربته شمالى الجامع ، فاشتد حنق أبيه الصالح أيوب على صاحب دمشق . وممن توفى فيها شيخ الشيوخ بدمشق : ﴿ تاج الدين أبو عبد الله بن عمر بن حمويه ﴾

أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين ، له كتاب فى ثمانى مجلدات ، ذكر فيه أصول ، وله السياسة الملوكية صنفها للكامل محمد وغير ذلك ، وسمع الحديث وحفظ القرآن ، وكان قد بلغ الثمانين ، وقيل إنه لم يبلغها ، وقد سافر إلى بلاد المغرب فى سنة ثلاث وتسعين ، واتصل بمراكش عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، فأقام هناك إلى سنة ستمائة ، فقدم إلى ديار مصر وولى مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين بن حمويه رحمه الله تعالى .

﴿ الوزير نصر الدين أبو الأزهر ﴾

أحمد بن محمد بن على بن أحمد الناقد البغدادى وزير المستنصر ثم ابنه المستعصم ، كان من أبناء التجار ، ثم توصل إلى أن وزر لهذين الخليفتين ، وكان فاضلا بارعا حافظا للقرآن كثير التلاوة ، نشأ فى حشمة باذخة ، ثم كان فى وجاهـة هائلة ، وقد أقعد فى آخر أمره ، وهو مع هـذا فى غاية الاحترام والاكرام ، وله أشعار حسنة أورد منها ابن الساعى قطعة صالحة ، توفى فى هذه السنة وقد جاوز الخمسين رحمه الله تعالى. ﴿ نقيب النقباء خطيب الخطباء ﴾

وكيل الخلفاء أبو طالب الحسين بن أحمد بن على بن أحمد بن معين بن هبة الله بن محمد بن على

ابن الخليفة المهتـدى بالله العباسى ، كان من سادات العباسـيين وأئمة المسلمين ، وخطباء المؤمنين ، استمرت أحواله على السداد والصلاح ، لم ينقطع قط عن الخطابة ولم يمرض قط حتى كانت ليلة السبت الثامن والعشرين من هذه السنة ، قام فى أثناء الليل لبعض حاجاته فسقط على أم رأسه ، فسقط من فمه دم كثير وسكت فلم ينطق كلمة واحدة يومه ذلك إلى الليـل ، فمات وكانت له جنازة حافلة رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة ﴾

وهى سنـة الخوارزمية ، وذلك أن الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر بعث الخوارزميـة ومعهم ملكهم بركات خان فى صحبة معين الدين ابن الشيخ ، فأحاطوا بدمشق يحاصرون عمه الصالح أبا الجيش صاحب دمشق ، وحرق قصر حجاج ، وحكر السماق ، وجامع جراح خارج باب الصغير ، ومساجد كثيرة ، ونصب المنجنيق عنـد باب الصغير وعند باب الجابية ، ونصب من داخل البلد منجنيقان أيضاً ، وترأى الفريقان وأرسل الصالح إسماعيل إلى الأمير معين الدين بن الشيخ بسجادة وعكاز و إبريق وأرسل يقول: اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بمحاصرة الملوك ، فأرسل إليه المعين بزمر وجنك وغلالة حرير أحمر وأصفر ، وأرسل يقول له : أما السجادة فانها تصلح لى ، وأما أنت فهذا أولى بك . ثم أصبح ابن الشيخ فاشتد الحصار بدمشق ، وأرسل الصالح إسماعيل فأحرق جوسق قصر والده العادل ، وامتد الحريق فى زقاق الرمان إلى العقيبـة فأحرقت بأسرها ، وقطعت الأنهار وغلت الأسعار ، وأخيفت الطرق وجرى بدمشق أمور بشعة جدا ، لم يتم عليها قط ، وامتد الحصار شهورا من هذه السنة إلى جمادى الأولى ، فأرسـل أمين الدولة يطلب من ابن الشيخ شيئا من ملابسه ، فأرسل إليه بفرجية وعمامة وقميص ومنديل ، فلبس ذلك الأمين وخرج إلى معين الدين ، فاجتمع به بعد العشاء طويلا ، ثم عاد ثم خرج مرة أخرى فاتفق الحال على أن يخرج الصالح إسماعيل إلى بعلبك ويسلم دمشق إلى الصالح أيوب ، فاستبشر الناس بذلك وأصبح الصالح إسماعيل خارجا إلى بعلبك ودخل معين الدين ابن الشيخ فنزل فى دار أسامة ، فولى وعزل وقطع ووصل ، وفوض قضاء القضاة إلى صدر الدين بن سنى الدولة ، وعزل القـاضى محى الدين بن الزكى ، واسـتناب ابن سنى الدولة التفليسى الذى ناب لابن الزكى والفرز السنجـارى ، وأرسـل معين الدين ابن الشيخ أمين الدولة غزال ابن المسلمانى وزير الصالح إسماعيل تحت الحوطة إلى الديار المصرية .

وأما الخوارزمية فانهم لم يكونوا حاضرين وقت الصلح ، فلما علموا بوقوع الصلح غضبوا وساروا نحو داريا فنهبوها وسـاقوا نحو بلاد الشرق ، وكاتبوا الصالح إسماعيل فحالفوه عـلى الصالح أيوب ، ففرح بذلك ونقض الصلح الذى كان وقع منه ، وعادت الخوارزمية فحاصروا دمشق ، وجاء إليهم الصالح

إسماعيل من بعلبك فضاق الحال على الدماشقة ، فعدمت الأموال وغلت الأسعار جداً ، حتى إنه بلغ ثمن الغرارة ألف وستمائة ، وقنطار الدقيق تسعمائة ، والخبز كل وقيتين إلا ربع بدرهم ، و رطل اللحم بسبعة و بيعت الأملاك بالدقيق ، وأكلت القطاط والكلاب والميتات والجيفات ، وتماوت الناس فى الطرقات وعجزوا عن التغسيل والتكفين والاقبار ، فكانوا يلقون موتاهم فى الآبار ، حتى أنتنت المدينة وضجر الناس ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

و فى هذه الأيام توفى الشيخ تقى الدين ابن الصلاح ، شيخ دار الحديث وغيرها من المدارس ، فما أخرج من باب الفرج إلا بعد جهد جهيد ، ودفن بالصوفية رحمه الله

قال ابن السبط : ومع هذا كانت الخمور دائرة والفسق ظاهراً ، والمكوس بحالها وذكر الشيخ شهاب الدين أن الأسعار غلت فى هذه السنة جداً ، وهلك الصعاليك بالطرقات ، كانوا يسألون لقمة ثم صاروا يسألون لبابة ثم تنازلوا إلى فاس يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها ، كالدجاج . قال : وأنا شاهدت ذلك . وذكر تفاصيل الأسعار وغلاءها فى الأطعمة وغيرها ، ثم زال هذا كله فى آخر السنة بعد عيد الأضحى ولله الحمد .

ولما بلغ الصالح أيوب أن الخوارزمية قد مالؤا عليه وصالحوا عمه الصالح إسماعيل ، كاتب الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، فاستماله إليه وقوى جانب نائب دمشق معين الدين حسين ابن الشيخ ، ولكنه توفى فى رمضان من هذه السنة كما سيأتى فى الوفيات . ولما رجع المنصور صاحب حمص عن موالاة الصالح إسماعيل شرع فى جمع الجيوش من الحلبيين والتركمان والأعراب لاستنقاذ دمشق من الخوارزمية ، وحصارهم إياها ، فبلغ ذلك الخوارزمية فخافوا من غائلة ذلك ، وقالوا دمشق ماتفوت ، والمصلحة قتاله عند بلده ، فساروا إلى بحيرة حمص ، وأرسل الناصر دواد جيشه إلى الصالح إسماعيل مع الخوارزمية ، وساق جيش دمشق فانضافوا إلى صاحب حمص ، والتقوا مع الخوارزمية عند بحيرة حمص ، وكان يوما مشهوداً ، قتل فيه عامة الخوارزمية ، وقتل ملكهم بركات خان ، وجيء برأسه على رمح ، فتفرق شملهم وتمزقوا شذر مذر ، وساق المنصور صاحب حمص إلى بعلبك فتسلمها الصالح أيوب ، وجاء إلى دمشق فنزل ببستان سامة خدمة للصالح أيوب ، ثم حدثته نفسه بأخذها فاتفق مرضه ، فمات رحمه الله فى السنة الآتية ، ونقل إلى حمص ، فكانت مدة ملكه بعد أبيه عشر سنين ، وقام من بعده فيها ابنه الملك الأشرف مدة سنتين ، ثم أخذت منه على ماسيأتى وتسلم نواب الصالح أيوب بعلبك و بصرى ، ولم يبق بيد الصالح إسماعيل بلد يأوى إليه ولا أهل ولا ولد ولا مال ، بل أخذت جميع أمواله ونقلت عياله تحت الحوطة إلى الديار المصرية ، وسار هو فاستجار بالملك الناصر بن العزيز بن الظاهر غازى صاحب حلب ، فآواه وأكرمه واحترمه ، وقال

الاتابك لؤلؤ الحلبى لابن أستاذه الناصر ، وكان شابا صغيراً : انظر إلى عاقبة الظلم . وأما الخوارزمية فانهم ساروا إلى ناحيـة الكرك فأ كرمهم الناصر داود صاحبهـا ، وأحسن إليهـم وصاهرهم وأنزلهم بالصلت فأخذوا معها نابلس ، فأرسل إليهم الصالح أيوب جيشا مع فخر الدين ابن الشيخ فـكسرهم على الصلت وأجلاهم عن تلك البلاد ، وحاصر النـاصر بالـكرك وأهانه غاية الاهانة ، وقدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية فدخـل دمشق فى أبهـة عظيمة ، وأحسن إلى أهلها ، وتصدق على الفقراء والمساكين ، وسار إلى بعلبك و إلى بصرى و إلى صرخد ، فتسلمها من صاحبها عزالدين أيبك المعظمى ، وعوضه عنها ثم عاد إلى مصر مؤيداً منصوراً . وهذا كله فى السنة الآتية .

وفى هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين جيش الخليفة و بين التتار لعنهم الله ، فكسرهم المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم ، وهزموا من بين أيديهم ، فلم يلحقوهم ولم يتبعوهم ، خوفا من غائلة مكرهم وعملا بقوله ﷺ « اتركوا الترك ما تركوكم » . وفى هذه السنة ظهر ببلاد خوزستان على شق جبل داخله من الابنية الغريبة العجيبة ما يحار فيه الناظر ، وقد قيل إن ذلك من بناء الجن ، وأورد صفته ابن الساعى فى تاريخه

وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان

﴿ الشيخ تقى الدين ابن الصلاح ﴾

عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الامام العلامة ، مفتى الشام ومحدثها ، الشهرزورى ثم الدمشقى ، سمع الحديث ببلاد الشرق وتفقه هنالك بالموصل وحلب وغـيرها ، وكان أبوه مدرساً بالأسدية التى بحلب ، و واقفها أسد الدين شيركوه ابن شاذى ، وقدم هو الشام وهو فى عـداد الفضلاء الـكبار . وأقام بالقدس مـدة ودرس بالصلاحية ، ثم تحول منه إلى دمشق ، ودرس بالرواحية ثم بدار الحديث الأشرفية ، وهو أول من وليها من شيوخ الحـديث ، وهو الذى صنف كتاب وقفها ، ثم بالشاميـة الجوانية ، وقدصنف كتبا كثيرة مفيدة فى علوم الحديث والفقه [وله] تعاليق حسنة على الوسيط وغيره من الفوائد التى يرحـل إليها . وكان ديناً زاهدا ورعا ناسكا ، عـلى طريق السلف الصالح ، كما هو طريقة متأخرى أكثر المحدثين ، مع الفضيلة التامة فى فنون كثيرة ، ولم يزل على طريقة جيدة حتى كانت وفاته بمنزله فى دار الحديث الأشرفية ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وصلى عليـه بجامع دمشق وشـيعه الناس إلى داخل باب الفرج ، ولم يمكنهم البروز لظاهره لحصار الخوارزمية ، وما صحبـه إلى جبانة الصوفيـة إلا نحو العشرة رحمـه الله وتغمده برضوانه . وقد أثنى عليه القاضى شمس الدين بن خلـكان ، وكان من شـيوخه . قال السبط أنشدنى الشيخ تقى الدين من لفظه رحمه الله :

احذر من الواوات أربعة * فهن من الحتوف
واو الوصية والوديعة * والوكالة والوقوف

وحكى ابن خلكان عنه أنه قال : ألهمت فى المنام هؤلاء الكلمات : ادفع المسألة ما وجدت التحمل يمكنك فان لكل يوم رزقا جديدا ، والالحاح فى الطلب يذهب البهاء ، وما أقرب الصنيع من الملهوف ، وربما كان العسر نوعا من آداب الله ، والحظوظ مراتب فلا تعجل على ثمرة قبل أن تدرك فانك ستنالها فى أوانها ، ولا تعجل فى حوائجك فتضيق بها ذرعا ، ويغشاك القنوط .

﴿ ابن النجار الحافظ صاحب التاريخ ﴾

محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن ابن النجار ، أبو عبد الله البغدادى الحافظ الكبير ، سمع الكثير ورحل شرقا وغربا ، ولد سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وشرع فى كتابة التاريخ وعمره خمسة عشر سنة ، والقراءات وقرأ بنفسه على المشايخ كثيرا حتى حصل نحوا من ثلاثة آلاف شيخ ، من ذلك نحو من أربعمائة امرأة ، وتغرب ثمانيا وعشرين سنة ، ثم جاء إلى بغداد وقد جمع أشياء كثيرة ، من ذلك القمر المنير فى المسند الكبير ، يذكر لكل صحابى ما روى . وكنز الأيام فى معرفة السنن والأحكام ، والمختلف والمؤتلف ، والسابق واللاحق ، والمتفق والمفترق ، وكتاب الألقاب ، ونهج الاصابة فى معرفة الصحابة ، والكافى فى أسماء الرجال ، وغير ذلك مما لم يتم أكثره وله كتاب الذيل على تاريخ مدينة السلام ، فى ستة عشر مجلدا كاملا ، وله أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس ، وغرر الفوائد فى خمس مجلدات ، وأشياء كثيرة جدا سردها ابن الساعى فى ترجمته ، وذكر أنه لما عاد إلى بغداد عرض عليه الاقامة فى المدارس فأبى وقال : معى ما أستغنى به عن ذلك فاشترى جارية وأولدها وأقام برهة ينفق مدة على نفسه من كيسه ، ثم احتاج إلى أن نزل محدثا فى جماعة المحدثين بالمدرسة المستنصرية حين وضعت ، ثم مرض شهرين وأوصى إلى ابن الساعى فى أمر تركته وكانت وفاته يوم الثلاثاء الخامس من شعبان من هذه السنة ، وله من العمر خمس وسبعون سنة وصلى عليه بالمدرسة النظامية ، وشهد جنازته خلق كثير ، وكان ينادى حول جنازته هذا حافظ حديث رسول الله ﷺ ، الذى كان ينفى الكذب عنه . ولم يترك وارثا ، وكانت تركته عشرين دينارا وثياب بدنه ، وأوصى أن يتصدق بها ، ووقف خزانتين من الكتب بالنظامية تساوى ألف دينار ، فأمضى ذلك الخليفة المستعصم ، وقد أثنى عليه الناس ورثوه بمراث كثيرة ، سردها ابن الساعى فى آخر ترجمته

﴿ الحافظ ضياء الدين المقدسى ﴾

ابن الحافظ محمد بن عبد الواحد [1] سمع الحديث الكثير وكتب كثيراً وطوف وجمع وصنف

---

(١) بياض بجميع الأصول .

وألف كتبا مفيدة حسنة كثيرة الفوائد ، من ذلك كتاب الأحكام ولم يتمه ، وكتاب المختارة وفيه علوم حسنة حديثية ، وهي أجود من مستدرك الحاكم لو كمل ، وله فضائل الأعمال وغير ذلك من الكتب الحسنة الدالة على حفظه واطلاعه وتضلعه من علوم الحديث متنا و إسناداً . وكان رحمه الله في غاية العبادة والزهادة والورع والخير ، وقد وقف كتبا كثيرة عظيمة لخزانة المدرسة الضيائية التي وقفها على أصحابهم من المحدثين والفقهاء ، وقد وقفت عليها أوقاف أخر كثيرة بعد ذلك .

﴿ الشيخ علم الدين أبو الحسن السخاوي ﴾

علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب الهمداني المصري ، ثم الدمشقي شيخ القراء بدمشق، ختم عليه ألوف من الناس ، وكان قد قرأ على الشاطبي وشرح قصيدته ، وله شرح المفصل وله تفاسير وتصانيف كثيرة ، ومدائح في رسول الله ﷺ ، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وولي مشيخة الاقراء بتربة أم الصالح ، وبها كان مسكنه وبه توفي ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة ، ودفن بقاسيون . وذكر القاضي ابن خلكان أن مولده في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وذكر من شعره قوله :

قالوا غدا نأتي ديار الحمى * وينزل الركب بمغناهم
وكل من كان مطيعا لهم * أصبح مسروراً بلقياهم
قلت فلي ذنب فما حيلتي * بأي وجه أتلقاهم
قالوا أليس العفو من شأنهم * لا سيما عمن ترجاهم

﴿ ربيعة خاتون بنت أيوب ﴾

أخت السلطان صلاح الدين ، زوجها أخوها أولا بالأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين وتزوج هو بأخته عصمة الدين خاتون ، التي كانت زوجة الملك نور الدين واقفة الخاتونية الجوانية ، والخانقاه البرانية ، ثم لما مات الأمير سعد الدين زوجها من الملك مظفر الدين صاحب إربل ، فأقامت عنده باربل أزيد من أربعين سنة حتى مات ، ثم قدمت دمشق فسكنت بدار العقيقي حتى كانت وفاتها في هذه السنة وقد جاوزت الثمانين، ودفنت بقاسيون، وكانت في خدمتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي ، وكانت فاضلة ، ولها تصانيف ، وهي التي أرشدتها إلى وقف المدرسة بسفح قاسيون على الحنابلة ، ووقفت أمة اللطيف على الحنابلة مدرسة أخرى وهي الآن شرقي الرباط الناصري ، ثم لما ماتت الخاتون وقعت العالمة بالمصادرات وحبست مدة ثم أفرج عنها وتزوجها الأشرف صاحب حمص ، وسافرت معه إلى الرحبة وتل راشد ، ثم توفيت في سنة ثلاث وخمسين ، ووجد لها بدمشق ذخائر كثيرة وجواهر ثمينة ، تقارب ستمائة ألف درهم ، غير

الأملاك والأوقاف رحمها الله تعالى .

﴿ معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ ﴾

وزير الصالح نجم الدين أيوب ، أرسله إلى دمشق لحاصرها مع الخوارزمية أول مرة حتى أخذها من يد الصالح إسماعيل ، وأقام بها نائبا من جهة الصالح أيوب ، ثم مالأ الخوارزمية مع الصالح إسماعيل عليه لحصروه بدمشق ، ثم كانت وفاته فى العشر الأخر من رمضان هذه السنة ، عن ست وخمسين سنة ، فكانت مدة ولايته بدمشق أربعة أشهر ونصف . وصلى عليه بجامع دمشق ، ودفن بقاسيون إلى جانب أخيه عماد الدين . وفيها كانت وفاة واقف القليجية للحنفية . وهو الأمير :

﴿ سيف الدين بن قلج ﴾

ودفن بتربته التى بمدرسته المذكورة ، التى كانت سكنه بدار فلوس تقبل الله تعالى منه . وخطيب الجبل شرف الدين عبد الله بن الشيخ أبى عمر رحمه الله . والسيف أحمد بن عيسى بن الامام موفق الدين بن قدامة . وفيها توفى إمام الكلاسة الشيخ تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبى جعفر مسند وقته ، وشيخ الحديث فى زمانه رواية وصلاحا رحمه الله تعالى . والمحدثان الكبيران الحافظان المفيدان شرف الدين أحمد بن الجوهرى وتاج الدين عبد الجليل الأبهرى .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة ﴾

فيها كسر المنصور الخوارزمية عند بحيرة حمص واستقرت يد نواب الصالح أيوب على دمشق وبعلبك وبصرى ، ثم فى جمادى الآخرة كسر فخر الدين بن الشيخ الخوارزمية على الصلت كسرة فرق بقية شملهم ، ثم حاصر الناصر بالكرك ورجع عنه إلى دمشق. وقدم الصالح أيوب إلى دمشق فى ذى القعدة فأحسن إلى أهلها وتسلم هذه المدن المذكورة ، وانتزع صرخد من يد عز الدين أيبك ، وعوضه عنها ، وأخذ الصلت من الناصر داود بن المعظم وأخذ حصن الصبية من السعيد بن العزيز بن العادل ، وعظم شأنه جدا ، وزار فى رجوعه بيت المقدس وتفقد أحواله وأمر باعادة أسواره أن تعمر كما كانت فى الدولة الناصرية ، فاتح القدس ، وأن يصرف الخراج ومايتحصل من غلات بيت المقدس فى ذلك ، وإن عاز شيئا صرفه من عنده . وفيها قدمت الرسل من عند البابا الذى للنصارى تخبر بأنه قد أباح دم الابدور ملك الفرنج لتهاونه فى قتال المسلمين ، وأرسل طائفة من عنده ليقتلوه ، فلما انتهوا إليه كان استعدلهم وأجلس مملوكا له على السرير فاعتقدوه الملك فقتلوه ، فعند ذلك أخذهم الأبدور فصلبهم على باب قصره بعد ماذبحهم وسلخهم وحشى جلودهم تبناً ، فلما بلغ ذلك البابا أرسل إليه جيشاً كثيفاً لقتاله فأوقع الله الخلف بينهم بسبب ذلك ، وله الحمد والمنة .

وفيها هبت رياح عاصفة شديدة بمكة فى يوم الثلاثاء من عشر ربيع الآخر ، فألقت ستارة

الكعبة المشرفة ، وكانت قد عتقت ، فانها من سنة أربعين لم تجدد لعدم الحج فى تلك السنين من ناحية الخليفة ، فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد ، وكان هذا فألا على زوال دولة بنى العباس ، ومنذراً بما سيقع بعد هذا من كائنة التتار لعنهم الله تعالى . فاستأذن نائب اليمن عمر بن سول شيخ الحرم العفيف بن منعة فى أن يكسو الكعبة ، فقال لايكون هذا إلا من مال الخليفة ، ولم يكن عنده مال فاقترض ثلثمائة دينار واشترى ثياب قطن وصبغها سواداً وركب عليها طرازاتها العتيقة وكسى بها الكعبة ومكثت الكعبة ليس عليها كسوة إحدى وعشرين ليلة . وفيها فتحت دار الكتب التى أنشأها الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمى بدار الوزارة ، وكانت فى نهاية الحسن ، ووضع فيها من الكتب النفيسة والنافعة شئ كثير، وامتدحها الشعراء بأبيات وقصائد حسانا وفى أواخر ذى الحجة طهر الخليفة المستعصم بالله ولديه الأميرين أبا العباس أحمد ، وأبا الفضائل عبد الرحمن ، وعملت ولائم فيها كل أفراح ومسرة ، لا يسمع بمثلها من أزمان متطاولة ، وكان ذلك وداعا لمسرات بغداد وأهلها فى ذلك الزمان .

وفيها احتاط الناصر داود صاحب الكرك على الأمير عماد الدين داود بن موسك بن حسكو ، وكان من خيار الأمراء الأجواد ، واصطفى أمواله كلها وسجنه عنده فى الكرك ، فشفع فيه فخر الدين ابن الشيخ لما كان محاصره فى الكرك فأطلقه ، فخرجت فى حلقه جراحة فبطها فمات ودفن عند قبر جعفر والشهداء بحوته رحمه الله تعالى .

وفيها توفى ملك الخوارزمية قبلا بركات خان لما كسرت أصحابه عند بحيرة حمص كما تقدم ذكره وفيها توفى ﴿ الملك المنصور ﴾

ناصر الدين إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص بدمشق ، بعد أن سلم بعلبك للصالح أيوب ، ونقل إلى حمص ، وكان نزوله أولا ببستان سامة ، فلما مرض حمل إلى الدهشة بستان الأشرف بالنيرب فمات فيه . وفيها توفى .

﴿ الصائن محمد بن حسان ﴾

ابن رافع العامرى الخطيب ، وكان كثير السماع مسندا ، وكانت وفاته بقصر حجاج رحمه الله تعالى.

وفيها توفى ﴿ الفقيه العلامة محمد بن محمود بن عبد المنعم ﴾

المرامى الحنبلى وكان فاضلا ذا فنون ، أثنى عليه أبو شامة . قال : صحبته قديما ولم يترك بعده بدمشق مثله فى الحنابلة ، وصلى عليه بجامع دمشق ودفن بسفح قاسيون رحمه الله .

﴿ والضياء عبد الرحمن الغمارى ﴾

المالكى الذى ولى وظائف الشيخ أبى عمرو ابن الحاجب حين خرج من دمشق سنة ثمان

وثلاثين وجلس فى حلقته ودرس مكانه بزاوية المالكية والفقيه تاج الدين إسماعيل بن جميل بحلب ، وكان فاضلا دينا سليم الصدر رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة ﴾

فيها كان عود السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل من الشام إلى الديار المصرية ، وزار فى طريقه بيت المقدس وفرق فى أهله أموالا كثيرة ، وأمر باعادة سوره كما كان فى أيام عم أبيه الملك الناصر فاتح القدس . ونزل الجيوش لحصار الفرنج ففتحت طبرية فى عاشر صفر وفتحت عسقلان فى أواخر جمادى الآخرة ، وفى رجب عزل الخطيب عماد الدين داود بن خطيب بيت الأبار عن الخطابة بجامع الأموى ، وتدريس الغزالية ، وولى ذلك للقاضى عماد الدين بن عبد الكريم بن الحرستانى شيخ دار الحديث بعد ابن الصلاح . وفيها أرسل الصالح أيوب يطلب جماعة من أعيان الدماشقة اتهموا بممالأة الصالح إسماعيل ، منهم القاضى محيي الدين بن الزكى ، وبنو صصرى وابن العماد الكاتب ، والحليمى مملوك الصالح إسماعيل ، والشهاب غازى والى بصرى ، فلما وصلوا إلى مصر لم يكن إليهم شئ من العقوبات والاهانة ، بل خلع على بعضهم وتركوا باختيارهم مكرمين .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الحسين بن الحسين بن على ﴾

ابن حمزة العلوى الحسينى ، أبو عبد الله الافساسى النقيب قطب الدين ، أصله من الكوفة وأقام ببغداد ، وولى النقابة ، ثم اعتقل بالكوفة ، وكان فاضلا أديباً شاعرا مطبقا ، أورد له ابن الساعى أشعاراً كثيرة رحمه الله .

﴿ الشلوبين النحوى ﴾

هو عمر بن محمد بن عبد الله الأزدى ، أبو على الأندلسى الأشبيلى ، المعروف بالشلوبين . وهو بلغة الأندلسيين الأبيض الأشقر . قال ابن خلكان : ختم به أئمة النحو ، وكان فيه تغفل ، وذكر له شعرا ومصنفات ، منها شرح الجزولية وكتاب التوطئة . وأرخ وفاته بهذه السنة . وقد جاوز الثمانين رحمه الله تعالى وعفا عنه .

﴿ الشيخ على المعروف بالحريرى ﴾

أصله من قرية بسر شرقى ذرع ، وأقام بدمشق مدة يعمل صنعة الحرير ، ثم ترك ذلك وأقبل يعمل الفقيرى على يد الشيخ على المغربل ، وابتنى له زاوية على الشرف القبلى ، وبدرت منه أفعال أنكرها عليه الفقهاء ، كالشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ تقى الدين ابن الصلاح ، والشيخ أبى عمرو بن الحاجب شيخ المالكية وغيرهم ، فلما كانت الدولة الأشرفية حبس فى قلعة عزتا مدة سنين ثم أطلقه الصالح إسماعيل واشترط عليه أن لا يقيم بدمشق ، فلزم بلده بسر مدة حتى كانت وفاته فى

هـذه السنة ، قال الشيخ شهاب الدين أبو شامـة فى الذيل : وفى رمضان أيضاً توفى الشيخ عـلى المعروف بالحريرى المقيم بقرية بسر فى زاويتـه ، وكان يتردد إلى دمشق ، وتبعه طائفة من الفقراء وهم المعروفون بأصحاب الحريرى أصحاب المنافى للشريعة ، وباطنهم شر من ظاهرهم ، إلا من رجع إلى الله منهم ، وكان عند هذا الحريرى من الاستهزاء بأمور الشريعة والتهاون فيها من إظهار شعائر أهل الفسوق والعصيان شىء كثير ، وانفسد بسببه جماعة كبيرة من أولاد كبراء دمشق وصاروا على زى أصحابه ، وتبعوه بسبب أنه كان خليع العذار ، يجمع مجلسه الغنا الدائم والرقص والمردان ، وترك الانكار على أحد فيما يفعله ، وترك الصلوات وكثرت النفقات ، فأضل خلقا كثيرا وأفسد جما غفيرا ، ولقد أفتى فى قتله مرارا جماعة من علماء الشريعة ، ثم أراح الله تعالى منه . هذا لفظه بحروفه .

﴿ واقف العزية الأمير عز الدين أيبك ﴾

أستاذ دار المعظم ، كان من العقلاء الأجواد الأمجاد ، استنابه المعظم على صرخد وظهرت منه نهضة وكفاية وسداد ، ووقف العزيتين الجوانية والبرانية ، ولما أخذ منه الصالح أيوب صرخد عوضه عنها وأقام بدمشق ثم وشى عليه بأنه يكاتب الصالح إسماعيل فاحتيط عليه وعلى أمواله وحواصله فمرض وسقط إلى الأرض ، وقال : هذا آخر عهدى . ولم يتكلم حتى مات ودفن بباب النصر بمصر رحمه الله تعالى ، ثم نقل إلى تربته التى فوق الوراقة . وإنما أرخ السبط وفاته فى سنة سبع وأربعين فالله أعلم .

﴿ الشهاب غازى بن العادل ﴾

صاحب ميا فارقين وخلاط وغيرهما من البلدان ، كان من عقلاء بنى أيوب وفضلائهم ، وأهل الديانة منهم ، ومما أنشد قوله :

ومن عجب الأيام أنك جالس * على الأرض فى الدنيا وأنت تسير
فسيرك يا هذا كسير سفينة * بقوم جلوس والقلوع تطير

﴿ ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة ﴾

فيها قدم السلطان الصالح نجم الدين من الديار المصرية إلى دمشق وجهز الجيوش والمجانيق إلى حمص ، لأنه كان صاحبها الملك الأشرف بن موسى بن المنصور بن أسد الدين قد قايض بها إلى تل باشر لصاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز ، ولمـا علمت الحلبيون بخروج الدماشقة برزوا أيضاً فى جحفل عظيم ليمنعوا حمص منهـم ، واتفق الشيخ نجم الدين البادزاى مدرس النظاميـة ببغداد فى رسالة فأصلح بين الفريقـين ، ورد كلا من الفئتين إلى مستقرها ولله الحمد . وفيها قتـل مملوك تركى شاب صبى لسيده على دفعه عنه لما أراد به من الفاحشة ، فصلب الغلام مسمرا ، وكان شابا حسنا جدا فتأسف الناس له لكونه صغيرا ومظلوما وحسنا ، ونظموا فيه قصائد ، وممن نظم فيه الشيخ شهاب

الدين أبو شامة فى الذيل ، وقد أطال قصته جدا . وفيها سقطت قنطرة رومية قديمة البناء بسوق الدقيق من دمشق ، عند قصر أم حكيم ، فتهدم بسببها شئ كثير من الدور والدكاكين ، وكان سقوطها نهارا . وفى ليلة الأحد الخامس والعشرين من رجب وقع حريق بالمنارة الشرقية فأحرق جميع حشوها ، وكانت سلالمها سقالات من خشب ، وهلك للناس ودائع كثيرة كانت فيها ، وسلم الله الجامع وله الحمد . وقدم السلطان بعد أيام إلى دمشق فأمر بإعادتها كما كانت ، قلت : ثم احترقت وسقطت بالكلية بعد سنة أربعين وسبعمائة وأعيدت عمارتها أحسن مما كانت ولله الحمد . و بقيت حينئذ المنارة البيضاء الشرقية بدمشق كما نطق به الحديث فى نزول عيسى عليه السلام عليها ، كما سيأتى بيانه وتقريره فى موضعه إن شاء الله تعالى . ثم عاد السلطان الصالح أيوب مريضاً فى محفة إلى الديار المصرية وهو ثقيل مدنف ، شغله ماهو فيه عن أمره بقتل أخيه العادل أبى بكر بن الكامل الذى كان صاحب الديار المصرية بعد أبيه ، وقد كان سجنه سنة استحوذ على مصر ، فلما كان فى هذه السنة فى شوالها أمر بخنقه فخنق بتربة شمس الدولة ، فما عمر بعده إلا إلى النصف من شعبان فى العام القابل فى أسوأ حال ، وأشد مرض ، فسبحان من له الخلق والأمر .

وفيها كانت وفاة قاضى القضاة بالديار المصرية .

﴿ فضل الدين الخونجى ﴾

الحكيم المنطقى البارع فى ذلك ، وكان مع ذلك جيد السيرة فى أحكامه قال أبوشامة : أثنى عليه غير واحد.

﴿ على بن يحيى جمال الدين أبو الحسن المحرمى ﴾

كان شابا فاضلا أديباً شاعرا ماهرا ، صنف كتابا مختصرا وجيزا جامعاً لفنون كثيرة فى الرياضة والعقل وذم الهوى ، وسماه نتائج الأفكار . قال فيه من الكلام المستفادة الحكمية : السلطان إمام متبوع ، ودين مشروع ، فان ظلم جارت الحكام لظلمه ، و إن عدل لم يجر أحد فى حكمه ، من مكنه الله فى أرضه و بلاده وائتمنه على خلقه وعباده ، و بسط يده وسلطانه ، و رفع محله ومكانه ، فحقيق عليه أن يؤدى الأمانة ، و يخلص الديانة ، و يجمل السريرة ، و يحسن السيرة ، و يجعل العدل دأبه المعهود ، والأجر غرضه المقصود ، فالظلم يزل القدم ، و يزيل النعم ، و يجلب الفقر ، و يهلك الأمم . وقال أيضا : معارضة الطبيب توجب التعذيب ، رب حيلة أنفع من قبيلة ، سمين الغضب مهزول ، و والى الغدر معزول ، قلوب الحكماء تستشف الأسرار من لمحات الأبصار ، ارض من أخيك فى ولايته بعشر ما كنت تعهده فى مودته ، التواضع من مصائد الشرف ، ما أحسن حسن الظن لولا أن فيه العجز . ما أقبح سوء الظن لولا أن فيه الحزم . وذكر فى غضون كلامه أن خادماً لعبدالله بن عمر أذنب فأراد ابن عمر أن يعاقبه على ذنبه فقال : يا سيدى أما لك ذنب تخاف من الله فيه ؟ قال بلى ،

قال بالذى أمهلك لما أمهلتنى ، ثم أذنب العبد ثانياً فأراد عقوبته فقال له مثل ذلك فعفا عنه ، ثم أذنب الثالثة فعاقبه وهو لا يتكلم فقال له ابن عمر : مالك لم تقل مثل ما قلت فى الأولتين ؟ فقال : يا سيدى حياء من حلمك مع تكرار جرمى . فبكى ابن عمر و قال : أنا أحق بالحياء من ربى ، أنت حر لوجه الله تعالى .ومن شعره يمدح الخليفة .

يا من إذا بخل السحاب بمائه * هطلت يداه على البرية عسجدا

جورت كسرى يا مبخل حاتم * فغدت بنو الآمال نحوك سجدا

وقد أورد له ابن الساعى أشعارا كثيرة حسنة رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ أبو عمرو بن الحاجب ﴾

المالكى عثمان بن عمر بن أبى بكر بن يونس الروينى ثم المصرى ، العلامة أبو عمرو شيخ المالكية كان أبوه صاحبا للأمير عز الدين موسك الصلاحى ، واشتغل هو بالعلم فقرأ القراءات وحرر النحو تحريرا بليغا ، وتفقه وساد أهل عصره ، ثم كان رأساً فى علوم كثيرة ، منها الأصول والفروع والعربية والتصريف والعروض والتفسير وغير ذلك . وقد كان استوطن دمشق فى سنة سبع عشرة وستمائة ، ودرس بها للمالكية بالجامع حتى كان خروجه بصحبة الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى سنة ثمان وثلاثين ، فصارا إلى الديار المصرية حتى كانت وفاة الشيخ أبى عمرو فى هذه السنة بالاسكندرية ، ودفن بالمقبرة التى بين المنارة والبلد . قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة : وكان من أذكى الأئمة قريحة ، وكان ثقة حجة متواضعاً عفيفا كثير الحياء منصفا محبا للعلم وأهله ، ناشراً له محتملا للأذى صبورا على البلوى ، قدم دمشق مرارا آخرها سنة سبع عشرة ، فأقام بها مدرساً للمالكية وشيخا للمستفيدين عليه فى علمى القراءات والعربية ، وكان ركنا من أركان الدين فى العلم والعمل ، بارعا فى العلوم متقنا لمذهب مالك بن أنس رحمه الله تعالى . وقد أثنى عليه ابن خلكان ثناء كثيرا ، وذكر أنه جاء إليه فى أداء شهادة حين كان نائبا فى الحكم بمصر وسأله عن مسألة اعتراض الشرط على الشرط ، إذا قال إن أكلت إن شربت فأنت طالق ، لم كان يقع الطلاق حين شربت أولا ؟ وذكر أنه أجاب عن ذلك فى تؤدة وسكون . قلت ومختصره فى الفقه من أحسن المختصرات ، انتظم فيه فوائد ابن شاش ، ومختصره فى أصول الفقه ، استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الآمدى ، وقد من الله تعالى على بحفظه وجمعت كراريس فى الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية ، ولله الحمد . وله شرح المفصل والأمالى فى العربية والمقدمة المشهورة فى النحو ، اختصر فيها مفصل الزمخشرى وشرحها ، وقد شرحها غيره أيضاً ،وله التصريف وشرحه ، وله عروض على وزن الشاطبية رحمه الله ورضى عنه .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة ﴾

فيها كانت وفاة الملك الصالح أيوب ، وقتل ابنه توران شاه وتولية المعز عز الدين أيبك التركمانى . وفى رابع المحرم يوم الاثنين توجه الملك الصالح من دمشق إلى الديار المصرية فى محفة . قاله ابن السبط. وكان قد نادى فى دمشق : من له عندنا شئ فليأت ، فاجتمع خلق كثير بالقلعة ، فدفعت إليهم أموالهم وفى عاشر صفر دخل إلى دمشق نائبها الأمير جمال الدين بن يغمور من جهة الصالح أيوب فنزل بدرب الشعارين داخل باب الجابية ، وفى جمادى الآخرة أمر النائب بتخريب الدكاكين المحدثة وسط باب البريد ، وأمر أن لا يبقى فيها دكان سوى ما فى جانبيه إلى جانب الخياطين القبلى والشامى ، وما فى الوسط يهدم . قال أبو شامة : وقد كان العادل هدم ذلك ثم أعيد ثم هدمه ابن يغمور ، والمرجو استمراره على هذه الصفة . وفيها توجه الناصر داود من الكرك إلى حلب فأرسل الصالح أيوب إلى نائبه بدمشق جمال الدين بن يغمور بخراب دار أسامة المنسوبة إلى الناصر بدمشق ، وبستانه الذى بالقابون ، وهو بستان القصر ، وأن تقلع أشجاره ويخرب القصر ، وتسلم الصالح أيوب الكرك من الأمجد حسن بن الناصر ، وأخرج من كان بها من بيت المعظم ، واستحوذ على حواصلها وأموالها ، فكان فيها من الذهب ألف ألف دينار ، وأقطع الصالح الأمجد هذا إقطاعا جيداً . وفيها طغى الماء ببغداد حتى أتلف شيئا كثيراً من المحال والدور الشهيرة ، وتعذرت الجمع فى أكثر الجوامع بسبب ذلك سوى ثلاث جوامع ، ونقلت توابيت جماعة من الخلفاء إلى الترب من الرصافة خوفا عليهم من أن تغرق محالهم ، منهم المقتصد بن الأمير أبى أحمد المتوكل ، وذلك بعد دفنه بنيف وخمسين سنة وثلثمائة سنة ، وكذا نقل ولده المكتفى وكذا المقتفى بن المقتدر بالله رحمهم الله تعالى . وفيها هجمت الفرنج على دمياط فهرب من كان فيها من الجند والعامة واستحوذ الفرنج على الثغر وقتلوا خلقا كثيرا من المسلمين ، وذلك فى ربيع الأول منها ، فنصب السلطان المخيم تجاه العدو بجميع الجيش ، وشنق خلقا ممن هرب من الفرنج ، ولامهم على ترك المصابرة قليلا ليرهبوا عدو الله وعدوهم ، وقوى المرض وتزايد بالسلطان جدا ، فلما كانت ليلة النصف من شعبان توفى إلى رحمة الله تعالى بالمنصورة ، فأخفت جاريته أم خليل المدعوة شجرة الدر موته ، وأظهرت أنه مريض مدنف لا يوصل إليه ، وبقيت تعلم عنه بعلامته سواء . وأعلمت إلى أعيان الأمراء فأرسلوا إلى ابنه الملك المعظم توران شاه وهو بحصن كيفا ، فأقدموه إليهم سريعاً ، وذلك بإشارة أكابر الأمراء منهم فخر الدين ابن الشيخ ، فلما قدم عليهم ملكوه عليهم وبايعوه أجمعين ، فركب فى عصائب الملك وقاتل الفرنج فكسرهم وقتل منهم ثلاثين ألفا ولله الحمد . وذلك فى أول السنة الداخلة . ثم قتلوه بعد شهرين من ملكه ، ضربه بعض الأمراء وهو عز الدين أيبك التركمانى ، فضربه فى يده فقطع بعض أصابعه فهرب إلى

قصر من خشب فى المخيم فحاصروه فيه وأحرقوه عليه ، فخرج من بابه مستجيراً برسول الخليفة فلم يقبلوا منه ، فهرب إلى النيل فانغمر فيه ثم خرج فقتل سريعاً شر قتلة وداسوه بأرجلهم ودفن كالجيفة، فانا لله و إنا إليه راجعون . وكان فيمن ضربه البندقدارى علي كتفه فخرج السيف من تحت إبطه الآخر وهو يستغيث فلا يغاث .

ومن قتل فى هذه السنة ﴿ فخر الدين يوسف بن الشيخ بن حمويه ﴾

وكان فاضلا دينا مهيباً وقورا خليقا بالملك ، كانت الأمراء تعظمه جدا ، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح لما اختلف عليه اثنان ، ولكنه كان لايرى ذلك حماية لجانب بنى أيوب ، قتلته الداوية من الفرنج شهيدا قبل قدوم المعظم توران شاه إلى مصر ، فى ذى القعدة ، ونهبت أمواله وحواصله وخيوله ، وخربت داره ولم يتركوا شيئا من الأفعال الشنيعة البشعة إلا صنعوه به ، مع أن الذين تعاطوا ذلك من الأمراء كانوا معظمين له غاية التعظيم . ومن شعره :

عصيت هوى نفسى صغيرا فعندما * رمتنى الليالى بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتنى * خلقت كبيراً ثم عدت إلى الصغر

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة ﴾

فى ثالث المحرم يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه للفرنج علي ثغر دمياط ، فقتل منهم ثلاثين ألفا وقيل مائة ألف ، وغنموا شيئا كثيرا ولله الحمد . ثم قتل جماعة من الأمراء الذين أسروا ، وكان فيمن أسر ملك الفرنسيس وأخوه ، وأرسلت غفارة ملك الأفرنسيس إلى دمشق فلبسها نائبها فى يوم الموكب ، وكانت من سقرلاط تحتها فروسنجاب، فأنشد فى ذلك جماعة من الشعراء فرحا بما وقع ، ودخل الفقراء كنيسة مريم فأقاموا بها فرحا لما نصر الله تعالى على النصارى ، وكادوا أن يخربوها وكانت النصارى ببعلبك فرحوا حين أخذت النصارى دمياط ، فلما كانت هذه الكسرة عليهم سخموا وجوه الصور ، فأرسل نائب البلد فجناهم وأمر اليهود فصفعوهم ، ثم لم يخرج شهر المحرم حتى قتل الأمراء ابن أستاذهم توران شاه ، ودفنوه إلى جانب النيل من الناحية الأخرى رحمه الله تعالى ورحم أسلافه بمنه وكرمه .

﴿ تمليك الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى بمصر بعد بنى أيوب ، وهذا أول دولة الأتراك ﴾

لما قتل الأمراء البحرية وغيرهم من الصالحية ابن أستاذهم المعظم غياث الدين توران شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل أبى بكر بن نجم الدين أيوب ، وكان ملكه بعد أبيه بشهرين كما تقدم بيانه ، ولما انفصل أمره بالقتل نادوا فيما بينهم لا بأس لا بأس، واستدعوا من بينهم الأمير عز الدين أيبك التركمانى، فملكوه عليهم وبايعوه ولقبوه بالملك المعز، وركبوا إلى القاهرة ، ثم بعد خمسة أيام أقاموا

لهـم صبياً من بنى أيوب ابن عشر سنين وهو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف ابن المسعود إقسيس بن الـكامل ، وجعـلوا المعز أتابكه فكانت السكة والخطبة بينهما ، وكاتبوا أمراء الشام بذلك ، فما تم لهم الأمر بالشام ، بل خرج عن أيديهم ولم تستقر لهم المملكة إلا عـلى الديار المصرية ، وكل ذلك عن أمر الخاتون شجرة الدر أم خليل حظيـة الصالح أيوب ، فتزوجت بالمعز ، وكانت الخطبة والسكة لها ، يدعى لها عـلى المنابر أيام الجمع بمصر وأعمالهـا ، وكذا تضرب السكة باسمها أم خليل ، والعلامة على المناشير والتواقيع بخطها واسمها ، مدة ثلاثة أشهر قبـل المعز ، ثم آل أمرها إلى ماسنذكره من الهوان والقتل .

﴿ ذكر ملك الناصر بن العزيز بن الظاهر صاحب حلب لدمشق رحمهما الله تعالى ﴾

لما وقع بالديار المصرية من قتل الأمراء للمعظم توران شاه بن الصالح أيوب ركب الحلبيون معهم ابن أستاذهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف فاتح بيت المقـدس ، ومن كان عندهم من ملوك بنى أيوب منهم الصالح إسماعيل بن العادل ، وكان أحق الموجودين بالملك ، من حيث السن والتعدد والحرمة والرياسـة ، ومنهـم الناصر داود بن المعظم بن العادل ، والأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن أسـد الدين شيركوه ، الذى كان صاحب حمص وغـيرهم ، فجاؤا إلى دمشق فحاصروها فملكوها سريعاً ، ونهبت دار ابن يغمور وحبس فى القلعة وتسلموا ما حولها كبعلبك و بصرى والصلت وصرخد ، وامتنعت عليهـم الكرك والشوبك بالملك المغيث عمر بن العـادل بن الكامل ، كان قد تغلب عليهما فى هذه الفتنة حين قتل المعظم توران شاه ، فطلبه المصريون ليملكوه عليهـم فخاف مما حل بابنى عمه ، فلم يذهب إليهم . ولما استقرت يد الحلبيين على دمشق وما حولها جلس الناصر فى القلعة وطيب قلوب الناس ، ثم ركبوا إلى غزة ليتسلموا الديار المصرية ، فبرز إليهم الجيش المصرى فاقتتلوا معهم أشد القتال ، فكسر المصريون أولا بحيث إنه خطب للناصر فى ذلك بها ، ثم كانت الدائرة على الشاميين فانهزموا وأسروا من أعيانهـم خلقا كثيراً ، وعدم من الجيش الصالح إسماعيل رحمه الله تعالى ، وقد أنشد هنا الشيخ أبو شامة لبعضهم :

ضيع إسماعيل أموالنا * وخرب المغنى بلا معنى
وراح من جلق هذا جزاء * من أفقر الناس وما استغنى

﴿ ذكر شىء من ترجمة الصالح إسماعيل « أبى الحسن واقف تربة الصالح » ﴾

وقـد كان الصالح رحمه الله ملكا عاقـلا حازماً تتقلب به الأحوال أطوارا كثيرة ، وقـد كان الأشرف أوصى له بدمشق من بعده ، فملكها شهوراً ثم انتزعها منـه أخوه الـكامل ، ثم ملكها من يد الصالح أيوب خديعة ومكرا ، فاستمر فيها أزيد من أربع سنين ، ثم استعادها منه الصالح أيوب

عام الخوارزمية سنة ثلاث وأربعين ، واستقرت بيده بلداه بعلبك وبصرى ، ثم أخذتا منه كما ذكرنا ، ولم يبق له بلد يأوى إليه ، فلجأ إلى المملكة الحلبية فى جوار الناصر يوسف صاحبها ، فلما كان فى هذه السنة ما ذكرنا عدم بالديار المصرية فى المعركة فلا يدرى ما فعل به والله تعالى أعلم . وهو واقف التربة والمدرسة ودار الحديث والاقراء بدمشق رحمه الله بكرمه .

وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان .

﴿ الملك المعظم توران شاه بن الصالح أيوب ﴾

ابن الكامل ابن العادل ، كان أولا صاحب حصن كيفا فى حياة أبيه ، وكان أبوه يستدعيه فى أيامه فلا يجيبه ، فلما توفى أبوه كما ذكرنا استدعاه الأمراء فأجابهم وجاء إليهم فملكوه عليهم ، ثم قتلوه كما ذكرنا ، وذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم ، وقد قيل إنه كان متخلفا لا يصلح للملك ، وقد رؤى أبوه فى المنام بعد قتل ابنه وهو يقول :

قتلوه شر قتله * صار للعالم مثله
لم يراعوا فيه إلا * لاولا من كان قبله
ستراهم عن قريب * لأقل الناس أكله

فكان كما ذكرنا من اقتتال المصريين والشاميين . وممن عدم فيما بين الصفين من أعيان الأمراء والمسلمين فمنهم الشمس لؤلؤ مدبر ممالك الحلبيين ، وكان من خيار عباد الله الصالحين الآمرين بالمعروف وعن المنكر ناهين . وفيها كانت وفاة .

﴿ الخاتون ارغوانية ﴾

الحافظية سميت الحافظية لخدمتها وتربيتها الحافظ ، صاحب قلعة جعبر ، وكانت امرأة عاقلة مدبرة عمرت دهرا ولها أموال جزيلة عظيمة ، وهى التى كانت تصلح الأطعمة للمغيث عمر بن الصالح أيوب ، فصادرها الصالح إسماعيل فأخذ منها أربعمائة صندوق من المال ، وقد وقفت دارها بدمشق على خدامها ، واشترت بستان النجيب ياقوت الذى كان خادم الشيخ تاج الدين الكندى ، وجعلت فيه تربة ومسجدا ، ووقفت فيه عليها أوقافا كثيرة جيدة رحمها الله .

واقف الأمينية التى ببعلبك . ﴿ أمين الدولة أبو الحسن غزال المتطبب ﴾

وزير الصالح إسماعيل أبى الجيش الذى كان مشؤما على نفسه ، وعلى سلطانه ، وسببا فى زوال النعمة عنه وعن مخدومه ، وهذا هو وزير السوء ، وقد اتهمه السبط بأنه كان مستهترا بالدين ، وأنه لم يكن له فى الحقيقة دين ، فأراح الله تعالى منه عامة المسلمين ، وكان قتله فى هذه السنة لما عدم الصالح إسماعيل بديار مصر ، عمد من عمد من الأمراء إليه وإلى ابن يغمور فشنقوهما وصلبوهما على القلعة

بمصر متناوحين . وقد وجد لأمين الدولة غزال هذا من الأموال والتحف والجواهر والأثاث مايساوى ثلاثة آلاف ألف دينار ، وعشرة آلاف مجلد بخط منسوب وغير ذلك من الخطوط النفيسة الفائقة .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة ﴾

فيها عاد الملك الناصر صاحب حلب إلى دمشق وقدمت عساكر المصريين فحكموا على بلاد السواحل إلى حد الشريعة ، فجهز لهم الملك الناصر جيشاً فطردوهم حتى ردوهم إلى الديار المصرية ، وقصروهم عليها ، وتزوجت فى هذه السنة أم خليل شجرة الدر بالملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ، مملوك زوجها الصالح أيوب . وفيها نقل تابوت الصالح أيوب إلى تربته بمدرسته ، ولبست الأتراك ثياب العزاء ، وتصدقت أم خليل عنه بأموال جزيلة . وفيها خربت الترك دمياط ونقلوا الأهالى إلى مصر وأخلوا الجزيرة أيضاً خوفا من عود الفرنج . وفيها كمل شرح الكتاب المسمى بنهج البلاغة فى عشرين مجلدا مما ألفه عبد الحميد بن داود بن هبة الله بن أبى الحديد المدائنى ، الكاتب للوزير مؤيد الدين بن العلقمى ، فأطلق له الوزير مائة دينار وخلعة وفرسا ، وامتدحه عبد الحميد بقصيدة ، لانه كان شيعياً معتزليا . وفى رمضان استدعى الشيخ سراج الدين عمر بن بركة النهر قلى مدرس النظامية ببغداد فولى قضاء القضاة ببغداد مع التدريس المذكور ، وخلع عليه . وفى شعبان ولى تاج الدين عبد الكريم بن الشيخ محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى حسبة بغداد بعد أخيه عبد الله الذى تركها تزهدا عنها ، وخلع عليه بطرحة ، ووضع على رأسه غاشية ، وركب الحجاب فى خدمته . وفى هذه السنة صليت صلاة العيد يوم الفطر بعد العصر ، وهذا اتفاق غريب. وفيها وصل إلى الخليفة كتاب من صاحب اليمن صلاح الدين بن يوسف بن عمر بن رسول يذكر فيه أن رجلا باليمن خرج فادعى الخلافة ، وأنه أنفذ إليه جيشاً فكسروه وقتلوا خلقا من أصحابه وأخذ منهم صنعاء وهرب هو بنفسه فى شرذمة ممن بقى من أصحابه . وفيها أرسل الخليفة إليه بالخلع والتقليد وفيها كانت وفاة .

﴿ بهاء الدين على بن هبة الله بن سلامة الحميرى ﴾

خطيب القاهرة ، رحل فى صغره إلى العراق فسمع بها وغيرها ، وكان فاضلا قد أتقن معرفة مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، وكان دينا حسن الأخلاق واسع الصدر كثير البر ، قل أن يقدم عليه أحد إلا أطعمه شيئا ، وقد سمع الكثير على السلفى وغيره ، وأسمع الناس شيئا كثيرا من مروياته ، وكانت وفاته فى ذى الحجة من هذه السنة ، وله تسعون سنة ، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى .

وممن توفى فيها ﴿ أقضى القضاة أبو الفضل عبد الرحمن بن عبد السلام ﴾

ابن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إبراهيم اللمغانى الحنفى من بيت العلم والقضاء ، درس بمشهد أبى حنيفة وناب عن قاضى القضاة ابن فضلان الشافعى ، ثم عن قاضى القضاة أبى صالح نصر بن

عبدالرزاق الحنبلى ، ثم عن قاضى القضاء عبد الرحمن بن مقبل الواسطى ، ثم بعد وفاته فى سنة ثلاث وثلاثين استقل القاضى عبد الرحمن اللمعانى بولاية الحكم ببغداد ، ولقب أقضى القضاة ، ولم يخاطب بقاضى القضاة ، ودرس للحنفية بالمستنصرية فى سنة خمس وثلاثين ، وكان مشكور السيرة فى أحكامه ونقضه و إبرامه . ولما توفى تولى بعده قضاء القضاة ببغداد شيخ النظامية سراج الدين النهر قلى رحمهما الله تعالى وتجاوز عنهما بمنه وكرمه آمين .

﴿ ثم دخلت سنة خمسين وستمائة هجرية ﴾

فيها وصلت التتار إلى الجزيرة وسروج ورأس العين وما والى هذه البلاد ، فقتلوا وسبوا ونهبوا وخربوا فانا لله و إنا إليه راجعون . ووقعوا بسنجار يسيرون بين حران ورأس العين ، فأخذوا منهم ستمائة حمل سكر ومعمول من الديار المصرية ، وستمائة ألف دينار ، وكان عدة من قتلوا فى هذه السنة من أهل الجزيرة نحواً من عشرة آلاف قتيل ، وأسروا من الولدان والنساء ما يقارب ذلك ، فانا لله و إنا إليه راجعون . قال السبط : وفيها حج الناس من بغداد ، وكان لهم عشر سنين لم يحجوا من زمن المستنصر . وفيها وقع حريق بحلب احترق بسببه ستمائة دار ، و يقال إن الفرنج لعنهم الله ألقوه فيه قصدا . وفيها أعاد قاضى القضاة عمر بن على النهر قلى أمر المدرسة التاجية التى كان قد استحوذ عليها طائفة من العوام ، وجعلوها كالقيسارية يبتاعون فيها مدة طويلة ، وهى مدرسة جيدة حسنة قريبة الشبه من النظامية ، وقد كان بانيها يقال له تاج الملك ، وزير ملك شاه السلجوقى ، وأول من درس بها الشيخ أبو بكر الشاشى .

وفيها كانت وفاة ﴿ جمال الدين بن مطروح ﴾

وقد كان فاضلا رئيسا كيسا شاعرا من كبار المتعممين ، ثم استنابه الملك الصالح أيوب فى وقت على دمشق فلبس لبس الجند . قال السبط : وكان لا يليق فى ذلك . ومن شعره فى الناصر داود صاحب الكرك لما استعاد القدس من الفرنج حين سلمت إليهم فى سنة ست وثلاثين فى الدولة الكاملية فقال هذا الشاعر ، وهو ابن مطروح رحمه الله :

المسجد الأقصى له عادة * سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطنا * أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا * وناصر طهره آخرا

ولما عزله الصالح من النيابة أقام خاملا وكان كثير البر بالفقراء والمساكين ، وكانت وفاته بمصر

وفيها توفى . ﴿ شمس الدين محمد بن سعد المقدسى ﴾

الكاتب الحسن الخط ، كان كثير الأدب ، وسمع الحديث كثيرا ، وخدم السلطان الصالح

إسماعيل والناصر داود ، وكان دينا فاضلا شاعرا له قصيدة ينصح فيها السلطان الصالح إسماعيل وما يلقاه الناس من وزيره وقاضيه وغيرهما ، من حواشيه .

وممن توفى فيها من الأعيان . ﴿ عبد العزيز بن على ﴾

ابن عبد الجبار المغربى ، أبوه ولد ببغداد ، وسمع بها الحديث ، وعنى بطلب العلم وصنف كتابا فى مجلدات على حروف المعجم فى الحديث ، وحرر فيه حكاية مذهب الامام مالك رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ أبو عبد الله محمد بن غانم بن كريم ﴾

الأصبهانى ، قدم بغداد وكان شابا فاضلا ، فتتلمذ للشيخ شهاب الدين السهروردى ، وكان حسن الطريقة ، له يد فى التفسير ، وله تفسير على طريقة التصوف ، وفيه لطافة ، ومن كلامه فى الوعظ : العالم كالذرة فى فضاء عظمته ، والذرة كالعالم فى كتاب حكمته ، الأصول فروع إذا تجلى جمال أوليته ، والفروع أصول إذا طلعت من مغرب نفى الوسائط شمس أخريته ، أستار الليل مسدولة ، وشموع الكواكب مشعولة ، وأعين الرقباء عن المشتاقين مشغولة ، وحجاب الحجب عن أبواب الوصل معزولة ما هذه الوقعة والحبيب قد فتح الباب ؟ ما هذه الفترة والمولى قد خرق حاجب الحجاب ؟

وقوفى بأكناف العقيق عقوق * إذا لم أرد والدمع فيه عقيق
وإذ لم أمت شوقا إلى ساكن الحمى * فما أنا فيما أدعيه صدوق
أيا ربع ليلى ما المحبون فى الهوى * سواء ، ولا كل الشراب رحيق
ولا كل من تلقاه يلقاك قلبه * ولا كل من يحنو إليك مشوق
تكاثرت الدعوى على الحب فاستوى * أسير صبابات الهوى وطليق

أيها الآمنون ، هل فيكم من يصعد إلى السماء ؟ أيها المحبوسون فى مطامير مسمياتهم ، هل فيكم سليم فى الفهم يفهم رموز الوحوش والأطيار ؟ هل فيكم موسوى الشوق يقول بلسان شوقه أرنى أنظر إليك ، فقد طال الانتظار ؟ ولما استسقى الناس قال بعد الاستسقاء : لما صعدت إلى الله عز وجل نفس المشتاق بكت آماق الآفاق ، وجادت بالدر مرضعة السحاب ، وامتص لبن الرحمة رضيع التراب وخرج من أخلاف الغمام نطاف الماء النمير ، فاهتزت به الهامدة ، وقرت عيون المدر ، وتزينت الرياض بالسندس الأخضر ، فخبر الصبغ حبرها أحسن تحبير ، وانفلق بأنملة الصبا أكمام الأنوار ، وانشقت بنفحات أنفاسه جيوب الأزهار ، ونطقت أجزاء الكائنات بلغات صفاتها ، وعادات عبرها : أيها النائمون تيقظوا ، أيها المبعدون تعرضوا (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى إنه على كل شئ قدير) .

﴿ أبو الفتح نصر الله بن هبة الله ﴾

ابن عبد الباقى بن هبة الله بن الحسين بن يحيى بن صاقعة الغفارى الكنانى المصرى ثم الدمشقى كان من أخصاء الملك المعظم ، وولده الناصر داود ، وقد سافر معه إلى بغداد فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وكان أديبا مليح المحاضرة رحمه الله تعالى . ومن شعره قوله :

ولما أبيتم سادتى عن زيارتى * وعوضتمونى بالبعاد عن القرب
ولم تسمحوا بالوصل فى حال يقظتى * ولم يصطبر عنكم لرقته قلبى
نصبت لصيد الطيف جفنى حبالة * فأدركت خفض العيش بالنوم والنصب

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة ﴾

فيها دخل الشيخ نجم الدين البادرائى رسول الخليفة بين صاحب مصر وصاحب الشام ، وأصلح بين الجيشين ، وكانوا قد اشتد الحرب بينهم ونشبت ، وقد مالأ الجيش المصرى الفرنج ووعدهم أن يسلموا إليهم بيت المقدس إن نصروهم على الشاميين ، وجرت خطوب كثيرة ، فأصلح بينهم وخلص جماعة من بيوت الملوك من الديار المصرية ، منهم أولاد الصالح إسماعيل ، وبنت الأشرف وغيرهم من أولاد صاحب حمص وغيرهم ، جزاه الله خيرا . وفيها فيما ذكر ابن الساعى كان رجل ببغداد على رأسه زبادى قابسى فزلق فتكسرت ووقف يبكى ، فتألم الناس له لفقره وحاجته ، وأنه لم يكن يملك غيرها ، فأعطاه رجل من الحاضرين ديناراً ، فلما أخذه نظر فيه طويلا ثم قال : والله هذا الدينار أعرفه ، وقد ذهب منى فى جملة دنانير عام أول ، فشتمه بعض الحاضرين فقال له ذلك الرجل : فما علامة ما قلت ؟ قال زنة هذا كذا وكذا ، وكان معه ثلاثة وعشرون دينارا ، فوزنوه فوجدوه كما ذكر ، فأخرج له الرجل ثلاثة وعشرين دينارا ، وكان قد وجدها كما قال حين سقطت منه ، فتعجب الناس لذلك . قال : ويقرب من هذا أن رجلا بمكة نزع ثيابه ليغتسل من ماء زمزم وأخرج من عضده دملجاً زنته خمسون مثقالا فوضعه مع ثيابه ، فلما فرغ من اغتساله لبس ثيابه ونسى الدملج ومضى ، وصار إلى بغداد وبقى مدة سنتين بعد ذلك وأيس منه ، ولم يبق معه شىء إلا يسير فاشترى به زجاجا وقوارير ليبيعها ويتكسب بها ، فبينما هو يطوف بها إذ زلق فسقطت القوارير فتكسرت فوقف يبكى واجتمع الناس عليه يتألمون له ، فقال فى جملة كلامه والله يا جماعة لقد ذهب منى من مدة سنتين دملج من ذهب زنته خمسون دينارا ، ما باليت لفقده كما باليت لتكسير هذه القوارير ، وما ذاك إلا لأن هذه كانت جميع ما أملك ، فقال له رجل من الجماعة : فأنا والله لقيت ذلك الدملج ، وأخرجه من عضده فتعجب الناس والحاضرون . والله أعلم بالصواب .

وممن توفى فيها من الأعيان [١] .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وستمائة ﴾

قال سبط ابن الجوزى فى كتابه مرآة الزمان : فيها وردت الأخبار من مكة شرفها الله تعالى بأن نارا ظهرت فى أرض عدن فى بعض جبالها بحيث إنه يطير شررها إلى البحر فى الليل ، و يصعد منها دخان عظيم فى أثناء النهار ، فما شكوا أنها النار التى ذكر النبى ﷺ أنها تظهر فى آخر الزمان ، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد ، وشرعوا فى أفعال الخير والصدقات . وفيها قدم الفارس أقطاى من الصعيد ونهب أموال المسلمين وأسر بعضهم ، ومعه جماعة من البحرية المفسدين فى الأرض ، وقد بغوا وطغوا وتجبروا ، ولا يلتفتون إلى الملك المعز أيبك التركمانى ، ولا إلى زوجته شجرة الدر . فشاور المعز زوجته شجرة الدر فى قتل أقطاى ، فأذنت له ، فعمل عليه حتى قتله فى هذه السنة بالقلعة المنصورة بمصر ، فاستراح المسلمون من شره . وفيها درس الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمدرسة الصالح أيوب بين القصرين . وفيها قدمت بنت ملك الروم فى تجمل عظيم و إقامات هائلة إلى دمشق زوجة لصاحبها الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر ، وجرت أوقات حافلة بدمشق بسببها .

وممن توفى فيها من المشاهير ﴿ عبد الحميد بن عيسى ﴾

الشيخ شمس الدين بن الخسروشاهى ، أحد مشاهير المتكلمين ، وممن اشتغل على الفخر الرازى فى الأصول وغيرها ، ثم قدم الشام فلزم الملك الناصر داود بن المعظم وحظى عنده . قال أبو شامة : وكان شيخا مهيباً فاضلا متواضعاً حسن الظاهر رحمه الله تعالى . قال السبط : وكان متواضعاً كيسا محضر خير ، لم ينقل عنه أنه آذى أحدا فان قدر على نفع و إلا سكت ، توفى بدمشق ودفن بقاسيون على باب تربة الملك المعظم رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ مجد الدين بن تيمية صاحب الاحكام ﴾ [عبدالسلام بن عبد الله بن أبى القاسم الخضر ابن محمد بن على بن تيمية الحرانى الحنبلى ، جد الشيخ تقى الدين ابن تيمية ، ولد فى حدود سنة تسعين وخمسمائة وتفقه فى صغره على عمه الخطيب فخر الدين ، وسمع الكثير ورحل إلى البلاد و برع فى الحديث والفقه وغيره ، ودرس وأفتى وانتفع به الطلبة ومات يوم الفطر بحران][٢] .

---

(١) بياض بجميع الأصول وقال الذهبى . وفيها توفى أبو البقاء صالح بن شجاع بن محمد بن سيدهم المدلجى الخياط فى المحرم . وسبط السلفى أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى الحرم المكى بن عبد الرحمن الطرابلسى الاسكندرانى فى شوال عن إحدى وثمانين سنة . وأبو محمد بن جميل البندنيجى البواب : آخر من روى عن عبد الحق اليوسفى .

(٢) بياض بأصل التركية والمصرية . وكملت الترجمة من النجوم الزاهرة .

﴿ الشيخ كمال الدين بن طلحة ﴾

الذى ولى الخطابة بدمشق بعد الدولعى ، ثم عزل وصار إلى الجزيرة فولى قضاء نصيبين ، ثم صار إلى حلب فتوفى بها فى هذه السنة . قال أبو شامة : وكان فاضلا عالما طلب أن يلى الوزارة فامتنع من ذلك ، وكان هذا من التأييد رحمه الله تعالى .

﴿ السيد بن علان ﴾

آخر من روى عن الحافظ ابن عساكر سماعا بدمشق .

﴿ الناصح فرج بن عبد الله الحبشى ﴾

كان كثير السماع مسندا خيراً صالحا مواظباً على سماع الحديث وإسماعه إلى أن مات بدار الحديث النورية بدمشق رحمه الله .

﴿ النصرة بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ﴾

توفى بحلب فى هذه السنة . وآخرون رحمهم الله أجمعين .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة ﴾

قال السبط فيها عاد الناصر داود من الأنبار إلى دمشق ، ثم عاد وحج من العراق وأصلح بين العراقيين ، وأهل مكة ، ثم عاد معهم إلى الحلة . قال أبو شامة : وفيها فى ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفى بحلب الشيخ الفقيه .

﴿ ضياء الدين صقر بن يحيى بن سالم ﴾

وكان فاضلا دينا ، ومن شعره قوله رحمه الله تعالى .

من ادعى أن له حالة * تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحبا * فانه ضر بلا نفع

وهو واقف القوصية . ﴿ أبو العز [1] إسماعيل بن حامد ﴾

ابن عبد الرحمن الأنصارى القوصى ، واقف داره بالقرب من الرحبة على أهل الحديث وبها قبره ، وكان مدرسا بحلقة جمال الاسلام تجاه البدارة [2] ، فعرفت به ، وكان ظريفا مطبوعا حسن المحاضرة ، وقد جمع له معجما حكى فيه عن مشايخه أشياء كثيرة مفيدة . قال أبو شامة : وقد طالعته بخطه فرأيت فيه أغاليط وأوهاما فى أسماء الرجال وغيرها ، فمن ذلك أنه انتسب إلى سعد بن عبادة ابن دلم فقال سعد بن عبادة بن الصامت وهذا غلط ، وقال فى شدة خرقة التصوف فغلط وصحف حيياً أبا محمد حسينا . قال أبو شامة : رأيت ذلك بخطه ، توفى يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول من

(١) فى « نسخة أبو المعز » (٢) فى « نسخة البرادة »

هذه السنة رحمه الله . وقد توفى الشريف المرتضى نقيب الأشراف بحلب ، وكانت وفاته بها ، رحمه الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة ﴾

فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التى أضاءت لها أعناق الابل ببصرى ، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه ، وقد بسط القول فى ذلك الشيخ الامام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسى فى كتابه الذيل وشرحه ، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار التى شوهدت معاينة ، وكيفية خروجها وأمرها ، وهذا محرر فى كتاب : دلائل النبوة من السيرة النبوية ، فى أوائل هذا الكتاب ولله الحمد والمنة . وملخص ما أورده أبو شامة أنه قال : وجاء إلى دمشق كتب من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، بخروج نار عندهم فى خامس جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكتبت الكتب فى خامس رجب ، والنار بحالها ، ووصلت الكتب إلينا فى عاشر شعبان ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ورد إلى مدينة دمشق فى أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله ﷺ ، فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة . قال قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء لها أعناق الابل ببصرى » فأخبرنى من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب . قال وكنا فى بيوتنا تلك الليالى ، وكان فى دار كل واحد منا سراج ، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها ، إنما كانت آية من آيات الله عز وجل » . قال أبو شامة : وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها .

« لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوى عظيم ، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب ، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور ، ثم ظهرت نار عظيمة فى الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا ، وهى نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث منارات ، وقد سالت أودية بالنار إلى وادى شظا مسيل الماء ، وقد مدت مسيل شظا وما عاد يسيل ، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فاذا الجبال تسيل نيرانا ، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقى ، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة فوقفت بعد ما أشفقنا أن تجىء إلينا ، ورجعت تسيل فى الشرق تخرج من وسطها سهود وجبال نيران تأكل الحجارة ، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى فى كتابه (إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر) وقد أكلت الأرض ، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار فى زيادة ما تغيرت ، وقدعادت إلى الحرار فى قريظة طريق

عير الحاج العراقى إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها فى الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج . وأما أم النار الكبيرة فهى جبال نيران حمر ، والأم الكبيرة التى سالت النيران منها من عند قريظة ، وقد زادت وما عاد الناس يدرون أى شىء يتم بعد ذلك ، والله يجعل العاقبة إلى خير ، فما أقدر أصف هذه النار » .

قال أبو شامة : « وفى كتاب آخر : ظهر فى أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ووقع فى شرقى المدينة المشرفة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم : انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد ، ثم وقفت وعادت إلى الساعة ، ولا ندرى ماذا نفعل ، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم تعالى ، وهذه دلائل القيامة » .

قال « وفى كتاب آخر : لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة ، سنة أربع وخمسين وستمائة وقع بالمدينة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة ، أقام على هذه الحالة يومين ، فلما كانت ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذى كنا نسمعه زلازل ، فلما كان يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول الله ﷺ ، وهى برأى العين من المدينة ، نشاهدها وهى ترمى بشرر كالقصر ، كما قال الله تعالى ، وهى بموضع يقال له أجيلين[1] وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربع فراسخ ، وعرضه أربعة أميال ، وعمقه قامة ونصف ، وهى تجرى على وجه الأرض ويخرج منها أمها دوجبال صغار ، وتسير على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك . فاذا جمد صار أسود ، وقبل الجمود لونه أحمر ، وقد حصل بسبب هذه النار إقلاع عن المعاصى ، والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات ، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها » .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ، « ومن كتاب شمس الدين بن سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسينى قاضى المدينة إلى بعض أصحابه : لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة بالثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها ، وباتت باقى تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات ، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله ﷺ اضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا منه [إذ سمعنا] صوتا للحديد الذى فيه ، واضطربت قناديل الحرم الشريف ، وتمت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى ، ولها دوى مثل دوى الرعد القاصف ، ثم طلع يوم الجمعة فى طريق الحرة

---

(١) « فى النسخة المصرية الراجلين » وفى النجوم الزهرة « أحيلين » وبها مشه : فى تاريخ مكة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة « أخيلين » .

فى رأس أجيلين نار عظيمة مثل المدينة العظيمة ، ومابانت لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفناخوفا عظيما ، وطلعت إلى الأمير كلمته وقلت له : قد أحاط بنا العذاب ، ارجع إلى الله تعالى ، فأعتق كل مماليكه و رد على جماعة أموالهم ، فلما فعل ذلك قلت اهبط الساعة معنا إلى النبى ﷺ ، فهبط و بتنا ليلة السبت والناس جميعهم والنسوان وأولادهم ، وما بقى أحد لافى النخيل ولا فى المدينة إلا عند النبى ﷺ ، ثم سال منها نهر من نار ، وأخذ فى وادى أجيلين وسد الطريق ثم طلع إلى بحرة الحاج وهو بحر نار يجرى ، وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت الوادى وادى الشظا ، وما عاد يجئ فى الوادى سيل قط لأنها حضرته نحو قامتين وثلث علوها ، والله يا أخى إن عيشتنا اليوم مكدرة والمدينة قد تاب جميع أهلها ، ولا بقى يسمع فيها رباب ولا دف ولا شرب ، وتمت النار تسيل إلى أن سدت بعض طريق الحاج و بعض بحرة الحاج ، وجاء فى الوادى إلينا منها يسير[١] وخفنا أنه يجيئنا فاجتمع الناس ودخلوا على النبى ﷺ وتابوا عنده جميعهم ليلة الجمعة ، وأما قتيرها الذى مما يلينا فقد طفئ بقدرة الله وأنها إلى الساعة وما نقصت إلا ترى مثل الجمال حجارة ولها دوى ما يدعنا نرقد ولا نأكل ولا نشرب ، وما أقدر أصف لك عظمها ولا ما فيها من الأهوال ، وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها ، وما صبح يقدر يصفها من عظمها ، وكتب الكتاب يوم خامس رجب ، وهى على حالها ، والناس منها خائفون ، والشمس والقمر من يوم ما طلعت ما يطلعان إلا كاسفين ، فنسأل الله العافية » .

قال أبو شامه : وبان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان ، وكنا حيارى من ذلك إيش هو ؟ الى أن جاءنا هذا الخبر عن هذه النار .

قلت : وكان أبو شامة قد أرخ قبل مجىء الكتب بأمر هذه النار ، فقال : وفيها فى ليلة الاثنين السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل ، وكان شديد الحمرة ثم انجلى ، وكسفت الشمس ، و فى غده احمرت وقت طلوعها وغروبها و بقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور ، والله على كل شئ قدير ، ثم قال : واتضح بذلك ما صوره الشافعى من اجتماع الكسوف والعيد ، واستبعده أهل النجامة .

ثم قال أبو شامة : «ومن كتاب آخر من بعض بنى الفاشانى بالمدينة يقول فيه : وصل إلينا فى جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم حتى طفح الماء من أعلى أسوار بغداد إليها ، وغرق كثير منها ، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد ، وانهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون داراً ، وانهدم مخزن الخليفة ، وهلك من خزانة السلاح شئ كثير ، وأشرف الناس

(١) فى النسخة المصرية قتير » .

على الهلاك وعادت السفن تدخل إلى وسط البلدة ، وتخترق أزقة بغداد . قال وأما نحن فانه جرى عندنا أمر عظيم : لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة ومن قبلها بيومين ، عاد الناس يسمعون صوتا مثل صوت الرعد ، فانزعج لها الناس كلهم ، وانتبهوا من مراقدهم وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى ، وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ، وتمت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح ، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها وليلة الجمعة ، وصبح يوم الجمعة ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض ، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم ، وأشفق الناس من ذنوبهم ، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر ، ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض ، فارتاع لها الناس روعة عظيمة ، ثم ظهر لهادخان عظيم فى السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض ، فيصل إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة ، ثم ظهرت النار لها ألسن تصعد فى الهواء إلى السماء حمراء كأنها القلعة ، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوى وإلى الحجرة الشريفة ، واستجار الناس بها وأحاطوا بالحجرة وكشفوا رؤسهم وأقروا بذنوبهم وابتهلوا إلى الله تعالى واستجاروا بنبيه عليه الصلاة والسلام ، وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل ، وخرج النساء من البيوت والصبيان ، واجتمعوا كلهم وأخلصوا إلى الله ، وغطت حمرة النار السماء كلها حتى بقى الناس فى مثل ضوء القمر ، وبقيت السماء كالعلقة ، وأيقن الناس بالهلاك أو العذاب ، وبات الناس تلك الليلة بين مصل وتال للقرآن وراكع وساجد ، وداع إلى الله عز وجل ، ومتنصل من ذنوبه ومستغفر وتائب ، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها ، وصعد الفقيه والقاضى إلى الأمير يعظونه ، فطرح المكس وأعتق مماليكه كلهم وعبيده ، ورد علينا كل مالنا تحت يده ، وعلى غيرنا ، وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهابا ، وهى كالجبل العظيم [ارتفاعا و] كالمدينة عرضا ، يخرج منها حصى يصعد فى السماء ويهوى فيها ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمى كالرعد . وبقيت كذلك أياما ثم سالت سيلاناً إلى وادى أجلين تنحدر مع الوادى إلى الشظا ، حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج ، والحجارة معها تتحرك وتسير حتى كادت تقارب حرة العريض ، ثم سكنت ووقفت أياماً ، ثم عادت ترمى بحجارة خلفها وأمامها ، حتى بنت لها جبلين وما بقى يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياما ، ثم إنها عظمت وسناءها إلى الآن ، وهى تتقد كأعظم ما يكون ، ولها كل يوم صوت عظيم فى آخر الليل إلى ضحوة ، ولها عجائب ما أقدر أن أشرحها لك على الكمال ، وإنما هذا طرف يكفى . والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن . وكتب هذا الكتاب ولها شهر وهى فى مكانها ما تتقدم ولا تتأخر » .

وقد قال فيها بعضهم أبياتاً :

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا * لقد أحاطت بنا يارب بأساء
نشكو إليك خطوبا لا نطيق لها * حملا ونحن بها حقا أحقاء
زلازل تخشع الصم الصلاب لها * وكيف يقوى على الزلزال شماء
أقام سبعاً يرج الأرض فانصدعت * عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجرى فوقه سفن * من الهضاب لها فى الأرض أرساء
كأنما فوقه الأجبال طافية * موج عليه لفرط البهج وعثاء
ترمى لها شرراً كالقصر طائشة * كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها قلوب الصخر إن زفرت * رعبا وترعد مثل السعف أضواء
منها تكاثف فى الجو الدخان إلى * أن عادت الشمس منه وهى دهماء
قد أثرت سفعة فى البدر لفحتها * فليلة التم بعد النور ليلاء
تحدث النيرات السبع ألسنها * بما يلاقى بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاها بالبروج إلى * أن كاد يلحقها بالأرض إهواء
فيالها آية من معجزات رسو * ل الله يعقلها القوم الألباء
فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت * منا الذنوب وساء القلب أسواء
فاسمح وهب وتفضل وامح واعف وجد * واصفح فكل لفرط الجهل خطاء
فقوم يونس لما آمنوا كشف الـ * ـعذاب عنهم وعم القوم نعماء
ونحن أمة هـذا المصطفى ولنا * منه إلى عفوك المرجو دعاء
هذا الرسول الذى لولاه ماسلكت * محجة فى سبيل الله بيضاء
فارحم وصل على المختار ماخطبت * على علا منبر الأوراق ورقاء

قلت : والحديث الوارد فى أمر هذه النار مخرج فى الصحيحين من طريق الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضئ أعناق الابل ببصرى » وهـذا لفظ البخارى .

وقد وقع هذا فى هذه السنة ـ أعنى سنة أربع وخمسين وستمائة ـ كما ذكرنا ، وقد أخبرنى قاضى القضاة صدر الدين على بن أبى القاسم التميمى الحنفى الحاكم بدمشق فى بعض الأيام فى المذاكرة ، وجرى ذكر هذا الحديث وما كان من أمر هذه النار فى هذه السنة فقال : سمعت رجلا من الأعراب يخبر والدى ببصرى فى تلك الليالى أنهم رأوا أعناق الابل فى ضوء هذه النار التى ظهرت فى أرض الحجاز .

قلت : وكان مولده فى سنة ثنتين وأربعين وستمائة ، وكان والده مدرساً للحنفية ببصرى وكذلك

كان جده ، وهو قد درس بها أيضاً ثم انتقل إلى دمشق فدرس بالصادرية و بالمعدمية ، ثم ولى قضاء القضاة الحنفية ، وكان مشكور السيرة فى الأحكام ، وقد كان عمره حين وقعت هذه النار بالحجاز ثنتا عشرة سنة ، ومثله ممن يضبط مايسمع من الخبر أن الأعرابى أخبر والده فى تلك الليالى ، وصلوات الله وسلامه على نبيه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

ومما نظمه بعض الشعراء فى هذه النار الحجازية وغرق بغداد قوله :

سبحان من أصبحت مشيئته * جارية فى الورى بمقدار
أغرق بغداد بالمياه كما * أحرق أرض الحجاز بالنار

قال أبو شامة : والصواب أن يقال :

فى سنة أغرق العراق وقد * أحرق أرض الحجاز بالنار

وقال ابن الساعى فى تاريخ سنة أربع وخمسين وستمائة : فى يوم الجمعة ثامن عشر رجب - يعنى من هذه السنة - كنت جالساً بين يدى الوزير فورد عليه كتاب من مدينة الرسول ﷺ صحبة قاصد يعرف بقيماز العلوى الحسنى المدنى ، فناوله الكتاب فقرأه وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زلزلت يوم الثلاثاء ثانى جمادى الآخرة حتى ارتج القبر الشريف النبوى ، وسمع صرير الحديد ، وتحركت السلاسل ، وظهرت نار على مسيرة أربع فراسخ من المدينة ، وكانت ترمى بزبد كأنه رؤس الجبال ، ودامت خمسة عشر يوما . قال القاصد : وجئت ولم تنقطع بعد ، بل كانت على حالها، وسأله إلى أى الجهات ترمى ؟ فقال : إلى جهة الشرق ، واجتزت عليها أنا ونجابة اليمن ورمينا فيها سعفة فلم تحرقها ، بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها . وأخرج قيماز المذكور شيئا من الصخر المحترق وهو كالفحم لونا وخفة . قال وذكر فى الكتاب وكان بخط قاضى المدينة أنهم لما زلزلوا دخلوا الحرم وكشفوا رؤسهم واستغفروا وأن نائب المدينة أعتق جميع مماليكه ، وخرج من جميع المظالم ، ولم يزالوا مستغفرين حتى سكنت الزلزلة ، إلا أن النار التى ظهرت لم تنقطع . وجاء القاصد المذكور ولها خمسة عشر يوما و إلى الآن .

قال ابن الساعى : وقرأت بخط العدل محمود بن يوسف بن الامعانى شيخ حرم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، يقول : إن هذه النار التى ظهرت بالحجاز آية عظيمة ، و إشارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة ، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الموت ، وتدارك أمره باصلاح حاله مع الله عز وجل قبل الموت . وهذه النار فى أرض ذات حجر لاشجر فيها ولا نبت ، وهى تأكل بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله ، وهى تحرق الحجارة وتذيبها ، حتى تعود كالطين المبلول ، ثم يضربه الهواء حتى يعود كخبث الحديد الذى يخرج من الكير ، فالله يجعلها عبرة المسلمين ورحمة للعالمين ، بمحمد وآله الطاهرين .

قال أبو شامة : وفى ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة احترق مسجد المدينة على ساكنه أفضل الصلاة والسلام ، ابتدأ حريقه من زاويته الغربية من الشمال ، وكان دخل أحد القومة إلى خزانة ثم ومعه نار فعلقت فى الأبواب ثم ، واتصلت بالسقف بسرعة ، ثم دبت فى السقوف ، وأخذت قبلة فأعجلت الناس عن قطعها ، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع ، ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها ، وكل ذلك قبل أن ينام الناس ، واحترق سقف الحجرة النبوية ووقع ما وقع منه فى الحجرة ، وبقى على حاله حتى شرع فى عمارة سقفه وسقف المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، وأصبح الناس فعزلوا موضعاً للصلاة ، وعد ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات ، وكأنها كانت منذرة بما يعقبها فى السنة الآتية من الكائنات على ما سنذكره . هذا كلام الشيخ شهاب الدين أبى شامة . وقد قال أبو شامة : فى الذى وقع فى هذه السنة وما بعدها شعرا وهو قوله :

بعد ست من المئين والخمس * ين لدى أربع جرى فى العام
نار أرض الحجاز مع حرق المس * جد معه تغريق دار السلام
ثم أخذ التتار بغداد فى أو * ل عام ، من بعد ذاك وعام
لم يعن أهلها وللكفر أعوا * ن عليهم ، ياضيعة الاسلام
وانقضت دولة الخلافة منها * صار مستعصم بغير اعتصام
فحنانا على الحجاز ومصر * وسلاما على بلاد الشآم
رب سلم وصن وعاف بقايا * المدن ، ياذا الجلال والاكرام

وفى هذه السنة كملت المدرسة الناصرية الجوانية داخل باب الفراديس ، وحضر فيها الدرس واقفها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غياث الدين غازى ابن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فاتح بيت المقدس ، ودرس فيها قاضى البلد صدر الدين ابن سناء الدولة ، وحضر عنده الأمراء والدولة والعلماء وجمهور أهل الحل والعقد بدمشق . وفيها أمر بعمارة الرباط الناصرى بسفح قاسيون .

وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان :

﴿ الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسن بن النحاس ﴾

ترك الخلائق وأقبل على الزهادة والتلاوة والعبادة والصيام المتتابع والانقطاع بمسجده بسفح قاسيون نحوا من ثلاثين سنة ، وكان من خيار الناس . ولما توفى دفن عند مسجده بتربة مشهورة به ، وحمام ينسب إليه فى مساريق الصالحية ، وقد أثنى عليه السبط ، وأرخوا وفاته كما ذكرت .

﴿ يوسف بن الأمير حسام الدين ﴾

قزأوغلى بن عبد الله عتيق الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الحنبلى رحمه الله تعالى . الشيخ شمس الدين .

أبو المظفر الحنفى البغدادى ثم الدمشقى ، سبط ابن الجوزى ، أمه رابعة بنت الشيخ جمال الدين أبى الفرج بن الجوزى الواعظ ، وقد كان حسن الصورة طيب الصوت حسن الوعظ كثير الفضائل والمصنفات ، وله مرآة الزمان فى عشرين مجلداً من أحسن التواريخ ، نظم فيه المنتظم لجده وزاد عليه وذيل إلى زمانه ، وهو من أبهج التواريخ ، قدم دمشق فى حدود الستمائة وحظى عند ملوك بنى أيوب ، وقدموه وأحسنوا إليه ، وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار عند السارية التى تقوم عندها الوعاظ اليوم عند باب مشهد على بن الحسين زين العابدين ، وقد كان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع و يتركون البساتين فى الصيف حتى يسمعوا ميعاده ، ثم يسرعون إلى بساتينهم فيتذاكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن ، على طريقة جده . وقد كان الشيخ تاج الدين الكندى ، وغيره من المشايخ ، يحضرون عنده تحت قبة يزيد ، التى عند باب المشهد، ويستحسنون ما يقول . ودرس بالعزية البرانية التى بناها الأمير عز الدين أيبك المعظمى ، أستاذ دار المعظم ، وهو واقف العزية الجوانية التى بالكشك أيضاً ، وكانت قديما تعرف بدور ابن منقذ . ودرس السبط أيضاً بالشبلية التى بالجبل عند جسر كحيل ، وفوض إليه البدرية التي قبالتها ، فكانت سكنه ، وبها توفى ليلة الثلاثاء الحادى والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وحضر جنازته سلطان البلد الناصر ابن العزيز فمن دونه . وقد أثنى عليه الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى علومه وفضائله ورياسته وحسن وعظه وطيب صوته ونضارة وجهه ، وتواضعه وزهده وتودده ، لكنه قال: وقد كنت مريضاً ليلة وفاته فرأيت وفاته فى المنام قبل اليقظة ، ورأيته فى حالة منكرة ، ورآه غيرى أيضاً ، فنسأل الله العافية . ولم أقدر على حضور جنازته ، وكانت جنازته حافلة حضره السلطان والناس ، ودفن هناك . وقد كان فاضلا عالما ظريفا منقطعاً منكرا على أرباب الدول ما هم عليه من المنكرات ، وقد كان مقتصدا فى لباسه مواظباً على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف ، منصفا لأهل العلم والفضل ، مباينا لأولى الجهل ، وتأتى الملوك وأرباب المناصب إليه زائرين وقاصدين ، وربى فى طول زمانه فى حياة طيبة وجاه عريض عند الملوك والعوام نحو خمسين سنة ، وكان مجلس وعظه مطربا ، وصوته فيما يورده حسنا طيبا ، رحمه الله تعالى ورضى عنه . وقد سئل فى يوم عاشوراء زمن الملك الناصر صاحب حلب أن يذكر للناس شيئا من مقتل الحسين فصعد المنبر وجلس طويلا لا يتكلم ، ثم وضع المنديل على وجهه وبكى شديداً ثم أنشأ يقول وهو يبكى :

ويل لمن شفعاؤه خصماؤه * والصور فى نشر الخلائق ينفخ
لا بد أن ترد القيامة فاطم * وقميصها بدم الحسين ملطخ

ثم نزل عن المنبر وهو يبكى وصعد إلى الصالحية وهوكذلك رحمه الله .

﴿ واقف مرستان الصالحية ﴾

الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن يوسف ابن أبى الفوارس بن موسك القيمرى الكردى ، أكبر أمراء القيمرية ، كانوا يقفون بين يديه كما تعامل الملوك ، ومن أكبر حسناته وقفه المارستان الذى بسفح قاسيون ، وكانت وفاته ودفنه بالسفح فى القبة التى تجاه المارستان المذكور ، وكان ذا مال كثير وثروة رحمه الله .

﴿ مجير الدين يعقوب بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ﴾

دفن عند والده بتربة العادلية .

﴿ الأمير مظفر الدين إبراهيم ﴾

ابن صاحب صرخد عزالدين أيبك أستاذ دارالمعظم واقف المعزيتين [البرانية والجوانية] على الحنفية ، ودفن عند والده بالتربة تحت القبة عند الوراقة رحمهما الله تعالى .

﴿ الشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن نوح ﴾

المقدسى الفقيه الشافعى مدرس الرواحية بعد شيخه تقى الدين ابن الصلاح ، ودفن بالصوفية أيضا ، وكانت له جنازة حافلة رحمه الله .

قال أبو شامة : وكثر فى هذه السنة موت الفجأة . فمات خلق كثير بسبب ذلك ، وممن توفى فيها زكى الدين أبوالغورية [(١)] أحد المعدلين بدمشق . و بدرالدين بن السنى أحد رؤسائها . وعز الدين عبد العزيز بن أبى طالب بن عبد الغفار الثعلبى أبى الحسين ، وهو سبط القاضى جمال الدين بن الحرستانى ، رحمهم الله تعالى وعفا عنهم أجمعين .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة ﴾

فيها أصبح الملك المعظم صاحب مصر عز الدين أيبك بداره ميتا وقد ولى الملك بعد أستاذه الصالح نجم الدين أيوب بشهور . كان فيها ملك توران شاه المعظم بن الصالح ، ثم خلفته شجرة الدر أم خليل مدة ثلاثة أشهر ثم أقيم هو فى الملك ، ومعه الملك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن أقسيس ابن الكامل مدة ، ثم استقل بالملك بلا منازعة ، وكسر الناصر لما أراد أخذ الديار المصرية وقتل الفارس إقطاى فى سنة ثنتين وخمسين ، وخلع بعده الأشرف واستقل بالملك وحده ، ثم تزوج بشجرة

---

(١) نسخة « ابن القويرة » .

الدر أم خليل. وكان كريما شجاعا حييا دينا ، ثم كان موته فى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول ، وهو واقف المدرسة المعزية بمصر ومجازها من أحسن الأشياء ، وهى من داخل ليست بتلك الفائقة . وقد قال بعضهم : هذه مجاز لا حقيقة له . ولما قتل رحمه الله فاتهم مماليكه زوجته أم خليل شجرة الدر به ، وقد كان عزم على تزوج ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، فأمرت جواريها أن يمسكنه لها فما زالت تضربه بقباقيبها والجوارى يعركن فى معاربه حتى مات وهو كذلك ، ولما سمعوا مماليكه أقبلوا بصحبة مملوكه الأكبر سيف الدين قطز ، فقتلوها وألقوها على مزبلة غير مستورة العورة ، بعد الحجاب المنيع والمقام الرفيع ، وقد علمت على المناشير والتواقيع ، وخطب الخطباء باسمها ، وضربت السكة برسمها ، فذهبت فلا تعرف بعد ذلك بعينها ولا رسمها (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) وأقامت الأتراك بعد أستاذهم عز الدين أيبك التركمانى ، باشارة أكبر مماليكه الأمير سيف الدين قطز ، ولده نور الدين علياً ولقبوه الملك المنصور ، وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وجرت الأمور على ما يختاره برأيه ورسمه .

وفيها كانت فتنة عظيمة ببغداد بين الرافضة وأهل السنة ، فنهب الكرخ ودور الرافضة حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمى ، وكان ذلك من أقوى الأسباب فى ممالأته للتتار . وفيها دخلت الفقراء الحيدرية الشام ، ومن شعارهم لبس الراحى والطراطير ويقصون لحاهم ويتركون شواربهم ، وهو خلاف السنة ، تركوها لمتابعة شيخهم حيدر حين أسره الملاحدة فقصوا لحيته وتركوا شواربه ، فاقتدوا به فى ذلك ، وهو معذور مأجور . وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك ، وليس لهم فى شيخهم قدوة . وقد بنيت لهم زاوية بظاهر دمشق قريبا من العونية . وفى يوم الأربعاء ثامن عشر ذى الحجة من هذه السنة المباركة عمل عزاء واقف البادرائية بها الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائى البغدادى مدرس النظامية ، ورسول الخلافة إلى ملوك الآفاق فى الأمور المهمة ، وإصلاح الأحوال المدلهمة ، وقد كان فاضلا بارعا رئيساً وقورا متواضعاً ، وقد ابتنى بدمشق مدرسة حسنة مكان دار الأمير أسامة ، وشرط على المقيم بها العزوبة وأن لا يكون الفقيه فى غيرها من المدارس ، وإنما أراد بذلك توفر خاطر الفقيه وجمعه على طلب العلم ، ولكن حصل بذلك خلل كثير وشر لبعضهم كبير وقد كان شيخنا الامام العلامة شيخ الشافعية بالشام وغيرها برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ تاج الدين الفزارى مدرس هذه المدرسة وابن مدرسها ، يذكر أنه لما حضر الواقف فى أول يوم درس بها وحضر عنده السلطان الناصرى ، قرأ كتاب الوقف وفيه ولا تدخلها امرأة . فقال السلطان ولا صبى ؟ فقال الواقف : يا مولانا السلطان ربنا ما يضرب بعصاتين . فاذا ذكر هذه الحكاية تبسم

عندها رحمه الله تعالى . وكان هو أول من درس بها ثم ولده كمال الدين من بعده ، وجعل نظرها إلى وجيه الدين بن سويد، ثم صار فى ذريته إلى الآن . وقد نظر فيه بعض الأوقات القاضى شمس الدين ابن الصائغ ثم انتزع منه حيث أثبتت لهم النظر ، وقد أوقف البادرائى على هذه المدرسة أوقافاً حسنة دارة ، وجعل فيها خزانة كتب حسنة نافعة ، وقد عاد إلى بغداد فى هذه السنة فولى بها قضاء القضاة كرها منه ، فأقام فيه سبعة عشر يوما ثم توفى إلى رحمة الله تعالى فى مستهل ذى الحجة من هذه السنة . ودفن بالشونيزية رحمه الله تعالى .

وفى ذى الحجة من هذه السنة بعد موت البادرائى بأيام قلائل نزلت التتار على بغداد مقدمة لملكهم هولاكو بن تولى بن جنكيزخان عليهم لعائن الرحمن ، وكان افتتاحهم لها وجنايتهم عليها فى أول السنة الآتية على ماسيأتى بيانه وتفصيله ـ وبالله المستعان .

وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان البادرائى واقف البادرائية التى بدمشق كما تقدم بيانه رحمه الله تعالى .

﴿ والشيخ تقى الدين عبد الرحمن بن أبى الفهم ﴾

اليلدانى بها فى ثامن ربيع الأول ودفن فيها ، وكان شيخا صالحا مشتغلا بالحديث سماعا وكتابة وإسماعا ، إلى أن توفى وله نحو مائة سنة . قلت : وأكثر كتبه ومجاميعه التى بخطه موقوفة بخزانة الفاضلية من الكلاسة ، وقد رأى فى المنام رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله ما أنا رجل جيد ؟ قال : بلى أنت رجل جيد ، رحمه الله وأكرم مثواه .

﴿ الشيخ شرف الدين ﴾

محمد بن أبى الفضل المرسى ، وكان شيخاً فاضلا متقنا محققا للبحث كثير الحج ، له مكانة عند الأكابر ، وقد اقتنى كتبا كثيرة ، وكان أكثر مقامه بالحجاز ، وحيث حل عظمه رؤساء تلك البلدة وكان مقتصدا فى أموره ، وكانت وفاته رحمه الله بالذعقة بين العريش والداروم فى منتصف ربيع الأول من هذه السنة رحمه الله .

﴿ المشد الشاعر الأمير سيف الدين ﴾

على بن عمر بن قزل مشد الديوان بدمشق ، وكان شاعرا مطبقا له ديوان مشهور ، وقد رآه بعضهم بعد موته فسأله عن حاله فأنشده :

نقلت إلى رمس القبور وضيقها * وخوفى ذنوبى أنها بى تعثر
فصادفت رحمانا رءوفا وأنعما * حبانى بها سقيا لما كنت أحذر
ومن كان حسن الظن فى حال موته * جميلا بعفو الله فالعفو أجدر

﴿ بشارة بن عبد الله ﴾

الأرمنى الأصل بدر الدين الكاتب مولى شبل الدولة المعظمى ، سمع الكندى وغيره ، وكان يكتب خطا جيدا ، وأسند إليه مولاه النظر فى أوقافه وجعله فى ذريته ، فهم إلى الآن ينظرون فى الشبليتين ، وكانت وفاته فى النصف من رمضان من هذه السنة .

﴿ القاضى تاج الدين ﴾

أبو عبد الله محمد بن قاضى القضاة جمال الدين المصرى ناب عن أبيه ودرس بالشامية ، وله شعر فمنه قوله :

صيرت فمى لفيه بالثم لثام * عمدا و رشفت من ثناياه مدام
فازور وقال أنت فى الفقه إمام * ريقى خمر وعندك الخمر حرام

﴿ الملك الناصر ﴾

داود بن المعظم عيسى بن العادل ، ملك دمشق بعد أبيه ، ثم انتزعت من يده وأخذها عمه الأشرف واقتصر على الكرك ونابلس ، ثم تنقلت به الأحوال وجرت له خطوب طوال حتى لم يبق معه شىء من المحال ، وأودع وديعة تقارب مائة ألف دينار عند الخليفة المستنصر فأنكره إياها ولم يردها عليه ، وقد كان له فصاحة وشعر جيد ، ولديه فضائل جمة ، واشتغل فى علم الكلام على الشمس الخسر وشاهى تلميذ الفخر الرازى ، وكان يعرف علوم الأوائل جدا ، وحكوا عنه أشياء تدل إن صحت على سوء عقيدته فالله أعلم . وذكر أنه حضر أول درس ذكر بالمستنصرية فى سنة ثنتين وثلاثين وستمائة ، وأن الشعراء أنشدوا المستنصر مدائح كثيرة ، فقال بعضهم فى جملة قصيدة له :

لو كنت فى يوم السقيفة شاهدا * كنت المقدم والامام الأعظما

فقال الناصر داود للشاعر : اسكت فقد أخطأت ، قد كان جد أمير المؤمنين العباس شاهدا يومئذ ، ولم يكن المقدم ، وما الامام الأعظم إلا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فقال الخليفة : صدقت فكان هذا من أحسن ما نقل عنه رحمه الله تعالى، وقد تقاصر أمره إلى أن رسم عليه الناصر بن العزيز بقرية البويضا لعمه مجد الدين يعقوب حتى توفى بها فى هذه السنة ، فاجتمع الناس بجنازته ، وحمل منها فصلى عليه ودفن عند والده بسفح قاسيون .

﴿ الملك المعز ﴾

عز الدين أيبك التركمانى ، أول ملوك الأتراك ، كان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل ، وكان دينا صينا عفيفا كريما ، مكث فى الملك نحوا من سبع سنين ثم قتلته زوجته شجرة الدر أم خليل ، وقام فى الملك من بعده ولده نور الدين على ، ولقب بالملك المنصور ، وكان مدبر

مملكته مملوك أبيه سيف الدين قطز ، ثم عزله واستقل بالملك بعده نحوا من سنة وتلقب بالمظفر ، فقدر الله كسرة التتار على يديه بعين جالوت . وقد بسطنا هذا كله فى الحوادث فيما تقدم وما سيأتى .

﴿ شجرة الدر بنت عبد الله ﴾

أم خليل التركية ، كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان ولدها منه خليل من أحسن الصور ، فمات صغيراً ، وكانت تكون فى خدمته لا تفارقه حضرا ولا سفرا من شدة محبته لها وقد ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها المعظم توران شاه، فكان يخطب لها وتضرب السكة باسمها وعلمت على المناشير مدة ثلاثة أشهر ، ثم تملك المعز كما ذكرنا ، ثم تزوجها بعد تملكه الديار المصرية بسنوات ، ثم غارت عليه لما بلغها أنه يريد أن يتزوج بنت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ فعملت عليه حتى قتلته كما تقدم ذكره ، فتمالأ عليها مماليكه المعزية فقتلوها وألقوها على مزبلة ثلاثة أيام ، ثم نقلت إلى تربة لها بالقرب من قبر السيدة نفيسة رحمها الله تعالى، وكانت قوية النفس ، لما علمت أنه قد أحيط بها أتلفت شيئا كثيرا من الجواهر النفيسة واللآلئ المثمنة ، كسرته فى الهاون لا لها ولا لغيرها ، وكان وزيرها فى دولتها الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليمان المعروف بابن حنا وهو أول مناصبه .

﴿ الشيخ الأسعد هبة الله بن صاعد ﴾

شرف الدين الفائزى لخدمته قديما الملك الفائز سابق الدين إبراهيم بن الملك العادل ، وكان نصرانياً فأسلم ، وكان كثير الصدقات والبر والصلات ، استوزره المعز وكان حظياً عنده جدا ، لا يفعل شيئا إلا بعد مراجعته ومشاورته ، وكان قبله فى الوزارة القاضى [1] تاج الدين ابن بنت الأعز ، وقبله القاضى بدر الدين السنجارى ، ثم صارت بعد ذلك كله إلى هذا الشيخ الأسعد المسلمانى ، وقد كان الفائزى يكاتبه المعز بالمملوك ، ثم لما قتل المعز أهين الأسعد حتى صار شقيا ، وأخذ الأمير سيف الدين قطز خطه بمائة ألف دينار ، وقد هجاه بهاء الدين زهير بن على ، فقال :

لعن الله صاعدا * وأباه ، فصاعدا

وبنيه فنازلا * واحداً ثم واحدا

ثم قتل بعد ذلك كله ودفن بالقرافة ، وقد رثاه القاضى ناصر الدين ابن المنير ،وله فيه مدائح وأشعار حسنة فصيحة رائقة .

﴿ ابن أبى الحديد الشاعر العراقى ﴾

عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين أبو حامد بن أبى الحديد عز الدين المدائنى ، الكاتب الشاعر المطبق الشيعى الغالى ، له شرح نهج البلاغة فى عشرين مجلدا ، ولد بالمدائن سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ثم صار إلى بغداد فكان أحد الكتاب والشعراء بالديوان الخليفتى ، وكان

(١) نسخة « جمال » .

حظياً عند الوزير ابن العلقمى ، لما بينهما من المناسبة والمقاربة والمشابهة فى التشيع والأدب والفضيلة ، وقد أورد له ابن الساعى أشياء كثيرة من مدائحه وأشعاره الفائقة الرائقة ، وكان أكثر فضيلة وأدبا من أخيه أبى المعالى موفق الدين بن هبة الله ، و إن كان الآخر فاضلا بارعا أيضا ، وقد ماتا فى هذه السنة رحمهما الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة ﴾

[فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة ، وانقضت دولة بنى العباس منها] (١)

استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار ، هولا كوخان ، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه ، وكل ذلك خوفا على نفسه من التتار ، ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى ، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التى لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئا ، كما ورد فى الأثر « لن يغنى حذر عن قدر » وكما قال تعالى (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) وقال تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم و إذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدى الخليفة وتضحكه ، وكانت من جملة حظاياه ، وكانت مولدة تسمى عرفة ، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهى ترقص بين يدى الخليفة ، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديدا ، وأحضر السهم الذى أصابها بين يديه فاذا عليه مكتوب إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوى العقول عقولهم ، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز ، وكثرت الستائر على دار الخلافة ـ وكان قدوم هلا كوخان بجنوده كلها ، وكانوا نحو مائتى ألف مقاتل ـ إلى بغداد فى ثانى عشر المحرم من هذه السنة ، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذى قدره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه ، وهو أن هلا كو لما كان أول بروزه من همدان متوجها إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره ، وقالوا إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال ، وأشاروا بأن يبعث بشىء يسير ، فأرسل شيئا من الهدايا فاحتقرها هلا كوخان ، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور ، وسليمان شاه ، فلم يبعثهما إليه ولا بالا به حتى أزف قدومه ، و وصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة ، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فاحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية ، وجيوش

---

(١) زيادة من بعض النسخ التركية .

بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة ، لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم و بقية الجيش ، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم و يحزنون على الاسلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمى الرافضى ، وذلك أنه لما كان فى السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الاسلام وأهله ما وقـع من الأمر الفظيع الذى لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد ، و إلى هذه الأوقات ، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو ، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هلاكوخان لعنه الله ، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه و المثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة ، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج فى سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤس الأمراء والدولة والأعيان ، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكوخان حجبوا عن الخليفـة إلا سبعة عشر نفساً ، فخلص الخليفة بهؤلاء المـذكورين ، وأنزل الباقون عن مراكبهـم ونهبت وقتلوا عن آخرهم ، وأحضر الخليفـة بين يدى هـلاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الاهانة والجبروت ، ثم عاد إلى بغداد وفى صحبته خوجه نصير الدين الطوسى ، والوزير ابن العلقمى وغيرهما ، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة ، فأحضر من دار الخلافة شيئا كثيرا من الذهب والحلى والمصـاغ والجواهر والأشياء النفيسة ، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة ، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك ، وحسنوا له قتل الخليفة ، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله ، و يقال إن الذى أشار بقتله الوزير ابن العلقمى ، والمولى نصير الدين الطوسى ، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه فى خدمته لما فتح قلاع الألموت ، وانتزعها من أيدى الاسماعيلية ، وكان النصـير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين ، وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدى ، وانتخب هولاكو النصير ليكون فى خدمته كالوزير المشير ، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً ، وهو فى جوالق لئلا يقع على الأرض شىء من دمه ، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم ، وقيل بل خنق ، و يقال بل أغرق فالله أعلم ، فباءوا بإثمه و إثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولى الحل والعقد ببلاده ـ وستأتى ترجمة الخليفة فى الوفيات ـ ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس فى الآبار وأماكن الحشوش ، وقنى الوسخ ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون ،

وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات و يغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر و إما بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة ، حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة ، فانا لله و إنا إليه راجعون . وكذلك فى المساجد والجوامع والربط ، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم و إلى دار الوزير ابن العلقمى الرافضى وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً ، بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم . وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس ، وهم فى خوف وجوع وذلة وقلة ، وكان الوزير ابن العلقمى قبل هذه الحادثة يجتهد فى صرف الجيوش و إسقاط اسمهم من الديوان ، فكانت العساكر فى آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل ، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر ، فلم يزل يجتهد فى تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف ، ثم كاتب التتار وأطمعهم فى أخذ البلاد ، وسهل عليهم ذلك ، وحكى لهم حقيقة الحال ، وكشف لهم ضعف الرجال ، وذلك كله طمعا منه أن يزيل السنة بالكلية ، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين ، وأن يبيد العلماء والمفتيين ، والله غالب على أمره ، وقد رد كيده فى نحره ، وأذله بعد العزة القعساء ، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيراً للخلفاء ، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال ، فالحكم لله العلى الكبير رب الأرض والسماء .

وقد جرى على بنى إسرائيل ببيت المقدس قريب مما جرى على أهل بغداد كما قص الله تعالى علينا ذلك فى كتابه العزيز ، حيث يقول (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا . فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) الآيات . وقد قتل من بنى إسرائيل خلق من الصلحاء وأسر جماعة من أولاد الأنبياء ، وخرب بيت المقدس بعد ما كان معمورا بالعباد والزهاد والأحبار والأنبياء ، فصار خاويا على عروشه واهى البناء .

وقد اختلف الناس فى كمية من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة . فقيل ثمانمائة ألف ، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف ، وقيل بلغت القتلى ألفى ألف نفس ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وكان دخولهم إلى بغداد فى أواخر المحرم ، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما ، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعفى قبره ، وكان عمره يومئذ ستا وأربعين سنة وأربعة أشهر ، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام ، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، وله خمس وعشرون سنة ، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة ، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت

أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم ، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل والله أعلم ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزى ، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة : عبدالله ، وعبد الرحمن ، وعبد الكريم ، وأكابر الدولة واحداً بعد واحده ، منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك ، وشهاب الدين سليمان شاه ، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد . وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بنى العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال ، تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاة ، و يؤسر من يختارون من بناته وجواريه . وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين على بن النيار ، وقتل الخطباء والأئمة ، وحملة القرآن ، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد ، وأراد الوزير ابن العلقمى قبحه الله ولعنه أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد و يستمر بالمشاهد ومحال الرفض ، وأن يبنى للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعَلَمهم بها وعليها ، فلم يقدره الله تعالى على ذلك ، بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة ، وأتبعه بولده فاجتمعا والله أعلم بالدرك الأسفل من النار .

ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس ، والقتلى فى الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

ولما نودى ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم ، وقد أنكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه ، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى ، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذى يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . وكان رحيل السلطان المسلط هولاكوخان عن بغداد فى جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه ، وفوض أمر بغداد إلى الأمير على بهادر ، فوض إليه الشحنكية بها و إلى الوزير ابن العلقمى فلم يمهله الله ولا أهمله ، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر ، فى مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة ، وكان عنده فضيلة فى الانشاء ولديه فضيلة فى الأدب ، ولكنه كان شيعيا جلدا رافضياً خبيثا ، فمات جهدا وغما وحزنا وندما ، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم ، فولى بعده الوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد ، فألحقه الله بأبيه فى بقية هذا العام ، ولله الحمد والمنة .

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد الله الذهبي وقطب الدين اليونيني أنه أصاب الناس في هذه السنة بالشام وباء شديد ، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجو ، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام فالله أعلم .

وفي هذه السنة اقتتل المصريون مع صاحب الكرك الملك المغيث عمر بن العادل الكبير ، وكان في حبسه جماعة من أمراء البحرية ، منهم ركن الدين بيبرس البندقداري ، فكسرهم المصريون ونهبوا ما كان معهم من الأثقال والأموال ، وأسروا جماعة من رءوس الأمراء فقتلوا صبرا ، وعادوا إلى الكرك في أسوإ حال وأشنعه ، وجعلوا يفسدون في الأرض ويعيثون في البلاد ، فأرسل الله الناصر صاحب دمشق فبعث جيشا ليكفهم عن ذلك ، فكسرهم البحرية واستنصروا فبرز إليهم الناصر بنفسه فلم يلتفتوا إليه وقطعوا أطناب خيمته التي هو فيها باشارة ركن الدين بيبرس المذكور ، وجرت حروب وخطوب يطول بسطها وبالله المستعان .

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان .

﴿ خليفة الوقت المستعصم بالله ﴾

أمير المؤمنين آخر خلفاء بني العباس بالعراق رحمه الله ، وهو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بالله أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الأمير الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الرشيد أبي محمد هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد ابن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي العباسي ، مولده سنة تسع وستمائة ، وبويع له بالخلافة في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين ، وكان مقتله في يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر سنة ست وخمسين وستمائة ، فيكون عمره يوم قتل سبعا وأربعين سنة رحمه الله تعالى . وقد كان حسن الصورة جيد السريرة ، صحيح العقيدة مقتديا بأبيه المستنصر في المعدلة وكثرة الصدقات وإكرام العلماء والعباد ، وقد استجاز له الحافظ ابن النجار من جماعة من مشايخ خراسان منهم المؤيد الطوسي ، وأبو روح عبد العزيز بن محمد الهروي وأبو بكر القاسم بن عبد الله بن الصفار وغيرهم ، وحدث عنه جماعة منهم مؤدبه شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن علي بن محمد بن النيار ، وأجاز هو للامام محيي الدين ابن الجوزي ، وللشيخ نجم الدين البادرائي ، وحدثا عنه بهذه الاجازة . وقد كان رحمه الله سنيا على طريقة السلف واعتقاد

الجماعة كما كان أبوه وجده ، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه ، ومن جملة ذلك أنه استحل الوديعة التي استودعه إياها الناصر داود بن المعظم وكانت قيمتها نحوا من مائة ألف دينار فاستقبح هذا من مثل الخليفة ، وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير ، بل من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، كما قال الله تعالى (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً) .

قتلته التتار مظلوماً مضطهدا في يوم الأربعاء رابع عشر صفر من هذه السنة ، وله من العمر ستة وأربعون سنة وأربعة أشهر . وكانت مدة خلافته خمسة عشر سنة وثمانية أشهر وأياما ، فرحمه الله وأكرم مثواه ، وبل بالرأفة ثراه . وقد قتل بعده ولداه وأسر الثالث مع بنات ثلاث من صلبه ، وشغر منصب الخلافة بعده ، ولم يبق في بني العباس من سد مسده ، فكان آخر الخلفاء من بني العباس الحاكمين بالعدل بين الناس ، ومن يرتجى منهم النوال و يخشى الباس ، وختموا بعبد الله المستعصم كما فتحوا بعبد الله السفاح ، بويع له بالخلافة وظهر ملكه وأمره في سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، بعد انقضاء دولة بني أمية كما تقدم بيانه ، وآخرهم عبد الله المستعصم وقد زال ملكه وانقضت خلافته في هذا العام ، فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة ، وزال ملكهم عن العراق والحكم بالكلية مدة سنة وشهور في أيام البساسيري بعد الخمسين وأربعمائة ، ثم عادت كما كانت . وقد بسطنا ذلك في موضعه في أيام القائم بأمر الله ولله الحمد .

ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار ، فانه خرج عن بني العباس بلاد المغرب ، ملكها في أوائل الأمر بعض بني أمية ممن بقي منهم من ذرية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ثم تغلب عليه الملوك بعد دهور متطاولة كما ذكرنا ، وقارن بني العباس دولة المدعين أنهم من الفاطميين ببلاد مصر و بعض بلاد المغرب ، وما هنالك ، و بلاد الشام في بعض الأحيان والحرمين في أزمان طويلة [وكذلك أخذت من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر ، وتداولتها الملوك دولا بعد دول ، حتى لم يبق مع الخليفة منهم إلا بغداد و بعض بلاد العراق ، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات ، كما ذكر ذلك مبسوطا في الحوادث والوفيات] (١)

واستمرت دولة الفاطميين قريباً من ثلاثمائة سنة حتى كان آخرهم العاضد الذي مات بعد الستين وخمسمائة في الدولة الصلاحية الناصرية القدسية ، وكانت عدة ملوك الفاطميين أربعة عشر ملكا متخلفا ، ومدة ملكهم تحريرا من سنة سبع وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد سنة بضع وستين وخمسمائة ، والعجب أن خلافة النبوة التالية لزمان رسول الله ﷺ كانت ثلاثين سنة كما نطق بها

(١) زيادة من نسخة أخرى بالآستانة .

الحديث الصحيح ، فكان فيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ثم ابنه الحسن بن على ستة شهور حتى كملت الثلاثون كما قررنا ذلك فى دلائل النبوة ، ثم كانت ملكا فكان أول ملوك الاسلام من بنى أبى سفيان معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية ، ثم ابنه يزيد ، ثم ابن ابنه معاوية ابن يزيد بن معاوية ، وانقرض هذا البطن المفتتح بمعاوية المختتم بمعاوية ، ثم ملك مروان بن الحكم ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، ثم ابنه عبد الملك ، ثم الوليد بن عبد الملك ، ثم أخوه سليمان ثم ابن عمه عمر بن عبد العزيز ، ثم يزيد بن عبد الملك ، ثم هشام بن عبد الملك ، ثم الوليد بن يزيد ثم يزيد بن الوليد ، ثم أخوه إبراهيم الناقص وهو ابن الوليد أيضاً ، ثم مروان بن محمد بن مروان الملقب بالحمار ، وكان آخرهم ، فكان أولهم اسمه مروان وآخرهم اسمه مروان ، ثم انقرضوا من أولهم إلى خاتمهم . وكان أول خلفاء بنى العباس عبد الله السفاح ، وآخرهم عبد الله المستعصم . وكذلك أول خلفاء الفاطميين فالأول اسمه عبدالله العاضد ، وآخرهم عبد الله العاضد ، وهذا اتفاق غريب جدا قل من يتنبه له ، والله سبحانه أعلم . وهذه أرجوزة لبعض الفضلاء ذكر فيها جميع الخلفاء :

الحمد لله العظيم عرشه * القاهر الفرد القوى بطشه
مقلب الأيام والدهور * وجامع الأنام للنشور
ثم الصلاة بدوام الأبد * على النبى المصطفى محمد
وآله وصحبه الكرام * السادة الأئمة الأعلام
وبعد فان هذه أرجوزة * نظمتها لطيفة وجيزة
نظمت فيها الراشدين الخلفا * من قام بعد النبى المصطفى
ومن تلاهم وهلم جرا * جعلتها تبصرة وذكرى
ليعلم العاقل ذو التصوير * كيف جرت حوادث الأمور
وكل ذى مقدرة وملك * معرضون للفنا والهلك
وفى اختلاف الليل والنهار * تبصرة لكل ذى اعتبار
والملك الجبار فى بلاده * يورثه من شاء من عباده
وكل مخلوق فللفناء * وكل ملك فالى انتهاء
ولا يدوم غير ملك البارى * سبحانه من ملك قهار
منفرد بالعز والبقاء * وما سواه فالى انقضاء
أول من بويع بالخلافة * بعد النبى ابن أبى قحافة

أعنى الامام الهادى الصديقا * ثم ارتضى من بعده الفاروقا
ففتح البلاد والأمصارا * واستأصلت سيوفه الكفارا
وقام بالعدل قياماً يرضى * بذاك جبار السما والأرض
ورضى الناس بذى النورين * ثم على والد السبطين
ثم أتت كتائب مع الحسن * كادوا بأن يجددوا بها الفتن
فأصلح الله على يديه * كما عزا نبينا إليه
وجمع الناس على معاوية * ونقل القصة كل راويه
فمهد الملك كما يريد * وقام فيه بعده يزيد
ثم ابنه وكان براً راشدا * أعنى أبا ليلى وكان زاهدا
فترك الامرة لا عن غلبه * ولم يكن إليها منه طلبه
وابن الزبير بالحجاز يدأب * فى طلب الملك وفيه ينصب
وبالشام بايعوا مروانا * بحكم من يقول كن فكانا
ولم يدم فى الملك غير عام * وعافصته أسهم الحمام
واستوثق الملك لعبد الملك * ونار نجم سعده فى الفلك
وكل من نازعه فى الملك * خر صريعاً بسيوف الهلك
وقتل المصعب بالعراق * وسير الحجاج ذا الشقاق
إلى الحجاز بسيوف النقم * وابن الزبير لائذ بالحرم
فجار بعد قتله بصلبه * ولم يخف فى أمره من ربه
وعند ما صفت له الأمور * تقلبت بجسمه الدهور
ثم أتى من بعده الوليد * ثم سليمان الفتى الرشيد
ثم استفاض فى الورى عدل عمر * تابع أمر ربه كما أمر
وكان يدعى بأشج القوم * وذى الصلاة والتقى والصوم
فجاء بالعدل والاحسان * وكف أهل الظلم والطغيان
مقتدياً بسنة الرسول * والراشدين من ذوى العقول
فجرع الاسلام كأس فقده * ولم يروا مثلا له من بعده
ثم يزيد بعده هشام * ثم الوليد فت منه الهام
ثم يزيد وهو يدعى الناقصا * فجاءه حمامه معافصا

ولم تطل مدة إبراهيما * وكان كل أمره سقيما
وأسند الملك إلى مروانا * فكان من أموره ما كانا
وانقرض الملك على يديه * وحادث الدهر سطا عليه
وقتله قد كان بالصعيد * ولم تفده كثرة العديد
وكان فيه حتف آل الحكم * واستنزعت عنهم ضروب النعم
ثم أتى ملك بني العباس * لازال فينا ثابت الأساس
وجاءت البيعة من أرض العجم * وقلدت بيعتهم كل الأمم
وكل من نازعهم من أمم * خر صريعاً لليدين والفم
وقد ذكرت من تولى منهم * حين تولى القائم المستعصم
أولهم ينعت بالسفاح * وبعده المنصور ذو الجناح
ثم أتى من بعده المهدي * يتلوه موسى الهادي الصفي
وجاء هارون الرشيد بعده * ثم الأمين حين ذاق فقده
وقام بعد قتله المأمون * وبعده المعتصم المكين
واستخلف الواثق بعد المعتصم * ثم أخوه جعفر موفي الذمم
وأخلص النية في المتوكل * لله ذي العرش القديم الأول
فأدحض البدعة في زمانه * وقامت السنة في أوانه
ولم يبق فيها بدعة مضلة * وألبس المعتزلي ثوب ذله
فرحمة الله عليه أبدا * ماغار نجم في السماء أو بدا
وبعده استولى وقام المعتمد * ومهد الملك وساس المقتصد
وعندما استشهد قام المنتصر * والمستعين بعده كما ذكر
وجاء بعد موته المعتز * والمهتدي الملتزم الأعز
والمكتفي في صحف العلا أسطر * وبعده ساس الأمور المقتدر
واستوثق الملك بعز القاهر * وبعده الراضي أخو المفاخر
والمتقي من بعد ذا المستكفي * ثم المطيع ما به من خلف
والطائع الطائع ثم القادر * والقائم الزاهد وهو الشاكر
والمقتدي من بعده المستظهر * ثم أتى المسترشد الموقر
وبعده الراشد ثم المقتفي * وحين مات استنجدوا بيوسف

المستضىء العادل فى أفعاله * الصادق الصدوق فى أقواله
والناصر الشهم الشديد الباس * ودام طول مكثه فى الناس
ثم تلاه الظاهر الكريم * وعدله كل به عليم
ولم تطل أيامه فى المملكه * غير شهور واعترته الهلكه
وعهده كان إلى المستنصر * العادل البر الكريم العنصر
دام يسوس الناس سبع عشرة * وأشهراً بعزمات برّه
ثم توفى عام أربعينا * وفى جمادى صادف المنونا
وبايع الخلائق المستعصما * صلى عليه ربنا وسلما
فأرسل الرسل إلى الآفاق * يقضون بالبيعة والوفاق
وشرفوا بذكره المنابرا * ونشروا فى جوده المفاخرا
وسار فى الآفاق حسن سيرته * وعدله الزائد فى رعيته

قال الشيخ عماد الدين ابن كثير رحمه الله تعالى : ثم قلت أنا بعد ذلك أبياتا :

ثم ابتلاه الله بالتتار * أتباع جنكيزخان الجبار
صحبته ابن ابنه هولاكو * فلم يكن من أمره فكاك
فمزقوا جنوده وشمله * وقتلوه نفسه وأهله
ودمروا بغداد والبلادا * وقتلوا الأحفاد والأجدادا
وانتهبوا المال مع الحريم * ولم يخافوا سطوة العظيم
وغرهم إنظاره وحلمه * وما اقتضاه عدله وحكمه
وشغرت من بعده الخلافة * ولم يؤرخ مثلها من آفة
ثم أقام الملك أعنى الظاهرا * خليفة أعنى به المستنصرا
ثم ولى من بعد ذاك الحاكم * مسيم بيبرس الامام العالم
ثم ابنه الخليفة المستكفى * وبعض هذا للبيب يكفى
ثم ولى من بعده جماعة * ما عندهم علم ولا بضاعة
ثم تولى وقتنا المعتضد * ولا يكاد الدهر مثله يجد
فى حسن خلق واعتقاد وحلى * وكيف لا وهو من السيم الأولى
سادوا البلاد والعباد فضلا * وملأوا الأقطار حكماً وعدلا
أولاد عم المصطفى محمد * وأفضل الخلق بلا تردد

صلى عليه الله ذو الجلال * ما دامت الأيام والليالى

﴿ فصل ﴾

والفاطميون قليلوا العده * لكنهم مدّلهم فى المده
فملكوا بضعاً وستين سنة * من بعده مائتين وكان كالسنة
والعدة أربع عشرة المهدى * والقائم المنصور المعدى
أعنى به المعز بانى القاهرة * ثم العزيز الحاكم الكوافره
والظاهر المستنصر المستعلى * فالآمر الحافظ عنه سوء الفعل
والظافر الفائز ثم العاضد * آخرهم وما لهذا جاحد
أهلك بعد البضع والسنينا * من قبلها خمسمائة سنينا
وأصلهم يهود ليسوا شرفا * بذاك أفتى السادة الأئمة
* أنصاردين الله من ذى الأمة *

﴿ فصل ﴾

وهكذا خلفاء بنى أمية * عدتهم كعدة الرافضية
ولكن المدة كانت ناقصة * عن مائة من السنين خالصة
وكلهم قد كان ناصبياً * إلا الامام عمر التقيا
معاوية ثم ابنه يزيد * وابن ابنه معاوية السديد
مروان ثم ابن له عبد الملك * منابذلا بن الزبير حتى هلك
ثم استقل بعده بالملك * فى سائر الأرض بغير شك
ثم الوليد النجل بانى الجامع * وليس مثله بشكله من جامع
ثم سليمان الجواد وعمر * ثم يزيد وهشام وغدر
أعنى الوليدبن يزيد الفاسقا * ثم يزيد بن الوليد فائقاً
يلقب الناقص وهو كامل * ثم إبراهيم وهو عاقل
ثم مروان الحمار الجعدى * آخرهم فاظفر بذا من عندى
والحمد لله على التمام * كذاك نحمده على الانعام
ثم الصلاة مع تمام العدد * على النبى المصطفى محمد
وآله وصحبه الأخيار * فى سائر الأوقات والأعصار
وهذه الأبيات نظم الكاتب * ثمانية تتمة المناقب

وممن قتل مع الخليفة واقف الجوزية بدمشق أستاذ دار الخلافة محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزى ، عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن محمد بن على بن عبيد الله بن حماد بن أحمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن محمد بن أبي بكر الصديق القرشي التيمي البكرى البغدادى الحنبلي المعروف بابن الجوزى ، ولد في ذى القعدة سنة ثمانين وخمسمائة ، ونشأ شابا حسنا ، وحين توفى أبوه وعظ فى موضعه فأحسن وأجاد وأفاد ، ثم لم يزل متقدما فى مناصب الدنيا ، فولى حسبة بغداد مع الوعظ الفائق والأشعار الحسنة ، ثم ولى تدريس الحنابلة بالمستنصرية سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، وكانت له تداريس أخر ، ولى أستاذ دار الخلافة ، وكان رسولا للملوك من بنى أيوب وغيرهم من جهة الخلفاء ، وانتصب ابنه عبد الرحمن مكانه للحسبة والوعظ ، ثم كانت الحسبة تتنقل فى بنيه الثلاثة عبد الرحمن ، وعبد الله ، وعبد الكريم . وقد قتلوا معه فى هذه السنة رحمهم الله . ولمحيي الدين هذا مصنف فى مذهب أحمد ، وقد ذكر له ابن الساعى أشعاراً حسنة يهنئ بها الخليفة فى المواسم والأعياد ، تدل على فضيلة وفصاحة ، وقد وقف الجوزية بدمشق وهى من أحسن المدارس ، تقبل الله منه .

﴿ الصرصرى المادح رحمه الله ﴾

يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر عبد السلام الشيخ الامام العلامة البارع الفاضل فى أنواع من العلوم ، جمال الدين أبو زكريا الصرصرى ، الفاضل المادح الحنبلى الضرير البغدادى ، معظم شعره فى مدح رسول الله ﷺ ، وديوانه فى ذلك مشهور معروف غير منكر ، ويقال إنه كان يحفظ صحاح الجوهرى بتمامه فى اللغة . وصحب الشيخ على بن إدريس تلميذ الشيخ عبدالقادر ، وكان ذكيا يتوقد نوراً ، وكان ينظم على البديهة سريعاً أشياء حسنة فصيحة بليغة ، وقد نظم الكافى الذى ألفه موفق الدين بن قدامة ، ومختصر الخرقى ، وأما مدائحه فى رسول الله ﷺ فيقال إنها تبلغ عشرين مجلدا ، وما اشتهر عنه أنه مدح أحداً من المخلوقين من بنى آدم إلا الأنبياء ، ولما دخل التتار إلى بغداد دعى إلى دارها كرمون بن هلاكو فأبى أن يجيب إليه ، وأعد فى داره حجارة فحين دخل عليه التتار رماهم بتلك الأحجار فهشم منهم جماعة ، فلما خلصوا إليه قتل بعكازه أحدهم ، ثم قتلوه شهيدا رحمه الله تعالى ، وله من العمر ثمان وستون سنة . وقد أورد له قطب الدين اليونينى من ديوانه قطعة صالحة فى ترجمته فى الذيل ، استوعب حروف المعجم ، وذكر غير ذلك قصائد طوالا كثيرة حسنة .

﴿ البهاء زهير صاحب الديوان ﴾

وهو زهير بن محمد بن على بن يحيى بن الحسين بن جعفر المهلبى العتكى المصرى ، ولد بمكة ونشأ بقوص ، وأقام بالقاهرة ، الشاعر المطبق الجواد فى حسن الخط له ديوان مشهور ، وقدم على السلطان

الصالح أيوب ، وكان غزير المروءة حسن التوسط فى إيصال الخير إلى الناس ، ودفع الشر عنهم ، وقد أثنى عليه ابن خلكان وقال أجازلى رواية ديوانه ، وقد بسط ترجمته القطب اليونينى .

﴿ الحافظ زكى الدين المنذرى ﴾

عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله بن سلامة بن سعد بن سعيد ، الامام العلامة محمد أبو زكى الدين المنذرى الشافعى المصرى ، أصله من الشام وولد بمصر ، وكان شيخ الحديث بها مدة طويلة ، إليه الوفادة والرحلة من سنين متطاولة ، وقيل إنه ولد بالشام سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، وسمع الكثير ورحل وطلب وعنى بهذا الشأن ، حتى فاق أهل زمانه فيه ، وصنف وخرج ، واختصر صحيح مسلم ، وسنن أبى داود ، وهو أحسن اختصاراً من الأول ، وله اليد الطولى فى اللغة والفقه والتاريخ ، وكان ثقة حجة متحريا زاهدا ، توفى يوم السبت رابع ذى القعدة من هذه السنة بدار الحديث الكاملية بمصر . ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى .

﴿ النور أبو بكر بن محمد بن محمد بن عبد العزيز ﴾

ابن عبد الرحيم بن رستم الأشعرى الشاعر المشهور الخليع ، كان القاضى صدر الدين بن سناء الدولة قد أجلسه مع الشهود تحت الساعات ، ثم استدعاه الناصر صاحب البلد فجعله من جلسائه وندمائه ، وخلع عليه خلع الاجناد ، فانسلخ من هذا الفن إلى غيره ، وجمع كتابا سماه « الزرجون فى الخلاعة والمجون » وذكر فيه أشياء كثيرة من النظم والنثر والخلاعة ، ومن شعره الذى لايحمد :

لذة العمر خمسة فاقتنيها * من خليع غدا أديبا فقيها
فى نديم وقينة وحبيب * ومدام وسب من لام فيها

﴿ الوزير ابن العلقمى الرافضى قبحه الله ﴾

محمد بن أحمد بن محمد بن على بن أبى طالب ، الوزير مؤيد الدين أبو طالب ابن العلقمى ، وزير المستعصم البغدادى ، وخدمه فى زمان المستنصر أستاذ دار الخلافة مدة طويلة ، ثم صار وزير المستعصم وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين ، مع أنه من الفضلاء فى الانشاء والأدب ، وكان رافضياً خبيثا ردىء الطوية على الاسلام وأهله ، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة فى أيام المستعصم مالم يحصل لغيره من الوزراء ، ثم مالأ على الاسلام وأهله الكفار هولاكوخان ، حتى فعل ما فعل بالاسلام وأهله مما تقدم ذكره ، ثم حصل له بعد ذلك من الاهانة والذل على أيدى التتار الذين مالأهم وزال عنه ستر الله ، وذاق الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، وقد رأته امرأة وهو فى الذل والهوان وهو راكب فى أيام التتار برذونا وهو مرسم عليه ، وسائق يسوق به ويضرب فرسه ، فوقفت إلى جانبه وقالت له : يا ابن العلقمى هكذا كان بنو العباس يعاملونك ؟ فوقعت كلمتها

فى قلبه وانقطع فى داره إلى أن مات كمدا وغبينة وضيقا ، وقلة وذلة ، فى مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، ودفن فى قبور الروافض ، وقد سمع بأذنيه ، ورأى بعينيه من الاهانة من التتار والمسلمين مالا يحد ولا يوصف . وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة ، ثم أخذه الله أخذ القرى وهى ظالمة سريعاً ، وقد هجاه بعض الشعراء فقال فيه :

يافرقة الاسلام نوحوا واندبوا * أسفا على ما حل بالمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه * لابن الفرات فصار لابن العلقمى

﴿ محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن حيدرة ﴾

فتح الدين أبو عبد الله بن العدل محتسب دمشق ، كان مشكوراً حسن الطريقة ، وجده العدل نجيب الدين أبو محمد عبد الله بن حيدرة ، وهو واقف المدرسة التى بالزبدانى فى سنة تسعين وخمسمائة تقبل الله منه وجزاه خيرا .

﴿ القرطبى صاحب المفهم فى شرح مسلم ﴾

أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر أبو العباس الأنصارى القرطبى المالكى الفقيه المحدث المدرس بالاسكندرية ، ولد بقرطبة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع الكثير هناك ، واختصر الصحيحين ، وشرح صحيح مسلم المسمى بالمفهم ، وفيه أشياء حسنة مفيدة محررة رحمه الله .

﴿ الكمال إسحاق بن أحمد بن عثمان ﴾

أحد مشايخ الشافعية ، أخذ عنه الشيخ محيى الدين النووى وغيره ، وكان مدرسا بالرواحية ، توفى فى ذى القعدة من هذه السنة .

﴿ العماد داود بن عمر بن يحيى بن عمر بن كامل ﴾

أبو المعالى وأبو سليمان الزبيدى المقدسى ثم الدمشقى خطيب بيت الابار ، وقد خطب بالأموى ست سنين بعد ابن عبد السلام ، ودرس بالغزالية ، ثم عاد إلى بيت الأبار فمات بها .

﴿ على بن محمد بن الحسين ﴾ صدر الدين أبو الحسن بن النيار شيخ الشيوخ ببغداد ، وكان أولا مؤدبا للامام المستعصم ، فلما صارت الخلافة إليه برهة من الدهور رفعه وعظمه وصارت له وجاهة عنده ، وانضمت إليه أزمة الأمور ، ثم إنه ذبح بدار الخلافة كما تذبح الشاة على أيدى التتار .

﴿ الشيخ على العابد الخباز ﴾

كان له أصحاب وأتباع ببغداد ، وله زاوية يزار فيها ، قتلته التتار وألقى على مزبلة بباب زاويته ثلاثة أيام حتى أكلت الكلاب من لحمه ، ويقال إنه أخبر بذلك عن نفسه فى حال حياته .

﴿ محمد بن إسماعيل بن أحمد بن أبى الفرج أبو عبد الله المقدسى ﴾

خطيب برداد ، سمع الكثير ، وعاش تسعين سنة ، ولد فى سنة ثلاث وخمسين فسمع الناس

عليه الكثير بدمشق ، ثم عاد فمات ببلده برادا فى هذه السنة ، رحمه الله .

﴿ البدر لؤلؤ صاحب الموصل ﴾

الملقب بالملك الرحيم ، توفى فى شعبان عن مائة سنة [1] وقد ملك الموصل نحواً من خمسين سنة ، وكان ذا عقل ودهاء ومكر ، لم يزل يعمل على أولاد أستاذه حتى أبادهم ، وأزال الدولة الاتابكية عن الموصل ، ولما انفصل هولاكوخان عن بغداد ـ بعد الوقعة الفظيعة العظيمة ـ سار إلى خدمته طاعة له ، ومعه الهدايا والتحف ، فأكرمه واحترمه ، ورجع من عنده فمكث بالموصل أياماً يسيرة ، ثم مات ودفن بمدرسته البدرية ، وتأسف الناس عليه لحسن سيرته وجودة معدلته ، وقد جمع له الشيخ عز الدين كتابه المسمى بالكامل فى التاريخ فأجازه عليه وأحسن إليه ، وكان يعطى لبعض الشعراء ألف دينار . وقام فى الملك بعده ولده الصالح إسماعيل . وقد كان بدر الدين لؤلؤ هذا أرمنيا اشتراه رجل خياط ، ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ابن آقسنقر الاتابكى صاحب الموصل ، وكان مليح الصورة ، فحظى عنده وتقدم فى دولته إلى أن صارت الكلمة دائرة عليه ، والوفود من سائر جهات ملكهم إليه . ثم إنه قتل أولاد أستاذه غيلة واحدا بعد واحد إلى أن لم يبق معه أحد منهم ، فاستقل هو بالملك ، وصفت له الأمور ، وكان يبعث فى كل سنة إلى مشهد على قنديلا ذهبا زنته ألف دينار ، وقد بلغ من العمر قريبا من تسعين سنة ، وكان شابا حسن الشباب من نضارة وجهه ، وحسن شكله ، وكانت العامة تلقبه قضيب الذهب ، وكان ذا همة عالية وداهية شديد المكر بعيد الغور ، وبعثه إلى مشهد على بذلك القنديل الذهب فى كل سنة دليل على قلة عقله وتشيعه والله أعلم .

﴿ الملك الناصر داود بن المعظم ﴾

ترجمه الشيخ قطب الدين اليونينى فى تذييله على المرآة فى هذه السنة ، و بسط ترجمته جدا وما جرى له من أول أمره إلى آخره . وقد ذكرنا ترجمته فى الحوادث ، وأنه أودع الخليفة المستعصم فى سنة سبع وأربعين وديعة قيمتها مائة ألف دينار فجحدها الخليفة ، فتكرر وفوده إليه ، وتوسله بالناس فى ردها إليه ، فلم يفد من ذلك شيئا ، وتقدم أنه قال لذلك الشاعر الذى مدح الخليفة بقوله

لو كنت فى يوم السقيفة حاضرا * كنت المقدم والامام الاورعا

فقال له الناصر داود : أخطأت فقد كان جد أمير المؤمنين العباس حاضرا يوم السقيفة ولم يكن المقدم ، وهو أفضل من أمير المؤمنين ، وإنما كان المقدم أبو بكر الصديق ، فقال الخليفة صدق وخلع عليه ، ونفى ذلك الشاعر ـ وهو الوجيه الفزارى ـ إلى مصر ، وكانت وفاة الناصر داود بقرية البويضا مرسما عليه وشهد جنازته صاحب دمشق .

---

(١) فى المصرية : عن ثمانين سنة .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة وليس للمسلمين خليفة ، وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن أبى الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين ، وهو واقع بينه و بين المصريين وقد ملكوا نور الدين على بن المعز أيبك التركمانى ولقبوه بالمنصور ، وقد أرسل الملك الغاشم هولا كوخان إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستدعيه إليه ، فأرسل إليه ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة وتحف ، فلم يحتفل به هولا كوخان بل غضب على أبيه إذ لم يقبل إليه ، وأخذ ابنه وقال أنا أسير إلى بلاده بنفسى ، فانزعج الناصر لذلك ، و بعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليحصنهم بها وخاف أهل دمشق خوفا شديدا ، ولا سيما لما بلغهم أن التتار قد قطعوا الفرات ، سافر كثير منهم إلى مصر فى زمن الشتاء ، فمات ناس كثير منهم ونهبوا ، فانا لله و إنا إليه راجعون . وأقبل هولا كوخان فقصد الشام بجنوده وعساكره ، وقد امتنعت عليه ميا فارقين مدة سنة ونصف ، فأرسل إليها ولده أشموط فافتتحها قسرا وأنزل ملكها الكامل بن الشهاب غازى بن العادل فأرسله إلى أبيه وهو محاصر حلب فقتله بين يديه ، واستناب عليها بعض مماليك الأشرف ، وطيف برأس الكامل فى البلاد ، ودخلوا برأسه إلى دمشق ، فنصب على باب الفراديس البرانى ، ثم دفن بمسجد الرأس داخل باب الفراديس الجوانى ، فنظم أبو شامة فى ذلك قصيدة يذكر فيها فضله وجهاده ، وشبهه بالحسين فى قتله مظلوما ، ودفن رأسه عند رأسه .

وفيها عمل الخواجه نصير [الدين الطوسى] الرصد بمدينة مراغة ، ونقل إليه شيئا كثيرا من كتب الأوقاف التى كانت ببغداد ، وعمل دار حكمة ورتب فيها فلاسفة ، ورتب لكل واحد فى اليوم والليلة ثلاثة دراهم ، ودارطب فيها للطبيب فى اليوم درهمان ، ومدرسة لكل فقيه فى اليوم درهم ، ودار حديث لكل محدث نصف درهم فى اليوم . وفيها قدم القاضى الوزير كمال الدين عمر بن أبى جرادة المعروف بابن العديم إلى الديار المصرية رسولا من صاحب دمشق الناصر بن العزيز يستنجد المصريين على قتال التتار ، وأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام ، وقد استولوا على بلاد الجزيرة وغيرها ، وقد جاز أشموط بن هولا كوخان الفرات وقرب من حلب ، فعند ذلك عقدوا مجلساً بين يدى المنصور بن المعز التركمانى ، وحضر قاضى مصر بدر الدين السنجارى ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وتفاوضوا الكلام فيما يتعلق بأخذ شىء من أموال العامة لمساعدة الجند ، وكانت العمدة على ما يقوله ابن عبد السلام ، وكان حاصل كلامه أنه قال إذا لم يبق فى بيت المال شىء ثم أنفقتم أموال الحوائض المذهبة وغيرها من الفضة والزينة ، وتساويتم أنتم والعامة فى الملابس سوى آلات الحرب بحيث لم يبق للجندى سوى فرسه التى يركبها ، ساغ للحاكم حينئذ أخذ شىء من أموال

الناس فى دفع الاعـداء عنهم ، لأنه إذا دهم العدو البلاد ، وجب عـلى الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم .

﴿ ولاية الملك المظفر قطز ﴾

وفيها قبض الأمير سيف الدين قطز على ابن أستاذه نور الدين على الملقب بالمنصور ، وذلك فى غيبة أكثر الأمراء من مماليك أبيه وغـيرهم فى الصيد ، فلما مسكه سيره مع أمه وابنيه وأخوته إلى بلاد الاشكرى ، وتسلطن هو وسمى نفسه بالملك المظفر ، وكان هذا من رحمة الله بالمسلمين ، فان الله جعل عـلى يديه كسر التتار كما سـيأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وبان عذره الذى اعتذر به إلى الفقهاء والقضاة وإلى ابن العديم ، فانه قال لا بد للناس من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم ، وهذا صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة .

وفيها برز الملك الناصر صاحب دمشق إلى وطاء ، برز فى جحافل كثيرة من الجيش والمتطوعة والأعراب وغيرهم ، ولما علم ضعفهم عن مقاومة المغول ارفض ذلك الجمع ، ولم يسر لا هو ولا هم ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

وفيها توفى من الأعيان .

﴿ واقف الصدرية صدر الدين أسعد بن المنجاه بن بركات بن مؤمل ﴾

التنوخى المغربى ثم الدمشقى الحنبلى أحد المعدلين ، ذوى الأموال ، والمروءات والصدقات الدارة البارة ، وقف مدرسة للحنابلة ، وقـبره بها إلى جانب تربة القاضى المصرى فى رأس درب الريحان من ناحية الجامع الأموى ، وقد ولى نظر الجامع مـدة ، واستجد أشياء كثيرة منها سوق النحاسين قبلى الجامع ، ونقل الصاغة إلى مكانها الآن ، وقـد كانت قبل ذلك فى الصاغـة العتيقة ، وجـدد الدكاكين التى بين أعمدة الزيارة ، وثمر الجامع أموالا جزيلة ، وكانت له صدقات كثيرة ، وذكر عنه أنه كان يعرف صنعة الكيميا وأنه صح معه عمل الفضة ، وعندى أن هذا لا يصح ولا يصح عنه والله أعلم .

﴿ الشيخ يوسف الاقمينى ﴾

كان يعرف بالأقمينى لأنه كان يسكن قمين حمـام نور الدين الشهيـد ، وكان يلبس ثيابا طوالا تحف عـلى الأرض ، ويبول فى ثيابه ، ورأسه مكشوفة ، ويزعمون أن له أحوالا وكشوفا كثيرة ، وكان كثير من العوام وغيرهم يعتقدون صلاحه وولايته ، وذلك لأنهم لا يعلمون شرائط الولاية ولا الصلاح ، ولا يعلمون أن الكشوف قد تصدر من البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، كالرهبان وغيرهم ، وكالدجال وابن صياد وغيرهم ، فان الجن تسترق السمع وتلقيه على أذن الانسى ، ولا سيما من يكون مجنونا أو غـير نقى الثياب من النجاسـة ، فلا بد من اختبار صاحب الحال بالكتاب والسنة ، فمن وافق حاله كتاب الله وسـنة رسوله فهو رجل صالح سواء كاشف أولم يكاشف ، ومن لم يوافق فليس

برجل صالح سواء كاشف أم لا . قال الشافعى : إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء و يطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة . ولما مات هذا الرجل دفن بتربة بسفح قاسيون وهى مشهورة به شرقى[1] الرواحية ، وهى مزخرفة قداعتنى بها بعض العوام ممن كان يعتقده ، فزخرفها وعمل على قبره حجارة منقوشة بالكتابة ، وهـذا كله من البدع ، وكانت وفاته فى سادس شعبان من هذه السنة ، وكان الشيخ إبراهيم بن سعيد جيعانة لايتجاسر فيما يزعم أن يدخل البلد والقميني حى ، فيوم مات الاقميني دخلها ، وكانت العوام معه فدخلوا دمشق وهم يصيحون و يصرخون أذن لنا فى دخول البلد ، وهم أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ، فقيل لجيعانة : ما منعك من دخولها قبل اليوم ؟ فقال: كنت كلما جئت إلى باب من أبواب البلد أجدهذا السبع رابضاً فيه فلا أستطيع الدخول ، وقد كان سكن الشاغور ، وهذا كذب واحتيال ومكر وشعبذة ، وقد دفن جيعانة عنده فى تربته بالسفح والله أعلم بأحوال العباد .

﴿ الشمس على بن الشبى المحدث ﴾

ناب فى الحسبة عن الصدر البكرى ، وقرأ الكثير بنفسه ، وسمع وأسمع ، وكتب بخطه كثيرا .

﴿ أبو عبد الله الفاسى شارح الشاطبية ﴾

اشتهر بالكنية ، وقيل إن اسمه القاسم ، مات بحلب ، وكان عالما فاضلا فى العربيـة والقراءات وغير ذلك ، وقد أجاد فى شرحه للشاطبية وأفاد ، واستحسنه الشيخ شهاب الدين أبو شامة شارحها أيضاً .

﴿ النجم أخو البدر مفضل ﴾

وكان شيخ الفاضلية بالكلاسة ، وكان له إجازة من السلفى خطيب العقبية بدر الدين يحيى بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ودفن بباب الصغير على جده ، وكانت جنازته حافلة رحمه الله .

﴿ سعد الدين محمد بن الشيخ محيى الدين بن عربى ﴾

ذكره أبو شامة وأثنى عليه فى فضيلته وأدبه وشعره ، هذا إن لم يكن من أتباع أبيه ، وقد ذكر أبو شامة وفاة الناصر داود فى هذه السنة .

﴿ سيف الدين بن صبرة ﴾

متولى شرطـة دمشق ، ذكر أبو شامة أنه حين مات جاءت حية فنهشت أفخاذه ، وقيل : إنها التفت فى أكفانه ، وأعيى الناس دفعها . قال وقيل : إنه كان نصيريا رافضيا خبيثا مدمن خمر، نسأل الله الستر والعافية

﴿ النجيب بن شعيشعة الدمشقى ﴾

أحد الشهود بها ، له سماع حديث و وقف داره بدرب البانياسى دار حـديث ، وهى التى كان يسكنها شيخنا الحافظ المزى قبل انتقاله إلى دار الحديث الأشرفية ، قال أبو شامة وكان ابن شعيشعة

(١) فى النسخة المصرية : تربة أبى عمرو المقدسى .

وهو النجيب أبو الفتح نصر الله بن أبى طالب الشيبانى ، مشهوراً بالكذب ورقة الدين وغير ذلك ، وهو أحد الشهود المقدوح فيهم ، ولم يكن بأهل أن يؤخذ عنه ، قال وقد أجلسه أحمد بن يحيى الملقب بالصدر ابن سنى الدولة فى حال ولاية القضاء بدمشق ، فأنشد فيه بعض الشعراء :

جلس الشعيشعة الشقى ليشهدا * تبالكم ، ماذا عدا فيما بدا ؟

هل زلزل الزلزال ؟ أم قد خرج الد * جال أم عدم الرجال ذوو الهدى ؟

عجبا لمحلول العقيدة جاهل * بالشرع قد أذنوا له أن يقعدا

قال أبو شامة : فى سنة سبع وخمسين وستمائة مات شخص زنديق يتعاطى الفلسفة والنظر فى علم الأوائل ، وكان يسكن مدارس المسلمين ، وقد أفسد عقائد جماعة من الشبان المشتغلين فيما بلغنى ، وكان أبوه يزعم أنه من تلامذة ابن خطيب الرى الرازى صاحب المصنفات. حية ولد حية .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة بيوم الخميس وليس للناس خليفة ، وملك العراقين وخراسان وغيرها من بلاد المشرق للسلطان هولاكوخان ملك التتار ، وسلطان ديار مصر الملك المظفر سيف الدين قطز ، مملوك المعز أيبك التركمانى ، وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر ، وبلاد الكرك والشوبك للملك المغيث بن العادل بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وهو حرب مع الناصر صاحب دمشق على المصريين ، ومعهما الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وقد عزموا على قتال المصريين وأخذ مصر منهم . وبينما الناس على هذه الحال وقد تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام إذ دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكوخان وجازوا الفرات على جسور عملوها ، ووصلوا إلى حلب فى ثانى صفر من هذه السنة ، فحاصروها سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان ، ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقا لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، ونهبوا الأموال ، وسبوا النساء والأطفال ، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد ، فجاسوا خلال الديار وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وامتنعت عليهم القلعة شهرا ثم استلموها بالأمان ، وخرب أسوار البلد وأسوار القلعة وبقيت حلب كأنها حمار أجرب ، وكان نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وكان عاقلا حازماً ، لكنه لم يوافقه الجيش على القتال ، وكان أمر الله قدراً مقدورا .وقد كان أرسل هولاكو يقول لأهل حلب : نحن إنما جئنا لقتال الملك الناصر بدمشق ، فاجعلوا لنا عندكم شحنة ، فان كانت النصرة لنا فالبلاد كلها فى حكمنا ، وإن كانت علينا فان شئتم قبلتم الشحنة وإن شئتم أطلقتموه . فأجابوه مالك عندنا إلا السيف ، فتعجب من ضعفهم وجوابهم ، فزحف حينئذ إليهم وأحاط بالبلد ، وكان ما كان بقدر الله سبحانه . ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماه بمفاتيحها إلى هولاكو ، فاستناب عليها

رجلا من العجم يدعى أنه من ذرية خالد بن الوليديقال له خسر وشاه ، فخرب أسوارها كمدينةحلب

﴿ صفة أخذهم دمشق و زوال ملكهم عنها سريعاً ﴾

أرسل هولاكو وهو نازل على حلب جيشا مع أمير من كبار دولته يقال له كتبغانوين ، فوردوا دمشق فى آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافع ، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة ، وقد كتب هولاكو أمانا لأهل البلد، فقرىء بالميدان الأخضر ونودى به فى البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر ، كما فعل بأهل حلب ، هذا والقلعةممتنعة مستورة ، وفى أعاليها المجانيق منصوبة والحال شديدة ، فاحضرت التتار منجنيقا يحمل على عجل والخيول تجرها ، وهم راكبون على الخيل وأسلحتهم على أبقار كثيرة ، فنصب المنجانيق على القلعة من غربيها ، وخربوا حيطانا كثيرة وأخذوا حجارتها ورموا بها القلعة رميا متواترا كالمطر المتدارك ، فهدموا كثيرا من أعاليها وشرافاتها وتداعت للسقوط فأجابهم متوليها فى آخر ذلك النهار للمصالحة ، ففتحوها وخربوا كل بدنة فيها ، وأعالى بروجها، وذلك فى نصف جمادى الأولى من هذه السنة ، وقتلوا المتولى بها بدرالدين بن قراجا ، ونقيبها جمال الدين ابن الصير فى الحلبى ، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له ابل سيان ، وكان لعنه الله معظما لدين النصارى ، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم ، فعظمهم جدا ، و زار كنائسهم ، فصارت لهم دولة وصولة بسببه ، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحفا ، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته ، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤس الناس ، وهم ينادون بشعارهم و يقولون : ظهر الدين الصحيح دين المسيح .و يذمون دين الاسلام وأهله ، ومعهم أوانى فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرا ، وقماقم ملآنة خمرا يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ، و يأمرون كل من يجتازون به فى الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم، ودخلوا من درب الحجر فوقفوا عند رباط الشيخ أبى البيان ، و رشوا عنده خمراً ، وكذلك على باب مسجد درب الحجر الصغير والكبير ، واجتازوا فى السوق حتى وصلوا درب الريحان أو قريب منه ، فتكاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق كنيسة مريم ، فوقف خطيبهم إلى دكة دكان فى عطفة السوق فمدح دين النصارى وذم دين الاسلام وأهله ، فانا لله و إنا إليه راجعون . ثم دخلوا بعد ذلك إلى كنيسة مريم وكانت عامرة ولكن كان هذا سبب خرابها ولله الحمد . وحكى الشيخ قطب الدين فى ذيله على المرآة أنهم ضربوا بالناقوس فى كنيسة مريم فالله أعلم .

قال وذكر أنهم دخلوا إلى الجامع بخمر وكان فى نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيرا من المساجد وغيرها ، ولما وقع هذا فى البلد اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها ابل سيان فأهينوا وطردوا ، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم فانا لله

و إنا إليه راجعون . وهذا كان فى أول هذه السنة وسلطان الشام الناصر بن العزيز وهو مقيم فى وطأة برزه ، ومعه جيوش كثيرة من الأمراء وأبناء الملوك ليناجزوا التتار إن قدموا عليهم ، وكان فى جملة من معه الأمير بيبرس البندقدارى فى جماعة من البحرية ، ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير مؤتلفة ، لما يريده الله عز وجل . وقد عزمت طائفة من الأمراء على خلع الناصر وسجنه ومبايعة أخيه شقيقه الملك الظاهر على ، فلما عرف الناصر ذلك هرب إلى القلعة وتفرقت العساكر شذر مذر وساق الأمير ركن الدين بيبرس فى أصحابه إلى ناحية غزة ، فاستدعاه الملك المظفر قطز إليه واستقدمه عليه ، وأقطعه قليوب ، وأنزله بدار الوزارة وعظم شأنه لديه ، و إنما كان حتفه على يديه .

﴿ وقعة عين جالوت ﴾

اتفق وقوع هذا كله فى العشر الأخير من رمضان من هذه السنة ، فما مضت سوى ثلاثة أيام حتى جاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت ، وذلك أن الملك المظفر قطز صاحب مصر لما بلغه أن التتار قد فعلوا بالشام ما ذكرنا ، وقد نهبوا البلاد كلها حتى وصلوا إلى غزة ، وقد عزموا على الدخول إلى مصر ، وقد عزم الملك الناصر صاحب دمشق على الرحيل إلى مصر ، وليته فعل ، وكان فى صحبته الملك المنصور صاحب حماه وخلق من الامراء وأبناء الملوك ، وقد وصل إلى قطية وأكرم الملك المظفر قطز صاحب حماه و وعده ببلده و وفاه له ، ولم يدخل الملك الناصر مصر بل كر راجعاً إلى ناحية تيه بنى إسرائيل ، ودخل عامة من كان معه إلى مصر ، ولو دخل كان أيسر عليه مما صار إليه ، ولكنه خاف منهم لأجل العداوة فعدل إلى ناحية الكرك فتحصن بها وليته استمر فيها ، ولكنه قلق فركب نحو البرية - وليته ذهب فيها - واستجار ببعض أمراء الأعراب ، فقصدته التتار وأتلفوا ما هنالك من الأموال وخربوا الديار وقتلوا الكبار والصغار وهجموا على الأعراب التى بتلك النواحى فقتلوا منهم خلقا وسبوا من نسلهم ونسائهم ، وقد اقتص منهم العرب بعد ذلك ، فأغاروا على خيل جشارهم فى نصف شعبان فساقوها بأسرها ، فساقت و راءهم التتار فلم يدركوا لهم الغبار ولا استردوا منهم فرساً ولا حماراً ، وما زال التتار و راء الناصر حتى أخذوه عند بركة زيزى وأرسلوه مع ولده العزيز وهو صغير وأخيه إلى ملكهم هولاكوخان وهو نازل على حلب ، فما زالوا فى أسره حتى قتلهم فى السنة الآتية كما سنذكره . والمقصود أن المظفر قطز لما بلغه ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام ، بادرهم قبل أن يبادروه و برز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه ، فخرج فى عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه ، حتى انتهى إلى الشام واستيقظ له عسكر المغول وعليهم كتبغانوين ، وكان إذ ذاك فى البقاع فاستشار الأشرف صاحب حمص والمجير ابن الزكى ، فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بالمظفر حتى يستمد هولاكو

فأبى إلا أن يناجزه سريعاً ، فساروا إليه وسار المظفر إليهم ، فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ، فاقتتلوا قتالا عظيما ، فكانت النصرة ولله الحمد للاسلام وأهله ، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغانوين وجماعة من بيته ، وقد قيل إن الذى قتل كتبغانوين الأمير جمال الدين آقوش الشمسى ، واتبعهم الجيش الاسلامى يقتلونهم فى كل موضع ، وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماه مع الملك المظفر قتالا شديدا ، وكذلك الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب ، وكان أتابك العسكر ، وقد أسر من جماعة كتبغانوين الملك السعيد بن العزيز بن العادل فأمر المظفر بضرب عنقه ، واستأمن الأشرف صاحب حمص ، وكان مع التتار ، وقد جعله هولاكوخان نائبا على الشام كله ، فأمنه الملك المظفر ورد إليه حمص ، وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها ، وأطلق سلمية للامير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب ، واتبع الامير بيبرس البندقدارى وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم فى كل مكان ، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب ، وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان ، فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم و يستفكون الأسارى من أيديهم ، وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه فجاوبتها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديدا ، وأيد الله الاسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون ، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التى خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها فاحترق دور كثيرة إلى النصارى ، وملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا ، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة ، وهمت طائفة بنهب اليهود ، فقيل لهم إنه لم يكن منهم من الطغيان كما كان من عبدة الصلبان ، وقتلت العامة وسط الجامع شيخا رافضيا كان مصانعا للتتار على أموال الناس يقال له الفخر محمد بن يوسف بن محمد الكنجى ، كان خبيث الطوية مشرقياً ممالئا لهم على أموال المسلمين قبحه الله ، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، وقد كان هولاكو أرسل تقليدا بولاية القضاء على جميع المدائن : الشام ، والجزيرة ، والموصل ، وماردين ، والأكراد وغير ذلك ، للقاضى كمال الدين عمر بن بدار التفليسى . وقد كان نائب الحكم بدمشق عن القاضى صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله ابن سنى الدولة من مدة خمس عشرة سنة ، فحين وصل التقليد فى سادس عشرين ربيع الأول قرئ بالميدان الأخضر فاستقل بالحكم فى دمشق وقد كان فاضلا ، فسار القاضيان المعزولان صدر الدين بن سنى الدولة ومحيى الدين بن الزكى إلى خدمة هولاكوخان إلى حلب ، فخدع ابن الزكى لابن سنى الدولة وبذل أموالا جزيلة ، وتولى القضاء بدمشق ورجعا ، فمات ابن سنى الدولة ببعلبك ، وقدم ابن الزكى على القضاء ومعه تقليده وخلعة مذهبة فلبسها وجلس فى خدمة ابل سنان تحت قبة النسر عند الباب

الكبير ،و بينهما الخاتون زوجة ابل سنان حاسرة عن وجهها ، وقرىء التقليد هناك والحالة كذلك ، وحين ذكر اسم هولاكو نثر الذهب والفضة فوق رؤس الناس، فانا لله و إنا إليه راجعون ، قبح الله ذلك القاضى والأمير والزوجة والسلطان . وذكر أبوشامة أن ابن الزكى استحوذ على مدارس كثيرة فى مدته هذه القصيرة ، فانه عزل قبل رأس الحول ، فأخذ فى هذه المدة العذراوية والسلطانية والفلكية والركنية والقيمرية والعزيزية مع المدرستين اللتين كانتا بيده التقوية والعزيزية ، وأخذ لولده عيسى تدريس الامينية ومشيخة الشيوخ ، وأخذ أم الصالح لبعض أصحابه وهو العماد المصرى ، وأخذ الشامية البرانية لصاحب له ، واستناب أخاه لأمه شهاب الدين إسماعيل بن أسعد بن حبيش فى القضاء و ولاه الرواحية والشامية البرانية . قال أبوشامة :مع أن شرط واقفها أن لايجمع بينها و بين غيرها . ولما رجعت دمشق وغيرها إلى المسلمين ، سعى فى القضاء و بذل أموالا ليستمر فيه وفيما بيديه من المدارس ، فلم يستمر بل عزل بالقاضى نجم الدين أبى بكر بن صدر الدين بن سنى الدولة ، فقرىء توقيعه بالقضاء يوم الجمعة بعد الصلاة فى الحادى والعشرين من ذى القعدة عند الشباك الكمالى من مشهد عثمان من جامع دمشق . ولما كسر الملك المظفر قطز عساكر التتار بعين جالوت ساق و راءهم ودخل دمشق فى أبهة عظيمة وفرح به الناس فرحاً شديدا ودعوا له دعاء كثيرا ، وأقر صاحب حمص الملك الأشرف عليها ،وكذلك المنصور صاحب حماه ، واسترد حلب من يد هولاكو ، وعاد الحق إلى نصابه ومهد القواعد ، وكان قد أرسل بين يديه الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ليطرد التتار عن حلب و يتسلمها و وعده بنيابتها ، فلما طردهم عنها وأخرجهم منها وتسلمها المسلمون استناب عليها غيره وهو علاء الدين ابن صاحب الموصل ، وكان ذلك سبب الوحشة التى وقعت بينهما واقتضت قتل الملك المظفر قطز سريعاً ، ولله الأمر من قبل ومن بعد . فلما فرغ المظفر من الشام عزم على الرجوع إلى مصر واستناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى الكبير والأمير مجير الدين ابن الحسين بن آقشتمر ، وعزل القاضى ابن الزكى عن قضاء دمشق ، و ولى ابن سنى الدولة ثم رجع إلى الديار المصرية والعساكر الاسلامية فى خدمته ، وعيون الأعيان تنظر إليه شزراً من شدة هيبته

﴿ ذكر سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ﴾

وهو الأسد الضارى ، وذلك أن السلطان الملك المظفر قطز لما عاد قاصدا مصر ، وصل إلى ما بين الغزالى والصالحية ، عدا عليه الأمراء فقتلوه هنالك ، وقد كان رجلا صالحا كثير الصلاة فى الجماعة ، ولا يتعاطى المسكر ولا شيئا مما يتعاطاه الملوك ، وكانت مدة ملكه من حين عزل ابن أستاذه المنصور على بن المعز التركمانى إلى هذه المدة ، وهى أواخر ذى القعدة نحواً من سنة، رحمه الله وجزاه عن الاسلام وأهله خيرا . وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى قد اتفق مع جماعة من الأمراء

على قتله ، فلما وصل إلى هذه المنزلة ضرب دهليزه وساق خلف أرنب ، وساق معه أولئك الأمراء فشفع عنده ركن الدين بيبرس فى شيء فشفعه ، فأخذ يده ليقبلها فأمسكها وحمل عليه أولئك الأمراء بالسيوف فضربوه بها ، وألقوه عن فرسه و رشقوه بالنشاب حتى قتلوه رحمه الله ، ثم كروا راجعين إلى المخيم و بأيديهم السيوف مصلتة ، فأخبروا من هناك بالخبر ، فقال بعضهم من قتله ؟ فقالوا : ركن الدين بيبرس ، فقالوا أنت قتلته ؟ فقال نعم ، فقالوا أنت الملك إذا ، وقيل لما قتل حار الأمراء بينهم فيمن يولون الملك ، وصار كل واحد منهم يخشى غائلة ذلك ، وأن يصيبه ما أصاب غيره سريعاً ، فاتفقت كلمتهم على أن بايعوا بيبرس البندقدارى ، ولم يكن هو من أكابر المقدمين ، ولكن أرادوا أن يجربوا فيه ، ولقبوه الملك الظاهر ، فجلس على سرير المملكة وحكمه ، ودقت البشائر وضربت الطبول والبوقات وصفرت الشغابة ، و زعقت الشاوشية بين يديه ، وكان يوما مشهودا وتوكل على الله واستعان به ، ثم دخل مصر والعساكر فى خدمته ، فدخل قلعة الجبل وجلس على كرسيها ، فحكم وعدل وقطع ووصل وولى وعزل ، وكان شهما شجاعا أقامه الله للناس لشدة احتياجهم إليه فى هذا الوقت الشديد والأمر العسير ، وكان أولا لقب نفسه بالملك القاهر ، فقال له الوزير: إن هذا اللقب لا يفلح من يلقب به . تلقب به القاهر بن المعتمد فلم تطل أيامه حتى خلع وسملت عيناه ، ولقب به القاهر صاحب الموصل فسم فمات ، فعدل عنه حينئذ إلى الملك الظاهر ، ثم شرع فى مسك من يرى فى نفسه رئاسة من أكابر الأمراء حتى مهد الملك . وقد كان هولاكوخان لما بلغه ماجرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثير بن ليستعيدوا الشام من أيدى المسلمين ، فحيل بينهم و بين مايشتهون فرجعوا إليه خائبين خاسرين ، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر ، فقدم دمشق وأرسل العساكر فى كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة ، فلم يقدر التتار على الدنو إليه ، و وجدوا الدولة قد تغيرت ، والسواعد قد شمرت ، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت ، و رحمته بهم قد نزلت ، فعند ذلك نكصت شياطينهم على أعقابهم ، وكروا راجعين القهقرى ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وقد كان الملك المظفر قطز رحمه الله استناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى أحد الأتراك ، فلما بلغه مقتل المظفر دخل القلعة ودعا لنفسه وتسمى بالملك المجاهد ، فلما جاءت البيعة للملك الظاهر خطب له يوم الجمعة السادس من ذى الحجة فدعا الخطيب أولا للمجاهد ثم للظاهر ثانياً وضربت السكة باسمهما معا ، ثم ارتفع المجاهد هذا من البين كما سيأتى .

وقد اتفق فى هذا العام أمور عجيبة ، وهى أن أول هذه السنة كانت الشام للسلطان الناصر ابن العزيز ، ثم فى النصف من صفر صارت لهولاكو ملك التتار ، ثم فى آخر رمضان صارت للمظفر قطز

ثم فى أواخر العقدة صارت للظاهر بيبرس ، وقد شركه فى دمشق الملك المجاهد سنجر ، وكذلك كان القضاء فى أولها بالشام لابن سنى الدولة صدر الدين ، ثم صار للكمال عمر التفليسى من جهة هولاكو ثم لابن الزكى ثم لنجم الدين ابن سنى الدولة . وكذلك كان خطيب جامع دمشق عماد الدين بن الحرستانى من سنين متطاولة ، فعزل فى شوال منها بالعماد الاسعردى ، وكان صينا قارئا مجيدا ، ثم أعيد العماد الحرستانى فى أول ذى القعدة منها . فسبحان من بيده الأمور يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وفيها توفى من الأعيان .

﴿ قاضى القضاة صدر الدين أبو العباس ابن سنى الدولة ﴾

أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسين بن يحيى بن محمد بن على يحيى بن صدقة بن الخياط ، قاضى القضاة صدر الدين أبو العباس ابن سنى الدولة التغلبى الدمشقى الشافعى ، وسنى الدولة الحسين بن يحيى المذكور كان قاضيا لبعض ملوك دمشق فى حدود الخمسمائة ، وله أوقاف على ذريته . وابن الخياط الشاعر صاحب الديوان وهو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن على بن يحيى بن صدقة التغلبى هو عم سنى الدولة . ولد سنى الدولة سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وسمع الخشوعى وابن طبرزد ، والكندى وغيرهم ، وحدث ودرس فى عدة مدارس وأفتى ، وكان عارفا بالمذاهب مشكور السيرة ، ولكن أبو شامة ينال منه ويذمه فالله أعلم .

وقد ولى الحكم بدمشق استقلالا سنة ثلاث وأربعين واستمر إلى مدة السنة وسافر حين عزل بالكمال التفليسى هو والقاضى محيى الدين ابن الزكى ، وقد سافر هو وابن الزكى إلى هولاكو لما أخذ حلب فولى ابن الزكى القضاء ، واختار ابن سنى الدولة بعلبك فقدمها وهو متمرض فمات بها ودفن عند الشيخ عبد الله اليونينى ، وقد كان الملك الناصر يثنى عليه كما كان الملك الأشرف يثنى على والده شمس الدين . ولما استقر الملك الظاهر بيبرس ولى القضاء ولده نجم الدين ابن سنى الدولة وهو الذى حدث فى زمن المشمش بطالة الدروس لأنه كان له بستان بأرض السهم ، فكان يشق عليه مفارقة المشمش ، والنزول إلى المدارس ، فبطل الناس هذه الايام واتبعوه فى ذلك ، والنفوس إنما تؤثر الراحة والبطالة ، ولا سيما أصحاب البساتين فى أيام الفواكه وكثرة الشهوات فى تلك الأيام ولا سيما القضاة .

وفيها توفى ﴿ الملك السعيد صاحب ماردين ﴾

نجم الدين بن ايل غازى بن المنصور أرتق بن أرسلان بن ايل غازى بن السنى بن تمرتاش ابن ايل غازى بن اريتى وكان شجاعا ملك يوما ، وقد وقع فى قلعته توران شاه بن الملك صلاح الدين كان نائبا للملك الظاهر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر صاحب دمشق على حلب ، وقد حصن

حلب من أيدى المغول مدة شهر ، ثم تسلمها بعد محاصرة شديدة صلحا . كانت وفاته فى هذه السنة ودفن بدهليز داره . وفيها قتل :

{ الملك السعيد حسن بن عبد العزيز }

ابن العادل أبى بكر بن أيوب ، كان صاحب الصبيبة وبانياس بعد أبيه ، ثم أخذتا منه وحبس بقلعة المنيرة ، فلما جاءت التتار كان معهم وردوا عليه بلاده ، فلما كانت وقعة عين جالوت أتى به أسيرا إلى بين يدى المظفر قطز فضرب عنقه ، لأنه كان قد لبس سرقوج التتار وناصحهم على المسلمين .

{ عبد الرحمن بن عبدالرحيم بن الحسن بن عبدالرحمن بن طاهر }

ابن محمد بن الحسين بن على بن أبى طالب ، شرف الدين بن العجمى الحلبى الشافعى ، من بيت العلم والرئاسة بحلب ، درس بالظاهرية ووقف مدرسة بها ودفن بها ، توفى حين دخلت التتار حلب فى صفر ، فعذبوه وصبوا عليه ماء باردا فى الشتاء فتشنج حتى مات رحمه الله تعالى .

{ الملك المظفر قطز بن عبد الله }

سيف الدين التركى ، أخص مماليك المعز التركمانى ، أحد مماليك الصالح أيوب بن الكامل . لما قتل أستاذه المعز قام فى تولية ولده نور الدين المنصور على ، فلما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة لصغر ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه ، فبويع فى ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة كما تقدم ، ثم سار إلى التتار فجعل الله على يديه نصرة الاسلام كما ذكرنا ، وقد كان شجاعا بطلا كثير الخير ناصحاً للاسلام وأهله ، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيرا . ذكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قتل جواده ولم يجد أحداً فى الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب ، فترجل وبقى واقفا على الأرض ثابتا ، والقتال عمال فى المعركة ، وهو فى موضع السلطان من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك . ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب ، فلامه بعض الأمراء وقال : ياخوند لم لا ركبت فرس فلان ؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الاسلام بسببك ، فقال : أما أنا فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الاسلام فله رب لا يضيعه ، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقا من الملوك ، فأقام للاسلام من يحفظه غيرهم ، ولم يضيع الاسلام . رحمه الله وكان حين سار من مصر فى خدمته خلق من كبار الأمراء البحرية وغيرهم ، ومعه المنصور صاحب حماه وجماعة من أبناء الملوك . فأرسل إلى صاحب حماه يقول له لا تتعنى فى مد سماط فى هذه الأيام ، وليكن مع الجندى لحمة يأكلها ، والعجل العجل ، وكان اجتماعه مع عدوه كما ذكرنا فى العشر الأخير من رمضان يوم الجمعة ، وهذه بشارة عظيمة ، فان وقعة بدر كانت يوم الجمعة فى رمضان ، وكان

فيها نصر الاسلام . ولما قدم دمشق فى شوال أقام بها العدل و رتب الأمور ، وأرسل بيبرس خلف التتار ليخرجهم و يطردهم عن حلب ، و وعده بنيابتها فلم يف له لما رآه من المصلحة ، فوقعت الوحشة بينهما بسبب ذلك ، فلما عاد إلى مصر تمالأ عليه الأمراء مع بيبرس فقتلوه بين القرابى والصالحية ودفن بالقصر ، وكان قبره يزار ، فلما تمكن الظاهر من الملك بعث إلى قبره فغيبه عن الناس ، وكان لا يعرف بعد ذلك ، قتل يوم السبت سادس عشر من ذى القعدة رحمه الله .

وحكى الشيخ قطب الدين اليونينى فى الذيل عـلى المرآة عن الشيخ علاء الدين بن غانم عن المولى تاج الدين أحمد بن الأثير كاتب السر فى أيام الناصر صاحب دمشق ، قال : لما كنا مع الناصر بوطاه برزه جاءت البريدية بخبر أن قطز قد تولى الملك بمصر ، فقرأت ذلك على السلطان ، فقال : اذهب إلى فلان وفلان فأخبرهم بهذا ، قال فلما خرجت عنه لقينى بعض الأجناد فقال لى جاءكم الخبر من مصر بأن قطز قد تملك ؟ فقلت: ما عندى من هذا علم ومايدريك أنت بهذا ؟ فقال بلى والله سيلى المملكة و يكسر التتار ، فقلت من أين تعلم هذا ؟ فقال : كنت أخدمه وهو صغير وكان عليه قمل كثير فكنت أفليه وأهينه وأذمه ، فقال لى يوما : و يلك إيش تريد أعطيك إذا ملكت الديار المصرية ؟ فقلت له أنت مجنون ؟ فقال لقد رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وقال لى أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار ، وقول رسول الله ﷺ حق لاشك فيه ، فقلت له حينئذ ـ وكان صادقا ـ أريد منك إمرة خمسين فارساً ، فقال نعم أبشر . قال ابن الأثير : فلما قال لى هذا قلت له هذه كتب المصريين بأنه قد تولى السلطنة ، فقال والله ليكسرن التتار ، وكان كذلك ، ولما رجع الناصر إلى ناحية الديار المصرية وأراد دخولها و رجع عنها ودخلها أكثر الجيوش الشامية كان هذا الأمير الحاكى فى جملة من دخلها ، فأعطاه المظفر إمرة خمسين فارساً ، و وفى له بالوعد ، وهو الأمير جمال الدين التركمانى . قال ابن الأثير : فلقينى بمصر بعد أن تأمر فذكرنى بما كان أخبرنى عن المظفر ، فذكرته ثم كانت وقعة التتار عـلى إثر ذلك فكسرهم وطردهم عن البلاد ، وقد روى عنـه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه : لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفىء الظلال وتهب الرياح ، و يدعوا لنا الخطباء والناس فى صلاتهم ، رحمه الله تعالى .

وفيها هلك كتبغانوين نائب هولاكو عـلى بلاد الشام لعنه الله ، ومعنى نوين يعنى أمير عشرة آلاف ، وكان هذا الخبيث قد فتح لأستاذه هولاكو من أقصى بلاد العجم إلى الشام ، وقد أدرك جنكيزخان جد هولاكو ، وكان كتبغا هـذا يعتمد فى حروبه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها ، كان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذى يليه ، و يطلب من أهل ذلك البلد أن يؤ وا هؤلاء إليهم ، فان فعلوا حصل مقصوده فى تضييق الأطعمة والأشربة عليهم ، فتقصر مدة الحصار

عليه لما ضاق على أهل البلد من أقواتهم ، و إن امتنعوا من إيوائهم عندهم قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين هم أهل البلد الذى فتحه قبل ذلك ، فان حصل الفتح و إلا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء حتى يفنى تلك المقاتلة ، فان حصل الفتح و إلا قاتلهم بجنده وأصحابه مع راحة أصحابه وتعب أهل البلد وضعفهم حتى يفتحهم سريعاً . وكان يبعث إلى الحصن يقول: إن ماءكم قد قل فنخشى أن نأخذكم عنوة فنقتلكم عن آخركم ونسبى نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم ، فافتحوا صلحاً قبل أن نأخذكم قسراً فيقولون له : إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء. فيقول لا أصدق حتى أبعث من عندى من يشرف عليه فان كان كثيرا انصرفت عنكم ، فيقولون : ابعث من يشرف عليه ، فيرسل رجالا من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سما ، فاذا دخلوا الحصن الذى قد أعياه ساطوا ذلك الماء بتلك الرماح على أنهم يفتشونه و يعرفون قدره ، فينفتح ذلك السم و يستقر فى ذلك الماء فيكون سبب هلاكهم وهم لا يشعرون لعنه الله لعنة تدخل معه قبره . وكان شيخا كبيرا قد أسن وكان يميل إلى دين النصارى ولكن لا يمكنه الخروج من حكم جنكيزخان فى الياساق .

قال الشيخ قطب الدين اليونينى: وقد رأيته ببعلبك حين حاصر قلعتها ، وكان شيخا حسنا له لحية طويلة مسترسلة قد ضفرها مثل الدبوقة ، وتارة يعلقها من خلفه باذنه ، وكان مهيباً شديد السطوة ، قال وقد دخل الجامع فصعد المنارة ليتأمل القلعة منها ، ثم خرج من الباب الغربى فدخل دكانا خرابا فقضى حاجته والناس ينظرون إليه وهو مكشوف العورة ، فلما فرغ من حاجته مسحه بعض أصحابه بقطن ملبد مسحة واحدة . قال ولما بلغه خروج المظفر بالعساكر من مصر تلوم فى أمره وحار ماذا يفعل ، ثم حملته نفسه الأبية على لقائه ، وظن أنه منصور على جارى عادته ، فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها ثم أيد الله المسلمين وثبتهم فى المعركة فحملوا حملة صادقة على التتار فهزموهم هزيمة لا تجبر أبدا ، وقتل أميرهم كتبغانوين فى المعركة وأسر ابنه ، وكان شابا حسنا ، فأحضر بين يدى المظفر قطز فقال له أهرب أبوك ؟ قال إنه لا يهرب ، فطلبوه فوجدوه بين القتلى ، فلما رآه ابنه صرخ و بكى ، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى ثم قال : أنام طيبا . كان هذا سعادة التتار و بقتله ذهب سعدهم، وهكذا كان كما قال ولم يفلحوا بعده أبدا ، وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ، وكان الذى قتله الأمير آقوش الشمسى رحمه الله .

﴿ الشيخ محمد الفقيه اليونينى ﴾

الحنبلى البعلبكى الحافظ ، هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أبى الرجال أحمد بن على ابن محمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق بن جعفر الصادق ، كذا نقل هذه النسبة الشيخ قطب الدين اليونينى من خط أخيه الأكبر أبى الحسين على وأخبره أن والده قال له نحن من سلالة

جعفر الصادق ، قال و إنما قال له هذا عند الموت ليتخرج من قبول الصدقات .

أبو عبد الله بن أبى الحسين اليونينى الحنبلى تقى الدين الفقيه الحنبلى الحافظ المفيد البارع العابد الناسك، ولد سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة ، وسمع الخشوعى وحنبلا والكندى والحافظ عبد الغنى وكان يثنى عليه ، وتفقه على الموفق ، ولزم الشيخ عبد الله اليونينى فانتفع به ، وكان الشيخ عبد الله يثنى عليه و يقدمه و يقتدى به فى الفتاوى، وقد لبس الخرقة من شيخ شيخه عبد الله البطائحى ، و برع فى علم الحديث وحفظ الجمع بين الصحيحين بالفاء والواو ، وحفظ قطعة صالحة من مسند أحمد ، وكان يعرف العربية أخذها عن التاج الكندى ، وكتب مليحا حسنا ، وكان الناس ينتفعون بفنونه الكثيرة ، و يأخذون عنه الطرق الحسنة ، وقد حصلت له وجاهة عظيمة عند الملوك ، توضأ مرة عند الملك الأشرف بالقلعة حال سماع البخارى على الزبيدى ، فلما فرغ من الوضوء نفض السلطان تخفيفته و بسطها على الأرض ليطأ عليها ، وحلف السلطان له إنها طاهرة ولا بد أن يطأ برجليه عليها ففعل ذلك . وقدم الكامل على أخيه الأشرف دمشق فأنزله القلعة وتحول الأشرف لدار السعادة وجعل يذكر للكامل محاسن الشيخ الفقيه ، فقال الكامل : أحب أن أراه ، فأرسل إليه إلى بعلبك بطاقة واستحضره فوصل إلى دار السعادة ، فنزل الكامل إليه وتحادثا وتذاكرا شيئا من العلم ، فجرت مسألة القتل بالمثقل ، وجرى ذكر حديث الجارية التى قتلها اليهودى فرض رأسها بين حجرين فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقال الكامل :إنه لم يعترف . فقال الشيخ الفقيه فى صحيح مسلم «فاعترف» ، فقال الكامل أنا اختصرت صحيح مسلم ولم أجد هذا فيه ، فأرسل الكامل فأحضر خمس مجلدات اختصاره لمسلم ، فأخذ الكامل مجلدا والأشرف آخر وعماد الدين بن موسك آخر وأخذ الشيخ الفقيه مجلدا فأول ما فتحه وجد الحديث كما قال الشيخ الفقيه ، فتعجب الكامل من استحضاره وسرعة كشفه ، وأراد أن يأخذه معه إلى الديار المصرية فأرسله الأشرف سريعا إلى بعلبك ، وقال للكامل : إنه لا يؤثر ببعلبك شيئا ، فأرسل له الكامل ذهباً كثيرا ، قال ولده قطب الدين : كان والدى يقبل بر الملوك و يقول أنا لى فى بيت المال أكثر من هذا ، ولا يقبل من الأمراء ولا من الوزراء شيئا إلا أن يكون هدية مأكول ونحوه ، و يرسل إليهم من ذلك فيقبلونه على سبيل التبرك والاستشفاء .

وذكر أنه كثر ماله وأثرى ، وصار له سعة من المال كثيرة ، وذكر له أن الأشرف كتب له كتابا بقرية يونين وأعطاه لمحيي الدين بن الجوزى ليأخذ عليه خط الخليفة ، فلما شعر والدى بذلك أخذ الكتاب ومزقه وقال : أنا فى غنية عن ذلك ، قال وكان والدى لا يقبل شيئا من الصدقة ويزعم أنه من ذرية على بن أبى طالب من جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على بن الحسين بن

على بن أبى طالب ، قال وقد كان قبل ذلك فقيرا لا شئ له ، وكان للشيخ عبد الله زوجة ولها ابنة جميلة ، وكان الشيخ يقول لها : زوجيها من الشيخ محمد ، فتقول إنه فقير وأنا أحب أن تكون ابنتى سعيدة ، فيقول الشيخ عبد الله كأنى أنظر إليهما إياه و إياها فى دار فيها بركة وله رزق كثير والملوك يترددون إلى زيارته ، فزوجتها منه فكان الأمر كذلك ، وكانت أولى زوجاته رحمه الله تعالى .

وكانت الملوك كلهم يحترمونه و يعظمونه و يجيئون إلى مدينته ، بنو العادل وغيرهم ، وكذلك كان مشايخ الفقهاء كابن الصلاح ، وابن عبد السلام ، وابن الحاجب ، والحصرى ، وشمس الدين بن سنى الدولة ، وابن الجوزى ، وغيرهم يعظمونه و يرجعون إلى قوله لعلمه وعمله وديانته وأمانته . وقد ذكرت له أحوال ومكاشفات وكرامات كثيرة رحمه الله ، وزعم بعضهم أنه قطب منذ ثنتى عشرة سنة فالله أعلم . وذكر الشيخ الفقيه قال عزمت مرة على الرحلة إلى حران ، وكان قد بلغنى أن رجلا بها يعلم علم الفرائض جيداً ، فلما كانت الليلة التى أريد أن أسافر فى صبيحتها جاءتنى رسالة الشيخ عبد الله اليونينى يعزم على إلى القدس الشريف ، وكأنى كرهت ذلك وفتحت المصحف فطلع قوله (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) فخرجت معه إلى القدس فوجدت ذلك الرجل الحرانى بالقدس الشريف ، فأخذت عنه علم الفرائض حتى خيل لى أنى صرت أبرع فيه منه . وقال الشيخ أبو شامة كان الشيخ الفقيه رجلا ضخما ، وحصل له قبول من الأمراء وغيرهم ، وكان يلبس قبعاً صوفه إلى خارج كما كان شيخه الشيخ عبد الله اليونينى ، قال وقد صنف شيئا فى المعراج فرددت عليه فى كتاب سميته الواضح الجلى فى الرد على الحنبلى ، وذكر ولده قطب الدين أنه مات فى التاسع عشر من رمضان من هذه السنة عن ثمان وثمانين سنة رحمه الله تعالى .

﴿ محمد بن خليل بن عبد الوهاب بن بدر ﴾

أبو عبد الله البيطار الأكال ، أصله من جبل بنى هلال ، و ولد بقصر حجاج ، وكان مقيما بالشاغور وكان فيه صلاح ودين و إيثار للفقراء والمحاويج والمحابيس ، وكانت له حال غريبة لا يأكل لأحد شيئا إلا بأجرة ، وكان أهل البلد يترامون عليه ليأكل لهم الأشياء المفتخرة الطيبة فيمتنع إلا بأجرة جيدة ، وكلما امتنع من ذلك حلى عند الناس وأحبوه ومالوا إليه و يأتونه بأشياء كثيرة من الحلاوات والشواء وغير ذلك فيرد عليهم عوض ذلك أجرة جيدة مع ذلك ، وهذا غريب جدا ، رحمه الله تعالى ورضى عنه بمنه وكرمه آمين .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة ﴾

استهلت بيوم الاثنين لأيام خلون من كانون الأول ، وليس للمسلمين خليفة وصاحب مكة أبو نمى بن أبى سعيد بن على بن قتادة الحسنى ، وعمه إدريس بن على شريكه ، وصاحب المدينة

الأمير عز الدين جماز بن شيحه الحسينى ، وصاحب مصر والشام السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وشريكه فى دمشق و بعلبك والصبيبة و بانياس الأمير علم الدين سنجر الملقب بالملك المجاهد ، وشريكه فى حلب الأمير حسام الدين لاشين الجوكندارى العزيزى ، والكرك والشوبك للملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل بن سيف الدين أبى بكر الكامل محمد بن العادل الكبير سيف الدين أبى بكر بن أيوب . وحصن جهيون وبازريا فى يد الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين مكورس ، وصاحب حماه الملك المنصور بن تقى الدين محمود ، وصاحب حمص الأشرف بن المنصور إبراهيم بن أسد الدين الناصر ، وصاحب الموصل الملك الصالح بن البدر لؤلؤ ، وأخوه الملك المجاهد صاحب جزيرة ابن عمر ، وصاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين ايل غازى بن أرتق ، وصاحب بلاد الروم ركن الدين قلج أرسلان بن كيخسرو السلجوقى ، وشريكه فى الملك أخوه كيكاوس والبلاد بينهما نصفين ، وسائر بلاد المشرق بأيدى التتار أصحاب هولاكو ، و بلاد اليمن تملكها غير واحد من الملوك ، وكذلك بلاد الجوكندى المغرب فى كل قطر منها ملك .

وفى هذه السنة أغارت التتار على حلب فلقيهم صاحبها حسام الدين العزيزى ، والمنصور صاحب حماه ، والأشرف صاحب حمص ، وكانت الوقعة شمالى حمص قريباً من قبر خالد بن الوليد ، والتتار فى ستة آلاف والمسلمون فى ألف وأربعمائة فهزمهم الله عز وجل ، وقتل المسلمون أكثرهم فرجع التتار إلى حلب فحصروها أربعة أشهر وضيقوا عليها الأقوات ، وقتلوا من الغرباء خلقا صبراً ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، والجيوش الذين كسروهم على حمص مقيمون لم يرجعوا إلى حلب بل ساقوا إلى مصر ، فتلقاهم الملك الظاهر فى أبهة السلطنة وأحسن إليهم ، و بقيت حلب محاصرة لاناصر لها فى هذه المدة ولكن سلم الله سبحانه وتعالى .

وفى يوم الاثنين سابع صفر ركب الظاهر فى أبهة الملك ومشى الأمراء والاجناد بين يديه ، وكان ذلك أول ركوبه واستمر بعد ذلك يتابع الركوب واللعب بالكرة .

وفى سابع عشر صفر خرج الأمراء بدمشق على ملكها علم الدين سنجر فقاتلوه فهزموه ، فدخل القلعة فحاصروه فيها فهرب منها إلى قلعة بعلبك ، وتسلم قلعة دمشق الأمير علم الدين أيدكين البندقدارى ، وكان مملوكا لجمال الدين يعمور ثم للصالح أيوب بن الكامل و إليه ينسب الملك الظاهر ، فأرسله الظاهر ليتسلم دمشق من الحلبى علم الدين سنجر ، فأخذها وسكن قلعتها نيابة عن الظاهر ، ثم حاصروا الحلبى ببعلبك حتى أخذوه فأرسلوه إلى الظاهر على بغل إلى مصر ، فدخل عليه ليلا فعاتبه ثم أطلق له أشياء وأكرمه .

وفى يوم الاثنين ثامن ربيع الأول استوزر الظاهر بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن الحنا

وفى ربيع الآخر قبض الظاهر على جماعة من الأمراء بلغه عنهم أنهم يريدون الوثوب عليه وفيه أرسل إلى الشوبك فتسلمها من أيدى نواب المغيث صاحب الكرك ، وفيها جهز الظاهر جيشاً إلى حلب ليطردوا التتار عنها ، فلما وصل الجيش إلى غزة كتب الفرنج إلى التتار ينذرونهم ، فرحلوا عنها مسرعين واستولى على حلب جماعة من أهلها ، فصادروا ونهبوا و بلغوا أغراضهم ، وقدم إليهم الجيش الظاهرى فأزالوا ذلك كله ، وصادروا أهلها بألف ألف وستمائة ألف ، ثم قدم الأمير شمس الدين آقوش التركى من جهة الظاهر فاستلم البلد فقطع و وصل وحكم وعدل .

وفى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى باشر القضاء بمصر تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز أبى القاسم خلف بن رشيد الدين بن أبى الثناء محمود بن بدر العلائى ، وذلك بعد شروط ذكرها للظاهر شديدة ، فدخل تحتها الملك الظاهر وعزل عن القضاء بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن على السنجارى و رسم عليه أياماً ، ثم أفرج عنه .

﴿ ذكر البيعة بالخلافة للمستنصر بالله أبى القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر ﴾

وكان معتقلا ببغداد فأطلق ، وكان مع جماعة الأعراب بأرض بالعراق ، ثم قصد الظاهر حين بلغه ملكه ، فقدم مصر صحبة جماعة من أمراء الأعراب عشرة ، منهم الأمير ناصر الدين مهنا فى ثامن رجب ، فخرج السلطان ومعه الوزير والشهود والمؤذنون فتلقوه وكان يوماً مشهودا ، وخرج أهل التوراة بتوراتهم ، والنصارى بأنجيلهم ، ودخل من باب النصر فى أبهة عظيمة ، فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب جلس السلطان والخليفة بالايوان بقلعة الجبل ، والوزير والقاضى والأمراء على طبقاتهم ، وأثبت نسب الخليفة المذكور على الحاكم تاج الدين بن الاعز ، وهذا الخليفة هو أخو المستنصر بانى المستنصرية ، وعم المستعصم ، بويع بالخلافة بمصر بايعه الملك الظاهر والقاضى والوزير والأمراء ، وركب فى دست الخلافة بديار مصر والأمراء بين يديه والناس حوله ، وشق القاهرة فى ثالث عشر رجب ، وهذا الخليفة هو الثامن والثلاثون من خلفاء بنى العباس بينهو بين العباس أربعة وعشرون أباً ، وكان أول من بايعه القاضى تاج الدين لما ثبت نسبه ، ثم السلطان ثم الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ثم الأمراء والدولة ، وخطب له على المنابر وضرب اسمه على السكة وكان منصب الخلافة قد شغر منذ ثلاث سنين ونصفا ، لأن المستعصم قتل فى أول سنة ست وخمسين وستمائة ، و بويع هذا فى يوم الاثنين فى ثالث عشر رجب من هذه السنة - أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة - وكان أسمر وسيما شديد القوى عالى الهمة له شجاعة و إقدام ، وقد لقبوه بالمستنصر كما كان أخاه بانى المدرسة ، وهذا أمر لم يسبق إليه أن خليفتين أخوين يلقب كل منهما بالآخر ، ولى الخلافة أخوين كهذين السفاح وأخوه المنصور ، وكذا محمد بن على بن عبدالله بن العباس، والهادى

والرشيد ، والمسترشد والمقتفى ولدا المستظهر ، وأما ثلاثة فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد ، والمنتصر والمعتز والمطيع أولاد المقتدر ، وأما أربعة فأولاد عبد الملك بن مروان الوليد وسليمان ويزيد وهشام . وكانت مدة خلافته إلى أن فقد كما سيأتى خمسة أشهر وعشرين يوماً ، أقصر مدة من جميع خلفاء بنى العباس ، وأما بنو أمية فكانت مدة خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية أربعين يوما ، وإبراهيم بن يزيد الناقص سبعين يوماً ، وأخوه يزيد بن الوليد خمسة أشهر . وكانت مدة خلافة الحسن بن على بعد أبيه سبعة أشهر وأحد عشر يوما . وكانت مدة مروان بن الحكم تسعة أشهر وعشرة أيام ، وكان فى خلفاء بنى العباس من لم يستكمل سنة منهم المنتصر بن المتوكل ستة أشهر ، والمهتدى بن الواثق أحد عشر شهرا وأياما ، وقد أنزل الخليفة هذا بقلعة الجبل فى برج هو وحشمه ، فلما كان يوم سابع رجب ركب فى السواد وجاء إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بنى العباس ، ثم استفتح فقرأ صدراً من سورة الأنعام ثم صلى على النبى ﷺ ثم ترضى عن الصحابة ودعا للسلطان الظاهر ، ثم نزل فصلى بالناس فاستحسنوا ذلك منه ، وكان وقتا حسنا ويوما مشهودا .

﴿ تولية الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر السلطنة ﴾

لما كان يوم الاثنين الرابع من شعبان ، ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت ظاهر القاهرة فجلسوا فيها ، فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء ، وطوقا فى عنقه ، وقيدا فى رجليه وهما من ذهب ، وصعد فخر الدين إبراهيم بن لقمان وهو رئيس الكتاب منبرا فقرأ على الناس تقليد السلطان ، وهو من إنشائه وبخط نفسه ، ثم ركب السلطان بهذه الأبهة والقيد فى رجليه ، والطوق فى عنقه ، والوزير بين يديه ، وعلى رأسه التقليد والأمراء والدولة فى خدمته مشاة سوى الوزير ، فشق القاهرة وقد زينت له ، وكان يوما مشهودا ، وقد ذكر الشيخ قطب الدين هذا التقليد بتمامه ، وهو مطول والله أعلم .

﴿ ذكر ذهاب الخليفة إلى بغداد ﴾

ثم إن الخليفة طلب من السلطان أن يجهزه إلى بغداد ، فرتب السلطان له جنداً هائلة وأقام له من كل ما ينبغى للخلفاء والملوك . ثم سار السلطان صحبته قاصدين دمشق ، وكان سبب خروج السلطان من مصر إلى الشام ، أن التركى كما تقدم كان قد استحوذ على حلب ، فأرسل إليه الأمير علم الدين سنجر الحلبى الذى كان قد تغلب على دمشق فطرده عن حلب وتسلمها ، وأقام بها نائباً عن السلطان ، ثم لم يزل التركى حتى استعادها منه وأخرجه منها هاربا ، فاستناب الظاهر على مصر عز الدين أيدمر الحلبى وجعل تدبير المملكة إلى الوزير بهاء الدين بن الحنا ، وأخذ ولده فخر الدين

معه وزيراً وجعل تدبير العساكر والجيوش إلى الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، ثم ساروا فدخلوا دمشق يوم الاثنين سابع ذي القعدة، وكان يوما مشهودا، وصليا الجمعة بجامع دمشق، وكان دخول الخليفة من باب البريد، ودخل السلطان من باب الزيارة. وكان يوما مشهوداً أيضاً، ثم جهز السلطان الخليفة إلى بغداد ومعه أولاد صاحب الموصل، وأنفق عليه وعليهم وعلى من استقل معه من الجيش الذين يردون عنه مالم يقدر الله من الذهب العين ألف ألف دينار، وأطلق له وزاده فجزاه الله خيرا، وقدم إليه صاحب حمص الملك الأشرف فخلع عليه وأطلق له وزاده تل باشر، وقدم صاحب حماه المنصور فخلع عليه وأطلق له وكتب له تقليدا ببلاده، ثم جهز جيشاً صحبة الأمير علاء الدين البندقداري إلى حلب لمحاربة التركي المتغلب عليها المفسد فيها. وهذا كل ما بلغنا من وقائع هذه السنة ملخصاً

﴿ ثم دخلت سنة ستين وستمائة ﴾

في أوائل هذه السنة في ثالث المحرم قتل الخليفة المستنصر بالله الذي بويع له في رجب في السنة الماضية بمصر، وكان قتله بأرض العراق بعد ماهزم من كان معه من الجنود فانا لله وإنا إليه راجعون، واستقل الملك الظاهر بجميع الشام ومصر وصفت له الأمور، ولم يبق له منازع سوى التركي فانه ذهب إلى المنيرة فاستحوذ عليها وعصى عليه هنالك. وفي اليوم الثالث من المحرم من هذه السنة خلع السلطان الملك الظاهر ببلاد مصر على جميع الأمراء والحاشية وعلى الوزير وعلى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز وعزل عنها برهان الدين السنجاري، وفي أواخر المحرم أعرس الأمير بدر الدين بيليك الخازندار على بنت الأمير لؤلؤ صاحب الموصل، واحتفل الظاهر بهذا العرس احتفالا بالغا

قال ابن خلكان: وفي هذه السنة اصطاد بعض أمراء الظاهر بحدود حماة حمار وحش فطبخوه فلم ينضج ولا أثر فيه كثرة الوقود، ثم افتقدوا جلده فاذا هو مرسوم على أذنه بهرام جور، قال: وقد أحضروه إلى فقرأته كذلك، وهو يقتضي أن لهذا الحمار قريباً من ثمانمائة سنة، فان بهرام جور كان قبل المبعث بمدة متطاولة، وحمر الوحش تعيش دهراً طويلا، قلت: يحتمل أن يكون هذا بهرام شاه الملك الأمجد، إذ يبعد بقاء مثل هذا بلا اصطياد هذه المدة الطويلة، ويكون الكاتب قد أخطأ فأراد كتابة بهرام شاه فكتب بهرام جور فحصل اللبس من هذا والله أعلم.

﴿ ذكر بيعة الحاكم بأمر الله العباسي ﴾

في السابع والعشرين من ربيع الآخر دخل الخليفة أبو العباس الحاكم بأمر الله أحمد بن الأمير أبي علي القُبّي بن الأمير علي بن الأمير أبي بكر بن الامام المسترشد بالله بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد من بلاد الشرق وصحبته جماعة من رؤوس تلك البلاد، وقد شهد الوقعة صحبة المستنصر، وهرب هو في جماعة من المعركة فسلم، فلما كان يوم دخوله تلقاه السلطان الظاهر وأظهر

السرور له والاحتفال به ، وأنزله فى البرج الكبير من قلعة الجبل ، وأجريت عليه الأرزاق الدارة والاحسان . وفى ربيع الآخر عزل الملك الظاهر الأمير جمال الدين آقوش النجيبى عن استدار يته واستبدل به غيره و بعد ذلك أرسله نائباً على الشام كما سيأتى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع رجب حضر السلطان الظاهر إلى دار العدل فى محاكمة فى بئر إلى بيت القاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز فقام الناس إلا القاضى فانه أشار عليه أن لا يقوم .وتداعيا وكان الحق مع السلطان وله بينة عادلة ، فانتزعت البئر من يد الغريم وكان الغريم أحد الأمراء .

وفى شوال استناب الظاهر على حلب الأمير علاء الدين أيدكين الشهابى وحينئذ انحاز عسكر سيس على القلعة من أرض حلب فركب إليهم الشهابى فكسرهم وأسر منهم جماعة فبعثهم إلى مصر فقتلوا . وفيها استناب السلطان على دمشق الأمير جمال الدين آقوش النجيبى ، وكان من أكابر الأمراء وعزل عنها علاء الدين طيبرس الوزيرى وحمل إلى القاهرة .

وفى ذى القعدة خرج مرسوم السلطان إلى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز أن يستنيب من كل مذهب من المذاهب الثلاثة نائباً فاستناب من الحنفية صدر الدين سليمان الحنفى ، ومن الحنابلة شمس الدين محمد بن الشيخ العماد ، ومن المالكية شرف الدين عمر السبكى المالكى .

وفى ذى الحجة قدمت وفود كثيرة من التتار على الملك الظاهر مستأمنين فأكرمهم وأحسن إليهم وأقطعهم إقطاعات حسنة ، وكذلك فعل بأولاد صاحب الموصل ورتب لهم رواتب كافية .

وفيها أرسل هولاكو طائفة من جنده نحو عشرة آلاف فحاصروا الموصل ونصبوا عليها أربعة وعشرين منجنيقا ، وضاقت بها الأقوات .

وفيها أرسل الملك الصالح إسماعيل بن لؤلؤ إلى التركى يستنجده فقدم عليه فهزمت التتار ثم ثبتوا والتقوا معه ، و إنما كان معه سبعمائة مقاتل فهزموه وجرحوه وعاد إلى البيرة وفارقه أكثر أصحابه فدخلوا الديار المصرية ، ثم دخل هو إلى الملك الظاهر فأنعم عليه وأحسن إليه وأقطعه سبعين فارساً ، وأما التتار فانهم عادوا إلى الموصل ولم يزالوا حتى استنزلوا صاحبها الملك الصالح إليهم ونادوا فى البلد بالأمان حتى اطمأن الناس ثم مالوا عليهم فقتلوهم تسعة أيام وقتلوا الملك الصالح إسماعيل وولده علاء الدين وخربوا أسوار البلد وتركوها بلاقع ثم كروا راجعين قبحهم الله .

وفيها وقع الخلف بين هولاكو و بين السلطان بركه خان ابن عمه ، وأرسل إليه بركه يطلب منه نصيباً مما فتحه من البلاد وأخذه من الأموال والأسرار ، على ما جرت به عادة ملوكهم ، فقتل رسله فاشتد غضب بركه ، وكاتب الظاهر ليتفقا على هولاكو .

وفيها وقع غلاء شديد بالشام فبيع القمح الغرارة بأربعمائة والشعير بمائتين وخمسين ، واللحم

الرطل بستة أو سبعة . وحصل فى النصف من شعبان خوف شديد من التتار فتجهز كثير من الناس إلى مصر ، و بيعت الغلات حتى حواصل القلعة والأمراء ، و رسم أولياء الأمور على من له قدرة أن يسافر من دمشق إلى بلاد مصر ، ووقعت رجفة عظيمة فى الشام و فى بلاد الروم ، و يقال إنه حصل لبلاد التترخوف شديد أيضاً ، فسبحان الفعال لما يريد و بيده الأمر . وكان الآمر لأهـل دمشق بالتحول منها إلى مصر نائبها الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى ، فأرسل السلطان إليه فى ذى القعدة فأمسكه وعزله واستناب عليها بهاء الدين النجيبي ، واستوزر بدمشق عزالدين بن وداعة .

وفيها نزل ابن خلكان عن تدريس الركنيـة لأبى شامة وحضر عنـده حين درس وأخذ فى أول مختصر المزنى .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ الخليفة المستنصر بن الظاهر بأمر الله العباسى ﴾

الذى بايعه الظاهر بمصر كما ذكرنا ، وكان قتله فى ثالث المحرم من هذه السنة ، وكان شهما شجاعا بطلا فاتكا ، وقد أنفق الظاهر عليه حتى أقام له جيشاً بألف ألف دينار وأزيد ، وسار فى خدمته ومعه خلق من أكابر الأمراء وأولاد صاحب الموصـل ، وكان الملك الصالح إسماعيل من الوفد الذين قدموا على الظاهر فأرسله صحبة الخليفة ، فلما كانت الوقعة فقد المستنصر و رجع الصالح إلى بلاده فجاءته التتار فحاصروه كما ذكرنا ، وقتلوه وخربوا بلاده وقتلوا أهلها ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

﴿ العز الضرير النحوى اللغوى ﴾

واسمه الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا من أهـل نصيبين ونشأ بأربل فاشتغل بعلوم كثيرة من علوم الأوائل ، وكان يشتغل عليـه أهل الذمة وغـيرهم ، ونسب إلى الانحـلال وقلة الدين ، وترك الصلوات ، وكان ذكيا ، وليس بذكى ، عالم اللسان جاهل القلب ، ذكى القول خبيث الفعل ، وله شعر أورد منه الشيخ قطب الدين قطعة فى ترجمته ، وهو شبيه بأبى العلاء المعرى قبحهما الله .

﴿ ابن عبد السلام ﴾

عبـد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن بن محمـد المهذب ، الشيخ عز الدين بن عبد السلام أبو محمد السلمى الدمشقى الشافعى شيخ المذهب ومفيد أهله ، وله مصنفات حسان ، منها التفسير ، واختصار النهاية ، والقواعد الكبرى والصغرى ، وكتاب الصلاة والفتاوى الموصلية وغير ذلك . ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع كثيرا واشتغل على فخر الدين بن عساكر وغيره وبرع فى المذهب ، وجمع علوما كثيرة ، وأفاد الطلبة ودرس بعدة مدارس بدمشق ، وولى خطابتها ثم سافر إلى مصر ودرس بها وخطب وحكم ، وانتهت إليـه رئاسة الشافعية ، وقصـد بالفتاوى من الآفاق ، وكان لطيفاً ظريفا يستشهد بالاشعار ، وكان سبب خروجه من الشام إنكاره عـلى الصالح

إسماعيل تسليمه صفد والشقيف إلى الفرنج ، ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكى ، فأخرجهما من بلده فسار أبو عمرو إلى الناصر داود صاحب الكرك فأكرمه ، وسار ابن عبد السلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ، ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس الصالحية ، فلما حضره الموت أوصى بها للقاضى تاج الدين ابن بنت الاعز ، وتوفى فى عاشر جمادى الاولى وقد نيف على الثمانين ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، وحضر جنازته السلطان الظاهر وخلق كثير رحمه الله تعالى .

﴿ كمال الدين بن العديم الحنفى ﴾

عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبى جرادة عامر بن ربيعة بن خويلد بن عوف بن عامر بن عقيل الحلبي الحنفى أبو القاسم بن العديم ، الأمير الوزير الرئيس الكبير ، ولد سنة ست وثمانين وخمسمائة ، سمع الحديث وحدث وتفقه وأفتى ودرس وصنف ، وكان إماما فى فنون كثيرة ، وقد ترسل إلى الخلفاء والملوك مراراً عديدة ، وكان يكتب حسناً طريقة مشهورة ، وصنف لحلب تاريخاً مفيداً قريباً فى أربعين مجلداً ، وكان جيد المعرفة بالحديث ، حسن الظن بالفقراء والصالحين كثير الاحسان إليهم ، وقد أقام بدمشق فى الدولة الناصرية المتأخرة ، توفى بمصر ودفن بسفح المقطم بعد ابن عبد السلام بعشرة أيام ، وقد أورد له قطب الدين أشعارا حسنة .

﴿ يوسف بن يوسف بن سلامة ﴾

ابن إبراهيم بن الحسن بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن سليمان بن محمد القاقانى الزينبى بن إبراهيم ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، محيى الدين أبو المعز ، ويقال أبو المحاسن الهاشمى العباسى الموصلى المعروف بابن زبلاق الشاعر ، قتلته التتار لما أخذوا الموصل فى هذه السنة عن سبع وخمسين سنة ، ومن شعره قوله :

بعثت لنا من سحر مقلتك الوسنا * سهادا يزود الكرى أن يألف الجفنا

وأبصر جسمى حسن خصرك ناحلا * فحاكاه لكن زاد فى دقة المعنى

وأبرزت وجها أخجل الصبح طالعاً * وملت بقد علم الهيف الغصن اللدنا

حكيت أخاك البدر ليلة تمه * سنا وسناء إذ تشابهتما سنا

وقال أيضا وقد دعى إلى موضع ، فبعث يعتذر بهذين البيتين :

أنا فى منزلى وقد وهب الـ * ـله ندمـا وقينة وعقارا

فابسطوا العذر فى التأخر عنكم * شغل الخلى أهل بأن يعارا

قال أبو شامة وفيها فى ثانى عشر جمادى الآخرة توفى .

﴿ البدر المراغى الخلافى ﴾

المعروف بالطويل ، وكان قليل الدين تاركا للصلاة مغتبطا بما كان فيه من معرفة الجدل والخلاف على اصطلاح المتأخرين ، راضيا بما لا يفيد .

وفيها توفى ﴿ محمد بن داود بن ياقوت الصارمى ﴾

المحدث . كتب كثيرا الطبقات وغيرها ، وكان دينا خيراً يعير كتبه و يداوم على الاشتغال بسماع الحديث رحمه الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمائة ﴾

استهلت وسلطان البلاد الشامية والمصرية الظاهر بيبرس ، وعلى الشام نائبه آقوش النجيبى ، وقاضى دمشق ابن خلكان والوزير بها عز الدين بن وداعة ، وليس للناس خليفة ، و إنما تضرب السكة باسم المستنصر الذى قتل .

﴿ ذكر خلافه الحاكم بأمر الله أبى العباس ﴾

أحمد بن الامير أبى على القبى ابن الامير على بن الامير أبى بكر بن الامام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبى منصور الفضل بن الامام المستظهر بالله أحمد العباسى الهاشمى . لما كان ثانى المحرم وهو يوم الخميس ، جلس السلطان الظاهر والأمراء فى الايوان الكبير بقلعة الجبل ، وجاء الخليفة الحاكم بأمر الله راكبا حتى نزل عند الايوان ، وقد بسط له إلى جانب السلطان وذلك بعد ثبوت نسبه ، ثم قرئ نسبه على الناس ثم أقبل عليه الظاهر بيبرس فبايعه و بايعه الناس بعده ، وكان يوما مشهودا . فلما كان يوم الجمعة ثانيه خطب الخليفة بالناس فقال فى خطبته « الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا ظهيرا ، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا ، أحمده على السراء والضراء ، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء ، وأستنصره على دفع الاعداء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده و رسوله ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء ، لاسيما الأربعة ، وعلى العباس كاشف غمه أبى السادة الخلفاء وعلى بقية الصحابة أجمعين والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين ، أيها الناس اعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد ، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب الجرائم ، فلو شاهدتم أعداء الاسلام لما دخلوا دار السلام ، واستباحوا الدماء والاموال وقتلوا الرجال والأطفال ، وسبوا الصبيان والبنات ، وأيتموهم من الآباء والأمهات ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم ، وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم الطويل ، فكم من شيخ خضبت شيبته

بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه ، فشمروا عباد الله عن ساق الاجتهاد فى إحياء فرض الجهاد واتقوا الله ما استطعتم (واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) فلم يبق معذرة فى القعود عن أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين ، وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين ، قد قام بنصر الأمامة عند قلة الأنصار ،وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، وأصبحت البيعة بهمته منتظمة العقود ، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ، ولا يروعكم ما جرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين ،والدهر يومان والأجر المؤمنين ، جمع الله على الهدى أمركم ، وأعز بالايمان نصركم ، وأستغفر الله لى ولسائر المسلمين ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ». ثم خطب الثانية ونزل فصلى ،

وكتب بيعته إلى الآفاق ليخطب له وضربت السكة باسمه . قال أبوشامة :فخطب له بجامع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرم من هذه السنة . وهذا الخليفة هو التاسع والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، ولم يل الخلافة من بنى العباس من ليس والده وجده خليفة بعد السفاح والمنصور سوى هذا ، فأما من ليس والده خليفة فكثير منهم المستعين أحمد بن محمد ابن المعتصم ، والمعتضد بن طلحة بن المتوكل ، والقادر بن إسحاق بن المقتدر ، والمقتدى بن الذخيرة ابن القائم بأمر الله .

﴿ ذكر أخذ الظاهر الكرك وإعدام صاحبها ﴾

ركب الظاهر من مصر فى العساكر المنصورة قاصدا ناحية بلاد الكرك ، واستدعى صاحبها الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل ، فلما قدم عليه بعد جهد أرسله إلى مصر معتقلا فكان آخر العهد به ، وذلك أنه كاتب هولاكو وحثه على القدوم إلى الشام مرة أخرى ، وجاءته كتب التتار بالثبات ونيابة البلاد ، وأنهم قادمون عليه عشرون ألفا لفتح الديار المصرية ، وأخرج السلطان فتاوى الفقهاء بقتله وعرض ذلك على ابن خلكان ، وكان قد استدعاه من دمشق ،وعلى جماعة من الأمراء ، ثم سار فتسلم الكرك يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى ودخلها يومئذ فى أبهة الملك ، ثم عاد إلى مصر مؤيدا منصورا .

وفيها قدمت رسل بركه خان إلى الظاهر يقول له : قد علمت محبتى للاسلام ، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين ، فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من ناحية حتى نصطلمه أو نخرجه من البلاد وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد ، فاستصوب الظاهر هذا الرأى وشكره وخلع على رسله وأكرمهم.

وفيها زلزلت الموصل زلزلة عظيمة وتهدمت أكثر دورها ، وفى رمضان جهز الظاهر صناعا وأخشابا وآلات كثيرة لعمارة مسجد رسول الله ﷺ بعد حريقه فطيف بتلك الاخشاب والآلات

بمصر فرحة وتعظيما لشأنها ، ثم ساروا بها إلى المدينة النبوية ، وفى شوال سار الظاهر إلى الاسكندرية فنظر فى أحوالها وأمورها ، وعزل قاضيها وخطيبها ناصر الدين أحمد بن المنير وولى غيره .

وفيها التقى بركه خان وهولاكو ومع كل واحد جيوش كثيرة فاقتتلوا فهزم الله هولاكو هزيمة فظيعة وقتل أكثر أصحابه وغرق أكثر من بقى وهرب هو فى شرذمة يسيرة ولله الحمد . ولما نظر بركه خان كثرة القتلى قال يعز على أن يقتل المغول بعضهم بعضاً ولكن كيف الحيلة فيمن غير سنة جنكيزخان ثم أغار بركه خان على بلاد القسطنطينية فصانعه صاحبها وأرسل الظاهر هدايا عظيمة إلى بركه خان ، وقد أقام التركى بحلب خليفة آخر لقبه بالحاكم ، فلما اجتاز به المستنصر سار معه إلى العراق واتفقا على المصالحة وإنفاذ الحاكم المستنصر لكونه أكبر منه ولله الحمد ، ولكن خرج عليهما طائفة من التتار ففرقوا شملهما وقتلوا خلقا ممن كان معهما ، وعدم المستنصر وهرب الحاكم مع الأعراب. وقد كان المستنصر هذا فتح بلدانا كثيرة فى مسيره من الشام إلى العراق ، ولما قاتله بهادر على شحنة بغداد كسره المستنصر وقتل أكثر أصحابه ، ولكن خرج كمين من التتار نجدة فهرب العربان والأكراد الذين كانوا مع المستنصر وثبت هو فى طائفة ممن كان معه من الترك فقتل أكثرهم وفقد هو من بينهم ، ونجا الحاكم فى طائفة ، وكانت الوقعة فى أول المحرم من سنة ستين وستمائة ، وهذا هو الذى أشبه الحسين بن على فى توغله فى أرض العراق مع كثرة جنودها ، وكان الأولى له أن يستقر فى بلاد الشام حتى تتمهد له الأمور ويصفو الحال ، ولكن قدر الله وما شاء فعل . وجهز السلطان جيشاً آخر من دمشق إلى بلاد الفرنج فأغاروا وقتلوا وسبوا ورجعوا سالمين ، وطلبت الفرنج منه المصالحة فصالحهم مدة لاشتغاله بحلب وأعمالها ، وكان قد عزل فى شوال قاضى مصر تاج الدين ابن بنت الأعز وولى عليها برهان الدين الخضر بن الحسين السنجارى ، وعزل قاضى دمشق نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين أحمد ابن شمس الدين بن هبة الله بن سنى الدولة ، وولى عليها شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان ، وقد ناب فى الحكم بالقاهرة مدة طويلة عن بدر الدين السنجارى ، وأضاف إليه مع القضاء نظر الأوقاف ، والجامع والمارستان ، وتدريس سبع مدارس ، العادلية والناصرية والغدراوية والفلكية والركنية والاقبالية والبهنسية ، وقرىء تقليده يوم عرفة يوم الجمعة بعد الصلاة بالشباك الكمالى من جامع دمشق ، وسافر القاضى المعزول مرسما عليه . وقد تكلم فيه الشيخ أبو شامة وذكر أنه خان فى وديعة ذهب جعلها فلوسا فالله أعلم ، وكانت مدة ولايته سنة وأشهرا . وفى يوم العيد يوم السبت سافر السلطان إلى مصر ، وقد كان رسول الاسماعيلية قدم على السلطان بدمشق يتهددونه ويتوعدونه ، ويطلبون منه إقطاعات كثيرة ، فلم يزل السلطان يوقع بينهم حتى استأصل شأفتهم واستولى على بلادهم .

وفى السادس والعشرين من ربيع الأول عمل عزاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فاتح بيت المقدس وكان عمل هذا العزاء بقلعة الجبل بمصر ، بأمر السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس ، وذلك لما بلغهم أن هولاكو ملك التتار قتله ، وقد كان فى قبضته منذ مدة ، فلما بلغ هولاكو أن أصحابه قد كسروا بعين جالوت طلبه إلى بين يديه وقال له : أنت أرسلت إلى الجيوش بمصر حتى جاؤا فاقتتلوا مع المغول فكسروهم ثم أمر بقتله ، ويقال إنه اعتذر إليه وذكر له أن المصريين كانوا أعداءه وبينه وبينهم شنآن ، فأقاله ولكنه انحطت رتبته عنده ، وقد كان مكرما فى خدمته ، وقد وعده أنه إذا ملك مصر استنابه فى الشام فلما كانت وقعة حمص فى هذه السنة وقتل فيها أصحاب هولاكو مع مقدمهم بيدرة غضب وقال له أصحابك فى العزيزية أمراء أبيك ، والناصرية من أصحابك قتلوا أصحابنا ، ثم أمر بقتله . وذكروا فى كيفية قتله أنه رماه بالنشاب وهو واقف بين يديه يسأله العفو فلم يعف عنه حتى قتله وقتل أخاه شقيقه الظاهر عليا ، وأطلق ولديهما العزيز محمد بن الناصر وزبالة بن الظاهر ، وكانا صغيرين من أحسن أشكال بنى آدم . فأما العزيز فانه مات هناك فى أسر التتار ، وأما زبالة فانه سار إلى مصر وكان أحسن من بها ، وكانت أمه أم ولد يقال لها وجه القمر ، فتزوجها بعض الأمراء بعد أستاذها ، ويقال إن هولاكو لما أراد قتل الناصر أمر بأربع من الشجر متباعدات بعضها عن بعض ، فجمعت روسها بحبال ثم ربط الناصر فى الأربعة بأربعته ثم أطلقت الحبال فرجعت كل واحدة إلى مركزها بعضو من أعضائه رحمه الله . وقد قيل إن ذلك كان فى الخامس والعشرين من شوال فى سنة ثمان وخمسين ، وكان مولده فى سنة سبع وعشرين بحلب . ولما توفى أبوه سنة أربع وثلاثين بويع بالسلطنة بحلب وعمره سبع سنين ، وقام بتدبير مملكته جماعة من مماليك أبيه ، وكان الأمر كله عن رأى جدته أم خاتون بنت العادل أبى بكر بن أيوب ، فلما توفيت فى سنة أربعين وستمائة استقل الناصر بالملك ، وكان جيد السيرة فى الرعية محببا إليهم ، كثير النفقات ، ولا سيما لما ملك دمشق مع حلب وأعمالها وبعلبك وحران وطائفة كبيرة من بلاد الجزيرة ، فيقال إن سماطه كان كل يوم يشتمل أربعمائة رأس غنم سوى الدجاج والأوز وأنواع الطير ، مطبوخا بأنواع الأطعمة والقلويات غير المشوى والمقلى ، وكان مجموع ما يغرم على السماط فى كل يوم عشرين ألفا وعامته يخرج من يديه كما هو كأنه لم يؤكل منه شئ ، فيباع على باب القلعة بأرخص الأثمان حتى إن كثيرا من أرباب البيوت كانوا لا يطبخون فى بيوتهم شيئا من الطرف والأطعمة بل يشترون برخص مالا يقدرون على مثله إلا بكلفة ونفقة كثيرة ، فيشترى أحدهم بنصف درهم أو بدرهم مالا يقدر عليه إلا بخسارة كثيرة ، ولعله لا يقدر على مثله ، وكانت الأرزاق كثيرة دارة فى زمانه وأيامه ، وقد كان خليعا ظريفا حسن

الشكل أديباً يقول الشعر المتوسط القوى بالنسبة إليه ، وقد أورد له الشيخ قطب الدين فى الذيل قطعة صالحة من شعره وهى رائقة لائقة . قتل ببلاد المشرق ودفن هناك ، وقد كان أعد له تربة برباطه الذى بناه بسفح قاسيون فلم يقدر دفنه بها ، والناصرية البرانية بالسفح من أغرب الأبنية وأحسنها بنيانا من الموكد المحكم قبلى جامع الافرم ، وقد بنى بعدها بمدة طويلة ، وكذلك الناصرية الجوانية التى بناها داخل باب الفراديس هى من أحسن المدارس ، وبنى الخان الكبير تجاه الزنجارى وحولت إليه دار الطعم ، وقد كانت قبل ذلك غربى القلعة فى اصطبل السلطان اليوم رحمه الله .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ أحمد بن محمد بن عبد الله ﴾

ابن محمد بن يحيى بن سيد الناس أبو بكر اليعمرى الأندلسى الحافظ ولد سنة سبع وتسعين وخمسمائة وسمع الكثير ، وحصل كتباً عظيمة ، وصنف أشياء حسنة ، وختم به الحفاظ فى تلك البلاد ، توفى بمدينة تونس فى سابع عشرين رجب من هذه السنة .

وممن توفى فيها أيضا ﴿ عبد الرزاق بن عبد الله ﴾

ابن أبى بكر بن خلف عز الدين أبو محمد الرسعنى المحدث المفسر ، سمع الكثير ، وحدث وكان من الفضلاء والأدباء ، له مكانة عند البدر لؤلؤ صاحب الموصل ، وكان له منزلة أيضا عند صاحب سنجار ، وبها توفى فى ليلة الجمعة الثانى عشر من ربيع الآخر وقد جاوز السبعين ، ومن شعره :

نعب الغراب فدلنا بنعيبه * أن الحبيب دنا أوان مغيبه
ياسائلى عن طيب عيشى بعدهم * جدلى بعيش ثم سل عن طيبه

﴿ محمد بن أحمد بن عنتر السلمى الدمشقى ﴾

محتسبها ، ومن عدولها وأعيانها ، وله بها أملاك وأوقاف ، توفى بالقاهرة ودفن بالمقطم .

﴿ علم الدين أبو القاسم بن أحمد ﴾

ابن الموفق بن جعفر المرسى البورقى اللغوى النحوى المقرى ، شرح الشاطبية شرحا مختصراً ، وشرح المفصل فى عدة مجلدات ، وشرح الجزولية وقد اجتمع بمصنفها وسأله عن بعض مسائلها ، وكان ذا فنون عديدة حسن الشكل مليح الوجه له هيئة حسنة وبزة وجمال ، وقد سمع الكندى وغيره .

﴿ الشيخ أبو بكر الدينورى ﴾

وهو بانى الزاوية بالصالحية ، وكان له فيها جماعة مريدون يذكرون الله بأصوات حسنة طيبة رحمه الله

﴿ مولد الشيخ تقى الدين ابن تيمية شيخ الاسلام ﴾

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : وفى هذه السنة ولد شيخنا تقى الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن أبى القاسم بن تيمية الحرانى بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وستمائة .

﴿ الأمير الكبير مجير الدين ﴾

أبو الهيجاء عيسى بن حشير الازكشى الكردى الأموى ، كان من أعيان الأمراء وشجعانهم ، وله يوم عين جالوت اليد البيضاء فى كسر التتار ، ولما دخل الملك المظفر إلى دمشق بعد الوقعة جعله مع الأمير علم الدين سنجر الحلبى نائبا على دمشق مستشارا ومشتركا فى الرأى والمراسيم والتدبير ، وكان يجلس معه فى دار العدل وله الاقطاع الكامل والرزق الواسع ، إلى أن توفى فى هذه السنة . قال أبو شامة : ووالده الأمير حسام الدين توفى فى جيش الملك الأشرف ببلاد الشرق هو والأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب . قلت وولده الأمير عز الدين تولى هذه المدينة أعنى دمشق مدة ، وكان مشكور السيرة وإليه ينسب درب ابن سنون بالصاغة العتيقة ، فيقال درب ابن أبى الهيجاء لأنه كان يسكنه وكان يعمل الولاية فيه فعرف به ، وبعد موته بقليل كان فيه نزولنا حين قدمنا من حوران وأنا صغير فختمت فيه القرآن ، ولله الحمد .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وستين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله العباسى ، والسلطان الظاهر بيبرس ، ونائب دمشق الأمير جمال الدين آقوش النجيبى وقاضيه ابن خلكان .

وفيها فى أولها كملت المدرسة الظاهرية التى بين القصرين ، ورتب لتدريس الشافعية بها القاضى تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين ، ولتدريس الحنفية مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين عمر ابن العديم ، ولمشيخة الحديث بها الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الحافظ الدمياطى .

وفيها عمر الظاهر بالقدس خانا ووقف عليه أوقافا للنازلين به من إصلاح نعالهم وأكلهم وغير ذلك ، وبنى به طاحونا وفرنا .

وفيها قدمت رسل بركه خان إلى الملك الظاهر ومعهم الأشرف ابن الشهاب غازى بن العادل ، ومعهم من الكتب والمشافهات ما فيه سرور للاسلام وأهله مما حل بهولاكو وأهله .

وفى جمادى الآخرة منها درس الشيخ شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى بدار الحديث الأشرفية ، بعد وفاة عماد الدين بن الحرستانى ، وحضر عنده القاضى ابن خلكان وجماعة من القضاة والأعيان ، وذكر خطبة كتابه المبعث ، وأورد الحديث بسنده ومتنه وذكر فوائد كثيرة مستحسنة ، ويقال إنه لم يراجع شيئا حتى ولا درسه ومثله لا يستكثر ذلك عليه والله أعلم .

وفيها قدم نصير الدين الطوسى إلى بغداد من جهة هولاكو ، فنظر فى الأوقاف وأحوال البلد ، وأخذ كتبا كثيرة من سائر المدارس وحولها إلى رصده الذى بناه بمراغة ، ثم انحدر إلى واسط والبصرة .

وفيها كانت وفاة ﴿ الملك الأشرف ﴾

موسى بن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، كانوا ملوك حمص كابرا عن كابر إلى هذا الحين ، وقد كان من الكرماء الموصوفين ، وكبراء الدماشقة المترفين ، معتنيا بالمأكل والمشرب والملابس والمراكب وقضاء الشهوات والمآرب وكثرة التنعم بالمغانى والحبائب ، ثم ذهب ذلك كأن لم يكن أو كأضغاث أحلام ، أو كظل زائل ، و بقيت تبعاته وعقوباته وحسابه وعاره . ولما توفى وجدت له حواصل من الجواهر النفيسة والأموال الكثيرة ، وصار ملكه إلى الدولة الظاهرية ، وتوفى معه فى هذه السنة الأمير حسام الدين الجوكندار نائب حلب .

وفيها كانت كسرة التتار على حمص وقتل مقدمهم بيدرة بقضاء الله وقدره الحسن الجميل .

وفيها توفى الرشيد العطار المحدث بمصر . والذى حضر مسخرة الملك الاشرف موسى بن العادل والتاجر المشهور الحاج نصر بن دس وكان ملازما للصلوات بالجامع ، وكان من ذوى اليسار والخير .

﴿ الخطيب عماد الدين بن الحرستانى ﴾

عبد الكريم بن جمال الدين عبد الصمد بن محمد بن الحرستانى ، كان خطيبا بدمشق وناب فى الحكم عن أبيه فى الدولة الاشرفية ، بعد ابن الصلاح إلى أن توفى فى دار الخطابة فى تاسع عشرين جمادى الاولى ، وصلى عليه بالجامع ودفن عند أبيه بقاسيون ، وكانت جنازته حافلة ، وقد جاوز الثمانين بخمس سنين ، وتولى بعده الخطابة والغزالية ولده مجد الدين ، و باشر مشيخة دار الحديث الشيخ شهاب الدين أبو شامة .

﴿ محيي الدين محمد بن أحمد بن محمد ﴾

ابن إبراهيم بن الحسين بن سراقة الحافظ المحدث الانصارى الشاطبى أبو بكر المغربى ، عالم فاضل دين أقام بحلب مدة ، ثم اجتاز بدمشق قاصداً مصر . وقد تولى دار الحديث الكاملية بعد زكى الدين عبد العظيم المنذرى ، وقد كان له سماع جيد ببغداد وغيرها من البلاد ، وقد جاوز السبعين .

﴿ الشيخ الصالح محمد بن منصور بن يحيى الشيخ أبى القاسم القبارى الاسكندرانى ﴾

كان مقيما بغيط له يقتات منه و يعمل فيه و يبدره ، و يتورع جدا و يطعم الناس من ثماره . توفى فى سادس شعبان بالاسكندرية و له خمس وسبعون سنة ، وكان يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر و يردع الولاة عن الظلم فيسمعون منه و يطيعونه لزهده ، و إذا جاء الناس إلى زيارته إنما يكلمهم من طاقة المنزل وهم راضون منه بذلك ، ومن غريب ما حكى عنه أنه باع دابة له من رجل ، فلما كان بعد أيام جاء الرجل الذى اشتراها فقال : يا سيدى إن الدابة التى اشتريتها منك لا تأكل عندى شيئا ،

فنظر إليه الشيخ فقال له : ماذا تعانى من الاسباب ؟ فقال رقاص عند الوالى ، فقال له إن دابتنا لا تأكل الحرام ، ودخل منزله فأعطاه دراهم ومعها دراهم كثيرة قد اختلطت بها فلا تميز ، فاشترى الناس من الرقاص كل درهم بثلاثة لأجل البركة ، وأخذدابته ، ولما توفى ترك من الأساس مايساوى خمسين درهما فبيع بمبلغ عشرين ألفا . قال أبو شامة : وفى الرابع والعشرين من ربيع الآخر توفى

﴿محيى الدين عبد الله بن صفى الدين﴾

إبراهيم بن مرزوق بداره بدمشق المجاورة للمدرسة النورية رحمه الله تعالى . قلت داره هذه هى التى جعلت مدرسة للشافعية وقفها الأمير جمال الدين آقوش النجيبى التى يقال لها النجيبية تقبل الله منه . و بها إقامتنا جعلها الله داراً تعقبها دار القرار فى الفوز العظيم . وقد كان أبو جمال الدين النجيبى وهو صفى الدين وزير الملك الأشرف ، وملك من الذهب ستمائة ألف دينار خارجاً عن الأملاك والأثاث والبضائع ، وكانت وفاة أبيه بمصر سنة تسع وخمسين ، ودفن بتربته عند المقطم . قال أبو شامة :وجاء الخبر من مصر بوفاة الفخر عثمان المصرى المعروف بعين غين .

و فى ثامن عشر ذى الحجة توفى الشمس الوبّار الموصلى ، وكان قد حصل شيئا من علم الأدب ، وخطب بجامع المزة مدة . فأنشدنى لنفسه فى الشيب وخضابه قوله :

وكنت و إياها مذ اختط عارضى * كروحين فى جسم وما نقضت عهدا
فلما أتانى الشيب يقطع بيننا * توهمته سيفا فألبسته غمدا

وفيها استحضر الملك هولاكوخان الزين الحافظى وهوسليمان بن عامر العقربانى المعروف بالزين الحافظى ، وقال له قد ثبت عندى خيانتك ، وقد كان هذا المغتر لما قدم التتار مع هولاكو دمشق وغيرها مالأ على المسلمين وآذاهم ودل على عوراتهم ، حتى سلطهم الله عليه بأنواع العقوبات والمثلات (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً) ومن أعان ظالما سلط عليه ، فان الله ينتقم من الظالم بالظالم ثم ينتقم من الظالمين جميعاً ، نسأل الله العافية من انتقامه وغضبه وعقابه وشر عباده .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة ﴾

فيها جهز السلطان الظاهر عسكرا جما كثيفا إلى ناحية الفرات لطرد التتار النازلين بالبيرة ، فلما سمعوا بالعساكر قد أقبلت ولوا مدبرين ، فطابت تلك الناحية وأمنت تلك المعاملة ، وقد كانت قبل ذلك لا تسكن من كثرة الفساد والخوف ، فعمرت وأمنت .

وفيها خرج الملك الظاهر فى عساكره فقصد بلاد الساحل لقتال الفرنج ففتح قيسارية فى ثلاث ساعات من يوم الخميس ثامن جمادى الأولى يوم نزوله عليها ، وتسلم قلعتها فى يوم الخميس الآخر خامس عشره فهدمها وانتقل إلى غيرها ، ثم جاء الخبر بأنه فتح مدينة أرسوف وقتل من بها من

الفرنج وجاءت البريدية بذلك . فدقت البشائر فى بلاد المسلمين وفرحوا بذلك فرحا شديدا . وفيها ورد خبر من بلاد المغرب بأنهم انتصروا على الفرنج وقتلوا منهم خمسة وأربعين ألفا ، وأسروا عشرة آلاف ، واسترجعوا منهم ثنتين وأربعين بلدة منها برنس واشبيلية وقرطبة ومرسية ، وكانت النصرة فى يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة ثنتين وستين .

وفى رمضان من هذه السنة شرع فى تبليط باب البريد من باب الجامع إلى القناة التى عند الدرج وعمل فى الصف القبلى منها بركة وشاذروان . وكان فى مكانها قناة من القنوات ينتفع الناس بها عند انقطاع نهر ماناس فغيرت وعمل الشاذروان ، ثم غيرت وعمل مكانها دكاكين .

وفيها استدعى الظاهر نائبه على دمشق الأمير آقوش ، فسار إليه سامعاً مطيعاً ، وناب عنه الأمير علم الدين الحصنى حتى عاد مكرما معززاً .

وفيها ولى الظاهر قضاة من بقية المذاهب فى مصر مستقلين بالحكم يولون من جهتهم فى البلدان أيضا كما يولى الشافعى ، فتولى قضاء الشافعية التاج عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، والحنفية شمس الدين سليمان ، والمالكية شمس الدين السبكى ، والحنابلة شمس الدين محمد المقدسى ، وكان ذلك يوم الاثنين الثانى والعشرين من ذى الحجة بدار العدل ، وكان سبب ذلك كثرة توقف القاضى ابن بنت الأعز فى أمور تخالف مذهب الشافعى ، وتوافق غيره من المذاهب ، فأشار الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى على السلطان بأن يولى من كل مذهب قاضياً مستقلا يحكم بمقتضى مذهبه ، فأجابه إلى ذلك ، وكان يحب رأيه ومشورته ، وبعث بأخشاب ورصاص وآلات كثيرة لعمارة مسجد رسول الله ﷺ وأرسل منبرا فنصب هنالك .

وفيها وقع حريق عظيم ببلاد مصر واتهم النصارى فعاقبهم الملك الظاهر عقوبة عظيمة .

وفيها جاءت الأخبار بأن سلطان التتار هولاكو هلك إلى لعنة الله وغضبه فى سابع ربيع الآخر بمرض الصرع بمدينة مراغة ، ودفن بقلعة تلا وبنيت عليه قبة واجتمعت التتار على ولده أبغا ، فقصده الملك بركة خان فكسره وفرق جموعه ، ففرح الملك الظاهر بذلك ، وعزم على جمع العساكر ليأخذ بلاد العراق فلم يتمكن من ذلك لتفرق العساكر فى الاقطاعات .

وفيها فى ثانى عشر شوال سلطن الملك الظاهر ولده الملك السعيد محمد بركة خان ، وأخذ له البيعة من الأمراء وأركبه ومشى الأمراء بين يديه ، وحمل والده الظاهر الغاشية بنفسه والأمير بدر الدين بيسرى حامل الخبز ، والقاضى تاج الدين والوزير بهاء الدين ابن حنا راكبان وبين يديه ، وأعيان الأمراء ركبان وبقيتهم مشاة حتى شقوا القاهرة وهم كذلك .

وفى ذى القعدة ختن الظاهر ولده الملك السعيد المذكور ، وختن معه جماعة من أولاد الأمراء وكان يوماً مشهوداً .

وفيها توفى ﴿ خالد بن يوسف بن سعد النابلسى ﴾

الشيخ زين الدين ابن الحافظ شيخ دار الحديث النورية بدمشق ، كان عالما بصناعة الحديث حافظاً لأسماء الرجال ، وقد اشتغل عليه فى ذلك الشيخ محيي الدين النواوى وغيره ، وتولى بعده مشيخة دار الحديث النورية الشيخ تاج الدين الفزارى ، كان الشيخ زين الدين حسن الأخلاق فكه النفس كثير المزاح على طريقة المحدثين ، رحل إلى بغداد واشتغل بها ، وسمع الحديث وكان فيه خير وصلاح وعبادة ، وكانت جنازته حافلة ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله .

﴿ الشيخ أبو القاسم الحوارى ﴾

هو أبو القاسم يوسف ابن أبى القاسم بن عبد السلام الأموى الشيخ المشهور صاحب الزاوية بحوارى ، توفى ببلده ، وكان خيرا صالحا له أتباع وأصحاب يحبونه ، وله مريدون كثير من قرايا حوران فى الحل والثبنية وهم حنابلة لا يرون الضرب بالدف بل بالكف ، وهم أمثل من غيرهم .

﴿ القاضى بدر الدين الكردى السنجارى ﴾

الذى باشر القضاء بمصر مرارا توفى بالقاهرة . قال أبو شامة : وسيرته معروفة فى أخذ الرشا من قضاة الاطراف والمتحاكمين إليه ، إلا أنه كان جوادا كريماً صودر هو وأهله .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وستين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم العباسى والسلطان الملك الظاهر وقضاة مصر أربعة . وفيها جعل بدمشق أربعة قضاة من كل مذهب قاض كما فعل بمصر عام أول ، ونائب الشام آقوش النجيبى ، وكان قاضى قضاة الشافعية ابن خلكان ، والحنفية شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطا ، والحنابلة شمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبى عمر ، والمالكية عبد السلام بن الزواوى ، وقد امتنع من الولاية فألزم بها حتى قبل ثم عزل نفسه ، ثم ألزم بها فقبل بشرط أن لا يباشر أوقافا ولا يأخذ جامكية على أحكامه ، وقال : نحن فى كفاية فأعفى من ذلك أيضا رحمهم الله . وقد كان هذا الصنيع الذى لم يسبق إلى مثله قدفعل فى العام الأول بمصر كما تقدم ، واستقرت الأحوال على هذا المنوال .

وفيها كمل عمارة الحوض الذى شرقى قناة باب البريد وعمل له شاذروان وقبة وأنابيب يجرى منها الماء إلى جانب الدرج الشمالية .

وفيها نازل الظاهر صفد واستدعى بالمنجانيق من دمشق وأحاط بها ولم يزل حتى افتتحها ، ونزل أهلها على حكمه ، فتسلم البلد فى يوم الجمعة ثامن عشر شوال ، وقتل المقاتلة وسبى الذرية ، وقد افتتحها الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب فى شوال أيضاً فى أربع وثمانين وخمسمائة ، ثم استعادها الفرنج فانتزعها الظاهر منهم قهراً فى هذه السنة ولله الحمد ، وكان السلطان الظاهر فى نفسه منهم شيء

كثير ، فلما توجه إلى فتحها طلبوا الأمان ، فأجلس على سرير مملكته الأمير سيف الدين كرمون التترى ، وجاءت رسلهم نخلعوه وانصرفوا ولا يشعرون أن الذى أعطاهم العهود بالأمان إنما هو الأمير الذى أجلسه على السرير والحرب خدعة ، فلما خرجت الاستنارية والداوية من القلعة وقد فعلوا بالمسلمين الأفاعيل القبيحة ، فأمكن الله منهم فأمر السلطان بضرب رقابهم عن آخرهم ، وجاءت البريدية إلى البلاد بذلك ، فدقت البشائر وزينت البلاد ، ثم بث السرايا يمينا وشمالا فى بلاد الفرنج فاستولى المسلمون على حصون كثيرة تقارب عشرين حصنا ، وأسروا قريباً من ألف أسير ما بين امرأة وصبى ، وغنموا شيئا كثيرا .

وفيها قدم ولد الخليفة المستعصم بن المستنصر من الأسر واسمه على ، فأكرم وأنزل بالدار الأسدية تجاه العزيزية ، وقد كان أسيرا فى أيدى التتار ، فلما كسرهم بركه خان تخلص من أيديهم وسار إلى دمشق ، ولما فتح السلطان صفداً أخبره بعض من كان فيها من أسرى المسلمين أن سبب أسرهم أن أهل قرية قارا كانوا يأخذونهم فيحملونهم إلى الفرنج فيبيعونهم منهم ، فعند ذلك ركب السلطان قاصدا قارا فأوقع بهم بأساً شديدا وقتل منهم خلقا كثيراً ، وأسر من أبنائهم ونسائهم أخذا بثأر المسلمين جزاه الله خيراً ، ثم أرسل السلطان جيشاً هائلا إلى بلاد سيس ، فجاسوا خلال الديار وفتحوا سيس عنوة وأسروا ابن ملكها وقتلوا أخاه ونهبوها ، وقتلوا أهلها وأخذوا بثأر الاسلام وأهله منهم ، وذلك أنهم كانوا أضر شىء على المسلمين زمن التتار ، لما أخذوا مدينة حلب وغيرها أسروا من نساء المسلمين وأطفالهم خلقا كثيرا ، ثم كانوا بعد ذلك يغيرون على بلاد المسلمين فى زمن هولاكو فكبته الله وأهانه على يدى أنصار الاسلام ، هو وأميره كتبغا ، وكان أخذ سيس يوم الثلاثاء العشرين من ذى القعدة من هذه السنة ، وجاءت الأخبار بذلك إلى البلاد وضربت البشائر ، وفى الخامس والعشرين من ذى الحجة دخل السلطان وبين يديه ابن صاحب سيس وجماعة من ملوك الأرمن أسارى أذلاء صغرة ، والعساكر صحبته وكان يوما مشهودا . ثم سار إلى مصر مؤيداً منصوراً ، وطلب صاحب سيس أن يفادى ولده ، فقال السلطان لا نفاديه إلا بأسير لنا عند التتار يقال له سنقر الأشقر ، فذهب صاحب سيس إلى ملك التتر فتذلل له وتمسكن وخضع له ، حتى أطلقه له ، فلما وصل سنقر الأشقر إلى السلطان أطلق ابن صاحب سيس .

وفيها عمر الظاهر الجسر المشهور بين قرارا ودامية ، تولى عمارته الأمير جمال الدين محمد بن بهادر وبدر الدين محمد بن رحال والى نابلس والأغوار ، ولما تم بناؤه اضطرب بعض أركانه فقلق السلطان من ذلك وأمر بتأكيده فلم يستطيعوا من قوة جرى الماء حينئذ ، فاتفق باذن الله أن انسالت على النهر أكمة من تلك الناحية ، فسكن الماء بمقدار أن أصلحوا ما يريدون ، ثم عاد الماء كما كان

وذلك بتيسير الله وعونه وعنايته العظيمة .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ أيد غدى بن عبد الله ﴾

الأمير جمال الدين العزيزى ، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عنـد الملك الظاهر ، لا يكاد الظاهر يخرج عن رأيه ، وهو الذى أشار عليه بولاية القضاة من كل مذهب قاض على سبيل الاستقلال وكان متواضعاً لا يلبس محرما ، كريماً وقوراً رئيساً معظماً فى الدولة ، أصابته جراحة فى حصار صفد فلم يزل مريضا منها حتى مات ليلة عرفة ، ودفن بالرباط الناصرى بسفح قاسيون من صلاحية دمشق رحمه الله .

﴿ هولا كوخان بن تولى خان بن جنكيزخان ﴾

ملك التتار بن ملك التتار ، وهو والد ملوكهم ، والعامة يقولون هو لاوون مثل قلاوون ، وقد كان هولاكو ملكا جباراً فاجرا كفارا لعنه الله ، قتل من المسلمين شرقا وغربا مالا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم وسيجازيه على ذلك شر الجزاء ، كان لا يتقيـد بدين من الأديان ، وإنما كانت زوجته ظفر خاتون قد تنصرت وكانت تفضل النصارى على سائر الخلق ، وكان هو يترامى على محبة المعقولات ، ولا يتصور منها شيئا ، وكان أهلها من أفراخ الفلاسفة لهم عنده وجاهة ومكانة ، وإنما كانت همته فى تدبير مملكته وتملك البلاد شيئا فشيئا ، حتى أباده الله فى هذه السنة ، وقيل فى سنة ثلاث وستين، ودفن فى مدينة تلا ، لارحمه الله، وقام فى الملك من بعده ولده أبغا خان وكان أبغا أحد إخوة عشرة ذكور . والله سبحانه أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وستين وستمائة ﴾

فى يوم الأحـد ثانى المحرم توجه الملك الظاهر من دمشق إلى الديار المصرية وصحبتـه العساكر المنصورة ، وقد استولت الدولة الاسلامية على بلاد سيس بكمالها ، وعلى كثير من معاقل الفرنج فى هذه السنة ، وقد أرسل العساكر بين يديه إلى غزة ، وعدل هو إلى ناحية الكرك لينظر فى أحوالها ، فلما كان عند بركة زيزى تصيد هنالك فسقط عن فرسه فانكسرت فخذه ، فأقام هناك أياما يتداوى حتى أمكنه أن يركب فى المحفة ، وسار إلى مصر فبرأت رجله فى أثناء الطريق فأمكنه الركوب وحده على الفرس . ودخـل القاهرة فى أبهة عظيمة ، وتجمل هائل ، وقد زينت البلد ، واحتفـل الناس له احتفالا عظيما ، وفرحوا بقدومه وعافيته فرحا كثيراً ، ثم فى رجب منها رجع من القاهرة إلى صفد ، وحفر خندقا حول قلعتها وعمل فيه بنفسه وأمرائه وجيشه وأغار على ناحية عكا ، فقتل وأسر وغنم وسلم وضربت لذلك البشائر بدمشق . وفى ثانى عشر ربيع الأول صلى الظاهر بالجامع الأزهر الجمعة ، ولم يكن تقام به الجمعـة من زمن العبيديين إلى هـذا الحين ، مع أنه أول مسجـد بنى بالقاهرة ، بناه جوهر القائد وأقام فيه الجمعة ، فلما بنى الحاكم جامعه حول الجمعة منه إليه ، وترك الأزهر لاجمعة فيه

فصار فى حكم بقية المساجد وشمث حاله وتغيرت أحواله ، فأمر السلطان بعمارته و بياضه و إقامة الجمعة وأمر بعمارة جامع الحسينية وكمل فى سنة سبع وستين كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

وفيها أمر الظاهر أن لا يبيت أحد من المجاورين بجامع دمشق فيه وأمر باخراج الخزائن منه ، والمقاصير التى كانت فيه ، فكانت قريباً من ثلاثمائة ، ووجدوا فيها قوارير البول والفرش والسجاجيد الكثيرة ، فاستراح الناس والجامع من ذلك واتسع على المصلين .

وفيها أمر السلطان بعمارة أسوار صفد وقلعتها ، وأن يكتب عليها (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون).

وفيها التقى أبغا ومنكو تمر الذى قام مقام بركه خان فكسره أبغا وغنم منه شيئا كثيرا .

وحكى ابن خلكان فيما نقل من خط الشيخ قطب الدين اليونينى قال : بلغنا أن رجلا يدعى أبا سلامة [1] من ناحية بصرى ، كان فيه مجون واستهتار ، فذكر عنده السواك وما فيه من الفضيلة ، فقال: والله لا أستاك إلا فى المخرج- يعنى دبره - فأخذ سواكا فوضعه فى مخرجه ثم أخرجه ، فمكث بعده تسعة أشهر [وهو يشكو من ألم البطن والمخرج] [2] فوضع ولدا على صفة الجرذان له أربعة قوائم ، ورأسه كرأس السمكة ، [وله أربعة أنياب بارزة ، وذنب طويل مثل شبر وأربع أصابع] [2] وله دبر كدبر الأرنب . ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات ، فقامت ابنة ذلك الرجل فرضخت رأسه فمات ، وعاش ذلك الرجل بعد وضعه له يومين ومات فى الثالث ، وكان يقول هذا الحيوان قتلنى وقطع أمعائى ، وقد شاهد ذلك جماعة من أهل تلك الناحية وخطباء ذلك المكان ، ومنهم من رأى ذلك الحيوان حيا ، ومنهم من رآه بعد موته . وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ السلطان بركه خان بن تولى بن جنكيزخان ﴾

وهو ابن عم هولاكو ، وقد أسلم بركه خان هذا ، وكان يحب العلماء والصالحين ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده ، وكان يناصح الملك الظاهر و يعظمه ويكرم رسله إليه ، و يطلق لهم شيئا كثيراً ، وقد قام فى الملك بعده بعض أهل بيته وهو منكو تمر بن طغان بن باتو بن تولى بن جنكيزخان ، وكان على طريقته ومنواله ولله الحمد .

﴿ قاضى القضاة بالديار المصرية ﴾

تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر بن بنت الاعز الشافعى ، كان دينا عفيفا نزهاً لاتأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يقبل شفاعة أحد ، وجمع له قضاء الديار المصرية بكمالها ، والخطابة ، والحسبة

(١) فى شذارات الذهب : قرية يقال لها دير أبى سلامة . كان بها رجل من العربان فيه استهتار الخ
(٢) الزيادة من شذرات الذهب .

ومشيخة الشيوخ ، ونظر الأجياش ، وتدريس الشافعى والصالحية و إمامة الجامع ، وكان بيده خمسة عشر وظيفة ، وباشر الوزارة فى بعض الأوقات ، وكان السلطان يعظمه ، والوزير ابن حنا يخاف منه كثيرا ، وكان يحب أن ينكبه عند السلطان و يضعه فلا يستطيع ذلك ، وكان يشتهى أن يأتى داره ولو عائدا ، فمرض فى بعض الأحيان فجاء القاضى عائدا ، فقام إلى تلقيه لوسط الدار ، فقال له القاضى : إنما جئنا لعيادتك فاذا أنت سوى صحيح ، سلام عليكم ، فرجع ولم يجلس عنده . وكان مولده فى سنة أربع وستمائة ، وتولى بعده القضاء تقى الدين ابن رزين

﴿ واقف القيمرية الأمير الكبير ناصر الدين ﴾

أبو المعالى الحسين بن العزيز بن أبى الفوارس القيمرى الكردى ،كان من أعظم الأمراء مكانة عند الملوك ، وهو الذى سلم الشام إلى الملك الناصر صاحب حلب ، حين قتل توران شاه بن الصالح أيوب بمصر ، وهو واقف المدرسة القيمرية عند مأذنة فيروز ، وعمل على بابها الساعات التى لم يسبق إلى مثلها ، ولا عمل على شكلها ، يقال إنه غرم عليها أربعين ألف درهم .

﴿ الشيخ شهاب الدين أبو شامة ﴾

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبى بكر بن عباس أبو محمد وأبو القاسم المقدسى الشيخ الامام العالم الحافظ المحدث الفقيه المؤرخ المعروف بأبى شامة شيخ دار الحديث الاشرفية ، ومدرس الركنية ، وصاحب المصنفات العديدة المفيدة ، له اختصار تاريخ دمشق فى مجلدات كثيرة ، وله شرح الشاطبية ، وله الرد إلى الأمر الأول ، وله فى المبعث وفى الأسراء ، وكتاب الروضتين فى الدولتين النورية والصلاحية ، وله الذيل على ذلك ،وله غيرذلك من الفوائد الحسان والغرائب التى هى كالعقيان. ولد ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وذكر لنفسه ترجمة فى هذه السنة فى الذيل ،وذكر مرباه ومنشأه ، وطلبه العلم ، وسماعه الحديث ، وتفقهه على الفخر بن عساكر وابن عبد السلام ، والسيف الآمدى ، والشيخ موفق الدين بن قدامة ، وما رئى له من المنامات الحسنة . وكان ذا فنون كثيرة ، أخبرنى علم الدين البرزالى الحافظ عن الشيخ تاج الدين الفزارى ، أنه كان يقول : بلغ الشيخ شهاب الدين أبو شامة رتبة الاجتهاد ، وقد كان ينظم أشعارا فى أوقات ، فمنها ما هو مستحلى ، ومنها مالا يستحلى ، فالله يغفر لنا وله . وبالجملة فلم يكن فى وقته مثله فى نفسه وديانته، وعفته وأمانته ، وكانت وفاته بسبب محنة ألبوا عليه ، وأرسلوا إليه من اغتاله وهو بمنزل له بطواحين الأشنان ، وقد كان اتهم برأى ، الظاهر براءته منه ،وقد قال جماعة من أهل الحديث وغيرهم: إنه كان مظلوما ، ولم يزل يكتب فى التاريخ حتى وصل إلى رجب من هذه السنة ، فذكر أنه أصيب بمحنة فى منزل له بطواحين الأشنان ، وكان الذين قتلوه جاءوه قبل فضربوه ليموت فلم يمت، فقيل له: ألا تشتكى عليهم ، فلم يفعل وأنشأ يقول :

قلت لمن قال ألا تشتكى * ما قد جرى فهو عظيم جليل
يقيض الله تعالى لنا * من يأخذالحق ويشفى الغليل
إذا توكلنا عليه كفى * فحسبنا الله ونعم الوكيل

وكأنهم عادوا إليه مرة ثانية وهو فى المنزل المذكور فقتلوه بالكلية فى ليلة الثلاثاء تاسع عشر رمضان رحمه الله . ودفن من يومه بمقابر دار الفراديس ، وباشر بعده مشيخة دار الحديث الأشرفية الشيخ محيي الدين النووى . وفى هذه السنة كان مولد الحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالى ، وقد ذيل على تاريخ أبى شامة لان مولده فى سنة وفاته ، فحذا حذوه وسلك نحوه ، ورتب ترتيبه وهذب تهذيبه . وهذا أيضاً ممن ينشد فى ترجمته .

مازلت تكتب فى التاريخ مجتهدا * حتى رأيتك فى التاريخ مكتوبا

ويناسب أن ينشد هنا :

إذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول

﴿ ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة والحاكم العباسى خليفة، وسلطان البلاد الملك الظاهر ، وفى أول جمادى الآخرة خرج السلطان من الديار المصرية بالعساكر المنصورة ، فنزل على مدينة يافا بغتة فأخذها عنوة ، وسلم إليه أهلها قلعتها صلحاً، فأجلاهم منها إلى عكا وخرب القلعة والمدينة وسار منها فى رجب قاصداً حصن الشقيف ، وفى بعض الطريق أخذ من بعض بريدية الفرنج كتابا من أهل عكا إلى أهل الشقيف يعلمونهم قدوم السلطان عليهم ،و يأمرونهم بتحصين البلد، والمبادرة إلى إصلاح أماكن يخشى على البلد منها .ففهم السلطان كيف يأخذ البلد وعرف من أين تؤكل الكتف ، واستدعى من فوره رجلا من الفرنج فأمره أن يكتب بدله كتابا على ألسنتهم إلى أهل الشقيف ، يحذر الملك من الوزير ، والوزير من الملك ، ويرمى الخلف بين الدولة. فوصل إليهم فأوقع الله الخلف بينهم بحوله وقوته ، وجاء السلطان فحاصرهم ورماهم بالمنجنيق فسلموه الحصن فى التاسع والعشرين من رجب وأجلاهم إلى صور ،و بعث بالأثقال إلى دمشق ، ثم ركب جريدة فيمن نشط من الجيش فشن الغارة على طرابلس وأعمالها ، فنهب وقتل وأرعب وكر راجعاً مؤيدا منصوراً ، فنزل على حصن الأكراد لمحبته فى المرج ،فحمل إليه أهله من الفرنج الاقامات فأبى أن يقبلها وقال أنتم قتلتم جنديا من جيشى وأريد ديته مائة ألف دينار ، ثم سار فنزل على حمص ، ثم منها إلى حماة ، ثم إلى فامية ثم سار منزلة أخرى ، ثم سار ليلا وتقدم العسكر فلبسوا العدة وساق حتى أحاط بمدينة أنطاكية .

﴿ فتح أنطاكية على يدى السلطان الملك الظاهر رحمه الله ﴾

وهى مدينة عظيمة كثيرة الخير ، يقال إن دور سورها اثنا عشر ميلا ، وعدد بروجها مائة وستة

وثلاثون برجا ، وعدد شرافاتها أربعة وعشرون ألف شرافة ، كان نزوله عليها فى مستهل شهر رمضان ، فخرج إليه أهلها يطلبون منه الأمان ، وشرطوا شروطا له عليهم فأبى أن يجيبهم وردهم خائبين وصمم على حصارها ، ففتحها يوم السبت رابع عشر رمضان بحول الله وقوته وتأييده ونصره ، وغنم منها شيئا كثيرا ، وأطلق للامراء أموالا جزيلة ، ووجد من أسارى المسلمين من الحلبيين فيها خلقا كثيرا ، كل هذا فى مقدار أربعة أيام . وقد كان الأغريس صاحبها وصاحب طرابلس ، من أشد الناس أذية للمسلمين ، حين ملك التتار حلب وفر الناس منها ، فانتقم الله سبحانه منه بمن أقامه للاسلام ناصرا وللصليب دامغا كاسرا ، ولله الحمد والمنة ، وجاءت البشارة بذلك مع البريدية ، فجاوبتها البشائر من القلعة المنصورة ، وأرسل أهل بغراس حين سمعوا بقصد السلطان إليهم يطلبون منه أن يبعث إليهم من يتسلمها ، فأرسل إليهم أستاذ داره الامير آقسنقر الفارقانى فى ثالث عشر رمضان فتسلمها ، وتسلموا حصونا كبيرة وقلاعا كثيرة ، وعاد السلطان مؤيدا منصورا ، فدخل دمشق فى السابع والعشرين من رمضان من هذه السنة فى أبهة عظيمة وهيبة هائلة ، وقد زينت له البلد ودقت له البشائر فرحا بنصرة الاسلام على الكفرة الطغام ، لكنه كان قد عزم على أخذ أراضى كثيرة من القرى والبساتين التى بأيدى ملاكها بزعم أنه قد كانت التتار استحوذوا عليها ثم استنقذها منهم ، وقد أفتاه بعض الفقهاء من الحنفية تفريعاً على أن الكفار إذا أخذوا شيئا من أموال المسلمين ملكوها ، فاذا استرجعت لم ترد إلى أصحابها ، وهذه المسألة مشهورة وللناس فيها قولان (أصحهما) قول الجمهور أنه يجب ردها إلى أصحابها لحديث العضباء ناقة رسول الله ﷺ ، حين استرجعها رسول الله ﷺ ، وقد كان أخذها المشركون ، استدلوا بهذا وأمثاله على أبى حنيفة ، وقال بعض العلماء إذا أخذ الكفار أموال المسلمين وأسلموا وهى فى أيديهم استقرت على أملاكهم ، واستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام «وهل ترك لنا عقيل من رباع» وقد كان استحوذ على أملاك المسلمين الذين هاجروا وأسلم عقيل وهى فى يده ، فلم تنتزع من يده ، وأما إذا انتزعت من أيديهم قبل ، فانها ترد إلى أربابها لحديث العضباء ، والمقصود أن الظاهر عقد مجلساً اجتمع فيه القضاة والفقهاء من سائر المذاهب وتكلموا فى ذلك وصمم السلطان على ذلك اعتمادا على ما بيده من الفتاوى ، وخاف الناس من غائلة ذلك فتوسط الصاحب فخر الدين بن الوزير بهاء الدين بن احنا ، وكان قد درس بالشافعى بعد ابن بنت الأعز ، فقال ياخوند أهل البلد يصالحونك عن ذلك كله بألف ألف درهم ، تقسط كل سنة مائتى ألف درهم ، فأبى إلا أن تكون معجلة بعد أيام ، وخرج متوجها إلى الديار المصرية ، وقد أجاب إلى تقسيطها ، وجاءت البشارة بذلك ، ورسم أن يعجلوا من ذلك أربعمائة ألف درهم ، وأن تعاد إليه الغلات التى كانوا قد احتاطوا عليها فى زمن القسم والثمار ، وكانت هذه الفعلة مما شعثت خواطر الناس على السلطان

ولما استقر أمر أبغا على التتار أمر باستمرار وزيره نصير الدين الطوسى ، واستناب على بلاد الروم

البرواناه وارتفع قدره عنده جدا واستقل بتدبير تلك البلاد وعظم شأنه فيها .

وفيها كتب صاحب اليمن إلى الظاهر بالخضوع والانتماء إلى جانبه وأن يخطب له ببلاد اليمن ، وأرسل إليه هدايا وتحفاً كثيرة ، فأرسل إليه السلطان هدايا وخلعا وسنجقا وتقليدا .

وفيها رافع ضياء الدين بن الفقاعى للصاحب بهاء الدين بن الحنا عند الظاهر واستظهر عليه ابن الحنا ، فسلمه الظاهر إليه ، فلم يزل يضرب بالمقارع و يستخلص أمواله إلى أن مات ، فيقال إنه ضربه قبل أن يموت سبعة عشر ألف مقرعة وسبعمائة فالله أعلم .

وفيها عمل البرواناه [1] على قتل الملك علاء الدين صاحب قونية وأقام ولده غياث الدين مكانه وهو ابن عشر سنين وتمكن البرواناه فى البلاد والعباد وأطاعه جيش الروم .

وفيها قتل الصاحب علاء الدين صاحب الديوان ببغداد ابن الخشكرى النعمانى الشاعر ، وذلك أنه اشتهر عنه أشياء عظيمة ، منها أنه يعتقد فضل شعره على القرآن المجيد ، واتفق أن الصاحب انحدر إلى واسط فلما كان بالنعمانية حضر ابن الخشكرى عنده وأنشده قصيدة قد قالها فيه ، فبينما هو ينشدها بين يديه إذ أذن المؤذن فاستنصته الصاحب ، فقال ابن الخشكرى : يامولانا اسمع شيئا جديدا ، وأعرض عن شيء له سنين ، فثبت عند الصاحب ما كان يقال عنده عنه ، ثم باسطه وأظهر أنه لا ينكر عليه شيئا مما قال حتى استعلم ما عنده ، فاذا هو زنديق ، فلما ركب قال لانسان معه استفرده فى أثناء الطريق واقتله ، فسايره ذلك الرجل حتى إذا انقطع عن الناس قال لجماعة معه : أنزلوه عن فرسه كالمداعب له ، فأنزلوه وهو يشتمهم و يلعنهم ، ثم قال انزعوا عنه ثيابه فسلبوها وهو يخاصمهم ، و يقول إنكم أجلاف ، و إن هذا لعب بارد ، ثم قال : اضربوا عنقه ، فتقدم إليه أحدهم فضربه بسيفه فأبان رأسه ،

وفيها توفى ﴿ الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال ﴾

شيخ رباط المرزبانية ، كان صالحا ورعا زاهدا حكى عن نفسه قال : كنت بمصر فبلغنى ما وقع من القتل الذريع ببغداد فى فتنة التتار ، فأنكرت فى قلبى وقلت : يارب كيف هذا وفيهم الاطفال ومن لا ذنب له ؟ فرأيت فى المنام رجلا و فى يده كتاب فأخذته فقرأته فاذا فيه هذه الأبيات فيها الانكار على .

دع الاعتراض فما الامر لك * ولا الحكم فى حركات الفلك

ولا تسأل الله عن فعله * فمن خاض لجة بحر هلك

إليه تصير أمور العباد * دع الاعتراض فما أجهلك

---

(١) كلمة فارسية معناها فى الاصل الحاجب . ثم أطلق فى دول الروم السلاجقة بآسيا الصغرى على الوزير الاكبر .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الحافظ أبو إبراهيم إسحاق بن عبد الله ﴾ ابن عمر المعروف بابن قاضى اليمن ، عن ثمان وستين سنة ، ودفن بالشرف الأعلى ، وكان قد تفرد بروايات جيدة وانتفع الناس به . وفيها ولد الشيخ شرف الدين عبد الله بن تيمية أخو الشيخ تقى الدين ابن تيمية ، والخطيب القزوينى .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وستين وستمائة ﴾

فى صفر منها جدد السلطان الظاهر البيعة لولده من بعده الملك السعيد محمد بركة خان ، وأحضر الامراء كلهم والقضاة والاعيان وأركبه ومشى بين يديه ، وكتب له ابن لقمان تقليدا هائلا بالملك من بعد أبيه ، وأن يحكم عنه أيضا فى حال حياته ، ثم ركب السلطان فى عساكره فى جمادى الآخرة قاصدا الشام ، فلما دخل دمشق جاءته رسل من أبغا ملك التتار معهم مكاتبات ومشافهات ، فمن جملة المشافهات : أنت مملوك بعت بسيواس فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الارض ؟ واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منى فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان إبغا. فلم يلتفت إلى ذلك ولاعده شيئا بل أجاب عنه أتم جواب ، وقال لرسله : أعلموه أنى من ورائه بالمطالبة ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة ، وسائر أقطار الأرض .

وفى جمادى الآخرة رسم السلطان الملك الظاهر بإراقة الخمور وتبطيل المفسدات والخواطئ بالبلاد كلها ، فنهبت الخواطئ وسلبن جميع ما كان معهن حتى يتزوجن ، وكتب إلى جميع البلاد بذلك ، وأسقط المكوس التى كانت مرتبة على ذلك ، وعوض من كان محالا على ذلك بغيرها ولله الحمد والمنة . ثم عاد السلطان بعساكره إلى مصر ، فلما كان فى أثناء الطريق عند خربة اللصوص تعرضت له امرأة فذكرت له أن ولدها دخل مدينة صور ، وأن صاحبها الفرنجى غدر به وقتله وأخذ ماله ، فركب السلطان وشنّ الغارة على صور فأخذ منها شيئا كثيرا ، وقتل خلقا ، فأرسل إليه ملكها ما سبب هذا ؟ فذكر له غدره ومكره بالتجار ثم قال السلطان لمقدم الجيوش : أوهم الناس أنى مريض وأنى بالمحفة وأحضر الاطباء واستوصف لى منهم ما يصلح لمريض به كذا وكذا ، وإذا وصفوا لك فأحضر الأشربة إلى المحفة وأنتم سائرون . ثم ركب السلطان على البريد وساق مسرعا فكشف أحوال ولده وكيف الامر بالديار المصرية بعده ، ثم عاد مسرعا إلى الجيش فجلس فى المحفة وأظهروا عافيته وتباشروا بذلك . وهذه جرأة عظيمة ، وإقدام هائل .

وفيها حج السلطان الملك الظاهر وفى صحبته الامير بدر الدين الخزندار ، وقاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى ، وفخر الدين بن لقمان ، وتاج الدين بن الأثير ونحو من ثلاثمائة مملوك ، وأجناد من الحلقة المنصورة ، فسار على طريق الكرك ونظر فى أحوالها ثم منها إلى المدينة النبوية ، فأحسن إلى أهلها ونظر فى أحوالها ، ثم منها إلى مكة فتصدق على المجاورين ثم وقف بعرفة وطاف طواف

الافاضـة وفتحت له الكعبة فغسلها بمـاء الورد وطيبها بيـده ، ثم وقف بباب الكعبة فتناول أيدى الناس ليدخلوا الكعبة وهو بينهـم ، ثم رجع فرمى الجمرات ثم تعجل النفر فعاد عـلى المدينة النبوية فزار القبر الشريف مرة ثانية على ساكنه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وعلى آله وأهل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته الكرام أجمعين إلى يوم الدين . ثم سار إلى الكرك فدخلها فى التاسع والعشرين من ذى الحجة ،وأرسل البشير إلى دمشق بقدومه سالما ، فخرج الامـير جمال الدين آقوش النجيبى نائبها ليتلقى البشير فى ثانى المحرم ، فاذا هو السلطان نفسه يسير فى الميدان الأخضر ،وقد سبق الجميع ، فتعجب الناس من سرعة سيره وصبره وجلده ، ثم ساق من فوره حتى دخل حلب فى سادس المحرم ليتفقد أحوالها ، ثم عاد إلى حماة ثم رجع إلى دمشق ثم سار إلى مصر فدخلها يوم الثلاثاء ثالث صـفر من السنة المقبلة رحمه الله .

وفى أواخر ذى الحجـة هبت ريح شديدة أغرقت مائتى مركب فى النيـل ، وهلك فيها خلق كثير ، ووقع هناك مطر شديد جـدا ، وأصاب الشام من ذلك صاعقة أهلكت الثمار ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وفيها أوقع الله تعالى الخلف بين التتار من أصحاب إبغا وأصحاب ابن منكوتمرا بن عمه وتفرقوا واشتغلوا ببعضهم بعضاً ، ولله الحمد . وفيها خرج أهل حران منها وقدموا الشام ، وكان فيهم شيخنا العلامة أبو العباس أحمد بن تيمية صحبة أبيه وعمره ست سنين، وأخوه زين الدين عبدالرحمن وشرف الدين عبد الله ، وهما أصغر منه .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله ﴾

الحلبى الصالحى ، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عنـد الملوك ، ثم عنـد الملك الظاهر ، كان يستنيبه إذا غاب ، فلما كانت هذه السنة أخذه معه وكانت وفاته بقلعة دمشق ، ودفن بتربته بالقرب من اليغمورية ، وخلف أموالا جزيلة ، وأوصى إلى السلطان فى أولاده ، وحضر السلطان عزاءه بجامع دمشق .

﴿ شرف الدين أبو الطاهر ﴾

محمد بن الحافظ أبى الخطاب عمر بن دحية المصرى ، ولد سنة عشر وستمائة وسمع أباه وجماعة ، وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية مدة ، وحدث وكان فاضلا .

﴿ القاضى تاج الدين أبو عبد الله ﴾

محمد بن وثاب بن رافع البجيلى الحنفى ، درس وأفتى عن ابن عطاء بدمشق ، ومات بعد خروجه من الحمام على مساطب الحمام فجأة ودفن بقاسيون .

﴿ الطبيب الماهر شرف الدين أبو الحسن ﴾

على بن يوسف بن حيدرة الرحبى شيخ الأطباء بدمشق ، ومدرس الدخوارية عن وصية واقفها بذلك وله التقدمة فى هذه الصناعة على أقرانه من أهل زمانه ، ومن شعره قوله :

يساق بنو الدنيا إلى الحتف عنوة * ولا يشعر الباقى بحالة من يمضى
كأنهم الأنعام فى جهل بعضها * بما ثم من سفك الدماء على بعض

[﴿ الشيخ نصير الدين ﴾

المبارك بن يحيى بن أبى الحسن أبى البركات بن الصباغ الشافعى ، العلامة فى الفقه والحديث ، درس وأفتى وصنف وانتفع به ، وعمر ثمانين سنة ، وكانت وفاته فى حادى عشرة جمادى الأولى من هذه السنة ، رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ أبو الحسن ﴾

على بن عبد الله بن إبراهيم الكوفى المقرى النحوى الملقب بسيبويه ، وكان فاضلا بارعا فى صناعة النحو ، توفى بمارستان القاهرة فى هذه السنة عن سبع وستين سنة رحمه الله . ومن شعره :

عذبت قلبي بهجر منك متصل * يا من هواه ضمير غير منفصل
فما زادنى غير تأكيد صدك لى * فماعدولك من عطف إلى بدل][(1)]

وفيها ولد شيخنا العلامة كمال الدين محمد بن على الأنصارى بن الزملكانى شيخ الشافعية .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمائة ﴾

فى ثانى المحرم منها دخل السلطان من الحجاز على الهجن فلم يرع الناس إلا وهو فى الميدان الاخضر يسير ، ففرح الناس بذلك ، وأراح الناس من تلقيه بالهدايا والتحف ، وهذه كانت عادته ، وقد عجب الناس من سرعة مسيره وعلو همته ، ثم سار إلى حلب ، ثم سار إلى مصر فدخلها فى سادس الشهر مع الركب المصرى ، وكانت زوجته أم الملك السعيد فى الحجاز هذه السنة ، ثم خرج فى ثالث عشر صفر هو وولده والأمراء إلى الاسكندرية فتصيد هنالك ، وأطلق للأمراء الأموال الكثيرة والخلع ، ورجع مؤيداً منصوراً .

وفى المحرم منها قتل صاحب مراكش أبو العلاء إدريس بن عبد الله بن محمد بن يوسف الملقب بالواثق ، قتله بنو مُزين فى حرب كانت بينه وبينهم بالقرب من مراكش . وفى ثالث عشر ربيع الآخر منها وصل السلطان إلى دمشق فى طائفة من جيشه ، وقد لقوا فى الطريق مشقة كثيرة من البرد والوحل ، فخيم على الزنبقية وبلغه أن ابن أخت زيتون خرج من عكا يقصد جيش المسلمين ، فركب إليه سريعا فوجده قريبا من عكا فدخلها خوفا منه . وفى رجب تسلم نواب السلطان مصياف من الاسماعيلية ، وهرب منها أميرهم الصارم مبارك بن الرضى ، فتحيل عليه صاحب حماه حتى أسره وأرسله إلى السلطان فحبسه فى بعض الابرجة فى القاهرة . وفيها أرسل السلطان الدرابزينات إلى الحجرة

(١) زيادة من المصرية .

النبوية ، وأمر أن تقام حول القبر صيانة له ، وعمل لها أبواباً تفتح وتغلق من الديار المصرية ، فركب ذلك عليها . وفيها استفاضت الاخبار بقصد الفرنج بلاد الشام ، فجهز السلطان العساكر لقتالهم ، وهو مع ذلك مهتم بالاسكندرية خوفا عليها ، وقد حصنها وعمل جسورة إليها إن دهمها العدو ، وأمر بقتل الكلاب منها . وفيها انقرضت دولة بنى عبد المؤمن من بلاد المغرب ، وكان آخرهم إدريس بن عبد الله بن يوسف صاحب مراكش ، قتله بنو مرّين فى هذه السنة .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع ﴾

ابن زيد بن مالك المصرى المعروف بابن الزبيرى كان فاضلا رئيساً ، وزر للملك المظفر قطز ثم للظاهر بيبرس فى أول دولته ، ثم عزله وولى بهاء الدين ابن الحنا ، فلزم منزله حتى أدركته منيته فى الرابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة ، وله نظم جيد .

﴿ الشيخ موفق الدين ﴾

أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجى الطبيب ، المعروف بابن أبى أُصَيْبِعة ، له تاريخ الأطباء فى عشر مجلدات لطاف ، وهو وقف بمشهد ابن عروة بالأموى ، توفى بصرخد وقد جاوز التسعين .

﴿ الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم ﴾

ابن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن بكير ، أبو العباس المقدسى النابلسى ، تفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ ، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وقد سمع ورحل إلى بلدان شتى ، وكان فاضلا يكتب سريعاً ، حكى الشيخ علم الدين أنه كتب مختصر الخرقى فى ليلة واحدة ، وخطه حسن قوى ، وقد كتب تاريخ ابن عساكر مرتين ، واختصره لنفسه أيضاً ، وأضر فى آخر عمره أربع سنين ، وله شعر أورد منه قطب الدين فى تذييله ، توفى بسفح قاسيون وبه دفن فى بكرة الثلاثاء عاشر رجب ، وقد جاوز التسعين رحمه الله .

﴿ القاضى محيى الدين ابن الزكى ﴾

أبو الفضل يحيى بن قاضى القضاة بهاء الدين أبى المعالى محمد بن على بن محمد بن يحيى بن على بن عبد العزيز بن على بن عبد العزيز بن على بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الوليد ابن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان القرشى الأموى بن الزكى ، تولى قضاء دمشق غير مرة ، وكذلك آباؤه من قبله ، كل قد وليها ، وقد سمع الحديث من حنبل وابن طبرزد والكندى وابن الحرستانى وجماعة ، وحدث ودرس فى مدارس كثيرة ، وقد ولى قضاء الشام فى الهلاونية[1] فلم يحمد على ما ذكره أبو شامة ، توفى بمصر فى الرابع عشر من رجب ، ودفن بالمقطم وقد جاوز السبعين . وله

(١) فى شذرات الذهب : ولاه هولاكو قضاء الشام .

شعر جيد قوى ، وحكى الشيخ قطب الدين فى ذلك بعد ما نسبه كما ذكرنا عن والده القاضى بهاء الدين أنه كان يذهب إلى تفضيل على على عثمان موافقة لشيخه محى الدين ابن عربى ، ولمنام رآه بجامع دمشق معرضاً عنه بسبب ما كان من بنى أمية إليه فى أيام صفين ، فأصبح فنظم فى ذلك قصيدة يذكر فيها ميله إلى على ، وإن كان هو أموى :

أدين بما دان الوصى ولا أرى * سواه وإن كانت أمية محتدى
ولو شهدت صفين خيلى لاعذرت * وشاء بنى حرب هنالك مشهدى
لكنت أسن البيض عنهم تراضياً * وأمنعهم نيل الخلافة باليد

ومن شعره :

قالوا ما فى جلق نزهة * تسليك عمن أنت به مغرا
يا عاذلى دونك فى لحظه * سهماً وقد عارضه سطرا

﴿ الصاحب فخر الدين ﴾

محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن الحنا المصرى ، كان وزير الصحبة ، وقد كان فاضلا ، بنى رباطا بالقرافة الكبرى ، ودرس بمدرسة والده بمصر ، وبالشافعى بعد ابن بنت الأعز توفى بشعبان ودفن بسفح المقطم ، وفوض السلطان وزارة الصحبة لولده تاج الدين .

﴿ الشيخ أبو نصر بن أبى الحسن ﴾

ابن الخراز الصوفى البغدادى الشاعر ، له ديوان حسن ، وكان جميل المعاشرة حسن المذاكرة ، دخل عليه بعض أصحابه فلم يقم له فأنشده قوله :

نهض القلب حين أقبلت * إجلالا لما فيه من صحيح الوداد
ونهوض القلوب بالود أولى * من نهوض الأجساد للاجساد

﴿ ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة ﴾

فى مستهل صفر منها ركب السلطان من الديار المصرية فى طائفة من العسكر إلى عسقلان فهدم ما بقى من سورها مما كان أهمل فى الدولة الصلاحية ، ووجدفيها هدم كوزين فيهما ألفا دينار ففرقهما على الأمراء . وجاءته البشارة وهو هنالك بأن منكوتمر كسر جيش أبغا ففرح بذلك ، ثم عاد إلى القاهرة . وفى ربيع الأول بلغ السلطان أن أهل عكا ضربوا رقاب من فى أيديهم من أسرى المسلمين صبرا بظاهر عكا ، فأمر بمن كان فى يده من أسرى أهل عكا فضربت رقابهم فى صبيحة واحدة ، وكانوا قريباً من مائتى أسير . وفيها كمل جامع المنشية (١) وأقيمت فيه الجمعة فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر . وفيها جرت حروب يطول ذكرها بين أهل تونس والفرنج ، ثم تصالحوا بعد ذلك

(١) كذا فى المصرية . وفى التركية المزة .

على الهدنة ووضع الحرب ، بعد ما قتل من الفريقين خلق لا يحصون .

وفى يوم الخميس ثامن رجب دخل الظاهر دمشق وفى صحبته ولده الملك السعيد وابن الحنا الوزير وجمهور الجيش ثم خرجوا متفرقين وتواعدوا أن يلتقوا بالساحل ليشنوا الغارة على جبلة واللاذقية ومرقب وعرقا وما هنالك من البلاد ، فلما اجتمعوا فتحوا صافينا والمجدل ، ثم ساروا فنزلوا على حصن الأكراد يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب ، وله ثلاثة أسوار ، فنصبوا المنجنيقات ففتحها قسرا يوم نصف شعبان ، فدخل الجيش ، وكان الذى يحاصره ولد السلطان الملك السعيد ، فأطلق السلطان أهله ومنّ عليهم وأجلاهم إلى طرابلس ، وتسلم القلعة بعد عشرة أيام من الفتح ، فأجلى أهلها أيضاً وجعل كنيسة البلد جامعاً ، وأقام فيه الجمعة ، وولى فيها نائباً وقاضياً وأمر بعمارة البلد ، وبعث صاحب طرسوس بمفاتيح بلده يطلب منه الصلح على أن يكون نصف مغل بلاده للسلطان، وأن يكون له بها نائباً فأجابه إلى ذلك ، وكذلك فعل صاحب المرقب فصالحه أيضا على المناصفة ووضع الحرب عشر سنين . وبلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص قد ركب بجيشه إلى عكا لينصر أهلها خوفاً من السلطان ، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة فبعث جيشا كثيفا فى اثنى عشرة شينى ليأخذوا جزيرة قبرص فى غيبة صاحبها عنها ، فسارت المراكب مسرعة فلما قاربت المدينة جاءتها ريح قاصف فصدم بعضها بعضا فانكسر فيها أربعة عشر مركبا باذن الله فغرق خلق وأسر الفرنج من الصناع والرجال قريبا من ألف وثمانمائة إنسان ، فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم سار السلطان فنصب المجانيق على حصن عكا فسأله أهلها الأمان على أن يخليهم فأجابهم إلى ذلك ، ودخل البلد يوم عيد الفطر فتسلمه ، وكان الحصن شديد الضرر على المسلمين ، وهو واد بين جبلين ، ثم سار السلطان نحو طرابلس فأرسل إليه صاحبها يقول : ما مراد السلطان فى هذه الأرض ؟ فقال جئت لأرعى زروعكم وأخرب بلادكم ، ثم أعود إلى حصاركم فى العام الآتى . فأرسل يستعطفه ويطلب منه المصالحة ووضع الحرب بينهم عشر سنين فأجابه إلى ذلك ، وأرسل إليه الاسماعيلية يستعطفونه على والدهم ، وكان مسجونا بالقاهرة ، فقال : سلموا إلى العليقة وانزلوا فخذوا إقطاعات بالقاهرة ، وتسلموا أباكم . فلما نزلوا أمر بحبسهم بالقاهرة واستناب بحصن العليقة .

وفى يوم الأحد الثانى عشر من شوال جاء سيل عظيم إلى دمشق فأتلف شيئا كثيرا ، وغرق بسببه ناس كثير ، لا سيا الحجاج من الروم الذين كانوا نزولا بين النهرين ، أخذهم السيل وجمالهم وأحمالهم ، فهلكوا وغلقت أبواب البلد ، ودخل الماء إلى البلد من مراقى السور ، ومن باب الفراديس فغرق خان ابن المقدم وأتلف شيئا كثيرا ، وكان ذلك فى زمن الصيف فى أيام المشمش ، ودخل السلطان إلى دمشق يوم الأربعاء خامس عشر شوال فعزل القاضى ابن خلكان ، وكان له فى القضاء

عشر سنين ، وولى القاضى عز الدين بن الصائغ ، وخلع عليه ، وكان تقليده قد كتب بظاهر طرابلس بسفارة الوزير ابن الحنا ، فسار ابن خلكان فى ذى القعدة إلى مصر . وفى ثانى عشر شوال دخل حصن الكردى شيخ السلطان الملك الظاهر وأصحابه إلى كنيسة اليهود فصلوا فيها وأزالوا ما فيها من شعائر اليهود ، ومدوا فيها سماطا وعملوا سماعا ، وبقوا على ذلك أياماً ، ثم أعيدت إلى اليهود ، ثم خرج السلطان إلى السواحل فافتتح بعضها وأشرف على عكا وتأملها ثم سار إلى الديار المصرية ، وكان مقدار غرمه فى هذه المدة وفى الغزوات قريبا من ثمانمائة ألف دينار ، وأخلفها الله عليه ، وكان وصوله إلى القاهرة يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة . وفى اليوم السابع عشر من وصوله أمسك على جماعة من الأمراء منهم الحلبى وغيره بلغه أنهم أرادوا مسكه على الشقيف .

وفى اليوم السابع عشر من ذى الحجة أمر باراقة الخمور من سائر بلاده وتهدد من يعصرها أو يعتصرها بالقتل ، وأسقط ضمان ذلك ، وكان ذلك بالقاهرة وحدها كل يوم ضمانه ألف دينار ، ثم سارت البرد بذلك إلى الآفاق . وفيها قبض السلطان على العزيز بن المغيث صاحب الكرك ، وعلى جماعة من أصحابه كانوا عزموا على سلطنته .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الملك تقى الدين عباس بن الملك العادل ﴾

أبى بكر بن أيوب بن شادى ، وهو آخر من بقى من أولاد العادل ، وقد سمع الحديث من الكندى وابن الحرستانى ، وكان محترماً عند الملوك لا يرفع عليه أحد فى المجالس والمواكب ، وكان لين الأخلاق حسن العشرة ، لا تمل مجالسته . توفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من جمادى الآخرة بدرب الريحان ، ودفن بتربته بسفح قاسيون .

﴿ قاضى القضاة شرف الدين أبو حفص ﴾

عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكى المالكى ، ولد سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وسمع الحديث وتفقه وأفتى بالصلاحية ، وولى حسبة القاهرة ثم ولى القضاء سنة ثلاث وستين ، لما ولوا من كل مذهب قاضيا ، وقد امتنع أشد الامتناع ثم أجاب بعد إكراه بشرط أن لا يأخذ على القضاء جامكية ، وكان مشهوراً بالعلم والدين ، روى عنه القاضى بدر الدين ابن جماعة وغيره . توفى لخمس بقين من ذى القعدة .

﴿ الطواشى شجاع الدين مرشد المظفرى الحموى ﴾

كان شجاعا بطلا من الأبطال الشجعان ، وكان له رأى سديد ، كان أستاذه لا يخالفه ، وكذلك الملك الظاهر ، توفى بحماه ودفن بتربته بالقرب من مدرسته بحماه .

﴿ ابن سبعين : عبد الحق بن إبراهيم بن محمد ﴾

ابن نصر بن محمد بن نصر بن محمد بن قطب الدين أبو محمد المقدسي الرقوطي ، نسبة إلى رقوطة بلدة قريبة من مرسية ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة ، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة ، فتولد له من ذلك نوع من الالحاد ، وصنف فيه ، وكان يعرف السيميا ، وكان يلبس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء ، ويزعم أنه حال من أحوال القوم ، وله من المصنفات كتاب البدو ، وكتاب الهو ، وقد أقام بمكة واستحوذ على عقل صاحبها ابن نمى ، وجاور فى بعض الأوقات بغار حراء يرتجى فيما ينقل عنه أن يأتيه فيه وحى كما أتى النبى ﷺ ، بناء على ما يعتقده من العقيدة الفاسدة من أن النبوة مكتسبة ، وأنها فيض يفيض على العقل إذا صفا ، فما حصل له إلا الخزى فى الدنيا والآخرة ، إن كان مات على ذلك ، وقد كان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم: كأنهم الحمير حول المدار ، وأنهم لو طافوا به كان أفضل من طوافهم بالبيت ، فالله يحكم فيه وفى أمثاله .وقد نقلت عنه عظائم من الأقوال والأفعال ، توفى فى الثامن والعشرين من شوال بمكة .

﴿ ثم دخلت سنة سبعين وستمائة من الهجرة ﴾

استهلت وخليفة الوقت الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسى ، وسلطان الاسلام الملك الظاهر . وفى يوم الأحد الرابع عشر من المحرم ركب السلطان إلى البحر لالتقاء الشوانى التى عملت عوضا عما غرق بجزيرة قبرص ، وهى أربعون شينيا ، فركب فى شينى منها ومعه الأمير بدر الدين ، فمالت بهم فسقط الخزندار فى البحر فغاص فى الماء فألقى إنسان نفسه وراءه فأخذ بشعره وأنقذه من الغرق ، فخلع السلطان على ذلك الرجل وأحسن إليه . وفى أواخر المحرم ركب السلطان فى نفر يسير من الخاصكية ، والأمراء من الديار المصرية حتى قدم الكرك ، واستصحب نائبها معه إلى دمشق ، فدخلها فى ثانى عشر صفر ، ومعه الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك ، فولاه نيابة دمشق وعزل عنها جمال الدين آقوش النجيبى فى رابع عشر صفر ، ثم خرج إلى حماة وعاد بعد عشرة أيام . وفى ربيع الأول وصلت الجفال من حلب وحماة وحمص إلى دمشق بسبب الخوف من التتار ، وجفل خلق كثير من أهل دمشق . وفى ربيع الآخر وصلت العساكر المصرية إلى حضرة السلطان إلى دمشق فسار بهم منها فى سابع الشهر ، فاجتاز بحماة واستصحب ملكها المنصور ، ثم سار إلى حلب فخيم بالميدان الأخضر بها ، وكان سبب ذلك أن عساكر الروم جمعوا نحوا من عشرة آلاف فارس وبعثوا طائفة منهم فأغاروا على عين تاب ، ووصلوا إلى نسطون ووقعوا على طائفة من التركمان بين حارم وإنطاكية فاستأصلوهم فلما سمع التتار بوصول السلطان ومعه العساكر المنصورة ارتدوا على أعقابهم راجعين ، وكان بلغه أن الفرنج أغاروا على بلاد قاقون (١) ونهبوا طائفة من التركمان ، فقبض على الامراء الذين هناك حيث لم يهتموا بحفظ البلاد وعادوا إلى الديار المصرية .

(١) حصن بفلسطين ، قرب الرملة .

وفى ثالث شعبان أمسك السلطان قاضى الحنابلة بمصر شمس الدين أحمد بن العماد المقدسى ، وأخذ ما عنده من الودائع فأخذ زكاتها ورد بعضها إلى أربابها ، واعتقله إلى شعبان من سنة ثنتين وسبعين ، وكان الذى وشى به رجل من أهل حران يقال له شبيب ، ثم تبين للسلطان نزاهة القاضى وبراءته فأعاده إلى منصبه فى سنة ثنتين وسبعين ، وجاء السلطان فى شعبان إلى أراضى عكا فأغار عليها فسأله صاحبها المهادنة فأجابه إلى ذلك فهادنه عشرة سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرة ساعات ، وعاد إلى دمشق فقرئ بدارالسعادة كتاب الصلح ، واستمر الحال على ذلك ثم عادالسلطان إلى بلاد الاسماعيلية فأخذ عامتها . قال قطب الدين : وفى جمادى الآخرة ولدت زرافة بقلعة الجبل ، وأرضعت من بقرة . قال وهذا شئ لم يعهد مثله .

وفيها توفى ﴿ الشيخ كمال الدين ﴾

سَلَّار بن حسن بن عمر بن سعيد الأربلى الشافعى ، أحد مشايخ المذهب ، وقد اشتغل عليه الشيخ محيى الدين النووى ، وقد اختصر البحر للرويانى فى مجلدات عديدة هى عندى بخطيده وكانت الفتيا تدور عليه بدمشق ، توفى فى عشر السبعين ، ودفن بباب الصغير ، وكان مفيدا بالبادرائية من أيام الواقف ، لم يطلب زيادة على ذلك إلى أن توفى فى هذه السنة .

﴿ وجيه الدين محمد بن على بن أبى طالب ﴾

ابن سويد التكريتى التاجر الكبير بين التجار بن سويد ذو الأموال الكثيرة ، وكان معظماً عند الدولة ، ولا سيما عند الملك الظاهر ، كان يجله ويكرمه لأنه كان قد أسدى إليه جميلا فى حال إمرته قبل أن يلى السلطنة ، ودفن برباطه وتربته بالقرب من الرباط الناصرى بقاسيون ، وكانت كتب الخليفة ترد إليه فى كل وقت ، وكانت مكاتباته مقبولة عند جميع الملوك ، حتى ملوك الفرنج فى السواحل . وفى أيام التتار فى أيام هولاكو ، وكان كثير الصدقات والبر .

﴿ نجم الدين يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن اللبودى ﴾

واقف اللبودية التى عند حمام الفلك المبرز على الأطباء ، ولديه فضيلة بمعرفة الطب ، وقد ولى نظر الدواوين بدمشق ، ودفن بتربته عند اللبودية .

﴿ الشيخ على البكاء ﴾

صاحب الزاوية بالقرب من بلد الخليل عليه السلام ، كان مشهوراً بالصلاح والعبادة والاطعام لمن اجتاز به من المارة والزوار ، وكان الملك المنصور قلاوون يثنى عليه ويقول : اجتمعت به وهو أمير وأنه كاشفه فى أشياء وقعت جميعها ، ومن جملتها أنه سيملك . نقل ذلك قطب الدين اليونينى ، وذكر أن سبب بكائه الكثير أنه صحب رجلا كانت له أحوال وكرامات ، وأنه خرج معه من بغداد

فانتهوا فى ساعة واحدة إلى بلدة بينها و بين بغدادمسيرة سنة ، وأن ذلك الرجل قال له إنى سأموت فى الوقت الفلانى ، فأشهدنى فى ذلك الوقت فى البلد الفلانى . قال : فلما كان ذلك الوقت حضرت عنده وهو فى السياق ، وقد استدار إلى جهة الشرق فحولته إلى القبلة فاستدار إلى الشرق فحولته أيضاً ففتح عينيه وقال : لا تتعب فانى لا أموت إلا على هذه الجهة ، وجعل يتكلم بكلام الرهبان حتى مات فحملناه فجئنا به إلى دير هناك فوجدناهم فى حزن عظيم ، فقلنا لهم : ما شأنكم ؟ فقالوا كان عندنا شيخ كبير ابن مائة سنة ، فلما كان اليوم مات على الاسلام ، فقلنا لهم: خذوا هذا بدله وسلمونا صاحبنا ، قال فوليناه فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين ، و ولواهم ذلك الرجل فدفنوه فى مقبرة النصارى ، نسأل الله حسن الخاتمة . مات الشيخ على فى رجب من هذه السنة .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وستمائة ﴾

فى خامس المحرم وصل الظاهر دمشق من بلاد السواحل التى فتحها وقد مهدها ، وركب فى أواخر المحرم إلى القاهرة فأقام بها سنة ثم عاد فدخل دمشق فى رابع صفر ، وفى المحرم منها وصل صاحب النوبة إلى عيذاب فنهب تجارها وقتل خلقا من أهلها ، منهم الوالى والقاضى ، فسار إليه الأمير علاء الدين أيد غدى الخزندار فقتل خلقا من بلاده ونهب وحرق وهدم ودوخ البلاد ، وأخذ بالثأر ولله الحمد والمنة .

وفى ربيع الأول توفى الأمير سيف الدين محمد بن مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس صاحب صهيون ، ودفن فى تربة والده فى عشر السبعين ، وكان له فى ملك صهيون و برزيه إحدى عشرة سنة ، وتسلمها بعده ولده سابق الدين، وأرسل إلى الملك الظاهر يستأذنه فى الحضور فأذن له ، فلما حضر أقطعه خبزا و بعث إلى البلدين نوابا من جهته .

وفى خامس جمادى الآخرة وصل السلطان بعسكره إلى الفرات لانه بلغه أن طائفة من التتار هنالك فخاض إليهم الفرات بنفسه وجنده ، وقتل من أولئك مقتلة كبيرة وخلقا كثيرا ، وكان أول من اقتحم الفرات يومئذ الأمير سيف الدين قلاوون و بدر الدين بيسرى وتبعهما السلطان ، ثم فعل بالتتار ما فعل ، ثم ساق إلى ناحية البيرة وقد كانت محاصرة بطائفة من التتار أخرى ، فلما سمعوا بقدومه هربوا وتركوا أموالهم وأثقالهم ، ودخل السلطان إلى البيرة فى أبهة عظيمة وفرق فى أهلها أموالا كثيرة ، ثم عاد إلى دمشق فى ثالث جمادى الآخرة ومعه الأسرى . وخرج منها فى سابعه إلى الديار المصرية ، وخرج ولده الملك السعيد لتلقيه ودخلا إلى القاهرة ، وكان يوماً مشهوداً . ومما قاله القاضى شهاب الدين محمود الكاتب ، وأولاده يقال لهم بنو الشهاب محمود ، فى خوض السلطان الفرات بالجيش :

سر حيث شئت لك المهيمن جار * واحكم فطوع مرادك الأقدار

لم يبق للدين الذى أظهرته * ياركنه عند الأعادى ثار
لما تراقصت الرؤس تحركت * من مطربات قسيك الأوتار
خضت الفرات بعسكر أفضى به * موج الفرات كما أتى الاثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى * بحراً سواك تقله الأنهار
وتقطعت فرقا ولم يك طودها * إذ ذاك إلا جيشك الجرار

وقال بعض من شاهد ذلك :

ولما تراءينا الفرات بخيلنا * سكرناه منا بالقنا والصوارم
ولجنا فاوقف التيار عن جريانه * إلى حين عدنا بالغنى والغنائم

وقال آخر ولا بأس به :

الملك الظاهر سلطاننا * نفديه بالأموال والأهل
اقتحم الماء ليطفى به * حرارة القلب من المغل

وفى يوم الثلاثاء ثالث رجب خلع على جميع الأمراء من حاشيته ومقدمى الحلقة وأرباب الدولة وأعطى كل إنسان ما يليق به من الخيل والذهب والحوايص ، وكان مبلغ ما أنفق بذلك نحو ثلثمائة ألف دينار . وفى شعبان أرسل السلطان إلى منكوتمر هدايا عظيمة ، وفى يوم الاثنين ثانى عشر شوال استدعى السلطان شيخه الشيخ خضر الكردى إلى بين يديه إلى القلعة وحوقق على أشياء كثيرة ارتكبها ، فأمر السلطان عند ذلك باعتقاله وحبسه ، ثم أمر باغتياله وكان آخر العهد به . وفى ذى القعدة سلمت الاسماعيلية ما كان بقى بأيديهم من الحصون وهى الكهف والقدموس والمنطقة ، وعوضوا عن ذلك باقطاعات ، ولم يبق بالشام شىء لهم من القلاع ، واستناب السلطان فيها . وفيها أمر السلطان بعمارة جسورة فى السواحل ، وغرم عليها مالا كثيراً ، وحصل للناس بذلك رفق كبير .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ تاج الدين أبو المظفر محمد بن أحمد ﴾

ابن حمزة بن على بن هبة الله بن الحوى ، التغلبى الدمشقى ، كان من أعيان أهل دمشق ، ولى نظر الأيتام والحسبة ، ثم وكالة بيت المال ، وسمع الكثير وخرج له ابن بلبان مشيخة قرأها عليه الشيخ شرف الدين الفزارى بالجامع ، فسمعها جماعة من الأعيان والفضلاء رحمه الله .

﴿ الخطيب فخر الدين أبو محمد ﴾

عبد القاهر بن عبد الغنى بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن تيمية الحرانى الخطيب بها ، و بيته معروف بالعلم والخطابة والرياسة ، ودفن بمقبرة الصوفية وقد قارب الستين رحمه الله . وقد سمع الحديث من جده فخر الدين صاحب ديوان الخطب المشهورة ، توفى بخانقاه القصر ظاهر دمشق .

﴿ الشيخ خضر بن أبى بكر المهرانى العدوى ﴾

شيخ الملك الظاهر بيبرس ، كان حظيا عنده مكرما لديه ، له عنده المكانة الرفيعة ، كان السلطان ينزل بنفسه إلى زاويته التى بناها له فى الحسينيـة ، فى كل أسبوع مرة أو مرتين ، و بنى له عندها جامعاً يخطب فيه للجمعة ، وكان يعطيـه مالا كثيرا ، و يطلق له ما أراد ، و وقف على زاويته شيئا كثيرا جدا ، وكان معظما عند الخاص والعـام بسبب حب السلطان وتعظيمه له ، وكان يمازحه إذا جلس عنده ، وكان فيه خير ودين وصلاح ، وقد كاشف السلطان بأشياء كثيرة ، وقد دخل مرة كنيسة القمامة بالمقدس فذبح قسيسها بيده ، و وهب مافيها لأصحابه ، وكذلك فعل بالكنيسة التى بالاسكندرية وهى من أعظم كنائسهم ، نهبها وحولها مسجدا ومدرسة أنفق عليها أموالا كثيرة من بيت المال ، وسماها المدرسة الخضراء ، وكذلك فعل بكنيسة اليهود بدمشق ، دخلها ونهب ما فيها من الآلات والأمتعة ، ومد فيها سماطا ، واتخذها مسجـدا مدة ثم سعوا إليه فى ردها إليهم و إبقائها عليهم ، ثم اتفق فى هـذه السنة أنه وقعتْ منه أشياء أنكرت عليه وحوقق عليها عنـد السلطان الملك الظاهر فظهر له منها ما أوجب سجنه ، ثم أمر باعدامه وهلاكه [١] وكانت وفاته فى هذه السنة ، ودفن بزاويته سامحه الله ، وقـد كان السلطان يحبه محبة عظيمة حتى إنه سمى بعض أولاده خضرا موافقـة لاسمه ، و إليه تنسب القبة التى على الجبل غربى الربوة التى يقال لها قبة الشيخ خضر .

﴿ مصنف التعجيز ﴾

العلامة تاج الدين عبد الرحيم بن محمد بن يونس بن محمد بن سعد بن مالك أبو القاسم الموصلى ، من بيت الفقه والرياسة والتدريس ، ولد سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وسمع واشتغل وحصل وصنف واختصر الوجيز من كتابه التعجيز ، واختصر المحصول ، وله طريقة فى الخلاف أخذها عن ركن الدين الطاووسى ، وكان جده عماد الدين بن يونس شيخ المذهب فى وقته كما تقدم .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة ﴾

فى صفر منها قدم الظاهر إلى دمشق وقد بلغـه أن أبغا وصل إلى بغداد فتصيد بتلك الناحية ، فأرسل إلى العساكر المصرية أن يتأهبوا للحضور ، واستعد السلطان لذلك . وفى جمادى الآخرة أحضر ملك الكرخ لبين يديه بدمشق ، وكان قد جاء متنكرا لزيارة بيت المقدس فظهر عليه فحمل إلى بين يديه فسجنه بالقلعة . وفيها كمل بناء جامع دير الطين ظاهر القاهرة ، وصلى فيه الجمعة . وفيها سار السلطان إلى القاهرة فدخلها فى سابع رجب . وفى أواخر رمضان دخل الملك السعيد ابن الظاهر إلى دمشق فى طائفة من الجيش ، فأقام بها شهرا ثم عاد . وفى يوم عيد الفطر ختن السلطان ولده خضراً

---

(١) فى شذرات الذهب : أنه حبسه فى القلعة وأجرى عليه المآكل المفتخرة حتى مات فى محرم سنة ٦٧٦ وكذلك فى النجوم الزاهرة . وفيها أن حبسه كان فى شوال سنة ٦٧١

الذى سماه باسم شيخه ، وختن معه جماعة من أولاد الأمراء ، وكان وقتاً هائلا . وفيها فوض ملك التتار إلى علاء الدين صاحب الديوان ببغداد النظر فى تستر وأعمالها ، فسار إليها ليتصفح أحوالها فوجد بها شابا من أولاد التجار يقال له «لى» قد قرأ القرآن وشيئا من الفقه والاشارات لابن سينا ، ونظر فى النجوم ، ثم ادعى أنه عيسى ابن مريم ، وصدقه على ذلك جماعة من جهلة تلك الناحية ، وقد أسقط لهم من الفرائض صلاة العصر وعشاء الآخرة ، فاستحضره وسأله عن ذلك فرآه ذكيا ، إنما يفعل ذلك عن قصد ، فأمر به فقتل بين يديه جزاه الله خيراً ، وأمر العوام فنهبوا أمتعته وأمتعة العوام ممن كان اتبعه . وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ مؤيد الدين أبو المعالى الصدر الرئيس ﴾

أسعد بن غالب المظفرى ابن الوزير مؤيد الدين أسعد بن حمزة بن أسعد بن على بن محمد التميمى ابن القلانسى ، جاوز التسعين وكان رئيساً كبيرا واسع النعمة ، لا يغفل أن يباشر شيئا من الوظائف وقد ألزموه بعد ابن سويد بمباشرة مصالح السلطان فباشرها بلا جامكية ، وكانت وفاته ببستانه ، ودفن بسفح قاسيون يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم . والد الصدر عز الدين حمزة رئيس البلدين دمشق والقاهرة ، وجدهم مؤيد الدين أسعد بن حمزة الكبير كان وزيراً للملك الأفضل على بن الناصر فاتح القدس ، كان رئيساً فاضلا له كتاب الوصية فى الأخلاق المرضية وغير ذلك ، وكانت له يد جيدة فى النظم ، فمن ذلك قوله :

يا رب جدلى إذا ما ضمنى جدثى * برحمة منك تنجينى من النار
أحسن جوارى إذا أمسيت جارك فى * لحدى فانك قد أوصيت بالجار

وأما والد حمزة بن أسعد بن على بن محمد التميمى فهو العميد ، وكان يكتب جيدا وصنف تاريخا فيما بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى سنة وفاته فى خمس وخمسمائة .

﴿ الأمير الكبير فارس الدين أقطاى ﴾

المستعربى أتابك الديار المصرية ، كان أولا مملوكا لابن يمن ، ثم صار مملوكا للصالح أيوب فأمره ، ثم عظم شأنه فى دولة المظفر وصار أتابك العساكر ، فلما قتل امتدت أطماع الأمراء إلى المملكة فبايع أقطاى الملك الظاهر فتبعه الجيش على ذلك ، وكان الظاهر يعرفها له ولا ينساها ، ثم قبل وفاته بقليل انهضم عند الظاهر ، ومات فى هذه السنة بالقاهرة .

﴿ الشيخ عبد الله بن غانم ﴾

ابن على بن إبراهيم بن عساكر بن الحسين المقدسى ، له زاوية بنابلس ، وله أشعار رائقة ، وكلام قوى فى علم التصوف ، وقد طول اليونينى ترجمته وأورد من أشعاره شيئا كثيرا .

﴿ قاضى القضاة كمال الدين ﴾

أبو الفتح عمر بن بندار بن عمر بن على التفليسى الشافعى ، ولد بتفليس سنة إحدى وستمائة ، وكان فاضلا أصولياً مناظرا ، ولى نيابة الحكم مدة ثم استقل بالقضاء فى دولة هلاوون ـ هولاكو ـ وكان عفيفانزهاً لم يرد منصبا ولا تدريسا مع كثرة عياله وقلة ماله ، ولما انقضت أيامهم تغضب عليه بعض الناس ثم ألزم بالمسير إلى القاهرة ، فأقام بها يفيد الناس إلى أن توفى فى ربيع الأول من هذه السنة ، ودفن بالقرافة الصغرى .

﴿ إسماعيل بن إبراهيم بن شاكر بن عبد الله ﴾

التنوخى ، وتنوخ من قضاعة ، كان صدرا كبيرا ، وكتب الانشاء للناصر داود بن المعظم ، وتولى نظر المارستان النورى وغيره ، وكان مشكور السيرة ، وقد أثنى عليه غير واحد ، وقد جاوز الثمانين ، ومن شعره قوله :

خاب رجاء امرئ له أمل * بغير رب السماء قد وصله
أيبتغى غيره أخو ثقة * وهو ببطن الأحشاء قد كفله

وله أيضا : خرس اللسان وكل عن * أوصافكم ماذا يقول وأنتم ما أنتم
الأمر أعظم من مقالة قائل * قد تاه عقل أن يعبر عنكم
العجز والتقصير وصفى دائما * والبر والاحسان يعرف منكم

﴿ ابن مالك صاحب الألفية ﴾

الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائى الجيانى النحوى ، صاحب التصانيف المشهورة المفيدة ، منها الكافية الشافية وشرحها ، والتسهيل وشرحه ، والألفية التى شرحها ولده بدر الدين شرحا مفيداً . ولد بجيان سنة ستمائة وأقام بحلب مدة ، ثم بدمشق. وكان كثير الاجتماع بابن خلكان وأثنى عليه غير واحد ، وروى عنه القاضى بدر الدين بن جماعة ، وأجاز لشيخنا علم الدين البرزالى . توفى ابن مالك بدمشق ليلة الأربعاء ثانى عشر رمضان ، ودفن بتربة القاضى عز الدين بن الصائغ بقاسيون .

﴿ النصير الطوسى ﴾

محمد بن عبد الله الطوسى ، كان يقال له المولى نصير الدين ، ويقال الخواجا نصير الدين ، اشتغل فى شبيبته وحصل علم الأوائل جيدا ، وصنف فى ذلك فى علم الكلام ، وشرح الاشارات لابن سينا ، ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الاسماعيلية ، ثم وزر لهولاكو ، وكان معه فى واقعة بغداد ، ومن الناس من يزعم أنه أشار على هولاكوخان بقتل الخليفة فالله أعلم ، وعندى أن هذا لا يصدر

من عاقل ولا فاضل . وقد ذكره بعض البغاددة فأثنى عليه ، وقال : كان عاقلا فاضلا كريم الأخلاق ودفن فى مشهد موسى بن جعفر فى سرداب كان قد أعد للخليفة الناصر لدين الله ، وهو الذى كان قد بنى الرصد بمراغة ، ورتب فيه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم من أنواع الفضلاء ، و بنى له فيه قبة عظيمة ، وجعل فيه كتبا كثيرة جدا ، توفى فى بغداد فى ثانى عشر ذى الحجة من هذه السنة ، وله خمس وسبعون سنة ، وله شعر جيد قوى وأصل اشتغاله على المعين سالم بن بدار بن على المصرى المعتزلى المتشيع ، فنزع فيه عروق كثيرة منه ، حتى أفسد اعتقاده .

﴿ الشيخ سالم البرقى ﴾

صاحب الرباط بالقرافة الصغرى ، كان صالحا متعبداً يقصد للزيارة والتبرك بدعائه ، وله اليوم أصحاب معروفون على طريقه .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة ﴾

فيها اطلع السلطان على ثلاثة عشر أميراً منهم قجقار الحموى ، وقد كانوا كاتبوا التتر يدعونهم إلى بلاد المسلمين ، وأنهم معهم على السلطان ، فأخذوا فأقروا بذلك ، وجاءت كتبهم مع البريدية وكان آخر العهد بهم . وفيها أقبل السلطان بالعساكر فدخل بلاد سيس يوم الاثنين الحادى والعشرين من رمضان ، فقتلوا خلقا لا يعلمهم إلا الله وغنموا شيئا كثيرا من الأبقار والأغنام والأثقال والدواب والأنعام ، فبيع ذلك بأرخص ثمن ، ثم عاد فدخل دمشق مؤيداً منصورا فى شهر ذى الحجة فأقام بها حتى دخلت السنة . وفيها ثار على أهل الموصل رمل حتى عم الأفق وخرجوا من دورهم يبتهلون إلى الله حتى كشف ذلك عنهم ، والله تعالى أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان

﴿ ابن عطاء الحنفى ﴾

قاضى القضاة شمس الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ شرف الدين محمد بن عطاء بن حسن بن عطاء بن جبير بن جابر بن وهيب الأذرعى الحنفى ، ولد سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، سمع الحديث وتفقه على مذهب أبى حنيفة ، وناب فى الحكم عن الشافعى مدة ، ثم استقل بقضاء الحنفية أول ما ولى القضاة من المذاهب الأربعة ، ولما وقعت الحوطة على أملاك الناس أراد السلطان منه أن يحكم بها بمقتضى مذهبه ، فغضب من ذلك فقال : هذه أملاك بيد أصحابها ، وما يحل لمسلم أن يتعرض لها ثم نهض من المجلس فذهب ، فغضب السلطان من ذلك غضباً شديدا ، ثم سكن غضبه فكان يثنى عليه بعد ذلك و يمدحه ، و يقول : لا تثبتوا كتباً إلا عنه . كان ابن عطاء من العلماء الأخيار كثير التواضع قليل الرغبة فى الدنيا ، روى عنه ابن جماعة وأجاز للبرزالى . توفى يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى ، ودفن بالقرب من المعظمية بسفح قاسيون رحمه الله تعالى .

﴿ بيمند بن بيمند بن بيمند ﴾

ابرنس طرابلس الفرنجى ، كان جده نائبا لبنت صيحل الذى تملك طرابلس من ابن عمار فى حدود الخمسمائة ، وكانت يتيمة تسكن بعض جزائر البحر ، فتغلب هـذا على البلد لبعدها عنه ، ثم استقل بها ولده ثم حفيده هذا ، وكان شكلا مليحا . قال قطب الدين اليونينى : رأيته فى بعلبك فى سنة ثمان وخمسين وستمائة حين جاء مسلما على كتبغانوين ، ورام أن يطلب منـه بعلبك ، فشق ذلك علـى المسلمين . ولما توفى دفن فى كنيسة طرابلس ، ولما فتحها المسلمون فى سـنة ثمان وثمانين وستمائة نبش الناس قبره وأخرجوه منه وألقوا عظامه على المزابل للكلاب .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمائة ﴾

لما كان يوم الخميس ثامن جمادى الأولى نزل التتار على البيرة فى ثلاثين ألف مقاتل ، خمسة عشر ألفا من المغول ، وخمسة عشر ألفا من الروم ، والمقدم على الجميع البرواناه بأمر أبغا ملك التتار ومعهم جيش الموصل وجيش ماردين والأكراد ، ونصبوا عليهـا ثلاثة وعشرين منجنيقا ، فخرج أهل البيرة فى الليـل فكبسوا عسكر التتار وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شـيئا كثيرا ، ورجعوا إلى بيوتهم سالمين ، فأقام عليها الجيش مـدة إلى تاسع عشر الشهر المـذكور ، ثم رجعوا عنها بغيظهم لم ينالوا خـيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . ولـما بلغ السلطان نزول التتار على البيرة أنفق فى الجيش ستمائة ألف دينار ، ثم ركب سريعاً وفى صحبته ولده السعيد ، فلما كان فى أثناء الطريق بلغه رحيـل التتار عنها فعاد إلى دمشـق ، ثم ركب فى رجب إلى القاهرة فدخلها فى ثامن عشر فوجـد بها خمسة وعشرين رسولا من جهـة ملوك الأرض ينتظرونه فتلقوه وحـدثوه وقبلوا الأرض بين يديه ودخل القلعـة فى أبهة عظيمـة . ولما عاد البرواناه إلى بلاد الروم حلف الأمراء الكبار منهـم شرف الدين مسعود وضـياء الدين محمود ابنا الخطيرى ، وأمـين الدين ميكائيل ، وحسام الدين ميجار ، وولده بهاء الدين ، على أن يكونوا من جهة السلطان الملك الظاهر وينابذوا أبغا ، فحلفوا له على ذلك ، وكتب إلى الظاهر بذلك ، وأن يرسل إليه جيشاً ويحمل له ما كان يحمله الى التتار ، ويكون غياث الدين كنجرى على ما هو عليه ، يجلس على تخت مملكة الروم .

وفى هذه السنة استسقى أهل بغداد ثلاثة أيام فلم يسقوا . وفيها فى رمضان منها وجد رجل وامرأة فى نهار رمضان على فاحشة الزنا ، فأمر علاء الدين صاحب الديوان برجمهما فرجما ، ولم يرجم ببغـداد قبلهما قط أحـد منذ بنيت . وهذا غريب جداً . وفيها اسـتسقى أهل دمشق أيضا مرتين . فى أواخر رجب وأوائل شـعبان ـ وكان ذلك فى آخر كانون الثانى ـ فلم يسقوا أيضا . وفيها أرسـل السلطان جيشا إلى دنقلة فكسر جيش السودان وقتلوا منهم خلقا وأسروا شيئا كثيرا من السودان

بحيث بيع الرقيق الرأس منها بثلاثة دراهم ، ورهب ملكهم داوداه إلى صاحب النوبة فأرسله إلى الملك الظاهر محتاطا عليه ، وقرر الملك الظاهر على أهل دنقلة جزية تحمل إليه فى كل سنة . كل ذلك كان فى شعبان من هذه السنة .

وفيها عقد عقد الملك السعيد بن الظاهر على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الألفى ، فى الايوان بحضرة السلطان والدولة على صداق خمسة آلاف دينار ، تعجل منها ألفا دينار ، وكان الذى كتبه وقرأه محيى الدين بن عبد الظاهر ، فأعطى مائة دينار ، وخلع عليه . ثم ركب السلطان مسرعا فوصل إلى حصن الكرك فجمع القيمرية الذين به فاذا هم ستمائة نفر ، فأمر بشنقهم فشفع فيهم عنده فأطلقهم وأجلاهم منه إلى مصر ، وكان قد بلغه عنهم أنهم يريدون قتل من فيه ويقيموا ملكا عليهم ، وسلم الحصن إلى الطواشى شمس الدين رضوان السهيلى ، ثم عاد فى بقية الشهر إلى دمشق فدخلها يوم الجمعة ثامن عشر الشهر . وفيها كانت زلزلة بأخلاط واتصلت ببلاد بكر .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

الأديب تاج الدين أبو الثناء محمود بن عابد بن الحسين بن محمد بن على التميمى الصرخدى الحنفى ، كان مشهورا بالفقه والأدب ، والعفة والصلاح ، ونزاهة النفس ومكارم الأخلاق . ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع الحديث وروى ، ودفن بمقابر الصوفية فى ربيع الآخر منها ، وله ست وتسعون سنة رحمه الله .

﴿ الشيخ الامام عماد الدين عبدالعزيز بن محمد ﴾

ابن عبد القادر بن عبد الله بن خليل بن مقلد الأنصارى الدمشقى ، المعروف بابن الصائغ ، كان مدرساً بالعذراوية وشاهداً بالخزانة بالقلعة يعرف الحساب جيداً ، وله سماع ورواية ، ودفن بقاسيون

﴿ ابن الساعى المؤرخ ﴾

تاج الدين بن المحتسب المعروف بابن الساعى البغدادى ، ولد سنة ثلاث وتسعين وسمع الحديث واعتنى بالتاريخ ، وجمع وصنف ، ولم يكن بالحافظ ولا الضابط المتقن . وقد أوصى إليه ابن النجار حين توفى ، وله تاريخ كبير عندى أكثره ، ومصنفات أخر مفيدة ، وآخر ما صنف كتاب فى الزهاد ، كتب فى حاشيته زكى الدين عبد الله بن حبيب الكاتب :

ما زال تاج الدين طول المدى * من عمره يعتق فى السير
فى طلب العلم وتدوينه * وفعله نفع بلا ضير
علا علىّ بتصانيفه * وهذه خاتمة الخير

﴿ ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة ﴾

فى ثالث عشر المحرم منها دخل السلطان إلى دمشق وسبق العساكر إلى بلاد حلب ، فلما توافت إليه أرسل بين يديه الأمير بدر الدين الاتابكى بألف فارس إلى البلستين ، فصادف بها جماعة من عسكر الروم فركبوا إليه وحملوا إليه الاقامات ، وطلب جماعة منهم أن يدخلوا بلاد الاسلام فأذن لهم ، فدخل طائفة منهم بيجار وابن الخطير ، فرسم لهم أن يدخلوا القاهرة فتلقاهم الملك السعيد ، ثم عاد السلطان من حلب إلى القاهرة فدخلها فى ثانى عشر ربيع الآخر .

وفى خامس جمادى الأولى عمل السلطان عرس ولده الملك السعيد على بنت قلاوون ، واحتفل السلطان به احتفالا عظيما ، وركب الجيش فى الميدان خمسة أيام يلعبون ويتطاردون ، ويحمل بعضهم على بعض ، ثم خلع على الأمراء وأرباب المناصب ، وكان مبلغ ماخلع ألف وثلثمائة خلعة بمصر ، وجاءت مراسيمه إلى الشام بالخلع على أهلها ، ومد السلطان سماطا عظيما حضره الخاص والعام ، والشارد والوارد ، وحبس فيه رسل التتار ورسل الفرنج وعليهم كلهم الخلع الهائلة ، وكان وقتا مشهوداً ، وحمل صاحب حماه هدايا عظيمة وركب إلى مصر للتهنئة . وفى حادى عشر شوال طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهودا .

﴿ وقعة البلستين وفتح قيسارية ﴾

ركب السلطان من مصر فى العساكر فدخل دمشق فى سابع عشر شوال ، فأقام بها ثلاثة أيام ، ثم سار حتى دخل حلب فى مستهل ذى القعدة ، فأقام بها يوما ورسم لنائب حلب أن يقيم بعسكر حلب على الفرات لحفظ المناثر ، وسار السلطان فقطع الدربند فى نصف يوم ، ووقع سنقر الأشقر فى أثناء الطريق بثلاثة آلاف من المغول فهزمهم يوم الخميس تاسع ذى القعدة وصعد العسكر على الجبال فأشرفوا على وطأة البلستين فرأوا التتار قد رتبوا عسكرهم وكانوا أحد عشر ألف مقاتل ، وعزلوا عنهم عسكر الروم خوفا من مخامرتهم ، فلما ترا أى الجمعان حملت ميسرة التتار فصدمت سناجق السلطان ، ودخلت طائفة منهم بينهم فشقوها ، وساقت إلى الميمنة ، فلما رأى السلطان ذلك أردف المسلمين بنفسه ومن معه ، ثم لاحت منه التفاتة فرأى الميسرة قد كادت أن تتحطم فأمر جماعة من الأمراء بإردافها ، ثم حمل العسكر جميعه حملة واحدة على التتار فترجلوا إلى الأرض عن آخرهم ، وقاتلوا المسلمين قتالا شديداً ، وصبر المسلمون صبرا عظيما ، فأنزل الله نصره على المسلمين ، فأحاطت بالتتار العساكر من كل جانب ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وقتل من المسلمين أيضا جماعة ، وكان فى جملة من قتل من سادات المسلمين الأمير الكبير ضياء الدين ابن الخطير ، وسيف الدين قيماز ، وسيف الدين بنجو الجاشنكير ، وعز الدين أيبك الثقفى ، وأسر جماعة من أمراء المغول ، ومن أمراء

ومن أمراء الروم ، وهرب الرواناه فنجا بنفسه ، ودخل قيسارية فى بكرة الأحد ثانى عشر ذى القعدة ، وأعلم أمراء الروم ملكهم بكسرة التتار على البلستين ، وأشار عليهم بالهزيمة فانهزموا منها وأخلوها ، فدخلها الملك الظاهر وصلى بها الجمعة سابع ذى القعدة ، وخطب له بها ، ثم كر راجعا مؤيدا منصوراً . وسارت البشائر إلى البلدان ففرح المؤمنون يومئذ بنصر الله . ولما بلغ خبرهذه الوقعة أبغا جاء حتى وقف بنفسه وجيشه ، وشاهد مكان المعركة ومن فيها من قتلى المغول ، فغاظه ذلك وأعظمه وحنق على الرواناه إذ لم يعلمه بجلية الحال ، وكان يظن أمر الملك الظاهر دون هذا كله ، واشتد غضبه على أهل قيسارية وأهل تلك الناحية ، فقتل منهم قريبا من مائتى ألف ، وقيل قتل منهم خمسمائة ألف من قيسارية وأرزن الروم ، وكان فى جملة من قتل القاضى جلال الدين حبيب ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الشيخ أبو الفضل ابن الشيخ عبيد بن عبد الخالق الدمشقى ﴾

ودفن بالقرب من الشيخ أرسلان . قال الشيخ علم الدين : وكان يذكر أن مولده كان سنة أربع وستين وخمسمائة

﴿ الطواشى يمن الحبشى ﴾

شيخ الخدم بالحرم الشريف ، كان دينا عاقلا عدلا صادق اللهجة ، مات فى عشر السبعين رحمه الله

[﴿ الشيخ المحدث شمس الدين أبو العباس ﴾

أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بكر الموصلى ، ثم الدمشقى الصوفى ، سمع الكثير وكتب الكتب الكبار بخط رفيع جيد واضح ، جاوز السبعين] (١) ودفن بباب الفراديس .

﴿ الشاعر شهاب الدين أبو المكارم ﴾

محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة بن سالم بن عبد الله الشيبانى التلعفرى ، صاحب ديوان الشعر ، جاوز الثمانين ، مات بحماة ، وكان الشعراء مقرين له معترفين بفضله وتقدمه فى هذا الفن . ومن شعره قوله :

لسانى طرى منك يا غاية المنى * ومن ولهى أنى خطيب وشاعر
فهذا لمعنى حسن وجهك ناظم * وهذا لدمعى فى تجنيك ناثر

﴿ القاضى شمس الدين ﴾

على بن محمود بن على بن عاصم الشهزورى الدمشقى ، مدرس القيمرية بشرط واقفها له ولذريته [من بعده التدريس من تأهل منهم ، فدرس بها إلى أن توفى فى هذه السنة ، ودرس بعده ولده

(١) زيادة من نسخة أخرى بتركيا ومن النسخة المصرية أيضا .

صلاح الدين ، ثم ابن ابنه بعد ابن جماعة ، وطالت مدة حفيده . وقد ولى شمس الدين على نيابة ابن خلكان فى الولاية الأولى ، وكان فقيها جيدا نقالا للمذهب ، رحمه الله] (١) وقد سافر مع ابن العديم لبغداد فسمع بها ودفن بمقابر الصوفية بالقرب من ابن الصلاح .

﴿ الشيخ الصالح العالم الزاهد ﴾

أبو إسحاق إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن جماعة بن حازم بن سنجر الكنانى الحموى له معرفة بالفقه والحديث ، ولد سنة ست وتسعين بحماة ، وتوفى بالقدس الشريف ودفن بماملاً ، وسمع من الفخر ابن عساكر ، وروى عنه ولده قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة .

﴿ الشيخ الصالح جندل بن محمد المنينى ﴾

كانت له عبادة وزهادة وأعمال صالحة ، وكان الناس يترددون إلى زيارته بمنين ، وكان يتكلم بكلام كثير لا يفهمه أحد من الحاضرين ، بألفاظ غريبة ، وحكى عنه الشيخ تاج الدين أنه سمعه يقول : ما تقرب أحد إلى الله بمثل الذل له والتضرع إليه ، وسمعه يقول : الموله منفى من طريق الله يعتقد أنه واصل ولو علم أنه منفى رجع عما هوفيه ، لأن طريق القوم من أهل السلوك لايثبت عليها إلا ذوو العقول الثابتة . وكان يقول : السماع وظيفة أهل البطالة . قال الشيخ تاج الدين : وكان الشيخ جندل من أهل الطريق وعلماء التحقيق . قال : وأخبرنى فى سنة إحدى وستين وستمائة أنه قد بلغ من العمر خمساً وتسعين سنة . قلت : على هذا فيكون قد جاوز المائة ، لأنه توفى فى رمضان من هذه السنة ، ودفن فى زاويته المشهورة بقرية منين ، وتردد الناس لقبره يصلون عليه من دمشق وأعمالها أياما كثيرة رحمه الله .

﴿ محمد بن عبد الرحمن بن محمد ﴾

الحافظ بدر الدين أبو عبد الله بن النويرة السلمى الحنفى ، اشتغل على الصدر سليمان وابن عطاء وفى النحو على ابن مالك ، وحصل وبرع ونظم ونثر ، ودرس فى الشبلية والقصاعين ، وطلب لنيابة القضاء فامتنع ، وكتب الكتابة المنسوبة . رآه بعض أصحابه فى المنام بعد وفاته فقال : ما فعل الله بك ؟ فأنشأ يقول :

ما كان لى من شافع عنده * غير اعتقادى أنه واحد

وكانت وفاته فى جمادى الآخرة ودفن بظاهر دمشق رحمه الله .

﴿ محمد بن عبد الوهاب بن منصور ﴾

شمس الدين أبو عبد الله الحرانى الحنبلى تلميذ الشيخ مجد الدين ابن تيمية ، وهو أول من

(١) زيادة من نسخة تركية

حكم بالديار المصرية من الحنابلة نيابة عن القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز ، ثم ولى شمس الدين ابن الشيخ العماد القضاء مستقلا فاستناب به ، ثم ترك ذلك و رجع إلى الشام يشتغل و يفتى إلى أن توفى وقد نيف على الستين رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمائة ﴾

فيها كانت وفاة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، صاحب البلاد المصرية والشامية والحلبية وغير ذلك ، وأقام ولده ناصر الدين أباالمعالى محمد بركة خان الملقب السعيد من بعده ، و وفاةالشيخ محيي الدين النووى إمام الشافعية فيها فى اليوم السابع من المحرم منها ، ودخل السلطان الملك الظاهر من بلاد الروم وقد كسر التتار على البلستين ، ورجع مؤيدا منصورا فدخل دمشق وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، فنزل بالقصر الأبلق الذى بناه غربى دمشق بين الميدانين الأخضرين ، وتواترت الأخبار إليه بأن أبغا جاء إلى المعركة ونظر إليها وتأسف على من قتل من المغول وأمر بقتل الرواناه وذكروا أنه قد عزم على قصد الشام ، فأمر السلطان بجمع الأمراء وضرب مشورة فاتفق مع الأمراء على ملاقاته حيث كان ، وتقدم بضرب الدهليز على القصر ، ثم جاء الخبر بأن أبغا قد رجع إلى بلاده فأمر برد الدهليز وأقام بالقصر الأبلق يجتمع عنده الأعيان والأمراء والدولة فى أسر حال ، وأنعم بال . وأما أبغا فانه أمر بقتل الرواناه ـ وكان نائبه على بلاد الروم ـ وكان اسمه معين الدين سليمان ابن على بن محمد بن حسن ، وإنما قتله لأنه اتهمه بممالأته للملك الظاهر ، وزعم أنه هو الذى حسّن له دخول بلاد الروم ، وكان الرواناه شجاعا حازما كريماً جوادا ، وله ميل إلى الملك الظاهر ، وكان قد جاوز الخمسين لما قتل .

ثم لما كان يوم السبت خامس عشر المحرم توفى الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك بن السلطان المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب ، عن أربع وستين سنة ، وكان رجلا جيدا سليم الصدر كريم الأخلاق ، لين الكلمة كثير التواضع ، يعانى ملابس العرب ومراكبهم ، وكان معظما فى الدولة شجاعا مقداماً ، وقد روى عن ابن الليثى وأجاز للبرزالى . قال البرزالى ويقال إنه سم ، وذكر غيره أن السلطان الملك الظاهر سمه فى كأس خمر ناوله إياه فشرب به وقام السلطان إلى المرتفق ثم عاد وأخذ الساقى الكأس من يد القاهر فملأه وناوله السلطان الظاهر والساقى لا يشعر بشىء مما جرى ، وأنسى الله السلطان ذلك الكأس ، أوظن أنه غيره لأمر يريده الله و يقضيه ، وكان قد بقى فى الكأس بقية كثيرة من ذلك السم ، فشرب الظاهر مافى الكأس ولم يشعر حتى شرب به فاشتكى بطنه من ساعته ، و وجد الوهج والحر والكرب الشديد من فوره ، وأما القاهر فانه حمل إلى منزله وهو مغلوب فمات من ليلته . وتمرض الظاهر من ذلك أياماً حتى كانت وفاته يوم الخميس بعد الظهر

فى السابع والعشرين من المحرم بالقصر الأبلق ، وكان ذلك يوماً عظيما عـلى الأمراء ، وحضر نائب السلطنة عز الدين أيدمر وكبار الأمراء والدولة ، فصلوا عليـه سرا وجعلوه فى تابوت ورفعوه إلى القلعة من السور وجعلوه فى بيت من بيوت البحرية إلى أن نقـل إلى تربته التى بناها ولده له بعـد موته ، وهى دار العقيقى تجاه العادلية الكبيرة ، ليلة الجمعة خامس رجب من هذه السنة ، وكتم موته فلم يعلم جمهور الناس به حتى إذا كان العشر الأخير من ربيع الأول ، وجاءت البيعة لولده السعيد من مصر فحزن الناس عليه حزنا شديدا ، وترحموا عليه ترحما كثيراً ، وجددت البيعة أيضا بدمشق وجاء تقليد النيابة بالشام مجدداً إلى عز الدين أيدمر نائبها .

وقد كان الملك الظاهر شهما شجاعاً عالى الهمة بعيد الغور مقداماً جسوراً معتنيا بأمر السلطنة ، يشفق على الاسلام ، متحليا بالملك ، له قصـد صالح فى نصرة الاسلام وأهله ، وإقامة شعار الملك ، واستمرت أيامه من يوم الأحد سابع عشر ذى القعـدة سنة ثمان وخمسين إلى هذا الحين ، ففتح فى هذه المدة فتوحات كثيرة قيسارية وأرسـوف ويافا والشقيف وإنطاكية وبعراض وطبرية والقصير وحصن الأكراد وحصن عـكا والقرين وصافينا وغير ذلك من الحصون المنيعـة التى كانت بأيدى الفرنج ، ولم يدع مع الاسماعيلية شيئا من الحصون ، وناصف الفرنج عـلى المرقب ، وبانياس وبلاد أنطرسوس ، وسائر ما بقى بأيديهم من البلاد والحصون ، وولى فى نصيبه مما ناصفهم عليـه النواب والعمال وفتح قيسارية من بلاد الروم ، وأوقع بالروم والمغول عـلى البلستين بأساً لم يسمع بمثـله من دهور متطاولة ، واستعاد من صاحب سيس بلادا كثيرة ، وجاس خلال ديارهم وحصونهم ، واسترد من أيدى المتغلبين من المسلمين بعلبك وبصرى وصرخد وحمص وعجلون والصلت وتدمر والرحبة وتل باشر وغيرها ، والكرك والشوبك ، وفتح بلاد النوبة بكمالها من بلاد السودان ، وانتزع بلادا من التتار كثيرة ، منها شـيرزور والبيرة ، واتسعت مملكته من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة ، وعمر شيئا كثيراً من الحصون والمعاقل والجسور على الأنهار الكبار ، وبنى دار الذهب بقلعة الجبل ، وبنى قبة على اثنى عشر عموداً ملونة مذهبة ، وصور فيها صور خاصكيته وأشكالهـم ، وحفر أنهاراً كثيرة وخلجانات ببلاد مصر ، منها نهر السرداس ، وبنى جوامع كثيرة ومساجد عديدة ، وجدد بناء مسجد رسول الله ﷺ حين احترق ، ووضع الدرابزينات حول الحجرة الشريفـة ، وعمـل فيـه منبراً وسقفه بالذهب ، وجـدد المارستان بالمدينة ، وجدد قبر الخليل عليه السـلام ، وزاد فى زاويتـه وما يصرف إلى المقيمين ، وبنى على المكان المنسوب إلى قبر موسى عليه السلام قبة قبلى أريحا ، وجدد بالقدس أشـياء حسنة من ذلك قبة السلسلة ، ورمم سقف الصخرة وغيرها ، وبنى بالقدس خانا هائلا بما ملأ ، ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين من مصر ، وعمل فيه طاحونا وفرنا

و بستانا ، وجعل للواردين إليه أشياء تصرف إليهم فى نفقة وإصلاح أمتعتهم رحمه الله . و بنى على قبر أبى عبيدة بالقرب من عمتنا مشهدا ، ووقف عليـه أشـياء للواردين إليه ، وعمر جسر دامية ، وجدد قبر جعفر الطيار بناحية الكرك ، ووقف على الزائرين له شـيئا كثيرا ، وجـدد قلعة صفت وجامعها ، وجدد جامع الرملة وغيرها فى كثير من البلاد التى كانت الفرنج قد أخذتها وخربت جوامعها ومساجدها ، و بنى بحلب داراً هائلة ، و بدمشق القصر الأبلق والمدرسة الظاهرية وغيرها ، وضرب الدراهم والدنانير الجيدة الخالصة على النصح والمعاملة الجيدة الجارية بين الناس ، فرحمه الله .

و له من الآثار الحسنة والأماكن مالم يبن فى زمن الخلفاء وملوك بنى أيوب ، مع اشتغاله فى الجهاد فى سبيل الله واستخدم من الجيوش شيئا كثيراً ، و رد إليه نحوا من ثلاثة آلاف من المغول فأقطعهم وأمّر كثيرا منهم ، وكان مقتصدا فى ملبسه ومطعمه وكذلك جيشه ، وهو الذى أنشأ الدولة العباسية بعد دثورها ، و بقى الناس بلا خليفة نحوا من ثلاث سنين ، وهو الذى أقام من كل مذهب قاضياً مستقلا قاضى قضاة . وكان رحمه الله متيقظا شهما شجاعا لايفتر عن الأعداء ليلا ولانهاراً ، بل هو مناجز لأعداء الاسلام وأهله ، ولم شعثه واجتماع شمـله . و بالجملة أقامه الله فى هذا الوقت المتأخر عونا ونصراً للاسـلام وأهله ، وشجا فى حلوق المارقين من الفرنج والتتار ، والمشركين . وأبطـل الخمور ونفى الفساق من البـلاد ، وكان لا يرى شيئا من الفساد والمفاسـد إلا سعى فى إزالته بجهده وطاقته . وقد ذكرنا فى سيرته ما أرشد إلى حسن طويته وسريرته ، وقد جمع له كاتبه ابن عبدالظاهر سيرة مطولة ، وكذلك ابن شـداد أيضا . وقد ترك من الأولاد عشرة ثلاثة ذكور وسـبعة إناث ومات وعمره ما بين الخمسين إلى الستين ، وله أوقاف وصلات وصدقات ، تقبل الله منه الحسنات ، وتجاوز له عن السيئات والله سبحانه أعلم .

وقام فى الملك بعـده ولده السعيد بمبايعة أبيه له فى حال حياته ، وكان عمر السعيد يومئذ دون العشرين سـنة ، وهو من أحسن الأشكال وأتم الرجال ، وفى صفر وصلت الهـدايا من الفنس مع رسله إلى الديار المصرية فوجدوا السلطان قد مات ، وقـد أقيم الملك السعيد ولده مكانه والدولة لم تتغير ، والمعرفة بعده ما تنكرت ، ولكن البلاد قد فقدت أسدها بل أسدّها وأشدها ، بل الذى بلغ أشدها ، و إذا انفتحت ثغرة من سور الاسلام سدها ، وكلما انحلت عقدة من عرى العزائم شدها ، وكلما رامت فرقة مارقة من طوائف الطغام أن تاج إلى حومة الاسلام صـدها و ردها ، فسامحه الله ، و بل بالرحمة ثراه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه .

وكانت العساكر الشامية قد سارت إلى الديار المصرية ومعهـم محفة يظهرون أن السلطان بها مريض ، حتى وصلوا إلى القاهرة فجددوا البيعة للسعيد بعد ما أظهروا موت الملك السديد الذى هو

إن شاء الله شهيد . وفى يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر خطب فى جميع الجوامع بالديار المصرية للملك السعيد ، وصلى على والده الملك الظاهر واستهلت عيناه بالدموع . وفى منتصف ربيع الأول ركب الملك السعيد بالعصائب على عادته وبين يديه الجيش بكماله المصرى والشامى ، حتى وصل إلى الجبل الأحمر وفرح الناس به فرحاً شديداً ، وعمره يومئذ تسع عشرة سنة ، وعليه أبهة الملك ورياسة السلطنة . وفى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى فتحت مدرسة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى بالقاهرة ، بحارة الوزيرية على مذهب أبى حنيفة . وعمل فيها مشيخة حديث وقارئ . وبعده بيوم عقد عقد ابن الخليفة المستمسك بالله ابن الحاكم بأمر الله ، على ابنة الخليفة المستنصر ابن الظاهر ، وحضر والده والسلطان ووجوه الناس . وفى يوم السبت تاسع جمادى الأولى شرع فى بناء الدار التى تعرف بدار العقيقى ، تجاه العادلية ، لتجعل مدرسة وتربة للملك الظاهر ، ولم تكن قبل ذلك إلا داراً للعقيقى ، وهى المجاورة لحمام العقيقى ، وأسس أساس التربة فى خامس جمادى الآخرة وأسست المدرسة أيضاً .

وفى رمضان طامت سحابة عظيمة بمدينة صفت لم منها برق شديد ، وسطع منها لسان نار ، وسمع منها صوت شديد هائل ، ووقع منها على منارة صفت صاعقة شقتها من أعلاها إلى أسفلها شقا يدخل الكف فيه

وممن توفى فيها من الأعيان البرواناه فى العشر الأول من المحرم . والملك الظاهر فى العشر الأخير منه ، وقد تقدم شىء من ترجمتهما .

﴿ والأمير الكبير بدر الدين بيليك بن عبد الله ﴾

الخزندار نائب الديار المصرية للملك الظاهر ، كان جوادا ممدحاً له إلمام ومعرفة بأيام الناس ، والتواريخ ، وقد وقف درساً بالجامع الأزهر على الشافعية ، ويقال إنه سم فمات ، فلما مات انتقض بعده حبل الملك السعيد ، واضطربت أموره .

﴿ وقاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ﴾

محمد ابن الشيخ العماد أبى إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى ، أول من ولى قضاء قضاة الحنابلة بالديار المصرية ، سمع الحديث خصوصا على ابن طبرزد وغيره ، ورحل إلى بغداد واشتغل بالفقه ، وتفنن فى علوم كثيرة ، وولى مشيخة سعيد السعداء ، وكان شيخا مهيبا حسن الشيبة كثير التواضع والبر والصدقة ، وقد اشترط فى قبول الولاية أن لا يكون له عليها جامكية ليقوم فى الناس بالحق فى حكمه ، وقد عزله الظاهر عن القضاء سنة سبعين واعتقله بسبب الودائع التى كانت عنده ، ثم أطلقه بعد سنتين فلزم منزله واستقر بتدريس الصالحية إلى أن توفى فى أواخر المحرم ، ودفن عند عم الحافظ عبد الغنى بسفح جبل المقطم ، وقد أجاز للبرزالى .

قال الحافظ البرزالى : وفى يوم السبت ثانى عشر ربيع الأول ورد الخبر بموت ستة أمراء من الديار المصرية : سنقر البغدادى ، و بسطا البلدى التترى ، و بدر الدين الوزيرى ، وسنقر الرومى ، وآق سنقر الفارقانى رحمهم الله .

[﴿ الشيخ خضر الكردى شيخ الملك الظاهر ﴾

خضر بن أبى بكر بن موسى الكردى النهروانى العدوى ، و يقال إن أصله من قرية المحمدية من جزيرة ابن عمر ، كان ينسب إليه أحوال ومكاشفات ، ولكنه لما خالط الناس افتتن ببعض بنات الأمراء ، وكان يقول عن الملك الظاهر وهو أمير إنه سيلى الملك ، فلهذا كان الملك الظاهر يعتقده و يبالغ فى إكرامه بعد أن ولى المملكة ، و يعظمه تعظيما زائدا ، و ينزل عنده إلى زاويته فى الأسبوع مرة أو مرتين ، و يستصحبه معه فى كثير من أسفاره ، و يلزمه و يحترمه و يستشيره فيشير عليه برأيه ومكاشفات صحيحة مطابقة ، إما رحمانية أو شيطانية ، أو حال أو سعادة ، لكنه افتتن لما خالط الناس ببعض بنات الأمراء ، وكن لا يحتجبن منه ، فوقع فى الفتنة . وهذا فى الغالب واقع فى مخالطة الناس فلا يسلم المخالط لهم من الفتنة ، ولا سيما مخالطة النساء مع ترك الأصحاب ، فلا يسلم العبد ألبتة منهن . فلما وقع ما وقع فيه حوقق عند السلطان وتيسرى وقلاوون والفارس إقطاى الأتابك ، فاعترف ، فهم بقتله فقال له : إنما بينى و بينك أيام قلائل ، فأمر بسجنه فسجن سنين عديدة من سنة إحدى وسبعين إلى سنة ست وسبعين ، وقد هدم بالقدس كنيسة وذبح قسيسها وعملها زاوية وقد قدمنا ترجمته قبل ذلك فيما تقدم ، ثم لم يزل مسجونا حتى مات فى يوم الخميس سادس المحرم من هذه السنة ، فأخرج من القلعة وسلم إلى قرابته فدفن فى تربة أنشأها فى زاويته . مات وهو فى عشر الستين ، وقد كان يكاشف السلطان فى أشياء ، و إليه تنسب قبة الشيخ خضر التى على الجبل غربى الربوة ، وله زاوية بالقدس الشريف] (١)

﴿ الشيخ محيى الدين النووى ﴾

يحيى بن شرف بن حسن بن حسين بن جمعة بن حزام الحازمى العالم ، محيى الدين أبو زكريا النووى ثم الدمشقى الشافعى العلامة شيخ المذهب ، وكبير الفقهاء فى زمانه ، ولد بنوى سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، ونوى قرية من قرى حوران ، وقد قدم دمشق سنة تسع وأربعين ، وقد حفظ القرآن فشرع فى قراءة التنبيه ، فيقال إنه قرأه فى أربعة أشهر ونصف ، وقرأ ربع العبادات من المذهب فى بقية السنة ، ثم لزم المشايخ تصحيحا وشرحا ، فكان يقرأ فى كل يوم اثنا عشر درسا على المشايخ ، ثم اعتنى بالتصنيف فجمع شيئا كثيرا ، منها ما أكمله ومنها مالم يكمله ، فمما كمل شرح مسلم والروضة والمنهاج

(١) سقط من النسخة المصرية وقد تقدمت هذه الترجمة فى حوادث سنة ٦٧٢ .

والرياض والأذكار والتبيان ، وتحرير التنبيه وتصحيحه ، وتهذيب الأسماء واللغات ، وطبقات الفقهاء وغير ذلك . ومما لم يتممه ولوكمل لم يكن له نظير فى بابه : شرح المهذب الذى سماه المجموع ، وصل فيه إلى كتاب الربا ، فأبدع فيه وأجاد وأفاد ، وأحسن الانتقاد ، وحرر الفقه فيه فى المذهب وغيره ، وحرر الحديث على ما ينبغى ، والغريب واللغة وأشياء مهمة لا توجد إلا فيه ، وقد جعله نخبة على ما عن له ولا أعرف فى كتب الفقه أحسن منه ، على أنه محتاج إلى أشياء كثيرة تزاد فيه وتضاف إليه ، وقد كان من الزهادة والعبادة والورع والتحرى والانجماح عن الناس على جانب كبير ، لا يقدر عليه أحد من الفقهاء غيره ، وكان يصوم الدهر ولايجمع بين إدامين ، وكان غالب قوته مما يحمله إليه أبوه من نوى ، وقد باشر تدريس الاقبالية نيابة عن ابن خلكان ، وكذلك ناب فى الفلكية والركنية ، وولى مشيخة دار الحديث الأشرفية ، وكان لايضيع شيئامن أوقاته ، وحج فى مدة إقامته بدمشق ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم . توفى فى ليلة أربع وعشرين من رجب من هذه السنة بنوى ، ودفن هناك رحمه الله وعفا عنا وعنه .

﴿ على بن على بن أسفنديار ﴾

نجم الدين الواعظ بجامع دمشق أيام السبوت فى الأشهر الثلاثة ، وكان شيخ الخانقاه المجاهدية وبها توفى فى هذه السنة ، وكان فاضلا بارعا ، وكان جده يكتب الانشاء للخليفة الناصر ، وأصلهم من بوشنج . ومن شعر نجم الدين هذا قوله :

إذا زار بالجثمان غيرى فاننى * أزورمع الساعات ربعك بالقلب
وما كل ناء عن ديار بنازح * ولا كل دان فى الحقيقة ذو قرب

﴿ ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستمائة ﴾

كان أولها يوم الأربعاء وكان الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى ، وسلطان البلاد شاما ومصرا وحلبا الملك السعيد . وفى أوائل المحرم اشتهر بدمشق ولاية ابن خلكان قضاء دمشق عودا على بدء فى أواخر ذى الحجة ، بعد عزل سبع سنين ، فامتنع القاضى عز الدين بن الصائغ من الحكم فى سادس المحرم وخرج الناس لتلقى ابن خلكان ، فمنهم من وصل إلى الرملة وكان دخوله فى يوم الخميس الثالث والعشرين من المحرم ، نخرج نائب السلطنة عز الدين أيدمر بجميع الأمراء والمواكب لتلقيه ، وفرح الناس بذلك ، ومدحه الشعراء ، وأنشد الفقيه شمس الدين محمد بن جعفر :

لما تولى قضاء الشام حاكمه * قاضى القضاة أبو العباس ذو الكرم
من بعد سبع شداد قال خادمه * ذا العام فيه يغاث الناس بالنعم

وقال سعد الله بن مروان الفارقى :

أذقت الشام سبع سنين جدبا * غداة هجرته هجرا جميلا
فلما زرته من أرض مصر * مددت عليه من كفيك نيلا

وقال آخر :

رأيت أهل الشام طرا * ما فيهم قط غير راض
نالهم الخير بعد شر * فالوقت بسط بلا انقباض
وعوضوا فرحة بحزن * قد أنصف الدهر فى التقاضى
وسرهم بعد طول غم * بدور قاض وعزل قاضى
وكلهم شاكر وشاك * بحال مستقبل وماض

قال اليونينى : وفى يوم الأربعاء ثالث عشر صفر ذكر الدرس بالظاهرية وحضر نائب السلطنة أيدمر الظاهرى وكان درسا حافلا حضره القضاة ، وكان مدرس الشافعية الشيخ رشيد الدين محمود ابن الفارقى ، ومدرس الحنفية الشيخ صدر الدين سليمان الحنفى ، ولم يكن بناء المدرسة كمل . وفى جمادى الاولى باشر قضاء الحنفية صدر الدين سليمان المذكور عوضا عن مجد الدين ابن العديم ، بحكم وفاته ، ثم توفى صدر الدين سليمان المذكور فى رمضان وتولى بعده القضاء حسام الدين أبو الفضائل الحسن بن أنوشروان الرازى الحنفى ، الذى كان قاضياً بملطية قبل ذلك . وفى العشر الأول من ذى القعدة فتحت المدرسة النجيبية وحضر تدريسها ابن خلكان بنفسه ، ثم نزل عنها لولده كمال الدين موسى ، وفتحت الخانقاه النجيبية ، وقد كانتا وأوقافهما تحت الحيطة إلى الآن .

وفى يوم الثلاثاء خامس ذى الحجة دخل السلطان السعيد إلى دمشق وقد زينت له وعملت له قباب ظاهرة وخرج أهل البلد لتلقيه وفرحوا به فرحا عظيما لمحبتهم والده ، وصلى عيد النحر بالميدان ، وعمل العيد بالقلعة المنصورة ، واستوزر بدمشق الصاحب فتح الدين عبدالله بن القيسرانى ، و بالديار المصرية بعد موت بهاء الدين بن الحنا الصاحب برهان الدين بن الخضر بن الحسن السنجارى ، وفى العشر الأخير من ذى الحجة جهز السلطان العساكر إلى بلاد سيس صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى ، وأقام السلطان بدمشق فى طائفة يسيرة من الأمراء والخاصكية والخواص ، وجعل يكثر التردد إلى الزنبقية وفى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ذى الحجة جلس السلطان بدار العدل داخل باب النصر ، وأسقط ما كان حدده والده على بساتين أهل دمشق ، فتضاعفت له منهم الأدعية وأحبوه لذلك حبا شديداً ، فانه كان قد أجحف بكثير من أصحاب الأملاك ، وود كثير منهم لو تخلص من ملكه جملة بسبب ما عليه . وفيها طلب من أهل دمشق خمسين ألف دينار ضربت أجرة على أملاكهم مدة شهرين ، وجبيت منهم على القهر والعسف .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ آقوش بن عبد الله الأمير الكبير جمال الدين النجيبى ﴾

أبو سعيد الصالحى ، أعتقه الملك نجم الدين أيوب الكامل ، وجعله من أكابر الأمراء ، وولاه أستاذ داريته ، وكان يثق إليه ويعتمد عليه ، وكان مولده فى سنة تسع أوعشر وستمائة ، وولاه الملك الظاهر أيضاً أستاذ داريته ، ثم استنابه بالشام تسع سنين ، فاتخذ فيها المدرسة النجيبية ووقف عليها أوقافاً دارة واسعة ، لكن لم يقرر للمستحقين قدراً يناسب ماوقفه عليهم ، ثم عزله السلطان واستدعاه لمصر فأقام بها مدة بطالا ، ثم مرض بالفالج أربع سنين ، وقد عاده فى بعضها الملك الظاهر ولم يزل به حتى كانت وفاته ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الآخر بالقاهرة بداره بدرب الملوخية ، ودفن يوم الجمعة قبل الصلاة بتربته التى أنشأها بالقرافة الصغرى ، وقد كان بنى لنفسه تربة بالنجيبية ، وفتح لها شباكين إلى الطريق ، فلم يقدر دفنه بها . وكان كثير الصدقة محبا للعلماء محسنا إليهم ، حسن الاعتقاد . شافعى المذهب ، متغاليا فى السنة ومحبة الصحابة وبغض الروافض ، ومن جملة أوقافه الحسان البستان والاراضى التى أوقفها على الجسورة التى قبلى جامع كريم الدين اليوم ، وعلى ذلك أوقاف كثيرة ، وجعل النظر فى أوقافه لابن خلكان .

﴿ أيدكين بن عبد الله ﴾

الامير الكبير علاء الدين الشهابى ، واقف الخانقاه الشهابية ، داخل باب الفرج . كان من كبار الأمراء بدمشق ، وقد ولاه الظاهر بحلب مدة ، وكان من خيار الأمراء وشجعانهم ، وله حسن ظن بالفقراء والاحسان إليهم ، ودفن بتربة الشيخ عمار الرومى بسفح قاسيون ، فى خامس عشر ربيع الأول ، وهو فى عشر الخمسين ، وخانقاه داخل باب الفرج ، وكان لها شباك إلى الطريق . والشهابى نسبة إلى الطواشى شهاب الدين رشيد الكبير الصالحى .

﴿ قاضى القضاة صدر الدين سليمان بن أبى العز ﴾

ابن وهيب أبو الربيع الحنفى شيخ الحنفية فى زمانه ، وعالمهم شرقا وغربا ، أقام بدمشق مدة يفتى ويدرس ، ثم انتقل إلى الديار المصرية يدرس بالصالحية ، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالظاهرية ، وولى القضاء بعد مجد الدين بن العديم ثلاثة أشهر ، ثم كانت وفاته ليلة الجمعة سادس شعبان ، ودفن فى الغد بعد الصلاة بداره بسفح قاسيون ، وله ثلاث وثمانون سنة ، ومن لطيف شعره فى مملوك تزوج جارية للملك المعظم .

ياصاحبى قفالى وانظرا عجبا * أتى به الدهر فينا من عجائبه
البدرأصبح فوق الشمس منزلة * وما العلو عليها من مراتبه

أضحى يماثلها حسنا وشاركها * كفوا وسار إليها فى مواكبه
فأشكل الفرق لولا وشى نمنمة * بصدغه واخضرار فوق شاربه

﴿ طه بن إبراهيم بن أبى بكر كمال الدين الهمدانى ﴾

الأربلى الشافعى ، كان أديبا فاضلا شاعراً ، له قدرة فى تصنيف دوبيت ، وقد أقام بالقاهرة حتى توفى فى جمادى الأولى من هذه السنة ، وقد اجتمع مرة بالملك الصالح أيوب ، فجعل يتكلم فى علم النجوم فأنشده على البديهة هذين البيتين :

دع النجوم لطرقى يعيش بها * وبالعزيمة فانهض أيها الملك
إن النبى وأصحاب النبى نهوا * عن النجوم وقد أبصرت ماملكوا

وكتب إلى صاحب له اسمه شمس الدين يستزيره بعد رمد أصابه فبرأ منه :

يقول لى الكحال عينك قد هدت * فلا تشغلن قلبا وطب بها نفسا
ولى مدة يا شمس لم أركم بها * وآية برء العين أن تبصر الشمسا

﴿ عبد الرحمن بن عبد الله ﴾

ابن محمد بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن عفان جمال الدين ابن الشيخ نجم الدين البادرائى البغدادى ثم الدمشقى ، درس بمدرسة أبيه من بعده حتى حين وفاته يوم الأربعاء سادس رجب ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان رئيسا حسن الأخلاق جاوز خمسين سنة .

﴿ قاضى القضاة مجد الدين عبد الرحمن بن جمال الدين ﴾

عمر بن أحمد بن العديم ، الحلبى ، ثم الدمشقى الحنفى ، ولى قضاء الحنفية بعد ابن عطاء بدمشق ، وكان رئيسا ابن رئيس ، له إحسان وكرم أخلاق ، وقد ولى الخطابة بجامع القاهرة الكبير ، وهو أول حنفى وليه ، توفى بجوسقه بدمشق فى ربيع الآخر من هذه السنة ، ودفن بالتربة التى أنشأها عند زاوية الحريرى على الشرف القبلى غربى الزيتون

﴿ الوزير ابن الحنا ﴾

على بن محمد بن سليم بن عبد الله الصاحب بهاء الدين أبو الحسن بن الحنا الوزير المصرى ، وزير الملك الظاهر وولده السعيد إلى أن توفى فى سلخ ذى القعدة ، وهو جد جد ، وكان ذا رأى وعزم وتدبير ذا تمكن فى الدولة الظاهرية ، لا تمضى الأمور إلا عن رأيه وأمره ، وله مكارم على الامراء وغيرهم ، وقد امتدحه الشعراء ، وكان ابنه تاج الدين وزير الصحبة ، وقد صودر فى الدولة السعيدية .

﴿ الشيخ محمد ابن الظهير اللغوى ﴾

محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبى شاكر مجد الدين أبو عبد الله الاربلى الحنفى المعروف بابن

الظهير ، ولد باربل سنة ثنتين وستمائة ، ثم أقام بدمشق ودرس بالقايمازية وأقام بها حتى توفى بها ليلة الجمعة ثانى عشر ربيع الآخر ، ودفن بمقابر الصوفية ، وكان بارعا فى النحو واللغة ، وكانت له يد طولى فى النظم وله ديوان مشهور ، وشعر رائق ، فمن شعره قوله :

كل حى إلى الممات مآبه * ومدى عمره سريع ذهابه
يخرب الدار وهى دار بقاء * ثم يبنى ما عما قريب خرابه
عجبا وهو فى التراب غريق * كيف يلهيه طيبه وعلابه ؟
كل يوم يزيد نقصاً وإن عمـ * ـر حلت أوصاله أوصابه
والورى فى مراحل الدهر ركب * دائم السير لا يرجى إيابه
فتزود إن التقى خير زاد * ونصيب اللبيب منه لبابه
وأخو العقل من يقضى بصدق * شيبته فى صلاحه وشبابه
وأخو الجهل يستلذ هوى النفـ * ـس فيغدو شهدا لديه مصابه

وهى طويلة جداً قريبة من مائة وخمسين بيتاً ، وقد أورد الشيخ قطب الدين شيئاً كثيراً من شعره الحسن الفائق الرائق .

﴿ ابن إسرائيل الحريرى ﴾

محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل بن الحسن بن على بن محمد بن الحسين نجم الدين أبو المعالى الشيبانى الدمشقى ، ولد فى يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة ، وصحب الشيخ على بن أبى الحسن بن منصور اليسرى الحريرى ، فى سنة ثمان عشرة ، وكان قد لبس الخرقة قبله من الشيخ شهاب الدين السهروردى ، وزعم أنه أجلسه فى ثلاث خلوات ، وكان ابن إسرائيل يزعم أن أهله قدموا الشام مع خالد بن الوليد فاستوطنوا دمشق ، وكان أديباً فاضلا فى صناعة الشعر ، بارعاً فى النظم ، ولكن فى كلامه ونظمه مايشير به إلى نوع الحلول والاتحاد على طريقة ابن عربى وابن الفارض وشيخه الحريرى ، والله أعلم بحاله وحقيقة أمره . توفى بدمشق ليلة الأحد الرابع عشر من ربيع الآخر هذه السنة ، عن أربع وسبعين سنة ، ودفن بتربة الشيخ رسلان معه داخل القبة ، وكان الشيخ رسلان شيخ الشيخ على المغربل الذى تخرج على يديه الشيخ على الحريرى شيخ ابن إسرائيل ، فمن شعره قوله :

لقد عادنى من لاعج الشوق عائد * فهل عهد ذات الخال بالسفح عائد ؟
وهل نارها بالأجرع الفرد تعتلى * لمنفرد شاب الدجى وهو شاهد ؟
نديمى من سعدى أديرا حديثها * فذكرى هواها والمدامة واحد
منعمة الأطراف رقت محاسنا * حلى لى فى حبها ما أكابد

فللبدر ما لاثت عليه خمارها * وللشمس ما جالت عليه القلائد

وله : أيها المعتاض بالنوم السهر * ذاهلا يسبح فى بحر الفكر
سلم الأمر إلى مالكه * واصطبر فالصبر عقباه الظفر
لا تكونن آيسا من فرج * إنما الأيام تأتى بالعبر
كدر يحدث فى وقت الصفا * وصفى يحدث فى وقت الكدر
وإذا ما ساء دهر مرة * سر أهليه ومهما ساء سر
فارض عن ربك فى أقداره * إنما أنت أسير للقدر

وله قصيدة فى مدح النبى ﷺ طويلة حسنة سمعها الشيخ كمال الدين ابن الزملكانى وأصحابه على الشيخ أحمد الاعفف عنه ، وأورد له الشيخ قطب الدين اليونينى أشعاراً كثيرة . فمنها قصيدته الدالية المطولة التى أولها :

وافى لى من أهواه جهراً لموعدى * وأرغم عذالى عليه وحسدى
وزار على شط المزار مطولا * على مغرم بالوصل لم يتعود
فيا حسن ما أهدى لعينى جماله * ويا بردما أهدى إلى قلبى الصدى
ويا صدق أحلامى ببشرى وصاله * ويانيل آمالى ويا نجح مقصدى
تجلى وجودى إذ تجلى لباطنى * بجد سعيد أو بسعد مجدد
لقد حق لى عشق الوجود وأهله * وقد علقت كفاى جمعا بموجدى

ثم تغزل فأطال إلى أن قال :

فلما تجلى لى على كل شاهد * وسامرنى بالرمز فى كل مشهد
تجنبت تقييد الجمال ترفعا * وطالعت أسرار الجمال المبدد
وصار سماعى مطلقا منه بدؤه * وحاشى لمثلى من سماع مقيد
ففى كل مشهود لقلبى شاهد * وفى كل مسموع له لحن معبد

ثم قال : وصل فى مشاهد الجمال

أراه بأوصاف الجمال جميعها * بغير اعتقاد للحلول المبعد
ففى كل هيفاء المعاطف غادة * وفى كل مصقول السوالف أغيد
وفى كل بدر لاح فى ليل شعره * على كل غصن مائس العطف أملد
وعند اعتناقى كل قد مهفهف * ورشفى رضابا كالرحيق المبرد
وفى الدر والياقوت والطيب والحلا * على كل ساجى الطرف لدن المقلد

وفى حلل الأثواب راقت لناظرى * بزبرجها من مذهب ومورد
وفى الراح والريحان والسمع والغنا * وفى سجع ترجيع الحمام المغرد
وفى الدوح والأنهار والزهر والندى * وفى كل بستان وقصر مشيد
وفى الروضة الفيحاء تحت سمائها * يضاحك نور الشمس نوارها الندى
وفى صفو رقراق الغدير إذا حكى * وقد جعدته الريح صفحة مبرد
وفى اللهو والأفراح والغفلة التى * تمكن أهل الفرق من كل مقصد
وعند انتشار الشرب فى كل مجلس * بهيج بأنواع الثمار المنضد
وعند اجتماع الناس فى كل جمعة * وعيد وإظهار الرياش المجدد
وفى لمعان المشرفيات بالوغى * وفى ميل أعطاف القنا المتأود

المظاهر العلوية

وفى الاعوجيات العتاق إذا انبرت * تسابق وفد الريح فى كل مطرد
وفى الشمس تحكى وهى فى برج نورها * لدى الافق الشرقى مرآة عسجد
وفى البدر بدر الأفق ليلة تمه * جلته سماء مثل صرح ممرد
وفى أنجم زانت دجاها كأنها * نثار لآل فى بساط زبرجد
وفى الغيث روى الأرض بعد همودها * قبال نداه متهم بعد منجد
وفى البرق يبدو موهنا فى سحابه * كباسم ثغر أو حسام مجرد
وفى حسن تنميق الخطاب وسرعة الجـ * واب وفى الخط الأنيق المجود

ثم قال : المظاهر المعنوية

وفى رقة الاشعار راقت لسامع * بدائعها من مقصر ومقصد
وفى عود عيد الوصل من بعد جفوة * وفى أمن أحشاء الطريد المشرد
وفى رحمة المعشوق شكوى محبه * وفى رقة الألفاظ عند التودد
وفى أريحيات الكريم إلى الندى * وفى عاطفات العفو من كل سيد
وحالة بسط العارفين وأنسهم * وتحريكهم عند السماع المقيد
وفى لطف آيات الكتاب التى بها * تنسم روح الوعد بعد التوعد

ثم قال : المظاهر الجلالية

كذلك أوصاف الجلال مظاهر * أشاهده فيها بغير تردد
ففى سطوة القاضى الجليل وسمته * وفى سطوة الملك الشديد الممرد

وفى حدة الغضبان حالة طيشه * وفى نخوة القرم المهيب المسود
وفى صولة الصهباء جاز مديرها * وفى بؤس أخلاق النديم المعربد
وفى الحر والبرد اللذين تقسما الـ زمان وفى إيلام كل محسد
وفى سر تسليط النفوس بشرها * على وتحسين التعدى لمعتدى
وفى عسر العادات يشعر بالقضا * وتكحيل عين الشمس منه بأثمد
وعند اصطدام الخيل فى كل موقف * يعثر فيه بالوشيج المنضد
وفى شدة الليث الصؤول وبأسه * وشدة عيش بالسقام منكد
وفى جفوة المحبوب بعد وصاله * وفى غدره من بعد وعد مؤكد
وفى روعة البين المسيء وموقف الـ * وداع لحران الجوانح مكمد
وفى فرقة الألاف بعد اجتماعهم * وفى كل تشتيت وشمل مبدد
وفى كل دار أقفرت بعد أنسها * وفى طلل بال ودارس معهد
وفى هول أمواج البحار ووحشة الـ * قفار وسيل بالمزاييب مزبد
وعند قيامى بالفرائض كلها * وحالة تسليم لسر التعبد
وعند خشوعى فى الصلاة لعزة الـ * مناجى وفى الاطراق عند التهجد
وحالة إهلال الحجيج بحجهم * وأعمالهم للعيش فى كل فدفد
وفى عسر تخليص الحلال وفترة الـ * ملال لقلب الناسك المتعبد

المظاهر الكمالية

وفى ذكريات العذاب وظلمة الـ * حجاب وقبض الناسك المتزهد
ويبدو بأوصاف الكمال فلا أرى * برؤيته شيئا قبيحا ولا ردى
فكل مسيء لى إلى كمحسن * وكل مضل لى إلى كمرشد
فلا فرق عندى بين أنس ووحشة * ونور وإظلام ومدن ومبعد
وسيان إفطارى وصومى وفترتى * وجهدى ونومى وادعاء تهجدى
أرى تارة فى حانة الخمر خالعا * عذارى وطوراً فى حنية مسجد
تجلى لسرى بالحقيقة مشرب * فوقتى ممزوج بكشف مسرمد
تعمرت الاوطان بى وتحققت * مظاهرها عندى بعينى ومشهدى
وقلبى على الاشياء أجمع قلب * وشربى مقسوم على كل مورد
فهيكل أوثان ودير لراهب * وبيت لنيران وقبلة معبدى

ومسرح غزلان وحانة قهوة * وروضة أزهار ومطلع أسعد
وأسرار عرفان ومفتاح حكمة * وأنفاس وجدان وفيض تبلد
وجيش لضرغام وخدر لكاعب * وظلمة جيران ونور لمهتدى
تقابلت الاضداد عندى جميعها * لمحنة مجهود ومنحة مجتدى
وأحكمت تقرير المراتب صورة * ومعنى ومن عين التفرد موردى
فما موطن إلا ولى فيه موقف * على قدم قامت بحق التفرد
فلا غرو إن فت الانام جميعهم * وقد علقت بحبل من حبال محمد
عليه صلاة الله تشفع دائما * بروح تحيات السلام المردد

﴿ ابن العود الرافضى ﴾

أبو القاسم الحسين بن العود نجيب الدين الأسدى الحلى ، شيخ الشيعة وإمامهم وعالمهم فى أنفسهم ، كانت له فضيلة ومشاركة فى علوم كثيرة ، وكان حسن المحاضرة والمعاشرة ، لطيف النادرة ، وكان كثير التعبد بالليل ، وله شعر جيد . ولد سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، وتوفى فى رمضان من هذه السنة عن ست وتسعين سنة ، والله أعلم بأحوال عباده وسرائرهم ونياتهم .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وستمائة ﴾

كان أولها يوم الأحد والخليفة والسلطان هما المذكوران فى التى قبلها ، وقد اتفق فى هذه السنة أمور عجيبة ، وذلك أنه وقع الخلف بين الممالك كلها ، اختلفت التتار فيما بينهم واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير ، واختلفت الفرنج فى السواحل وصال بعضهم على بعض وقتل بعضهم بعضا ، وكذلك الفرنج الذين فى داخل البحور وجزائرها ، فاختلفو واقتتلوا ، وقتلت قبائل الأعراب بعضها فى بعض قتالا شديداً ، وكذلك وقع الخلف بين العشير من الحوارنة وقامت الحرب بينهم على ساق ، وكذلك وقع الخلف بين الأمراء الظاهرية بسبب أن السلطان الملك السعيد بن الظاهر لما بعث الجيش إلى سيس أقام بعده بدمشق وأخذ فى اللهو واللعب والانبساط مع الخاصكية ، وتمكنوا من الأمور وبعد عنه الامراء الكبار ، فغضبت طائفة منهم ونابذوه وفارقوه وأقاموا بطريق العساكر الذين توجهوا إلى سيس وغيرهم ، فرجعت العساكر إليهم فلما اجتمعوا شعثوا قلوبهم على الملك السعيد ، ووحشوا خواطر الجيش عليه ، وقالوا الملك لا ينبغى له أن يلعب ويلهو ، وإنما همة الملوك فى العدل ومصالح المسلمين والذب عن حوزتهم ، كما كان أبوه . وصدقوا فيما قالوا ، فان لعب الملوك والأمراء وغيرهم دليل على زوال النعم وخراب الملك ، وفساد الرعية . ثم راسله الجيش فى إبعاد الخاصكية عنه ودنو ذوى الاحلام والنهى إليه كما كان أبوه ، فلم يفعل ، وذلك أنه كان لا يمكنه ذلك لقوة شوكة الخاصكية

وكثرتهم ، فركب الجيش وساروا قاصدين مرج الصفر ، ولم يمكنهم العبور على دمشق بل أخذوا من شرقها ، فلما اجتمعوا كلهم بمرج الصفر أرسل السلطان أمه إليهم فتلقوها وقبلوا الأرض بين يديها ، فأخذت تتألفهم وتصلح الأمور ، فأجابوها واشترطوا شروطاً على ولدها السلطان ، فلمارجعت إليه لم يلتزم بها ولم تمكنه الخاصكية من ذلك ، فسارت العساكر إلى الديار المصرية ، فساق السلطان خلفهم ليتلافى الأمور قبل تفاقمها وانفراطها ، فلم يلحقهم وسبقوه إلى القاهرة ، وقد كان أرسل أولاده وأهله وثقله إلى الكرك فحصنهم فيها ، وركب فى طائفة من الجيش الذين بقوا معه والخاصكية إلى الديار المصرية ، فلما اقترب منها صدوه عنها وقاتلوه فقتل من الفريقين نفر يسير ، فأخذه بعض الأمراء فشق به الصفوف وأدخله قلعة الجبل ليسكن الأمر ، فما زادهم ذلك إلا نفوراً ، فحاصروا حينئذ القلعة وقطعوا عنها الماء ، وجرت خطوب طويلة وأحوال صعبة . ثم اتفق الحال بعد ذلك مع الأمير سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى ـ وهو المشار إليه حينئذ ـ أن يترك الملك السعيد الملك و يتعوض بالكرك والشوبك ، ويكون فى صحبته أخوه نجم الدين خضر ، وتكون المملكة إلى أخيه الصغير بدر الدين سلامش ، ويكون الأمير سيف الدين قلاوون أتابكه .

﴿ ذكر خلع الملك السعيد وتولية أخيه الملك العادل سلامش ﴾

لما اتفق الحال على ما ذكرنا نزل السلطان الملك السعيد من القلعة إلى دار العدل فى سابع عشر الشهر ، وهو ربيع الآخر ، وحضر القضاة والدولة من أولى الحل والعقد ، فخلع السعيد نفسه من السلطنة وأشهدهم على نفسه بذلك ، وبايعوا أخاه بدر الدين سلامش ولقب بالملك العادل ، وعمره يومئذ سبع سنين ، وجعلوا أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى ، وخطب له الخطباء و رسمت السكة باسمهما ، وجعل لأخيه الكرك ولأخيه خضر الشوبك ، وكتبت بذلك مكاتيب ، ووضع القضاة والمفتيون خطوطهم بذلك ، وجاءت البريدية إلى الشام بالتحليف لهم على ما حلف عليه المصريون . ومسك الامير أيدمر نائب الشام الظاهرى واعتقل بالقلعة عند نائبها ، وكان نائبها إذ ذاك علم الدين سنجر الدوادارى ، وأحيط على أموال نائب الشام وحواصله ، وجاء على نيابة الشام الأمير شمس الدين سنقر الأشقر فى أبهة عظيمة ، وتحكم مكين ، فنزل بدار السعادة وعظمه الناس وعاملوه معاملة الملوك ، وعزل السلطان قضاة مصر الثلاثة الشافعى والحنفى والمالكى ، وولوا القضاء صدر الدين عمر بن القاضى تاج الدين بن بنت الاعز عوضا عن الشافعى ، وهو تقى الدين بن رزين وكأنهم إنما عزلوه لانه توقف فى خلع الملك السعيد والله أعلم .

﴿ ذكر بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحى ﴾

لما كان يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من رجب اجتمع الأمراء بقلعة الجبل من مصر وخلعوا

الملك العادل سلامش ابن الظاهر ، وأخرجوه من البين ، و إنما كانوا قد بايعوه صورة ليسكن الشرعند خلع الملك السعيد ، ثم اتفقوا على بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحى ، ولقبوه الملك المنصور ، وجاءت البيعة إلى دمشق فوافق الأمراء وحلفوا ، وذكر أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر لم يحلف مع الناس ولم يرض بما وقع ، وكأنه داخله حسد من المنصور ، لأنه كان يرى أنه أعظم منه عند الظاهر . وخطب للمنصور على المنابر فى الديار المصرية والشامية ، وضربت السكة باسمه ، وجرت الأمور بمقتضى رأيه فعزل وولى ونفذت مراسيمه فى سائر البلاد بذلك ، فعزل عن الوزارة برهان الدين السنجارى وولى مكانه فخر الدين ابن لقمان كاتب السر ، وصاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية .

وفى يوم الخميس الحادى عشر من ذى القعدة من هذه السنة توفى الملك السعيد ابن الملك الظاهر بالكرك وسيأتى ذكر ترجمته إن شاء الله تعالى . وفيها حمل الأمير أيدمر الذى كان نائب الشام فى محفة لمرض لحقه إلى الديار المصرية ، فدخلها فى أواخر ذى القعدة ، واعتقل بقلعة مصر .

﴿ ذكر سلطنة سنقر الأشقر بدمشق ﴾

لما كان يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذى القعدة ركب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من دار السعادة بعد صلاة العصر وبين يديه جماعة من الامراء والجند مشاة ، وقصد باب القلعة الذى يلى المدينة ، فهجم منه ودخل القلعة واستدعى الأمراء فبايعوه على السلطنة ، ولقب بالملك الكامل، وأقام بالقلعة ونادت المنادية بدمشق بذلك ، فلما أصبح يوم السبت استدعى بالقضاة والعلماء والاعيان ورؤساء البلد إلى مسجد أبى الدرداء بالقلعة ، وحلفهم وحلف له بقية الامراء والعسكر ، وأرسل العساكر إلى غزة لحفظ الأطراف وأخذ الغلات ، وأرسل الملك المنصور إلى الشوبك فتسلمها نوابه ولم يمانعهم نجم الدين خضر . وفيها جددت أربع أضلاع فى قبة النسر من الناحية الغربية . وفيها عزل فتح الدين بن القيسرانى من الوزارة بدمشق ووليها تقى الدين بن توبة التكريتى .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ عز الدين بن غانم الواعظ ﴾

عبد السلام بن أحمد بن غانم بن على بن إبراهيم بن عساكر بن حسين عز الدين أحمد الأنصارى المقدسى ، الواعظ المطبق المفلق الشاعر الفصيح ، الذى نسج على منوال ابن الجوزى وأمثاله ، وقد أورد له قطب الدين أشياء حسنة كثيرة مليحة ، وكان له قبول عند الناس ، تكلم مرة تجاه الكعبة المعظمة ، وكان فى الحضرة الشيخ تاج الدين بن الفزارى والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، وابن العجيل من اليمن وغيرهم من العلماء والعباد ، فأجاد وأفاد وخطب فأبلغ وأحسن . نقل هذا المجلس الشيخ تاج الدين بن الفزارى ، وأنه كان فى سنة خمس وسبعين .

﴿ الملك السعيد بن الملك الظاهر ﴾

بركة خان ناصر الدين محمـد بن بركة خان أبو المعالى ابن السلطان الملك الظاهر . ركن الدين بيبرس البندقدارى ، بايع له أبوه الأمراء فى حياته ، فلما توفى أبوه بويع له بالملك وله تسع عشرة سنة ، ومشيت له الأمور فى أول الأمر على السعادة ، ثم إنه غلبت عليه الخاصكية فجعل يلعب معهم فى الميدان الأخضر فيما قيـل أول هوى ، فربما جاءت النوبة عليه فينزل لهم ، فأنكرت الامراء الكبار ذلك وأنفوا أن يكون ملكهم يلعب مع الغلمان ، ويجعل نفسه كأحـدهم ، فراسلوه فى ذلك ليرجع عما هو عليه فلم يقبل ، فخلعوه كما ذكرنا ، وولوا السلطان الملك المنصور قلاوون فى أواخر رجب كما تقدم . ثم كانت وفاته فى هـذه السنة بالـكرك فى يوم الجمعة الحادى عشر من ذى القعدة ، يقال إنه سم فالله أعلم ، وقد دفن أولا عنـد قبر جعفر وأصحابه الذين قتلوا بموته ، ثم نقل إلى دمشق فدفن فى تربة أبيـه سنة ثمانين وستمائة ، وتملك الكرك بعـده أخوه نجم الدين خضر وتلقب بالملك المسعود ، فانتزعها المنصور من يده كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمائة ﴾

كان أولها يوم الخميس ثالث إيار ، والخليفة الحاكم بأمر الله وملك مصر الملك المنصور قلاوون الصالحى ، و بعض بلاد الشام أيضا ، وأما دمشق وأعمالها فقدملكها سنقر الأشقر ، وصاحب الكرك الملك المسعود بن الظاهر ، وصاحب حماة الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين محمود ، والعراق و بلاد الجزيرة وخراسان والموصل و إربل وأذربيجان و بلاد بكر وخلاط وما والاها وغير ذلك من البلاد بأيدى التتار ، وكذلك بلاد الروم فى أيديهم أيضا ، ولكن فيها غياث الدين بن ركن الدين ، ولاحكم له سوى الاسم ، وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر ، وصاحب الحرم الشريف نجم الدين بن أبى نمى الحسنى ، وصاحب المدينة عز الدين جماز بن شيحه الحسينى .

ففى مستهل السنة المذكورة ركب السلطان الملك الـكامل سنقر الأشقر من القلعة إلى الميدان و بين يديه الامراء ومقدموا الحلقة الفـاشية ، وعليهم الخلع والقضاة والاعيان ركاب معه ، فسير فى الميدان ساعة ثم رجع إلى القلعة ، وجاء إلى خدمته الامير شرف الدين عيسى بن مهنا ملك العرب ، فقبل الأرض بين يديه ، وجلس إلى جانبه وهو عـلى السماط ، وقام له الـكامل ، وكذلك جاء إلى خدمته ملك الاعراب بالحجاز ، وأمر الكامل سنقر أن تضاف البلاد الحلبية إلى ولاية القاضى شمس الدين بن خلكان ، وولاه تدريس الأمينية وانتزعها من ابن سنى الدولة .

ولمـا بلغ الملك المنصور بالديار المصرية ما كان من أمر سنقر الأشقر بالشام أرسل إليه جيشا كثيفا فهزموا عسكر سنقر الأشقر الذى كان قد أرسله إلى غزة ، وساقوهم بين أيديهم حتى وصل جيش

المصريين إلى قريب دمشق ، فأمر الملك الكامل أن يضرب دهليزه بالجسورة ، وذلك فى يوم الاربعاء ثانى عشر صفر ، ونهض بنفسه ومن معه فنزل هنالك واستخدم خلقا كثيراً وأنفق أموالا جزيلة ، وانضاف إليه عرب الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ، وشهاب الدين أحمد بن حجى ، وجاءته نجدة حلب ونجدة حماة ورجال كثيرة من رجال بعلبك ، فلما كان يوم الأحد السادس عشر من صفر أقبل الجيش المصرى صحبة الأمير علم الدين سنجر الحلبى ، فلما تراءا الجمعان وتقابل الفريقان تقاتلوا إلى الرابعة فى النهار ، فقتل نفر كثير وثبت الملك الكامل سنقر الأشقر ثباتاً جيداً ، ولكن خامر عليه الجيش فمنهم من صار إلى المصرى ومنهم من انهزم فى كل وجه ، وتفرق عنه أصحابه فلم يسعه إلا الانهزام على طريق المرج فى طائفة يسيرة ، فى صحبة عيسى بن مهنا ، فسار بهم إلى برية الرحبة فأنزلهم فى بيوت من شعر ، وأقام بهم و بدوابهم مدة مقامهم عنده ، ثم بعث الأمراء الذين انهزموا عنه فأخذوا لهم أمانا من الأمير سنجر ، وقد نزل فى ظاهر دمشق وهى مغلوقة ، فراسل نائب القلعة ولم يزل به حتى فتح باب الفرج من آخر النهار ، وفتحت القلعة من داخل البلد فتسلمها للمنصور وأفرج عن الامير ركن الدين بيبرس العجمى المعروف بالحالق ، والامير لاجين حسام الدين المنصورى وغيرهم من الامراء الذين كان قد اعتقلهم الامير سنقر الأشقر ، وأرسل سنجر البريدية إلى الملك المنصور يعلمونه بصورة الحال ، وأرسل سنجر بثلاثة آلاف فى طلب سنقر الأشقر .

وفى هذا اليوم جاء ابن خلكان ليسلم على الامير سنجر الحلبى فاعتقله فى علو الخانقاه النجيبية ، وعزله فى يوم الخميس العشرين من صفر ، ورسم للقاضى نجم الدين بن سنى الدولة بالقضاء فباشره ، ثم جاءت البريدية معهم كتاب من الملك المنصور قلاوون بالعتب على طوائف الناس ، والعفو عنه كلهم ، فتضاعفت له الادعية ، وجاء تقليد النيابة بالشام للأمير حسام الدين لاجين السلحدارى المنصورى ، فدخل معه علم الدين سنجر الحلبى فرتبه فى دار السعادة ، وأمر سنجر القاضى ابن خلكان أن يتحول من المدرسة العادلية الكبيرة ليسكنها نجم الدين بن سنى الدولة ، وألح عليه فى ذلك ، فاستدعى جمالا لينقل أهله وثقله عليها إلى الصالحية فجاء البريد بكتاب من السلطان فيه تقرير ابن خلكان على القضاء والعفو عنه وشكره والثناء عليه ، وذكر خدمته المتقدمة ، ومعه خلعة سنية له فلبسها وصلى بها الجمعة وسلم على الأمراء فأكرموه وعظموه ، وفرح الناس به وبما وقع من الصفح عنه .

وأما سنقر الأشقر فانه لما خرجت العساكر فى طلبه فارق الامير عيسى بن مهنا وسار إلى السواحل فاستحوذ منها على حصون كثيرة ، منها صهيون ، وقد كان بها أولاده وحواصله ، وحصن بلاطس وبرزية وعكا وجبلة واللاذقية ، والشغر بكاس وشيزر واستناب فيها الأمير عز الدين ازدمر الحاج . فأرسل السلطان المنصور لحصار شيزر طائفة من الجيش ، فبينما هم كذلك إذ أقبلت

التتار لما سمعوا بتفريق كلمة المسلمين ، فانجفل الناس من بين أيديهم من سائر البلاد إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ، فوصلت التتار إلى حلب فقتلوا خلقا كثيراً ، ونهبوا جيشاً كبيراً ، وظنوا أن جيش سنقر الأشقر يكون معهم على المنصور ، فوجـدوا الأمر بخلاف ذلك ، وذلك أن المنصور كتب إلى سنقر الأشقر . إن التتار قد أقبلوا إلى المسلمين ، والمصلحة أن نتفق عليهـم لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم ، وإذا ملكوا البلاد لم يدعوا منا أحدا . فكتب إليه سنقر بالسمع والطاعة وبرز من حصنه فخيم بجيشه ليكون على أهبة متى طلب أجاب ، ونزلت نوابـه من حصونهـم وبقوا مستعدين لقتال التتار ، وخرج الملك المنصور من مصر فى أواخر جمادى الآخرة ومعه العساكر . وفى يوم الجمعة الثالث من جمادى الآخرة قرئ على منبر جامع دمشق كتاب من السلطان أنه قد عهد إلى ولده على ، ولقب بالملك الصالح ، فلما فرغ من قراءة الكتاب جاءت البريدية فأخبروا برجوع التتار من حلب إلى بلادهم ، وذلك لما بلغهم من اتفاق كلمة المسلمين ، ففرح المسلمون بذلك ولله الحمد ، وعاد المنصور إلى مصر وكان قد وصل إلى غزة ، أراد بذلك تخفيف الوطأة عن الشام فوصل إلى مصر فى نصف شعبان .

وفى جمادى الآخرة أعيد برهان الدين السنجارى إلى وزارة مصر ورجع فخر الدين بن لقمان إلى كتابة الانشاء . وفى أواخر رمضان أعيد إلى القضاء ابن رزين وعزل ابن بنت الأعز ، وأعيد القاضى نفيس الدين بن شكر المالكى ، ومعين الدين الحنفى ، وتولى قضاء الحنابلة عز الدين المقدسى . وفى ذى الحجة جاء تقليد ابن خلكان باضافة المعاملة الحلبية إليه يستنيب فيها من شاء من نوابه . وفى مستهل ذى الحجة خرج الملك المنصور من بلاد مصر بالعساكر قاصداً الشام ، واستناب على مصر ولده الملك الصالح على بن المنصور إلى حين رجوعه ، قال الشيخ قطب الدين : وفى يوم عرفة وقع بمصر برد كبار أتلف شيئا كثيراً من المغلات ، ووقعت صاعقة بالاسكندرية وأخرى فى يومها تحت الجبل الأحمر على صخرة فأحرقتها ، فأخذ ذلك الحديد فسبك فخرج منه أواقى بالرطل المصرى . وجاء السلطان فنزل بعساكره تجاه عكا ، فخافت الفرنج منه خوفا شديدا وراسلوه فى طلب تجديد الهدنة ، وجاء الأمير عيسى بن مهنا من بلاد العراق إلى خدمة المنصور ، وهو بهذه المنزلة فتلقاه السلطان بجيشه وأكرمه واحترمه وعامله بالصفح والعفو والاحسان

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الأمير الكبير جمال الدين آقوش الشمسى ﴾

أحد أمراء الاسلام ، وهو الذى باشر قتل كتبغانوين أحد مقدمى التتار ، وهو المطاع فيهم يوم عين جالوت ، وهو الذى مسك عز الدين أيدمر الظاهرى فى حلب من السنة الماضية ، وكانت وفاته بها .

﴿ الشيخ الصالح داود بن حاتم ﴾

ابن عمر الحبال ، كان حنبلي المذهب له كرامات وأحوال صالحة ومكاشفات صادقة ، وأصل آبائه من حران ، وكانت إقامته ببعلبك ، وتوفي فيها رحمه الله عن ست وتسعين سنة ، وقد أثنى عليه الشيخ قطب الدين ابن الشيخ الفقيه اليونيني

﴿ الأمير الكبير ﴾

نور الدين علي بن عمر أبو الحسن الطوري ، كان من أكابر الأمراء ، وقد نيف على تسعين سنة وكانت وفاته بسبب أنه وقع يوم مصاف سنقر الأشقر تحت سنابك الخيل فمكث بعد ذلك متمرضاً إلى أن مات بعد شهرين ودفن بسفح قاسيون .

﴿ الجزار الشاعر ﴾

يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي جمال الدين أبو الحسين المصري ، الشاعر الماجن ، المعروف بالجزار . مدح الملوك والوزراء والأمراء ، وكان ماجنا ظريفا حلو المناظرة ، ولد في حدود ستمائة بعدها بسنة أو سنتين ، وتوفي يوم الثلاثاء ثاني عشر شوال من هذه السنة . ومن شعره :

أدركوني فبي من البرد هم * ليس ينسى وفي حشاي التهاب
ألبستني الأطماع وهما فها * جسمي عار ولي فرى وثياب
كلما ازرق لون جسمي من الـ * ـبرد تخيلت أنه سنجاب

وقال وقد تزوج أبوه بعجوزة

تزوج الشيخ أبي شيخة * ليس لها عقل ولا ذهن
كأنها في فرشها رمة * وشعرها من حولها قطن
وقال لي كم سنها * قلت ليس في فمها سن
لو أسفرت غرتها في الدجى * ما جسرت تبصرها الجن

﴿ ثم دخلت سنة ثمانين وستمائة من الهجرة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم وسلطان البلاد الملك المنصور قلاوون . وفي عاشر المحرم انعقدت الهدنة بين أهل عكا والمرقب والسلطان ، وكان نازلا على الروحاء وقد قبض على جماعة من الأمراء ممن كان معه ، وهرب آخرون إلى قلعة صهيون إلى خدمة سنقر الأشقر ، ودخل المنصور إلى دمشق في التاسع عشر من المحرم فنزل القلعة وقد زينت له البلد ، وفي التاسع والعشرين من المحرم أعاد القضاء إلى عز الدين بن الصائغ وعزل ابن خلكان . وفي أول صفر باشر قضاء الحنابلة نجم الدين ابن الشيخ شمس بن أبي عمر ، وقد كان المنصب شاغراً منذ عزل والده نفسه عن القضاء ، وتولى

قضاء حلب فى هذا الشهر تاج الدين يحيى بن محمد بن إسماعيل الكردى ، وجلس الملك المنصور فى دار العدل فى هذا الشهر فحكم وأنصف المظلوم من الظالم ، وقدم عليه صاحب حماة فتلقاه المنصور بنفسه فى موكبه ، ونزل بداره بباب الفراديس . وفى ربيع الأول وقع الصلح بين الملك المنصور قلاوون وبين سنقر الأشقر الملك الكامل على أن يسلم للسلطان شيزر ويعوضه عنها بانطاكية وكفر طاب وشغر بكاس وغير ذلك ، وعلى أن يقيم على ما بيده ستمائة فارس ، وتحالفا على ذلك ، ودقت البشائر لذلك ، وكذلك تصالح صاحب الكرك والملك المنصور خضر بن الظاهر على تقرير ما بيده ونودى بذلك فى البلاد . وفى العشر الأول من هذا الشهر ضمن الخمر والزنا بدمشق ، وجعل عليه ديوان ومشد ، فقام فى إبطال ذلك جماعة من العلماء والصلحاء والعباد ، فأبطل بعد عشرين يوماً ، وأريقت الخمور وأقيمت الحدود ولله الحمد والمنة .

وفى تاسع عشر ربيع الأول وصلت الخاتون بركة خان زوجة الملك الظاهر ومعها ولدها السعيد قد نقلته من قرية المساجد بالقرب من الكرك لتدفنه عند أبيه بالتربة الظاهرية ، فرفع بحبال من السور ودفن عند والده الظاهر ، ونزلت أمه بدار صاحب حمص ، وهيئت لها الاقامات ، وعمل عزاء ولدها يوم الحادى والعشرين من ربيع الآخر بالتربة المذكورة ، وحضر السلطان المنصور وأرباب الدولة والقراء والوعاظ .

وفى أواخر ربيع الآخر عزل التقى بن توبة التكريتى من الوزارة بدمشق وباشرها بعده تاج الدين السنهورى ، وكتب السلطان المنصور إلى مصر وغيرها من البلاد يستدعى الجيوش لأجل اقتراب مجىء التتار ، فدخل أحمد بن حجى ومعه بشر كثير من الأعراب ، وجاء صاحب الكرك الملك المسعود نجدة للسلطان يوم السبت الثانى عشر من جمادى الآخرة ، وقدم الناس عليه ووفدوا إليه من كل مكان ، وجاءته التركمان والأعراب وغيرهم ، وكثرت الأراجيف بدمشق ، وكثرت العساكر بها وجفل الناس من بلاد حلب وتلك النواحى ، وتركوا الغلات والاموال خوفا من أن يدهمهم العدو من التتار ، ووصلت التتر صحبة منكوتمر بن هولاكو إلى عنتاب ، وسارت العساكر المنصورة إلى نواحى حلب يتبع بعضها بعضا ، ونازلت التتار بالرحبة فى أواخر جمادى الآخر جماعة من الاعراب ، وكان فيهم ملك التتار إبغا مختفيا ينظر ماذا يفعل أصحابه ، وكيف يقاتلون أعداءه ، ثم خرج المنصور من دمشق وكان خروجه منها فى أواخر جمادى وقنت الخطباء والأئمة بالجوامع والمساجد فى الصلوات وغيرها وجاء مرسوم من السلطان باستسلام أهل الذمة من الدواوين والكتبة . ومن لا يسلم يصلب ، فأسلموا كرها ، وكانوا يقولون آمنا وحكم الحاكم بأسلامنا بعد أن عرض من امتنع منهم على الصلب بسوق الخيل ، وجعلت الحبال فى أعناقهم ، فأجابوا والحالة هذه ، ولما انتهى الملك المنصور إلى حمص كتب

إلى الملك الكامل سنقر الاشقر يطلبه إليه نجدة فجاء إلى خدمته فأكرمه السلطان واحترمه ورتب له الاقامات ، وتكاملت الجيوش كلها فى صحبة الملك المنصور عازمين على لقاء العدو لامحالة مخلصين فى ذلك ، واجتمع الناس بعد خروج الملك فى جامع دمشق ووضعوا المصحف العثمانى بين أيديهم ، وجعلوا يبتهلون إلى الله تعالى فى نصرة الاسلام وأهله على الاعداء ، وخرجوا كذلك والمصحف على رؤسهم إلى المصلى يدعون ويبتهلون ويبكون ، وأقبلت التتار قليلا قليلا فلما وصلوا حماة أحرقوا بستان الملك وقصره وما هنالك من المساكن ، والسلطان المنصور مخيم بحمص فى عساكر من الأتراك والتركمان وغيرهم جحفل كثير جداً ، وأقبلت التتار فى مائة ألف مقاتل أو يزيدون ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿ وقعة حمص ﴾

لما كان يوم الخميس رابع عشر رجب التقى الجمعان وتواجه الخصمان عند طلوع الشمس وعسكر التتر فى مائة ألف فارس ، وعسكر المسلمين على النصف من ذلك أو يزيد قليلا ، والجميع فيما بين مشهد خالد بن الوليد إلى الرستن ، فاقتتلوا قتالا عظيما لم ير مثله من أعصار متطاولة ، فاستظهر التتار أول النهار ، وكسروا الميسرة واضطربت الميمنة أيضاً وبالله المستعان . وكسر جناح القلب الأيسر وثبت السلطان ثباتا عظيما جداً فى جماعة قليلة ، وقد انهزم كثير من عسكر المسلمين ، والتتار فى آثارهم حتى وصلوا وراءهم إلى بحيرة حمص ووصلوا حمص وهى مغلقة الأبواب ، فقتلوا خلقا من العامة وغيرهم ، وأشرف المسلمون على خطة عظيمة من الهلاك ، ثم إن أعيان الأمراء من الشجعان والفرسان تآمروا فيما بينهم مثل سنقر الأشقر وبيسرى وطيبرس الوزيرى وبدر الدين أمير سلاح وايتمش السعدى وحسام الدين لاجين وحسام الدين طرنطاى والدويدارى وأمثالهم ، لما رأوا ثبات السلطان ردوا إلى السلطان وحملوا حملات متعددة صادقة ، ولم يزالوا يتابعون الحملة بعد الحملة حتى كسر الله بحوله وقوته التتر ، وجرح منكوتمر ، وجاءهم الأمير عيسى بن مهنا من ناحية العرض فصدم التتر فاضطربت الجيوش لصدمته ، وتمت الهزيمة ولله الحمد ، وقتلوا من التتار مقتلة عظيمة جداً ، ورجعت من التتار الذين اتبعوا المنهزمين من المسلمين فوجدوا أصحابهم قد كسروا ، والعساكر فى آثارهم يقتلون ويأسرون ، والسلطان ثابت فى مكانه تحت السناجق ، والكوسات تضرب خلفه وما معه إلا ألف فارس ، فطمعوا فيه فقاتلوه فثبت لهم ثباتا عظيما فانهزموا من بين يديه فلحقهم فقتل أكثرهم ، وكان ذلك تمام النصر ، وكان انهزام التتار قبل الغروب ، وافترقوا فرقتين أخذت فرقة منهم إلى ناحية سلمية والبرية ، والأخرى إلى ناحية حلب والفرات ، فأرسل السلطان فى آثارهم من يتبعهم وجاءت البطاقة بالبشارة بما وقع من النصر إلى دمشق يوم الجمعة خامس عشر رجب ، فدقت البشائر وزينت

البلد ، وأوقدت الشموع وفرح الناس . فلما أصبح الناس يوم السبت أقبلت طائفة من المنهزمين منهم بيليك الناصرى والحالق وغيرهم ، فأخبروا الناس بماشاهدوه من الهزيمة فى أول الأمر ، ولم يكونوا شاهدوا بعد ذلك ، فبقى الناس فى قلق عظيم ، وخوف شديد ، وتهيأ ناس كثير للهرب ، فبينما الناس فى ذلك إذ أقبلت البريدية فأخبروا الناس بصورة ما وقع فى أول الأمر وآخره ، فتراجع الناس وفرحوا فرحا شديداً ولله الحمد والمنة .

ثم دخل السلطان إلى دمشق الثانى والعشرين من رجب ، وبين يديه الأسارى بأيديهم الرماح عليها شقف رؤس القتلى ، وكان يوما مشهوداً ، ومع السلطان طائفة من أصحاب سنقر الأشقر منهم علم الدين الدويدارى ، فنزل السلطان بالقلعة مؤيداً منصوراً ، وقد كثرت له المحبة والأدعية وكان سنقر الأشقر ودع السلطان من حمص و رجع إلى صهيون ، وأما التتر فانهم انهزموا فى أسوأ حال وأتعسه يتخطفون من كل جانب ، ويقتلون من كل فج ، حتى وصلوا إلى الفرات فغرق أكثرهم ، ونزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم خلقا كثيراً وأسروا آخرين ، والجيوش فى آثارهم يطردونهم عن البلاد حتى أراح الله منهم الناس .

وقد استشهد فى هذه الوقعة جماعة من سادات الأمراء منهم الأمير الكبير الحاج عز الدين أزدمر جمدار ، وهو الذى جرح ملك التتار يومئذ منكوتمر ، فانه خاطر بنفسه وأوهم أنه مقفز إليه وقلب رمحه حتى وصل إليه فطعنه فجرحه فقتلوه رحمه الله ، ودفن بالقرب من مشهد خالد .

وخرج السلطان من دمشق قاصدا الديار المصرية يوم الاحد ثانى شعبان والناس يدعون له ، وخرج معه علم الدين الدويدارى ، ثم عاد من غزة وقد ولاه المشد فى الشام والنظر فى المصالح ، ودخل السلطان إلى مصر فى ثانى عشر شعبان . وفى سلخ شعبان ولى قضاء مصر والقاهرة للقاضى وجيه الدين البهنسى الشافعى ، وفى يوم الأحد سابع رمضان فتحت المدرسة الجوهرية بدمشق فى حياة منشئها و واقفها الشيخ نجم الدين محمد بن عباس بن أبى المكارم التميمى الجوهرى ، ودرس بها قاضى الحنفية حسام الدين الرازى . وفى بكرة يوم السبت التاسع والعشرين من شعبان وقعت مأذنة مدرسة أبى عمر بقاسيون على المسجد العتيق فمات شخص واحد ، وسلم الله تعالى بقية الجماعة . وفى عاشر رمضان وقع بدمشق ثلج عظيم وبرد كثير مع هواء شديد ، بحيث إنه ارتفع عن الارض نحواً من ذراع ، وفسدت الخضراوات ، وتعطل على الناس معايش كثيرة . وفى شوال وصل صاحب سنجار إلى دمشق مقفزا من التتار داخلا فى طاعة السلطان بأهله وماله ، فتلقاه نائب البلد وأكرمه وسيره إلى مصر معززاً مكرماً .

وفى شوال عقد مجلس بسبب أهل الذمة من الكتاب الذين كانوا قد أسلموا كرها وقد كتب

لهم جماعة من المفتيين بأنهم كانوا مكرهين فلهم الرجوع إلى دينهم ، وأثبت الاكراه بين يدى القاضى جمال الدين ابن أبى يعقوب المالكى ، فعاد أكثرهم إلى دينهم وضربت عليهم الجزية كما كانوا ، سود الله وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . وقيل : إنهم غرموا مالا جزيلا جملة مستكثرة على ذلك ، قبحهم الله .

وفى ذى القعدة قبض السلطان على أيتمش السعدى وسجنه بقلعة الجبل ، وقبض نائبه بدمشق على سيف الدين بلبان الهارونى وسجنه بقلعتها . وفى بكرة الخميس التاسع والعشرين من ذى القعدة ، وهو العاشر من أذار ، استسقى الناس بالمصلى بدمشق فسقوا بعد عشرة أيام . وفى هذه السنة أخرج الملك المنصور جميع آل الملك الظاهر من النساء والولدان والخدام من الديار المصرية إلى الكرك ليكونوا فى كنف الملك المسعود خضر بن الظاهر

ومن توفى فيها من الأعيان . ﴿ أبغا ملك التتار بن هولا كوخان ﴾

ابن تولى بن جنكيزخان ، كان عالى الهمة بعيد الغور له رأى وتدبير ، وبلغ من العمر خمسين سنة ، ومدة ملكه ثمانى عشرة سنة ، ولم يكن بعد والده فى التدبير والحزم مثله ، ولم تكن وقعة حمص هذه برأيه ولا عن مشورته ، ولكن أخوه منكوتمر أحب ذلك فلم يخالفه . ورأيت فى بعض تاريخ البغاددة أن قدوم منكوتمر إلى الشام إنما كان عن مكاتبة سنقر الاشقر إليه فالله أعلم . وقد جاء أبغا هذا بنفسه فنزل قريبا من الفرات ليرى ماذا يكون من الأمر ، فلما جرى عليهم ما جرى ساءه ذلك ومات غما وحزناً . توفى بين العيدين من هذه السنة ، وقام بالملك بعده ولده السلطان أحمد . وفيها توفى .

﴿ قاضى القضاة ﴾

نجم الدين أبو بكر بن قاضى القضاة صدر الدين أحمد بن قاضى القضاة شمس الدين يحيى بن هبة الله ابن الحسن بن يحيى بن محمد بن على الشافعى ابن سنى الدولة ، ولد سنة ست عشرة وستمائة ، وسمع الحديث وبرع فى المذهب ، وناب عن أبيه فشكرت سيرته ، واستقل بالقضاء فى الدولة المظفرية لمحمد أيضا ، وكان الشيخ شهاب الدين ينال منه ومن أبيه ، وقال البرزالى : كان شديداً فى الاحكام متحرياً ، وقد ألزم بالمقام بمصر فدرس بجامع مصر ، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالأمينية والركنية ، وباشر قضاء حلب ، وعاد إلى دمشق ، وولاه سنجر قضاء دمشق ، ثم عزل بابن خلكان كما تقدم ، ثم كانت وفاته يوم الثلاثاء من المحرم ، ودفن من الغد يوم تاسوعاء بتربة جده بقاسيون . وفى عاشر المحرم توفى

﴿ قاضى القضاة صدر الدين عمر ﴾

ابن القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن أبى القاسم العلابى ابن بنت الأعز المصرى ، كان فاضلا بارعاً عارفاً بالمذهب ، متحريا فى الأحكام كأبيه ، ودفن بالقرافة .

﴿ الشيخ إبراهيم بن سعيد الشاغورى ﴾

الموله المعروف بالجيعانة ، كان مشهوراً بدمشق ، ويذكر له أحوال ومكاشفات على ألسنة العوام ومن لا يعقل ، ولم يكن ممن يحافظ على الصلوات ولا يصوم مع الناس ، ومع هذا كان كثير من العوام وغيرهم يعتقدونه . توفى يوم الأحد سابع جمادى الأولى ودفن بتربة المولهين بسفح قاسيون عند الشيخ يوسف القيميني ، وقد توفى الشيخ يوسف قبله بمدة ، وكان الشيخ يوسف يسكن إقمين حمام نور الدين الشهيد بالبزوريين ، وكان يجلس على النجاسات والقذر ، وكان يلبس ثياباً بداوية تجحف على النجاسات فى الأزقة ، وكان له قبول من الناس ومحبة وطاعة ، وكان العوام يغالون فى محبته واعتقاده ، وكان لا يصلى ولا يتقى نجاسة ، ومن جاءه زائراً جلس عند باب الأقمين على النجاسة ، وكان العوام يذكرون له مكاشفات وكرامات ، وكل ذلك خرافات من خرافات العوام وأهل الهذيان كما يعتقدون ذلك فى غيره من المجانين والمولهين . ولما مات الشيخ يوسف القميني خرج خلق فى جنازته من العوام وغيرهم ، وكانت جنازته حافلة بهم ، وحمل على أعناق الرجال إلى سفح قاسيون ، وبين يديه غوغاء وغوش كثير وتهليل وأمور لا تجوز من فعل العوام ، حتى جاؤا به إلى تربة المولهين بقاسيون فدفنوه بها ، وقد اعتنى بعض العوام بقبره فعمل عليه حجارة منقوشة وعمل على قبره سقفاً مقرنصاً بالدهان وأنواعه ، وعمل عليه مقصورة وأبوابا ، وغالى فيه مغالاة زائدة ، ومكث هو وجماعة مجاورون عنده مدة فى قراءة وتهليل ، ويطبخ لهم الطبيخ فيأكلون ويشربون هناك . والمقصود أن الشيخ إبراهيم الجيعانة لما مات الشيخ يوسف الأقميني جاء من الشاغور إلى باب الصغير فى جماعة من أتباعه ، وهم فى صراخ وضجة وغوش كثير ، وهم يقولون : أذن لنا فى دخول البلد أذن لنا فى دخول البلد ، يكررون ذلك ، فقيل له فى ذلك فقال : لى عشرون سنة ما دخلت داخل سور دمشق ، لأنى كنت كلما أتيت باباً من أبوابها أجد هذا السبع رابضاً بالباب فلا أستطيع الدخول خوفا منه ، فلما مات أذن لنا فى الدخول ، وهذا كله ترويج على الطغام والعوام من الهمج الرعاع ، الذين هم أتباع كل ناعق . وقيل إن الشيخ يوسف كان يرسل إلى الجيعانة مما يأتيه من الفتوح والله سبحانه أعلم بأحوال العباد ، وإليه المنقلب والمآب ، وعليه الحساب .

وقد ذكرنا أنه استشهد فى وقعة حمص جماعة من الأمراء منهم الأمير عز الدين أزدمر السلحدارى عن نحو من ستين سنة ، وكان من خيار الامراء وله همة عالية ينبغى أن ينال بها مكانا عاليا فى الجنة

﴿ قاضى القضاة ﴾

تقى الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى العامرى الحموى الشافعى ، ولد سنة ثلاث وستمائة ، وقد سمع الحديث وانتفع بالشيخ تقى الدين بن الصلاح ، وأم بدار الحديث مدة ،

ودرس بالشامية ، وولى وكالة بيت المال بدمشق ، ثم سار إلى مصر فدرس بها بعدة مدارس ، وولى الحكم بها ، وكان مشكوراً ، توفى ليلة الأحد ثالث رجب منها ، ودفن بالمقطم .

وفى يوم السبت الرابع والعشرين من ذى القعدة توفى .

﴿ الملك الأشرف ﴾

مظفر الدين موسى بن الملك الزاهر محيي الدين داود المجاهد بن أسد الدين شيركوه بن الناصر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذى ابن صاحب حمص ، ودفن بتربتهم بقاسيون .

وفى ذى القعدة توفى ﴿ الشيخ جمال الدين الاسكندرى ﴾

الحاسب بدمشق ، وكان له مكتب تحت منارة كيروز ، وقد انتفع به خلق كثير ، وكان شيخ الحساب فى وقته رحمه الله ﴿ الشيخ علم الدين أبو الحسن ﴾

محمد بن الامام أبى على الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق الربعى المالكى المصرى ، ودفن بالقرافة ، وكانت له جنازة حافلة ، وقد كان فقيها مفتيا ، سمع الحديث وبلغ خمسا وثمانين سنة .

وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذى الحجة توفى .

﴿ الصدر الكبير أبو الغنائم المسلم ﴾

محمد بن المسلم مكى بن خاف بن غيلان ، القيسى الدمشقى ، مولده سنة أربع وتسعين ، وكان من الرؤساء الكبار ، وأهل البيوتات ، وقد ولى نظر الدواوين بدمشق وغير ذلك ، ثم ترك ذلك كله وأقبل على العبادة وكتابة الحديث ، وكان يكتب سريعا يكتب فى اليوم الواحد ثلاث كراريس وقد أسمع مسند الامام أحمد ثلاث مرات ، وحدث بصحيح مسلم وجامع الترمذى وغير ذلك ، وسمع منه البرزالى والمزى وابن تيمية ، ودفن من يومه بسفح قاسيون عن ست وثمانين سنة ، رحمهم الله جميعا ﴿ الشيخ صفى الدين ﴾

أبو القاسم بن محمد بن عثمان بن محمد التميمى الحنفى ، شيخ الحنفية ببصرى ، ومدرس الأمينية بها مدة سنين كثيرة ، كان بارعاً فاضلا عالما عابداً منقطعاً عن الناس ، وهو والد قاضى القضاة صدر الدين على ، وقد عمر دهراً طويلا ، فانه ولد فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وتوفى ليلة نصف شعبان من هذه السنة عن تسع وتسعين سنة رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله والسلطان الملك المنصور قلاوون . وفيها أرسل ملك التتار أحمد إلى الملك المنصور يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم ، وجاء فى الرسلية الشيخ قطب الدين الشيرازى أحد تلامذة النصير الطوسى ، فأجاب المنصور إلى ذلك وكتب المكاتبات إلى ملك

التتر بذلك . وفى مستهل صفر قبض السلطان على الأمير الكبير بدر الدين بيسرى السعدى ، وعلى الأمير علاء الدين السعدى الشمسى أيضاً .

وفيها درس القاضى بدر الدين بن جماعة بالقيمرية ، والشيخ شمس الدين ابن الصفى الحريرى بالسرحانية ، وعلاء الدين بن الزملكانى بالأمينية . وفى يوم الاثنين الحادى عشر من رمضان وقع حريق باللبادين عظيم ، وحضر نائب السلطنة إذ ذاك الامير حسام الدين لاجين السلحدار وجماعة كثيرة من الامراء ، وكانت ليلة هائلة جداً وقى الله شرها ، واستدرك بعد ذلك أمرها القاضى نجم الدين بن النحاس ناظر الجامع ، فأصلح الأمر وسد وأعاد البناء أحسن مما كان ولله الحمد والمنة .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الصالح بقية السلف ﴾

برهان الدين أبو إسحاق ابن الشيخ صفى الدين أبى الفدا إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى بن علوى ابن الرضى الحنفى إمام المعزية بالكشك . وأسمع من جماعة منهم الكندى ابن الحرستانى ولكن لم يظهر سماعه منهما إلا بعد وفاته ، وقد أجاز له أبو نصر الصيدلانى وعفيفة الفارقانية وابن الميدانى ، وكان رجلا صالحاً محباً لاسماع الحديث ، كثير البر بالطلبة له ،وقد قرأ عليه الحافظ جمال الدين المزى معجم الطبرانى الكبير ، وسمعه منه بقراءة الحافظ البرزالى وجماعة كثيرون. وكان مولده فى سنة تسع وتسعين [وخمسمائة] وتوفى يوم الأحد سابع صفر ، وهو اليوم الذى قدم فيه الحجاج إلى دمشق من الحجاز ، وكان هو معهم فمات بعد استقراره بدمشق .

﴿ القاضى أمين الدين الاشترى ﴾

أبو العباس أحمد بن شمس الدين أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الجبار بن طلحة الحلبى المعروف بالأشترى الشافعى ، المحدث ، سمع الكثير وحصل ووقف أجزاء بدار الحديث الأشرفية وكان الشيخ محى الدين النووى يثنى عليه ويرسل إليه الصبيان ليقرأوا عليه فى بيته لأمانته عنده، وصيانته وديانته .

﴿ الشيخ برهان الدين أبو الثناء ﴾

محمود بن عبد الله بن عبد الرحمن المراغى الشافعى ، مدرس الفلكية ، كان فاضلا بارعاً ، عرض عليه القضاء فلم يقبل ، توفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر عن ست وسبعين سنة ، وسمع الحديث وأسمعه ، ودرس بعده بالفلكية القاضى بهاء الدين بن الزكى .

﴿ القاضى الامام العلامة شيخ القراء زين الدين ﴾

أبو محمد بن عبد السلام بن على بن عمر الزواوى المالكى ، قاضى قضاة المالكية بدمشق، وهو أول من باشر القضاء بها ، وعزل نفسه عنها تورعاً وزهادة ، واستمر بلا ولاية ثمان سنين ، ثم كانت وفاته ليلة الثلاثاء ثامن رجب منها عن ثلاث وثمانين سنة ، وقد سمع الحديث واشتغل على السنجارى

وابن الحاجب .

﴿ الشيخ صلاح الدين ﴾

محمد بن القاضى شمس الدين علي بن محمود بن علي الشهرزورى ، مدرس القيمرية وابن مدرسها ، توفى فى أواخر رجب، وتوفى أخوه شرف الدين بعده بشهر ، ودرس بالقيمرية بعد الصلاح المذكور القاضى بدر الدين ابن جماعة .

﴿ ابن خلكان قاضى القضاة ﴾

شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان الأربلى الشافعى أحد الأئمة الفضلاء ، والسادة العلماء ، والصدور الرؤساء ، وهو أول من جدد فى أيامه قضاء القضاة من سائر المذاهب ، فاشتغلوا بالاحكام بعد ما كانوا نوابا له ، وقد كان المنصب بينه وبين ابن الصائغ دولا يعزل هذا تارة ويولى هذا ، ويعزل هذا ويولى هذا ، وقد درس ابن خلكان فى عدة مدارس لم تجتمع لغيره ، ولم يبق معه فى آخر وقت سوى الامينية ، وبيد ابنه كمال الدين موسى النجيبية . توفى ابن خلكان بالمدرسة النجيبية المذكورة بايوانها يوم السبت آخر النهار ، فى السادس والعشرين من رجب ، ودفن من الغد بسفح قاسيون عن ثلاث وسبعين سنة . وقد كان ينظم نظما حسنا رائقا ، وقد كانت محاضرته فى غاية الحسن ، وله التاريخ المفيد الذى رسم بوفيات الاعيان من أبدع المصنفات ، والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وستمائة ﴾

فيها قدم الملك المنصور إلى دمشق فى يوم الجمعة سابع رجب فى أبهة عظيمة، وكان يوماً مشهوداً وفيها ولى الخطابة بدمشق الشيخ عبد الكافى بن عبد الملك بن عبد الكافى عوضاً عن محيى الدين ابن الحرستانى الذى توفى فيها كما سيأتى ، وخطب يوم الجمعة الحادى والعشرين من رجب من هذه السنة وفى هذا اليوم قبل الصلاة احتيط على القاضى عز الدين بن الصائغ بالقلعة وأثبت ابن الحصرى نائب الحنفى محضرا يتضمن أن عنده وديعة بمقدار ثمانية آلاف دينار ، من جهة ابن الاسكاف ، وكان الذى أثار ذلك شخص قدم من حلب يقال له تاج الدين بن السنجارى ، وولى القضاء بعده بهاء الدين يوسف بن محيى الدين ابن الزكى ، وحكم يوم الاحد ثالث وعشرين رجب ومنع الناس من زيارة ابن الصائغ ، وسعى بمحضر آخر أن عنده وديعة بقيمة خمسة وعشرين ألف دينار للصالح إسماعيل بن أسد الدين ، وقام فى ذلك ابن الشاكرى والجمال بن الحموى وآخرون ، وتكلموا فى قضية ثالثة ، ثم عقد له مجلس ناله فيه شدة شديدة ، وتعصبوا عليه ثم أعيد إلى اعتقاله ، وقام فى صفه نائب السلطنة حسام الدين لاجين ، وجماعة من الامراء ، فكلموا فيه السلطان فأطلقه وخرج إلى منزله ، وجاء الناس إلى تهنئته يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان ، وانتقل من

العادلية إلى داره بدرب النقاشة ، وكان عامة جلوسه فى المسجد تجاه داره .

وفى رجب باشر حسبة دمشق جمال الدين بن صصرى . وفى شعبان درس الخطيب جمال الدين ابن عبد الكافى بالغزالية عوضاً عن الخطيب ابن الحرستانى ، وأخذ منه الدولعية لكمال الدين بن النجار ، الذى كان وكيل بيت المال ، ثم أخذ شمس الدين الاربلى تدريس الغزالية من ابن عبد الكافى المذكور . وفى آخر شعبان باشر نيابة الحكم عن ابن الزكى شرف الدين أحمد بن نعمة المقدسى أحد أئمة الفضلاء ، وسادات العلماء المصنفين . ولما توفى أخوه شمس الدين محمد فى شوال ولى مكانه تدريس الشامية البرانية ، وأخذت منه العادلية الصغيرة ، فدرس فيها القاضى نجم الدين أحمد بن صصرى التغلبى فى ذى القعدة ، وأخذت من شرف الدين أيضاً الرواحية فدرس فيها نجم الدين البيابى نائب الحكم رحمهم الله أجمعين .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الصدر الكبير عماد الدين أبو الفضل ﴾

محمد بن القاضى شمس الدين أبى نصر محمد بن هبة الله بن الشيرازى ، صاحب الطريقة المنسوبة فى الكتابة ، سمع الحديث وكان من رؤساء دمشق وأعيانها توفى فى صفر منها .

﴿ شيخ الجبل الشيخ العلامة شيخ الاسلام ﴾

شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن بن الشيخ أبى عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلى ، أول من ولى قضاء الحنابلة بدمشق ، ثم تركه وتولاه ابنه نجم الدين ، وتدريس الاشرفية بالجبل ، وقد سمع الحديث الكثير ، وكان من علماء الناس وأكثرهم ديانة وأمانة فى عصره ، مع هدى وسمت صالح حسن ، وخشوع ووقار . توفى ليلة الثلاثاء سلخ ربيع الآخر من هذه السنة عن خمس وثمانين سنة ، ودفن بمقبرة والده رحمهم الله

﴿ ابن أبى جفوان ﴾

العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عباس بن أبى جفوان الانصارى الدمشقى المحدث الفقيه الشافعى البارع فى النحو واللغة ، سمعت شيخنا تقى الدين ابن تيمية وشيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول كل منهما للآخر : هذا الرجل قرأ مسند الامام أحمد وهما يسمعان فلم يضبط عليه لحنة متفقا عليها ، وناهيك بهذين ثناء على هذا وهاهما

﴿ الخطيب محيى الدين ﴾

يحيى بن الخطيب قاضى القضاة عماد الدين عبد الكريم بن قاضى القضاة جمال الدين بن الحرستانى الشافعى خطيب دمشق ومدرس الغزالية ، كان فاضلا بارعا أفتى ودرس وولى الخطابة والغزالية بعد

أبيه ، وحضر جنازته نائب السلطنة وخلق كثير ، توفى فى جمادى الآخرة عن ثمان وستين سنة ، ودفن بقاسيون . وفى خامس رجب توفى .

﴿ الامير الكبير ملك عرب آل مثرى ﴾

أحمد بن حجى بمدينة بصرى ، وصلى عليه بدمشق صلاة الغائب .

﴿ الشيخ الامام العالم شهاب الدين ﴾

عبد الحليم بن الشيخ الامام العلامة مجد الدين عبد الله بن عبد الله بن أبى القاسم ابن تيمية الحرانى ، والد شيخنا العلامة العلم تقى الدين ابن تيمية ، مفتى الفرق، الفارق بين الفرق ، كان له فضيلة حسنة ، ولديه فضائل كثيرة ، وكان له كرسى بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظاهر قلبه ، وولى مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين ، وبها كان سكنه ، ثم درس ولده الشيخ تقى الدين بها بعده فى السنة الآتية كما سيأتى ، ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة ﴾

فى يوم الاثنين ثانى المحرم منها درس الشيخ الامام العالم العلامة تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحرانى بدار الحديث السكرية التى بالقصاعين ، وحضر عنده قاضى القضاة بهاء الدين ابن الزكى الشافعى ، والشيخ تاج الدين الفزارى شيخ الشافعية ، والشيخ زين الدين ابن المرحل ، وزين الدين بن المنجا الحنبلى ، وكان درسا هائلا ، وقد كتبه الشيخ تاج الدين الفزارى بخطه لكثرة فوائده ، وكثرة ما استحسنه الحاضرون . وقد أطنب الحاضرون فى شكره على حداثة سنه وصغره ، فانه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين ، ثم جلس الشيخ تقى الدين المذكور أيضا يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموى بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيئ له لتفسير القرآن العزيز ، فابتدأ من أوله فى تفسيره ، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجم الغفير من كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة سارت بذكره الركبان فى سائر الأقاليم والبلدان ، واستمر على ذلك مدة سنين متطاولة

وفيها قدم السلطان إلى دمشق من مصر يوم السبت ثانى عشر جمادى الآخرة ، فجاء صاحب حماة الملك المنصور إلى خدمته فتلقاه السلطان فى موكبه وأكرمه ، فلما كان ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان وقع مطر عظيم بدمشق ، ورعد وبرق ، وجاء سيل عظيم جداً حتى كسر أقفال باب الفراديس ، وارتفع الماء ارتفاعا كثيراً ، بحيث أغرق خلقاً كثيراً ، وأخذ جمال الجيش المصرى وأثقالهم ، فخرج السلطان إلى الديار المصرية بعد ثلاثة أيام ، وتولى مشد الدواوين الأمير شمس الدين سنقر عوضا عن الدويدارى علم الدين سنجر . وفيها اختلف التتار فيما بينهم على ملكهم

السلطان أحمد فعزلوه عنهم وقتلوه ، وملكوا عليهم السلطان أرغون بن أبغا ، ونادوا بذلك فى جيشهم ، وتأطدت أحوالهم ، ومشت أمورهم على ذلك ، وبادت دولة السلطان أحمد . وقامت دولة أرغون بن أبغا .

ومن توفى فيها من الاعيان ﴿ الشيخ طالب الرفاعى بقصر حجاج ﴾

وله زواية مشهورة به ، وكان يزور بعض المريدين فمات . وفيها مات

﴿ القاضى الامام عز الدين أبو المفاخر ﴾

محمد بن شرف الدين عبد القادر بن عفيف الدين عبد الخالق بن خليل الانصارى . الدمشقى ولى القضاء بدمشق مرتين ، عزل بابن خلكان ، ثم عزل ابن خلكان به ثانية ، ثم عزل وسجن وولى بعده بهاء الدين ابن الزكى ، وبقى معزولا إلى أن توفى ببستانه فى تاسع ربيع الأول ، وصلى عليه بسوق الخيل ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان مولده سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وكان مشكور السيرة، له عقل وتدبير واعتقاد كثير فى الصالحين ، وقد سمع الحديث له ابن بلبان مشيخة قرأها ابن جعفوان عليه ، ودرس بعده بالعزروية الشيخ زين الدين عمر بن مكى بن المرحل ، وكيل بيت المال ، ودرس ابنه محيي الدين أحمد بالعمادية وزاوية الكلاسة من جامع دمشق ، ثم توفى ابنه أحمد هذا بعده فى يوم الأربعاء ثامن رجب ، فدرس بالعمادية والدماغية الشيخ زين الدين بن الفارقى شيخ دار الحديث نيابة عن أولاد القاضى عز الدين بن الصائغ بدر الدين وعلاء الدين . وفيها توفى

﴿ الملك السعيد فتح الدين ﴾

عبد الملك بن الملك الصالح أبى الحسن إسماعيل ابن الملك العادل ، وهو والد الملك الكامل ناصر الدين محمد ، فى ليلة الاثنين ثالث رمضان ، ودفن من الغد بتربة أم الصالح ، وكان من خيار الأمراء محترما كبيراً رئيسا ، روى الموطأ عن يحيى بن بكير عن مكرم بن أبى الصقر ، وسمع ابن الليثى وغيره .

﴿ القاضى نجم الدين عمر بن نصر بن منصور ﴾

البيانى الشافعى ، توفى فى شوال منها ، وكان فاضلا ، ولى قضاء زرع ثم قضاء حلب ، ثم ناب فى دمشق ودرس بالرواحية وباشرها بعده شمس الدين عبد الرحمن بن نوح المقدسى ، يوم عاشر شوال . وفى هذا اليوم توفى بحماة ملكها :

﴿ الملك المنصور ناصر الدين ﴾

محمد بن محمود بن عمر بن ملكشاه ، بن أيوب ، ولد سنة ثلاثين وستمائة ، وتملك حماة سنة ثنتين وأربعين ، وله عشر سنين ، فمكث فى الملك أزيد من أربعين سنة ، وكان له بر وصدقات ، وقد

أعتق فى بعض موته خلقا من الأرقاء ، وقام فى الملك بعده ولده الملك المظفر بتقليد الملك المنصور له بذلك .

﴿ القاضى جمال الدين أبو يعقوب ﴾

يوسف بن عبدالله بن عمر الرازى ، قاضى قضاة المالكية ، ومدرسهم بعد القاضى زين الزواوى الذى عزل نفسه ، وقد كان ينوب عنه فاستقل بعده بالحكم ، توفى فى الخامس من ذى القعدة وهو فى طريق الحجاز ، وكان عالما فاضلا قليل التكليف والتكاف ، وقد شغر المنصب بعده ثلاث سنين ودرس بعده المالكية الشيخ جمال الدين الشريشى ، و بعده أبو إسحاق اللورى ، و بعده بدر الدين أبو بكر البريسى ، ثم لما وصل القاضى جمال الدين بن سليمان حاكما درس بالمدارس والله سبحانه أعلم

﴿ ثم دخلت سنة أربع وثمانين وستمائة ﴾

فى أواخر المحرم قدم الملك المنصور إلى دمشق ومعه الجيوش وجاء إلى خدمته صاحب حماة الملك المظفر بن المنصور فتلقاه بجميع الجيوش، وخلع عليه خلعة الملوك ، ثم سافر السلطان بالعساكر المصرية والشامية فنزل المرقب ففتحه الله عليهم فى يوم الجمعة ثامن عشر صفر ، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق فدقت البشائر و زينت البلد وفرح المسلمون بذلك ، لأن هذا الحصن كان مضرة على المسلمين ، ولم يتفق فتحه لأحد من ملوك الاسلام لا للملك صلاح الدين ، ولا للملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وفتح حوله بلنياس ومرقب وهى بلدة صغيرة إلى جانب البحر عند حصن منيع جداً لا يصل إليه سهم ولا حجر منجنيق، فأرسل إلى صاحب طرابلس فهدمه تقرباً إلى السلطان الملك المنصور ، واستنقذ المنصور خلقاً كثيراً من أسارى المسلمين ، الذين كانوا عند الفرنج ، ولله الحمد. ثم عاد المنصور إلى دمشق ، ثم سافر بالعساكر المصرية إلى القاهرة .

وفى أواخر جمادى الآخرة ولد للمنصور ولده الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وفيها عزل محيي الدين ابن النحاس عن نظر الجامع و وليه عز الدين بن محيي الدين بن الزكى ، و باشر ابن النحاس الوزارة عوضاً عن التقى توبة التكريتى ، وطلب التقى توبة إلى الديار المصرية وأحيط على أمواله وأملاكه ، وعزل سيف الدين طوغان عن ولاية المدينة ، وباشرها عز الدين بن أبى الهيجاء .

وممن توفى فيها من الأعيان :

﴿ الشيخ عز الدين محمد بن على ﴾

ابن إبراهيم بن شداد ، توفى فى صفر ، وكان فاضلا مشهوراً ، له كتاب سيرة الملك الظاهر، وكان معتنيا بالتاريخ .

﴿ البندقدارى ﴾

أستاذ الملك الظاهر بيبرس ، وهو الأمير الكبير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى ، كان من خيار الأمراء سامحه الله . توفى فى ربيع الآخر منها ، وقد كان الصالح نجم الدين صادر البندقدارى هذا ،

وأخذ منه مملوكه بيبرس فأضافه إليه لشهامته ونهضته ، فتقدم عنده على أستاذه وغيره .

﴿ الشيخ الصالح العابد الزاهد ﴾

شرف الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن بن إسماعيل الأخميمى ، كانت له جنازة هائلة ، ودفن بقاسيون رحمه الله .

﴿ ابن عامر المقرى ﴾

الذى ينسب إليه الميعاد الكبير ، الشيخ الصالح المقرى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عامر بن أبى بكر النسولى الحنبلى ، سمع الحديث من الشيخ موفق الدين بن قدامة وغيره ، وكان يعمل الميعاد ليلة الأحد ، فاذا فرغوا من ذلك دعا بهم ثم وعظهم . توفى يوم الاربعاء حادى عشر جمادى الآخرة ودفن بالقرب من تربة الشيخ عبد الله الأرمنى .

﴿ القاضى عماد الدين ﴾

داود بن يحيى بن كامل القرشى النصروى الحنفى ، مدرس العزية بالكشك ، وناب فى الحكم عن مجد الدين بن العديم ، وسمع الحديث وتوفى ليلة النصف من شعبان ، وهو والد الشيخ نجم الدين القجقازى ، شيخ الحنفية ، وخطيب جامع تنكر .

﴿ الشيخ حسن الرومى ﴾

شيخ سعيد السعداء بالقاهرة . وقد وليها بعده شمس الدين الاتابكى . الرشيد سعيد بن على بن سعيد . الشيخ رشيد الدين الحنفى مدرس الشبلية ، وله تصانيف مفيدة كثيرة ، ونظم حسن . فمن ذلك قوله :

قل لمن يحذر أن تدركه * نكبات الدهر لا يغنى الحذر
أذهب الحزن اعتقادى * أن كل شئ بقضاء وقدر

ومن شعره قوله :

الهى لك الحمد الذى أنت أهله * على نعم منها الهداية للحمد
صحيحاً خلقت الجسم منى مسلماً * ولطفك بى مازال مذ كنت فى المهد
وكنت يتيما قد أحاط بى الردى * فآويت واستنقذت من كل ما يردى
وهبت لى العقل الذى بضيائه * إلى كل خير يهتدى طالب الرشد
ووفقت للاسلام قلبى ومنطقى * فيا نعمة قد حل موقعها عندى
ولو رمت جهدى أن أجازى فضيلة * فضلت بها لم يجز أطرافها جهدى
ألست الذى أرجو حنانك عندما * يخلفنى الاهلون وحدى فى لحدى
فجدلى بلطف منك يهدى سريرتى * وقلبى ويدنينى إليك بلا بعد

توفى يوم السبت ثالث رمضان ، وصلى عليه العصر بالجامع المظفرى ، ودفن بالسفح .

﴿ أبو القاسم على بن بلبان بن عبد الله ﴾

الناصرى المحدث المفيد الماهر ، توفى يوم الخميس مستهل رمضان .

﴿ الأمير مجير الدين ﴾

محمد بن يعقوب بن عـلى المعروف بابن تميم الحموى الشاعر ، صاحب الديوان فى الشعر ، فمن شعره قوله : عاينت ورد الروض يلطم خده * ويقول قولا فى البنفسج يحنق [١]

لا تقربوه وإن تضوع نشره * ما بينكم فهو العـدو الأزرق

﴿ الشيخ العارف شرف الدين ﴾

أبو عبد الله محمد بن الشيخ عثمان بن على الرومى ، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون ، ومن عندهم خرج الشيخ جمال الدين محمد الساوجى وحلق ودخل فى ذى الجو القية وصار شيخهم ومقدمهم .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وثمانين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم أبو العباس أحمـد ، والسلطان الملك المنصور قلاوون ، ونائبه بالشام الأمير حسام الدين لاجين السلحدارى المنصورى ، والأمير بدرالدين الصوابى محاصر مدينة الكرك فى أواخر السنة الماضية ، وقدم عليه من مصر عسكر صحبة الأمير حسام الدين طرقطاى ، فاجتمعوا عـلى حصار الكرك حتى أنزلوا منهـا صاحبها الملك المسعود خضر بن الملك الظاهر ، فى مستهل صفر ، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق ، فـدقت البشائر ثلاثة أيام ، وعاد طرقطاى بالملك خضر وأهل بيته إلى الديار المصرية ، كما فعـل الملك الظاهر أبوه بالملك المغيث عمر بن العادل ، كما تقـدم ذلك . واستناب فى الكرك نائبا عن أمر المنصور ، ورتب أمورها وأجلوا منها خلقا من الكركيين ، واستخدموا بقلعة دمشق. ولما اقترب دخول آل الظاهر إلى القاهرة تلقاهم المنصور فأكرم لقياهم وأحسن إلى الأخوين نجم الدين خضر ، وبدر الدين سلامش ، وجعلهما يركبان مع ابنيه عـلى والأشرف خليل ، وجعل عليهما عيونا يرصـدون مايفعلان ، وأنزلا الدور بالقلعة وأجرى عليهم من الرواتب والنفقات ما يكفيهم وزيادة كثيرة ، وكتب الأمير بدر الدين بكتوت العـلائى وهو مجرد بحمص إلى نائب دمشق لاجين ، أنه قد انعقدت زوبعة فى يوم الخميس سابع صفر بأرض حمص ثم ارتفعت فى السماء كهيئة العمود والحية العظيمة ، وجعلت تختطف الحجارة الكبار ، ثم تصعد بها فى الجو كأنها سهام النشاب وحملت شيئا كثيرا من الجمال بأحمالها ، والأثاث والخيام والدواب ، ففقد الناس من ذلك شيئا كثيراً ، فانالله وإنا إليه راجعون . وفى هذا اليوم وقع مطر عظيم فى دمشق وجاء سيل كثير ولا سيما فى الصالحية .

وفيها أعيد علم الدين الدويدارى إلى مشد الدواوين بدمشق ، والصاحب تقى الدين بن توبة

---

(١) فى النجوم الزاهرة والشذرات : ويقول وهو على البنفسج محنق .

إلى الوزارة بدمشق . وفيها تولى قضاء المالكية بمصر زين الدين بن أبى مخلوف البريدى عوضا عن القاضى تقى الدين برساس الذى توفى بها . وفيها درس بالغزالية بدر الدين بن جماعة انتزعها من يد شمس الدين إمام الكلاسة ، الذى كان ينوب عن شمس الدين الايكى ، والايكى شيخ سعيد السعدا ، باشرها شهراً ثم جاء مرسوم باعادتها إلى الايكى ، وأنه قد استناب عنه جمال الدين الباجريقى ، فباشرها الباجريقى فى ثالث رجب .

وممن توفى فيها من الاعيان ﴿ أحمد بن شيبان ﴾

ابن تغلب الشيبانى أحد مشايخ الحديث المسندين المعمرين بدمشق ، توفى بصفر عن ثمان وثمانين سنة ، ودفن بقاسيون .

﴿ الشيخ الامام العالم البارع ﴾

الشيخ جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن بحمان البكرى الشريشى المالكى ، ولد بشريش سنة إحدى وستمائة ، ورحل إلى العراق فسمع بها الحديث من المشايخ والقطيعى وابن زوربة وابن الليثى وغيرهم ، واشتغل وحصل وساد أهل زمانه ، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية ، ثم أقام بالقدس شيخ الحرم ، ثم جاء إلى دمشق فولى مشيخة الحديث بتربة أم الصالح ، ومشيخة الرباط الناصرى بالسفح ، ومشيخة المالكية ، وعرض عليه القضاء فلم يقبل . توفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب بالرباط الناصرى بقاسيون ، ودفن بسفح قاسيون تجاه الناصرية وكانت جنازته حافلة جداً .

﴿ قاضى القضاة ﴾

يوسف ابن قاضى القضاة محيى الدين أبى الفضل يحيى بن محمد بن على بن محمد بن يحيى بن على ابن عبد العزيز بن على بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان ، القرشى الدمشقى المعروف بابن الزكى الشافعى ، كان فاضلا مبرزاً ، وهو آخر من ولى القضاء من بنى الزكى إلى يومنا هذا ، ولد فى سنة أربعين وسمع الحديث ، توفى ليلة الاثنين حادى عشر ذى الحجة ، ودفن بقاسيون ، وتولى بعده ابن الخوى شهاب الدين .

﴿ الشيخ مجد الدين ﴾

يوسف بن محمد بن محمد بن عبد الله المصرى ثم الدمشقى الشافعى الكاتب المعروف بابن المهتار ، كان فاضلا فى الحديث والأدب ، يكتب كتابة حسنة جدا ، وتولى مشيخة دار الحديث النورية ، وقد سمع الكثير وانتفع الناس به وبكتابته ، توفى عاشر ذى الحجة ودفن بباب الفراديس .

﴿ الشاعر الأديب ﴾

شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم بن محمد المعروف بابن الخيمى ، كانت له مشاركة فى علوم كثيرة ، ويد طولى فى النظم الرائق ، الفائق جاوز الثمانين وقد تنازع هو ونجم الدين بن

إسرائيل فى قصيدة بائية [١] فتحا كما إلى ابن الفارض فأمرهما بنظم أبيات على وزنها فنظم كل منهما فأحسن ، ولكن لابن الخيمى يد طولى عليه ، وكذلك فعل ابن خلكان ، وامتدحه على وزنها بأبيات حسان ، وقد أطال ترجمته الجزرى فى كتابه ، وفيها كانت وفاة .

﴿ الحاج شرف الدين [٢] ﴾

ابن مرِى ، والد الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله .

﴿ يعقوب بن عبد الحق ﴾

أبو يوسف المدينى سلطان بلاد المغرب ، خرج على الواثق بالله أبى دبوس فسلبه الملك بظاهر مراكش ، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء ، فى سنة ثمان وستين وستمائة ، واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة ، وزالت على يديه دولة الموحدين بها .

﴿ البيضاوى صاحب التصانيف ﴾

هو القاضى الامام العلامة ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازى ، قاضيها وعالمها وعالم أذربيجان وتلك النواحى ، مات بتبريز سنة خمس وثمانين وستمائة . ومن مصنفاته المنهاج فى أصول الفقه ، وهو مشهور ، وقد شرحه غير واحد ، وله شرح التنبيه فى أربع مجلدات ، وله الغاية القصوى فى دراية الفتوى ، وشرح المنتخب والكافية فى المنطق ، وله الطوالع وشرح المحصول أيضا ، وله غير ذلك من التصانيف المفيدة ، وقد أوصى إلى القطب الشيرازى أن يدفن بجانبه بتبريز والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ست وثمانين وستمائة ﴾

فى أول المحرم ركبت العساكر صحبة نائب الشام حسام الدين لاجين إلى محاصرة صهيون وحصن برزية ، فما نعمهم الأمير سيف الدين سنقر الأشقر ، فلم يزالوا به حتى استنزلوه وسلمهم البلاد ، وسار إلى خدمة السلطان الملك المنصور ، فتلقاه بالاكرام والاحترام ، وأعطاه تقدمة ألف فارس ، ولم يزل معظما فى الدولة المنصورية إلى آخرها ، وانقضت تلك الأحوال . وفى النصف من المحرم حكم القاضى جلال الدين الحنفى نيابة عن أبيه حسام الدين الرازى ، وفى الثالث عشر من ربيع الأول قدم القاضى شهاب الدين محمد بن القاضى شمس الدين بن الخليل الخوى من القاهرة على قضاء قضاة دمشق ، وقرئ تقليده يوم الجمعة مستهل ربيع الآخر ، واستمر بنيابة شرف الدين المقدسى وفى يوم الأحد ثلث شوال درس بالرواحية الشيخ صفى الدين الهندى ، وحضر عنده القضاة والشيخ تاج الدين الفزارى ، وعلم الدين الدويدارى ، وتولى قضاء قضاة القاهرة تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الاعز ، عوضا عن برهان الدين الخضر السنجارى ، وقدكان وليها شهراً بعد ابن الخوى

---

(١) مطلعها : يامطلبا ليس لى فى غيره أرب * إليك آل التقصى وانتهى الطلب

(٢) كانت وفاته فى سنة ٦٨٢ .

فاجتمع حينئذ إلى ابن بنت الأعز بين القضاء كله بالديار المصرية ، وذلك فى أوائل صفر منها .

وفيها استدعى سيف الدين السامرى من دمشق إلى الديار المصرية ليشترى منه ربع جزر ماء الذى اشتراه من بنت الملك الأشرف موسى ، فذكر لهم أنه وقفه ، وكان المتكلم فى ذلك علم الدين الشجاعى ، وكان ظالما ، وكان قد استنابه الملك المنصور بديار مصر ، وجعل يتقرب إليه بتحصيل الأموال ، ففتق لهم ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن المقدسى أن السامرى اشترى هذا من بنت الأشرف ، وهى غير رشيدة ، وأثبت سفهها على زين الدين بن مخلوف الجائر الجاهل ، وأبطل البيع من أصله ، واسترجع على السامرى بمغل مدة عشرين سنة مائتى ألف درهم ، وأخذوا منه حصة من الزنبقية قيمتها سبعين ألفا وعشرة آلاف مكملة ، وتركوه فقيراً على برد الديار ، ثم أثبتوا رشدها واشتروا منها تلك الحصص بما أرادوه ، ثم أرادوا أن يستدعوا بالدماشقة واحداً بعد واحد ، ويصادرونهم ، وذلك أنه بلغهم أن من ظلم بالشام لايفلح وأن من ظلم بمصر أفلح وطالت مدته ، وكانوا يطلبونهم إلى مصر أرض الفراعنة والظلم ، فيفعلون معهم ما أرادوا .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

قطب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ الامام أبى العباس أحمد بن على بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد الميمونى القيسى النورى المصرى ، ثم المالكى الشافعى المعروف بالقسطلانى ، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة ، ورحل إلى بغداد فسمع الكثير وحصل علوماً ، وكان يفتى على مذهب الشافعى ، وأقام بمكة مدة طويلة ثم صار إلى مصر فولى مشيخة دار الحديث ، وكان حسن الأخلاق محبباً إلى الناس ، توفى فى آخر المحرم ودفن بالقرافة الكبرى ، وله شعر حسن أورد منه ابن الجزرى قطعة صالحة .

﴿ عماد الدين ﴾

محمد بن العباس الدنيسرى الطبيب الماهر ، والحاذق الشاعر ، خدم الا كابر والوزراء وعمر ثمانين سنة وتوفى فى صفر من هذه السنة بدمشق .

﴿ قاضى القضاة ﴾

برهان الدين الخضر بن الحسين بن على السنجارى ، تولى الحكم بديار مصر غير مرة ، وولى الوزارة أيضاً ، وكان رئيساً وقوراً مهيبا ، وقد باشر القضاء بعده تقى الدين بن بنت الأعز .

﴿ شرف الدين سليمان بن عثمان ﴾

الشاعر المشهور ، له ديوان . مات فى صفر منها .

﴿ الشيخ الصالح عز الدين ﴾

عبد العزيز بن عبد المنعم بن الصيقل الحرانى ، ولد سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، وسمع

الـكثير ، ثم استوطن مصر حتى توفى بها فى رابع عشر رجب ، وقد جاوز التسعين ، وقـد سمع منه الحافظ علم الدين البرزالى لما رحل إلى مصر فى سنة أربع وثمانين ، وحكى عنـه أنه شهد جنازة فى بغداد فتبعهم نباش ، فلما كان الليل جاء إلى ذلك القبر ففتح عن الميت ، وكان الميت شابا قد أصابته سكتة ، فلما فتح القبر نهض ذلك الشاب الميت جالسا فسقط النباش ميتا فى القبر ، وخرج الشاب من قبره ، ودفن فيه النباش . وحكى له قال : كنت مرة بقليوب وبين يدى صبرة قمح ، فجـاء زنبور فأخذوا حدة ثم ذهب بها ، ثم جاء فأخذ أخرى ثم ذهب بها ، ثم جاء فأخذ أخرى أربع مرات ، قال فاتبعته فاذا هو يضع الحبة فى فم عصفور أعمى بين تلك الاشجار التى هناك . قال: وحكى لى الشيخ عبد الـكافى أنه شهد مرة جنازة فاذا عبد أسود معنا ، فلما صلى الناس عليها لم يصل ، فلما حضرنا الدفن نظر إلى وقال : أنا عمله ، ثم ألقى نفسه فى قبر ذلك الميت ، قال فنظرت فلم أر شيئا .

﴿ الحافظ أبو اليمن ﴾

أمين الدين عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن الحسن بن عساكر الدمشقى ترك الرياسة والأملاك ، وجاور بمكة ثلاثين سنة ، مقبلا على العبادة والزهادة ، وقد حصل له قبول من الناس شاميهم ومصريهم وغيرهم ، توفى بالمدينة النبوية فى ثانى رجب منها .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستمائة ﴾

فيها قدم الشجاعى من مصر إلى الشام بنيـة المصادرة لأرباب الأموال من أهـل الشام وفى أواخر ربيع الآخر قدم الشيخ ناصر الدين عبد الرحمن المقدسى من القاهرة ، على وكالة بيت المال ونظر الأوقاف ، ونظر الخاص ، ومعه تقاليد وخلع فتردد النـاس إلى بابه وتـكلم فى الامور وآذى الناس ، وكانت ولايته بسفارة الامير علم الدين الشجاعى المتكلم فى الديار المصرية ، توسل إليـه بالشيخ شمس الدين الأيكى وبابن الوحيد الـكاتب ، وكانا عنده لهما صورة . وقد طلب جماعة من أعيان الدماشقة فى أول هذه السنة إلى الديار المصرية فطولبوا بأموال كثيرة ، فدافع بعضهم بعضا ، وهذا مما يخفف عقوبته من ظلمهم ، وإلا فلو صبروا لعوجل الظالم بالعقوبة ، ولزال عنهم ما يكرهون سريعا . ولما قدم ابن المقدسى إلى دمشق كان يحكم بتربة أم الصالح ، والناس يترددون إليه ويخافون شره ، وقد استجد باشورة بباب الفراديس ومساطب باب الساعات للشهود ، وجدد باب الجـابية الشمالى ورفعه ، وكان متواطئا ، وأصلح الجسر الذى تحته ، وكذلك أصلح جسر باب الفراديس تحت السويقة التى جددها عليه من الجانبين . وهذا من أحسن ما عمله ابن المقدسى ، وقـد كان مع ذلك كثير الأذية للناس ظلوما غشوما ، ويفتح على الناس أبوابا من الظلم لاحاجة إليها .

وفى عاشر جمـادى الأولى قـدم من الديار المصرية أيضا قاضى القضاة حسام الدين الحنفى ،

والصاحب تقى الدين توبة التكريتى ، وقاضى القضاة جمال الدين محمد بن سليمان الزواوى المالكى على قضاء المالكية بعد شغوره عن حاكم بدمشق ثلاث سنين ونصف ، فأقام شعار المنصب ودرس ونشر المذهب وكان له سؤدد ورياسة .

وفى ليلة الجمعة رابع شعبان توفى الملك الصالح علاء الدين بن الملك المنصور قلاوون بالسنطارية فوجد عليه أبوه وجداً شديداً ، وقد كان عهد إليه بالأمر من بعده وخطب له على المنابر من مدة سنين ، فدفنه فى تربته وجعل ولاية العهد من بعده إلى ابنه الأشرف خليل ، من بعد أبيه ، وخطب له على المنابر من بعد ذكر أبيه يوم الجمعة ، ودقت البشائر وزين البلد سبعة أيام ، ولبس الجيش الخلع وركبوا ، وأظهر الناس سروراً لشهامته ، مع مافى قلوبهم على أبيه لأجل ظلم الشجاعى . وفى رمضان باشر حسبة دمشق شمس الدين بن السلعوسى عوضا عن شرف الدين ابن الشيرزى وفيه توجه الشيخ بدر الدين بن جماعة إلى خطابة القدس بعد موت خطيبه قطب الدين ، فباشر بعده تدريس القيمرية علاء الدين أحمد بن القاضى تاج الدين بن بنت الأعز . وفى شهر رمضان كبس نصرانى وعنده مسلمة وهما يشربان الخمر فى نهار رمضان ، فأمر نائب السلطنة حسام الدين لاجين بتحريق النصرانى فبذل فى نفسه أموالا جزيلة فلم يقبل منه ، وأحرق بسوق الخيل ، وعمل الشهاب محمود فى ذلك أبياتا فى قصيدة مليحة ، وأما المرأة فجلدت الحد .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الخطيب الامام قطب الدين ﴾

أبو الزكا عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن على بن جعفر بن عبد الله بن محمد بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، القرشى ، الزهرى ، خطيب بيت المقدس أربعين سنة ، وكان من الصلحاء الكبار محبوبا عند الناس ، حسن الهيئة مهيبا عزيز النفس ، يفتى الناس ويذكر التفسير من حفظه فى المحراب بعد صلاة الصبح ، وقد سمع الكثير وكان من الاخيار ، ولد سنة ثلاث وستمائة ، وتوفى ليلة الثلاثاء سابع رمضان عن أربع وثمانين سنة .

﴿ الشيخ الصالح العابد ﴾

إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبرى ، تقى الدين أبو إسحاق ، أصله من قلعة جعبر ، ثم أقام بالقاهرة ، وكان يعظ الناس وكان الناس ينتفعون بكلامه كثيرا . توفى بالقاهرة يوم السبت الرابع والعشرين من المحرم ، ودفن فى تربته بالحسينية ، وله نظم حسن ، وكان من الصلحاء المشهورين رحمه الله .

﴿ الشيخ الصالح ﴾

يس بن عبد الله المقرى الحجام ، شيخ الشيوخ محيى الدين النواوى ، وقد حج عشرين حجة ، وكانت له أحوال وكرامات .

﴿ الخوندة غازية خاتون ﴾

بنت الملك المنصور قلاوون ، زوجة الملك السعيد .

﴿ الحكيم الرئيس ﴾

علاء الدين بن أبي الحزم بن نفيس ، شرح القانون لابن سينا وصنف الموجز وغيره من الفوائد وكان يكتب من حفظه ،وكان اشتغاله على ابن الدخوارى ، وتوفى بمصر فى ذى القعدة .

﴿ الشيخ بدر الدين ﴾

عبد الله بن الشيخ جمال الدين بن مالك النحوى ، شارح الألفية التى عملها أبوه ، وهو من أحسن الشروح وأكثرها فوائد ، وكان لطيفا ظريفاً فاضلا ، توفى فى يوم الأحد الثامن من المحرم ، ودفن من الغد بباب الصغير . والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمائة ﴾

فيها كان فتح مدينة طرابلس : وذلك أن السلطان قلاوون قدم بالجيوش المنصورة المصرية صحبته إلى دمشق ، فدخلها فى الثالث عشر من صفر، ثم سار بهم و بجيش دمشق وصحبته خلق كثير من المتطوعة ، منهم القاضى نجم الدين الحنبلى ، قاضى الحنابلة ، وخلق من المقادسة وغيرهم ، فنازل طرابلس يوم الجمعة مستهل ربيع الأول، وحاصرها بالمجانيق حصارا شديداً، وضيقوا على أهلها تضيقا عظيما ، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا ،فلما كان يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة فتحت طرابلس فى الساعة الرابعة من النهار عنوة ، وشمل القتل والأسر جميع من فيها ، وغرق كثير من أهل الميناء وسبيت النساء والأطفال ، وأخذت الذخائر والحواصل ، وقد كان لها فى أيدى الفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة إلى هذا التاريخ ، وقد كانت قبل ذلك فى أيدى المسلمين من زمان معاوية ، فقد فتحها سفيان بن نجيب لمعاوية ، فأسكنها معاوية اليهود ،ثم كان عبد الملك بن مروان جدد عمارتها وحصنها وأسكنها المسلمين ، وصارت آمنة عامرة مطمئنة ، وبها ثمار الشام ومصر ، فان بها الجوز والموز والثلج والقصب ، والمياه جارية فيها تصعد إلى أماكن عالية ، وقد كانت قبل ذلك ثلاث مدن متقاربة ، ثم صارت بلداً واحداً ، ثم حولت من موضعها كما سيأتى الآن . ولما وصلت البشارة إلى دمشق دقت البشائر و زينت البلاد وفرح الناس فرحاً شديداً ولله الحمد والمنة .

ثم أمر السلطان الملك المنصور قلاوون أن تهدم البلد بما فيها من العمائر والدور والأسوار الحصينة التى كانت عليها ، وأن يبنى على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن ، ففعل ذلك ، فهى هذه البلدة التى يقال لها طرابلس ، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً مسروراً محبوراً ، فدخلها يوم النصف من جمادى الآخرة ، ولكنه فوض الامور والكلام فى الاموال فيها إلى إلى علم الدين

الشجاعى ، فصادر جماعة وجمع أموالا كثيرة ، وحصل بسبب ذلك أذى الخلق ، و بئس هذا الصنيع فان ذلك تعجيل لدمار الظالم وهلاكه ، فلم يغن عن المنصور ماجمع له الشجاعى من الأموال شيئا ، فانه لم يمش بعد ذلك إلا اليسير حتى أخذه الله أخذ القرى وهى ظالمة ، كما سيأتى . ثم سافر السلطان فى ثانى شعبان بجيشه إلى الديار المصرية ، فدخلها فى أواخر شعبان . وفيها فتحت قلاع كثيرة بناحية حلب : كركر ، وتلك النواحى ، وكسرت طائفة من التتر هناك ، وقتل ملكهم خربندا نائب التتر على ملطية .

وفيها تولى الحسبة بدمشق جمال الدين يوسف بن التقى توبة التكريتى ثم أخذها بعد شهور تاج الدين الشيرازى . وفيها وضع منبر عند محراب الصحابة بسبب عمارة كانت فى المقصورة ، فصلى برهان الدين الاسكندرى نائب الخطيب بالناس هناك مدة شهر ، الجماعات والجمعات ، ابتدؤا ذلك من يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى الحجة .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخة فاطمة بنت الشيخ إبراهيم الزعبى ﴾

زوجة النجم بن إسرائيل ، كانت من بيت الفقر، لها سلطنة و إقدام وترجمة وكلام فى طريقة الحريرية وغيرهم ، وحضر جنازتها خلق كثير ، ودفنت عند الشيخ رسلان .

﴿ العالم ابن الصاحب ﴾

الشيخ الماجن ، هو الشيخ الفاضل علم الدين أحمد بن يوسف بن عبد الله بن شكر ، كان من بيت علم و رياسة ، وقد درس فى بعض المدارس ، وكانت له وجاهة و رياسة ، ثم ترك ذلك كله وأقبل على الحرفشة وصحبة الحرافيش والتشبه بهم فى اللباس والطريقة ، وأكل الحشيش واستعمله ، كان من الفهم فى الخلاعة والمجون والزوائد الرائقة الفائقة التى لايلحق فى كثير منها ، وقد كان له أولاد فضلاء ينهونه عن ذلك فلم يلتفت إليهم ، ولم يزل ذلك دأبه حتى توفى ليلة الجمعة الحادى والعشرين من ربيع الأول . ولما ولى القضاة الأربعة كان ابن خالته تاج الدين بن بنت الأعز مستقلا فى القضاء قبل ذلك ، فقال له ابن الصاحب المذكور : ما مت حتى رأيتك صاحب ربع ، فقال له : تسكت وإلا خليتهم يسقونك السم ، فقال له : فى قلة دينك تفعل ، وفى قلة عقولهم يسمعوا منك ، وقال يمدح الحشيشة الخسيسة :

فى خمار الحشيش معنى مرامى * يا أهيل العقول والافهام
حرموها عن غير عقل ونقل * وحرام تحريم غير الحرام

وله أيضاً : يانفس ميلى إلى التصابى * فاللهو منه الفتى يعيش
ولا تملى من سكر يوم * إن أعوز الخمر فالحشيش

وله أيضاً : جمعت بين الحشيش والخمر * فرحت لا أهتدى من السكر
يا من يرينى لباب مدرستى * يربح والله غاية الأجر

وقال يهجو الصاحب بهاء الدين بن الحنا .

اقعد بها وتهنا * لابد أن تتعنى * تكتب على بن محمد * من اين لك ياابن حنا

فاستدعاه فضرب به ثم أمر به إلى المارستان فمكث فيه سنة ثم أطلق .

﴿ شمس الدين الاصبهانى ﴾

شارح المحصول : محمد بن محمود بن محمد بن عباد السلمانى العلامة ، قدم دمشق بعد الخمسين وستمائة ، وناظر الفقهاء واشتهرت فضائله ، وسمع الحديث وشرح المحصول للرازى ، وصنف القواعد فى أربعة فنون ، أصول الفقه ، وأصول الدين ، والمنطق ، والخلاف . وله معرفة جيدة فى المنطق والنحو والأدب ، وقد رحل إلى مصر فدرس بمشهد الحسين والشافعى وغيرهما ، ورحل إليه الطلبة ، توفى فى العشرين من رجب فى القاهرة عن ثنتين وسبعين سنة .

﴿ الشمس محمد بن العفيف ﴾

سليمان بن على بن عبد الله بن على التلمسانى ، الشاعر المطبق ، كانت وفاته فى حياة أبيه فتألم له ووجد عليه وجدا شديدا ، ورثاه بأشعار كثيرة ، توفى يوم الأربعاء الرابع عشر من رجب ، وصلى عليه بالجامع ، ودفن بالصوفية . فمن رائق شعره قوله :

وإن ثناياه نجوم لبدره * وهن لعقد الحسن فيه فرائد
وكم يتجافى خصره وهو ناحل * وكم يتحلى ثغره وهو بارد

وله يذم الحشيشة :

ما للحشيشة فضل عند آكلها * لكنه غير مصروف إلى رشده
صفراء فى وجهه خضراء فى فمه * حمراء فى عينه سوداء فى كبده

ومن شعره أيضاً: بدا وجهه من فوق ذابل خده * وقد لاح من سود الذوائب فى جنح
فقلت عجيب كيف لم يذهب الدجا * وقد طلعت شمس النهار على رمح

وله من جملة أبيات .

ماأنت عندى والقضيب * باللدن فى حد سوى * هذاك حركه الهوا * وانت حركت الهوى

﴿ الملك المنصور شهاب الدين ﴾

محمود بن الملك الصالح إسماعيل بن العادل ، توفى يوم الثلاثاء ثامن عشر شعبان ، وصلى عليه بالجامع ، ودفن من يومه بتربة جده ، وكان ناظرها ، وقد سمع الحديث الكثير ، وكان يحب أهله ،

وكان فيه لطف وتواضع.

﴿ الشيخ فخر الدين أبو محمد ﴾

عبد الرحمن بن يوسف البعلبكي الحنبلي، شيخ دار الحديث النورية ومشهد ابن عروة، وشيخ الصدرية، كان يفتي ويفيد الناس مع ديانة وصلاح وزهادة وعبادة، ولد سنة إحدى عشرة وستمائة، وتوفي في رجب منها.

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثمانين وستمائة ﴾

فيها كانت وفاة الملك المنصور قلاوون، وكان الخليفة الحاكم العباسي، ونائب مصر حسام الدين طرقطاي، ونائب الشام حسام الدين لاجين، وقضاة الشام شهاب الدين بن الخوي الشافعي، وحسام الدين الحنفي، ونجم الدين بن شيخ الجبل، وجمال الدين الزواوي المالكي، وجاء البريد يطلب شمس الدين سنقر الأشقر إلى الديار المصرية، فأكرمه السلطان وقواه وشد يده وأمره باستخلاص الأموال، وزاده مشد الجيوش، والكلام على الحصون إلى البيرة وكختا وغير ذلك، فقويت نفسه وزاد تجبره ولكن كان يرجع إلى مروءة وستر وينفع من ينتمي إليه، وذلك مودة في الدنيا في أيام قلائل، وفي جمادى الآخرة جاء البريد بالكشف على ناصر الدين المقدسي وكيل بيت المال، وناظر الخاص، فظهرت عليه مخازي من أكل الأوقاف وغيرها، فرسم عليه بالعذراوية وطولب بتلك الأموال وضيق عليه، وعمل فيه سيف الدين أبو العباس السامري قصيدة يتشفى فيها لما كان أسدى إليه من الظلم والايذاء، مع أنه راح إليه وتغمم له وتمازحا هنالك، ثم جاء البريد بطلبه إلى الديار المصرية فخاف النواب من ذهابه، فأصبح يوم الجمعة وهو مشنوق بالمدرسة العذراوية، فطلبت القضاة والشهود فشاهدوه كذلك، ثم جهز وصلى عليه بعد الجمعة ودفن بمقابر الصوفية عند أبيه، وكان مدرساً بالرواحية وتربة أم الصالح، مع الوكالتين والنظر.

وجاء البريد بعمل مجانيق لحصار عكا فركب الأعسر إلى أراضي بعلبك لما هنالك من الأخشاب العظيمة التي لا يوجد مثلها بدمشق، وهي تصلح لذلك، فكثرت الجنايات والجبايات والسخر، وكلفوا الناس تكليفاً كثيراً، وأخذوا أخشاب الناس، وحملت إلى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة، فانا لله وإنا إليه راجعون.

﴿ وفاة الملك المنصور قلاوون ﴾

بينما الناس في هذا الهم والمصادرات وأمثال ذلك إذ وردت بريدية فأخبروا بوفاة الملك المنصور يوم السبت سادس ذي القعدة من هذه السنة، بالمخيم ظاهر القاهرة، ثم حمل إلى قلعة الجبل ليلا وجلس بعده ولده الملك الأشرف خليل بولاية العهد له، وحلف له جميع الأمراء، وخطب له على المنابر، وركب في أبهة الملك، والعساكر كلهم في خدمته مشاة من قلعة الجبل إلى الميدان الأسود الذي هو سوق الخيل، وعلى الامراء والمقدمين الخلع، وعلى القضاة والأعيان، ولما جاءت الأخبار

بذلك حاف له الامراء بالشام ، وقبض على حسام الدين طرقطاى نائب أبيه وأخذمنه أموالا جزيلة أنفق منها على العساكر .

وفيها ولى خطابة دمشق زين الدين عمر بن مكى بن المرحل عوضاً عن جمال الدين بن عبد الكافى وكان ذلك بمساعدة الأعسر ، وتولى نظر الجامع الرئيس وجيه الدين بن المنجى الحنبلى ، عوضاً عن ناصر الدين بن المقدسى ، وثمر وقفه وعمره و زاد مائة وخمسين ألفا . وفيها احترقت دار صاحب حماة ، وذلك أنه وقع فيها نار فى غيبته فلم يتجاسر أحد يدخلها ، فعملت النار فيها يومين فاحترقت واحترق كل ما فيها .

و فى شوال درس بتربة أم الصالح بعد ابن المقدسى القاضى إمام الدين القونوى ، وفيها باشر الشرف حسين بن أحمد بن الشيخ أبى عمر قضاء الحنابلة عوضا عن ابن عمه نجم الدين بن شيخ الجبل ، عن مرسوم الملك المنصور قبل وفاته . وحج بالناس فى هذه السنة من الشام الأمير بدر الدين بكتوت الدوباسى ، وحج قاضى القضاة شهاب الدين بن الخوى ، وشمس الدين بن السلعوس ومقدم الركب الأمير عتبة ، فتوهم منه أبو نمى ، وكان بينهما عداوة ، فأغلق أبواب مكة ومنع الناس من دخولها فاحرق الباب وقتل جماعة ونهب بعض الاماكن ، وجرت خطوب فظيعة ، ثم أرسلوا القاضى ابن الخوى ليصالح بين الفريقين ، ولما استقر عند أبى نمى رحل الركوب و بقى هو فى الحرم وحده وأرسل معه أبو نمى من ألحقه بهم سالما معظماً . وجاء الخبر بموت المنصور إلى الناس وهم بعرفات وهذا شىء عجيب . وجاء كتاب يستحث الوزير ابن السلعوس فى المسير إلى الديار المصرية ، و بين الأسطر بخط الملك الأشرف : يا شقير يا وجه الخير احضر لتستلم الوزارة . فساق إلى القاهرة فوصلها يوم الثلاثاء عاشر المحرم ، فتسلم الوزارة كما قال السلطان .

وممن توفى فيها من الأعيان . ﴿ السلطان الملك المنصور قلاوون ﴾

ابن عبد الله التركى الصالحى الألفى ، اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، بألفى دينار ، وكان من أكابر الأمراء عنده و بعده ، ولما تزوج الملك السعيد بن الظاهر بابنته غازية خاتون ، عظم شأنه جداً عند الظاهر ، وما زال يترفع فى الدولة حتى صار أتابك سلامش بن الظاهر ، ثم رفعه من البين واستقل بالملك فى سنة أربع وثمانين ، وفتح طرابلس سنة ثمان وثمانين ، وعزم على فتح عكا و برز إليها فعاجلته المنية فى السادس والعشرين من ذى القعدة ، ودفن بتربته بمدرسته الهائلة التى أنشأها بين القصرين ، التى ليس بديار مصر ولا بالشام مثلها . وفيها دار حديث ومارستان . وعليها أوقاف دارة كثيرة عظيمة ، مات عن قريب من ستين سنة ، وكانت مدة ملكه اثنتى عشرة سنة ، وكان حسن الصورة مهيبا ، عليه أبهة السلطنة

ومهابة الملك ، تام القامة حسن اللحية عالى الهمة شجاعا وقورا سامحه الله .

﴿ الأمير حسام الدين طرقطاى ﴾

نائب السلطنة المنصورية بمصر ، أخذه الأشرف فسجنه فى قلعة الجبل ، ثم قتله و بقى ثمانية أيام لايدرى به ، ثم لف فى حصير وألقى على مزبلة ، وحزن عليه بعض الناس ، فكفن كآحاد الفقراء بعد النعيم الكثير ، والدنيا المتسعة ، والكلمة النافذة ، وقد أخذ السلطان من حواصله ستمائة ألف دينار وسبعين قنطاراً بالمصرى فضة ، ومن الجواهر شيئا كثيرا ، سوى الخيل والبغال والجمال والأمتعة والبسط الجياد ، والأسلحة المثمنة ، وغير ذلك من الحواصل والأملاك بمصر والشام ، وترك ولدين أحدهما أعمى ، وقد دخل هذا الاعمى على الأشرف فوضع المنديل على وجهه وقال شئ لله وذكر له أن لهم أياما لايجدون شيئا يأكلونه ، فرق له وأطلق لهم الاملاك يأكلون من ريعها ، فسبحان الله المتصرف فى خلقه بما يشاء ، يعز من يشاء و يذل من يشاء .

﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

رشيد الدين عمر بن إسماعيل بن مسعود الفارقى الشافعى ، مدرس الظاهرية ، توفى بها وقد جاوز التسعين ، وجد مخنوقا فى المحرم ، ودفن بالصوفية ، وقد سمع الحديث وكان منفردا فى فنون من العلوم كثيرة ، منها علم النحو والأدب وحل المترجم والكتابة والانشاء وعلم الفلك والنجوم وضرب الرمل والحساب وغير ذلك ، وله نظم حسن .

﴿ الخطيب جمال الدين أبو محمد ﴾

عبد الكافى بن عبد الملك بن عبد الكافى الربعى ، توفى بدار الخطابة وحضر الناس الصلاة عليه يوم السبت سلخ جمادى الأولى ، وحمل إلى السفح فدفن إلى جانب الشيخ يوسف الفقاعى .

﴿ فخر الدين أبو الظاهر إسماعيل ﴾

ابن عز القضاة أبى الحسن على بن محمد بن عبد الواحد بن أبى اليمن ، الشيخ الزاهد المتقلل من متاع الدنيا ، توفى فى العشرين من رمضان ، وصلى عليه فى الجامع ، ودفن بتربة بنى الزكى بقاسيون محبة فى محيى الدين بن عربى ، فانه كان يكتب من كلامه كل يوم ورقتين ، ومن الحديث ورقتين وكان مع هذا يحسن الظن به ، وكان يصلى مع الأئمة كلهم بالجامع ، وقد أخبر عنه بعض العلماء أنه رأى بخطه .

وفى كل شئ له آية * تدل على أنه عينه

وقد صحح على « عينه » و إنما الصحيح المروى عمن أنشد هذا الشعر

* تدل على أنه واحد *

وله شعر فمنه : والنهر مذ جن فى الغصون هوى * فراح فى قلبه يمثلها

فغار منـه النسيم عاشقهـا * فجـاء عن وصله يميلهـا

وله أيضا : لمـا تحقق بالامكان فوقـكم * وقـد بدا حكمه فى عالم الصور
فـميز الجمع عنه وهو متحـد * فلاح فرقكم فى عالم الصور

وله : لى سادة لا أرى سواهم * هم عين معناى وعين جوفى
لقـد أحاطوا بـكل جزء * منى وعزوا عن درك طرفى
هم نظروا فى عموم فقرى * وطول ذلى وفرط ضعفى
فمالوا نى ببحت جـود * وصرف بر ومحض لطف
فـلا تلم إن جررت ذيـلى * فخراً بهـم أو ثنيت عطفى

وله : مواهب ذى الجلال لدى تترى * فقد أخرستنى ونطقن شكرا
فنعمى إثر نعمى إثر نعمى * و بشرى بعد بشرى بعد بشرى
لهـا بدء وليس لها انتهـاء * يعم مزيدها دنيـا وأخرى

﴿ الحاج طيبرس بن عبد الله ﴾

علاء الدين الوزير ، صهر الملك الظاهر ، كان من أكابر الأمراء ذوى الحل والعقد ، وكان دينا كثير الصدقات ، له خان بدمشق أوقفه ، وله فى فكاك الاسرى وغير ذلك ، وأوصى عنـد موته بثمانمائة ألف تصرف عـلى الجند بالشام ومصر ، فحصل لـكل جندى خمسون درهما ، وكانت وفاته فى ذى الحجة ، ودفن بتربته بسفح المقطم .

﴿ قاضى القضاة ﴾

نجم الدين أبو العباس بن الشيخ شمس الدين بن أبى عمر المقدسى ، توفى ثانى عشر رجب بسوا ، وكان فاضـلا بارعاً خطيباً مدرسا بأكثر المدارس ، وهو شيخ الحنابلة وابن شيخهم ، وتولى بعده القضاء الشيخ شرف الدين حسين بن عبد الله بن أبى عمر ، والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة تسعين وستمائة من الهجرة ﴾

فيها فتحت عكا و بقية السواحل التى كانت بأيدى الفرنج من مدد متطاولة ، ولم يبق لهم فيها حجر واحد ولله الحمد والمنة

استهلت هذه السنة والخليفة الحاكم بأمرالله أبو العباس العباسى ، وسلطان البلاد الملك الأشرف خليل بن المنصور قـلاوون ، ونائبـه بمصر وأعمالها بدر الدين بيـدرا ، ووزيره ابن السلعوس الصاحب شمس الدين ، ونائبه بالشام حسام الدين لاجين السلحدارى المنصورى ، وقضاة الشام

هم المذكورون فى التى قبلها ، وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول ، وصاحب مكة نجم الدين أبو نمى محمد بن إدريس بن على بن قتادة الحسينى ، وصاحب المدينة عز الدين جماز بن شيحة الحسينى ، وصاحب الروم غياث الدين كنجسر ، وهو ابن ركن الدين قلج أرسلان السلجوقى ، وصاحب حماة تقى الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين محمد ، وسلطان بلاد العراق وخراسان وتلك النواحى أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى بن جنكزخان .

وكان أول هذه السنة يوم الخميس وفيه تصدق عن الملك المنصور بأموال كثيرة جداً من الذهب والفضة ، وأنزل السلطان إلى تربته فى ليلة الجمعة فدفن بها تحت القبة ، ونزل فى قبره بدر الدين بيدرا ، وعلم الدين الشجاعى ، وفرقت صدقات كثيرة حينئذ ، ولما قدم الصاحب شمس الدين بن السلعوس من الحجاز خلع عليه للوزارة ، وكتب تقليده بها القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب الانشا بيده ، وركب الوزير فى أبهة الوزارة إلى داره ، وحكم . ولما كان يوم الجمعة قبض على شمس الدين سنقر الأشقر وسيف الدين بن جرمك الناصرى ، وأفرج عن الأمير زين الدين كتبغا وكان قد قبض عليه مع طرقطاى ، ورد عليه أقطاعه ، وأعيد التقى توبة إلى وزارة دمشق مرة أخرى. وفيها أثبت ابن الخوى محضراً يتضمن أن يكون تدريس الناصرية للقاضى الشافعى وانتزعها من زين الدين الفارقى .

﴿ ذكر فتح عكا وبقية السواحل ﴾

وفيها جاء البريد إلى دمشق فى مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار لعكا ، ونودى فى دمشق الغزاة فى سبيل الله إلى عكا ، وقد كان أهل عكا فى هذا الحين عدوا على من عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأبرزت المناجيق إلى ناحية الجسورة ، وخرجت العامة والمتطوعة يجرون فى العجل حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء ، وتولى ساقها الأمير علم الدين الدويدارى ، وخرجت العساكر بين يدى نائب الشام ، وخرج هو فى آخرهم ، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر وخرج الناس من كل صوب ، واتصل بهم عسكر طرابلس ، وركب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصداً عكا ، فتوافت الجيوش هنالك ، فنازلها يوم الخميس رابع ربيع الآخر ونصبت عليها المناجيق من كل ناحية يمكن نصبها عليها ، واجتهدوا غاية الاجتهاد فى محاربتها والتضييق على أهلها ، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخارى ، فقرأه الشيخ شرف الدين الفزارى ، فحضر القضاة والفضلاء والأعيان . وفى أثناء محاصرة عكا وقع تخبيط من نائب الشام حسام الدين لاجين ، فتوهم أن السلطان يريد مسكه ، وكان قد أخبره بذلك الأمير الذى يقال له أبو خرص ، فركب هاربا فرده علم الدين الدويدارى بالمسا به وجاء به إلى السلطان فطيب قلبه وخلع عليه ثم

أمسكه بعد ثلاثة أيام و بعثه إلى قلعة صفد واحتاط على حواصله، ورسم على أستاذ داره بدر الدين بكداش ، وجرى مالا يليق وقوعه هنالك ، إذ الوقت وقت عسر وضيق وحصار . وصمم السلطان على الحصار فرتب الكوسات ثلثمائة حمل ، ثم زحف يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ودقت الكوسات جملة واحدة عند طلوع الشمس ، وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس، ونصبت السناجق الاسلامية فوق أسوار البلد ، فولت الفرنج عند ذلك الأدبار، وركبوا هاربين فى مراكب التجار ، وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله تعالى ، وغنموا من الأمتعة والرقيق والبضائع شيئاً كثيراً جدا ، وأمر السلطان بهدمها وتخريبها ، بحيث لا ينتفع بها بعد ذلك ، فيسر الله فتحها نهار جمعة ، كما أخذتها الفرنج من المسلمين فى يوم الجمعة ، وسلمت صور وصيدا قيادتهما إلى الأشرف ، فاستوثق الساحل للمسلمين ، وتنظف من الكافرين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

وجاءت البطاقة إلى دمشق بذلك ففرح المسلمون ، ودقت البشائر فى سائر الحصون ، وزينت البلاد ليتنزه فيها الناظرون والمتفرجون ، وأرسل السلطان إلى صور أميراً فهدم أسوارها وعفا آثارها . وقد كان لها فى أيدى الفرنج من سنة ثمان عشرة وخمسمائة . وأما عكا فقد كان الملك الناصر يوسف بن أيوب أخذها من أيدى الفرنج ، ثم إن الفرنج جاؤا فأحاطوا بها بجيوش كثيرة ، ثم جاء صلاح الدين ليمانعهم عنها مدة سبعة وثلاثين شهراً ، ثم آخر ذلك استملكوها وقتلوا من كان فيها من المسلمين ، كما تقدم ذلك .

ثم إن السلطان الملك الاشرف خليل بن المنصور قلاوون سار من عكا قاصداً دمشق فى أبهة الملك وحرمة وافرة ، وفى صحبته وزيره ابن السلعوس والجيوش المنصورة ، وفى هذا اليوم استناب بالشام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، وسكن بدار السعادة ، وزيد فى إقطاعه حرستا ولم تقطع لغيره ، وإنما كانت لمصالح حواصل القلعة ، وجعل له فى كل يوم ثلثمائة على دار الطعام ، وفوض إليه أن يطلق من الخزانة ما يريد من غير مشاورة ولا مراجعة ، وأرسله السلطان إلى صيدا لأنه كان قد بقى بها برج عصى ، ففتحه ودقت البشائر بسببه ، ثم عاد سريعاً إلى السلطان فودعه ، وسار السلطان نحو الديار المصرية فى أواخر رجب ، وبعثه إلى بيروت ليفتحها فسار إليها ففتحها فى أقرب وقت ، وسلمت عثلية وانطرطوس وجبيل . ولم يبق بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج إلا بأيدى المسلمين ، وأراح الله منهم البلاد والعباد ، ودخل السلطان إلى القاهرة فى تاسع شعبان فى أبهة عظيمة جداً ، وكان يوماً مشهوداً . وأفرج عن بدر الدين بيسرى بعد سجن سبع سنين . ورجع علم الدين سنجر الشجاعى نائب دمشق إلى دمشق فى سابع عشرين الشهر المذكور ، وقد نظف السواحل من الفرنج بالكلية ، ولم يبق لهم بها حجر . وفى رابع رمضان أفرج عن حسام الدين لاجين من قلعة صفد ومعه جماعة

أمراء ، ورد عليهم إقطاعاتهم ، وأحسن إليهم وأكرمهم .

وفى أوائل رمضان طلب القاضى بدر الدين ابن جماعة من القدس الشريف وهو حاكم به ، وخطيب فيه ، على البريد إلى الديار المصرية فدخلها فى رابع عشره ، وأفطر ليلتئذ عند الوزير ابن السلعوس وأكرمه جداً واحترمه ، وكانت ليلة الجمعة ، فصرح الوزير بعزل تقى الدين ابن بنت الاعز وتولية ابن جماعة بالديار المصرية قضاء القضاة ، وجاء القضاة إلى تهنئته وأصبح الشهود بخدمته ، ومع القضاء خطابة الجامع الأزهر ، وتدريس الصالحية ، وركب فى الخلعة والطرحة ورسم لبقية القضاة أن يستمروا بلبس الطرحات ، وذهب فخطب بالجامع الأزهر ، وانتقل إلى الصالحية ودرس بها فى الجمعة الأخرى وكان درساً حافلا ، ولما كان يوم الجمعة رسم السلطان للحاكم بأمر الله أن يخطب هو بنفسه الناس يومئذ وأن يذكر فى خطبته أنه قد ولى السلطنة للأشرف خليل بن المنصور ، فلبس خلعة سوداء وخطب الناس بالخطبة التى كان خطب بها فى الدولة الظاهرية ، وكانت من إنشاء الشيخ شرف الدين المقدسى فى سنة ستين وستمائة ، فيكون بين الخطبتين أزيد من ثلاثين سنة ، وذلك بجامع قلعة الجبل ، ثم استمر ابن جماعة يخطب بالقلعة عند السلطان ، وكان يستنيب فى الجامع الأزهر .

وأما ابن بنت الأعز فناله من الوزير إخراق ومصادرة وإهانة بالغة ، ولم يترك له من مناصبه شيئا ، وكان بيده سبعة عشر منصبا ، منها القضاء والخطابة ونظر الأحباس ومشيخة الشيوخ ، ونظر الخزانة وتداريس كبار ، وصادره بنحو من أربعين ألف ، غير مراكبه وأشياء كثيرة ، ولم يظهر منه استكانة له ولا خضوع ، ثم عاد فرضى عنه وولاه تدريس الشافعى ، وعملت ختمة عند قبر المنصور فى ليلة الاثنين رابع ذى القعدة وحضرها القضاة والامراء ، ونزل السلطان ومعه الخليفة إليهم وقت السحر ، وخطب الخليفة بعد الختمة خطبة بليغة ، حرض الناس على غزو بلاد العراق واستنقاذها من أيدى التتر ، وقد كان الخليفة قبل ذلك محتجبا فرآه الناس جهرة ، وركب فى الاسواق بعد ذلك . وعمل أهل دمشق ختمة عظيمة بالميدان الأخضر إلى جانب القصر الأبلق ، فقرئت ختمات كثيرة ثم خطب الناس بعدها الشيخ عز الدين الفاروثى ، ثم ابن البزورى ، ثم تكلم من له عادة بالكلام وجاءت البريدية بالتهيؤ لغزو العراق ، ونودى فى الناس بذلك ، وعملت سلاسل عظام بسبب الجسورة على دجلة بغداد ، وحصلت الأجور على المقصود وإن لم يقع المقصود ، وحصل لبعض الناس أذى بسبب ذلك .

وفيها نادى نائب الشام الشجاعى أن لا تلبس امرأة عمامة كبيرة ، وخرب الأبنية التى على نهر بانياس والجداول كلها والمسالح والسقايات التى على الأنهار كلها ، وأخرب جسر الزلابية وما عليه من الدكاكين ، ونادى أن لا يمشى أحد بعد العشاء الآخرة ، ثم أطلق لهم هذه فقط ، وأخرب الحمام

الذى كان بناه الملك السعيد ظاهر باب النصر ، ولم يكن بدمشق أحسن منه ، ووسع الميدان الأخضر من ناحية الشمال مقدار سدسه ، ولم يترك بينه و بين النهر الا مقدارا يسيراً ، وعمل هو بنفسه والأمراء بحيطانه .

وفيها حبس جمال الدين آقوش الأفرم المنصورى وأميراً آخر معه فى القلعة .

وفيها حمل الأمير علم الدين الدويدارى إلى الديار المصرية مقيداً . وقد نظم الشيخ شهاب الدين محمود قصيدة فى فتح عكا .

الحمد لله زالت دولة الصلب * وعز بالترك دين المصطفى العربى
هذا الذى كانت الآمال لو طلبت * رؤياه فى النوم لاستحييت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها * فى البحر للترك عند البر من أرب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت * فى البحر والبر ماينجى سوى الهرب
أم الحروب فكم قد أنشأت فتناً * شاب الوليد بها هولا ولم تشب
ياوم عكا لقد أنسيت ما سبقت * به الفتوح وما قد خط فى الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما * عسى يقوم به ذو الشعر والأدب
أغضبت عبّاد عيسى إذ أبدتهم * لله أى رضى فى ذلك الغضب
وأشرف الهادى المصطفى البشير على * ماأسلف الأشرف السلطان من قرب
فقر عينا لهذا الفتح وابتهجت * ببشره الكعبة الغراء فى الحجب
وسار فى الأرض سيراً قد سمعت به * فالبر فى طرب ، والبحر فى حَرَب

وهى طويلة جداً ، وله ولغيره فى فتح عكا أشعار كثيرة . ولما رجع البريد أخبر بأن السلطان لما عاد إلى مصر خلع على وزيره ابن السلعوس جميع ملابسه التى كانت عليه ، ومركوبه الذى كان تحته ، فركبه ورسم له بثمانية وسبعين ألفا من خزانة دمشق ، ليشترى له بها قرية قرحتا من بيت المال .

وفى هذه السنة انتهت عمارة قلعة حلب بعد الخراب الذى أصابها من هولاكو وأصحابه عام ثمان وخمسين . وفيها فى شوال شرع فى عمارة قلعة دمشق و بناء الدور السلطانية والطارمة والقبة الزرقاء ، حسب ما رسم به السلطان الأشرف خليل بن قلاوون لنائبه علم الدين سنجر الشجاعى. وفيها فى رمضان أعيد إلى نيابة القلعة الأمير أرجواش وأعطى إقطاعات سنية .وفيها أرسل الشيخ الرجيحى من ذرية الشيخ يونس مضيقا عليه محصوراً إلى القاهرة ، وفيها درس عز الدين القارونى بالمدرسة النجيبية عوضا عن كمال الدين ابن خلكان ، وفى ذلك اليوم درس نجم الدين مكى بالرواحية

عوضا عن ناصر الدين ابن المقدسي ، وفيـه درس كمال الدين الطبيب بالمدرسة الدخوارية الطبية ، وفى هـذا الشهر درس الشيخ جلال الدين الخبازى بالخاتونية البرانية ، وجمـال الدين بن الناصر بقى بالفتحية ، وبرهان الدين الاسكندرى بالقوصـية التى بالجامع ، والشيخ نجم الدين الدمشقى بالشريفية عند حارة الغرباء . وفيها أعيدت الناصرية إلى الفارقى وفيه درس بالأمينية القاضى نجم الدين ابن صصرى بعد ابن الزملكانى ، وأخذت منه العادلية الصغيرة لكمال الدين ابن الزملـكانى .

وممن توفى فيها من الأعيان : ﴿ أرغون بن أبغا ملك التتار ﴾

كان شهما شجاعا سفا كا للدماء ، قتل عمه السلطان أحمد بن هولاكو ، فعظم فى أعين المغول فلما كان فى هذه السنة مات من شراب شرب به فيه سم ، فاتهمت المغول اليهود به ـ وكان وزيره سعد الدولة ابن الصفى يهوديا ـ فقتلوا من اليهود خلقا كثيرا ، ونهبوا منهم أموالا عظيمة جـدا فى جميع مدائن العراق ، ثم اختلفوا فيمن يقيمونه بعده ، فمالت طائفة إلى كيختو فأجلسوه على سرير المملكة ، فبقى مدة ، قيل سنة وقيل أقل من ذلك ، ثم قتلوه وملكوا بعده بيدرا . وجاء الخبر بوفاة أرغون إلى الملك الأشرف وهو محاصر عكا ففرح بذلك كثيرا ، وكانت مدة ملك أرغون ثمان سنين ، وقـد وصفه بعض مؤرخى العراق بالعدل والسياسة الجيدة .

﴿ المسند المعمر الرحالة ﴾

فخر الدين بن النجار وهو أبو الحسن على بن أحمـد بن عبد الواحد المقدسى الحنبلى المعروف بابن النجار ، ولد فى سلخ أو مستهل سـنة ست وسبعين وخمسمائة ، وسمع الـكثير ورحل مع أهله ، وكان رجلا صالحا عابداً زاهداً ورعا ناسكا ، تفرد بروايات كثيرة لطول عمره ، وخرجت له مشيخات وسمع منـه الخلق الـكثير والجم الغفير ، وكان منصوبا لذلك حتى كبر وأسنّ وضعف عن الحركة ، وله شعر حسن ، منه قوله :

تـكررت السنون عـلى حتى * بليت وصرت من سقط المتاع
وقل النفع عندى غير أنى * أعلل بالرواية والسماع
فان يك خالصاً فله جزاء * وإن يك مالقاً فالى ضياع

وله أيضاً :

إليك اعتذارى من صلاتى قاعداً * وعجزى عن سعى إلى الجمعات
وتركى صلاة الفرض فى كل مسجد * تجمع فيه الناس للصلوات
فيارب لا تمقت صلاتى ونجنى * من النار واصفح لى عن الهفوات

توفى ضحى نهار الأربعاء ثانى ربيع الآخر من هذه السنة ، عن خمس وتسعين سنة ، وحضر جنازته خلق كثير ، ودفن عنـد والده الشيخ شمس الدين أحمد بن عبـد الواحد بسفح قاسيون .

﴿ الشيخ تاج الدين الفزارى ﴾

عبد الرحمن بن سباع بن ضياء الدين أبو محمد الفزارى ، الامام العلامة العالم ، شيخ الشافعية فى زمانه ، حاز قصب السبق دون أقرانه ، وهو والد شيخنا العلامة برهان الدين . كان مولد الشيخ تاج الدين فى سنة ثلاثين وستمائة ، وتوفى ضحى الاثنين خامس جمادى الآخرة ، بالمدرسة البادرائية وصلى عليه بعد الظهر بالاموى ، تقدم للصلاة عليه قاضى القضاة شهاب الدين بن الخوبى ، ثم صلى عليه عند جامع جراح الشيخ زين الدين الفارقى ، ودفن عند والده بباب الصغير ، وكان يوما شديد الزحام . وقد كان ممن اجتمع فيه فنون كثيرة من العلوم النافعة ، والأخلاق اللطيفة ، وفصاحة المنطق ، وحسن التصنيف ، وعلو الهمة ، وفقه النفس ، وكتابه الأقليد الذى جمع على أبواب التنبيه وصل فيه إلى باب الغصب ، دليل على فقه نفسه وعلوقدره ، وقوة همته ونفوذ نظره ، واتصافه بالاجتهاد الصحيح فى غالب ما سطره ، وقد انتفع به الناس ، وهو شيخ أكابر مشايخنا هو ومحى الدين النووى ، وله اختصار الموضوعات لابن الجوزى ، وهو عندى بخطه ، وقد سمع الحديث الكثير وحضر عند ابن الزبيدى صحيح البخارى ، وسمع من ابن الليثى وابن الصلاح واشتغل عليه ، وعلى ابن عبد السلام وانتفع بهما ، وخرج له الحافظ علم الدين البرزالى أحد تلاميذه مشيخة فى عشرة أجزاء عن مائة شيخ فسمعها عليه الأعيان : وله شعر جيد فمنه :

لله أيام جمع الشمل ما برحت * بها الحوادث حتى أصبحت سمرا

ومبتدا الحزن من تاريخ مسألتى * عنكم ، فلم ألق لاعينا ولا أثرا

ياراحلين قدرتم فالنجاة لكم * ونحن للعجز لا نستعجز القدرا

وقد ولى الدرس بعده بالبادرائية والحلقة والفتيا بالجامع ولده شيخنا برهان الدين ، فمشى على طريقة والده وهديه وسمته رحمه الله . وفى ثالث شعبان توفى

﴿ الطبيب الماهر عز الدين إبراهيم بن محمد بن طرخان ﴾

السويدى الأنصارى ، ودفن بالسفح عن تسعين سنة ، وروى شيئا من الحديث ، وفاق أهل زمانه فى صناعة الطب ، وصنف كتبا فى ذلك ، وكان يرمى بقلة الدين وترك الصلوات وانحلال فى العقيدة ، وإنكار أمور كثيرة مما يتعلق باليوم الآخر ، والله يحكم فيه وفى أمثاله بأمره العدل الذى لا يجور ولا يظلم . وفى شعره ما يدل على قلة عقله ودينه وعدم إيمانه ، واعتراضه على تحريم الخمر ، وأنه قد طال رمضان عليه فى تركها وغير ذلك .

﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

علاء الدين أبو الحسن على بن الامام العلامة كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم بن

خلف الانصارى الزملكانى ، وقد درس بعد أبيه المذكور بالأمينية ، وكانت وفاة والده هذا ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الآخر بالأمينية ، ودفن بمقابر الصوفية عند والده الأمير الكبير بدر الدين على بن عبد الله الناصرى ، ناظر الرباط بالصالحية ، عن وصية أستاذه ، وهو الذى ولى الشيخ شرف الفزارى مشيخة الرباط بعد ابن الشريشى جمال الدين ، وقد دفن بالتربة الكبيرة داخل الرباط المذكور .

﴿ الشيخ الامام أبو حفص عمر بن يحيى بن عمر الكرخى ﴾

صهر الشيخ تقى الدين بن الصلاح ، وأحد تلاميذه ، ولد سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، ومات يوم الاربعاء ثانى ربيع الآخر من هذه السنة ، ودفن إلى جانب ابن الصلاح .

﴿ الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر ﴾

الذى كان قد بويع بالملك بعد أخيه الملك السعيد ، وجعل الملك المنصور قلاوون أتابكه ، ثم استقل قلاوون بالملك ، وأرسلهم إلى الكرك ثم أعادهم إلى القاهرة ثم سفرهم الاشرف خليل فى أول دولته إلى بلاد الاشكرى من ناحية اصطنبول ، فمات سلامش هناك و بقى أخوه نجم الدين خضر وأهلوهم بتلك الناحية ، وقد كان سلامش من أحسن الناس شكلا وأبهاهم منظراً ، وقد افتتن به خلق كثير ، واللوطية الذين يحبون المردان ، وشبب به الشعراء وكان عاقلا رئيساً مهيباً وقوراً

﴿ العفيف التلمسانى ﴾

أبو الربيع سليمان بن على بن عبد الله بن على بن يس العابدى الكومى ثم التلمسانى الشاعر المتقن المتفنن فى علوم منها النحو والأدب والفقه والأصول ، وله فى ذلك مصنفات ، وله شرح مواقف النفر وشرح أسماء الله الحسنى ، وله ديوان مشهور ، ولولده محمد ديوان آخر ، وقد نسب هذا الرجل إلى عظائم فى الأقوال والاعتقاد فى الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض ، وشهرته تغنى عن الاطناب فى ترجمته ، توفى يوم الاربعاء خامس رجب ودفن بالصوفية ، ويذكر عنه أنه عمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوماً متتابعة فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وستمائة ﴾

فيها فتحت قلعة الروم وسلطان البلاد من دنقلة إلى مصر إلى أقصى بلاد الشام بكماله وسواحله بلاد حلب وغير ذلك الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون ، ووزيره شمس الدين بن السعلوس ، وقضاته بالشام ومصر هم المذكورون فى التى قبلها ، ونائب مصر بدر الدين بندار ونائب الشام علم الدين سنجر الشجاعى ، وسلطان التتر بيدار بن أرغون بن أبغا ، والعمارة فى الطارمة وفى دور السلطانية بالقلعة . وفى عشرين المحرم وقع حريق عظيم بقلعة الجبل ببعض

الخزائن أتلف شيئا كثيراً من الذخائر والنفائس والكتب . وفى التاسع والعشرين من ربيع الاول خطب الخليفة الحاكم وحث فى خطبته على الجهاد والنفير ، وصلى بهم الجمعة وجهر بالبسملة . وفى ليلة السبت ثالث عشر صفر جيء بهذا الجرز الأحمر الذى بباب البرادة من عكا ، فوضع فى مكانه . وفى ربيع الأول كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء ، وجاءت فى غاية الحسن والكمال والارتفاع . وفى يوم الاثنين ثانى جمادى الأولى ذكر الدرس بالظاهرية الشيخ صفى الدين محمد بن عبد الرحيم الأرموى ، عوضاً عن علاء الدين بن بنت الاعز . وفى هذا اليوم درس بالدولعية كمال الدين بن الزكى . وفى يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة درس بالنجيبية الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الطوسى ، بمقتضى نزول الفارقى له عنها . والله أعلم بالصواب .

﴿ فتح قلعة الروم ﴾

وفى ربيع الاول منها توجه السلطان الاشرف بالعساكر نحو الشام فقدم دمشق ومعه وزيره ابن السلعوس فاستعرض الجيوش وأنفق فيهم أموالا جزيلة ، ثم سار بهم نحو بلاد حلب ، ثم سار إلى قلعة الروم فافتتحها بالسيف قهراً فى يوم السبت حادى عشر رجب ، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق ، وزينت البلد سبعة أيام وبارك الله لجيش المسلمين فى سعيهم ، وكان يوم السبت إلباعلى أهل يوم الأحد ، وكان الفتح بعد حصار عظيم جدا ، مدة ثلاثين يوما ، وكانت المنجنيقات تزيد على ثلاثين منجنيقا ، واستشهد من الأمراء شرف الدين بن الخطير ، وقدقتل من أهل البلد خلق كثير وغنم المسلمون منها شيئا كثيراً ، ثم عاد السلطان إلى دمشق وترك الشجاعى بقلعة الروم يعمرون ما وهى من قلعتها بسبب رمى المنجنيقات عليها وقت الحصار ، وكان دخوله إلى دمشق بكرة يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان ، فاحتفل الناس لدخوله ودعوا له وأحبوه ، وكان يوما مشهوداً بسط له كما يبسط له إذا قدم من الديار المصرية ، وإنما كان ذلك باشارة ابن السلعوس ، فهو أول من بسط له ، وقد كسر أبوه التتر على حمص ولم يبسط له ، وكذلك الملك الظاهر كسر التتر والروم على البلستين ، وفى غير موطن ولم يبسط له ، وهذه بدعة شنعاء قد أحدثها هذا الوزير للملوك ، وفيها إسراف وضياع مال وأشر وبطر ورياء وتكاليف للناس ، وأخذ أموال ووضعها فى غير مواضعها ، والله سبحانه سائله عنها ، وقد ذهب وتركها يتوارثها الملوك والناس عنه ، وقد حصل للناس بسبب ذلك ظلم عظيم ، فليتق العبد ربه ولا يحدث فى الاسلام بسبب هواه ومراد نفسه ما يكون سبب مقت الله له وإعراضه عنه ، فان الدنيا لاتدوم لأحد ، ولا يدوم أحد فيها والله سبحانه أعلم .

وكان ملك قلعة الروم مع السلطان أسيرا ، وكذلك رؤس أصحابه ، فدخل بهم دمشق وهم يحملون رؤس أصحابهم على رؤس الرماح ، وجهز السلطان طائفة من الجيش نحو جبل كسروان والجزر بسبب

مما لأنهم للفرنج قديما عـلى المسلمين ، وكان مقـدم العساكر بندار وفى صحبته سنقر الأشقر ، واقر سنقر المنصورى الذى كان نائب حلب فعزله عنها السلطان وولى مكانه سيف الدين بلبان البطاحى المنصورى ، وجماعة آخرون من الأمراء الكبار ، فلما أحاطوا بالجبل ولم يبق إلا دمار أهليه حملوا فى الليل إلى بندار حملا كثيراً ففتر فى قضيتهم ، ثم انصرف بالجيوش عنهم وعادوا إلى السلطان ، فتلقاهم السلطان وترجل السلطان إلى الأمير بندار وهو نائبه على مصر، ثم ابن السلعوس نبه السلطان على فعل بندار فلامه وعنفه ، فرض من ذلك مرضا شديدا أشفى به على الموت حتى قيل إنه مات ، ثم عوفى فعمل ختمة عظيمة بجامع دمشق حضرها القضاة والأعيـان ، وأشغل الجـامع نظير ليلة النصف من شعبان ، وكان ذلك ليلة العشر الأول من رمضان ، وأطلق السلطان أهل الحبوس وترك بقية الضمان عن أرباب الجهات السلطانية ، وتصدق عنه بشئ كثير ، ونزل هو عن ضمانات كثيرة كان قد حاف فيها على أربابها ، وقد امتدح الشهاب محمود الملك الأشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة هائلة فاضلة أولها :

لك الراية الصفراء يقدمها النصر * فمن كيقبادان رآهـا وكيخسرو
إذا خفقت فى الأفق هدت بنورها * هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وإن نشرت مثل الاصائيل فى الوغى * جلى النقع من لألاء طلعتها البدر
وإن يممت زرق العدى سار تحتها * كتائب خضر دوحها البيض والسمر
كأن مثـار النقع ليل وخفقهـا * بروق وأنت البدر والفلك الحتر
وفتـح أتى فى إثر فتح كأنما * سماء بدت تترى كواكبهـا الزهر
فكم فطمت طوعا وكرهـا معاقـلا * مضى الدهر عنهـا وهى عانسة بكر
بذلت لهـا عزما فلولا مهـابة * كساها الحيا جاءتك تسعى ولا مهر
قصـدت حمى من قلعة الروم لم يتح * لغيرك إذ غرتهم المغل فاغـتروا
ووالوهم سراً ليخفـوا أذاهم * وفى آخر الأمر استوى السر والجهر
صرفت إليهم همة لو صرفتهـا * إلى البحر لاستولى على مده الجزر
وما قلعة الروم التى حزت فتحها * وإن عظمت إلا إلى غيرها جسر
طليعـة ما يأتى من الفتح بعدهـا * كما لاح قبل الشمس فى الأفق الفجر
فصبحتهـا بالجيش كالروض بهجـة * صوارمه أنهـاره والقنـا الزهر
وأبعدت بل كالبحر والبيض موجه * وجرد المزاكى السفن والخوذ الذر
وأغربت بل كالليل عوج سيوفه * أهلته والنبل أنجمه الزهر

وحظات لابل كالنهار شموسه * محياك والآصال راياتك الصفر
ليوث من الاتراك آجامها القنا * لها كل يوم فى ذرى ظفر ظفر
فلا الريح يجرى بينهم لاشتباكها * عليهم ولا ينهل من فوقهم قطر
عيون إذا الحرب العوان تعرضت * لخطابها بالنفس لم يغلها مهر
ترى الموت معقوداً بهدب نبالهم * إذا ما رماها القوس والنظر الشزر
ففى كل سرح غصن بان مهفهف * وفى كل قوس مده ساعد بدر
إذا صدموا شم الجبال تزلزلت * وأصبح سهلا تحت خيلهم الوعر
ولو وردت ماء الفرات خيولهم * لقيل هنا قد كان فيما مضى نهر
أداروا بها سوراً فأضحت كخاتم * لدى خنصر أو تحت منطقه خصر
وأرخوا إليها من أكف بحارهم * سحاب ردى لم يخل من قطره قطر
كأن المجانيق التى قمن حولها * رواعد سخط وبلها النار والصخر
أقامت صلاة الحرب ليلا صخورها * فأكثرها شفع وأكبرها وتر
ودارت بها تلك النقوب فأسرفت * وليس عليها فى الذى فعلت حجر
فأضحت بها كالصب يخفى غرامه * حذار أعاديه وفى قلبه جمر
وشبت بها النيران حتى تمزقت * وباحت بما أخفته وانهتك الستر
فلاذوا بذيل العفو منك فلم تجب * رجاءهم لو لم يشب قصدهم مكر
وما كره المغل اشتغالك عنهم * بها عند ما فروا ولكنهم سروا
فأحرزتها بالسيف قهراً وهكذا * فتوحك فيما قد مضى كله قسر
وأضحت بحمد الله ثغراً ممنعاً * تبيد الليالى والعدى وهو مفتر
فيا أشرف الاملاك فزت بغزوة * تحصل منها الفتح والذكر والأجر
ليهنيك عند المصطفى أن دينه * توالى له فى يمن دولتك النصر
وبشراك أرضيت المسيح وأحمداً * وإن غضب اليعفور من ذاك والكفر
فسر حيث ما تختار فالأرض كلها * [تطيعك] والأمصار أجمعها مصر
ودم وابق للدنيا ليحيى بك الهدى * ويزهى على ماضى العصور بك العصر

حذفت منها أشياء كثيرة .

وفيها تولى خطابة دمشق الشيخ عز الدين أحمد الفاروثى الواسطى بعد وفاة زين الدين بن المرحل وخطب واستسقى بالناس فلم يسقوا ، ثم خطب مرة ثانية بعد ذلك بأيام عند مسجد القدم ، فلم يسقوا

ثم ابتهل النـاس من غير دعاية واستسقاية فسقوا ، ثم عزل الفاروثى بعد أيام بالخطيب موفق الدين أبى المعالى محمد بن محمد بن محمد بن عبد المنعم بن حسن المهرانى الحموى ، كان خطيب حماة ثم نقل إلى دمشق فى هذه السنة ، فقام وخطب وتألم الفاروثى لذلك ودخل على السلطان واعتقد أن الوزير عزله من غير علمه،فاذا هو قد شعر لذلك واعتذر بأنه إنما عزله لضعفه،فذكر له أنه يصلى ليلة النصف مائة ركعة بمائة قل هو الله أحد ، فلم يقبلوا واستمروا بالحموى . وهذه دناءة وقلة عقل وعدم إخلاص من الفاروثى ، وأصاب السلطان فى عزله .

وفى هذا اليوم قبض السلطان على الأمير سنقر الأشقر وغيره فهرب هو والامير حسام الدين لاجين السلحدارى ، فنادت عليه المنادية بدمشق: من أحضره فله ألف دينار ، ومن أخفاه شنق ، وركب السلطان ومماليكه فى طلبه ، وصلى الخطيب بالناس فى الميدان الأخضر ، وعلى الناس كآبة بسبب تفرق الكلمة ، واضطراب الجيش ، واختبط الناس ، فلما كان سادس شوال أمسكت العرب سنقر الأشقر فردوه على السلطان فأرسله مقيدا إلى مصر . وفى هذا اليوم ولى السلطان نيابة دمشق لعز الدين أيبك الحموى ، عوضا عن الشجاعى ، وقدم الشجاعى من الروم ثانى يوم عزله فتلقاه الفاروثى فقال : قد عزلنا من الخطابة ، فقال ونحن من النيابة، فقال الفاروثى (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) فلما بلغ ابن السلعوس تغضب عليـه وكان قد عين له القيمرية فترك ذلك ، وسافر السلطان عاشر شوال إلى مصر فدخلها فى أبهة الملك ، وفى يوم دخوله أقطع قرا سنقر مائة فارس بمصر عوضا عن نيابة حلب ، وفى هذه السنة اشترى الأمير سيف الدين طغاى الأشقرى قيسارية القطن المعروفة بانشاء الملك المعظم بن العـادل من بيت المـال ، بمرسوم من السلطان ، وكان حظيا عنده ، ونقل سوق الحرير بين تلك المـدة إليها ، وكان السلطان قد أفرج عن علم الدين الدويدارى بعد رجوعه من قلعة الروم واستحضره إلى دمشق وخلع عليه واستصحبه معه إلى القاهرة ، وأقطعه مائة فارس ، وولاه مشد الدواوين مكرها .

وفى ذى القعدة استحضر السلطان سنقر الأشقر وطقصوا فعاقبهما فاعترفا بأنهما أرادا قتـله ، فسألهما عن لاجين فقالا : لم يكن معنا ولا علم له بهذا ، فخنقهما وأطلقه بعد ما جعل الوتر فى حلقه ، وكان قد بقى له مدة لابد أن يبلغها ، وقد ملك بعد ذلك كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى ذى الحجة عقد الشيخ برهان الدين بن الشيخ تاج الدين عقده على بنت قاضى القضاة شهاب الدين الخويى بالبادرائية ، وكان حافلا. وفيها دخل الامير سنقر الاعسر على بنت الوزير شمس الدين بن السلعوس على صداق ألف دينار ، وعجل لها خمسمائة ، وفيها قفز جماعة من التتر نحواً من ثلثمائة إلى الديار المصرية فأكرموا .

ومن توفى فيها من الاعيان . ﴿ الخطيب زين الدين أبو حفص ﴾

عمر بن مكى بن عبد الصمد الشافعى المعروف بابن المرحل ، وهو والد الشيخ صدر الدين بن الوكيل ، سمع الحديث و برع فى الفقه و فى علوم شتى ، منها علم الهيئة وله فيه مصنف ، تولى خطابة دمشق ودرس وأفتى ، توفى ليلة السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول ، وصلى عليه من الغد بباب الخطابة .

﴿ الشيخ عز الدين الفاروثى ﴾

ولى الخطابة قليلا ثم عزل ثم مات ودفن بباب الصغير عفا الله عنا وعنه .

﴿ الصاحب فتح الدين أبو عبد الله ﴾

محمد بن محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر ، كاتب الأسرار فى الدولة المنصورية بعد ابن لقمان وكان ماهراً فى هذه الصناعة ، وحظى عند المنصور وكذا عند ابنه الأشرف ، وقد طلب منه ابن السلعوس أن يقرأ عليه كل ما يكتبه ، فقال : هذا لا يمكن فان أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم ، وابصروا لكم غيرى يكون معكم بهذه المثابة ، فلما بلغ ذلك الأشرف أعجبه منه وازدادت عنده منزلته ، توفى يوم السبت نصف رمضان ، وأخرجت فى تركته قصيدة قد رثا بها تاج الدين بن الأثير وكان قد شوش فاعتقد أنه يموت فهو فى فبقيت بعده ، وتولى ابن الأثير بعده ورثاه تاج الدين كما رثاه وتوفى ابن الأثير بعده بشهر وأربعة أيام .

﴿ يونس بن على بن رضوان بن برقش ﴾

الأمير عماد الدين ، كان أحد الأمراء بطبلخانة فى الدولة الناصرية ، ثم حمل و بطل الجندية بالكلية فى الدولة المظفرية وهلم جرا إلى هذه السنة ، وكان الظاهر يكرمه ، توفى فى شوال ودفن عند والده بتربة الخزيميين رحمهم الله .

﴿ جلال الدين الخبازى ﴾

عمر بن محمد بن عمر أبو محمد الخجندى أحد مشايخ الحنفية الكبار ، أصله من بلاد ما وراء النهر من بلد يقال لها خجندة ، واشتغل ودرس بخوارزم ، وأعاد ببغداد ، ثم قدم دمشق فدرس بالعزية والخاتونية البرانية ، وكان فاضلا بارعا منصفاً مصنفاً فى فنون كثيرة ، توفى لخمس بقين من ذى الحجة منها ، وله ثنتان وستون سنة ، ودفن بالصوفية .

﴿ الملك المظفر ﴾

قرا أرسلان الافريقى ، صاحب ماردين ، توفى وله ثمانون سنة وقام بعده ولده شمس الدين داود ولقب بالملك السعيد والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وستمائة ﴾

فى تاريخ ظهير الدين الكازرونى ظهرت نار بأرض المدينة النبوية فى هذه السنة نظير ما كان فى سنة أربع وخمسين على صفتها ، إلا أن هذه النار كان يعلو لهيبها كثيراً ، وكانت تحرق الصخر ولا تحرق السعف ، واستمرت ثلاثة أيام .

استهلت هذه السنة والخليفة الحاكم العباسى وسلطان البلاد الملك الأشرف بن المنصور ونائبه بمصر بدر الدين بيدرا (١) ، وبالشام عز الدين أيبك الحموى ، وقضاة مصر والشام هم الذين كانوا فى التى قبلها ، والوزير شمس الدين بن السلعوس . وفى جمادى الآخرة قدم الأشرف دمشق فنزل فى القصر الأبلق والميدان الأخضر ، وجهز الجيوش وتهيأ لغزو بلاد سيس ، وقدم فى غضون ذلك رسل صاحب بلاد سيس يطلبون الصلح ، فشفع الأمراء فيهم فسلموا بهسنا وتل حمدون . ومرعش ، وهى أكبر بلادهم وأحسنها وأحصنها ، وهى فى فم الدربند ، ثم ركب السلطان فى ثانى رجب نحو سلمية بأكثر الجيش صورة أنه يريد أن يصيب الأمير حسام الدين لاجين ، فأضافه الأمير مهنا بن عيسى ، فلما انقضت الضيافة أمسك له حسام الدين لاجين ، وكان عنده ، فجاء به فسجنه فى قلعة دمشق وأمسك مهنا بن عيسى وولى مكانه محمد بن على بن حذيفة، ثم أرسل السلطان جمهور الجيش بين يديه إلى الديار المصرية صحبة نائبه بيدرا ، ووزيره ابن السلعوس ، وتأخر هو فى خاصكيته ثم لحقهم .

وفى المحرم منها حكم القاضى حسام الدين الرازى الحنفى بالتشريك بين العلويين والجعفريين فى الدباغة التى كانوا يتنازعونها من مدة مائتى سنة ، وكان ذلك يوم الثلاثاء سادس عشرين المحرم ، بدار العدل ، ولم يوافقه ابن الخويى ولا غيره ، وحكم للاعناكيين بصحة نسبهم إلى جعفر الطيار . وفيها رسم الأشرف بتخريب قلعة الشوبك فهدمت ، وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وأنفعها ، وإنما خربها عن رأى عتبة العقبى ، ولم ينصح للسلطان فيها ولا للمسلمين ، لأنها كانت شجىً فى حلوق الأعراب الذين هناك . وفيها أرسل السلطان الأمير علم الدين الدويدارى إلى صاحب القسطنطينية وإلى أولاد بركة ومع الرسول تحفاً كثيرة جداً ، فلم يتفق خروجه حتى قتل السلطان فعاد إلى دمشق .

وفى عاشر جمادى الأولى درس القاضى إمام الدين القزوينى بالظاهرية البرانية . وحضر عنده القضاة والأعيان . وفى الثانى والعشرين من ذى الحجة يوم الاثنين طهر الملك الأشرف أخاه الملك الناصر محمد وابن أخيه الملك المعظم مظفر الدين موسى بن الصالح على بن المنصور ، وعمل مهم عظيم ولعب الاشرف بالقبق وتمت لهم فرحة هائلة ، كانت كالوداع لسلطنته من الدنيا . وفى أول

---

(١) فى شذرات الذهب : بندار .

المحرم درس الشيخ شمس الدين بن غانم بالعصرونيـة ، وفى مستهل صفر درس الشيخ كمال الدين ابن الزملـكانى بالرواحية عوضاً عن نجم الدين بن مكى بحكم انتقاله إلى حلب و إعراضه عن المدرسة المذكورة ، ودخـل الركب الشامى فى آخر صفر ، وكان ممن حج فى هذه السنة الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله ، وكان أميرهم الباسطى ونالهم فى معان ريح شديدة جداً مات بسببها جماعة ،وحملت الريح جمالا عن أماكنها ، وطارت العمائم عن الرؤس ، واشتغل كل أحد بنفسه . وفى صفر منها وقع بدمشق برد عظيم أفسد شـيئا كثيراً من المغلات بحيث بيع القمح كل عشرة أواق بدرهم ، ومات شىء كثير من الدواب ، وفيه زلزلت ناحية الـكرك وسقط من تلفيتا أماكن كثيرة .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الأرموى ﴾

الشيخ الصالح القدوة العارف أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ الصالح أبى محمد عبد الله بن يوسف ابن يونس بن إبراهيم بن سلمان الأرموى ، المقيم بزاويته بسفح قاسيون ، كان فيه عبادة وانقطاع وله أوراد وأذكار ، وكان محببا إلى الناس ، توفى بالمحرم ودفن عند والده بالسفح .

﴿ ابن الأعمى صاحب المقامة ﴾

الشيخ ظهير الدين محمـد بن المبارك بن سالم بن أبى الغنائم الدمشقى المعروف بابن الأعمى ، ولد سنة عشرة وستمائة ، وسمع الحديث وكان فاضلا بارعا ،له قصائد يمتدح بهـا رسول الله ﷺ ، سماها الشفعية ، عدد كل قصيدة اثنان وعشرون بيتا . قال البرزالى : سمعته وله المقامة البحرية المشهورة ، توفى فى المحرم ودفن بالصوفية . ﴿ الملك الزاهر مجير الدين ﴾

أبو سليمان داود بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ابن ناصر الدين محمد بن الملك المعظم ، توفى ببستانه عن ثمانين سنة ، وصلى عليه بالجامع المظفرى ، ودفن بتربته بالسفح ، وكان ديناً كثير الصلاة فى الجامع،وله إجازة من المؤيد الطوسى و زينب الشعرية وأبى روح وغيرهم. توفى فى جمادى الآخرة . ﴿ الشيخ تقى الدين الواسطى ﴾

أبو إسحاق إبراهيم بن على بن أحمـد بن فضل الواسطى ثم الدمشقى الحنبـلى ، شيخ الحديث بالظاهرية بدمشق ، توفى يوم الجمعة آخر النهار رابع عشرين جمادى الآخرة عن تسعين سنة، وكان رجلا صالحا عابدا ، تفرد بعـلو الرواية ، ولم يخلف بعده مثـله ، وقد تفقه ببغداد ثم رحل إلى الشام ودرس بالصالحية مدة عشرين سـنة ، و بمدرسة أبى عمر ، وولى فى آخر عمره مشيخة الحـديث بالظاهرية بعد سفر الفاروثى ، وكان داعية إلى مذهب السلف والصدر الأول ، وكان يعود المرضى و يشهد الجنائز و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر ، وكان من خيار عبـاد الله تعالى رحمه الله . وقد درس بعده بالصالحية الشيخ شمس الدين محمد بن عبد القوى المرداوى ، و بدار الحديث الظاهرية

شرف الدين عمر بن خواجا إمام الجامع المعروف بالناصح .

﴿ ابن صاحب حماة الملك الأفضل ﴾

نور الدين علي بن الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، توفي بدمشق وصلى عليه بجامعها ، وخرج به من باب الفراديس محمولا إلى مدينة أبيه وتربتهم بها ، وهو والد الأميرين الكبيرين بدر الدين حسن وعماد الدين إسماعيل الذى تملك حماة بعد مدة .

﴿ ابن عبد الظاهر ﴾

محيي الدين بن عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن على بن نجدة السعدى ، كاتب الانشاء بالديار المصرية ، وآخر من برز فى هذا الفن على أهل زمانه ، وسبق سائر أقرانه ، وهو والد الصاحب فتح الدين النديم ، وقد تقدم ذكر وفاته قبل والده ، وقد كانت له مصنفات منها سيرة الملك الظاهر ، وكان ذا مروءة ، وله النظم الفائق والنثر الرائق . توفى يوم الثلاثاء رابع رجب وقد جاوز السبعين ، ودفن بتربته التى أنشأها بالقرافة .

﴿ الأمير علم الدين سنجر الحلبي ﴾

الذى كان نائب قطز على دمشق فلما جاءته بيعة الظاهر دعا لنفسه فبويع وتسمى بالملك المجاهد ثم حوصر وهرب إلى بعلبك فحوصر فأجاب إلى خدمة الظاهر فسجنه مدة وأطلقه وسجنه المنصور مدة وأطلقه الأشرف ، واحترمه وأكرمه ، بلغ الثمانين سنة ، وتوفى فى هذه السنة .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وستمائة ﴾

فى أولها كان مقتل الأشرف ، وذلك أنه خرج إلى الصيد فى ثالث المحرم ، فلما كان بأرض بروجه بالقرب من الاسكندرية ثانى عشر المحرم ، حمل عليه جماعة من الأمراء الذين اتفقوا على قتله حين انفرد عن جمهور الجيش ، فأول من صوبه نائبه بيدرا ، وتمم عليه لاجين المنصورى ، ثم اختفى إلى رمضان ، ثم ظهر يوم العيد ، وكان ممن اشترك فى قتل الأشرف بدر الدين بيسرى وشمس الدين قراسنقر المنصورى ، فلما قتل الاشرف اتفق الامراء على تمليك بيدرا ، وسموه الملك القاهر أو الاوحد ، فلم يتم له ذلك ، فقتل فى اليوم الثانى بأمر كتبغا ، ثم اتفق زين الدين كتبغا ، وعلم الدين سنجر الشجاعى على أن يملكوا أخاه محمد الملك الناصر بن قلاوون ، وكان عمره إذ ذاك ثمان سنين وشهوراً ، فأجلسوه على سرير المملكة يوم الرابع عشر من المحرم ، وكان الوزير ابن السلعوس بالاسكندرية ، وكان قد خرج فى صحبة السلطان وتقدم هو إلى الاسكندرية فلم يشعر إلا وقد أحاط به البلاء ، وجاءه العذاب من كل ناحية ، وذلك أنه كان يعامل الأمراء الكبار معاملة

الصغار ، فأخذوه وتولى عقوبته من بينهم الشجاعى فضرب ضربا عظيما، وقرر على الاموال ولم يزالوا يعاقبونه حتى كانت وفاته فى عاشر صفر بعد أن احتيط على حواصله كلها . وأحضر جسد الأشرف فدفن بتربته ، وتألم النـاس لفقده وأعظموا قتله ، وقـد كان شهما شجاعا عالى الهمة حسن المنظر ، كان قد عزم عـلى غزو العراق واسترجاع تلك البلاد من أيدى التتار ، واستعد لذلك ونادى به فى بلاده ، وقد فتح فى مدة ملـكه ـ وكانت ثلاث سنين ـ عكا وسائر السواحل ، ولم يترك للفرنج فيها معلما ولا حجراً ، وفتح قلعة الروم وبهسنا وغيرها .

فلما جاءت بيعة الناصر إلى دمشق خطب له بها على المنابر ، واستقر الحال عـلى ذلك ، وجعل الامير كتبغا أتابكه ، والشجاعى مشاوراً كبيراً ، ثم قتل بعد أيام بقلعة الجبل ، وحمل رأسـه إلى كتبغا فأمر أن يطاف به فى البلد ، ففرح النـاس بذلك وأعطوا الذين حملوا رأسـه مالا ، ولم يبق لـكتبغا منازع ، ومع هذا كان يشاور الامراء تطييبا لقلوبهم .

وفى صفر بعد موت ابن السلعوس عزل بدر الدين بن جماعة عن القضاء وأعيد تقى الدين بن بنت الاعز واستمر ابن جماعة مدرسا بمصر فى كفاية ورياسة ، وتولى الوزارة بمصر الصاحب تاج الدين ابن الحنا ، وفى ظهر يوم الاربعاء الحادى والعشرين من صفر رتب إمام بمحراب الصحابة ، وهو كمال الدين عبـد الرحمن بن القاضى محيى الدين بن الزكى ، وصلى بعدئذ بعد الخطيب ، ورتب بالمـكتب الذى ببـاب الناطفانيين إمام أيضا ، وهو ضياء الدين بن برهـان الدين الاسكندرى ، وباشر نظر الجامع الشريف زين الدين حسين بن محمد بن عدنان، وعاد سوق الحريريين إلى سوقه، وأخلوا قيسارية القطن الذى كان نواب طغجى ألزموهم بسكناها ، وولى خطابة دمشق الشيخ العلامة شرف الدين أحمد بن جمال الدين أحمد بن نعمة بن أحمد المقدسى ، بعد عزل موفق الدين الحموى دعوه إلى حماة فخطب المقدسى يوم الجمعة نصف رجب ، وقرئ تقليده وكانت ولايته باشارة تاج الدين ابن الحنا الوزير بمصر ، وكان فصيحا بليغا عالما بارعا .

وفى أواخر رجب حلف الأمراء للامير زين الدين كتبغا مع الملك الناصر محمـد بن قلاوون وسارت البيعة بذلك فى سائر المدن والمعامل .

﴿ واقعة عساف النصرانى ﴾

كان هذا الرجل من أهل السويداء قد شهد عليـه جماعة أنه سب النبى ﷺ ، وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجى أمير آل على ، فاجتمع الشيخ تقى الدين بن تيمية ، والشيخ زين الدين الفارقى شيخ دار الحـديث ، فدخلا عـلى الامير عز الدين أيبـك الحموى نائب السلطنة فـكلماه فى أمره فأجابهما إلى ذلك ، وأرسل ليحضره فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس ،

فرأى الناس عساقا حين قدم ومعه رجل من العرب فسبوه وشتموه ، فقال ذلك الرجل البدوى : هو خير منكم - يعنى النصرانى - فرجمهما الناس بالحجارة ، وأصابت عساقا ووقعت خبطة قوية فأرسل النائب فطلب الشيخين ابن تيمية والفارقى فضربهما بين يديه ، ورسم عليهما فى العذراوية وقدم النصرانى فأسلم وعقد مجلس بسببه ، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة ، فحقن دمه ، ثم استدعى بالشيخين فأرضاهما وأطلقهما ، ولحق النصرانى بعد ذلك ببلاد الحجاز ، فاتفق قتله قريباً من مدينة رسول الله ﷺ ، قتله ابن أخيه هنالك ، وصنف الشيخ تقى الدين ابن تيمية فى هذه الواقعة كتابه الصارم المسلول على ساب الرسول .

وفى شعبان منها ركب الملك الناصر فى أبهة الملك وشق القاهرة ، وكان يوما مشهوداً ، وكان هذا أول ركوبه ، ودقت البشائر بالشام وجاء المرسوم من جهته ، فقرئ على المنبر بالجامع فيه الأمر بنشر العدل وطى الظلم ، وإبطال ضمان الاوقاف والأملاك إلا برضى أصحابها . وفى اليوم الثانى والعشرين من شعبان درس بالمسرورية القاضى جمال الدين القزوينى ، أخو إمام الدين ، وحضر أخوه وقاضى القضاة شهاب الدين الخويى ، والشيخ تقى الدين بن تيمية ، وكان درسا حافلا . قال البرزالى : وفى شعبان اشتهر أن فى الغيطة بجسرين تنينا عظيما ابتلع رأسا من المعز كبيراً صحيحاً .
وفى أواخر رمضان ظهر الأمير حسام الدين لاجين ، وكان مختفيا منذ قتل الاشرف فاعتذر له عند السلطان فقبله وخلع عليه وأكرمه ، ولم يكن قتله باختياره .

وفى شوال منها اشتهر أن مهنا بن عيسى خرج عن طاعة السلطان الناصر ، وانحاز إلى التتر .
وفى يوم الاربعاء ثامن ذى القعدة درس بالغزالية الخطيب شرف الدين المقدسى عوضا عن قاضى القضاة شهاب الدين ابن الخويى ، توفى وترك الشامية البرانية ، وقدم على قضاء الشام القاضى بدر الدين أحمد بن جماعة يوم الخميس الرابع عشر من ذى الحجة ، ونزل العادلية وخرج نائب السلطنة والجيش بكماله لتلقيه ، وامتدحه الشعراء ، واستناب تاج الدين الجعبرى نائب الخطابة وباشر تدريس الشامية البرانية ، عوضا عن شرف الدين المقدسى ، الشيخ زين الدين الفاروثى ، وانتزعت من يده الناصرية فدرس بها ابن جماعة ، وفى العادلية فى العشرين من ذى الحجة ، وفى هذا الشهر أخرجوا الكلاب من دمشق الى الفلاة بأمر واليها جمال الدين اقباى ، وشدد على الناس والبوابين بذلك . وممن توفى فيها من الاعيان

الملك الاشرف خليل بن قلاوون المنصور . وبيدرا والشجاعى ، وشمس الدين بن السلعوس ،

﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

تاج الدين موسى بن محمد بن مسعود المراغى ، المعروف بأبى الجواب الشافعى ، درس بالاقبالية

وغيرها وكان من فضلاء الشافعية ، له يد فى الفقه والاصول والنحو وفهم جيد ، توفى فجأة يوم السبت ، ودفن بمقابر باب الصغير ، وقد جاوز السبعين .

﴿ الخاتون مؤنس بنت السلطان العادل أبى بكر بن أيوب ﴾

وتعرف بدار القطبية ، و بدار إقبـال ، ولدت سنة ثلاث وستمائة ، و روت الاجازة عن عفيفة الفارقانية ، وعن عين الشمس بنت أحمد بن أبى الفرج الثقفية ، توفيت فى ربيع الآخر بالقاهرة ، ودفنت بباب زويلة .

﴿ الصاحب الوزير فخر الدين ﴾

أبو إسحاق إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد البنانى المصرى رأس الموقعين ، وأستاذ الوزراء المشهورين ، ولد سنة ثنتى عشرة وستمائة ، و روى الحديث ، توفى فى آخر جمادى الآخرة فى القاهرة

﴿ الملك الحافظ غياث الدين بن محمد ﴾

الملك السعيد معين الدين بن الملك الأمجد بهرام شاه بن المعز عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه ابن أيوب ، وكان فاضلا بارعاً ، سمع الحـديث و روى البخارى ، وكان يحب العلماء والفقراء ، توفى يوم الجمعة سادس شعبان ، ودفن عند جده لأمه ابن المقدم ، ظاهر باب الفراديس .

﴿ قاضى القضاة شهاب الدين بن الخويى ﴾

أبو عبد الله محمد بن قاضى القضاة شمس الدين أبى العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر ابن عيسى بن محمد الشافعى ، أصلهم من خوى ، اشتغل وحصل علوما كثيرة ، وصنف كتبا كثيرة منها كتاب فيه عشرون فناً ، وله نظم علوم الحديث وكفاية المتحفظ وغير ذلك ، وقد سمع الحديث الكثير ، وكان محبا له ولأهله ، وقد درس وهو صغير بالدماغية ، ثم ولى قضاء القدس ، ثم بهسنا ، ثم ولى قضاء حلب ، ثم عاد إلى المحلة ، ثم ولى قضاء القاهرة ، ثم قدم على قضاء الشام مع تدريس العادلية والغزالية وغيرهما ، وكان من حسنات الزمان وأكابر العلماء الأعلام ، عفيفاً نزهاً بارعا محبا للحديث وعلمه وعلمائه ، وقد خرج له شيخنا الحـافظ المزى أربعين حديثا متباينة الاسناد ، وخرج له تقى الدين ابن عتبة الأسودى الاسعردى مشيخة عـلى حروف المعجم ، اشتملت عـلى مائتين وستة وثلاثين شيخا . قال البرزالى : وله نحو ثلثمائة شيخ لم يذكروا فى هذا المعجم ، توفى يوم الخميس الخامس والعشرين من رمضان ، عن سبع وستين سنة ، وصلى عليه ودفن من يومه بتربة والده بسفح قاسيون رحمه الله تعالى .

﴿ الأمير علاء الدين الأعمى ﴾

ناظر القدس وبانى كثيراً من معالمه اليوم ، وهو الأمير الـكبير علاء الدين أيدكين بن عبدالله الصالحى النجمى ، كان من أكابر الامراء ، فلما أضر أقام بالقدس الشريف وولى نظره معمره ومثمره وكان مهيبا لا تخالف مراسيمه ، وهو الذى بنى المطهرة قريبا من مسجد النبى ﷺ ، فانتفع النـاس

بها بالوضوء وغيره ، ووجد بها الناس تيسيرا ، وابتنى بالقدس ربطا كثيرة ، وآثاراً حسنة ، وكان يباشر الامور بنفسه ، وله حرمة وافرة ، توفى فى شوال منها .

﴿ الوزير شمس الدين محمد بن عثمان ﴾

ابن أبى الرجال التنوخى ، المعروف بابن السلعوس ، وزير الملك الأشرف ، مات تحت الضرب الذى جاوز ألف مقرعة ، فى عاشر صفر من هذه السنة ، ودفن بالقرافة ، وقيل إنه نقل إلى الشام بعد ذلك . وكان ابتداء أمره تاجراً ، ثم ولى الحسبة بدمشق بسفارة تقى الدين بن توبة ، ثم كان يعامل الملك الأشرف قبل السلطنة فظهر منه على عدل وصدق ، فلما ملك بعد أبيه المنصور استدعاه من الحج فولاه الوزارة ، وكان يتعاظم على أكابر الامراء ويسميهم بأسمائهم ، ولا يقوم لهم ، فلما قتل أستاذه الأشرف تسلموه بالضرب والاهانة وأخذ الأموال ، حتى أعدموه حياته ، وصبروه وأسكنوه الثرى ، بعد أن كان عند نفسه قد بلغ الثريا ، ولـكن حقا على الله أنه مارفع شيئا إلا وضعه .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله وسلطان البلاد الملك الناصر محمد بن قلاوون وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وأشهراً ، ومدبر الممالك وأتابك العساكر الأمير زين الدين كتبغا ، ونائب الشام الأمير عز الدين أيبك الحموى ، والوزير بدمشق تقى الدين توبة التكريتى ، وشاد الدواوين شمس الدين الأعسر ، وقاضى الشافعية ابن جماعة ، والحنفية حسام الدين الرازى ، والمالكية جمال الدين الزواوى ، والحنابلة شرف الدين حسن ، والمحتسب شهاب الدين الحنفى ، ونقيب الأشراف زين الدين بن عدنان ، ووكيل بيت المال وناظر الجامع تاج الدين الشيرازى ، وخطيب البلد شرف الدين المقدسى .

فلما كان يوم عاشوراء نهض جماعة من مماليك الأشرف وخرقوا حرمة السلطان وأرادوا الخروج عليه ، وجاؤا إلى سوق السلاح فأخذوا ما فيه ، ثم احتيط عليهم ، فمنهم من صلب ومنهم من شنق ، وقطع أيدى آخرين منهم وألسنتهم ، وجرت خبطة عظيمة جداً ، وكانوا قريبا من ثلثمائة أو يزيدون .

﴿ ذكر سلطنة الملك العادل كتبغا ﴾

وأصبح الأمير كتبغا فى الحادى عشر من المحرم فجلس على سرير المملكة ، وخلع الملك الناصر محمد بن المنصور ، وألزمه بيت أهله ، وأن لا يخرج منه ، وبايعه الأمراء على ذلك ، وهنئوه ومد سماطا حافلا ، وسارت البريدية بذلك إلى الأقاليم ، فبويع له وخطب له مستقلا وضربت السكة باسمه ، وتم الأمر وزينت البلاد ، ودقت البشائر ، ولقب بالملك العادل ، وكان عمره إذ ذاك نحواً من خمسين سنة ، فانه من سبى وقعة حمص الأولى التى كانت فى أيام الملك الظاهر بعد وقعة عين

جالوت ، وكان من النو برانية ، وهم طائفة من التتر ، واستناب فى مصر الأمير حسام الدين لاجين السلحدارى المنصورى ، وكان بين يديه مدبر المماليك . وقد ذكر الجزرى فى تاريخه عن بعض الأمراء أنه شهد هولاكوخان قد سأل منجمه أن يستخرج له من هؤلاء المقدمين فى عسكره الذى يملك الديار المصرية ، فضرب وحسب وقال له : أجد رجلا يملكها اسمه كتبغا فظنه كتبغانوين ، وهو صهر هولاكو ، فقدمه على العساكر فلم يكن هو ، فقتل فى عين جالوت كما ذكرنا، وأن الذى ملك مصر هذا الرجل وهو من خيار الأمراء وأجودهم سيرة ومعدلة ، وقصدا فى نصرة الاسلام .

وفى يوم الأربعاء مستهل ربيع الأول ركب كتبغا فى أبهة الملك ، وشق القاهرة ودعا له الناس وعزل الصاحب تاج الدين بن الحنا عن الوزارة وولى فخر الدين بن الخليلى ، واستسقى الناس بدمشق عند مسجد القدم ، وخطب بهم تاج الدين صالح الجعبرى نيابة عن مستخلفه شرف الدين المقدسى ، وكان مريضا فعزل نفسه عن القضاء ، وخطب الناس بعد ذلك ، وذلك يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى ، فلم يسقوا ثم استسقوا مرة أخرى يوم السبت سابع جمادى الآخرة بالمكان المذكور ، وخطب بهم شرف الدين المقدسى ، وكان الجمع أكثر من أول ، فلم يسقوا . وفى رجب حكم جمال الدين ابن الشريشى نيابة عن القاضى بدر الدين بن جماعة ، وفيه درس بالمعظمية القاضى شمس الدين بن العز ، انتزعها من علاء الدين بن الدقاق . وفيه ولى القدس والخليل الملك الأوحد ابن الملك الناصر داود بن المعظم . وفى رمضان رسم للحنابلة أن يصلوا قبل الامام الكبير وذلك أنهم كانوا يصلون بعده فلما أحدث محراب الصحابة إمام كانوا يصلون جميعا فى وقت واحد ، فحصل تشويش بسبب ذلك ، فاستقرت القاعدة على أن يصلوا قبل الامام الكبير ، فى وقت صلاة مشهد على بالصحن عند محرابهم فى الرواق الثالث الغربى .

قلت : وقد تغيرت هذه القاعدة بعد العشرين وسبعمائة كما سيأتى .

وفى أواخر رمضان قدم القاضى نجم الدين بن صصرى من الديار المصرية على قضاء العساكر بالشام ، وفى ظهر يوم الخميس خامس شوال صلى القاضى بدر الدين بن جماعة بمحراب الجامع إماما وخطيبا عوضا عن الخطيب المدرس شرف الدين المقدسى ، ثم خطب من الغد وشكرت خطبته وقراءته ، وذلك مضاف إلى ما بيده من القضاء وغيره .

وفى أوائل شوال قدمت من الديار المصرية تواقيع شتى منها تدريس الغزالية لابن صصرى عوضا عن الخطيب المقدسى ، وتوقيع بتدريس الأمينية لامام الدين القزوينى عوضا عن نجم الدين ابن صصرى ، ورسم لأخيه جلال الدين بتدريس الظاهرية البرانية عوضا عنه . وفى شوال كملت عمارة الحمام الذى أنشأه عز الدين الحموى بمسجد القصب ، وهو من أحسن الحمامات ، وباشر مشيخة

دار الحديث النورية الشيخ علاء الدين بن العطار عوضا عن شرف الدين المقدسى . وحج فيها الملك المجاهد أنس بن الملك العادل كتبغا ، وتصدقوا بصدقات كثيرة فى الحرمين وغيرهما ونودى بدمشق فى يوم عرفة أن لا يركب أحد من أهل الذمة خيلا ولا بغالا ، ومن رأى من المسلمين أحداً من أهل الذمة قد خالف ذلك فله سلبه . وفى أواخر هذه السنة والتى تليها حصل بديارمصر غلاء شديد هلك بسببه خلق كثير ، هلك فى شهر ذى الحجة نحو من عشرين ألفا. وفيها ملك التتار قازان ابن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكزخان فأسلم وأظهر الاسلام على يد الامير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار أو أكثرهم فى الاسلام ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤس الناس يوم إسلامه ، وتسمى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة ، وخرب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السبح والهيا كل مع التتار والحمد لله وحده .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ الشيخ أبو الرجال المنينى ﴾

الشيخ الصالح الزاهد العابد أبو الرجال بن مرعى من بحتر المنين ، كانت له أحوال ومكاشفات وكان أهل دمشق والبلاد يزورونه فى قرية منين ، وربما قدم هو بنفسه إلى دمشق فيكرم ويضاف وكانت له زاوية ببلده ، وكان بريئا من هذه السماعات الشيطانية ، وكان تلميذ الشيخ جندل ، وكان شيخه الشيخ جندل من كبار الصالحين سالكا طريق السلف أيضاً ، وقد بلغ الشيخ أبو الرجال ثمانين سنة ، وتوفى بمنين فى منزله فى عاشر المحرم ، وخرج الناس من دمشق إلى جنازته فمنهم من أدركها ومن الناس من لم يدرك فصلى على القبر ودفن بزاويته رحمه الله .

وفيها فى أواخر ربيع الاول جاء الخبر بأن عساف بن أحمد بن حجى الذى كان قد أجار ذلك النصرانى الذى سب الرسول قتل ففرح الناس بذلك .

﴿ الشيخ الصالح العابد الزاهد الورع ﴾

بقية السلف جمال الدين أبو القاسم عبد الصمد بن الحرستانى بن قاضى القضاة ، وخطيب الخطباء ، عماد الدين عبد الكريم بن جمال الدين عبد الصمد ، سمع الحديث وناب عن أبيه فى الامامة وتدريس الغزالية ، ثم ترك المناصب والدنيا ، وأقبل على العبادة ، وللناس فيه اعتقاد حسن صالح ، يقبلون يده ويسألونه الدعاء ، وقد جاوز الثمانين ، ودفن بالسفح عند أهله فى أواخر ربيع الآخر . ﴿ الشيخ محب الدين الطبرى المكى ﴾

الشافعى ، سمع الكثير وصنف فى فنون كثيرة ، من ذلك كتاب الأحكام فى مجلدات كثيرة مفيدة ، وله كتاب على ترتيب جامع المسانيد أسمعه لصاحب اليمن ، وكان مولده يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الآخرة منها ، ودفن بمكة ، وله شعر جيد فمنه قصيدته فى المنازل التى بين

مكة والمدينة تزيد على ثلثمائة بيت ، كتبها عنه الحافظ شرف الدين الدمياطى فى معجمه .

﴿ الملك المظفر صاحب اليمن ﴾

يوسف بن المنصور نور الدين عمر بن علی بن رسول ، أقام فى مملكة اليمن بعد أبيه سبعاً وأربعين سنة ، وعمر ثمانين سنة ، وكان أبوه قد ولى أزيد من مدة عشرين سنة بعد الملك أقسيس ابن الكامل محمد ، وكان عمر بن رسول مقدم عساكر أقسيس ، فلما مات اقسيس وثب على الملك فتم له الأمر وتسمى بالملك المنصور ، واستمر أزيد من عشرين سنة ، ثم ابنه المظفر سبعا وأربعين سنة ، ثم قام من بعده فى الملك ولده الملك الأشرف ممهد الدين فلم يمكث سنة حتى مات ، ثم قام أخوه المؤيد عز الدين داود بن المظفر فاستمر فى الملك مدة ، وكانت وفاة الملك المظفر المذكور فى رجب من هذه السنة ، وقد جاوز الثمانين ، وكان يحب الحديث وسماعه ، وقد جمع لنفسه أربعين حديثا .

﴿ شرف الدين المقدسى ﴾

الشيخ الامام الخطيب المدرس المفتى ، شرف الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ كمال الدين أحمد بن نعمة بن أحمد بن جعفر بن حسين بن حماد المقدسى الشافعى ، ولد سنة ثنتين وعشرين وستمائة ، وسمع الكثير وكتب حسنا وصنف فأجاد وأفاد ، وولى القضاء نيابة بدمشق والتدريس والخطابة بدمشق ، وكان مدرس الغزالية ودار الحديث النورية مع الخطابة ، ودرس فى وقت بالشامية البرانية وأذن فى الافتاء لجماعة من الفضلاء منهم الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام أبو العباس بن تيمية ، وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول : أنا أذنت لابن تيمية بالافتاء ، وكان يتقن فنونا كثيرة من العلوم ، وله شعر حسن ، وصنف كتابا فى أصول الفقه جمع فيه شيئا كثيراً ، وهو عندى بخطه الحسن ، توفى يوم الاحد سابع عشر رمضان وقد جاوز السبعين ، ودفن بمقابر باب كيسان عند والده رحمه الله ورحم أباه . وقد خطب بعده يوم العيد الشيخ شرف الدين الفزارى خطيب جامع جراح ثم جاء المرسوم لابن جماعة بالخطابة . ومن شعر الخطيب شرف الدين بن المقدسى :

أحجج إلى الزهر لتسعى به * وارم جمار الهم مستنفرا
من لم يطف بالزهر فى وقته * من قبل أن يحلق قد قصرا

﴿ واقف الجوهرية الصدر نجم الدين ﴾

أبو بكر محمد بن عياش بن أبى المكارم التميمى الجوهرى ، واقف الجوهرية على الحنفية بدمشق توفى ليلة الثلاثاء تاسع عشر شوال ، ودفن بمدرسته وقد جاوز الثمانين ، وكانت له خدم على الملوك ، فمن دونهم .

﴿ الشيخ الامام العالم المفتى ﴾

الخطيب الطبيب ، مجد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن أبى الفتح بن سحنون التنوخى

الحنفى ، خطيب النيرب ومدرس الدماغية للحنفية ، وكان طبيباً ماهراً حاذقا ، توفى بالنيرب وصلى عليه بجامع الصالحية ، وكان فاضلا وله شعر حسن ، وروى شيئاً من الحديث ، توفى ليلة السبت خامس ذى القعدة عن خمس وسبعين سنة .

﴿ الفاروثى الشيخ الامام العابد الزاهد ﴾

الخطيب عز الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ محيى الدين إبراهيم بن عمر بن الفرج بن سابور ابن على بن غنيمة الفاروثى الواسطى ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة ، وسمع الحديث ورحل فيه ، وكانت له فيه يد جيدة ، وفى التفسير والفقه والوعظ والبلاغة ، وكان دينا ورعا زاهداً ، قدم إلى دمشق فى دولة الظاهر فأعطى تدريس الجاروضية وإمام مسجد ابن هشام ، ورتب له فيه شىء على المصالح ، وكان فيه إيثار وله أحوال صالحة ، ومكاشفات كثيرة ، تقدم يوما فى محراب ابن هشام ليصلى بالناس فقال ـ قبل أن يكبر للاحرام والتفت عن يمينه ـ فقال : اخرج فاغتسل ، فلم يخرج أحد ، ثم كرر ذلك ثانية وثالثة ، فلم يخرج أحد ، فقال : ياعثمان أخرج فاغتسل ، فخرج رجل من الصف فاغتسل ثم عاد وجاء إلى الشيخ يعتذر إليه ، وكان الرجل صالحا فى نفسه ، ذكر أنه أصابه فيض من غير أن يرى شخصا ، فاعتقد أنه لا يلزمه غسل ، فلما قال الشيخ ما قال اعتقد أنه يخاطب غيره ، فلما عينه باسمه علم أنه المراد . ثم قدم الفاروثى مرة أخرى فى أواخر أيام المنصور قلاوون فخطب بجامع دمشق مدة شهور ، ثم عزل بموفق الدين الحموى ، وتقدم ذكر ذلك ، وكان قد درس بالنجيبية وبدار الحديث الظاهرية ، فترك ذلك كله وسافر إلى وطنه ، فمات بكرة يوم الاربعاء مستهل ذى الحجة ، وكان يوم موته يوما مشهوداً بواسط ، وصلى عليه بدمشق وغيرها رحمه الله ، وكان قد لبس خرقة التصوف من السهروردى ، وقرأ القراءات العشرة وخلف ألفى مجلد ومائتى مجلدا ، وحدث بالكثير ، وسمع منه البرزالى كثيراً صحيح البخارى وجامع الترمذى وسنن ابن ماجه ، ومسند الشافعى ، ومسند عبد ابن حميد ، ومعجم الطبرانى الصغير ، ومسند الدارمى وفضائل القرآن لأبى عبيد ، وثمانين جزء وغير ذلك .

﴿ الجمال المحقق ﴾

أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقى ، اشتغل بالفقه على مذهب الشافعى ، وبرع فيه وأفتى وأعاد ، وكان فاضلا فى الطب ، وقد ولى مشيخة الدخوارية لتقدمه فى صناعة الطب على غيره ، وعاد المرضى بالمارستان النورى على قاعدة الأطباء ، وكان مدرسا للشافعية بالفرخشانية ، ومعيدا بعدة مدارس ، وكان جيد الذهن مشاركا فى فنون كثيرة سامحه الله .

﴿ الست خاتون بنت الملك الأشرف ﴾

موسى بن العادل زوجة ابن عمها المنصور بن الصالح إسماعيل بن العادل ، وهى التى أثبتت سفهها

زمن المنصور قلاوون حتى اشترى منها حزرما وأخذت الزنبقية من زين الدين السامرى .

﴿ الصدر جمال الدين ﴾

يوسف بن على بن مهاجر التكريتى أخو الصاحب تقى الدين توبة ، ولى حسبة دمشق فى وقت ودفن بتربة أخيه بالسفح ، وكانت جنازته حافلة ، وكان له عقل وافر وثروة ومروءة ، وخلف ثلاث بنين : شمس الدين محمد ، وعلاء الدين على ، وبدر الدين حسن .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وتسعين وستمائة ﴾

استهلت وخليفة الوقت الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسى ، وسلطان البلاد الملك العادل زين الدين كتبغا ، ونائبه بمصر الأمير حسام الدين لاجين السلحدارى المنصورى ، ووزيره فخر الدين بن الخليلى ، وقضاة مصر والشام هم المذكورون فى التى قبلها ، ونائب الشام عز الدين الحموى ، ووزيره تقى الدين توبة ، وشاد الدواوين الأعسر ، وخطيب البلد وقاضيها ابن جماعة . وفى المحرم ولى نظر الايتام برهان الدين بن هلال عوضا عن شرف الدين بن الشيرجى .

وفى مستهل هذه السنة كان الغلاء والفناء بديار مصر شديداً جداً ، وقد تفانى الناس إلا القليل ، وكانوا يحفرون الحفيرة فيدفنون فيها الفئام من الناس ، والأسعار فى غاية الغلاء ، والأقوات فى غاية القلة والغلاء ، والموت عمال ، فمات بها فى شهر صفر مائة ألف ونحو من ثلاثين ألفا ، ووقع غلاء بالشام فبلغت الغرارة إلى مائتين ، وقدمت طائفة من التتر العويرانية لما بلغهم سلطنة كتبغا إلى الشام لانه منهم ، فتلقاهم الجيش بالرحب والسعة ، ثم سافروا إلى الديار المصرية مع الأمير قراسنقر المنصورى ، وجاء الخبر باشتداد الغلاء والفناء بمصر حتى قيل إنه بيع الفروج بالاسكندرية بستة وثلاثين درهما ، وبالقاهرة بتسعة عشر ، والبيض كل ثلاثة بدرهم ، وأفنيت الحمر والخيل والبغال والكلاب من أكل الناس لها ، ولم يبق شىء من هذه الحيوانات يلوح إلا أكلوه .

وفى يوم السبت الثانى عشر من جمادى الأولى ولى قضاء القضاة بمصر الشيخ العلامة تقى الدين بن دقيق العيد عوضا عن تقى الدين بن بنت الأعز ، ثم وقع الرخص بالديار المصرية وزال الضر والجوع فى جمادى الآخرة ولله الحمد .

وفى يوم الأربعاء ثانى شهر رجب درس القاضى إمام الدين بالقيمرية عوضاً عن صدر الدين ابن رزين الذى توفى . قال البرزالى : وفيها وقعت صاعقة على قبة زمزم فقتلت الشيخ على بن محمد بن عبد السلام مؤذن المسجد الحرام ، كان يؤذن على سطح القبة المذكورة ، وكان قد روى شيئا من الحديث . وفيها قدمت امرأة الملك الظاهر أم سلامش من بلاد الاشكرى إلى دمشق فى أواخر رمضان فبعث إليها نائب البلد بالهدايا والتحف ورتبت لها الرواتب والاقامات ، وكان قد نفاهم خليل

ابن المنصور لما ولى السلطنة .

قال الجزرى : وفى رجب درس كمال الدين بن القلانسى عوضا عن جلال الدين القزوينى . وفى يوم الأربعاء سابع عشر شعبان درس الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام تقى الدين بن تيمية الحرانى بالمدرسة الحنبلية عوضاً عن الشيخ زين الدين بن المنجى توفى إلى رحمة الله ، ونزل ابن تيمية عن حلقة العماد بن المنجا لشمس الدين بن الفخر البعلبكى . وفى آخر شوال ناب القاضى جمال الدين الزرعى الذى كان حاكما بزرع ، وهو سليمان بن عمر بن سالم الأزرعى عن ابن جماعة بدمشق ، فشكرت سيرته . وفيها خرج السلطان كتبغا من مصر قاصدا الشام فى أواخر شوال ، ولما جاء البريد بذلك ضربت البشائر بالقلعة ، ونزلوا بالقلعة السلطان ونائبه لاجين ووزيره ابن الخليلى . وفى يوم الأحد سادس عشر ذى القعدة ولى قضاء الحنابلة الشيخ تقى الدين سليمان بن حمزة المقدسى عوضا عن شرف الدين مات رحمه الله ، وخلع عليه وعلى بقية الحكام وأرباب الولايات الكبار وأكابر الامراء ، وولى نجم الدين بن أبى الطيب وكالة بيت المال عوضا عن ابن الشيرازى وخلع عليه مع الجماعة ، ورسم على الأعسر وجماعة من أصحابه وخلق من الكتبة والولاة وصودروا بمال كثير ، واحتيط على أموالهم وحواصلهم ، وعلى بنت ابن السلعوس وابن عدنان وخلق ، وجرت خبطة عظيمة ، وقدم ابنا الشيخ على الحريرى حسن وشيث من بسر لزيارة السلطان فحصل لهما منه رفد وإسعاف وعادا إلى بلادهما ، وضيفت القلندرية السلطان بسفح جبل المزة ، فأعطاه نحوا من عشرة آلاف ، وقدم صاحب حماة إلى خدمة السلطان ولعب معه الكرة بالميدان ، واشتكت الاشراف من نقيبهم زين الدين بن عدنان ، فرفع الصاحب يده عنهم وجعل أمرهم إلى القاضى الشافعى ، فلما كان يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى القعدة صلى السلطان الملك العادل كتبغا بمقصورة الخطابة ، وعن يمينه صاحب حماة ، وتحته بدر الدين أمير سلاح ، وعن يساره أولاد الحريرى حسن وأخواه ، وتحتهم نائب المملكة حسام الدين لاجين ، وإلى جانبه نائب الشام عز الدين الحموى ، وتحته بدر الدين بيسرى ، وتحته قرا سنقر وإلى جانبه الحاج بهادر ، وخلفهم أمراء كبار ، وخلع على الخطيب بدر الدين بن جماعة خلعة سنية . ولما قضيت الصلاة سلم على السلطان وزار السلطان المصحف العثمانى . ثم أصبح يوم السبت فلعب الكرة بالميدان .

وفى يوم الاثنين ثانى ذى الحجة عزل الأمير عز الدين الحموى عن نيابة الشام وعاتبه السلطان عتابا كثيرا على أشياء صدرت منه ، ثم عفا عنه وأمره بالمسير معه إلى مصر ، واستناب بالشام الامير سيف الدين غرلو العادلى ، وخلع على المولى وعلى المعزول ، وحضر السلطان دار العدل وحضر عنده الوزير والقضاة والأمراء ، وكان عادلا كما سمى ، ثم سافر السلطان فى ثانى عشر ذى الحجة نحو بلاد

حلب فاجتاز على حرستا، ثم أقام بالبرية أياما ثم، عاد فنزل حمص، وجاء إليه نواب البلاد وجلس الأمير غرلو نائب دمشق بدار العدل فحكم وعدل، وكان محمود السيرة سديد الحكم رحمه الله تعالى.

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ زين الدين بن منجى ﴾

الامام العالم العلامة مفتى المسلمين، الصدر الكامل، زين الدين أبو البركات بن المنجى بن الصدر عز الدين أبى عمر عثمان بن أسعد بن المنجى بن بركات بن المتوكل التنوخى، شيخ الحنابلة وعالمهم، ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث وتفقه، فبرع فى فنون من العلم كثيرة من الاصول والفروع والعربية والتفسير وغير ذلك، وانتهت إليه رياسة المذهب، وصنف فى الاصول، وشرح المقنع، وله تعاليق فى التفسير، وكان قد جمع له بين حسن السمت والديانة والعلم والوجاهة وصحة الذهن والعقيدة والمناظرة وكثرة الصدقة، ولم يزل يواظب على الجامع للاشتغال متبرعا حتى توفى فى يوم الخميس رابع شعبان، وتوفيت معه زوجته أم محمد ست البها بنت صدر الدين الخجندى، وصلى عليهما بعد الجمعة بجامع دمشق، وحملا جميعا إلى سفح قاسيون شمالى الجامع المظفرى تحت الروضة فدفنا فى تربة واحدة رحمهما الله تعالى. وهو والد قاضى القضاة علاء الدين، وكان شيخ المسمارية ثم وليها بعده ولداه شرف الدين وعلاء الدين، وكان شيخ الحنبلية فدرس بها بعده الشيخ تقى الدين بن تيمية كما ذكرنا ذلك فى الحوادث.

﴿ المسعودى صاحب الحمام بالمزة ﴾

أحد كبار الأمراء، هو الأمير الكبير بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله المسعودى، أحد الأمراء المشهورين بخدمة الملوك، توفى ببستانه بالمزة يوم السبت سابع عشرين شعبان، ودفن صبح يوم الأحد بتربته بالمزة، وحضر نائب السلطنة جنازته، وعمل عزاؤه تحت النسر بجامع دمشق.

﴿ الشيخ الخالدى ﴾

هو الشيخ الصالح إسرائيل بن على بن حسين الخالدى، له زاوية خارج باب السلامة، كان يقصد فيها للزيارة، وكان مشتملا على عبادة وزهادة، وكان لا يقوم لأحد، ولو كان من كان، وعنده سكون وخشوع ومعرفة بالطريق، وكان لا يخرج من منزله إلا إلى الجمعة، حتى كانت وفاته بنصف رمضان ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.

﴿ الشرف حسين المقدسى (١) ﴾

هو قاضى القضاة شرف الدين أبو الفضل الحسين ابن الامام الخطيب شرف الدين أبى بكر عبد الله ابن الشيخ أبى عمر المقدسى، سمع الحديث وتفقه وبرع فى الفروع واللغة، وفيه أدب وحسن محاضرة، مليح الشكل، تولى القضاء بعد نجم الدين بن الشيخ شمس الدين فى أواخر سنة سبع

(١) فى شذرات الذهب: حسن المقدسى.

وثمانين ، ودرس بدار الحديث الأشرفية بالسفح ، توفى ليـلة الخميس الثانى والعشرين من شوال ، وقد قارب الستين ، ودفن من الغد بمقبرة جـده بالسفح ، وحضر نائب السلطنة والقضاة والأعيان جنازته ، وعمل من الغـد عزاؤه بالجامع المظفرى ، وباشر القضاء بعـده تقى الدين سليمان بن حمزة ، وكذا مشيخة دار الحديث الأشرفية بالسفح ، وقد وليهـا شرف الدين الغابر الحنبلى النابلسى مدة شهور ، ثم صرف عنها واستقرت بيد التقى سليمان المقدسى .

﴿ الشيخ الامام العالم الناسك ﴾

أبو محمد بن أبى حمزة المغربى المالـكى ، توفى بالديار المصرية فى ذى القعدة ، وكان قوالا بالحق ، أماراً بالمعروف ونهاءا عن المنـكر .

﴿ الصاحب محيي الدين بن النحاس ﴾

أبو عبد الله محمد بن بدر الدين يعقوب بن إبراهيم بن عبد الله بن طارق بن سالم بن النحاس الأسدى الحلبى الحنفى ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة بحلب ، واشتغل وبرع وسمع الحـديث وأقام بدمشق مدة ، ودرس بها بمدارس كبار ، منها الظاهرية والزنجانيـة ، وولى القضاء بحلب والوزارة بدمشق ، ونظر الخزانة ونظر الدواوين والأوقاف ، ولم يزل مكرما معظما معروفا بالفضيلة والانصاف فى المناظرة ، محبا للحديث وأهله على طريقة السلف ، وكان يحب الشيخ عبد القادر وطائفته ، توفى ببستانه بالمزة عشية الاثنين سلخ ذى الحجة ، وقـد جاوز الثمانين ، ودفن يوم الثلاثاء مستهل سنة ست وتسعين بمقبرة له بالمزة ، وحضر جنازته نائب السلطنة والقضاة .

﴿ قاضى القضاة ﴾

تقى الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن قاضى القضاة تاج الدين أبى محمد عبد الوهاب بن القاضى الاعز أبى القاسم خلف بن بدر العلائى الشافعى ، توفى فى جمادى الأولى ودفن بالقرافة بتربتهم .

﴿ ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة والسلطان ونائب مصر ونائب الشام والقضاة هم المـذكورون فى التى قبلها والسلطان الملك العادل كتبغا فى نواحى حمص يتصيد ، ومعـه نائب مصر لاجين وأكابر الامراء ، ونائب الشام بدمشق وهو الامير سيف الدين غرلو العادلى . فلما كان يوم الاربعاء ثانى المحرم دخل السلطان كتبغا إلى دمشق وصلى الجمعة بالمقصورة وزار قـبر هود وصلى عنـده ، وأخـذ من الناس قصصهم بيده ، وجلس بدار العدل فى يوم السبت ووقع على القصص هو ووزيره فخر الدين الخليلى . وفى هـذا الشهر حضر شهاب الدين بن محيي الدين بن النحاس فى مدرستى أبيه الزنجانية والظاهرية وحضر الناس عنده ، ثم حضر السلطان دار العدل يوم الثلاثاء وجاء يوم الجمعة فصلى الجمعة بالمقصورة

ثم صعد فى هذا اليوم إلى مغارة الدم لزيارتها ، ودعا هنالك وتصدق بجملة من المال ، وحضر الوزير الخليلى ليلة الأحد ثالث عشر المحرم إلى الجامع بعد العشاء فجلس عند شباك الكاملية وقرأ القراؤن بين يديه ، ورسم بأن يكمل داخل الجامع بالفرش ففعلوا ذلك ، واستمر ذلك نحواً من شهرين ثم عاد إلى ما كان عليه .

وفى صبيحة هذا اليوم درس القاضى شمس الدين بن الحريرى بالقيمازية عوضاً عن ابن النحاس باتفاق بينهم ، وحضر عنده جماعة ، ثم صلى السلطان الجمعة الأخرى بالمقصورة ومعه وزيره ابن الخليلى وهو ضعيف من مرض أصابه ، وفى سابع عشر المحرم أمر للملك الكامل بن الملك السعيد ابن الصالح إسماعيل بن العادل بطبلخانة ولبس الشربوش ، ودخل القلعة ودقت له الكوسات على بابه ، ثم خرج السلطان العادل كتبغا بالعساكر من دمشق بكرة الثلاثاء ثانى عشرين المحرم ، وخرج بعده الوزير فاجتاز بدار الحديث ، وزار الأثر النبوى ، وخرج إليه الشيخ زين الدين الفارقى وشافهه بتدريس الناصرية ، وترك زين الدين تدريس الشامية البرانية فوليها القاضى كمال الدين بن الشريشى ، وذكر أن الوزير أعطى الشيخ شيئا من حطام الدنيا فقبله ، وكذلك أعطى خادم الأثر وهو المعين خطاب . وخرج الاعيان والقضاة مع الوزير لتوديعه . ووقع فى هذا اليوم مطر جيد استشفى الناس به وغسل آثار العساكر من الأوساخ وغيرها ، وعاد التقى توبة من توديع الوزير وقد فوض إليه نظر الخزانة وعزل عنها شهاب الدين بن النحاس ، ودرس الشيخ ناصر الدين بالناصرية الجوانية عوضا عن القاضى بدر الدين بن جماعة فى يوم الاربعاء آخر يوم من المحرم .

وفى هذا اليوم تحدث الناس فيما بينهم بوقوع تخبيط بين العساكر ، وخلف وتشويش ، فغلق باب القلعة الذى يلى المدينة ، ودخل الصاحب شهاب الدين إليها من ناحية الخوخة ، وتهيأ النائب والأمراء وركب طائفة من الجيش على باب النصر وقوفا ، فلما كان وقت العصر وصل السلطان الملك العادل كتبغا إلى القلعة فى خمسة أنفس أو ستة من مماليكه ، فدخل القلعة فجاء إليه الأمراء وأحضر ابن جماعة وحسام الدين الحنفى ، وجددوا الحلف للأمراء ثانية فحلفوا ، وخلع عليهم ، وأمر بالاحتياط على نواب الأمير حسام الدين لاجين وحواصله ، وأقام العادل بالقلعة هذه الأيام ، وكان الخلف الذى وقع بينهم بوادى فحمة يوم الاثنين التاسع والعشرين من المحرم ، وذلك أن الامير حسام الدين لاجين كان قد واطأ جماعة من الأمراء فى الباطن على العادل ، وتوثق منهم ، وأشار على العادل حين خرجوا من دمشق أن يستصحب معه الخزانة ، وذلك لئلا يبقى بدمشق شئ من المال يتقوى به العادل إن فاتهم ورجع إلى دمشق ، ويكون قوة له هو فى الطريق على ما عزم عليه من الغدر ، فلما كانوا بالمكان المذكور قتل لاجين الامير سيف الدين بيحاص وبكتوت الازرق العادليين ، وأخذ

الخزانة من بين يديه والعسكر ، وقصدوا الديار المصرية ، فلما سمع العادل بذلك خرج فى الدهليز وساق جريدة إلى دمشق فدخلها كما ذكرنا ، وتراجع إليه بعض مماليكه كزين الدين غلبك وغيره ، ولزم شهاب الدين الحنفى القلعة لتدبير المملكة ، ودرس ابن الشريشى بالشامية البرانية بكرة يوم الخميس مستهل صفر ، وتقلبت أمور كثيرة فى هذه الايام ، ولزم السلطان القلعة لا يخرج منها ، وأطلق كثيراً من المكوس ، وكتب بذلك تواقيع وقرئت على الناس ، وغلا السعر جداً فبلغت الغرارة مائتين ، واشتد الحال وتفاقم الأمر ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

﴿ ذكر سلطنة الملك المنصور لاجين السلحدارى ﴾

وذلك أنه لما استاق الخزانة وذهب بالجيوش إلى الديار المصرية دخلها فى أبهة عظيمة ، وقد اتفق معه جمهور الأمراء الكبار وبايعوه وملكوه عليهم ، وجلس على سرير الملك يوم الجمعة عاشر صفر ، ودقت بمصر البشائر ، وزينت البلد ، وخطب له على المنابر ، وبالقدس والخليل ، ولقب بالملك المنصور ، وكذلك دقت له البشائر بالكرك ونابلس وصفد ، وذهبت إليه طائفة من أمراء دمشق ، وقدمت التجريدة من جهة الرحبة صحبة الأمير سيف الدين كجكن فلم يدخلوا البلد بل نزلوا بميدان الحصن ، وأظهروا مخالفة العادل وطاعة المنصور لاجين صاحب مصر ، وركب إليه الامراء طائفة بعد طائفة ، وفوجا بعد فوج ، فضعف أمر العادل جداً ، فلما رأى انحلال أمره قال للامراء : هو خشداشى وأنا وهو شىء واحد ، وأنا سامع له مطيع ، وأنا أجلس فى أى مكان من القلعة أراد ، حتى تكاتبوه وتنظروا مايقول . وجاءت البريدية بالمكاتبات بالأمر بالاحتياط على القلعة وعلى العادل و بقى الناس فى هرج وأقوال ذات ألوان مختلفة ، وأبواب القلعة مغلقة ، وأبواب البلد سوى باب النصر إلا الخوخة ، والعامة حول القلعة قدازدحموا حتى سقطت طائفة منهم بالخندق فمات بعضهم ، وأمسى الناس عشية السبت وقد أعلن باسم الملك المنصور لاجين ، ودقت البشائر بذلك بعد العصر ودعا له المؤذنون فى سحر ليلة الأحد بجامع دمشق ، وتلوا قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) الآية .

وأصبح الناس يوم الأحد فاجتمع القضاة والأمراء وفيهم غرلو العادلى بدار السعادة فحلفوا للمنصور لاجين ، ونودى بذلك فى البلد ، وأن يفتح الناس دكاكينهم ، واختفى الصاحب شهاب الدين وأخوه زين الدين المحتسب ، فعمل الوالى ابن النشابى حسبة البلد ، ثم ظهر زين الدين فباشرها على عادته . وكذلك ظهر أخوه شهاب الدين ، وسافر نائب البلد غرلو والأمير جاغان إلى الديار المصرية يعلمان السلطان بوقوع التحليف على ما رسم به ، وجاء كتاب السلطان أنه جلس على السرير يوم الجمعة عاشر صفر ، وشق القاهرة فى سادس عشره فى أبهة المملكة ، وعليه الخلعة الخليفية

والأمراء بين يديه ، وأنه قد استناب بمصر الأمير سيف الدين سنقر المنصورى ، وخطب للمنصور لاجين بدمشق أول يوم ربيع الأول ، وحضر المقصورة القضاة وشمس الدين الاعسر وكجكن ، واستدمر و جماعة من أمراء دمشق ، وتوجه القاضى إمام الدين القزوينى وحسام الدين الحنفى وجمال الدين المالكى إلى الديار المصرية مطلوبين ، وقدم الأمير حسام الدين أستاذ دار السلطان،وسيف الدين جاغان من جهة السلطان فحلفوا الأمراء ثانية ودخلوا على العادل القلعة ومعهم القاضى بدر الدين ابن جماعة وكجكن فحلفوه أيمانا مؤكدة بعدما طال بينهم الكلام بالتركى ، وذكروا بالتركى فى مبايعته أنه راض من البلدان أى بلد كان ، فوقع التعيين بعد اليمين على قلعة صرخد ، وجاءت المراسيم بالوزارة لتقى الدين توبة ، وعزل شهاب الدين الحنفى ، وبالحسبة لأمين الدين يوسف الأرمنى الرومى صاحب شمس الدين الايكى ، عوضا عن زين الدين الحنفى ، ودخل الأمير سيف الدين قبجق المنصورى على نيابة الشام إلى دمشق بكرة السبت السادس عشر من ربيع الأول ، ونزل دار السعادة عوضاً عن سيف الدين غرلو العادلى ، وقد خرج الجيش بكماله لتلقيه ، وحضر يوم الجمعة إلى المقصورة فصلى بها وقرأ بعد الجمعة كتاب سلطانى حسامى بابطال الضمانات من الأوقاف والأملاك بغير رضى أصحابها ، قرأه القاضى محيى الدين بن فضل الله صاحب ديوان الانشاء ، ونودى فى البلد من له مظلمة فليأت يوم الثلاثاء إلى دار العدل ، وخلع على الامراء والمقدمين وأرباب المناصب من القضاة والكتبة ، وخلع على ابن جماعة خلعتين واحدة للقضاء والأخرى للخطابة .

ولما كان فى شهر جمادى الآخرة وصل البريد فأخبر بولاية إمام الدين القزوينى القضاء بالشام عوضاً عن بدر الدين بن جماعة ، وإبقاء ابن جماعة على الخطابة ، وتدريس القيمرية التى كانت بيد إمام الدين ، وجاء كتاب السلطان بذلك وفيه احترام وإكرام له ، فدرس بالقيمرية يوم الخميس ثانى رجب ، ودخل إمام الدين إلى دمشق عقيب صلاة الظهر يوم الأربعاء الثامن من رجب فجلس بالعادلية وحكم بين الناس وامتدحه الشعراء بقصائد ، منها قصيدة لبعضهم يقول فى أولها :

تبدلت الأيام من بعد عسرها يسرا * فأضحت ثغور الشام تفتر بالبشرى

وكان حال دخوله عليه خلعة السلطان ومعه القاضى جمال الدين الزواوى ، قاضى قضاة المالكية وعليه خلعة أيضاً ، وقد شكر سيرة إمام الدين فى السفر ، وذكر من حسن أخلاقه ورياضته ما هو حسن جميل ، ودرس بالعادلية بكرة الاربعاء منتصف رجب ، وأشهد عليه بعد الدرس بولاية أخيه جلال الدين نيابة الحكم ، وجلس فى الديوان الصغير وعليه الخلعة ، وجاء الناس يهنئونه وقرئ تقليده يوم الجمعة بالشباك الكمالى بعد الصلاة بحضرة نائب السلطنة وبقية القضاة ، قرأه شرف الدين الفزارى . وفى شعبان وصل الخبر بأن شمس الدين الاعسر تولى بالديار المصرية شد الدواوين

والوزارة ، وباشر المنصبين جميعاً ، و باشر نظر الدواوين بدمشق فخر الدين بن السيرجي عوضا عن زين الدين بن صصرى ، ثم عزل بعد قليل بشهر أوأقل بأمين الدين بن هلال ، وأعيدت الشامية البرانية إلى الشيخ زين الدين الفارقي مع الناصرية بسبب غيبة كمال الدين بن الشريشي بالقاهرة .

وفي الرابع عشر من ذي القعدة أمسك الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب الديار المصرية لاجين هو وجماعة من الامراء معه ، واحتيط على حواصلهم وأموالهم بمصر والشام ، وولى السلطان نيابة مصر للأمير سيف الدين منكو تمر الحسامي ، وهؤلاء الامراء الذين مسكهم هم الذين كانوا قد أعانوه و بايعوه على العادل كتبغا ، وقدم الشيخ كمال الدين الشريشي ومعه توقيع بتدريس الناصرية عوضا عن الشامية البرانية ، وأمسك الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وزير مصر وشاد الدواوين يوم السبت الثالث والعشرين من ذي الحجة ، واحتيط على أمواله وحواصله بمصر والشام . ونودي بمصر في ذي الحجة أن لا يركب أحد من أهل الذمة فرسا ولا بغلا ، ومن وجد منهم راكبا ذلك أخذ منه . وفيها ملك اليمن السلطان الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك المظفر المتقدم ذكره في التي قبلها . وممن توفي فيها من الاعيان

﴿ قاضي قضاة الحنابلة بمصر ﴾

عز الدين عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسي الحنبلي ، سمع الحديث وبرع في المذهب وحكم بمصر ، وكان مشكورا في سيرته وحكمه ، توفي في صفر ودفن بالمقطم ، وتولى بعده شرف الدين عبد الغني بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر الحراني بديار مصر .

﴿ الشيخ الامام الحافظ القدوة ﴾

عفيف الدين أبو محمد عبد السلام بن محمد بن مزروع بن أحمد بن عزاز المصري الحنبلي ، توفي بالمدينة النبوية في أواخر صفر ، ولد سنة خمس وعشرين وستمائة ، وسمع الحديث الكثير ، وجاور بالمدينة النبوية خمسين سنة ، وحج فيها أربعين حجة متوالية ، وصلى عليه بدمشق صلاة الغائب رحمه الله .

﴿ الشيخ شيث بن الشيخ على الحريري ﴾

توفي بقرية بسر من حوران يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر وتوجه أخوه حسن والفقراء من دمشق إلى هناك لتعزية أخيهم حسن الأكبر فيه .

﴿ الشيخ الصالح المقرى ﴾

جمال الدين عبد الواحد بن كثير بن ضرغام المصري ، ثم الدمشقي ، نقيب السبع الكبير والغزالية ، كان قد قرأ على السخاوي وسمع الحديث ، توفي في أواخر رجب وصلى عليه

بالجامع الاموى ودفن بالقرب من قبة الشيخ رسلان .

﴿ واقف السامرية ﴾

الصدر الكبير سيف الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن على بن جعفر البغدادى السامرى واقف السامرية التى إلى جانب الكروسية بدمشق ، وكانت داره التى يسكن بها ، ودفن بها ووقفها دار حديث وخانقاه ، وكان قد انتقل إلى دمشق وأقام بها بهذه الدار مدة ، وكانت قديماً تعرف بدار ابن قوام ، بناها من حجارة منحوتة كلها ، وكان السامرى كثير الأموال حسن الأخلاق معظما عند الدولة ، جميل المعاشرة ، له أشعار رائقة ومبتكرات فائقة ، توفى يوم الاثنين ثامن عشر شعبان ، وقد كان ببغداد له حظوة عند الوزير ابن العلقمى ، وامتدح المعتصم وخلع عليه خلعة سوداء سنية ، ثم قدم دمشق فى أيام الناصر صاحب حلب فحظى عنده أيضا فسعى فيه أهل الدولة فصنف فيهم أرجوزة فتح عليهم بسببها بابا فصادرهم الملك بمشرين ألف دينار ، فمظموه جداً وتوسلوا به إلى أغراضهم ، وله قصيدة فى مدح النبى ﷺ ، وقد كتب عنه الحافظ الدمياطى شيئاً من شعره .

﴿ واقف النفيسية التى بالرصيف ﴾

الرئيس نفيس الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن عبد الواحد بن إسماعيل بن سلام بن على ابن صدقة الحرانى ، كان أحد شهود القيمة بدمشق ، وولى نظر الأيتام فى وقت ، وكان ذا ثروة من المال ، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وسمع الحديث ووقف داره دار حديث ، توفى يوم السبت بعد الظهر الرابع من ذى القعدة ، ودفن بسفح قاسيون بكرة يوم الأحد بعد ماصلى عليه بالاموى .

﴿ الشيخ أبو الحسن المعروف بالساروب الدمشقى ﴾

يلقب بنجم الدين ، ترجمه الحريرى فأطنب ، وذكر له كرامات وأشياء فى علم الحروف وغيرها والله أعلم بحاله .

وفيها قتل قازان الامير نوروز الذى كان إسلامه على يديه ، كان نوروز هذا هو الذى استسلمه ودعاه للاسلام فأسلم وأسلم معه أكثر التتر ، فان التتر شوشوا خاطر قازان عليه واستمالوه منه وعنه ، فلم يزل به حتى قتله وقتل جميع من ينسب إليه ، وكان نوروز هذا من خيار أمراء التتر عند قازان وكان ذا عبادة وصدق فى إسلامه وأذكاره وتطوعاته ، وقصده الجيد رحمه الله وعفا عنه ، ولقد أسلم على يديه منهم خلق كثير لا يعلمهم إلا الله ، واتخذوا السبح والهياكل وحضروا الجمع والجماعات وقرأوا القرآن والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وتسعين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم والسلطان لاجين ونائب مصر منكوتمر ونائب دمشق قبجق . وفى عاشر صفر تولى جلال الدين بن حسام الدين القضاء مكان أبيه بدمشق ، وطلب أبوه إلى مصر فأقام

عنـد السلطان و ولاه قضاء قضاة مصر للحنفية عوضاً عن شمس الدين السروجى ، واستقر ولده بدمشق قاضى قضاة الحنفية ، ودرس بمدرستى أبيـه الخاتونية والمقدمية ، وترك مدرسـة القصاعين والشبلية وجاء الخبر على يدى البريد بعافية السلطان من الوقعة التى كان وقعها فدقت البشائر وزينت البلد ، فانه سقط عن فرسه وهو يلعب بالـكرة ، فـكان كما قال الشاعر :

حويت بطشاً و إحسانا ومعرفة ✻ وليس يحمل هذا كله الفرس

وجاء على يديه تقليد وخلعة لنائب السلطنة ، فقرأ التقليد و باس العتبة . و فى ربيع الأول درس بالجوزية عز الدين ابن قاضى القضاة تقى الدين سليمان وحضر عنـده إمام الدين الشافعى وأخوه جلال الدين وجماعة من الفضلاء ، و بعد التدريس جلس وحكم عن أبيه باذنه فى ذلك .

و فى ربيع الاول غضب قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد وترك الحـكم بمصر أياما ، ثم استرضى وعاد وشرطوا عليه أن لا يستنيب ولده المحب ، و فى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر أقيمت الجمعة بالمدرسة المعظمية وخطب فيها مدرسـها القاضى شمس الدين بن المعز الحنفى ، واشتهر فى هذا الحين القبض على بدر الدين بيسرى واحتيط على أمواله بديار مصر ، وأرسل السلطان بجريدة صحبة علم الدين الدويدارى إلى تل حمدون ففتحه بحمد الله ومنه ، وجاء الخبر بذلك إلى دمشق فى الثانى عشر من رمضان ، وخربت به الخليلية وأذن بها الظهر ، وكان أخذها يوم الاربعاء سابع رمضان ، ثم فتحت مرعش بعدها فدقت البشائر ، ثم انتقل الجيش الى قلعة حموص فأصيب جماعة من الجيش منهم الامير عـلم الدين سنجر طقصبا أصابه زيار فى فخذه ، وأصاب الامير علم الدين الدويدارى حجر فى رجله .

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر شوال عمل الشيخ تقى الدين بن تيمية ميعادا فى الجهاد وحرض فيه و بالغ فى أجور المجاهدين ، وكان ميعاداً حافلا جليلا .

و فى هذا الشهر عاد الملك المسعود بن خضر بن الظاهر من بلاد الاشكرى إلى ديار مصر بعد أن مكث هناك من زمن الأشرف بن المنصور ، وتلقاه السلطان بالموكب وأكرمـه وعظمه . وحج الامير خضر بن الظاهر فى هذه السنة مع المصريين وكان فيهم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى . وفى شهر شوال جلس المدرسون بالمدرسة التى أنشأها نائب السلطنة بمصر وهى المنكوتمرية داخل باب القنطرة . وفيها دقت البشائر لاجل أخذ قلعتى حميمص ونجم من بلاد سيس .

وفيها وصلت الجريدة من بلاد مصر قاصـدين بلاد سيس مـدداً لأصحابهم ، وهى نحو ثلاثة آلاف مقـاتل ، وفى منتصف ذى الحجة أمسك الامـير عز الدين أيبك الحموى الذى كان نائب الشام هو وجماعة من أهله وأصحابه من الامراء . وفيها قلت المياه بدمشق جـداً حتى بقى ثورا فى

بعض الأماكن لا يصل إلى ركبة الانسان ،وأما بردى فانه لم يبق فيه مسكة ماء ولا يصل إلى جسر حسرين ، وغلا سعر الثلج بالبلد . وأما نيل مصر فانه كان فى غاية الزيادة والكثرة

وممن توفى فيها من الأعيان . ﴿ الشيخ حسن بن الشيخ على الحريرى ﴾

فى ربيع الأول بقرية بسر ، وكان من كبار الطائفة ، وللناس إليه ميل لحسن أخلاقه وجودة معاشرته ، ولد سنة إحدى وعشرين وستمائة .

﴿ الصدر الكبير شهاب الدين ﴾

أبو العباس أحمد بن عثمان بن أبى الرجا بن أبى الزهر التنوخى المعروف بابن السلعوس ، أخو الوزير ، قرأ الحديث وسمع الكثير ، وكان من خيار عباد الله ، كثير الصدقة والبر ، توفى بداره فى جمادى الأولى ، وصلى عليه بالجامع ودفن بباب الصغير ، وعمل عزاؤه بمسجد ابن هشام ، وقد ولى فى وقت نظر الجامع وشكرت سيرته ، وحصل له وجاهة عظيمة عريضة أيام وزارة أخيه ، ثم عاد إلى ما كان عليه قبل ذلك حتى توفى ، وشهد جنازته خلق كثير من الناس .

﴿ الشيخ شمس الدين الايكى ﴾

محمد بن أبى بكر بن محمد الفارسى ، المعروف بالايكى ، أحد الفضلاء الحلالين للمشكلات ، الميسرين المعضلات ، لاسيما فى علم الأصلين والمنطق ، وعلم الاوائل ، باشر فى وقت مشيخة الشيوخ بمصر ، وأقام مدرس الغزالية قبل ذلك ، توفى بقرية المزة يوم جمعة ، ودفن يوم السبت ومشى الناس فى جنازته ، منهم قاضى القضاة إمام الدين القزوينى ، وذلك فى الرابع من رمضان ودفن بمقابر الصوفية إلى جانب الشيخ شملة وعمل عزاؤه بخانقاه السميساطية ، وحضر جنازته خلق كثير ، وكان معظما فى نفوس كثير من العلماء وغيرهم

﴿ الصدر ابن عقبة ﴾

إبراهيم بن أحمد بن عقبة بن هبة الله بن عطاء البصراوى ، درس وأعاد ، وولى فى وقت قضاء حلب ، ثم سافر قبل وفاته إلى مصر فجاء بتوقيع فيه قضاء قضاة حلب ، فلما اجتاز بدمشق توفى بها فى رمضان من هذه السنة ، وله سبع وثمانون سنة . يشيب المرء ويشب معه خصلتان الحرص وطول الامل

﴿ الشهاب العابر ﴾

أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة المقدسى الحنبلى شهاب الدين عابر الرؤيا ، سمع الكثير وروى الحديث . وكان محببا فى تفسير المنامات ، وله فيه اليد الطولى ، وله تصنيف فيه ليس كالذى يؤثر عنه من الغرائب والعجائب ، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة ، توفى فى ذى القعدة ودفن بباب الصغير وكانت جنازته حافلة رحمه الله .

تم الجزء الثالث عشر من البداية والنهاية . ويليه الجزء الرابع عشر . وأوله سنة ثمان وتسعين وستمائة

فهرست الجزء الثالث عشر من البداية والنهاية

﴿ تم الفهرس ﴾